منطقة الخليج العربي

بيئاتها وشعراؤها في الجاهلية

تأليف

الدكتور/ محمد عثمان الملا

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الملا ، محمد عثمان
منطقة الخليج العربي بيئاتها وشعراؤها في الجاهلية. / محمد
عثمان الملا. — الدمام ، ١٤٢٨هـ

..ص ، .. سم

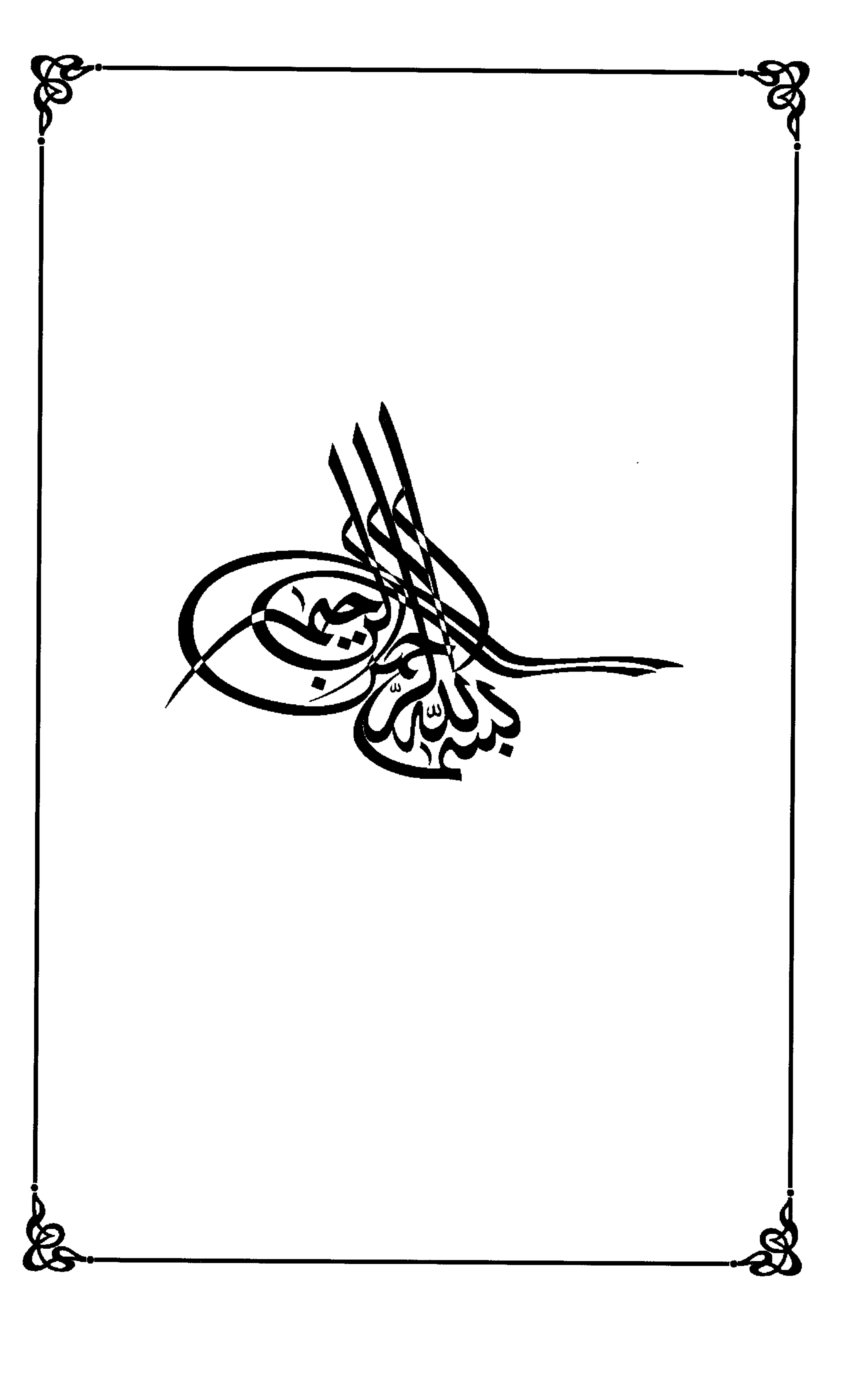
ردمك: ٧-١٩٢-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

١ - الشعر العربي — دول الخليج العربي ٢- الشعراء الخليجيون
٣ — الخليج العربي — تاريخ أ.العنوان

ديوي ٩٢٨,١٥٣٠٠١ ١٤٢٨/٤٦٦٤

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٦٦٤
ردمك: ٧-١٩٢-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى أهل الخليج العربي ومحبيه

أهدي هذا الكتاب محبة ووفاء

المحتـــوى

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الفصل الرابع: البيئة الاقتصادية

الفصل الخامس: البيئة الدينية

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثاني: الفخر والحماسة

الفصل الثالث: العتاب والهجاء

الفصل الرابع: التحريض والتهديد

الموضـــوع الصفحة

الفصل الخامس: المديح والشكر

الفصل السادس: الشكوى والرثاء

الفصل السابع: الحكمة والتأملات

الموضـــوع | الصفحة

الباب الثالث: الدراسة الفنية لشعر الخليج الجاهلي

الفصل الأول: لغة الشعر وبناؤه الفني

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثاني: التصوير الفني

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثالث: الموسيقى



المقدمـــة

هذا كتـاب يتناول منطقـة الخليج العربي في الجـاهلية، ويسلـط الضوء على شعرائها في العصر الجاهلي، مطبقاً المنهج التحليلي والوصفي في دراسة شعـرهم، وإبراز خصائصه الموضـوعية والفنيـة. وقد دفعني إلى تأليفـه عدم وجود كـتاب شـامل لدراسة شعـر هذه المنطقة القـديم، وشعـرائها الأوائل، وحاجة أبنائها الـبررة إلى معرفة آبائهم الأقدمين من أهل الفـصاحة والحكمة والأدب والرأي والشجاعة والإقـدام والكرم والنجدة. وأهم ما أعلمه مما ألف في شعر الخليج الجاهلي مجتمعا رسالتان أكاديميتان نال بهما صاحباهما درجة الماجـستـير في الأدب العـربي القديم من جـامعـة القاهرة، أولاهمـا بعنوان (شعراء البحرين في العصرالجاهلي) لاسـماعيل العالم والثانية بعنوان (شعراء عبد القـيس في العصر الجاهلي) لعبـد الحميد المعينـي، وهاتان الرسالتان لم تتناولا إلا شطرا من شعر منطقة الخليج في الجاهلية وفاتهما الكثير من ذلك، وهما مشكوران على مـا بذلاه من جهد وما سبقا إليـه من عطاء، ومعذوران على ما فاتهمـا لعدم توفر المرا جع اللازمة عند تأليفهـما لهاتين الأطروحتين القيمـتين اللتين كان تأليف الأولى منهما عام ١٩٧٤م والثـانية عام ١٩٧٦م، ومن واجب الشكر أشير إلى أنني مـدين في معرفة العديد من شـعراء المنطقة القدامى للمعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية[١]، هذا المعجم الذي أوقفني على الكثير من مـواضع الخليج ومنازله وقراه ومدنه، كما أنني مـدين إلى الشعراء الجاهليين أنفسهم الذين سجلوا في شعرهم الكثير من المنازل والديار من أمثال

---

(١) (البحرين قديماً) للشيخ حمد الجاسر.

سلامه بن جندل السعدي وأوس بن حجر الأسيدي، والحارث بن حلزه اليشكري وربيعة بن مقروم الضبي، وراشد اليشكري وغيرهم، وإلى جانب إفادتي من المعاجم الجغرافية واللغوية والدواوين والمختارات الشعرية، فقد أفدت من كتب التاريخ والتراجم والسير، وكتب الأدب وأيام العرب وكتب الأنساب والقبائل وغيرها.

وقد بنيت خطة هذا الكتاب على ثلاثة أبواب: الباب الأول: بيئة الخليج الجاهلية والثاني: موضوعات شعر الخليج الجاهلي والثالث: خصائص شعر الخليج الجاهلي.

وجاء الباب الأول في خمسة فصول : الأول : البيئة الطبيعية والثاني البيئة الإجتماعية، والثالث البيئة السياسية، والرابع البيئة الاقتصادية، والخامس البيئة الدينية.

أما الباب الثاني فقد جاء في سبعة فصول الأول شعر الطبيعة والنسيب، والثاني شعر الفخر والحماسة، والثالث شعر العتاب والهجاء، والرابع شعر التحريض والتهديد، والخامس شعر المديح والشكر، والسادس شعر الشكوي والرثاء والسابع شعر الحكمة والتأملات .

وأما الباب الثالث والأخير فقد كان في ثلاثة فصول : الأول لغة الشعر وبناؤه الفني، و الثاني التصوير الفني، والثالث الموسيقي، ثم أنهيت الكتاب بخاتمة لخصت فيها الخطوط العريضة والنتائج البارزة.

ولا يفوتني الإشارة إلى استفادتي من دراسات المعاصرين، وأخص بالذكر منها كتاب (شعر بني عامر من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي) للدكتور عبد الرحمن الوصيفي. وبالله التوفيق.

المؤلف

الباب الأول
بيئات الخليج الجاهلية

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول: البيئة الطبيعية

الفصل الثاني: البيئة الاجتماعية

الفصل الثالث: البيئة السياسية

الفصل الرابع: البيئة الاقتصادية

الفصل الخامس: البيئة الدينية

الفصل الأول
البيئة الطبيعية

أ- البيئة المكانية

ب- البيئة الزمانية

أ- البيئة المكانية

تسمية الخليج

لعل من أوائل التسميات التي أطلقت على الخليج العربي وأقدمها اسم البحر السفلي أو الجنوبي أو شروق الشمس أو البحر المر، ثم الخليج الفارسي. وقد أطلق عليه (هيرودتس) بطريق الخطأ العكسي اسم البحر الأحمر وسمى البحر الأحمر بالخليج العربي عند حديثه عن انتقال الفينيقيين منه إلى سواحل سوريا[١] وقد ورد اسم البحر الأسفل في القرن السادس قبل الميلاد وفي نقش يدعى فيه الملك الكلداني (نبوخذ نصر الثاني) سيطرته على الخليج، كما ذكر باسم البحر الأدنى في القرن الخامس قبل الميلاد عندما كان الخليج تحت نفوذ الملك الفارسي قورش الكبير[٢]، ثم أطلق (الإسكندر المقدوني) عليه اسم الخليج الفارسي لأنه لم يعرف إلا الجزء الشرقي منه المتصل بإيران[٣] وقد نبه إلى خطأ هذه التسمية المؤرخ الروماني (بليني) في القرن الأول الميلادي فسماه الخليج العربي، لأن المراكز الكبرى حول هذا الخليج في أيدي قبائل عربية، وقد شاعت تسمية الإسكندر على ألسنة الجغرافيين المسلمين، لأنهم لم يعتنوا إلا بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية في العصر العباسي، ولكنهم لم يكونوا على قناعة بذلك فأسموه خليج البحرين أو عمان،[٤] وكانوا يسمون الشاطيء الممتد من البصرة إلى عمان باسم الخط أو باسم خط عبد القيس أو ساحل هجر، وأطلق عليه العثمانيون

---

(١) آثار الخليج والجزيرة العربية ٤٧.

(٢) منطقة الخليج ٣٥.

(٣) الخليج في العصور الإسلامية ٢٣.

(٤) التجارة والملاحة في الخليج العربي ٨٠.

خليج البصرة، كما أسماه سكان الاحساء بخليج القطيف(١)، وربما أطلق عليه العروض مضافاً إليه اليمامة التي تداخلت مع نجد(٢) وقد سمي المسعودي الخليج العربي بالبحر الحبشي(٣). كما سماه بعضهم الخليج الأخضر والبحرالأخضر(٤) ولكن التسمية الغالبة المؤيدة من الباحثين المحايدين هي (الخليج العربي) وقد أكد هذه الحقيقة القدماء والمعاصرون، ومنهم المستشرق الدنمركي المعاصر (نيبور) حيث بين أن الساحل الشرقي من بلاد فارس تسكنه قبائل عربية قبل فتوحات الخلفاء، وأن هذا الساحل كان ملكا للعرب(٥) كما أكد هذه التسمية المؤرخ الإنجليزي المعاصر (درووديك أوبن) الذي يروي أنه اعتقد في البداية بأنه خليج فارس، لأنه لم ير على الخرائط الجغرافية سوى هذا الاسم، ولكنه حين أيقن الحقيقة سماه (الخليج العربي)(٦) ومن المعاصرين العرب من يسمي هذا الخليج (الخليج الإسلامي)(٧) ويرى صاحب كتاب (الخليج العربي في العصور الإسلامية) أنه يتساوى عنده أن يطلق عليه الخليج العربي أو الخليج الإسلامي(٨) وحيث أن الشعر الذي تتناوله الدراسة يقتصر على العصر الجاهلي، فسيان عندي تسمية الخليج، بالخليج العربي أو خليج البحرين أو خليج هجر، لوجود هذه

---

(١) الخليج العربي ٧ ومعجم الشرقية للجاسر ٤/ ١٨٣٠.

(٢) التاريخ العربي وجغرافته ٢٣٧.

(٣) التجارة والملاحة في الخليج العربي ٢٧.

(٤) مقدمة ابن خلدون ٧٩ والبحرين لشاكر ٥٠.

(٥) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٢٥.

(٦) نفسه.

(٧) أمين مدني: التاريخ العربي وجغرافيته ٢٣٦.

(٨) د. محمد العقيلي ٢٧.

الأسماء في عصور ما قبل الإسلام واعتبار كل منها مرادنا للآخر في بعض الأحيان.

موقع الخليج وحدوده.

يمتد الخليج العربي على شكل ذراع بحري في جنوبي غربي آسيه، يحده من الشرق الساحل الإيراني الذي تقطنه قبائل عربية وإيرانية، ومن الغرب شبه الجزيرة العربية حتى مضيق هرمز، ثم ينفتح على خليج عمان جنوبا، وأما من الشمال فيحده سواد العراق أو منطقة بلاد الرافدين(١). أما أبعاده الحقيقية فلا تزيد على تسعمائه كيلا طولا، وعرض أقصى أجزائه اتساعا أربعة وثلاثون وثلثمائه كيلا وأما أقل أجزائه اتساعا فهي عند مضيق هرمز إذ لا يتجاوز خمسة كلم، وهو يقع بين دائرتي عرض ٢٠ و ٥٧ شرقاً(٢) وينقسم الخليج ثلاثة أقسام جغرافياً.

١- المنطقة الشرقية: وتتكون هذه المنطقة من ساحل ضيق، تليه سلاسل جبال عالية تتجه إلى جبال زاغروس، وهي على شكل متوازيات، تأخذ في الإرتفاع كلما اتجهنا شمالا، والسواحل الشرقية محدودة التضاريس(٣).

٢- المنطقة الغربية: يحدها من الغرب شبه الجزيرة العربية، ويقع على ساحلها الجزء الشرقي من السعودية والكويت والبحرين وقطر والإمارات المتحدة وعمان، وتتميز بأن جبالها قليلة الإرتفاع، ومنها جبل شمر والجبل الأخضر، وساحلها كثير التعاريج والشعب المرجانية، وفي غربه توجد عدة

---

(١) الخليج العربي ٢٦.

(٢) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٢٢.

(٣) نفسه.

جزر، أبرزها جزر البحرين والكويت، التي تكثر فيها مصايد اللؤلؤ والسمك[١].

٣- المنطقة الشمالية : وتقع جنوب العراق، سهولها رسوبية غنية بالثروة المائية، تنتشر بها واحات النخيل، وتكثر بها المستنقعات الناجمة عن فيضان دجلة والفرات، وهي منطقة خصبة تربى فيها قطعان الماشية لوفرة الكلأ والأعشاب فيها ولاسيما ضفاف شط العرب، والسهول الساحلية في هذه المنطقة ضيقة نوعا ما، وتمتد من جنوب العراق إلى جنوب الأهوار المعروفة بعربستان[٢].

ويتوسع قدامى الجغرافيين المسلمين في تحديد الخليج من ناحيته الغربية، ففي إطار تسميتهم له بالبحرين، يقول أمين مدني: ويقصدون بالبحرين هجر التي تمتد من جنوب العراق إلى أقصى اليمن[٣]. ولعل أول القائلين بهذا التحديد صاحب كتاب (الأعلاق النفيسة) الذي يرى أن الساحل الغربي للخليج يمتد بحيث يطوف بجنوب بلاد العرب وينتهي عند خليج عدن[٤]، يقول سليمان العسكر عند كلامه عن منافذ الخليج البرية على التجارة الشرقية. فضلا عن ربط الخليج أيضا ببلاد اليمن عن طريق الملاحة بإزاء الساحل الجنوبي لبلاد العرب، وهذه الظاهرة هي التي جعلت الجغرافيين المسلمين يعتبرون الخليج العربي تنتهي حدوده غرباً عند غب عدن، وهو الخليج الذي يمثل حلقة الاتصال بالمصدر الثاني من مصادر التجارة الشرقية[٥].

---

(١) المصدر السابق، ٢٢.

(٢) الخليج العربي ٢٦.

(٣) التاريخ العربي وجغرافيته ٢٣٧ - يقول مدني: يعنون بأقصى اليمن أقصى (عمان) فالعربي عندما يقف في أي مكان من الجزيرة يسمى الشمال شاما، ويسمى الجنوب يمنا (نفسه ٢٣٦).

(٤) ابن رسته ص ٨٧، ٨٨، ليدن ١٨٩١.

(٥) التجارة والملاحة في الخليج العربي ١٨.

وحول الخليج العربي، وهو ما يسميه بعضهم بالعروض يقول: مدني والعروض الذي يتكلم عنه القدامى من المؤرخين يمثل الساحل الشرقي لجزيرة العرب المترامي على الخليجين الإسلامي والعماني، والدول التي تطل على الخليجين هي الكويت والسعودية وقطر والإمارات المتحدة وعمان وجزر البحرين. فحدود العروض يحدها من الشمال العراق ومن الجنوب على قول بعضهم عمان وعلى قول الآخرين البحر العربي، وشرقا الخليجان الإسلامي والعماني، ومن الغرب نجد[(١)] ويذكر قدري قلعجي تسمية ياقوت الحموي للخليج بالخط، ثم يعدد البلدان والمدن التي يشملها، كالكويت وقطر ومدائن الأحساء الساحلية وهي القطيف والجبيل والدمام والخبر ومينائي أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القوين ورأس الخيمة والفجيرة، ثم يقول : وقد كان العرب يضمون إلى هذا الخط بقية مدن هجر الداخلية وجزائر الخليج العربية، ويطلقون على الخليج اسم البحرين، ويعتبرونها منطقة مستقلة من مناطق الجزيرة العربية الخمس. الحجاز ونجد واليمن وعمان والبحرين، وما زالت هذه المنطقة متميزة منذ القديم بلهجاتها وعاداتها وتقاليدها، ثم استقلت باسم البحرين في العصور الأخيرة جزيرة أوال؛ وهي أرخبيل يضم خمس جزر عاصمتها المنامة وهي التي كانت تعرف باسم أوال[(٢)].

ويذكر الهمذاني أن هجر أعظم مدن البحرين[(٣)] على حين يرى المقدسي أن هجر اسم للبحرين، والإحساء قصبتها،[(٤)] ويرجح د محمد

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ٢٣٦.

(٢) الخليج العربي ١٠.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص١ ، ٢٤٥.

(٤) أحسن التقاسيم ٩٣.

العقيلي هذا الرأي[١]. وقد مر بنا في الأسطر الماضية الرأي الذي يجعل هجر تمتد من جنوب العراق إلى أقصى اليمن، مما يعني أنهم يجعلون هجرا اسما مرادفا للخليج العربي في أوسع مداه، وبخاصة من ناحيته الغربية التي تطل على ضفافه أقاليم الخليج ودوله العربية.

مما سبق يتضح أن سكان الساحل العربي للخليج عرب، والجزء الغربي منه جزء لا يتجزأ من الجزيرة العربية، وأما الجزء الشرقي فبشهادة المؤرخين القدامى والمحدثين فإن قسما من سكانه عرب لوجود الشبه بين عادات ألا يشتوفاجيين القدماء وعادات العرب، إلى جانب تحدث هؤلاء السكان باللسان العربي، وحفاظهم على العادات والتقاليد العربية، كما أن الظروف المناخية متشابهة بين الساحل الشرقي من الخليج وبين البيئة العربية على الساحل الغربي[٢].

ب- البيئة الزمانية.

معنى الجاهلية:

للأدباء والدارسين عدة أقوال في تفسير معنى الجاهلية، تتقارب في الكثير منها، وتختلف في بعضها. فالدكتور شوقي ضيف يرى أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على العصر الجاهلي ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز، وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم، ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث

---

(١) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٢٩.

(٢) تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية ٢٦، والخليج العربي ١٠.

الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى[١] ويفسر د يحيى الجيوري الجاهلية تفسيراً دينياً وأخلاقياً: فالكلمة حين أطلقت في أول الأمر أريد بها الدلالة على شيوع عبادة الأوثان بينهم فلاشك أن من العرب من كان يركع لصنم وينحر لنصب، ومنهم من عبد كوكبا أو اعتنق المجوسية والصائبة دينا، أو كانوا من أصحاب الدهر، وقد أشار القرآن الكريم في عدة مواطن إلى ذلك، ويذهب معنى الجاهلية من جهة أخرى غير الدين إلى تلك الحالة الخلقية التي كانت حاضرة في نفوس العرب، والأعراب منهم بصورة خاصة، جماعها الغلو في تقدير الأمور والإسراف وسرعة الغضب، فقد كان من العرب من يسرف في الكرم حتى يغدو تبذيرا، ويغلو في الشجاعة حتى تعود حماقة، ويجاوز معنى النجدة إلى الظلم، فالكلمة إذن تنصرف إلى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم، وليس ضد العلم[٢] أما صاحبا الحياة الأدبية في عصري الجاهلية والإسلام، فيذكران أن لفظ الجاهلية حدث في الإسلام كما يقول ابن خالويه، وأن هذا المصطلح الإسلامي، يشمل الجهل الذي هو ضد العلم، وضد الحلم أيضاً، وأنه أصبح علماً على العصر الذي كان في شبه الجزيرة العربية قبل مبعث النبي ﷺ[٣].

ويربط د (ديزيره سقال) لفظة الجاهلية بالمعنى الديني: فالإسلام كان تأسيساً وبداية هي أم البدايات، بل إنه النهاية التي صارت بداية، نهاية عصر وفاتحة عصر، ثم يقول : من هنا فنحن نعرف الجاهلية بالإسلام، وانطلاقاً من هذا المفهوم يمكن أن نقول إن العصر السابق لظهور الإسلا م قد سمي

---

(١) العصر الجاهلي ٣٨.

(٢) الجاهلية ٢٥ - مطبعة المعارف ببغداد.

(٣) د. محمد خفاجي و د. صلاح الدين عبد التواب ٤٢.

جاهليـة، لأنه جهل هذا الدين[١]. ونرى هذا الاتجاه ماثلا فـي قول فيليب حتى الذي يربط الجاهلية بالدين فيقول : فالجاهلية بالمعنى الصحيح هي ذلك العصر الذي لم يكن لـبلاد العرب فيه نامـوس وازع ولا نبي ملهم ولا كتاب منزل[٢] لكن الأب جـرجس داود لا يوافق على هذا القـول، ويرجح أن الجـاهلية اشـتقت من الجـهل الذي يعني السـفه والطيش والغـضب والنزق، فالعربي يغضب لأتفه الأسبـاب، ولا تزال هذه الصفة تلازمه حتى يومنا هذا تنم عن أخلاق الجـاهليين[٣]. وفي دائرة المعـارف الإسلاميـة: المعنى الأول لجـهل ضـد حلم لا علم، فـمعنـاها إذن قسـا خـشن غلظ، والجـاهل هو الهمجي، والجـاهلية زمن الهمجية، والجـاهل ضد العاقل، وهي تطلق علي الفتـرة التي لم يكن العـرب فيـها قد عـرفوا الإسـلام وشريعـة الله، وعلى المعتقدات الجارية في تلك الفترة[٤]. فوصف عرب ما قبل الإسلام بالجاهليين مرده في الدرجـة الأولى إلى الناحية الأخلاقـية القائمة على الغـضب العارم والانفعال الحاد، وقد أشار عمـرو بن الأهتم المخضرم إلى ما أحدثه الإسلام من تحول في تفكيرهم وسلوكهم عندما قـال مخاطباً الأحنف بن قيس إنا كنا وأنتم في دار جاهـلية فكان الفضل فـيهـا لمن جهل فسـفكنا دماءكم وسـبينا نساءكـم وإنا اليوم في دار الإسـلام والفضل فيـها لمن حلـم، فغفـر الله لنا ولك[٥]. ومما لاشك فيه أن شيـوع الأمية والوثنية فيهم قبل إسـلامهم ساعد

---

(١) العرب في العصر الجاهلي ٦٨.

(٢) تاريخ العرب ١٢٨ - دار غندور، ط٥، ١٩٧٤، بيروت.

(٣) أديان العرب قبل الإسلام، ١٦٦.

(٤) جـ ١١، ص ١٤. دار الشعب المصرية.

(٥) العقد الفريد ٢/ ٦٤.

على غلبة ذلك الخلق المشين عليهم، رغم وجود قلة من النصارى واليهود بينهم ولكنها لم تستطع أن تكبح ما رد الجهل في الكثرة الكاثرة من العرب.

زمن الجاهلية:

أما عن زمن الجاهلية وشعرائه فقد تعددت الأقوال حوله ولكن أكثرها يلتقي على رأي واحد يستمد فحواه من قول الجاحظ: وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسلك الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة، فإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئيتي عام[(١)].

فشوقي ضيف يذكر أن هذه الفترة هي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها، والتي جاء عنها الشعر الجاهلي، لأن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتهم في بطرا وتدمر إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى أمارة الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ومملكة كنده في شمالي نجد، غير أن معلوماتنا فيما وراء القرن السادس الميلادي محدودة، وهي إنما تتضح في العصر الجاهلي الذي نتحدث عنه، إذ حمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الامارات وأمرائها الذين كانوا يتولون فيها على الحكم، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب، من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية، والذي تكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله تشكلا تاماً، فذلك العصر المتميز الواضح في

---

(١) الحيوان ١/ ٧٤.

تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي[١].

ويقول د. يحي الجيوري: أما فترة الجاهليـة فيحددها بعض المستشرقين بأنها الاسم الذي يطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام، أو بعبـارة أخص الاسم الذي يطلق على الفـترة التي خلت من الـرسول بين عيسى ومحمـد، وقد أخذ الكاتب هذا القول من الألوسي دون إشارة لذلك، ويزيد الألوسي بأنها أيام الـفترة وهي الزمن بين الرسـولين، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا، وعلى ما قبل الـفتح، وعلى ما كان بين مولد النبي ﷺ والبعث، وفي قول ابن خـالويه إن هذا اللفظ حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعـثة، ويحدد نهاية هذا العهد فـتح مكة لا البعثة[٢]، أما إبراهيم مصطفى فـقد راى أن سبيل تحـديد أول جاهلية مـرتبط بتحديد آخر حـضارة قامت بالجزيرة، ثم نحدد نهايتها فتكون بدء العصر الجاهلي، ويذهب إلى أن آخر دولة مستقلة قبل الإسلام، وهي الدولة الحميرية باليمن انتهى عهدها سنة خمس وعـشرين وخـمسمـائة للميـلاد، وتفككت الجزيرة بعـد ذلك وعمت الفوضى فيها.[٣] وإذا كان بعض البا حثين قد ذهب إلى أن زمن الجاهلية لا يمكن تحديده[٤]، فإن أكـثر هم يتفق على الـفترة التي حـددها الجاحظ وهي مائتا عام على أكثـر تقدير، ويجعل أحدهم من شعر البسوس أقـدم مجموعة وصلت إلينا من الشعر الموثوق به، فنهاية حرب البسوس كانت على يد المنذر الثالث الذي عـقد الصلح بين الحـيين بكر وتغلب وكان ذلك حـوالي خمس وعشـرين وخـمسـمائة، وتكون بدايتـها حـوالي خمس وثمـانين وأربعمـائة

---

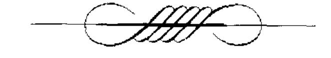
(١) العصر الجاهلي، ٣٩.

(٢) الجاهلية ٢٩.

(٣) مجلة الرسالة عدد ١٩، ٩ فبراير ١٩٥١م، ص ٢١٥.

(٤) جرجي زيدان: تاريخ آداب العربي، ١/ ٢٩ وعبد المنعم ماجد ٤٤.

للميلاد[١]. وربما توسع أحدهم فجعل الجاهلية تنتهي سنة خمسين للهجرة[٢]. وربما ذهب آخر إلى أوسع من ذلك فمد الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة[٣]. لكن الرأي الغالب والمختار للعصر الجاهلي هو ما كانت بدايته قبل قرنين من ظهور الإسلا م، ونهايته عند فتح مكة، أي ما بين سنتي ثلاثين وأربعمائة وثلاثين وستمائة للميلاد، فخلال هذه الفترة عاش أكثر الشعراء، وخلفوا جل إنتاجهم من الشعر الجاهلي المكتمل النمو والنضج.



(١) اسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي، ٤.

(٢) د. محمد النونجي: المعجم المفصل في الأدب ٢/٦٤٧ - الأول (بلاشير) والآخر (عمر فروخ).

(٣) نفسه.

الفصل الثاني
البيئة الاجتماعية

أ- القبائل العربية.

ب- الجاليات غير العربية.

جـ- القوانين الجاهلية للمجتمع الخليجي.

١ - القبائل العربية بالخليج

تمهيد :

يذكر بعض الباحثين أن الكنعانيين أقاموا في البحرين في الألف الثالث قبل الميلاد، وأن الفينيقيين الذين رحلوا إلى الشام كانوا منهم[١] كما يذكر ابن الأثير وحمزة الأصبهاني أن أهل البحرين وعمان من العمالقة الذين يقال لهم الكنعانيون وأنهم أول من سكن البحرين وهم عرب ولسانهم عربي، وتنسب بعض الأبار القديمة في البحرين إليهم[٢]. أما ابن خلدون فيقول: أما العمالقة فهم بنو عمليق بن لاوذ، وبهم يضرب المثل في الطول والجثمان، قال الطبري : عمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرقت في البلاد فكان أهل الشرق وأهل عمان والبحرين وأهل الحجاز منهم، وكان الذين بالبحرين وعمان والمدينة يسمون جاسم[٣].

ومن سكان البحرين القدماء طسم الذين ينسب إليهم بناء المشقر بهجر[٤] ويقول ابن خلدون: إن طسما للاوذ بن سام وديارهم بالبحرين[٥]. ويرى د محمد مهران أن قبيلتي طسم وجديس كانتا معاصرتين لدولة ديدان وأنهما ربما انتهيتا بنهايتها ثم يقول :أي أننا يمكننا أن نؤرخ لهما فيما بين القرن الخامس والسادس قبل الميلاد[٦]. وينسب الجوهري طسما إلى عاد[٧].

---

(١) الأب مرتين اليسوعي، تاريخ لبنان ١٠٠ .

(٢) د. محمد العقيلي: الخليج العربي في العصور الإسلامية ٣٤، ٣٥.

(٣) تاريخه ٢/ ٤٨ .

(٤) ياقوت: معجم البلدان: ٥/ ١٣٥ .

(٥) تاريخه ٢/ ٤٣ .

(٦) تاريخ العرب القديم ١٧٢ .

(٧) القلقشندي: نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ٢٩٥ .

وعن جديس قال في العبر: كانت مساكنهم بالبحرين، وكان يجاورهم في مساكنهم طسم، وكان الملك على القبيلتين لطسم فانتهى ملكهم إلى ملك غشوم بلغ من أمرهم إلى أنهم كادوه بمكيدة فصنعوا له وليمة ودعوه إليها بعد أن دفنوا سيوفهم في الرمل وقتلوا الملك ومن معه، وهرب رجل من طسم فلحق بسبأ بن سعد ملك اليمن يومئذ فاستجاشه على جديس، فسار إليهم فقتلهم وهلكت القبيلتان وبادتا(١). وتثبت آثار ومدن الإحساء كتاج وأبقيق والهفوف طبيعتها العربية الخالصة، كما كانت جزيرة البحرين (تايلوس) مهدا للاستيطان البشري ضمن حضارة ديلمون، وكانت شبه جزيرة عمان تعرف بـ (ماكا) في اللغة الفارسية القديمة، ويفترض (ويلكينسون) أن السكان الأوائل هم البياسرة الذين أشار إليهم الهمذاني على أنهم السكان القدماء لبلدة ريسوت في ظفار، كما سكنها بعد ذلك الأزد بزعامة مالك بن فهم، وجاورهم عبد القيس، وبنو سامه ابن لؤي وقضاعة(٢).

قضاعة

لعل أولى القبائل التي استوطنت منطقة الخليج من العرب الباقية (قضاعة) والمشهور أنها من حمير القحطانية،(٣) وهم قضاعة بن مالك بن مرة ابن عمرو بن زيد بن مالك بن حمير(٤) ويذكر البكري أن تيم الله بن أسد وفرقة من بني رفيدة منهم شكم اللات بن ثور ونهد بن زيد اللات، وعصيمة بن اللبوء، وفرقة من الأشعريين ساروا نحو البحرين حتى وردوا هجر وبها يومئذ قوم من النبط فأجلوهم(٥). أما بنو راسب وبنو قدامه القضاعيون وبنو

(١) نفسه ١٩١.

(٢) منطقة الخليج العربية ٩١، ٢٦٦، ٢٦٧.

(٣) التلقشندي: نهاية الأرب ٣٥٨.

(٤) النويري: نهاية الأرب ٢/ ٢٩٤.

(٥) معجم ما استعجم ١/ ٢١، ٢٥.

ناجية بن جرم، وملكان بن جرم فإنهم مروا باليمامة فأقام بعضهم بها ومضى جماعتهم إلى عمان فجاوروا الأزد بها وصاروا من الأتلاد[١] وانضم إلى قضاعي البحرين بنو بهراء بن عمرو بن الحاف[٢] ولحق بقضاعة قوم من الأزد، فتعاهدا على الإتحاد[٣] كما انضمت إليهما إياد في هذا الحلف[٤].

وقد طابت الاقامة لهذه القبائل في الخليج بما عبرت عنه كاهتهم ورقاء بنت زهير القضاعية في قولها: سعف وإهان وتمر وألبان خير من الهوان، وقالت أيضاً: مقام وتنوخ ما ولد مولود[٥]، ومن قولها هذا سمي حلف هذه القبائل العربية (تنوخ)[٦] ويظهر أن نزوحهم إلى البحرين حوالي تاريخ الميلاد أو قبله بقليل[٧] أما سبب هجرتهم من موطنهم الأول تهامة، فلعله كان فرارا من جند الروم على أثر دخولهم البلاد بحملة (اليوس جالوس) قبيل الميلاد[٨]، وقد يكون السبب الحقيقي لنزوجهم هو البداوة، لأن أهل البادية إذا تكاثروا مع الزمن تضيق بهم مواطنهم لتقاعدهم عن الزرع وقلة عنايتهم في إصلاح الأرض واستثمارها، ينزلون المكان وفيه من الماء والكلأ ما يكفيهم فإذا تكاثروا وتقاصر عن كفايتهم ذهب بعضهم يطلبون سواه[٩]، وأيا كانت الأسباب فقد استقر التنوخيون بالبحرين واندمجوا في الحياة الحضرية، وشاركوا في ظهور مرحلة من الانتاج والاستثمار وتطور الحياة الاجتماعية وأدخلوا لهجة البدو إلى هذه

(١) نفسه ١/ ٤٦.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٦.

(٣) معجم ما استعجم ١/ ٢٢.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١٠/ ٨٨.

(٥) معجم ما استعجم ١/ ٢١.

(٦) نفسه.

(٧) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ١٩٢.

(٨) نفسه.

(٩) نفسه.

المنطقة، بحيث أصبح ذلك نواة للغة العربية الفصحى فيما بعد، وبذلك فإن هذه القبيلة أصبحت بمثابة دولة صغرى أخذت تبسط نفوذها على الشمال حتى كون أحفادها دولة المناذرة في الحيرة على حد تعبير د محمد العقيلي[١] وفي تاريخ الأحساء: ومن سكان الاحساء آل زريق، ينتمون إلى بني نهد بن زيد بن قضاعة[٢].

الأزد

وهي من القبائل القحطانية الأولى التي سكنت عمان والبحرين، أما نسب القبيلة فهو الأزد بن الغوث بن قرن بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ[٣]. واسمه الأصلي دِراء أو درء[٤]، وقد تفرع من هذه القبيلة أربعة بطون هامة: الأول أزد عمان، وقد اشتهروا بصيد السمك، ولقبوا بمزون، والثاني أزد السراة في اليمن، واشتهروا بالنسج، والثالث أزد شنوءة وهي اسم ناحية باليمن، والرابع أزد غسان في الحجاز والشام[٥] والذي يعيننا هو البطن الأول، فقد انتشروا أولا في عمان، فلما ازدحمت بهم انتشروا في البحرين وهجر،[٦] وكان ذلك في أوائل التاريخ الميلادي بعد خراب سد مأرب[٧]، وهذا يعني أنهم خرجوا من اليمن، وهناك من يقول: إن الأزد أقاموا بتهامة، ثم وقعت الفتنة بينهم فصار كل فخذ منهم إلى بلد[٨] وترجع فروع شجرة نسب أزد عمان إلى أصلها مالك بن فهم الذي تفرع عنه: هناءه

(١) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٣٦.

(٢) تحفة المستفيد: لمحمد بن عبد القادر ١/ ٤٥.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٨، وفي رواية أخرى: ابن نبت بدل قرن.

(٤) النويري: نهاية الأرب ٢/ ٣١١.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٨.

(٦) السالمي: تحفة الأعيان ١/ ٣١ - القاهرة ١٣٨.

(٧) جرجي زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧٦.

(٨) الهمذاني: صفة جزيرة العرب ٢٠٩.

وفراهيد وجحادم ونوى والقراديس والجراميز وعقاءه وقسامل وسليمى وأشاقر، وبعضها انحدر من نصر بن زهران: يحمد وحدان والمعاول، وكذلك من تلك القبائل التي انحدرت من عمران بن عمرو مزيقيا، أي العتيك والحجر بن عمران[١] وقد كانت المعاول تعيش في صحار وما حولها، ويحمد وهناءه في المناطق الساحلية المجاورة، والهميم بن معن بن مالك بن فهم في نزوي، والعتيك في دبا، والحجر فيما جاورها، وكان بنو حدان ينزلون الأرض المناوحة لساحل القرصان. وفيما بين ذلك كانت تنزل قبائل غير أزدية، وخاصة سامه بن لؤي الذين عرفوا من بعد باسم يجمعهم هو بنو نزار[٢] ويذكر ابن حزم أن من ولد عمرو بن الأزد مأدبه وعرمان وهما بطنان بعمان، وسعد و الصيق، وقد دخلا في عبد القيس[٣]. ويشير بعض الباحثين إلى أن الأزد استقروا في البحرين على فرقتين: الأولى قبل مجيء عبد القيس إليها، والثانية بعد هجرة عبد القيس إلى البصرة[٤]، وكانوا على كثرة في البحرين حتى أيام نجدة الحنفي[٥]. وقد تزامن قدوم الفوج الأول إلى هجر مع مجيء قضاعة إليها، حيث كونوا فيما بينهما حلف تنوخ وقد ارتبطت أزد الهجرية بمواطن منها أوال والقطيف.[٦] وأفأن.

بكـر:

هي بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أسد بن ربيعة بن نزار بن

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٩، ١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ١٧١.

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٣٧٥.

(٤) العلي: التنظيمات الاجتماعية ٤٢، ١٤١.

(٥) الملحم: تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري ٨٠.

(٦) نفسه.

معد[١] وهي من كبرى القبائل العدنانية وأبناء بكر المباشرين هم : الحارث وعلي ويشكر وجشم وبدن الذي دخل بنوه في يشكر، ومن البطون اليشكرية حرب بن يشكر، وبنو غبر بن غنم وبنو كنانة بن يشكر، وذبيان بن كنانة بن يشكر.

ومن أبناء علي صعب ، ومن أبنائه عكابة، ومن أبنائه ثعلبة، ومن بطون ثعلبة بن عكابة.

١) بنو شيبان الذين تفرعوا إلى أفخاذ وعشائر مشهورة منها: بنو ذهل بن شيبان، وبنو محلم بن ذهل، وبنو الحارث، وأبو ربيعة، وبنو مرة بن ذهل[٢].

٢) قيس بن ثعلبة، ومنهم بنو ضبيعة الذين تشعبوا إلى أربع عشائر مهمة هي: بنو مالك بن ضبيعة، وبنو ربيعة بن ضبيعة ، وبنو عباد بن ضبيعة، وبنو سعد بن ضبيعة.

٣) ذهل بن ثعلبة بن عكابة، ومن عشائرهم: بنو عامر وهم بنو الوخم، وشيبان بن ذهل وبنوه، عمرو مازن وسدوس، والرقاشيون.

٤) تيم اللات بن ثعلبة، ومن بطونهم شيبان، وكان بنو تيم حلفاء لقيس بن ثعلبة، وعجل بن لجيم، وعنزه بن أسد، ويسمون كلهم اللهازم[٣] لمواجهة بني شيبان بن ثعلبة.

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم في مواضع متفرقة ونهاية الأرب للقلقشندي في عدة مواضع.

(٢) نفسه.

(٣) المصدر السابق.

وتعد قبيلة ثعلبة بن عكابه بمثابة القلب من بكر، ويتحدث عنها يوشع العمودي في حوادث عام ثلاثة وخمسمائة للميلاد فيقول : إنها أعظم قبيلة في امبراطورية كندة العربية الشمالية، وهي تظهر بعد ذلك بفترة قصيرة في نقش من جنوبي الجزيرة العربية(١).

وورد اسم بكر بن وائل لأول مرة في القرن الرابع الميلادي إذ كانوا في ذلك الحين يخرجون من البحرين واليمامة ويغيرون هم وأحلافهم من بني تميم وبني عبد القيس على مملكة بلاد فارس المجاورة لهم وسار سابور الثاني إلى البحرين لملاقاتهم حوالي عام خمسين وثلاثمائة للميلاد، وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر عددا لا يستهان به أسكنه بلاد فارس في الأهواز وتوح وكرمان(٢).

ويذكر القلقشندي أن قبيلتي بكر وتميم كانتا تقيمان بالبحرين قبل عبد القيس، فلما نزلوا بها زاحموهم في تلك الديار وقاسموهم في المواطن(٣).

وكانت اليمامة والبحرين إلى مشارف العراق هي الموطن الأول الذي بدأ معه تاريخ بكر الجاهلية قبل عام خمسين وثلاثمائة ميلادية، وهو الموطن الذي عادوا إليه بعد حرب البسوس، رحلت بكر عن موطنها الأول إلى تهامة اليمن إثر إغارة الفرس، وكانت هزائمها القاسية في بداية حرب البسوس سببا في انتجاعها شرقا ووراءها تغلب إلى أن استقروا في موطنهم الأول في يمامة نجد والبحرين منتشرين إلى مشارف العراق والشام، وكانت البحرين من

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٤٨١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نهاية الأرب / ٣٠٧.

منازل بني ضبيعة، يقول المرقش الأكبر[١].

واحتل أهـل بالكتيب وأهلهـا   في دار كلب أرضها وسمائها

كما حل بنو يشكر في البحرين يقول الحارث بن حلزة[٢].

إذ رفعنا الجمال من سعف البحر   رين سيرا حتى نهاها الحساء

وكـذلك نزل بنو شيبـان أرض البحـرين إلى مـشارف أرض السـواد بالعراق، وأمـا بنو عجل فـقد كـانوا قسـمين: قسم في سواد الـعراق على النصرانية، وفريق وثني كان مجاورا لبني شيبان على مشارف العراق[٣].

ويرى البكري أن ارتبـاط بكر بـالبحـرين ومـا والاها كـان بعـد حـرب البسوس، وتابعه في ذلك بعض الباحثين المعاصرين، ويشير بعضهم إلى المنطقة التي انتشـرت فيها قبـيلة بكر المتبدية في القـرن السادس الميلادي فبنوا شـيبان ضربوا خيـامهم إلى الشمال والجنوب من خط كاظـمة (قرب خليج الكويت)، أما بنو سلمـان وقيس بن ثعلبـة فضربوها جنوبي شـرق هذه بين المسناه ورأس العين، ولا يعرف بالضـبط أين كان بنو بكر الشماليـون يقضون فصل الـشتاء، ولكن يبدو أن بني قيس بن ثعلبـة قد تناوبوا الإقامة بين اليمامـة والشمال، أما بنو شيبان فإنهم كانوا يذهبون بـين حين وآخر حتى واحات البحرين في شرقي الجزيرة العربية، بينما ظل بنو عجل على ما يظهر في الشمال[٤].

ويشير أحـدهم إلى ديار بكر فيقول : وديار بكر تمتد من اليـمامة إلى البحرين إلى سيف كـاظمة فأطراف السواد فالأبله فهيت، وقد تقـدمت شيئاً

(١) الضبي: المفضليات ٥١.

(٢) ديوانه: ٣٦، دار القلم - بيروت.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر ومعجم ما استعجم ١٠٤٣. وشعراء بكر في الجاهلية ١٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٤٨٣.

فشيئاً في العراق فقطنت عـلى دجلة في المنطقة المدعوة إلى يومنا هذا باسمها ديار بكر، وهي بلاد واسعة، ومن جبالهـا أسود والطور البري، ومن مياهها الشيـطان وسلمان، ومن أوديتـها الثرثـار، ومن قراها حصن جـواتا والزاره ودارين[١] ويضيـف أحدهم إلى ذلك تاج وعـباعب والسـيدان، وذات رجل وأوال[٢]. ويشير الأعشى إلى مواضع أخرى لبكر بالبحرين يقول:

وقد ملأت بكر ومن لف لفها   نباكاً وأحواض الرجا فالنواعصا[٣]

وكـانت منازل بعض البطون عرضـة للتـبدل بسـبب غزو ينتـزع منهم منازلهم لينقلهم إلى مواطن أخـرى، كما حدث حيث انتزع بنو سـعد إحدى بطون تميم ثاج من قيس بن ثعلبة بعد الإسلام[٤].

وإذا كانت قـبيلة بكر بدوية في عـمومهـا فإن ذلك لا يعني أن جـميع شعرائهـا كانوا مغرقين في البـداوة، وبخاصة شعـراء بني ضبيعـة كالمرقشين وطرفـة بن العبـد والمتلمس والمسـيب بن علس وغـيـرهم، ممن سافـروا إلى الحواضر العربية ونادموا الملوك والأمراء.

تغلب:

تغلب جد القبـيلة الشقيقة لبكر واسـمه دثار، وهو تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب، وكان أكثرهم نصـارى، والعقب منه في ثلاثة أفخاذ لصلبه: عمـران وأوس وغنم وفـيه العـدد والبيت، ومن قـبائل غنم الخناقـون: بكر ورزاح ومالك وعمرو والحارث ومعاوية وثعلبه، أولاد بكر بن حبيب بن غنم

(١) اسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي، ٤٦.

(٢) نقائض جرير والفرزدق، ١/ ٤٨٢ ومعجم ما استعجم.

(٣) ديوانه ١٢٢، تحقيق الطباع.

(٤) د. محمد العقيلي: الخليج العربي في العصور الإسلامية ٣٩.

ابن عمرو بن تغلب[١] وتستعمل الأراقم في الأغلب كناية عن تغلب، وأكبر بطنين من بطون تغلب الروقـان، بنو جشم وهم مـن بيوتات العـرب ومالك ابن بكر بن حـبيب. وقد ارتبطت الأخـبار التـاريخية الأولى لتـغلب بحكم سابور الثاني حين غزا بكر وتغلب في ديارهما بالخليج العربي وأسكن جماعة منهم البحرين وكرمان وتوج والأهواز، وربما كان غرضه من ذلك أن يزيد من قدرته على حكمـهم، وأمر ابرهه زهير بن جناب الكلبي الحمـيري على بكر وتغلب في غزو ته نجدا، فحاولت القبيلتان تشد أزرهما قبائل أخرى من معد أن ترفعا عن كاهلها النير اليـمني، وانتهى ذلك بيومي السلان وخزازى وكان أميرهما في هذين اليومين ربيعة بن الحارث أو ابنه كليب[٢].

ويرى المؤرخون أن قـبيلة تغلب كـسائر قبـائل ربيعة كـانت تسكن في الأصل تهامة، ثم انتـشرت فنزلت الحجاز ونجد والبحـرين، فلما تحاربت مع بكر بن وائل زحفت نـحو الشمال حـتى بلغت أطراف الجزيرة، فـسكن قوم منهم جهـات سنجار ونصـيبين[٣] وحدث بعـد يوم كلاب الأول سنة ثلاثين وخمسمائة لـلميلاد أن غادرت قبيلة تغلب التي كانت منطقة تـرحالها وقتذاك تمتد من ساجر في السـر الأعلى إلى نطاع قرب الخليج الفارسي وسط الجزيرة العربيـة واستقـرت في السهوب التي علـى الجانب القريب من نهـر الفرات الأدنى، حيث كان بعضهم فـيما يحتمل قد استقر قبل ذلك العـهد، وتبعتهم بكر ولكنهـا توقفت قـبل بطن فلج، ويبـدو أن أسمـاء الأماكن التي ذكـرها الشعراء وقتذاك وبعد ذاك تدل على أن الطرق التي سلكتها قبيلة بكر البدوية

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٢/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ٩/ ٣٩٩.

(٣) جواد علي: تاريخ العرب ٤/ ٤٩٠.

في العقـود التاليـة كانت تسيـر من الشمال إلى الجنوب، ثم إن المـنطقة التي احتلتها قبيلتا تغلب وبكر على الجانب الأدنى من ثنية طويق كانت فيما يرجح قبل عـام ثلا ثين وخمسـمائة للميـلاد عبر الطريق إلى شـرقي الجزيرة، ولما كانت طرق البادية التي تسلكها كلتاالجماعتين يتـقاطع بعضهما مع بعض فقد اضطرتا على نحو ما إلى الحفاظ على السلام(١).

وفي شعر بني تغلب إشارات إلى المواضع التي طرقوها والمنازل التي احتلوها.

يقول المهلهل بن ربيعة.

لو بأبانين جاء يخطبهـــا   ضرج ما أنف خاطب بـــدم

وأبانان: هو تثنيـة أبان ومـتـالع غلب أحـدهما على الآخـر، وهمـا بنواحي البحرين(٢).

ويقول عمرو بن كلثوم(٣).

فأفيننا جموعهـــم بثـــاج   وكــرت بالغنائم والنهـــاب

وتاج: قرية بالبحرين

ويقول عمرو بن كلثوم أيضا (٤)

(بجانب الدو يدهدون العكـر)

والدو : صحراء تقع في الجنوب الشرقي من وادي الحفر (الباطن) إلى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٧/ ٤٨١.

(٢) مراصد الاطلاع ١/ ٩.

(٣) ديوانه ٥٤.

(٤) نفسه ٦٠.

حدود الكويت، وتعرف باسم القرعة».

ويقول مهلهل[(١)]

كأنا غدوة وبني أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

وعنيزة: تقع شرق الحفر ببطن فلج (الباطن)[(٢)] وكانت فيه وقعة بين بكر وتغلب في أول حرب البسوس فتكافئوا فيه.

ويقول جابر بن حني التغلبي[(٣)].

فيا دار سلمى بالصريمة فاللوى إلى مدفع القيقا فالمتثلم

والمتثلم : موضع في أول أرض الصمان

ويقول عمرو بن كلثوم[(٤)]

بأن الماجد البطل بن عمرو غداة نطاع قد صدق المقالا

ونطاع: كما يقول البكري: أرض قريبة من البحرين، منازل لبني رزاح من بني تغلب، وفيها أغارت بنو تميم عليهم، فقتلت بني رزاح وغنمت أموالهم[(٥)] ويقول الجاسر معلقاً على ذلك: تقدمت الإشارة إلى أنه من منازل بني قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل، وبكر وتغلب قبيلتان يجمعهما أب واحد هو بكر، ويظهر أنهما اختلطتا في المنازل، بعد أن اصطلحتا بعد حرب

---

(١) نفسه ٦٦.

(٢) الجاسر: معجم الشرقية ٣/ ١١٩٧.

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم ٧٢.

(٤) نفسه ٧٤.

(٥) معجم ما استعجم ٢/ ١٣١٣.

البسوس، فاستوطنتا البحرين حتى ظهور الاسلام[١] ويقول ابن قوزع الكسري التغلبي[٢].

أباح تميما يوم سفح متالع بخيل كأمثال القداح مسومه

ومتالع: جبل بناحية البحرين، بين السودة والاحساء، وفي سفح هذا الجبل عين يسيح ماؤها ويقول النعمان بن زرعة التعلبي[٣].

لنعم فوارس الهجاء تيم على فلج صباح أبي أثال

وفلج : واد طويل ممتد من أول الدهناء غربا حتى قرب الخليج العربي شرقا، يمر به عدة طرق وفيه مياه كثيرة، ومواضعه متعدده، وجرى فيه يوم لبني تغلب على بني تميم، وأول من قتل في هذه الوقعة غلام من بني عمران ابن تغلب يكنى أبا أثال، كان حليفا في بني حنظلة.

ويقول النعمان بن زرعة التغلبي[٤]

ولوأن سلمى أبصرتني في الوغى وجموع قيس يوم وادي الكنهل

وكنهل: عين تقع في وادي المياه (وادي الستار قديما) ، وموقعها غرب ثاج.

ويقول سلمه بن قرط التغْلبي في يوم جوعتيد[٥]

وطأوا ضبيعة يوم جو وطأة شاب الوليد لها مشيب الأكبر

---

(١) معجم الشرقية ٤/ ١٧٣٤ - المعروف أن الأب الأول الذي يجمع بين بكر وتغلب هو وائل، وقدسها الشيخ حمد الجاسر عندما أطلق عليه اسم بكر.

(٢) الأنوار، ٨٠.

(٣) نفسه ٨٤.

(٤) الأنوار، ٨٥.

(٥) نفسه ٨٩.

وعتيد : قرية تقع شرق نطاع في حوض وادي المياه.

ويقول أفنون التغلبي.

بهضب من أوارة والمنـايا موكلـة بأعنـاق الرجـال

وأواه: عند الكويت

ويقول عدي بن سلمة التغلبي(١).

فأممتهـا نحـو أهـل الكثيب بفتيان صدق فأفنت مرادا

والكثيب: بالبحرين

هذه هي أهم المواضع التي وطئتـها أقدام التـغلبيين بالبحرين، وأقـاموا فيهـا إقامة طارئة أو دائمة ولعل السبب في الاسـتشهاد بالشعـر التغلبي على المواضع البحرينية يعود إلى أنهم لم يكونوا مستقرين فيها استقراراً دائماً كعبد القيس، أو لم يكن الـكثير منهم ينعم بالاسـتقرار الدائـم كبكر وتميم، وهي القبائل التي أكدت الأخبار والحوادث صلتـها الدائمة بهذه المنطقة في الجاهلية يقول د محمد الملحم ويبدو أن انتشـار تغلب في البحرين كان قليلا لأن أكثر المصادر أغـفلت ذكر نزول تغلب بها، أو ربما كان بقـاؤهم فيها فـترة قليلة، وبعدها توجهوا للشمال من الجزيرة(٢).

تميـم:

هي تميم بن مر بن أد بن طابخـه بن الياس بن مضر وهي أكبـر قاعدة من قواعد العرب، ويطلق عليها الجفـان وعلى قبيلة بكر أيضا. وأهم عشائر

(١) الأنوار، ١٠٦.

(٢) تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري، ٧٦.

تميم الخليجية بنو سعد بن زيد مناه، ومنهم بنو عبيد بن مقاعس، وبنو العنبر ابن عمرو، ومنهم بنو كعب بن العنبر، وبنو مالك بن عمرو ومنهم بنو مازن ابن مالك، وبنو دارم بن مالك بن حنظلة ومنهم بنو عبد الله بن دارم(١).

وتبدأ أخبار تميم في القرن الرابع للميلاد مع سابور ذي الأكتاف الذي كان في مسيره أتي البحرين وفيها يومئذ تميم فأمعن في قتلهم، وقد دار بين سابور وشيخ تميم حوار انتهى باقتناع الملك الفارسي برأي عمرو بن تميم، فنادى منادي سابور بأمان الناس، وأسكن بني تميم هجر(٢). وزادت معرفتنا بتميم منذ القرن السادس للميلاد فإذا بها قبيلة عظيمة تنزل جانبا كبيرا من الساحل الشرقي لبلاد العرب، وتمتد منازلهم جنوبا حتى فيافي الدهناء كما تمتد شمالا بشرق إلى ضفاف الفرات، ويجاورهم في الشمال أسد، وفي الجنوب الغربي باهلة وغطفان، وامتزجت تميم في منازلها ببطون من عبد القيس وحنيفة على الشاطيء الشرقي والجنوبي، كما امتزجت ببكر وتغلب في الشمال(٣) وقد انتشر بنو سعد بن زيد مناة في الاحساء حتى نسبت إليهم يقول البكري: ونفذت بنو سعد إلى يبرين وتلك الرمال حتى خالطوا بني عامر بن عبد القيس في بلادهم قطر، ووقعت طائفة منهم إلى عمان، وصارت قبائل منهم بين أطراف البحرين إلى ما يلي البصرة، ونزلوا هنالك إلى منازل ومناهل كانت لإياد(٤) بن نزار، فرفضتها إياد وساروا عنها إلى العراق يقول د محمد العقيلي: وبطون هذه القبيلة كثيرة ومتداخلة في

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب ٢٠٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢٥٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية. ١٠/ ٥٤.

(٤) معجم ما استعجم ١/ ٨٨.

مساكنها إلا أنه يجمعها أصل و احد يعود إلى مضر وعدنان وقد انتشرت مساكن سعد بن زيد مناه بن تميم في البحرين، كما نزل بنو عوف بن سعد في يبرين جنوبا وساكنهم فيها بنو عوف بن كعب وأخلاط سعد، أما الأحساء فقد نزلها أخلاطهم وتسمى أحساء بني سعد، وانتشرت أفخاذ بني سعد مقتسمة هذه المنطقة في أماكن مختلفة منها: المقر والفروق ﴿ورهبا ويترب﴾ والرمانتان ودارا وحمض، وكان الأمر لا يخلو من منازعات بين هذه الأفخاذ والبطون على أماكن المياه والمراعي حين يشتد القحط كما حدث حين انتزع بنو مالك بن سعد قرى العتيد والطريفه من بني عوف بن كعب، وكثيراً ما كانت بعض البطون تشترك مع بطون أخرى في حيازة أماكن المياه والآبار، كما حدث حين اختلط عبد الله ونهشل ابني دارم بضبة وكعب بن العنبر في منطقة الصمان، كما تشارك في مياه الرماد مناف بن دارم مع بني فقيم بن جرير بن دارم[١].

كما ذكرت منازل أخرى بالبحرين لبني تميم منها الجرعاء وثاج والاشيمان والقليعة، ومنها عطاله والقاعة وأواره وطويلع ونطاع[٢].

وكان التميميون بدوا خلصا فلم تكن لهم مدن بالمعنى الصحيح، وجاء في المصنفات أن التميميين كانوا يؤمون هجرا والإحساء والجرعاء، ولكنهم لم يكونوا أصحاب هذه المدن وحدهم، وقيل أنهم كانوا يستولون على المواضع أحيانا وتظل في حوزتهم زمانا، واتسعت منازل تميم فعجل ذلك بانشعابها منذ القدم إلى بطون وأحياء، وارتفع شأن كل منها حتى أصبحت قبيلة قائمة برأسها، وهذا هو السبب في أن بني تميم ظلوا أبدا مختلفين لا يمسكهم

---

(١) الخليج في العصور الإسلامية ٤٠.

(٢) د. محمد الملحم: البحرين في القرن الأول الهجري، ٧١.

رابط[١]. وقد سجل مالك بن نويره ذلك في قوله[٢].

رأيت تميماً قد أضاعت أمورها فهم بقط في الأرض فرت طوائف

فأما بنو سعــد بالخط دارها فبــان منهــا مألف فالمــزالف

ولبني سعد بن زيد مناه وبني الحرماز بن مالك مياه كثيرة مشتركة منها مسلحة والوفراء وكاظمة، وهم متصلون إلى سفوان من يبرين، وذلك أكثر من مسيرة شهر[٣]، ومن مواضعهم بالبحرين تياس عند الكويت، لبني عمرو ابن تميم، ولهم أيضاً السلان، ومعقلة ماءه لبني تميم، وقسا لبني أسيد بن عمرو، ولبني مازن سفار والأحفار والأهالة، في بلادهم بجهات الوقباء، وبلادهم تقع في أعالي وادي فلج (الباطن) والخرج أسفل الصمان لتميم، والوريعة حزم لبني فقيم بن جرير بن دارم، والدو في حدود الكويت لبني تميم، ومتالع: جبل لبني مالك بن سعد، بين السودة والاحساء، واللهيما، لبني مجاشع، والصمان لأخلاط تميم والرباب، ورهوه وهي هضبة في بلاد بني سعد يقال لها أم أوعال، وثهمد جبل تلقاء الستار لبني زراره، والفارسي في الكويت لبني الحرماز التميميين[٤].

يقول د محمد العقيلي: وحياة بطون قبيلة تميم كانت قائمة على الحل والترحال طلبا للعشب والماء فظلت حياة أفرادها موغلة في البداوة فلم تقم لهم مدن ولم تسهم في أية فعاليات حضارية تجارية أو صناعية، باستثناء مشاركتهم في بعض المواسم في هجر طلبا للميرة، وطبيعة هذه الحياة التي لا

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٠/ ٥٤.

(٢) معجم الشرقية للجاسر ١/ ١٩٤.

(٣) معجم الشرقية للجاسر ٤/ ١٨١٧ نقلاً عن كتاب بلاد العرب.

(٤) معجم الشرقية للجاسر: مواضع متفرقة.

تستقر في مكان باستمرار جعلهم في منأى عن السيطرة الفارسية في البحرين، بل كانوا في كثير من الحالات حين تتعرض حياتهم للجدب يتعرضون للقوافل الفارسية المارة في بلادهم فينهبوها(١).

وقد لحق بأتلاد عمان من تميم بنو عبد شمس بن سعد بن زيد مناة، وبنو مالك بن سعد، وعوف بن سعد(٢).

أما من ذهب من الباحثين إلى الحكم المطلق على تميم بالتوغل في البداوة فقد وقع في شيء من التعسف، فبنو تميم كانت لهم علاقة ولو محدودة بالعالم المتحضر منذ القدم، نجد بدايتها في المحاورة الطريفة التي دارت بين عمرو بن تميم وسابور ذي الأكتاف، عند غزوه لعرب البحرين وفتكه الذريع بهم، وقد انتهت هذه المقابلة الناجحة بتوقف الملك الفارسي عن القتال وعفوه العام عن العرب (٣) ونسبت المجوسية في الجاهلية إلى نفر من تميم منهم حاجب بن زراره(٤) الذي أعجب كسرى بفصاحته وحكمته فقبل شفاعته في قومه والسماح لهم بالانتجاع في ريف العراق مقابل رهنه قوسه عند الملك الفارسي(٥). كما تأثر بعضهم بالاسبذية وهي عبادة البراذين(٦) ونجد في شعر أوس بن حجر التميمي العديد من الألفاظ الفارسية الدالة على احتكاكه بالفرس وغيرهم، وفي شعر آخرين من تميم. وشاركوا بفاعلية في السياسة والحكم، فكان المنذرين ساوى التميمي الأسبذي أميرا

(١) الخليج في العصور الإسلامية ٤٠.
(٢) البكري: معجم ما استعجم ١/١٢.
(٣) مروج الذهب ١/٢٥٦.
(٤) جزيرة العرب قبل الإسلام ٢٠٢.
(٥) بلوغ الأرب للألوسي ١/٣١١، ٣١٢.
(٦) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٨٦.

للبحرين حتى ظهور الاسلام فأسلم[١] وكان في تميم حكام العرب البارزين، وقد عرف الألوسي الحاكم أو الحكم فقال: وحكام العرب علماؤهم الذين كانوا يحكمون بينهم إذا تشاجروا، ثم ذكر من حكام تميم أكثم من صيفي وحاجب بن زراره والأقرع بن جابس وربيعة بن مخاش وضمره بن ضمرة[٢] وربما كانت هذه الكوكبة من الحكام التميمين هي التي أغرت أحد الباحثين إلى القول: وكانت الحكومة في المنازعات وقفا على حكام من تميم، وكان آخرهم حين جاء الإسلام الأقرع بن جابس[٣].

وفي تميم فصاحة وفراسة لدى الرجال والنساء، وفي يوم رحرحان سجلت المرأة الدارمية من تميم فصاحة المرأة العربية وقوة نباهتها عندما صار بنو عامر بأدنى مياه بني تميم ورأوا امرأة منهم تجبى الكمأة ومعها جمل لها، فأخذها رجل من بني عامر وسألها عن الخبر، فأخبرته بمكان الحارث بن ظالم المري الذي كانوا يطلبونه لقتله خالد بن جعفر وذكرت المرأة لهم أنه عند حاجب بن زراره سيد دارم وفي جواره، فلما كان الليل نام الرجل الذي أخذها فقامت المرأة إلى جملها وركبته وسارت حتى صبحت بني دارم وقصدت سيدهم حاجب فأخبرته الخبر وقالت أخذني أمس قوم لا يريدون غيرك ولا أعرفهم ،قال أخبريني أي قوم هم ؟ قالت قوم يقبلون بوجوه الظباء ويدبرون بأعجاز النساء، قال أولئك بنو عامر فصفيهم لي، قالت رأيت رجلاً قد سقط حاجباه فهو ير فعهما بخرقه، صغير العينين وعن أمره يصدرون قال، ذاك الأحوص وهو سيد القوم قالت: ورأيت رجلا قليل المنطق إذا تكلم اجتمع القوم كما تجتمع الابل لفحلها، أحسن الناس وجها، ومعه

(١) معجم الشرقية للجاسر ١/١٥١.

(٢) بلوغ الأرب ١/٣٠٨ - ٣١٦.

(٣) العصبية القبلية للنص ١٠٤.

ابنان يلا زمانه قـال ذاك مالك بن جعفـر وابناه عامر وطفـيل، قالت ورأيت رجلا جـسيما كـأن لحيتـه مصعفـره، قال ذالك عوف بن الأحـوص، قالت ورأيت رجلا هلقاما جسيما قـال ذاك ربيعة بن عبد الله . قالت ورأيت رجلا أخنس قصيراً قال هذا ربيعة بن قراط. قالت ورأيت رجلاً أقرن الحاجبين كثير شعر السبله يسيل لعابه على لحـيته إذا تكلم قال ذاك حندج بن البكاء. قالت ورأيت رجلا صغير العـينين ضيق الجبهة يقود فرسا له مـعه جفير له لا يكاد يفارق يده قال ذاك ربيعه بن كعب. قـالت ورأيت رجلا معه ابنان أصبهان إذا أقبلا رمـأهما الناس بأبصارهم وإذا أدبرا كانا كـذلك، قال ذاك الصعق بن عمرو وابناه يزيد وزرعه. قالت ورأيت رجلا لا يقول كلمة إلا وهي أحد من شفره، قال ذاك عبد الله بن جعده، ثم أمرها حاجب فدخلت بيتها[١] .

ضبة :

يصف القلقشنـدي ضبة بأنها بطـن من طابخه من العدنانيـة، فهم بنو ضبه بن أدبن طابخه[٢] .

ويجعلهم النويري ثلاث قبائل رئيسيـة سعد وسعيد وباسل، ثم يفصل فيذكر أن سعيدا عددهم قليل، وأن سعدا أعقب من اثنين: ثعلبة وبكر، فمن قبائل ثعلبة بنو مـسعود بن دجة، وبنو مبذول، أمـا بكر بن سعد فلم يخرج من نسله إلا أفخاذ، وأما باسل بن ضبه فإنه خرج مغاضبا لأبيه، فوقع بأرض الديلم فتزوج امرأة منها، فولد له الديلم بن باسل جد القبيلة المشهورة، ومن رجالها في الجاهلية زيد الفوارس[٣] .

---

(١) أيام العرب في الجاهلية، ٣٤٥ .

(٢) نهاية الأرب ٢٩١ .

(٣) نفسه ٢/٣٤٦ .

أما ابن دريد فيتوسع في تعداد قبائلهم ، مدرجا ما جعله النويري أفخاذا في عداد القبائل، فيقول: قبائل بني ضبه: بنو صريم وبنو السيد بن مالك وبنو ذهل وبنو عائذه وبنو جارم، ومن قبائلهم حرثان وعامر وشييم، ومن قبائلهم بنو بجاله وبنو تيم وبنو صباح، ومن قبائلهم بنو كوز وبنو شقرة ابن ربيعة(١).

أما ديارهم فيقول البكري عنها: وظهرت تميم بن مر بن أد بن طابخة، وضبة بن أد بن طابخه، وعكل بن أد إلى بلاد نجد وضواحيها، فحلوا منازل بكر وتغلب التي كانوا ينزلونها في الحرب التي كانت بينهم، ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر(٢).

ويذكر القلقشندي أن ديارهم كانت بجوار بني تميم بالنواحي الشمالية التهامية من نجد، ثم أنتقلوا في الإسلام إلى العراق للجزيرة الفراتية(٣).

ومن مواضع ضبه في البحرين، حفر ضبة وهو ركايا بنواحي الشواجن، اسم واد في ديار ضبه في بطنه أطواء كثيرة منها: لصاف واللهابة وثبرة، ومياهها عذبة وهي دون الصمان في أسافله. ومن مواضعهم المشتركة الصمان، قال في كتاب العرب: والصمان لأخلاط تميم والرباب، وهو لضبه وكعب بن العنبر وعبد الله ونهشل ابني دارم. ولهم ذو جماجم في حفر ضبه بالشواجن أسفل الصمان. ومن المواضع المشتركة السيدان، واد فيه مياه كثيرة لبني سعد ويخالطهم بعض بني ضبه، وهو البطن الواقع قرب الكويت، ومن

(١) الاشتقاق ١٩٠ - ١٩٧.

(٢) معجم ما استعجم ١/ ٨٨.

(٣) نهاية الأرب ٢٩١.

منازلهم نهي قرية بالبحرين لبني الشعيراء، وهي ابنة ضبه بن أد، ولضبه وتميم سويقة من أجوبة الصمان. ولهما أيضاً طويلع: واد أو ماء في أسفل الصمان[١].

يقول الشيخ حمد الجاسر: وبلاد ضبه متفرقة غير أن أوسعها يقع شرق الدهناء كما أن بلاد بني العنبر وبني بكر متجاورة شرق الجزيرة[٢].

عبد القيس

عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وقد تفرع العبديون إلى عدة بطون منها: بنو لكيز بن أفصى، بنو شن بن أفصى، بنونكره بن لكيز، بنو أنمار بن عمرو بن وديعه، بنو عجل بن عمرو بن وديعة، بنو محارب بن عمرو بن وديعة، بنو الديل بن عمرو بن وديعة، بنو غنم بن عمرو بن وديعة[٣].

وكان موطنهم الأول تهامة، ثم نزحوا إلى البحرين وكان بها خلق كثير من بكر بن وائل وتميم، فلما نزلوا بها زاحموهم في تلك الديار، وقاسموهم في المواطن[٤].

وكان عمرو بن الجعيد قائدهم في هجرتهم إلى هجر[٥] التي كانت قضاعة وإياد تقطنان في مدنها وريفها، ورغم مقاومتهما الشديدة لعبد القيس فإنهما لم تستطيعا الصمود طويلا أمام ضرباتها القاضية، واستماتتها في البقاء

(١) انظر: معجم الشرقية للجاسر: مواضع متعددة.
(٢) نفسه ٣/ ١٢٧٤.
(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ٢٩٧ - ٢٩٩.
(٤) القلقشندي: نهاية الأرب، ٣٠٧.
(٥) جمهرة أنساب العرب ٢٩٩.

بربوع البحرين، وريفها الخصيب حتى قال قائل (عرف النخل أهله) فصار مثلاً[١]، وبعد ظفرهم بالنصر وإجلائهم الإياديين والقضاعيين إلى العراق اقتسموا البحرين بينهم. فنزلت جذيمة بن عوف بن أنمار الخط وأعباءها، ونزلت شن بن أفصى طرفها وأدناها إلى العراق، ونزلت نكرة بن لكيز وسط القطيف وما حوله، وكذلك الستار والظهران إلى الرمل وما بين هجر إلى قطر وبينونه، ونزلت عامر بن الحارث بن أنمار، والعمور الجوف والعيون والإحساء حذاء طرف الدهناء وخالطوا أهل هجر في دارهم، وشاركهم في ذلك حلفاؤهم من بني عميرة بن أسد بن ربيعة[٢]، ومن هذه البطون العبدية والهجرية نبغ شعراء عبد القيس. ودخلت بطون منهم، وهم بنو زاكية بن والبة بن دهن بن وديعة، وعمرو بن وديعة بن لكيز، والعوقة، وعوف بن الديل، وعائش بن الديل، وعمرو بن نكرة بن لكيز، جوف عمان فصاروا شركاء للأزد في بلادهم، وهم الأتلاد، أتلاد عمان[٣]، ومن عبد القيس العمانية نبغ خطباء عمان[٤]. على أن الجمهرة الغالبة من العبديين كانت في البحرين التي أصبحت لها السيادة عليها يقول د محمد العقيلي: وبذلك فإن بطون عبد القيس انتشرت في أكثر أجزاء البحرين حتى عد البعض البحرين بأنها لعبد القيس[٥]. يقول الأخنس التغلبي[٦].

لكيز لها البجران والسيف كله　　　وإن يغشها بأس من الهند كارب

تطاير على أعجاز حوش كأنها　　　جهام أراق ماءه فهو آئب

(١) معجم ما استعجم ١/ ٨١.　　　(٢) نفسه ١/ ٨٢.

(٣) نفسه.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٩٦ - مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٥) الخليج في العصور الإسلامية ٣٧.

(٦) معجم ما استعجم ١/ ٨٦.

ومن المدن والقرى التي نزل بها بنو عبد القيس أوال وجواثا وحوارين والرجراجة والرمانتان والصادر وصلاصل وعينين والمشقر والعقير والزاره والقليعة والسهلة وجبله والجبيله والجار. والبيضاء وأفأن والجفير وحران والفرضه، والحوضيين والشط والجوس والرميلة والقرحاء. ونبطاء، وأرض نوح وذو النار والماحة والذرائب والبدي والخرصان والحوجر والوجير والطربال والمنسلخ والمرزي والمطلع والعرجه(١).

وقد اتخذت عبد القيس من شفار عاصمة لهم وكان حكمهم للبحريين يتذبذب بين الاستقلال تارة والخضوع للفرس تارة أخرى، كما أن منطقة الخليج ازدهرت في عهدهم في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام وبعدها، وكانت أرضا خصبة لكثير من التفاعلات الفكرية، فأنجبت شعراء وخطباء بارزين، كانوا من دعائم الحركة الفكرية في العصر الجاهلي(٢) فمن العبديين نبع شعراء من آل منبه وآل شن وآل محارب ، كما نبع خطباء من آل رقبه وآل صوحان وآل صحار، ونبغ قبلهم من بكر آل سعد بن مالك وغيرهم، ومن تميم أيضاً، وإن كانت هاتان القبيلتان أقرب إلى البداوة ولاسيما الأخيرة من بني عبد القيس. ورغم التقدم الفكري لعبد القيس فإن أغلب بطونها كان يعيش في بادية البحرين حتى ظهور الإسلام، على حين كان يسكن المدن فئات السكان الأخرى من مجوس ويهود، وهم الحضر الذين تعود إليهم ملكية الأرض(٣).

---

(١) معجم الشرقية للجاسر في مواضع متعددة.

(٢) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٣٨ - الشغار، يرى الجاسر أنها محرفة عن الستار.

(٣) نفسه ٣٩.

ب- الجاليات غير العربية :

وإلى جانب تلك القبائل العربيـة التي تشكل الغالبية العظمى من سكان البحرين، وجدت جاليات أخرى غير عـربية أهمها الفرس والسبابجة والزط، وقد انتـشرت في مـدن البحرين وتـركز وجودها في هجـر والقطيف والزارة والغابة، (وكانت ذات تأثير كبير في تفاعـل الحياة في البحرين، بسبب ميلها إلى الإستـقرار بعكس القبائل العـربية السابقة التي كـان معظمها مـوغلا في البداوة، وحياتها قائمة على الحل والترحال[١] ومن هذه الجاليات.

الفرس:

يعد الفرس أكبر الجاليات التي استوطنت البحرين وأكثرها أهمية ونفوذا وامتزاجا بالعرب، ولعل سـبب ذلك يعود إلى سيطرة ملوك فارس على هذه المنطقة ردحا من الزمن قـبل الإسلام «فقد حكم الساسانيـون البحرين وهجر وبقي حكمهم إلى عهـد رسول الله ﷺ لأنه بعث إلى أتباع كسـرى بهجر يدعوهم إلى الإسلام، فلما أبوا وضع الجزية دينارا على كل رجل[٢].

وقد نقل الفـرس الفعلة لبناء حـصن المشقر، ومـعهم نساء من ناحـية السواد والأهواز فـتناكحوا وتوالدوا وصار لهم نسل كـثير، ومضى قـرن بعد قرن فتكلمت ذراريهـم بالعربية وركبوا الخـيل وقالوا الشعر وجمـعوا الأموال الكثيرة، وانتسبوا إلى عبد القيس التي كان لها الغلبة على المنطقة[٣].

وكان الذي بـنى حصن المشـقر من أساورة كـسرى يقـال له (بسك بن

(١) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٤٢.

(٢) فتوح البلدان: ١/ ٩٩.

(٣) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٢٤ وهجر وقصباتها الثلاث ٦٥.

هابوذ) أما هوذه الحنفي فقد بنى حول حصن المشقر مدينة تكون لعمال كسرى يسكنون فيها فإذا فاجأهم العـرب بغزو لجأوا إلى حصن المشقر الملاصق لهذه المدينة وهي قرية القارة[١] وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الجـالية الفارسية تكون أكـثر سكـان هجر، لذلك لا عـجب في أن تزوج كـثير من العـرب مجوسيات في الجاهلية[٢].

وقد كـان الفرس في البحـرين بمثابة قاعـدة عسكرية للأكـاسرة تمدهم بالعون وقت الحاجة، وتهرع إليهم في الأزمات، فقد سار فرس هجر إلى بني تميم عند إغارتهم على عير كسرى[٣]، كما انضم مجوس القطيف إلى المكعبر بالزارة التي كانت مقـرا لصاحب كسرى (فيروز بن جشـيس) على البحرين، وكانت هذه المدينة الحـصينة ملجأ المنذر بن النعمـان والأساورة عندما ارتدت بكر وملكته عليهـا، وكان ملوك فارس يدعمون جـاليتهم الفارسية البـحرينية بأسباب القوة والمنعة كلما حزبـهم أمر أو خافوا ثورة العرب بهم أو خروجهم على سلطانهم هناك.

وقد أطلـق على جاليـة الفرس بالبـحرين الاسـبذيون، وهم فـرقة من المجوس كان مسلحة لحصن المشقر، كما سموا جيلان، وهم قوم من الفرس كانوا أخرجهم كسرى لخدمته ولعمارة قصره المعروف بالمشقر من أرض هجر. وذكـر محـمـد الأزدي أن جـيلان قـوم من أبناء فـارس انتـقلوا من نواحي اصطخر. فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا، وأقاموا هناك، فنزل عليـهم قوم من بني عـجل فدخلوا فـيهم.[٤] فلما جـاء الله بالاسلام

(١) هجر وقصباتها الثلاث ٦١، ٧٥.

(٢) تيارات ثقافية للحرب ٣٣.

(٣) نفسه ٤٣.

(٤) معجم البلدان: مادة جيلان.

وهلك ملك الأكاسرة طلب فرس البحرين الدخول في قبائل العرب فأبى قوم أن يدخلوهم فيهم، وأدخلهم قوم ليتقووا بهم ورغبوا إلى كثرتهم وكثرة أموالهم، فكان أكثر انتسابهم في عبد القيس، ومن قبائل عبد القيس من لم يقبلهم[١]، ودخل قوم منهم في بني بكر بن وائل، وقوم منهم في تميم وفي بني عبد الله بن دارم، وظهر جيل ثان نتيجة هذا التزاوج أطلق عليهم الأبناء[٢].

وكان الفرس يسمون بني الأحرار في صنعاء، ويسمون الأبناء باليمن، والأحامر بالكوفة، والأساورة بالبصرة، والحضارمة بالجزيرة، والجراجمة بالشام[٣] يقول الأستاذ عبد الرحمن الملا: عن الفرس : ويشكلون أهم الجاليات؛ لما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي، ومكانة اجتماعية متميزة، وبخاصة حين كانت هذه البلاد مشمولة بالسيطرة الساسانية وقد ربطتهم بالعرب صلات التعاون والتناحر على السواء[٤].

السبابجة

اختلف الباحثون في أصلهم، اختلافا يسيرا، فذهب البلاذري إلى أن أصلهم من السند،[٥] وأنهم كانوا في جند الفرس يعملون بأجور قليلة. وكان تواجدهم على سواحل الخليج والخط. وذهب صالح العلي إلى أن أصل السبابجة من الهند وجزر الهند الشرقية، وأنهم كانوا يقومون بالملاحة

---

(١) هجر وقصباتها ٦٥ ، ٦٧ .

(٢) تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري ١٣ .

(٣) تيارات ثقافية ١٧ .

(٤) تاريخ هجر، ١/ ٣١.

(٥) فتوح البلدان ٣٦٨. والنقائض ١/ ١١٥ .

بين ساحل الخليـج العربي وشرق آسـيا،[١] وقد سكنوا منطقـة الخط وهجر والقطيف قبل الإسلام، واسـتخدمهم الفرس للقيام ببعض الأعـمال كحراسة السـفن من القـراصنة، وذلك يعـود إلى مـا لهم من خـبـرة في الأعـمـال الحربية[٢].

الزط

واختلف الدارسون. أيضا. في أصل الزط، فذكر المدائني[٣] أنهم كانوا في الطفـوف (السواحـل) يتتـبعـون الكلأ على ضـفـاف نهر السند، وقـال الأزهري إنهم قوم من الهنـد، تنسب إليهم الثيـاب الزطية[٤] وكانوا ينزلون الخط والبحرين. ويرجح بعض البـاحثين أن الزط قوم من أصل هندي هاجر أكثرهم منهـا وانضموا إلى الجيش الساسـاني من عهد قباذ، وكانت مـرتبتهم أقل من الفرس، ويبدو أنـهم كانوا قوة عسكرية فارسـية ترابط في الخط على السواحل قبل الإسلام، ويتـجولون على سواحل الخليج[٥] واللفظة الزط هي تعـريب لجات إحـدى القـبـائل الهندية الآرية القـاطنة في المناطق الداخليـة وأطراف الأنهـار في اقليم البنجـاب والسند وراجسـتـان ومنطقة غـرب أوتر براديس[٦].

---

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ٧٠.

(٢) لسان العرب ٢/ ٢٩٤ وتاريخ العروس ٢/ ٥٦.

(٣) النقائض ١/ ١١٥.

(٤) تهذيب اللغة ١٣/١٩٥ وتاج العروس ٥/١٤٦.

(٥) المنجم: البحرين في صدر الإسلام ٥.

(٦) حمد صراي: منطقة الخليج ٢٢٤.

جـ - القوانين الجاهلية للمجتمع الخليجي:

العصبية القبلية:

قبائل الخليج العربي في الجاهلية وإن كانت تجمع في سكناها بين المدينة والبادية إلا «أننا لا ينبغي أن نغالي في تصور الفرق في أسلوب المعيشة بين القبائل الحضرية والبدوية فلم تكن القبائل النازلة في المدن والقرى تعيش حياة حضرية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، وإنما كانت حياتها أقرب إلى الطابع البدوي سواء من حيث خشونة الملبس وبساطة المأكل أو من حيث العادات والأعراف السائدة في مجتمعها، وكذلك لم تكن حياة القبائل المتبدية ارتحالا متصلا وضربا في الأرض على غير هدى شأن قبائل الغجر مثلا، وإنما كان لكل قبيلة منازلها ومراعيها المحدودة التي ترتادها في مختلف فصول العام، ومياهها الخاصة بها والتي تنتسب إليها، وكل قبيلة كانت تتجافى النزول في مرابع القبائل الأخرى اتقاء لوقوع نزاع حربي، فالبداوة إذن نمط من الحياة شبه منظم يلائم مقتضيات البيئة»[(١)].

وقد اعتمدت حياة المجتمع الخليجي الجاهلي على العصبية القبلية، شأن المجتمع العربي في العصر الجاهلي بعامة. والقبيلة هي الوحدة الاجتماعية لعرب الجاهلية، وهي تتكون من أبناء القبيلة الخلص الذين تجري في عروقهم دم القبيلة، وهؤلاء يكونون طبقة الأحرار، وثمة طبقة أخرى قد تتكون من عناصر دخيلة مثل العبيد الذين يشترون بالمال أو يؤسرون في الحروب أو ما ينزل في القبيلة من أفراد القبائل الأخرى يعيشون في جوارها ويحتمون بها فيعرفون بالجيران أوالموالي[(٢)]. والعصبية تعني إحساس الفرد برابطته القبلية

(١) احسان النص: العصبية القبلية ٥٧.

(٢) النابغة الذبياني للعشماوي ١٣٠.

وواجب تأييد مصالحها والعمل لها بكل ما يملك من قوة، كما تعني النعرة لذوي القربى أن ينالهم ضيم أو يتهددهم خطر[١]. والصرحاء في القبيلة أبناؤها ذوو الدم النقي الذي لا تشوبه شائبه، وهم المنتمون جميعا إلى الجد الأكبر للقبيلة، ومنهم رياستها وبيوتات الشرف فيها[٢]، وقد وقف الباحث (روبرتسن سميت) طويلا عند رابطة الدم، وعنده أن الجماعة القائمة على وحدة الدم هي أكثر الصور قدما في المجتمع السامي، وأن اطلاق اسم الحي على الجماعة التي هي من دم واحد يعلل بالمبدأ السامي القائل بأن حياة الجسد ثاوية في الدم[٣].

وتنقسم القبيلة في صلاتها الدموية إلى وحدات وطبقات أكبرها القبيلة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة فالعائلة. ويذكر الألوسي أن أكثر ما يدور على الألسنة من الطبقات المتقدمة القبيلة ثم البطن، وقل أن تذكر العمارة ثم الفخذ والفصيلة وربما عبر بالحي عن كثير من الطبقات[٤] يقول د احسان النص: نستخلص من الرجوع إلى أشعار العرب أن لفظي قبيلة وحي كانا يدلان على مطلق القوم قلوا أو كثروا، وأنهما أكثر الألفاظ دورانا على السن الشعراء[٥].

وبين القبائل وأفخاذها أو بطونها أو عمائرها عصبية النسب تجمع بعضها إلى بعض الأقرب فالأقرب على الأبعد فالأبعد، فتجتمع فيه الفصيلتان من الفخذ الواحدة على فخذ آخر ولو كانوا جميعا من بطن

(١) الشعراء الصعاليك لخليف ٩١.

(٢) نفسه ١٠٥.

(٣) العصبية القبلية للنص ٦٠.

(٤) المختار من بلوغ الأرب، ١٧٠، ١٧١.

(٥) العصبية القبلية ٦٣.

واحدة، ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة، ثم إن القبائل يتعصب بعضها على بعض[١]، ولشدة اهتمامهم بالعصبية اهتموا بالأنساب اهتماماً عظيما فكان الواحد منهم يعرف نسبه ونسب قبيلته معرفة تامة[٢]. وتسكن القبيلة منطقة محدودة أو تعيش معا عيشة ترحل وانتقال، وتجد في اجتماعها سبب قوتها وتحقق أغراضها الحيوية خاضعة في ذلك لقواعد وقوانين مصدرها العرف والعادات، ومردها إلى رئيس حازم هو شيخ القبيلة، وأهم القوانين القبلية هي قانون الثأر وقانون الخلع وقانون الجوار والأحلاف، وقانون القبيلة العام الذي يربط بينها ويحافظ على وحدتها ويرعى مصالحها هو قانون العصبية وشعورها بأنها وحدة واحدة يجمع بينها دم واحد، فالفرد يحمي القبيلة والقبيلة تحمي الفرد، وإذا انحلت العصبية انحلت القبيلة من أساسها، فكان كل فرد في القبيلة ينصر أخاه ظالما أو مظلوما ويتعصب له تعصباً طاغياً تلقائياً لا يعرف التفكير والتعقل.

وسنتحدث بإيجاز عن هذه القوانين المتصلة بالعصبية القبلية، لما لها من أصداء في الشعر الخليجي الجاهلي.

قانون الثأر:

وهو من قوانين العصبية القبلية فالطلب بالثأر باسم القبيلة ضروري في أمم البادية، لحفظ رابطة القبيلة، والثأر حق القبيلة عن أفرادها المدافعين حتى لا تهان أو تستذل، وهو واجب على كل فرد في القبيلة، فالقبيلة كلها تنهض بالثأر لأنها تعتقد أن سفك دم أحد أبنائها إنما هو سفك لدمها وإهدار لكرامتها،

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٢٩٣.

(٢) المختار من بلوغ الأرب ١٧٠.

ولذلك فإننا لو تتبعنا حروب الجاهلية وأيامها التي تربو على ألف يوم لوجدنا الثأر من أهم دوافع تلك الحروب[١]. والثأر عندهم شيء مقدس أشبه بالعقائد الراسخة، وهذا التعلق بالثأر هو الذي يدفع الموتور إلى إظهار الزهد والتقشف وترك النساء وا لخمر والطيب قبل إدراك ثأره، لأنها من مظاهر البهجة والتنعم ولا تليق بحزين موتور، أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجد في طلب الثأر، ومن مظاهر قدسيتهم للثأر اعتقادهم أن القتيل تخرج من رأسه هامة تنادي على قبره اسقوني فإني صديه، ولا ينقطع نداؤها إلا حين الأخذ بالثأر[٢].

وكان المجتمع الجاهلي يحتقر المتخاذلين عن إدراك ثأرهم، ويرى في قبول الدية عارا كبيرا لا يخل بشرف صاحب الدم فحسب وإنما يخل بالقبيلة كلها، ولا سيما حين يكون القاتل أجنبيا أو من خارج القبيلة، أما إذا كان من القبيلة نفسها فإن شيوخها يقومون بدورهم في إصلا ح ذات البين عن طريق قبول الدية فإن كان أولياء الدم ضعفاء قبلوا الدية، ولجأوا إلى حيلة لحفظ ماء الوجه، وهي أنهم يطلقون سهما في الفضاء قائلين إن رجع مخضبا بالدماء فلا قبول وإن عاد بلا دم فهي مقبوله، والنتيجة معروفة سلفا. وقد اصطلحوا على أن تكون دية الحر مائة ناقة ودية المولى نصفها ودية الملك ألفا.

وإن كانوا أشداء تمسكوا بالقصاص، وفي هذه الحالة لا يحق لأسرة القاتل حمايته؛ لأن آصرة القبيلة أقوى من آصرة الأسرة، فإما أن يقتل القاتل بأيدي قومه أو يخلعوه عنها، ليتمكن ولي الدم من الاقتصاص، أو يخلع الجاني نفسه ويفر من قبيلته نجاة بحياته[٣].

---

(١) النابغة الذبياني للعشماوي، ١٣٠، ١٣١.

(٢) المفضليات، ١٦٠.

(٣) انظر الشعراء الصعاليك لخليف ٩٣، ٩٤ والصراع بين الإنسان والطبيعة ١١٨، ١١٩.

قانون الخلع:

كانت القبيلة تحرص على حماية أفرادها وتحمل جناياتهم والأخذ بثأرهم ما داموا حريصين على مصلحة القبيلة ومتمسكين بتقاليدها وقوانينها فإذا ما خرجوا على رأيها أو تصرفوا تصرفا بدون رضاها أو أساءوا إلى سمعتها بين القبائل أو حملوها ما لا تطيق من الجنايات جاز لها التحلل منهم وطردهم من حماها ويسمى هذا الطرد خلعا والطريد خليعا. وقد تولت كتب اللغة تعريف قانون الخلع ومراسيمه فقال صاحب لسان العرب في ذلك والخليع: الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيبرءون منه ومن جناياته، ويقولون إنا خلعنا فلانا، فلا نأخذ أحدا بجناية تجنى عليه، ولا نؤاخذ بجناياته التي يجنيها[(١)]، ويقول الزمخشري مشيرا إلى أسلوبهم العلني في تنفيذ قانون الخلع وكان الرجل في الجاهلية إذا غلبه ابنه أو من هو منه بسبيل جاء به إلى الموسم ثم نادى أيها الناس هذا ابني فلان وقد خلعته فإذا جر لم أضمن وإن جر عليه لم أطلب[(٢)].

وأكثر حالات خلع الفرد من عشيرته تدور حول القتل والجنايات سواء في داخل القبيلة أو خارجها حين يتقرر القصاص أو تقديم الدية، فتخلع القبيلة عشيرها أو يخلع نفسه منها هربا من أصحاب الدم وأولياء المقتول. وبعض الخلع يتم لأسباب أخلاقية تتصل بسلوك الفرد غير المرضي في قبيلته كما حدث لطرفة بن العبد حين غرق في ملذاته وأدمن الشراب حتى أنفق كل ما عنده من مال، فتحامته عشيرته وأفردته إفراد البعير المعبد على حد قوله[(٣)].

فما زل تشرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحاميتي العشيرة كلها ... وأفردت أفراد البعير المعبد

---

(١) لسان العرب، ٢/ ١٢٣٣ ط دار المعارف.

(٢) أساس البلاغة ١/ ٢٤٧.

(٣) ديوانه ٤٩.

قانون الجوار

وقد ترتب على قانون الخلع نشأة قانون آخر هو قانون الجوار، ولولا هذا النظام لما وجد الخليع لنفسه مكانا يؤويه ويحافظ على حياته بعد أن تتخلى عنه عشيرته وتقطع الأواصر بينها وبينه.

ويعرف صاحب القاموس الجوار فيقول: الجوار أن تعطي الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجيره والجار أيضا الحليف[١]. والمقصود بالجوار في الأصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب، ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار، وكلها بمعنى الحماية والحفاظ، مع أن أصل المادة جار يفيد عكس ذلك، واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق[٢]. والجوار من قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام، وكان العربي يحافظ على جاره محافظته عل عهده، فإذا خاف أحدهم سوءا جاء إلى رجل يحميه، ويكفيه أن يقول أجرني فيجيره بقدر طاقته، وقد يفرط في أهله ولا يفرط في جاره[٣]. وقد قدس الجاهليون الجوار تقديسا عظيما، ومن العلامات الدالة على ذلك أنهم يسمون الجار هديا «وهي تسمية تشعرنا بتلك القداسة التي كانت للجوار في نفوس العرب، فهو عندهم شيء مقدس كأنه قربان يتقربون به إلى الآلهة»[٤] وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف حسب الظروف فكانت أحيانا مؤقتة، وأحيانا أخرى دائمة بل وراثية، وفي بعض الحالات كان المجير يتعهد باجارته من كل الأعداء بل من الموت نفسه،

---

(١) الفيروزبادي: مادة جوار.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٣٠٩.

(٣) نفسه.

(٤) الشعراء، الصعاليك في العصر الجاهلي ٩٦.

بمعنى أن يدفع المجير إذا مات وهو في جواره دية لأسرته[١]، وأقوى حالات الجوار على الإطلاق هي تلك التي يتعهد المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم[٢].

وفي مقابل هذه الحقوق التي كانت للجار كانت عليه واجبات لمن أجاوره، منها أن يحترم الجوار ولا يسيء إلى من أجاوره لا في أشخاصهم ولا في سمعتهم، ولا في حياتهم المادية والمعنوية، فإذا رأت القبيلة ما يسيئها من جارها كان لها الحق في أن تخلعه، وكانت دية الجار نصف دية ابن القبيلة الصريح[٣] الذي له الحق في الإجارة دون غيره من منسوبي القبيلة الدخلاء. وكان الرجل إذا غدر بجاره أوقدوا له نارا بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين ثم صاحوا هذه غدرة فلان[٤]، ولم يكتفوا بذلك وإنما كانوا يرفعون لواء له بسوق عكاظ ليشهروا به ويحذروا منه[٥].



(١) مختار الأغاني ٧/ ٣٩٧.
(٢) المحبر لابن حبيب ٣٤٨.
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٢٩٧.
(٤) المختار من بلوغ الأرب، ١٠٦.
(٥) المفضليات ١/ ٤٣.

الفصل الثالث
البيئة السياسية

أ- علاقة القبائل بالممالك الخليجية.

ب- رؤساء القبائل الخليجية في الجاهلية.

جـ- العلاقات بين القبائل والعشائر.

د- الأحلاف وأيامها.

أ- علاقات القبائل بالممالك الخليجية.

مملكــة الفــرس

أشير فــي البداية إلى بعض ملوك البحرين القــدماء وعلاقتــهم بالفرس وإلى بعض ملوك عمان. فـقد سجلت العملات المكتشفـة في الدور ومليحه وشمال شرق شبـه الجزيرة العربية اسم ملك هجر (ابيئـيل)، ويقترح البعض أنه كان ملك هجـر (الجرهاء) في شمــال شرق الجزيرة العربيــة، أو ربما كان يوجد فرعان للهجريين واحد في هجر/ الجوف والثاني في هجر / الهفوف، أو ربما كان هـناك ملك واحد في شــمال شـرق شبه الجـزيرة العربيـة وهو أبيئيل، وكان ملكا تاريخيا حيث أصبح رمزاً تضرب عليه السكة من جيل إلى جيل. وهذا هو الرأي الراجح. . إضــافة إلى ذلك فإننا نتوقع أن أبيـئيل كان اسم ملك ثم أصبح لقبا ملكيا بعد ذلك(١).

ومن ملوك البحرين القدماء (سنطرق) ويفترض يوتس أن السنطرق حاكم البحرين هو مجرد مرزبان بارثي خاصة أن أردشـير بعدما قضى على الباريثيين في فـارس والعراق بدأ يتـتبع ولاتهم وحكامــهم في الأقــاليم التابعـة للدولة البارثيــة، وهذا يفسر لنا ســر هجومه على جنوب وشــمال شرق شبـه الجزيرة العربية، ولكن هذا الافتراض غـير صحيح على إطلاق ه حيث رأينا أن تيلورا (البحــرين) كانت تحت النفوذ البــارثي/ الميساني منذ القــرن الأول ق م وحتى القرن الأول الميلادي، وكان هناك وال تدمري فــي المنطقة، أو بعبارة أخرى إن الجزء الشــمالي الشرقي من شــبه الجزيرة العربيــة وجزر البحــرين كانت تحت الحكم البارثي الميســاني المشترك، وليس تحت الحكم البارثي منفــردا وحتى بعد عــهدي الملكــين الميســانيين ذوي الأصــول البــارثية (ســيــراداتيس) وخليــفتــه

---

(١) صراي: منطقة الخليج العربي ٢٨٧.

(أورايزيس) الثاني الذي خلفه أربعة ملوك من الأسرة الميسانية الأصلية الحاكمة، ويمكننا أن نفترض أن مهاجمة (أردشير) لأقليم البحرين كان بهدف تحطيم أية مقاومة ضد حكمه يمكن أن تظهر بعد اسقاطه المملكة الميسانية[١].

أما شبه جزيرة عمان التي كانت تعرف بماكا في اللغة الفارسية، فقد ذكرت كولاية أخمينية في نقش الملك الأخميني (داريوس الكبير)، الذي أخضع (ماكا) وفرض عليها ضريبة سنوية. ومن ملوك عمان القدماء (جوايسوس) الذي يرى (جلاسر) أنه كان آخر أمراء الأحباش، أما صراي فيميل إلى كونه حاكماً عربياً ربما يكون تحريفاً لقيس[٢].

وقد اتصل عرب الخليج بالفرس قبل أن تنشأ أمارة الحيرة بزمن طويل، فقد أدوا الجزية للملك (قورش) (٥٥٠ق م) بخورا ولبانا ألف وزنه كل سنة[٣].

وذكر الطبري أن أردشير بن بابك حاصر سنطرق ملك البحرين وضيق الخناق عليه حتى رمى بنفسه من سور الحصن فهلك، فبنى بها مدينة سماها بتن أردشير، كما بنى ثماني مدن منها مدينة الخط بالبحرين[٤].

وفي عهد (سابور ذي الأكتاف) الذي ولي الملك وهو صبي انتهز عرب البحرين فرصة انفلات الأمن فغزوا السواحل الفارسية واستولوا على ما فيها من مزارع ومواشي، بسبب ضيق حالهم من ناحية وانتقاما من ظلم أردشير لهم، فلما بلغ سابورسن الرشد أمسك بزمام السلطة وقاد الجيوش بنفسه، فبدأ بالهجوم على العرب المقيمين بمملكته وفتك بهم وهم غافلون، ثم أنشأ

---

(١) منطقة الخليج: ٣٥.

(٢) نفسه ٢٧٢ - ٢٧٤.

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ١٠٦.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٤٠.

أسطولا على الخليج وقطع به البحر إلى الخط، وقتل أهلها من العرب، وسار إلى هجر واستباح أرضها وأمعن في قتل سكانها من عرب عبد القيس وبكر وتميم، وأكمل سيطرته على البحرين كلها، وغير وبدل في خريطتها السكانية، فأسكن تغلب دارين، وأنزل عشائر أخرى الخط، ونقل بعض عشائر بكر إلى كرمان، وطوائف من تميم وعبد القيس هجر. ثم فرض على العرب عدم الدخول إلى أراضيه إلا بإذن منه، وإلا واجهوا عقوبة الإعدام(١).

وكان للفرس جالية كبيرة في هجر والبحرين، وحامية من الجيش لحفظ الأمن الداخلي، وكانت وراء أبناء الفرس تمدهم بأسباب القوة والنفوذ، كما وضع الفرس ولاة على البحرين منهم المكعبر الفارسي (أزاد فيروز) والمرزبان في هجر. وكان الفرس يستعملون ولاة من العرب على منطقة البحرين والقبائل العربية المجاورة، وآخرهم المنذر بن ساوى، أما الجاليات الفارسية فلها حاكم فارسي يدير شؤونها هو المرزبان الذي اتخذ من الزارة مركزا له. وتحت إمرته قوة عسكرية. محدودة، وليس له سلطة أو نفوذ على العرب(٢).

يوم الصفقة:

ذكرت عدة روايات لهذا اليوم، لعل من أدقها رواية التبريزي، يقول: يوم المشقر يوم كان فيه بلاء وشر، والمشقر مدينة بهجر، وكانت بنو تميم وألفاف من القبائل قطعوا على لطيمة كسرى جاءت من قبل باذام من قبل اليمن، فلما صارت في أرض نجد خفرها هوذه بن على الحنفي، فعرض لها بنو تميم بموضع يقال له نطاع، فأخذوا منها سيوفاً ومناطق ذهب وآنية جواهر وعطرا، فمضى الأساورة الذين كانوا فيها وهوذه معهم، فأخبروا كسرى

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٤٧.

(٢) فتوح البلدان ٧٨، ٨٠ والطبقات الكبرى ٢/ ١٩.

الخبـر، فكتب إلى (جوانبـوذان) من أرض شيرخـره، وكان عاملـه على هجر يأمره أن يصفق على مـضر، ووافق ذلك جدبا من الزمان، وكـتب إلى عماله على عذار العرب- وهو فصل ما بين العرب والعجم- أن يمنعوهم الميرة، وفتح جوانبوذان باب المشقر وأذن للعرب في الميرة ومكر بهم، فجعل يدخلهم خمسة خمسة وعشرة عشـرة، وأقل وأكثر، يدخلون من باب السوق على أن يخرجوا من باب جيار، فكلـما دخلت قطعة ضرب أعناقهم، فلمـا طال ذلك عليهم، يدخل الناس ولا يخرجون بعثوا فنظروا إلى أبواب المشقر، فإذا هي مأخوذ بها ما خلا الباب الذي يدخلون منه، فشد رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها وخرج، وخـرج من كان يلـيه، وأمر المكـعبر وهو جـوانيوذان - وإنما سـمي مكعبرا لكعبرته الرؤوس - بإغلاق الباب، ثم قتل من بقي في المدينة.

وكان كـسرى حين قـدم عليه هوذه أو جـهه ونادمـه وألبسه تـاجا من تيجـانه، وقدم هوذه على جوانبـوذان يريد أن ينفذ إلى اليمـامة يوم الصفـقة فكلم جوانبوذان في مائة من تميم، فوهبهم له وأعتقهم هوذه، وكانت الصفقة يوم الفصح، أي يوم فطرهم(١).

يوم ذي قار

لما قتل كسرى النعمان بن المنذر تحت تأثير مكيدة زيد بن عدي الانتقامية من قتل النعمان لأبيـه طلب عامل كسرى على الحيرة إياس بن قـبيصة الطائي من هانيء بن مسعود الشيباني مـا استودعه النعمان من السلاح والأهل والمال، فرفض إعطاءه ذلك الأمـر الذي أغضب كسـرى، وقد زاد من غضبـه إغارات بكر المتكررة على سواد العراق، فقرر كسرى مـحاربتها، وقد شجعه على ذلك النعمان بن زرعـة التغلبي. وكانت بكر تنزل بذي قار في الصـيف، فلما علم

(١) هجر وقصباتها الثلاث ٨٤ ، ٨٥.

كسرى بوجودها هناك، عقد للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر، وعقد لخالد البهراني على قضاعة وإياد، وعقد لإياس بن قبيصة على العرب، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر، فكانت العرب ثلاثة آلاف، وعقد للهامرز على ألف من الأساوره، وعقد لخنابزين على ألف. وفي بطحاء ذي قار تجمعت بكر بكل بطونها عدا بني حنيفة، وقد أسندت أمرها إلى حنظلة العجلي، فأمر بقبته فضربت بوادي ذي قار، ثم نزل ونزل الناس فأطافوا به، فقال لهانيء بن مسعود: يا أبا أمامه إن ذمتكم ذمتنا عامة وإنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا فأخرج هذه الحلقة ففرقها بين قومك، فإن تظفر ترد إليك وإن تهلك فأهون مفقود، فأمر بها هانيء فأخرجت وفرقت في القوم، فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم يسيرون على تعبيه ومعهم الجنود والأفيال عليها الأساورة فأشار عليهم ربيعة السكوني - الذي كان نازلا فيهم هو وقومه - ألا يستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلكهم بتشابها، ولكن يتكرد سوا كراديس فإذا أقبلوا على كردوس شد الآخر، فاستحسنت شيبان رأيه. ولما تقارب الزحفان قام حنظلة بن ثعلبه فقال: إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء وابدأوهم بالشدة، ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه، ثم تتبع الظعن يقطع وضنهن، فقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته، ثم ضرب قبة على نفسه ببطحاء ذي قار وآلي ألا يفر حتى تفر القبة، وقطع سبعمائه من شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف، ثم قام الخطباء والرجاز بدورهم الحماسي. ووقف الجيشان متقابلين، فكانت بنو عجل في الميمنة بإزاء خبابزين، وعليهم حنظلة بن ثعلبة، وبنو شيبان في الميسرة بازاء كتيبة الهامرز، وعليهم بكر بن مسهر، وأفناء بكر في القلب وعليهم هانيء بن مسعود، فخرج أسوار من الأعاجم من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للبراز فبرز له يزيد بن حارثة من بني يشكر فشد عليه بالرمح فطعنه ودق صلبه.. وخرج الهامرز يدعو إلى البراز فخرج إليه الحوفزان

فقتله، وأشار عليهم حليفهم يزيد السكوني بعمل كمين ففعلوا. . واجتلدوا وحملت ميمنة بكر وعليها يزيد بن مسهر على ميسرة الجيش، وخرج عليهم الكمين من الخبيء وعليهم يزيد السكوني فشدوا على قلب الجيش.

وكانت إياد قد وعدت بكر بالفرار من المعركة فولت منهزمة، وانهزم الفرس، فتبعتهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ودخلوه في طلب القوم(١).

وهكذا نرى أن قبيلة واحدة من قبائل الخليج العربية قد تمكنت بوفائها وشجاعتها أن تدحر عدوان المعتدين وتخلص بلاد البحرين من وصمة الأستعباد للفرس، ذلك الاستعباد الذي أشار إليه طرفة بن العبد في قوله

خذوا حذركم أهل المشقر والصفا عبيد اسبذ والقرض يجزي من القرض

يقول أبو عمرو الشيباني : اسبذ اسم ملك كان من الفرس ملكه كسرى على البحرين فاستعبدهم وأذلهم، وإنما اسمه بالفارسية (اسبيدويه) يريد الأبيض الوجه، فعربه الشاعر فنسب العرب أهل البحرين إلى هذا الملك على جهة الذم، والغالب على أهل البحرين عبد القيس(٢).

يوم قلهات

وإذا كان خليجيو البحرين العرب قد انتصروا على الفرس في ذي قار، فإن خليجي عمان العرب قد سبقوهم بزمن طويل إلى الانتصار على الفرس وتشير بعض الروايات أنه بلغ من عظمة مالك بن فهم الأزدي أن وجه قوة تقدر بستة آلاف فارس لمجابهة الفرس الذين مدوا نفوذهم إلى عمان، واصطدم معهم في يوم مشهور يسمى يوم قلهات، قامت بين الطرفين حرب طاحنة

---

(١) أيام العرب في الجاهلية، ٦.

(٢) معجم الشرقية للجاسر ١/١٥١.

انتصر فيها مالك بن فهم، وانهزم الفرس في عمان[١].

مملكة تنوخ:

في أوائل القرن الأول للميلاد نزحت قبيلة قضاعة إلى البحرين بقيادة مالك بن فهم، وقد تزامن هذا النزوح مع هجرة قبيلة الأزد ومن معها إلى المنطقة ذاتها، وكان زعيمها يدعى أيضا مالك بن فهم، فتعاقد الزعيمان على الصداقة والنصرة، وأسسا حلفا أطلقا عليه اسم (تنوخ) وانضم إلى هذا الحلف عدد من القبائل الأخرى كإياد وغيرها[٢] ويرى ابن حزم أن تنوخ على ثلاثة أبطن بطن اسمه فهم وهم هؤلاء، وبطن اسمه نزار وهم لوث ليس نزار لهم بوالد ولا أم ولكنهم من بطون قضاعة كلها من بني العجلان بن الثعلب ومن بني تيم الله بن أسد بن وبره ومن غيرهم، وبطن ثالث يقال له الأحلاف وهم من جميع قبائل العرب كلها من كندة ولخم وجذام وعبد القيس[٣]. ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعمة ودوس الذين تتنخوا بالبحرين[٤].

وهناك رواية أخرى للقبائل التي نزحت من تهامة إلى البحرين[٥] ذكرت قبائل معد وحدها وإلى جانب ذلك ذكرت خبر مالك وعمرو بن فهم ابن تيم الله ورهطهما، وخبر الحبقار بن قنص بن معد مع قنص كلها، وعشائر إياد بن نزار بن معد الثلاث، لم يذكر ياقوت سوى غطفان بن عمرو ابن الطمثان بن عوذ مناه بن يقدم بن افصى بن دعمي بن إياد، وتجمعت هذه القبائل كلها في البحرين، وتحالفوا على التآزر والتناصر وتسموا باسم تنوخ،

(١) الخليج العربي في العصور الإسلامية ٣٦.

(٢) العرب قبل الإسلام ١٩٥.

(٣) جمهرة أنساب العرب، ٤٥٣.

(٤) نهاية الارب للنويري، ١٧٨.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة تنوخ.

ويقول الطبري وابن الأثير إن عشائر نماره بن لخم قد لحقت بهم في البحرين أيضا، وتزوج جذيمة الأبرش من لميس أخت مالك بن زهير فتحالف الأزد مع تنوخ وطمع العرب في أرض العراق المزروعة وانتهزوا فرصة النزاع بين ملوك الطوائف فدخلوها شيئا فشيئا، وكان الحبقار وقنص وغيرهما أول من طلع منهم فتلاقوا مع الأرمانيين والإردوانيين، واستولوا على منازلهم، ثم اختلطوا بعرب الأنبار والحيرة، وتبعهم تيم الله وإياد وحلفاؤهم إلى الأنبار، ثم اتجه نماره بن قيس بن نماره أو نماره بن لخم، وقبائل كنده وغيرهم إلى الحيرة، وهناك لبس كبير في أسماء القبائل المختلفة فياقوت يطلق عليهم اسم تنوخ دون غيرهم، وهم الذين اندمج معهم بالحيرة عرب الجنوب الذين خلفهم وراءه أسعد أبوكرب التبعي عندما اخترق هذه البلاد، ويتم ياقوت كلامه فيقول : إن غالب تنوخ نزلوا فيما بين الأنبار والحيرة يحدها الفرات شرقا والصحراء غربا، ويعرفون بعرب الضاحية، ويسكنون المظال وخيم الشعر، ولا ينزلون بيوت المدر، ثم أورد جريدة بأسماء ملوكهم، وكان أولهم مالك بن فهم وخلفه أخوه عمرو ثم من بعده جذيمة الأبرش، وكان ملكه يشمل الحيرة والأنبار وبقه وهيت وعين التمر والبلاد حتى الغمير والقطقطانه وما وراء ذلك. وفي جذيمة ومغاراته على الأمم الخالية من العاربة الأولى نقل ابن جرير عن ابن الكلبي قوله مشيرا إلى منزله بيبرين من نواحي البحرين[(١)].

أضحى جذيمة في بيرين منزله ... قد حاز ما جمعت من قبلها عاد

مستعمل الخير لا تفني زيادته ... في كل يوم وأهل الخير تزداد

قال الطبري: وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأيا وأبعدهم مغارا وأشدهم حزما، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وسرى بالجيوش،

(١) الطبري ١/ ١١٦ - دار المعارف بمصر وسرح العيون ٤٢.

وكانت تجبى إليه الأموال[١]، وفي دائرة المعارف الإسلامية، وقد تكون تنوخ أقدم مثال على اندماج عدد كبير من القبائل العربية بعضها في بعض، ولم يتفق الكتاب قط في شأن العمائر التي تتألف منها تنوخ إلا في تيم الله، وفي أنهم انضموا إلى الحلف قبل أن يفدوا على العراق (أي في البحرين) وتجمع الروايات على أن أصل دولة الحيرة يرتبط باسم تنوخ، ومن الثابت في التاريخ أنهم من أهم أحيائها.

مملكة لخم:

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية، حتى إذا ما وصلوا إلى وادي الفرات أقاموا في ربوعه. وفي أوائل القرن الثالث الميلادي، وإبان الأضطرابات التي أعقبت سقوط الأسرة البارثية، وقيام الأسرة الساسانية حوالي عام ستة وعشرين ومائتين للميلاد تحت زعامة أردشير بن بابك بن ساسان وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية، وسكنت في المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات، وما ان يمضى حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرفت بالحيرة تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة. وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة واقترابه منه على بعد خمسين كيلا- التي أصبحت بمثابة حصن للملك الفارسي حيال العرب الرحل[٢].

ولفظ الحيرة سرياني معناه الحصن أو المعقل حوله الخندق، وهي والحير العربية من أصل واحد[٣] وفي أول من أسسها أقوال، منهم من ذكر أنه

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٤٢.

(٢) إيران في عهد الساسانين لـ آرثر كريستنسن ص ٨٢ ترجمة يحيى الخشاب - القاهرة - ١٩٥٧.

(٣) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ٢٢٣.

يختنصر ومنهم من قال أنه الاردوان ملك النبط ومنهم من رأى أنه تبع[١].

وتقع الحيرة على مقربة من مدينة بابل القديمة، وعلى مبعدة ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة، في موضع يقال له النجف في حدود البادية بينها وبين العراق، وتقع الآن في الجنوب الشرقي من مشهد علي[٢]. وفي نهاية طريق يجتاز شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافي هذا مركزا هاما جدا للقوافل لم يسع الساسونيون إهماله، فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم[٣].

ويتكون سكان الحيرة من ثلاث طوائف: تنوخ والعباد والأحلاف، فالأولى هم جماعات البدو الذين كانوا ينيخون حول البلد وعلى مقربة منها، وهم أخلاط من عرب البحرين وعمان وبوادي الشام وبعضهم سكن الحيرة، أما العباد فاسم يطلق على نصارى الحيرة نفسها دون غيرهم من نصارى العرب وهو اسم يميزهم عمن كان فيها من الوثنيين، وقد يكون أصلهم عباد المسيح، وهم في الأصل قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية في الحيرة، والثالثة الأحلاف وهم الذين نزلوا الحيرة وما حولها، ولم يكونوا عربا أو عبادا، وكان معظمهم من الفرس والنبط وقد كان بعضهم يتحدث العربية برطانة ظاهرة، وتأثرت عربية عرب الحيرة بهذه الرطانة[٤]. وتشير المصادر إلى أن عبد القيس ساهمت في بناء الحيرة[٥].

---

(١) الهاشمي: طرفة بن العبد: ص ١٧.

(٢) العرب قبل الإسلام ٢٢٣.

(٣) تاريخ العرب القديم ٥٧٧.

(٤) العرب قبل الإسلام ٢٢٤.

(٥) السهيلي: الروض الأنف ١/ ٥٣.

وشكلت جزءاً من سكانها، وقد كثر العرب المقيمون على أطراف العراق حتى ضاق الفرس بكثرة من أتت تنوخ بهم من العرب فضيقوا عليهم حتى كره بعضهم الإقامة ومنهم قضاعة فنزحوا، أما لخم فبقيت وتوارث ملك الحيرة بها بنو نصر[١]. فالحيرة - كما رأينا - تكونت من موجات عربية اندفعت من الجزيرة إلى العراق فنزلت الخيام في أول الأمر، ثم تحولت إلى قرية في الجنوب الشرقي من مدينة النجف الحالية، وما لبثت هذه القرية أن أصبحت حاضرة العرب الوافدين إلى العراق، ثم تمر الأعوام فإذا هي عاصمة مملكة عربية تألق نجمها على شاطيء الفرات الأيمن الخصيب[٢].

وتنسب هذه المملكة إلى تنوخ تارة، وإلى لخم تارة أخرى، كما ينسب ملوكها إلى بني نصر حينا، وإلى المناذرة حينا، كما عرفوا بالنعامنه، وبآل محرق. حسب الراحل التاريخية التي مرت بها الحيرة، وتردد اسم النعمان والمنذر بين ملوكها[٣]. ويذكر الطبري أن أولهم عمرو بن عدي الذي كان أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب اللخميين، وأول ملوك آل نصر، فاتصل له ولعقبه الملك على من كان بنواحي العراق، فاستعمله ملوك فارس على ذلك إلى آخر أمرهم[٤]، وهلك لعهده فولي مكانه ابنه امرؤ القيس الملقب بالبدء وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس، وامتدت سلطته على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من بادية العراق والحجاز

---

(١) عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٥١.

(٢) الهاشمي: طرفة بن العبد. ص١٨.

(٣) نفسه، وتاريخ شبه الجزيرة العربية ١٥١.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/٥٤٦.

والجزيرة[١]، وقد عثر المستشرق الفرنسي دوسو على نص وجد مكتوبا فوق قبره يقول إنه كان ملكا على العرب كلهم[٢]، وهو يشير إلى اتساع ملك المناذرة، وإلى شمر ملك سبأ وجيوشه التي انطلقت من نجران فتحالفت مع قبائل مذحج في وسط شبه الجزيرة العربية، وعملت على التوسع في المنطقة الشرقية على الخليج العربي وأطراف العراق، وعندما ظهرت قوى امريء القيس شن هجومه المضاد، فشتت قبائل مذحج حلفاء شمر وحاصر نجران التابعة له ولعله وجد العون أوالخضوع من قبائل عربية متفرقة مما سمح له بأن يدعى في نصه حكم قبائل أسد ونزار ومعد[٣] وقد كان الطموح السياسي لهذا الملك الذي عاصر سابور ذا الأكتاف وراء تكوينه امبراطورية عربية مستعينا بعبد القيس ذات القوة لتحقيق آماله[٤]، وكانت البحرين من ضمن الولايات التابعة له. وهلك فولي مكانه ابنه عمرو ثم هلك فولي بعده ابنه امرء القيس، ولما هلك ولي ابنه النعمان، وهو صاحب الخورنق وصاحب الكتيبتين الدوسر ورجالها من الفرس والشهباء ورجالها من تنوخ، ثم جاء المنذر وهو الذي تولى تربية بهرام دفعه إليه يزدجرد الأثيم فعني بتعليمه وتأديبه، وجاء بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى اشتمل على ذلك كله بما رضيه،[٥] ثم هلك يزدجرد وعدلوا عن بهرام لمرباه بين العرب، وجهز المنذر العساكر لبهرام لطلب ملكه فأذعن له الفرس. وأطاعوه واجتمع له الأمر[٦] . وكان بهرام جور يتكلم لغات كثيرة منها العربية، ومن

---

(١) تاريخ العرب القديم ٥٨١.

(٢) العرب قبل الإسلام ٢٢٦.

(٣) تاريخ شبه الجزيرة العربية، ١٥٣.

(٤) الخليفة والحمر: البحرين عبر التاريخ ٥٩.

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢/٥٤٨.

(٦) نفسه ٢/ ٥٥٠.

شعره[١]

لقد علم الأنام بكـــل أرض بأنهم قد أضحوا لي عبيـــدا

ملكت ملوكهم وقهرت منهـم عزيزهم المســـود والمســـودا

فتلك أسودهم تبغي حـذاري وترهب من مخـافتي الورودا

وكنت إذا تشـاوس ملك أرض عبأت له الكتائب والجنـــودا

فيعطيني المقـــادة أو أوافـــي به يشكو الســلاسل والقـيودا

ثم ملك المنذر بن امـرىء القيس وهو ذو القرنين وأمـه ماء السـماء[٢] وكان أشـد المناذرة ضرابا ونجاحـاً في حروبه مع الروم التي تتـابعت منذ عام (٥١٩ حتى ٥٥٤م) حتى لقد اكتسح في أوائلها بادية الشام من حدود العراق إلى أنطاكية[٣] كمـا اجتاح بني بكر ببـلادهم بالكويت في يوم أواره الأول. وكانت تغلب قد خلعت سلمة بن الحارث الكندي، فسار سلمه حتى أتي بكر بن وائل بأسرها فملكته عليها، ولحقت تغلب بالمنذر بن مـاء السماء، فطلب من بكر الدخـول في طـــاعـته، فـأبت ذلـك فحـلف المنذر إن ظفـر بهم ليذبحـنهم على قلة جبل أواره حـتى يبلغ دمهم الحـضيض، ولقـيهم بأواره فهـزمهم وقـتل منهم الكثـير وأسـر منهم الكثـيـر، فأمـر بهم فذبحـوا على جبـــل أواره فجعل الدم يجمد، فـقال ربيعة التغلبي أبيت اللعن لو ذبحت كل بكـــري على وجه الأرض لم تبلغ دماؤهم الحضيض، ولكن لو صببــت عليه الماء، ففعل فبلغ الدم قرار الأرض، وسمي ربيعة بالوصاف، وأمر الملك

(١) نهاية الأرب ١٥/ ١٨٠.

(٢) تاريخ العرب القديم ٥٨٦.

(٣) تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٥٤.

بالنساء أن يحرقن بالنار، وكان رجل من قيس بن ثعلبة منقطعا إلى المنذر فكلمه في سبي بكر فأطلقهن له. وكان لتغلب الدور البارز في هزيمة بكر وحيازة بيوتها[١].

وقد بلغت الحيرة في عهد المنذر الثالث أوج عظمتها حينما صارت مركزاً للأنشطة السياسية والدبلماسية والحربية التي شارك فيها كل من فارس وبوزنطة وشبه جزيرة العرب[٢].

وجاء بعد المنذر ولده عمرو بن هند من زوجه هند بنت عمرو بن حجر، وقد أشار الأعشى في شعره إلى نفوذه الذي امتد ما بين عمان وبين فلج، وقد استغل هذا الملك ضعف أخواله الكنديين فوسع نفوذه على حسابهم، وتحاربت قواته مع تميم وطي وتغلب وغيرها[٣]. وقد حذا عمرو ابن هند حذو غيره من ملوك لخم وجفنه الذين أدركوا أن الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرأي العام بين العرب يديرون دفة الدعاية كيفما شاءوا، فلم يأل جهدا في إكرامهم وغمرهم بفضله كما فعل سواه من الملوك طمعا في اجتذاب العرب إليه[٤] ويظهر من الروايات ومن شعر الشعراء أنه كان سريع الأنفعال يتألم بسرعة مما يسمع، ولذلك تعرض لكثير من المشكلات بسبب حسه المرهف وانفعاله الحاد، وكان هدفا لكثير من الشعراء سددوا إليه سهام هجائهم وقذفوه بمر القدح والتجريح والتشهير، وقالوا عنه

---

(١) أيام العرب في الجاهلية، ٩٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ١٦/ ٢٣٦.

(٣) تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٥٤.

(٤) تاريخ العرب القديم ٥٨٨.

انه لا يبتسم ولا يضحك وكان شديد الهيبة(١). ويسمى محرقا بعد يوم أواره الثاني وسببه أن المنذر بن ماء السماء وضع ابنا له يقال له مالك عند زراره بن عدس الدارمي، وكان أصغر ولد المنذر، فبلغ حتى صار رجلا فخرج ذات يوم يتصيد فأخفق فمر بإبل لسويد الدارمي، فأمر مالك ببكرة منها فنحرها، ثم اشتوى وسويد نائم، فلما انتبه شد على مالك بعصا فأمه ومات، فخرج سويد هاربا حتى لحق بمكة وعلم أنه لا يأمن فحالف بني نوفل بن عبد مناف، واختط بمكة تاركاً وراءه زوجه بنت زراره وسبعة غلمة منها. ثم ملك عمرو بن هند وعلم بذلك فغزاهم، وقد أجج نزعة الانتقام لديه أبيات لعمرو ابن لقيط الطائي حيث كانت طي تطلب عثرات زرارة وبني أبيه، منها قوله عن ابن المنذر المقتول.

تسفي الرياح خلال كشـ ... حيه وقد سلبوا إزاره

فاقتل زرارة لا أرى ... في القوم أوفى من زراره

فاختفى زراره عن أنظار عمرو بن هند، لكنه ظفر بزوجته - وكانت حاملا - فبقر بطنها، ثم عاد زراره إلى ابن هند وصدقه الخبر، فقال له ائتني بسويد فأعلمه أنه لحق بمكة، فطلب عمرو بنيه السبعة فقتلهم جميعا، وحلف أن يقتل من بني دارم مائة رجل، فأخذ منهم ثمانية وتسعين بأسفل أواره فأحرقهم، وألحق بهم أحد البراجم وأكمل المائة بامرأة منهم ذات جرأة وفصاحة(٢).

ويستظهر من بعض الروايات أن عهد عمرو بن هند كان متسما بشيء

(١) الهاشمي: طرفة بن العبد، ٣٥.

(٢) أيام العرب في الجاهلية، ١٠٢.

غير قليل من الازدهار والدقة والنظام، ففيها ما يفيد أنه أول ملك ختم رسائله[١].

وهكذا أصبحت الحيرة في عصره موئل الشعراء يأتون إليه من شبه الجزيرة العربية ينشدونه شعرهم وينالون جوائزه، ويعقدون المناظرات في حضرته[٢]، رغم بغيه وعتوه. وجاء بعد عمرو أخوه قابوس الذي كان موضع ثقة أخيه وقائد جيوشه ضد الرومان، وكان عمرو بن هند يعهد إلى أخيه قابوس كذلك بشئون البادية، وليس صحيحا ما ذهب إليه البعض من أن قابوسا كان ضعيفاً أو أنه لم يكن ملكا، فقد أطلق عليه يوحنا الأفسوسي لقب ملك، كما أنه كثيرا ما كان يقود الجيوش على أيام أخيه[٣]. ثم جاء المنذر بن المنذر مخلفا ثلاثة عشر ولدا دون أن يعهد لأحد منهم، ويختار كسرى النعمان بحيلة من عدي بن زيد، وهذا يشير إلى أن عرش الحيرة أصبح بيد كسرى وليس بيد آل لخم[٤] ويشير أحد الباحثين إلى فصاحة النعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس على الرغم من دمامة خلقه، وإلى بلاطه وأنه كان مجمعا للشعراء، وإلى نفوذه وأنه حاول أن يمده من البحرين شرقاً إلى جبل طي غربا، إلا أنه لم يوفق في حروبه سواء مع بني يربوع أو بني عامر أو تغلب، كما كان سيء الحظ مع كسرى الذي مات في سجنه[٥]. وكان النعمان نصرانيا على المذهب النسطوري الأقل كراهية للفرس، وقد سار على نهجة كثير من سادة القوم، وكانت أمه سلمى من أصل يهودي، كما

(١) طرفة للهاشمي ٣٥.

(٢) تاريخ العرب القديم ٥٨٨.

(٣) المصدر السابق ٥٩١.

(٤) نفسه.

(٥) عبد العزيز الصالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٥٥.

كان أبرش أحمر قصيرا، وقد أثر ذلك في نفسيته وسلوكه حتى أصبح سريع الغضب سهل التصديق للوشايات حتى أوقع بعدي بن زيد الذي أجلسه على العرش، وحين أراد أن يكفر عن خطيئته هذه أضاع عرشه وأضاع نفسه[١] وانطوت بذهابه دولة المناذرة.

وقد صاغ المناذرة دولتهم على النمط الفارسي، فجمعت حضارة الحيرة بين تقاليد العرب ورفاهة الفرس، فتتوج ملوكها بالتيجان على عادة الأكاسرة وأمروا بالحجاب بينهم وبين الناس مثلهم، واتخذوا الروادف أشباه الوزراء أوالنواب[٢]. وكان ملك الفرس مستبدا بحكمه وكذلك ملك الحيرة، ولأكاسرة الفرس بلاط وقصور، وعلى نحوها أسس بلاط الحيرة وشيدت قصورها، وتحت تصرف ملك الحيرة قوة عسكرية بعضها نظامي وبعضها غير نظامي، فمن الأولى الشهباء والدوسر، ومن الثانية الرهائن وهي خمسمائة رجل يأخذهم الملك رهائن من قبائل العرب ليقيموا عنده سنة ثم يبدلون بغيرهم ويشاركون الملك الحيري في غزواته، ومن هذا الصنف الصنائع وهم خواص الملك والمقربون إليه وهم من بني قيس بن ثعلبة وبني تيم اللات من بكر، ومن ذلك أيضا الوضائع وهم ألف رجل من الفرس يضعهم كسرى تحت تصرف ملك المناذرة في الحيرة ويبدلون كل عام[٣]. وكما اتخذ ملوك الفرس المضحكين وأهل الهزل في بلاطهم، وكانوا في الطبقة الثالثة فقد فعل ذلك ملوك الحيرة، فقد كان للنعمان بن المنذر مضحكا من أهل هجر يدعى سعد القرقرة[٤].

---

(١) تاريخ العرب القديم ٥٩٢.

(٢) تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٥٥.

(٣) عمر شرف الدين: الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة ١٢، ١٣.

(٤) الزركلي: الأعلام ٣/ ١٣٦.

وقد صارت الحيرة بحكم موقعها الجغرافي في ملتقى ثلاثة تيارات متفاعلة: تيار الثقافة الفارسية وتيار الثقافة العربية الوثنية وتيار الثقافة البيزنطية التي مثلتها أساسا النصرانية النسطورية(١).

والراجح أن الخط العربي تطور أول ما تطور في الحيرة(٢)، وتقص الروايات أن صناعة الكتابة راجت في الحيرة ومنها انتشرت في ربوع جزيرة العرب،(٣) ويقال إن إيا د أول من أدخل الحروف العربية بالحيرة(٤)، وكانت قبل ذلك تستعمل السريانية(٥).

يقول د محمد الهاشمي عن الحيرة: ومما لاريب فيه أنها كانت تتنفس في جو الحضارة الفارسية التي كانت تبسط ظلها على المنطقة، وربما سقطت إليها بعض تأثيرات من الحضارة البيزنطية بحكم الحروب التي كانت رحاها تدور بين المناذرة وغساسنة الشام والبيزنطيين، كل ذلك أعد الحيرة لأن تكون قاعدة خصبة لحضارة غنية، ومقر مملكة مترفة يفيء إلى ظلالها الشعراء العرب كلما أومضتهم رمضاء الصحراء وأجهدهم لغوب الكدح وقسوة العيش(٦).

مملكة كنده

يقول جرجي زيدان : أصلهم فيما رواه الثقات من البحرين والمشقر، ثم أجلوا عنهما إلى حضرموت، وكان عددهم ثلاثين ألف نفس، وأقاموا

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٦/٢٣٦.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ١٦/٢٣٥.

(٤) نفسه ٥/٢٥٤.

(٥) تاريخ العرب القديم ١٠/٥.

(٦) طرفة بن العبد ١٨، ١٩.

فيها في بلد يعرف باسمهم (كنده) قصبته دمون[١].

وهناك من يقول: إن مملكة كندة نشأت في جبال اليمن مما يلي حضرموت، ولكن سلطانها شمل شتى بقاع الجزيرة العربية، فكان لهم السلطان على بادية الحجاز ونجد والقبائل القاطنة شرق الجزيرة[٢].

ثم احتدمت المنازعات بينها وبين الحضارمة فنزحت إلى الشمال، وتعاقب على كنده ملوك جدهم الأعلى يدعى ثور السبيء، وفي عهد الملك الحميري تبع الأكبر أو ولده حسان ولي أحدهما حجر آكل المرار على أرض معد[٣]، وهي منطقة واسعة لعدة قبائل عربية كان ملك حمير قد أخضعها في وسط شبه الجزيرة العربية، وإن كان سلطانها محدودا[٤]، فنزل حجر بن عمرو ببطن عاقل بنجد وأغار ببكر فانتزع ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر، وتصادم مع الضجاعمة وحلفائهم الغساسنة على أطراف الشام، كما تصادم مع المناذرة على أطراف العراق[٥] وقد لجأ التّبابعة إلى إنشاء مملكة كندة كوسيلة للسيطرة على الطرق الشمالية التي كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها، وبهذا تصبح كندة للتبابعة كما كان اللخميون للفرس والغساسنة للروم[٦].

وفي منتصف القرن الخامس الميلادي ثارت قبائل معد العدنانية بقيادة كليب وائل واستطاعت أن تتخلص من حكم اليمن، غير أن الحرب اشتعلت

(١) العرب قبل الإسلام ٢٤٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ١٧٦ نقلاً عن شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٤١.

(٣) عبد العزيز الصالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٦٣، ١٦٤.

(٤) محمد مهران: تاريخ العرب القديم ٦٠٣.

(٥) تاريخ شبه الجزيرة ١٦٤.

(٦) تاريخ العرب القديم ٦٠٣.

بين قبائل معد، وحدثت حـرب البسوس بين بكر وتغلب، واستمرت أربعين عاما، فانفرط عـقد هذه القبائل وأخذت كل قبيلة تسعـى إلى استقلالها(١). وجـاء الحارث الكندي في الفـتـرة من (٤٩٥ - ٥٢٨م) وكان أقـوى ملوك كندة، وقـد ساعدتـه الظروف فأصـبح أعداؤه من بني بكر وتغلب في حـالة ضعف شديد، وقـد نجح الحارث في إعادة سلطانه على قبائل ربيـعة في نجد وعلى بنـي أسـد وبني كنانة وبـني بكر، حين نزحت هي وتـغلب من أرض اليمـامة نحـو الشمـال، بعد أن مزقـتهـا حرب البسـوس تريدان النزول في البحرين والعراق، وسنحت الفرص لعلو شأن الحارث الكندي نتيجة لأمرين، وهما: انتقـال صيته إلى فارس بعـد أن أغار اتباعه البـدو على حدود العراق وحوافـه الزراعية، وفـشلت جيوش الحـيرة في إخـضاعهم، ثم رغـبة الملك الفارسي قـباذ في إيجاد منافس قوي أمـام المنذر الثالث ملك الحيـرة حتى لا تزيد أطماعه بعد انتصاراته الأولية على الغساسنة(٢).

وفي أيام قباذ انتشرت مباديء مزدك التي تدعو إلى أنواع من الإشتراكية البدائيـة في الأموال والنساء لمـواجهة الأغنيـاء الذين اغتصـبوا أموال الفـقراء فتـبناها هذا الملك الفـارسي، ودعا المنذر بن مـاء السمـاء إلى المزدكيـة فأبى وأسرها قبـاذ في نفسه، وعرض دعـوته على الحارث الكندي فأجابـه إليها، الأمر الذي جعله يعزل المنذر عن عرش الحـيرة ويولي الحارث مكانه فيما بين عامي (٥٢٥ و ٥٢٨م)(٣) وهكذا اتسع ملك الحـارث فـجعل أولاده ملوكـا على القبائل، فكان حجر على بني أسد وغطفان وكان شرحبيل على بكر بن

(١) البحرين عبد التاريخ ١/ ٨٠ نقلاً عن شعراء عبد القيس للمعيني ٩٥.
(٢) تاريخ شبه الجزيرة العربية ١٦٤.
(٣) تاريخ العرب القديم ٦١٠.

وائل وعلى بني حنظله ودارم بن تميم والرباب، وكان معد يكرب على قيس عيلان وطوائف أخرى، وكان سلمه على بني تغلب والنمر بن قاسط وعلى بني سعد بن زيد مناه، وكان عبد الله على عبد القيس[١]. جرى هذا التوزيع بعد أن تفاسدت القبائل، وبعد أن ذاع صيت الحارث في البادية وخلال حكمه لمملكة الحيرة بوجه خاص. وهكذا تكون كندة قد سيطرت على قبائل معد كلها، واستمر الحارث على عرش الحيرة وما حولها ولكن لفترة قليلة تتراوح بين ثلاث وأربع سنوات (٥٢٥-٥٢٨)[٢]، فقد أعاد ملك الفرس الجديد كسرى أنوشروان المنذر بن ماء السماء إلى عرشه في الحيرة، وطرد الحارث الذي قيْل عنه أنه قتل أو مات حتف أنفه[٣].

وبسقوط عميد كنده، أخذت عُرى هذه الدولة في التفسخ والانحلال فطفقت القبائل الخاضعة لها في التمرد والاستقلال أو الدخول مرة ثانية في طاعة المناذرة باستثناء بكر، وقد قيل أن تغلب سلمت المنذر ثمانية وأربعين فردا من أسره الحارث فأمر بضرب رقابهم، ثم تقاتل أبناء الحارث بعضهم مع بعض حتى ذهبت ريحهم،[٤] وقد اتبع المنذر معهم سياسة (فرق تسد) ونجح في ذلك، وبخاصة بين الأخوين شرحبيل وسلمة، حيث كان الأول وهو الأكبر على قبائل بكر وما والاها من قبائل المنطقة الشرقية، وكان الثاني على قبائل تغلب والنمر بن قاسط فما زال المنذر ينفخ في نار الفتنة بين الأخوين حتى نشبت الحرب بينهما في يوم الكلاب الأول الذي انتهى بقتل شرحبيل، وسرعان ما أخرج بنو تغلب سلمة من بينهم فلجأ إلى بني بكر بن وائل، ثم

---

(١) العرب قبل الإسلام ٢٤٤.

(٢) تاريخ شبه الجزيرة ١٦٥.

(٣) تاريخ العرب القديم ٦١٥.

(٤) تاريخ شبه الجزيرة ٦١٥.

انضم بنو تغلب إلى المنذر اللخمي الذي بذل الجهد لطرد سلمه من ديار بني بكر بالبحرين، وانضوائهم تحت لوائه، إلا أن جهوده ذهبت أدراج الرياح، فصمم على ذبحهم حتى يبلغ دمهم سفح جبل أواره، وقد بر بقسمه في ذلك اليوم، وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله مع جمع كبير من بكر[١]، وقتلت أسد سيدها حجر، وهكذا تشتت أسرة أكل المرار وانتهى أمرهم.[٢] ويتحدث د صالح العلي عن طبيعة خضوع قبائل البحرين العربية لهذه المملكة فيقول لم يحاول الكنديون في تنظيمهم السياسي أن يغيروا النظم السياسية القبلية، فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيماتها وتقاليدها ورؤسائها مكتفين بالاعتراف برئاستهم العليا، وبذلك كونوا نوعا من الاتحاد كانت كندة رأسه ومنظمته وموجهته، وقد أدى هذا الى نشر الأمن والسلم والحد من الخصومات القبلية، فلما انقرضت كندة حلت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها في شئونه الداخلية واضطرب الأمن واقتتلت هذه القبائل فيما بينها[٣].

ب- رؤساء الخليج في الجاهلية :

هناك علامات حسية ذكرها العرب لمن يتوسمون فيه مخايل السيادة والنجابة من أبنائهم منذ نعومة أظفارهم، وهذه السمات التي أشاروا إليها لا تمثل العقل الجمعي لهم، وإنما هي أقرب إلى الرؤى الشخصية والإنطباعات الفردية، وهي علامات لا يمكن الجزم بصحتها على الدوام وإن كان لها نصيب من الصواب في بعض الأحيان.

---

(١) تاريخ العرب القديم ٦١٦ .

(٢) تاريخ شبه الجزيرة ١٥٦ .

(٣) محاضرات في تاريخ العرب ٧٤ نقلاً عن شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٤٢ .

فهذا أعرابي يسأله أحدهم: بم تعرفون سؤدد الغلام فيكم؟ فيقول: إذا كان سائل الغرة طويل الغرله ملتاث الأزرة وكانت فيه لوثة، فلسنا نشك في سؤدده[(١)].

وقيل لآخر: أي الغلمان أسود؟ قال: إذا رأيته أعنق أشدق أحمق، فأقرب به من السؤود[(٢)].

وهناك نساء أطلق عليهم العرب لقب المنجبات على سبيل التكريم والتمييز. وقد ذكر ابن حبيب طائفة منهن، بعد أن عرّف المنجبة بقوله: ولم تكن العرب تعد منجية لها أقل من ثلاثة بنين أشراف[(٣)]. ولكنه اقتصر على ذكر بطون من بكر وتميم الخليجية، فذكر من ربيعة أربع نسوة ليس منهن واحدة إلا وقد ربع أخوها وأبوها وزوجها وابنها منهن مارية بنت شرحبيل بن عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة، زوجها حمران بن عبد عمرو بن بشر ابن مرثد، وابنها غضبان بن حمران، وأخوها وائل بن شرحبيل، كل هؤلاء قد رأس وربع[(٤)]. وقتيلة بنت حسان بن بشر بن عمرو بن مرثد، زوجها سعد بن ضبيعة بن شرحبيل بن عمرو بن مرثد، وابنها دليج بن سعد، وأخوها عمرو بن حسان، كل هؤلاء قد رأس وربع[(٥)] وهند بنت مرثد بن عمرو بن مرثد، زوجها شرحبيل بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد، وابنها الحطم وهو شريح بن شرحبيل، وأخوها عبادة بن مرْثد، كل هؤلاء قد رأس

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٢٢٢.

(٢) نفسه.

(٣) المحبر ٤٥٥.

(٤) نفسه ٤٦٣.

(٥) نفسه.

وربع[١]، وأختها زينب بنت مرثد بن عمرو، زوجها علقمة بن مسروق بن ذهل بن عمرو بن مرثد، وابنها قيس بن علقمة، وأخوها عبادة بن مرثد، كل هؤلاء قد رأس وربع[٢].

وذكر ابن حبيب من تميم: مارية بنت زيد بن عبد الله بن دارم، ولدت لقيطا وحاجبا وعلقمة بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم، قاد حنظلة كلها لقيط يوم جبلة، وفدى حاجب نفسه بألف ناقة ومائة ناقة يوم جبلة، ورأس علقمة أيضا[٣].

ومن المنجيات تماضر بنت عطارد بن عوف بن كعب، وهي أم الأحجار: صخر وجندل وجرول بنو نهشل بن دارم[٤].

مجلس القبيلة ورئيسها:

لما كانت القبيلة تقوم مقام الدولة في النظام السياسي القائم على وحدة الأمة، بوصفها الوحدة السياسية للمجتمع الجاهلي استوجب ذلك ظهور أعراف ونظم تحفظ لكل فرد في القبيلة حقوقه وتحدد واجباته وتنظم علاقاته عن طريق مجلس قبلي يتزعمه رئيس القبيلة الذي يضطلع بالأمور اليومية العادية، على حين ينظر المجلس في المهمات الكبار كفض النزاعات الداخلية الخطيرة، واتخاذ قرار الحرب، وإبرام المعاهدات وعقد الأحلاف، والهجرة من موطن إلى آخر، أو من موضع جدب إلى آخر خصيب، وغير ذلك من

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ٤٥٨.

(٤) نفسه.

الأمور التي تتطلب المشورة وتبادل الرأي من حكماء العشيرة وشيوخها، وأهل الرأي فيها[١]، ويتكون هذا المجلس من الحكيم والشاعر والخطيب والفارس، ومن العراف والكاهن أيضا حين تلتبس الأمور وتتعقد، ويصعب الحكم فيها. وقد استدل بعض الباحثين من أخبار هؤلاء المحكمين ذوي الصفة الدينية، ومن طراز حياة القبائل العربية على إمكان وجود سلطة عليا دينية تسمو على التنظيم القبلي[٢].

أما منصب رئيس القبيلة فيتوقف على الأعرق من أهل البيوتات، والفرق بين المعرق وذي البيت أن المعرق من تكرر الأمر فيه، وفي أبيه وفي جده فصاعدا، ولا يكون معرقا حتى يكون الثالث فما فوقه، وذا البيت من عم الأمر جميع أهل بيته أو أكثرهم[٣]. وهذه العراقة التي يتصف بها رئيس القبيلة تتمثل في جملة من المناقب تكونت منها شخصيته القيادية، كالنجدة والصبر والتواضع والشجاعة والحلم والغنى والجود والفصاحة[٤] إلى جانب النسب الذي ورث الرئيس عن طريقه هذه الخلال أوجلها. على أن هذه السجايا لا تتوفر مجتمعه إلا في الزعيم المثالي، وليس كل شيخ قبيلة على هذا النحو من المثالية، قال الجاحظ في شرائع المروءة: كانت العرب تسود على أشياء، أما مضر فتسود ذا رأيها، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام، وأما اليمن فعلى النسب[٥]. وقد أجمل أحد العرب شروط ترشيح العرب لرئيسهم في قوله: نحن لا نسود إلا من يوطئنا رحله ويفرشنا عرضه ويملكنا

---

(١) احسان النص: العصبية القبلية ٧٢.

(٢) بلاشير ٢٦ نقلاً عن العصبية للنص ٨١.

(٣) ابن رشيق: العمده - ٢/ ٣٠٨.

(٤) الألوسي: بلوغ الأرب ٢/ ١٨٧.

(٥) نفسه.

ماله[١]. وهي شروط تعكس شعور العربي بالندية لرئيسه، فهم يخاطبونه بلا ألقاب أو تكلف، ويحاسبونه على أخطائه بلا وجل، ولكنهم يحملون له قدرا من الاحترام إذا وفى بشروطهم، وقام بواجباته وهي ثقيلة وكثيرة، ومنها إعلان الحرب وقيادة القبيلة وتوزيع الغنائم، وفك الأسرى، وحمل المغارم، ودفع الديات، وفي السلم يتولى استقبال الوفود وقرى الأضياف وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج واستشارة أهل الرأي فيما يشكل من الأمور[٢].

أما حقوق الرئيس فهي ذات شقين مادي وأدبي وقد أشار إلى الأول عبد الله بن عنمة الضبي في قوله مخاطبا بسطام الشيباني[٣].

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فالمرباع هو ربع الغنيمة، وكان الرئيس يأخذه حقا له عند الغزو، والصفايا جمع صفية وهي أشياء كان يصطفيها الرئيس لنفسه من خيار ما يغنم، والنشيطة ما أصابه الجيش في طريقه من قبل أن يصل إلى مقصده. والفضول ما فضل ولم يقتسم. والمعني أن المفقود كانت له إمارة تسوغ له ما لا تسوغ لغيره[٤].

أما حقوق الرئيس الأدبية، فأهمها توقيره، وإطاعته، وتنفيذ أوامره، وعدم الإجارة عليه إلا بإذنه.

وتنتقل الرئاسة عادة بشكل وراثي غالبا وبخاصة إذا كان الخلف مماثلا لسلفه في جل صفاته المرضي عنها، فالرئيس قد يختار من يخلفه من أبنائه

(١) عيون الأخبار ٢/٢٢٦.
(٢) الجبوري: الجاهلية ٤٥.
(٣) أيام العرب في الجاهلية ٣٨٥.
(٤) نفسه ٣٨٥.

بنفسه، وقد يترك أمر اختياره لأسرته، وإذا لم يوجد الكفء في البيت الحاكم خرج المنصب من هذا البيت لينتقل إلى بيت آخر من الأسر النبيلة في القبيلة التي يتواجد فيها الأكفاء، وقد تتم بالاقتراع[١].

وقد اشتهر بالنبل والعراقة أسر بعينها توارثت السيادة كابرا عن كابر قال أبوعبيدة : بيوتات العرب ثلاثة : بيت ربيعة بنو شيبان ومركزه ذو الجدين، وبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زراره، وبيت قيس بنو فزارة ومركزه بنو بدر[٢].

وسوف أتحدث بإيجاز عن ذوي الرياسة والسيادة من قبائل الخليج الجاهلية:

رؤساء بكر:

قال أبوعبيدة: ليس في العرب أربعة إخوة أنجب ولا أعد ولا أكثر فرسانا من بني ثعلبة بن عكابه، وكان يقال له الأغر والحصن، وبنوه شيبان وذهل وتيم الله وقيس[٣] وقال ابن الكلبي العدد من ربيعة والبيت والفرسان في شيبان[٤] ويعرف ابن حبيب الجرارين فيقول: ولم يكن الرجل يسمى جرارا حتى يرأس ألفا[٥]. فيذكر من بكر الحوفزان وهو الحارث بن شريك الشيباني، حيث كان يعد السرية. كما يذكر بسطام بن قيس الشيباني، وقيس ابن حسان بن عمرو بن مرثد أخا بني قيس بن ثعلبة. وممن اجتمعت له

---

(١) العصبية القبلية ٧٣.

(٢) بلوغ الأرب ٢/ ١٨٩.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) المحبر ٢٤٧.

رئاسة قبيلة من بكر بن وائل في الجاهلية يذكر جهبل بن ثعلبة اليشكري، وكذلك عمرو بن شيبان بن ذهل، كما اجتمعت بكر على همام بن مرة في حرب البسوس، وعلى الحارث بن عباد في يوم قضة[١]. وكان الحارث من حكام العرب، كما كان بشر بن عمرو بن مرثد من حكامهم أيضاً[٢].

رؤساء تميم:

أما الجرارون من تميم فمنهم زرارة بن عدس بن عبد الله بن دارم، قاد تميما وغيرها يوم شويحط، ومنهم لقيط بن زراره قاد تميما إلا بني سعد يوم شعب جبله، والأقرع بن حابس بن مجاشع قاد حنظلة كلها يوم كلاب الأول، والنعمان بن مجاشع، قاد بني دارم وحلفاءها يوم الصفراء، والأضبط ابن قريع بن عوف بن كعب بن سعد، قاد سعد كلها خمير وألفافها يوم صنعاء، وقيس بن عاصم السعدي يوم النباج وثيتل وهو يوم الكلاب الثاني كان على بني سعد كلها[٣]. قال ابن الكلبي: كان أبي يقول: العدد من تميم في بني سعد، والبيت في بني دارم، والفرسان في يربوع[٤]. وقال ابن سلام الجمحي إذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة، وكاثر بسعد وحارب بعمرو[٥]. وكان فارس تميم عتيبة بن الحارث بن شهاب، أحد بني يربوع، وفارس عمرو ابن تميم طريف العنبري، وفارس دارم عمرو بن عمرو بن عدس، وفارس سعد فدكي بن المنقري وفارس الرباب زيد الفوارس الضبي[٦]، وقد كان

---

(١) السابق ٢٥٠ - ٢٥٥.

(٢) نفسه ١٣٥.

(٣) المحبر ٢٤٧.

(٤) بلوغ الأرب ٢/ ١٨٩.

(٥) نفسه.

(٦) بلوغ الأرب ٢/ ١٨٩.

محلم بـن سويط الضبي أخـو بني صبـاح، قائدا للرباب كلهـا وهو الرئيس الأول[١].

أما أئمة العرب في الجاهلية فقد كـان لتميم نصيب كبير منهم وكان من اجتمع له الموسم وقضاء عكاظ وكـان ذلك يكون في أفخاذهم كلها، ويكون الرجلان يليان هذا من الأمرين جميعا، عكاظ على حدة والموسم على حدة، فكان من اجتمع له الموسم والقضاء سعد بن زيد مناه بن تميم، ثم تولى ذلك حنظلة بن زيد مناه بن تميم ثم معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو ابن تميم، ثم الأضبط بن قريع، ثم صلصل بن أوس بـن شريف. بن أسيد، ثم سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة[٢].

وكان والي البحرين من قـبل الفرس المنذرين ساوى الدارمي، وهو آخر أمرائها حتى ظهور الإسلام.

رؤساء عبد القيس:

أما أمراء عـبد القيس ورؤسـاؤها في الجاهلية فمنهم الأفكل عـمرو بن الجعيد، وهو الذي قاد عبد القيس من تـهامة إلى البحرين. والمرجوم شهاب ابن عبـد القيس وكـان سيـدا وأميرا. ورثاب الشـيني من كبـار حكما عـبد القيس[٣]، ومن ولاة البحـرين من قبل الفرس أو عـمرو بن هند، المعلى بن حنش العبدي، والربيع بن حوثرة العبدي، ومن سـادات عبد القيس وأمرائها عند مجيء الإسلام، الأشج العبدي والجـارود العبدي، الأول رأس وفد عبد القيس في الوفادة الأولى، والثاني رأسها في الوفادة الثانية[٤].

(١) المحبر ٢٤٨. (٢) نفسه ١٨٢.

(٣) محمد الملا: الحكمة في شعر في عبد القيس ١٣.

(٤) المعيني: شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٩٣.

رؤساء الأزد:

ذكرنا أن من ملوك الأزد الذين حكموا الخليج مالك بن فهم وجذيمة الأبرش ومن كبار رؤساء عمان هناءه بن مالك الأزدي، ملك بعد أبيه مالك ابن فهم، وكان أحسن ولد مالك بن فهم سيرة، وأكملهم رأيا وأجودهم مروءة، وكان ذافهم وحلم ورأفة[١]. ومن سادات الأزد وأمرائها في البحرين وعمان. ثعلبة بن بكر بن أسلم بن هناءه بن مالك بن فهم، يبدو أنه كان عظيما في قومه، وكان في البحرين، ذكر العوتبي أنه أغار على أهل اليمامة فأصاب نعما من بني حنيفة، كما التقى مع بني عامر بن صعصعة في وقعة هزمهم فيها وأسر كثيراً منهم[٢] ومنهم الجلندي بن كركر بن المستكبر الأزدي كان ملك عمان أوا خر العصر الجاهلي، قيل إن اسمه عبد جمل وقيل عرجده، والجلندي ليس اسما له بل هو لقب، ومعناه الصلب الشديد. كان تابعا لملك الفرس شأنه شأن المناذرة في العراق، والمنذر بن ساوى في البحرين، وكانت السيطرة للجلندي على سوقي دبا وصحار، فكان يعشر التجار فيهما، ولا يبيع الناس في هذين السوقين حتى يبيع الجلندي ما لديه من بضاعة[٣]. ومن أشراف عمان ربخه بن حارث الأزدي، كان شريفا مطاعاً في قومه، يحمل الحمالات ويدفع الديات[٤].

ومن مجاوري الأزدي أوس بن زيد مناه العبدي ويبدو أنه كان من أشراف قومه، إذ يذكر العوتبي أنه كان عظيم القدر في معد، وفد على مالك ابن الفهم ومدحه فقسم له مالك أرضا في عمان وأعطاه مئة ناقة، واتخذه وزيرا له، ولم يزل بنوه بعد مستقرين في عمان إلى جوار الأزد[٥].

---

(١) أحمد عبيد: شعراء عمان في الجاهلية والإسلام ٣٨.

(٢) نفسه ١٦.

(٣) شعراء عمان ١٧.

(٤) نفسه ٢٠.

(٥) نفسه ١٥.

جـ - العلاقات بين القبائل والعشائر:

كانت منطقة الخليج العربي في الجاهلية تابعة للامبراطورية الفارسية، وكان بها خلق كثير من قبائل عبد القيس وبكر بن وائل وتغلب وتميم(١).

ولاشك أن العلاقة بين القبائل في الجزيرة العربية عامة وفي البحرين خاصة علاقة قائمة على أساس المصلحة الذاتية، فكل قبيلة تريد أن تحصل على أخصب المراعي لأفرادها وأنعامهم، كما تؤمن بمبدأ انصر أخاك ظالما أو مظلوما، وحياة تمتاز بهذا الطابع. لاشك أنها حياة حربية. لذلك نجد أن معظم العلاقات بين القبائل كانت علاقة سيئة تدعو إلى النفير العام وحمل السلاح، ولكي يتبين لنا ذلك سنتعرض للعلاقة بين بعض قبائل البحرين(٢) وبعض، وبينها وبين القبائل الأخرى المجاورة لها.

وقد جمعت القبائل الخليجية في الجاهلية صلات سلمية تمثلت في المصاهرة والأسواق وقرى الضيف والأجارة والأحلاف، وصلات حربية تمثلت في الغارات والوقائع وهي الغالبة على هذه العلاقات.

بين بكر وتغلب:

يجمع هاتين القبيلتين جد أعلى هو وائل بن قاسط، وكانتا قبل حرب البسوس متحدتين ومتحالفتين ومتصاهرتين، فقد كان كليب وائل بن ربيعة ملكا عليهما، وكان زوجا لجليلة بنت مرة البكرية، ولكن الحرب التي وقعت بينهما عام ٤٨٥م باعدت بين القبيلتين وهي أطول حروب العرب حيث انتهت عام ٥٢٥م بالصلح الذي أبرمه بين القبيلتين المنذر الثالث اللخمي وقيل الحارث بن عمرو الكندي. وهو صلح لم يستطع أن يعيد ما كان بين بكر وتغلب من ألفة واتحاد. ولحرب البسوس سببان: أحدهما غير مباشر ويتمثل

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ٣٤٨.

(٢) العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٤٩.

في بغي الملك التغلبي المفرط وإذلاله للبكريين، وهو ليس منهم، والآخر وهو المباشر قتل كليب لناقة البسوس السعدية التي كانت في جوار ابن أختها جساس بن مرة البكري، وتحريضها القوي له، مما دفعه إلى قتل الملك كليب، فاشتعلت الحرب بين القبيلتين في أحد عشر يوما. وكانت الأيام الأولى منها في صالح تغلب، وهي يوم النهي ويوم الذنائب ويوم واردت، ويوم القصيبات، وفي يوم عنيزة تكافأ الفريقان. أما يوم قضه فقد كان لبكر على تغلب . وسبب هذا الانتصار يعود إلى الحارث بن عباد من بني قيس بن ثعلبه الذي اعتزل الوقعات السابقة لحرب البسوس، لأنه لم يكن راضيا عن قتل كليب بناب من الابل. ولكن لما استمر القتل في بكر، جاء رجالها إلى الحارث يشكون الفناء، فأرسل الحارث ابن أخيه بجير إلى مهلهل أخي كليب وقال له: إني اعتزلت قومي لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم، وقد أدركت ثأرك وقتلت قومك، فقتل مهلهل بجير قائلاً : بوء بشع نعل كليب. فلما علم الحارث بمقالته الدالة على البغي والغرور. غضب ودعا بفرسه وكانت تسمى النعامة، فجز ناصيتها وهلب ذنبها، وارتحل مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر وعليهم يومئذ الحارث بن همام، فسلموه القيادة فبنى خطته على استغلال كل الطاقات، وأعطى المرأة البكرية دورا بارزا في الحرب؛ حيث قلد كل امرأة إداوة من ماء وأعطاها هراوة، وجعل جمعهن من وراء الرجال، ووضع علامة لهم تميزهم عن غيرهم، فإذا مرت امرأة منهن على رجل من قبيلتها عرفته بعلامته فسقته الماء ونعشته، وإذا مرت على رجل من غير قبيلتها ضربته بالهراوة فقتلته. وسميت هذه الوقعة (تحلاق اللمم) لأن بني بكر حلقوا رؤوسهم استبسالا للموت، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم، واقتتل الفرسان قتالا شديداً، فانهزمت بنو تغلب، وأسر الحارث مهلهلا وهو لا يعرفه فقال له دلني على المهلهل قال ولي دمي؟ فقال ولك دمك، قال ولي ذمتك وذمة أبيك؟ قال نعم ذلك لك، فقال المهلهل أنا هو . . فجز ناصيته

وأطلقه. ثم خرج حتى لحق باليمن، ولكن ابنته سلمى ألحت عليه بالمسير إلى الديار فأجابها، وكانت تغلب قد تصالحت مع بكر وتركوا الفتنة إلا أن المهلهل نقض الصلح وأغار على بني بكر فظفر به عمـرو بن مالك أحد بني قيس بن ثعلبه، فأسره وأحسن إساره فشرب المهلهل يوما وأخذ يترنم بشعر جاء فيه.

إن تحت الأحجار جداولينـــا   وخصيمـــا ألد ذا معـــلاق

حيـــة في الوجـــار أربـــد   لا تنفع فيه السليم رقية راقية

فلما سـمع آسره ذلك غاظه وقال: لا جـرم إن لله على نذرا إن شرب عندي قطرة ماء ولا خمـر حتى يعود الخضيـر أو ربيب، يعني جمله الذي لا يرد الماء إلا في اليوم السابع، فقال له ناس من قومـه بئس ما حلفت، فبعثوا الخيول في طلب البعير فأتوا به بعد ثلاثة أيام. وكان المهلهل مات عطشا[١].

وفي الكنهل الواقع في وادي الميـاه بالاحساء، أغـار النعمـان بن زرعة التغلبي على بكر وائل فـأوقع ببني قيس بن ثعلبه، فـاقتتلوا أشد قـتال يكون وبرز شيبان بن شهاب وهو جد بني مسمع فنادى هل من مبارز؟ فحمل عليه النعمـان وطعنه، ونادى ابنه مسـمع. يا آل قيس بن ثعلبـه سيدكـم قحمـته الخيل، ومات من جراحته بعد ذلك. وخـرج من بعده هبيرة بن مالك، فبرز إليه رجل من بني وائل بن غنم بن تغلب، فطعنه فصـرعه عن الفرس، وقتل الصدي بن ثعلبـه، ومالك بن تيم، وحسان بن عمـرو، في فوارس من بني قيس، وصـبرت بنو ضبـيعة حـتى أسرع القتل فـيهم، وثبتت بنو سـعد بن مالـك، وبنو مرة بن عـباد، ثم انكشف القـوم، وأصابت بنو تغلـب أسارى كثيرة، وكفوا عن النساء[٢].

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٤٢ وشعراء البحرين في العصر الجاهلي للعالم.

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي ٨٥.

وفي يوم عتيد شرق نطاع في حوض وادي المياه أغار سلمه بن قرط التغلبي في خيل من مالك بن بكر، ومعه بشر بن سوار على قيس بن ثعلبه، فخرج إليه أحياء بني قيس؛ بنو تيم بن قيس وضبيعه بن قيس وبنو سعد بن قيس، وفوارس من بني جحدر وهم حماة القوم وأنجادهم، وجاء الحطم في خيل، ونادى إلى البراز، فخرج إليه بشر بن سوار، فحمل عليه فطعنه فصرعه وأسره، وتعاور القوم الطعان، فصبرت بنو جحدر وأصيب من بني تيم بن قيس أبناء عمير وطعن سلمة بن قرط، حمران بن عبد عمرو بن عمرو بن مرثد فأفلت بها، وانهزمت بنو قيس، وأصابت تغلب سبايا ونعما كثيرة في تلك الواقعة(١).

وفي يوم الفرات أغار المثنى بن حارثة الشيباني وهو ابن أخت عمران ابن مره على بني تغلب، وهم عند الفرات، وذلك قبيل الإسلام فظفر بهم فقتل من أخذ في مقاتلتهم، وغرق منهم ناس كثير في الفرات، وأخذ أموالهم وقسمها بينهم(٢) وهكذا نجد أن العلاقة بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس تقوم في أغلب الأحوال على الصراع والمصادمات.

بين بكر وتميم:

قامت العلاقة بين بكر وتميم في أغلبها على النزاع والصراع، فقد كانت القبيلتان تتجاوران في منازلهما، وكانت أراضي تميم أكثر خصبا مما دفع بكر إلى أن ترعى إبلها في مراعي تميم، وكان هذا يطمعها في الإغارة على ديارها الأمر الذي أدى إلى احتدام الخصومة بين هاتين القبيلتين، وفي الغالب تكون بكر الهاجمة على إثر جدب حلَّ بمنازلها وثمة سبب آخر وهو أن بكرا كانت

---

(١) المصدر السابق ٨٩.

(٢) ديوان عمرو بن مكتوم ١٣٩ - تحقيق أيمن ميدان.

تحت يد كسرى وفارس وكانوا يجبرونهم، على حين كانت العلاقة بين تميم والفرس عدائية في أكثر الأحيان، ومع ذلك فإن العداوة لم تكن دائمة بين القبيلتين فقد تخللتها موادعة بين بعض بطون تميم وبكر وعلى حساب بطون أخرى كما حدث يوم جدود ويوم زباله. ومن الأيام المشهورة بين بكر وتميم، يوم الأياد، ويوم حومل ويوم الوقيط، ويوم ذي بيض، ويوم الشقيق، ويوم غول الأول، ويوم الزويرين، ويوم صعفوق ويوم فيحان ويوم ذي قار الأول ويوم الحائر ويوم الجبانات ويوم قشاوة ويوم سفوان ويوم السلي ويوم القحقح ويوم رأس العين ويوم مخطط[1]. وسأتحدث بشيء من التفصيل عن بعض هذه الأيام حسب ما توفر عنها من معلومات. فمما قالوا عن يوم الزويرين، وهو يوم لبكر على تميم: أن بكرا كانت تنتجع أرض تميم في الجاهلية ترعى إبلها إذا أجدبوا فإذا أرادوا الرجوع لم يدعوا عورة يصيبونها، ولا شيئاً يظفرون به إلا إكتسحوه، ثم تفاقم الشر بينهما وعظم حتى صار لا يلقى بكري تميميا إلا قتله، ولا يلقى تميمي بكريا إلا قتله. فقالت بنو تميم انفوا هؤلاء القوم من رعي أرضكم، فحشدت تميم وحشدت بكر واجتمعت ولم يتخلف منهم إلا الحوفزان بن شريك في أناس من ذهل بن شيبان، وكان غازيا في بني دارم، فقدمت بكر عليهم عمرو بن قيس بن مسعود الشيباني، وأقبلت تميم ببعيرين مجللين مقرونين مقيدين، وتركوهما بين الصفين وسموهما زويرين أي ربين، وقالوا لا نولي حتى يولي هذان البعيران. فأخبرت بكر عمر بن قيس بقولهم، فقال أنا زوركم وبرك بين الصفين وقال قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفر، والتقى القوم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزمت بنو تميم، وقتلت بكر منهم الكثير وأسرت العدد الأكبر[2].

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٠٢، ٢٣٩، ١٩٠، ١٩٨، ١٧٠.

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٢١٢.

أما يوم الشقيق فكان لبكر على تميم فقد أغار أبجر بن جابر العجلي على بني مالك بن حنظله فسبى سليمي بنت محصن فولدت له أبجر[١].

وغزا طريف العنبري من بني عمرو بن تميم، فأغار على بني بكر بن وائل، ثم إن بكرا انهزمت فقتل طريف بن شراحبيل وعمرو بن مرثد والمحسر[٢].

أما يوم الشقيقة فكان لضبه على بكر، فقد غزا بسطام بن قيس الشيباني ضبه في بلادهم نقا الحسن في نواحي وادي فلج، فأغار على إبل كثيرة لمالك ابن المنتفق الضبي، فأفلت صاحبها من الشيبانيين حتى إذا أشرف على تعشار نهل ضبه نادى: يا صباحاه، فأجابه فوارس قومه حيث تداركوا الغزاة وهم يطردون الإبل، وكانوا قد جمعوا ما كان عندهم من ماء على جمل لهم، فرماه أرطأه بن ربيعه الضبي بسهم، فوضعه في سالفته فقطع نخاع الجمل فتجعب على جرانه، وانشقت المزادتان اللتان عليه وقد اشتد الحر، فلما رأى أصحاب بسطام من شيبان أن الماء قد هريق، سقط في أيديهم واستأسروا ثم ألقوا السلاح. وقد حسم المعركة عاصم الضبي بقتله بسطام رغم بلاهته، فلما رأت شيبان ما حل بقائدهم خلوا سبيل النعم وولوا الأدبار فمن قتيل وأسير[٣].

ومن أيام بكر وتميم يوم الشيطين، فقد احتلت تميم الشيطين بعد أن أخصبت، وكانت قبل ذلك لبكر ولكنها رحلت عنها إلى السواد وهي مجدبة فاضطرها الوباء إلى الفرار إلى لعلع رغم جدبها، فلما عاد أكتل العجلي إليها من الشيطين أخبر بكرا بخصبها، فأجمعت على الإغارة على تميم، فارتحلوا بالذراري والأموال يقودهم بشر بن مسعود، واختصروا مسافة الثماني ليال في أربع حتى صبحوا تميم وهي لا تشعر، فقاتلوها قتالا شديدا وأخذوا الأموال، وصبرت تميم ثم انهزمت[٤].

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢١٢.
(٢) نفسه ١٥/ ٤٢١.
(٣) المصدر السابق، ٣٨٢.
(٤) المصدر السابق ٢١٧.

بين بكر وأسد:

كانت الغارات بين بكر و أسد سجالا على عادة الجاهليين، ومن ذلك (يوم المعا) الذي انتصر البكريون، فقد أغار المنطبح الأسدي على بني عباد بن ضبيعة، فأخذ نعما لبني الحارث بن عباد وهي ألف بعير، فمر ببني سعد بن مالك بن ضبيعة، وبني عجل بن لجيم، فتبعوه حتى انتزعوها منه، ورئيس بني سعد حمران بن عبد عمرو، فأسر افتل بن حسان العجلي المنبطح الأسدي، ففداه قومه واستنقذوا السبي[1].

وفي يوم قلاب تصادم بنو قيس بن ثعلبه مع بني أسد وكان قائد البكريين بشر بن عمرو ومعه بنوه الثلاثه وناس من بني مرثد وغيرهم، فلم تعلم بنو أسد حتى هجم عليهم بشر فانحطوا منهزمين من غير قتال، ولكن كاهنهم حثهم على معاودة القتال وبشرهم بالنصر، فرجعوا فقتلوا بشرا وهزموا أصحابه، وقتل معه بنو مرثد وأبناؤه الثلاثة، وكان الذي قتل بشرا عميله بن المقتبس الوائلي[2]. وفي يوم ذات الشقوق بعد هزيمة تميم في يوم الجفار على أسد وحلفائها حلف ضمره بن ضمرة النهشلي فقال الخمر عليّ حرام حتى يكون له يوم يكافئه، فأغار عليهم ضمرة يوم ذات الشقوق فقلتهم[3].

بين تميم وتغلب:

تحاربت هاتان القبيلتان في أيام سبعة هي: يوم متالع ويوم فلج ويوم الشعب ويوم إراب ويوم زرود الثاني ويوم نطاع ويوم ذي بهدي.

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٤٦.

(٢) شعراء النصرانية لشيخو ٣٢٢.

(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٤٨.

ففي يوم متالع أغار علقمة بن سيف الجشمي على أخلاط تميم فلقيهم بسفح متالع، وكان مقاده إليهم قريبا من شهر، فلما التقوا نادت تميم يا آل خندف ونادت تغلب يا آل تغلب، وتعاظم الشر بينهم، وثبتت أخلاط تميم وبنو سعد حتى أسرع القتل فيهم، وحمل ابن قوزع الكسري، كسر بن كعب الجشمي على خيثمة السعدي، وكان فارس بني سعد فصرعه، وأفلت الحارث بن الأضبط بطعنة مات فيها بعد، وأخليت تميم عن الدار بعد قتل كثير، وأصابت بنو تغلب النساء والأموال والأسرى، ولم يبق أهل بيت إلا وقد أصيبوا بمصيبة(١).

وفي يوم فلج أغار النعمان بن زرعة التغلبي في خيل من بني تغلب على بني تميم بفلج، فلما التقى الناس، وكان على تميم هزيم بن مالك فنادى يا آل مضر يا آل خندف، ونادى النعمان يا آل تغلب يا آل مالك بن بكر، فحشدت تغلب وحشدت تميم واشتد القتال وعظم الشر بين الفريقين وكثر القتل، ثم إن حسان بن زرعه أخا النعمان حمل على هريم الحنظلي فطعنه فصرعه، وتنادى القوم على دمه فقتل من بني تميم يومئذ مالك بن قره وعوف بن حابس وابن حرثان وعقال بن أوس وعطارد بن حارثة وخلق، وأسر من من سرواتهم نفر، وأصابت تغلب سبايا وأموالا عظاما(٢).

وفي يوم نطاع أغارت بنو تميم على بني رزاح من بني تغلب وغنمت أموالهم(٣).

وفي يوم ذي بهدي أغار الهذيل بن هبيرة التغلبي على بني ضبه بذي بهدي، فانتصرت ضبه وانهزمت بنو تغلب وأسر الهذيل وبنوه(٤).

---

(١) الأنوار ٨٠.

(٢) نفسه ٨٣.

(٣) معجم البكري ٤/ ١٣١٢.

(٤) العمدة ٢/ ٢١٤.

وكما لاحظنا فإن أكثر هذه الغزوات كانت تقوم بها تغلب فهي التي تبدأ بالغزو وقد يعود ذلك، إما لخصب أرض تميم، أو لكونها كانت في حالة من الضعف تغري بالهجوم.

بين تميم وبني عامر:

دارت بين هاتين القبيلتين أيام تقاسمت فيها الانتصار والهزيمة منها يوم رحرحان الأول، وفيه غزا يثربي بن عبد الله بن دارم بني عامر بن صعصعه، وقتل يثربي[(١)].

وفي يوم المروت أغار يحي بن سلمه بن قشير على بني العنبر بن عمرو ابن تميم فأتى الصريخ بني عمرو بن تميم فاتبعوه حتى لحقوه وقد نزل المروت وهو يقسم المرباع ويعطي من معه، فتلاحق القوم واقتتلوا، فطعن قعنب بن عتاب الهيثم القشيري فصرعه وأسره، وحمل يزيد المازني على بجير فطعنه وأسره، فأبصره قعنب فقتله فانهزم بنو عامر وقتل رجالهم[(٢)].

وفي يوم رحرحان التقى بنو دارم التميميون ببني عامر واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت تميم وأسر معبد بن زراره، فوفد لقيط بن زراره في فدائه فقال لآسريه عامر والطفيل ابني مالك بن جعفر الكلابي لكلما عندي مائتا بعير، فقالا يا أبا نهشل أنت سيد الناس وأخوك معبد سيد مضر فلا نقبل فيه إلا دية ملك فأبى أن يزيدهم، وقال لهم إن أبانا أوصانا ألا نزيد أحدا في ديته على مائتي بعير. فقال معبد للقيط لا تدعني بالغيظ فوالله لئن تركتني لا تراني بعدها أبدا، فقال لقيط صبرا أبا القعقاع فأين وصاة أبينا لا تؤاكلوا

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٠٩.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٧٩.

العرب أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، فيذؤب بكم ذؤبان العرب، ورحل لقيط عن القوم، ومنع بنو عامر معبدا عن الماء وضاروه حتى مات هزالا(١).

بين تميم وعبس

دارت بين هاتين القبيلتين بعض الأيا م، منها يوم الفروق حيث كان بنو عبس في جوار بني سعد بن زيد مناه بالبحرين، فطمعوا فيما رأوا عندهم من أموال كثيرة وأطمعوا ملك هجر فيها، وكان في عبس امرأة ناكح من سعد فأخبرت زوجها فارتحلوا بالنساء والأموال، وتقدم الفرسان إلى الفروق فوقفوا دون الظعن وأغارت عليهم جنود الملك، ومن تابعهم من بني سعد في أول الصبح فوجدوا الظعن قد أسرين ليلتهن ووجدوا المنزل خلاء، فتبعوا القوم حتى انتهوا إلى الفروق فإذا الخيل والفرسان، فقاتلوهم وامتنعت بنو عبس ومنعوا ظعنهن، ورجعت بنو سعد بخيبة الأمل(٢).

ولبني عبس على بني دارم يوم أقرن، وفيه أغار عمرو بن عمرو بن عدس من دارم، وهو فارس بني مالك بن مالك بن حنظله، فأغار على بني عبس وأخذ إبلا وشاء، ثم أقبل حتى إذا كان أسفل من ثنية أقرن نزل فابتني بجارية من السبي، ولحقه الطلب فاقتتلوا فقتل أنس الفوارس العبسي عمرا، وانهزمت بنو مالك بن حنظلة وقتلت بنو عبس حنظلة بن عمرو بن عمرو وارتدوا ما في أيديهم من بني مالك(٣).

---

(١) العقد الفريد ٣٣٧/٣٣٨.

(٢) نفسه ٥/١٥٨.

(٣) نقائض جرير والفرزدق: ٢/٩٩.

بين عشائر تميم

ودارت بين بعض عشائر تميم وبعضها الآخر صراعات وحروب ومن ذلك يوم تياس. قال أبو عبيدة كانت قبائل بني سعد بن زيد مناه، وقبائل بني عمرو بن تميم التقت بتياس، فقطع غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم رجل الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناه. فطلبوا القصاص فأقسم غيلان ألا يعقلها حتى تحشى عيناه ترابا. فالتقوا فاقتتلوا فجرحوا غيلان حتى ظنوا أنهم قتلوه، ورئيس عمرو كعب بن عمرو ولواؤه مع ابنه ذؤيب، فجعل غيلان يدخل البوغاء في عينيه وهو يقول تحلل غيل حتى مات[١].

بين عبد القيس والقبائل الأخرى

كانت أيام عبد القيس قليلة. وقد التقت مع بكر بن وائل وعبس وتميم وعامر، وبعض القبائل الأخرى.

فقد قامت الحرب بين عبد القيس ولجيم بن صعب بن بكر في أرض ذي طريف انتهت بهزيمة لجيم وانتصار عبد القيس. وانتصرت عبد القيس على بني عبس عندما هوجمت من قبل العبسين. وفي يوم عينين خرج بنو منقر ممتارين من هجر فعرضت لهم عبد القيس، فاستعان بنو منقر ببني مجاشع فدافعوا عنهم ضد عبد القيس، واستطاع المنقريون والمجاشعيون الانتصار على العبديين. وكانت تقوم غارات عديدة بين العبديين وبني تميم بحكم الجيرة، وقد أغار قيس بن عاصم ببني سعد على عبد القيس وهزمهم أكثر من مره. وغزت قيس عبد القيس وهزمتهم أيضا. وهناك أيام أخرى بين العبديين وقبائل أخرى كيوم النشاس بين بني عامر من عبد القيس وأهل اليمامة، ويوم فارعة المنقى، ويوم ذات الرمث[٢].

(١) النقائض ٢/ ٣٣٢.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٩٧ - ٩٩.

د - الأحلاف وأيامها

عـرف العرب في الجـاهليـة التـجمـعـات القبليـة عن طريق الأحـلاف والمعاهدات، واستعملوا ألفاظا توكيدية لها، كقولهم الدم الدم، الهدم، الهدم، لا يزيده طلوع الشمس إلا شدا وطول الليالي إلا مدا، ما بل بحر صوفه[١].

وأصل الحلف في كتب اللغة يفيد الملازمـة والعهد الموثق باليمين، ففي مقـاييس اللغـة يقال: حالف فـلان فلانا إذا لازمـه، وفي اللسان يـقول ابن سيده: الحلف العهد لأنه لا يعـقد إلا بالحلف ويسمى الحليف مولى اليمين. وقد كان الحلف الجامعة الثانية للقبائل العربية بعد جامعة النسب.

وقد ألجأت ظروف الحياة في المجتمع القبلي القبائل في كثير من الأحيان إلى عقد أواصر التـحالف مع بعض القبائل المجاورة لهـا أو مع جماعات من قبائل أخرى جاءتها تلتمس محالفتها والنزول في جوارها[٢].

ويكمن سبب التـحالف بين القبائل في الجـاهلية في طبيـعة البيئـة فقد كانت القـوة قانون الحياة فـمن عز فيـها بز، لهذا لم يكن الفـرد يستطيع أن يعيش بمفرده ولا الجماعة تستغني عن بعضها، فكان على الجاهلي أن يقيم في قبـيلته، وأن يقـيم المحالفـات بين الفرد والفـرد، وبين الفرد والقبـيلة، وبين القبيلة والقبيلة؛ لأنهم دائما في خـوف من بعضهم بسبب الغارات على المياه والمراعي والتنافس على الشرف والسيـادة وبسبب الثارات، وكل هذه الحروب تستلزم التكتل والتـقوى والتناصر ليظفـر الأكثر عددا بالنصـر، ومن هنا جاء قانون الأحلاف ليحـقق العزة والمنعة لأطرافه[٣] ويعتبر الحلف شـيئا ضرورياً

(١) الجاحظ: الحيوان: ٤/ ٤٧٠.

(٢) إحسان النص: العصبية القبلية ٩٠.

(٣) محمد الملا: الشعر الإخواني حتى نهاية العصر الأموي ١/ ١٨٢.

لحفظ التوازن بين القبائل وهو كما يقول جرجي زيدان يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الأيام[١].

وأكثر القبائل سعيا وراء الأحلاف هي تلك التي توصف بالقلة أو الضعف لتسد خللها وتحمي نفسها عن طريقه. ويحصل الضعف في القبيلة بسبب الفتن والنزاعات الداخلية بين بطونها وأفخاذها. أما القبائل القوية فلم تكن بحاجة إلى الحلف وتسمى جمرات العرب؛ ولكن كثرة الحروب فيما بينها جعل الكثير منها غير بعيد عن الأحلاف[٢]. وثمة أحلاف استحدثت اسمها من أسماء خاصة، منها البراجم وهم عمرو والظليم وغالب وكلفه وقيس بنو حنظله بن مالك بن زيد مناه، وسموا بذلك لأن عددهم كان قليلا فقال لهم أحد أشرافهم: أيتها القبائل التي قل عددهم تعالوا فلنجتمع فلنكن كبراجم اليد ففعلوا فسموا البراجم[٣]. ولما كانت رابطة الدم والنسب أقوى الروابط المعروفة عندهم فقد كانوا عند التحالف يحتالون على ربط النسب بين القبيلتين المتحالفتين إن لم تكونا من أصل واحد، فيعقدون الحلف على دم الذبائح التي تنحر للآلهة، وهذا الدم يرمز إلى أن العلاقة بين القبيلتين أصبحت كعلاقة الدم والنسب التي هي أصل علاقاتهم الإجتماعية[٤].

يقول إحسان النص: ولتوثيق ارتباط الجماعات المختلفة بعضها ببعض كان يلجأ في الغالب إلى غمس أيدي المتحالفين في سائل كالدم أو الماء أو الرب أو في الملح والرماد، وقد ذكر سميث أن التحالف[٥] بالدم من أقدم صور الحلف التي عرفتها الأمم القديمة. وربما استعملوا غمس الأيدي في الدم

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٤/ ٢٣. (٢) الشعر الإخواني ١/ ١٨٢.

(٣) العصبية القبلية ٩٦ راعي هذا الحلف هو حارثة بن عامر بن عمرو بن حنظلة.

(٤) الشعر الإخواني١/ ١٨٣. (٥) العصبية القبلية ٩٤.

حتى حين يكونوا من أصل واحد لأن الدم يرمز في اللغة العربية إلى الحياة، بل إن الدم يأتي أحيانا مرادفا للنفس والروح، ومن أقوالهم: سالت نفس فلان إذا مات[١]، ونجد ذلك في حلف الأجارب وهم خمس قبائل من بني سعد بن زيد مناه بن تميم : ربيعه ومالك والحارث والحرام وعبد العزى بنو كعب بن سعد نحروا جملا جربا فأكلوا لحمه ثم غمسوا أيديهم في دمه وتحالفوا[٢].

وربما ضاقت دائرة الحلف فلم يتجاوز حدود العائلة الواحدة أو الفصيلة، كما حدث مع ولد زيد بن عبد الله بن دارم: حق ومرة وحارثة وربيعة وجناب وعبد الله ومالك، وهم الأحلاف لأنهم تحالفوا على أخيهم عدس بن زيد بن عبد الله، وصار عدس مع جميع أعمامه، ولد عبدالله بن دارم[٣].

وفي المقابل قد يتسع الحلف فيشمل عددا واسعاً من القبائل، كما حدث في حلف تنوخ -الذي سبق الحديث عنه- وهو من أكثر الأحلاف القبلية ومن أقدمها وقد تألف من مختلف القبائل كقضاعة والأزد وإياد التي هاجرت إلى هجر قبل سواها من العرب الباقية، وشكلت فيما بينها حلفا اسمته تنوخا، وينسب صاحب القاموس الإسلامي تسمية هذا الحلف تارة إلى جد جاهلي يدعى تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله من قضاعة، وتارة أخرى يقول: تنوخ اسم يطلق على عدة بطون عربية نزلت أو تنوخت بالبحرين ومن ثم اشتق اسمها[٣] حتى غلب على أبناء القبائل المنضوية تحت لواء هذا الحلف، فحل الاسم الحلفي (تنوخ) محل الاسم القبلي، وبعض هذه الأحلاف توجده ضرورات القتال الطارئة، ومتى انتهت الحرب انفرط عقد القبائل المتحالفة وانفض حلفها، وهذه الأحلاف المؤقته كثيرة في المجتمع

---

(١) اللون في الشعر العربي ٦٠ .

(٢) العصبية القبلية ٩٥ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٢٢٢ .

(٤) ٢/ ٥٠٢.

القبلي الجاهلي، وجل أيام الجاهلية يظهر فيه هذا الضرب من المحالفات العارضة[١]. ففي يوم الكلاب الثاني تحالفت قبائل مذحج وهمدان وكندة للاغارة على بني تميم بعد أن أوقع بهم كسرى في يوم الصفقة، وقد تحالف مع تميم بنو تيم والرباب وقاد الجيش النعمان بن جساس التيمي، فلما قتل خلفه على الرئاسة قيس بن عاصم المنقري، وأسفرت الحرب عن هزيمة اليمن وانتصار تميم[٢] وفي يوم شعب جبلة تحالفت بنو تميم وبنو ذبيان وبنو أسد وطوائف من كنده على بني عامر وعبس، وفي هذا اليوم فقدت الشاعرة د ختنوس أباها لقيط بن زرارة الدارمي، وكان رئيس تميم في هذه الحرب، وعلى الرغم من أن تميما لم يتخلف منها إلا بنو سعد وحشدت معها كل الأحلاف فإنها انهزمت شر هزيمة، لأن التميميين اعتمدوا على الكثرة واغتروا بها على حين اعتمد العامريون على الرأي والتخطيط السليم والمشورة، فقتل لقيط وتفرق جمعه[٣] ومن أيام الأحلاف يوم النسار، وهو يوم تحالفت فيه بنو سعد مع بني عامر ضد ضبه وأسد، فهزم الفريق الأول واستحر القتل والسبي في بني عامر خاصة لأن السعديين انفضوا فلم يصب منهم كثير؛ وسبب هذا اليوم نهب الحنتف الضبي خيل لمالك ذي الرقيبة العامري، وقد استودعها خالد بن عمرو الأسدي، وكان غيبها قبل ذلك عند عوف بن عطية التيمي. ثم أظهر الحنتف الخيل فبينما هو يوردها غديرا يسقيها إذ لقيه رجل من قشير فنازعه فيها، فضرب العامري الحنتف الضبي على ساعده، وضربه الحنتف فقتله ووقع الشر، ورفض العامريون الدية وأصروا على الثأر، فأبت بنو ضبه ووقعت الحرب، ودارت الدائرة على بني عامر، وقتل شريح بن مالك القشيري رأس بني عامر، وسبيت العقيلات[٤].

---

(١) العصبية القبلية ٩٢.
(٢) أيام العرب في الجاهلية ١٢٤.
(٣) المصدر السابق ٣٤٩.
(٤) المصدر السابق، ٣٧٨.

وحين تشترك القبائل المتحالفة في حرب مـا تحتفظ كل قبيلة غالبا بقيادة مستقلة وهذا ما يعرف بالتساند، وهو من مظاهر العصبية القبلية الضيقة، ففي يوم الغبـيط غزا بسطام بن قيس والحـارث بن شريك ومفروق بن عـمرو في جمع من بني شيـبان بلاد بني تميم، فأغاروا على بني ثعلبـة بن يربوع وثعلبة ابن سعد بن ضبة وثعلبة بن عدي بن فزاره وثعلبة بن سعد بن ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فلج فاقـتتلوا فهزمت الثعالب[١]. وأصابوا فيهم واستاقوا من إبلهم، ثم مالوا على بني مالك بن حنظله فركـبت عليهم بنو مالك فيهم عتـيبة بن الحـارث بن شهـاب وفرسان بني يربوع فـأدركوهم بغـبيط المدره، وقاتلوهم حتى هزموهم وأدركوا ما استـاقوا من إبلهم، وأسر عتيبة بسطام بن قيس ففدى نفسه بأربعمائة بعير[٢].

وفي يوم خوى سار عـبد عمرو بن بشر بن مـرثد البكري حتى إذا كان بخوى عـرض له المنبطح الأسدي في بنـي أسد، ويزيد بن الفحـاربة في بني يربوع. فقالت بنو قيس بن ثعلبة: نحن مـجتازون لسنا نريد الغارة فخلوا لنا سبيلنا، فشد يزيد اليـربوعي في بني يربوع وبني أسد على بني بكر، وكانت يربوع وأسد تضعف على بني قيس بن ثعلبه البكريين في العدد، فاقتتلوا أشد قتال فـانهزمت بنو أسد، واتبعـتهم يربوع وولي يزيد بن سلمه، فاتبـعه بشر وعمرو البكريان ويزيد تمطر به فـرسه، فخاف عمرو أن يفـوته فزرقه بالرمح بين وركيـه زرقة خالطـت بطنه فوقع عن فرسـه فأسره عـمرو وأتى به عـبد عمرو، ثم مات فدفنه البكريون ببطن خوى ومضوا[٣].

وفي يوم الاياد كـانت بكـر بن وائل تحت يد كـسـرى وفـارس فكانوا

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٩٦.

(٢) أيام العرب في الجاهلية ١٩٧.

(٣) الأنوار ٥٤.

يجبرونهم ويجهزونهم، فاقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائة متساندين يتوقعون انحدار بني يربوع في الحزن، وكانوا يتشتون خفافا فإذا كان انقطاع الشتاء انحدروا إلى الحزن، فاحتمل بنو عتيبه وبنو عبيد وبنو زبيد من بني سليط أول الحي حتى اسهلوا ببطن مليحه، فطالعت بنو زبيد في الحي حتى حلوا الحديقة بالإفاقة، وحلت بنو عتيبة وبنو عبيد روضة الثمد، ويقبل جيش بكر حتى ينزلوا هضبة الخصي، وقد نصح بسطام الشيباني قومه أن يبدأوا بالغارة على بني زبيد بعد أن عرف مكانهم وعدد بيوتهم وقوتهم، ولكنهم جبنوه فقال لهم إن أسيد بن حناءه لم يكن يظله بيت يبيت القفر لا يفارقه فرسه الشقراء، فإذا أحس بكم علاها فركض حتي يشرف مليحة فينادي يا آل يربوع فيتلقاكم طعن ينسيكم الغنيمة. وهذا ماحصل بالفعل فلم يرتفع الضحى حتى تلاقوا بغبيط الفردوس.. ودارت الدائرة على بكر، وقتلت تميم جماعة من فرسانهم، وأسرت جماعة، منهم هانيء بن قبيصة ففدى نفسه، أما بسطام فقد تمكن من الفرار بعد مطاردة عنيفة فكان آخر من أتى قومه بعدما ظنوا أنه قتل[١]، وظاهر أن سبب هزيمة البكرين يعود إلى القيادة التي كانت تقوم على التساند بين بسطام الشيباني ومفروق بن عمرو وهانيء بن قبيصة.

ويلعب الشيفةّ في الحروب دورا حاسما في تحقيق النصر، والتحرز من العدو المغير، وفي يوم[٢] الوقيط تجمعت اللهازم لتغير على تميم وهم غارون، فرأى ذلك ناشب العنبري وهو أسير في بني سعد بن مالك بن ضبيعه، فقال لهم: أعطوني رسولا أرسله إلى بني العنبر أوصيهم بصاحبكم خيرا.. -

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٩١.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٨٣.

وكان حنظله المرثدي أسيرا في بني العنبر- ، فقالوا له على أن توصيه ونحن حضور قال نعم، فأتوه بغلام لهم فقال لقد أتيتموني بأحمق وما أراه مبلغا عني قال الغلام لا والله ما أنا بأحمق وقل ما شئت فإنما تبلغه، فملأ ناشب كفه من الرمل فقال كم هذا الذي في كفي من الرمل؟ قال الغلام شيء لا يحصى كثرة، ثم أومأ إلى الشمس وقال ما تلك؟ قال هي الشمس، قال فاذهب إلى قومي فأبلغهم عني التحية وقل لهم يحسنوا إلى أسيرهم ويكرموه فإني عند قوم محسنين إليّ مكرمين لي، وقل لهم يعروا جملي الأحمر ويركبوا ناقتي العيساء بآية ما أكلت معهم حيسا، ويرعوا حاجتي في ابني مالك، وأخبرهم أن العوسج قد أورق وأن النساء قد اشتكت، وليعصوا همام ابن بشامه فإنه مشتؤم محدود، ويطيعوا هذيل بن الأخنس فإنه حازم ميمون، قال فأتاهم الرسول فأبلغهم، فقال بنوعمرو بن تميم ما نعرف هذا الكلام، وقد جن الأعور بعدنا، فوالله مانعرف له ناقة عيساء ولا جملا أحمر، فشخص الرسول، ثم ناداهم هذيل يا بني العنبر قد بين لكم صاحبكم، أما الرمل الذي قبض عليه فإنه يخبركم أنه أتاكم عدد لا يحصى، وأما الشمس التي أومأ إليها فإنه يقول إن ذلك أوضح من الشمس، وأما جمله الأحمر فإنه هو الصمان يأمركم أن تعروه، وأما ناقته العيساء فهي الدهناء يأمركم أن تحترزوا فيها، وأما أبناء مالك فإنه يأمركم أن تنذروا بني مالك بن حنظله بن مالك ما حذركم وأن تمسكوا الحلف بينكم وبينهم، وأما العوسج الذي أورق فيخبركم أن القوم قد لبسوا السلاح وأما تشكي النساء فيخركم أنهن عملن شكاء يغزون به، فتحرزت عمرو فركبت الدهناء، وأنذروا بني مالك فقالوا لسنا ندري ما يقول بنو عمرو ولسنا متحولين كما قال صاحبكم فصبحت اللهازم بني حنظلة، ووجدوا بني عمرو قد أجلت فأسر ضرار بن القعقاع بن

معبد بن زراره، وعثجل بن المأموم وغمامه بنت طوق، وكلهم من زراره ثم منوا عليهم وأطلقوهم. وفي يوم النباج وثيتل وكان أيضاً لتميم على بكر خرج قيس بن عاصم المنقري وهو رئيس عليها، ومعه سلامه بن طرب في الأجارب، فغزوا بكر بن وائل فوجدوا اللهازم وبني ذهل بن ثعلبة و عجل ابن لجيم وعنزه بن أسد بالنباج وثيتل.. فبعث قيس بن عاصم شيفة له فلقي رجلا من بني بكر بن وائل، فتعاقدا على ألا يتكاتما، فقال الأهتم من أنت قال أنا فلان بن فلان ونحن بجوف الماء حضور فمن أنت؟ قال الأهتم: أنا سنان بن سمي وهو لا يعرف إلا بلقبه فغفل نفسه له، فرجع البكري فأخبر قومه عنه ورجع الأهتم فأخبر قيسا الخبر وعرف أنهم بكر، فكتمهم أصحابه فلما أصبح سقي خيله ثم أطلق أفواه الروايا وقال لأصحابه قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاه من ورائكم، ثم أغاروا على أهل النباج من بكر قبل الصبح فقاتلوا قتالا شديداً، ثم إن بكرا انهزمت وأسر الأهتم حمران بن عمرو، وأسر فدكي الذهلي وأصابوا غنائم كثيرة وأغار قيس بن عاصم على أهل ثيتل فقاتلوهم ثم هزموهم[١].

وفي يوم ذي طلوح كان عميره بن طارق اليربوعي متزوجا مريه بنت جابر ومقيما في قومها من بني عجل بن لجيم، فلما علم بعزم اللهازم وشيبان على غزو قومه أسرع إليهم وأخبرهم، فاستعدوا للغارة عند أسفل ذي طلوح حيث يعسكر البكريون، فدفع اليربوعيون الخيل إليهم وهم يريدون أن يغيروا فأقبل أبجر بن جابر باللهازم والحارث بن شريك بشيبان، فأخذوا وأخذ عبد الله بن عنمه الضبي، وكان مجاورا في بني شيبان، فافتكه متمم

(١) أيام العرب في الجاهلية، ١٨٤.

بن نويره[١].

وكثيرا ما نجد القبيلة تنقسم على نفسها بسبب وقوع التنافس والنزاع بين بطونها، فيجتمع عدد من هذه البطـون مؤلفا ما يمكن أن ندعوه حلفا داخليا، ومن هذه الأحلاف الداخلية تحالـف بني سعد والرباب على بني حنظله وبني عمرو بن تميم[٢] ففي يوم ضـربه اختلفت سعـد والرباب على بني حنظله، وكـان بنو عمـرو بن تميم حـالفوا بكر بن وائل، فـضـاقت حنظله، بسعـد والرباب، فساروا إلى عمرو بن تميم فردوهم وحالفوهم[٣].

أما الأحلاف الخارجية فقد تتم بين بطون قبيلة ما مع بطون قبيلة أخرى ولو كان ذلك على حساب القبيـلة الأم، وإن كان بعض هذه الأحلاف قصير الأجل أو في شكل موادعـات، ومن ذلك تحالف شيبـان مع الرباب ضد تيم الله بن ثعلبه في يوم زبالة، فقد خرج الأقرع بن حابس المجاشعي رئيسا على بعض بني تميم فيـهم أخوه فراس وعـمرو بن حنظله، فـأغاروا على بكر بن وائل فلقوهم بزبالة، فأسـر بنو تيم الله بن ثعلبه الأقرعان، وأسـر عمران بن مره عـمرو بن حنظله، ثم لقـي بنو تيم الله بني شيـبان ومعـهم بنو رباب، فانتزع بسطام بن قيـس - رئيس بني شيبان- الأقرع وأخاه منهم، فاخـتصموا فيهما فحكموا عمران بن مره، فحكم لبني رباب على بسطام بمائة وجعل الأسيرين لبـسطام وافتـدى الأقرعـان نفسـيهـما من بسطام وعـاهداه على إرسال الـفداء، فأطلقهـما فبعدا ولم يرسـلا شيئاً، وكان في الأسـرى انسان من بني يربوع،

(١) نفسه ١٨٤.
(٢) العصبية القبلية.
(٣) العمدة ٢/ ٢٠٩.

فسمعه بسطام بن قيس ينشد شعرا يخاطب أمه، ويمدح الآسر مسترحما فأطلقه بغير فداء[١].

وعند وادي المياه كان يوم جدود بين بكر وتميم فقد كانت بين الحارث ابن شريك الشيباني وبين بني سليط بن يربوع موادعه، فجمع شيبان وذهلا واللهازم وعليهم حمران بن عبد عمرو وأغار على بني ربيع بن الحارث بجدود وأصاب سبيا ونعما وهم خلوف، فبعث بنو ربيع صريخهم إلى بني كليب بن يربوع وهم يومئذ جيرانهم فلم يجيبوهم فأتي صريخ بني ربيع بني منقر بن عبيد، فركبوا في الطلب فلحقوا بكر بن وائل. فنادى الأهتم المنقري يا آل سعد ونادى الحارث يا آل وائل وشد كل واحد على صاحبه، ونادى نساء بني ربيع يا آل سعد، فاشتد قتال بني منقر لندائهن فهزمت بكر بن وائل، وخلوا ما كان في أيديهم من السبي والأموال، وتبعتهم بنو منقر فمن قتيل وأسير[٢].

وإذا كان الحلف مصدر قوة ومنعة في أغلب الأحوال فإنه قد يؤدي إلى الدمار والهلاك في بعض الأحيان، كما نرى في قول عدي بن وداع الأزدي في انتقال بني جرم القضاعيين إلى عمان ومحالفهم الأزد، والتحاق بني قدامة بن جرم بهم[٣].

ناج ابن جرم فما أسباب جيرتكم بني قدامة إن مولاهم فسدا

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق ١٧٨.
(٣) شعراء عمان، ٥٩.

دليتموهـــم بأمـــراس لمهلكـــة   جـــرد تبين في مهـــواتها جـــردا
أخرجتموهم من الأحرام فانتجعوا   يبغـــون خيرا فلاقوا نجعة حشـــدا
إلى عمـــان فدارســـتهم كتـــائبنا   يوم الرئال فكانوا مثـــل من حصدا



الفصل الرابع
البيئة الإقتصادية

١ - الزراعة

٢ - الصناعة.

٣- التجارة.

أ- الطرق التجارية.

ب- الأسواق.

٤ - الغزو

توفرت في منطقة الخليج العـربي منذ أقدم الأزمنة كل أسباب الأزدهار الاقتصادي في مجالاته المختلفة من زراعية وصناعية وتجارية.

١ - الزراعة:

اهتم أهالي هذه المنطقـة في البـحرين وعـمـان بالزراعة منذ القـدم، وشجع على ازدهارها مـا اشتملـت عليه من خصـوبة في الأرض ووفرة في المياه، فالكنعانيون ومنهم الفينيـقيون زاولوا الحرث والزرع إلى درجة جعلتهم لا يعرفـون إلا بها فقـد كانت مـدائنهم على سواحل الخليج العـربي قبل أن ينتقلوا إلى بلاد الشام في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، ويذكر القديس أن أبناء المستعمرات الفينيقـية القديمة لم يكونوا في أيامهم قد نسوا وطنهم الأول فكان الفلاح إذا سئل من هو؛ أجـاب إنه كنعاني أي إنه فلاح[(١)] والنخلة من أقدم الأشجار ويقال إن سكان البحرين الأوائل وهم الفـينيقيون قد اهتموا بها وأن معنى فـينيقس هو نخلة[(٢)] وكانت منطقـة الاحساء وسـائر المناطق في البحرين تشتهر بنخيلها بل كانت المصدر الكبير لتموين الجزيرة العربية بالتمر، وقد اشتق اسم القطيف من قطف النخيل والعنب لتوفرهما فيها، وكانت إياد بالبحرين مشهـورة بزراعة النخيل، كما كان بنو عامر بن عـبد القيس يسمون عامر النخل لعنايتهم به، وقد زرعوا الحـنطة والشعير والزيتون، وكان القطن يزرع في هجر إلى جانب الليمون والخـوخ والتمر، أما الموز والجوز والأترنج والرمان فينمو في أوال[(٣)] وفي جزيرة حارك جزر غليظ يقطع بالقدوم وبين المواطن الزراعية الأخرى بالبحـرين قطر وكاظمه، ويذكر أن المنذر بن ساوي

---

(١) الشرفاء: المنطقة الشرقية حضارة وتاريخ ٦٥٠.

(٢) المعيني شعراء عبد القيس ٤٧.

(٣) نفسه ٤٧، ٤٩.

حاكم البحرين غرس في أرض هجر نخلا كثيرا[١].

وقد أشـار لبيـد العامري، في تصـويره للظعن جاعـلا النبات جـزئية مدعمـة للصورة بأكملها، أشـار إلى ما تتمتع به هجر مـن تفوق في الزراعة والمياه، وبخاصـة زراعة النخيل المتنوعة الألوان والأحجـام من طوال وقصار تنوء بالثمـار، فبفـضل الماء الغزير الذي يغمـر جذورها بين الصفـاء الحصن المعروف، وبين العين الفواره بالمشقر.

يقول :

كأن أظعانهم في الصبح غادية ... طلح السلائل وسط الروض أو عشر

أو بارد الصيف مسجور مزارعه ... سـود الذوائب مما متعت هجـر

جعـل صغار وعيدان ينؤ بـه ... من الكوافر مكمـوم ومهتصـر

يشر بن رفها عراكا غير صادرة ... فكلها كـارع في المـاء مغتمـر

بين الصفا وخليج العين سـاكنة ... غلب سواجد لم يدخل بها الحصر

يقول د صلاح عبد الحافظ: فنرى منظرا ممتعا للعين، كأنما نشاهد فعلا النباتات بألوانها وأحوالها حتى كأن الصورة هنا في النبات لا في الظعن الذي تضاءل تصويره بجانبه[٢].

أما بلاد عـمان بسـاحلها وجـبلها فهي أيضـا كثـيرة النخل والبـساتين وضروب الفواكـه، وطعامهم الحنطة والشعيـر والأرز والجاورس، وفي الجبل مدينة صحم وماؤها من العـيون بها نخل كثير وقـصب السكر، وبها أشجار

---

(١) نفسه. وجزيرة العرب ٤٠.

(٢) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ٢/ ١٧٥.

يقطع منها عروق ثم توضع في الماء فيسيل منها شراب يسكر من ساعته، وبعمان فواكه جرومية كالموز والرمان والتين، ولعل نخيلها متميز من غيره فقد ذكر أن بالبصرة نخلة يقال لها العمانية لا يزال عليها السنة كلها طلع جديد وكبائس مثمرة وأخرى مرطبة[١].

وكانت عمان تنتج التمور والحبوب وتصدر الخمور، وكان السقي بنظام الفلج[٢].

٢- الصناعة:

وكما برع الفينيقيون في الزراعة وعرفوا بها فقد نبغوا في الصناعة أيضا، فهم وحدهم الذين وهبوا العالم الأوربي منذ عهد اليونان أبجديتهم على يد الفينيقي العربي قدموس الذي حمل ألف باء العرب إلى اليونان ثم منهم إلى الرومان ثم أسلموها إلى اللغات الأوربية. وقد برعوا في الصناعة وبخاصة الزجاج الشفاف الملون، وأتقنوا فنون التجارة البحرية والحدادة والنجارة وبخاصة نجارة السفن والأساطيل، واستطاعوا أن يؤسسوا أسطولا تجاريا ضخما جابوا به البحر ووصلت سفنهم إلى شمال أوربا[٣]. وتؤكد النقوش السومرية صلات بحرية بين البحرين والعراق، وأن الخشب كان يجلب من عمان لصناعة السفن والابحار بها. وتذكر الأخبار أن الخليج العربي عرف الأزدهار التجاري منذ القرون الأولى للميلا د عندما كانت موانئه تعج بالحركة وتستورد البضائع والمنتوجأت من الهند والصين، ويرى المؤرخ (ارمانيوس) أن عرب الخليج كانت لهم عدة موانيء وأنهم كانوا على

---

(١) جزيرة العرب ٣٧.

(٢) منطقة الخليج ٢٩٦.

(٣) المنطقة الشرقية حضارة وتاريخ ٦٦، ٦٧.

مقدرة فائقة في استغلال ثروات البر والبحر، ومن موانيء الخليج المعروفة الخط والعقير ودارين والزارة، ويؤكد (ويلسون) حقيقة وجود عدد من الجزر البحرية في الخليج وقد اشتهرت بصناعة السفن وفيها موانيء شهيرة كالخطية وعدولي وأراد في البحرين، ويشير جواد علي إلى أن عدو لي اشتهرت بصناعة السفن واستخدموا طرقا للمواصلات بين العراق والبحرين، وكانت سفن بني عباد وسفن أوال هي التي تقوم على هذه الطرق، واشتهرت سفن آل يامن كما اشتهر أيضا الشراع الداري نسبة إلى دارين في التجارة والمواصلات(١).

وتكثر مزارع اللؤلؤ وأماكن الغوص حول البحرين، وفي الإحساء وقطر ودولة الإمارات، ويقول (لوبون) إن بلاد البحرين أشهر مغاص اللؤلؤ في العالم، ويؤكد الخضري شهرة البحرين منذ القديم باللؤلؤ الطبيعي الممتاز، واستخدمت المرأة الخليجية الدر والياقوت والمرجان والفضة والزمرد وغيرها، وكان الذهب موجودا في أرض البحرين بالقرب من منطقة الكويت الحالية(٢) كما اشتهرت دارين بانتاج العطر وعمان بالعنبر أما صناعة النسيج فقد ذكر أنواع منها سمي كل نوع باسم البلد الذي ينتجه. ويترجح وجود معامل بالبحرين لهذه الصناعة لأسباب منها: ثراه الخليجيين فهم أمة تجارية وتوفر الأيدي العاملة لكثرة عددهم ووفرة المواد الخام لصناعة النسيج كالقطن الهجري والحرير الهندي والصيني. وكانت المنسوجات القطرية أكثر شهرة، وقد اشتهرت قطر بثوبها القطري وبالبرود والأردية، وقد لبس الثوب القطري رسول الله (ص) وعائشة وعمر وعلي وعبد الله بن عمرو بن العاص، ويذكر ابن الأثير أن الثوب القطري ضرب من البرود فيه حمرة وله أعلام

---

(١) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٥٨، ٥٩.

(٢) نفسه.

وهو خشن، كما يذكر ابن سعد أن هوذه الحنفي كسا سليطا العامري أثوابا من نسيج هجر، وجاء عند ابن سلام أن أولاد عامر بن عوف أهدوا الحطيئه أثوابا من نسيج هجر، ويروي أن مخرمة العبدي باع أثوابا هجرية في مكة، ومن الأثواب الهجرية معقد البحرين، وفي هجر صنعت الملاحف، وباع منها عمرو بن عبد القيس في الحجاز، والفوط صنعت في الاحساء وتستعمل للخدم والحمالين، وهناك منسوجات دارين ومنسوجات الظهران، وفي كفارة اليمين كسا أبو موسى الأشعري ثوبين من معقد البحرين، كما نسجت البحرين الأشرعة للسفن والأحداج للظعائن، ومنها الأنماط والكل والستائر(١).

واشتهرت البحرين بالرماح الخطيه، وهي منسوبة إلى جزيرة الخط في البحرين، والردينية نسبة إلى امرأة كانت تقوّم الرماح في الخظ، والسمهرية نسبة إلى سمهر وهو زوج ردينه، والخوصانية نسبة إلى خوصان وهي قرية في البحرين تباع فيها الرماح،(٢) والحطمية وهي دروع منسوبة إلى حطمه العبدي أو إلى حطم أحد بني عمرو بن مرثد من بكر(٣).

وربما استنتجنا من شعرهم صناعتهم النعال وانتشارها بينهم، وفي افتخار بني الحارث بن سدوس بأنهم لا يرقعون نعالهم وإذا نقبت يلقونها ليلبسوا الجديد منها إشارة إلى ذلك (٤).

ونلقي النعال إذا نقبت ... ولا نستعين بأخلاقها

---

(١) المصدر السابق ٦٥ والملابس للجبوري ٥٢.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٥٤.

(٣) العمدة: ٢/ ٢٢١.

(٤) الملابس للحبوري ٣١٨.

٣- التجـارة:

وكانت عمان تصدر بعض المنتجـات التي ربما صنعت محليا مثل قوارب تدعى ما داراتا والصبغ الارجواني والملابس والخمـور والذهب، أما فيما يتعلق بالمنتجـات الحديدية مثل المسامـير ومسـامير البرشـام والسيوف والسهـام فمن المحتمل أنها صنعت مـحليا، خاصة أن الحديد يتوافر في جـبال عمان، ويرى (صراي) أن (مليـحة) ربما تكون مكانا لسك العمـلات وفي الفترة الاسلامـية كانت عمان معروفة باستخراج الحديد وصناعة المواد والأدوات الحديدية(١).

وقـد عرفت مناطق الخليج العـربي بصناعـة الفخـار والأواني الحجـرية والمعدنية والتماثيل وغيرها فيمـا قبل الميلاد وبعده، وكانت منطقة شمال شرق الجزيرة العـربية (هجر) علـى علاقات واسعـة من خلال الطرق التـجارية مع المناطق المجاورة مثل بلاد الرادفين وسوريا وجنوب شـبه الجزيرة العربية، وتدل الآثار على أن الجزيرة المنامة على صلات كبيـرة مع شمال شرق الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وسوريا والـعالم اليوناني وربما تدل على وجود أجـانب عليها. وذكر صاحب كتاب الطواف بعض النشاطات التجارية بين عمانا وجيرانها مثل الهند وفارس ومـيسـان وجنوب شبه الجـزيرة العربيـة وذكر كـذلك أن السفن العمـانية تأتي من الميناء الهندي باريوجـازا محملة بالزنـك والنحاس والصندل وخشب التيك، كما أن عمانا كانت تسـتورد البخور واللبان من ميناء كاني في جنوب شبـه الجزيرة العربيـة وتصدر إلى مـاريوجازا وكاني نوعـا من القوارب محليـة الصنع تدعى مـاداراتا وكميـات كبـيرة من الملابس واللآلىء والخـمور والعبيد(٢). وقد مارس سكان الخليج العربي في الجـاهلية التجارة على نطاق

---

(١) منطقة الخليج العربي ٢٦٥، ٢٩٦.

(١) السابق ٩١.

واسع في كل من البحرين وعمان، وساعدهم على ذلك الموقع الاستراتيجي للمنطقة وانفتاحها على جميع الأجناس ووجود شبكة من المواصلات تربطها ببلدانهم وقيام الأسواق الموسمية والمحلية في مدنها وقراها. وقد شهدت هذه البلاد منذ عصور سحيقة في القدم ازدهارا في التجارة وركوب البحر واستخراج ما في عبابة من سمك ولؤلؤ، فقد كانت من مراسي السفن الشهيرة في الألف الثالثة قبل الميلاد تؤمها السفن القادمة من العراق في طريقها إلى الهند والسفن القادمة من الهند في طريقها للعراق ونتج عن هذا الازدهار التجاري وازدحام موانئها بالسفن الرائحة الغادية نشوء صناعة السفن فيها إذ كان لابد للتجارة من أسطول تجاري ينقل البضائع منها وإليها[(١)].

أ - الطرق التجارية:

طرق البحرين:

وتحتاج التجارة إلى طرق تسهل الاتصال بين الساحل والداخل وبين الداخل والخارج، ومنذ زمن قديم اتصل العرب بالفرس اتصالاً تجارياً كانت له عدة وسائل والذي يتتبع طرق القوافل ومسالك المتاجر يجد بينها طريقا من مأرب إلى جره[(٢)]، وجره مدينة على الخليج العربي يرجح أنها أسست في القرن الرابع قبل الميلاد وكان سكانها أصحاب نشاط تجاري، وهي ممتازة الموقع لأنها تواجه الهند وتقع داخل خليج البحرين بمأمن من الأمواج وعلى مقربة من ساحل الحسا التي تعد مفتاحا لقلب الجزيرة العربية، والظاهر أن موقعها قريب من العقير الحالية.. ثم يجد طريقا آخر بين جره إلى بطراء، إذ كانت بعض السلع تحمل في قوارب إلى الخليج ثم تحمل في الفرات ثم

---

(١) طرفة للهاشمي ١٢.

(٢) هي الجرهاء عاصمة المملكة الهجرية ازدهرت في الفترة من النصف الثاني قبل الميلاد إلى النصف الأول من القرن الأول، وربما كان أهلها يتكلمون اللغة الإحسائية، وقد سكت بها بعض العملات. (صراي: منطقة الخليج العربي ٦٣، ٦٤، ٦٦).

ترسل إلى الشام عن طريق تدمر. وهناك طريق ثالث من جره إلى الحسا واليمامة وغيرها من مناطق نجد[١].

وأشارت المصادر إلى الطرق التي كان يسلكها أهل هجر والبحرين في نقل تجارتهم إلى الشمال حيث العراق والحيرة، والقبائل العربية على امتداد الطريق ومئات القرى والأودية، وكانت هذه الطرق قريبة إلى ساحل البحرين، وقد وصفها لغده وعدد الأماكن التي يمر التاجر بها، فهو بعد خروجه من الأحساء يمر في الأجواف وهي مجموعة قرى ومياه كثيرة ثم يمضي إلى بطن غر فالستار، وهي أيضا قري كثيرة وبعدها إلى الطريفة فالعتيد فطويلع التي فيها قرية ثيتل الشهيرة، وبعد ذلك يصل إلى الشيطين منطقة الأودية، فالوريعة وقربها وادي السيدان، ثم يصل إلى كاظمة، ويمضي بعدها إلى ميناء الابله، ويدخل أرض العراق، وبين البحرين والعراق أكثر من خمس عشرة مرحلة، وبعض المؤرخين يرى أن المسافة أكثر من خمسة عشر يوما[٢].

أما عمان فطرقها الداخلية هي:

١) الطريق الساحلي القادم من رأس الخيمة أو جلفار بالقرب من موقعي شمل وغليله إلى البريمي وهيلي عبر مليحه وسهل المدام، ومن البريمي عبر سفوح الجبال إلى عبري ومنها إلى ظفار وحضرموت.

٢) من الدور إلى فلج العلا ومنه يتفرع طريقان واحد إلى سهل الذيد ثم موقعي مليحه والمدام، والثاني إلى الساحل الشرقي عبر البشنه.

٣) من الدور إلى رأس الخيمة والمنطقة الشمالية .

---

(١) تيارات ثقافية للحوفي ٢١.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٧٦.

٤) من الساحل الشرقي إلى مليحه.

أما الطرق الخارجية البرية التي تربط عمان بسوريا وبلاد الرافدين عبر شبه الجزيرة العربية فقد أشارت المصادر العربية والإسلامية إلى طريق تجاري بري بالقرب من الساحل من عمان إلى البحرين (الهفوف وهجر) ومنها إلى سوريا وإلى جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين كما أشار ويلكنسون إلى طريق بري من حضرموت إلى عمان بالقرب من الساحل(١).

ب- الأسواق:

- أسواق البحرين.

- سوق هجر.

وتكون على اتصال دائم ببلاد الهند وفارس، يجلب إليها مختلف الأصناف، ولأهلها أسباب أخرى للمعاش غير التجارة كالغوص على اللؤلؤ، وهي أكثر بلاد العرب تمورا وأطيبها، وأروج تجاراتها التمر به عرفت وبها اشتهر حتى ضرب به المثل فقالوا كمبضع تمر إلى هجر. قال أبوعبيدة: ونخلها كثير ملتف غاية في الجودة والطيب، تهبط العرب هذه السوق ولعلها كانت أكثر مكانة من دومة الجندل، لأنها فرصة يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتيهم بها تجار الهند وفارس ما لا يجدون في تلك، وكان بها ضروب من البضائع، تقصد العرب هذه السوق بعد انفضاضهم من سوق دومة الجندل فإذا أهل ربيع الآخر انتقلوا إليها فقامت سوقها، وينظر في أمرها المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم، ويتولى أمرها ويعشر الناس فيها وهو ملك البحرين عامة(٢).

---

(١) منطقة الخليج العربي ٢٨٩.

(٢) أسواق العرب للأفغاني ٢٤٥.

سوق المشقر:

حصن بالبحرين لعبد القيس وهو قريب من هجر وأهله أزد يمانيون، تقوم في المشقر سوق للعرب تبتديء من أول جمادى الآخرة وتستمر إلى سلخه وينزلها أخلاط من جميع أحياء العرب، وكانت أرضها معجبة لا يراها أحد فيصير عنها، فلها صفات هجر وخصبها إذ هي جزء منها، وقد علل المرزوقي اختلاف قبائل الناس في هذه النواحي بقوله: وكانت لا تقدمها لطيمة إلا تخلف منهم بها ناس فمن هناك صار بهجر من كل حي من العرب ومن غيرهم. وكان بيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب.

يقصد هذه السوق العرب وأهل فارس على السواء، وجاورها من قبائل العرب تميم وعبد القيس، وليس لها ما لغيرها من الأمن والحرمة، وجميع من يقصدها لا يستغني عن خفاره يسير في حمايتها، وملوك هذه السوق الذين يعشرون الناس فيها أناس من بني عبد الله بن زيد رهط المنذرين ساوى من تميم وهم خاضعون لملك فارس، ومن يوافي هذه السوق من فارس خلق عظيم(١).

وفي البحرين أسواق أخرى منها سوق دارين والزارة وعاقل .

وهذه قائمة بأهم الصادرات والواردات من البضائع والمنتوجات لمنطقة البحرين كما يلخصها أحد الباحثين(٢).

١- المواد الغذائية وأهمها التمر ويصدر إلى أنحاء الجزيرة .

٢- المنسوجات القطرية والهجرية إلى مكة ويثرب والعراق وفارس.

---

(١) المصدر السابق، ٢٤٠.

(٢) شعراء عبد القيس للمعيني ٧٨.

٣- الرماح الحطية والدروع الحطمية وتباع في جميع أجزاء الجزيرة .

٤- اللؤلؤ وأدوات الزينة والذهب إلى الهند وسائر الجزيرة .

٥- الطيب والمسك والكافور تجلب من الهند وتصنع في دارين وتباع في الجزيرة خصوصا يثرب .

٦) الابل القطرية والنجائب العبدية.

٧) يستورد الحديد من بلاد فارس، والقنا من الهند، والحرير من الهند والصين، والخشب من عمان .

أسواق عمان

سوق عمان:

كوره عربية في جنوب الخليج العربي تمتد على سواحل بحر اليمن تجارات أهلها كثيرة ومعايشهم وافرة وفيها ذخائر متنوعة ومعادن جيدة وخصب ورخاء . وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الأعاجم فيها واختلاط أهلها بهم حتى أدخل الضيم على لغتهم، يقصد العرب هذه السوق إذا انتهت من سوق هجر فترحل إلى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الأولى، وهي لتوسطها بين فارس والهند والحبشه تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثلاث، وكانت جمالها تحمل الورس من اليمن إلى عمان حيث تعالج الأشياء التي يراد صبغها بالصفره وكان يستخرج بها عنبر مشهور، وتسمى أرض البخور.

في هذه السوق يجري التبادل بين بضائع فارس والهند والحبشة واليمن والحجاز والشام، يصب فيها كل تاجر قطر ما يحمل من قطره ويرجع إلى

بلده بما يأخذه من عروض ليست فيه، ولهذا كان فيها جاليات من كل أمة وكل قبيلة[١].

سوق صحار:

كانت تتمتع بشأن كبير في الجاهلية فقد كان بها تجارات واسعة تجلب إلى مختلف أقطار الجزيرة العربية، تقوم من خمسة رجب إلى خمسة عشر منه وتمتد إلى ما بعد ذلك، وقيامها في ذلك يغني قاصدها عن الحماية، لأنها في شهر حرام. يعشر الناس في هذه السوق الجلندي المستكبر، وبيعهم فيها بإلقاء الحجارة[٢].

سوق دبا:

قال ياقوت: سوق دبا من أسواق العرب بعمان، وهي مدينة مشهورة لها ذكر في أيام العرب، وكانت قديما قصبة عمان، وجعل المرزوقي قيام هذه السوق بين سوقي صحار والشحر، وهي من فرض العرب المشهورة ويكون فيها ما لا يكون في غيرها من تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب، وتمتاز من غيرها بالبضائع الأجنبية التي يحملها التجار من بلادهم في البحر وتنفذ منها تجارات العرب إلى الخارج. تقوم سوقها آخر يوم من رجب.. والبيع فيها بالمساومة ويعشرها ملكها الجلندي، ولا يباع شيء فيها حتى يبيع[٣].

وبفضل هذه الثروة الواسعة في منطقة الخليج العربي ظهرت طبقة

---

(١) أسواق العرب، ٢٥٢.

(٢) نفسه ٢٦١.

(٣) السابق ٢٦٤.

عريضة الثراء، اشتهر من تجارها في البحرين ابن يامين اليهودي الذي أشار الشعر الجاهلي إلى جودة نخيله ومتانة سفنه[١].

كما اشتهر في عمان أبو الفرج المجوسي الذي كان له من المال الصامت ثمانمائه كجلة دنانير ذهبا كل كجله تسعة أمنان، وهو الذي اتخذ بعمان خانات للتجار مفروشه مكان الأجر باللبن المتخذ من النحاس، في كل لبنه من مائة إلى مائة وخمسين منا.[٢] وهذا ليس ببعيد فقد قيل أن أول معدن اكتشفه الانسان واستعمله هو النحاس، ويرجح فيليب حتى أن السومريين قد حصلوا عليه من مناجمه في عمان[٣].

٤- الغـــزو:

وإذا تركنا هذه المدن التجارية والقبائل التي تقطن على طريق التجارة ومضينا إلى دا خل الصحراء بعيدا عن الطرق التجارية لوجدنا صورة أخرى من صور الصراع الدامي الذي فرضته طبيعة الصحراء القاسية بما فيها من جدب وجفاف، فقد انحصر عمل العربي في رعي الماشية...، وكان أهمها الابل والغنم والماعز وكانت ثروة العربي تقاس بما لديه من النعم فيقولون إن فلانا له نعم قد ملأ الأرض.[٤] وإلى جانب هذه الطبقة الثرية التي ملأ نعمها الصحراء طبقة معدمة لا تكاد تملك قوت يومها.. ومعظم هؤلاء الفقراء كانوا يعملون عند هؤلاء الأغنياء يقومون لهم بشئونهم المختلفة التي كان أهمها رعي الغنم والعناية بالإبل، ومن أبت عليه نفسه أن يقوم بمثل هذه

---

(١) معلقة طرفة بن العبد ورائية امريء القيس.

(٢) جزيرة العرب ٣٧.

(٣) أديان العرب قبل الإسلام.

(٤) د. محمد الكومي: الصراع بين الإنسان والطبيعة في الشعر الجاهلي ١٠٦.

الأعمال كان عليه أن يبحث عن عمل آخر لكسب قوته وقوت أولاده، ولم يكن أمام هذه الفئة - عدا الصيد المحدود الرزق - سوى الإغارة على القوافل والقبائل الأخرى، ولم تكن هذه الغارات فردية وإنما كان هذا الصراع بين الفقر والغنى قبليا تصدر حركاته عن القبيلة ويجري برضاها، فيما عدا تلك الحركات الفردية التي تصدر عن بعض الشخصيات المتمردة على المجتمع كالخلعاء الذين كانوا لا يرعون تقاليد القبيلة وإنما يتصرفون وفق أهوائهم الشخصية(١).

ولم يكن الصراع بين العربي والطبيعة القاسية من أجل الحياه يتوقف عند هذا الشكل من ألوان الصراع وإنما هناك ألوان أخرى من أشكال ذلك الصراع منها الهجرة من مكان إلى آخر طلبا للماء والكلأ وكلما جفت نباتات المكان الذي ارتحل إليه وغاض ماؤه اضطر إلى الإرتحال ثانية إلى مكان آخر(٢).

وقد جعلت الظروف الجغرافية في الجزيرة العربية الحركة هي القاعدة التي تقوم عليها حياة البدوي عن سكانها، ومن هنا استقر في أعماق البدوي إحساس بالأنفة من كل الأعمال التي تفرض على أصحابها الاستقرار وإحساس بالرضا عن كل الأعمال التي تفرض على أصحابها الحركة والتنقل(٣).

ومن هنا قدس البدوي الغزو وأصبح وسيلة من وسائل الحياة، وقد عبر عن ذلك أحدهم في قوله(٤).

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٢) نفسه.

(٣) مجلة المجلة فبراير ١٩٦٥م، ص ١٦ مقال للدكتور يوسف خليل.

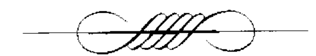
(٤) حماسة أبي تمام ١/ ١٣٦.

نغير من الضباب على حلول وضبة إنه من حـــان حانـا

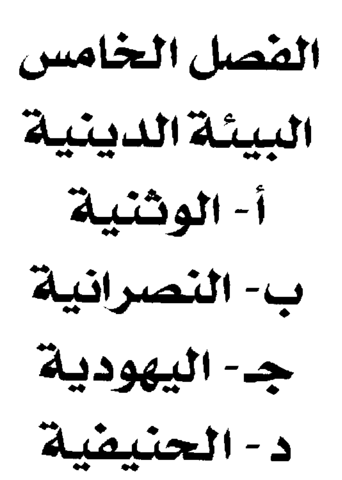
وأحيــانا على بكــر أخينا إذا لم نجـــد إلا أخانــــا

فالغــزو إذن وسيلة من وســائل عيشــهم ذلك العيش المشـرب بالضنك والشطف، وضرورة اجتماعية أملتها أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية

فهو لم يكن فضيلة في حد ذاته وإنما ضرورة من ضرورات الحياة والبيئة وهو يمثل صورة مــن صور تنازع البقــاء في مجــتمع فقــير مــجزأ، كل هذه العوامل رفعت الغزو إلى مستوى النظام القومي(١).



(١) إسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٣٩.



الفصل الخامس

البيئة الدينية

أ- الوثنية

ب- النصرانية

جـ- اليهودية

د - الحنيفية

كانت الوثنية عقيدة عامة الجاهليين الذين وجدوا فيها ما يتفق مع تفكيرهم السطحي البعيد عن العمق والتجريد فكانت المهيمنة على أذهان الغالبية منهم، حيث لم يؤمن بالأديان السماوية إلا القلة القليلة منهم.

من هنا سيطر الفكر الوثني على تفكيرهم وشاعت عاداته وتقاليده ممتزجة بعادات وتقاليد التوحيد دون أن يجد الجاهليون ضيرا في ذلك أحيانا كثيرة،(١) وقد اجتمع في منطقة الخليج العربي بحكم موقعها الجغرافي كل الأديان المنتشرة في الجزيرة العربية إلى جانب المجوسية التي لم يكن لها وجود يذكر في غير البحرين وعمان من أرض العرب.

أ- الوثنية:

في تعريف ابن الكلبي للوثنية فرق بين الصنم والوثن فقال: ما كان معمولا من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن، وقيل في التمييز بينهما: إن الوثن هو الصنم الصغير وسمي وثنا لانتصابه وثباته على حالة واحدة.

وفي المصادر الإسلامية أن أول من نصب الأصنام في مكة هو عمرو ابن لحي الخزاعي، وقيل خزيمة بن مدركه بن مضر(٢).

أما الأصنام التي عبدت بمنطقة الخليج في الجاهلية فمنها: ١- ٢ ذو الكعبين والمحرق بسلمان لبكر وكانوا قد جعلوا في كل حي من ربيعه له ولدا فعنزه كان لها بلج وعميره وغفيله لها عمرو وكلاهما أبناء المحرق(٣) وكان

(١) صادق مكي: ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، ٢٨.

(٢) جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣) اسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٥٦.

سدنته ال الأسود من عجل، وكانوا يلبون عنده بالقول لبيك اللهم لبيك حجا حقا تعبدا ورقا.[١] ٣-٤ قيس وأوال: وكان الأول في هجر ثم نقل إلى أوال، وهو لعبد القيس وأطلق عليه اسم المحرق ذلك لأن القرابين من البشر كانت تقدم إليه وهي محروقة فغلب عليه اسم المحرق، وإليه نسبت جزيرة المحرق كما نسبت القبيلة إلى قيس، ويرى جواد على أنه ربما كان اسم اله من آلهة أدوم والقبائل العربية الأخرى، وقد عبدت أوال بكر وتغلب وعبد القيس وإليه تنسب جزيرة أوال[٢] ٥-٦ : السعيده والمغبغب والأول صنم أنثى بأحد كان لسعد هزيم وقضاعة والأزد أما سدنته فهم بنو عجلان وأما التلبية عنده فهي لبيك اللهم لبيك لبيك لم نأتك للمياحه ولا طلبا للرقاحه ولكن جئناك للنصاحة، أما الثاني فهو صنم لقضاعه كانوا يذبحون عنده في الجاهلية[٣].

٧-٨ سعير وباجر، فالأول صنم لعنزه خاصة وكانوا يذبحون عنده ويصنعون عنده صتيعهم عند غيره من الأصنام، أما الآخر فصنم للأزد ومن جاورهم من قضاعة وطيء وروى أنه باحر[٤] ٩-١٠ ذو اللباء والجلد، فالأول صنم لبني عبد القيس بالمشقر سدنته بنو عامر وكانوا يلبون عنده لبيك لبيك لبيك فاصرفن عنا مضر وسلمن لنا هذا السفر إن لنا فيهم لمزدجر واكفنا اللهم أرباب هجر[٥]، أما الثاني فهو صنم عبدته كنده وحضرموت[٦]، ١١-

---

(١) يحيى الشامي: الشرك الجاهلي ١٤٨.
(٢) عبدالحميد المعيني: شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٨٢.
(٣) الشرك الجاهلي ١٥٠.
(٤) نفسه ١٤٠، ١٥٢.
(٥) نفسه.
(٦) نفسه ١٤٧.

١٢، رضى والشمس، فالأول صنم كان فيما ذكره الرواه بيتا لبني ربيعه من تميم، والثاني صنم آخر لبني تميم وعبدته بنوأد كلها وقد تسمى الكثير به[١].

ومناطق البحرين الحالية وتسميات مدنها وقراها وجزرها مثل المنامة وعوالي والمحرق وعذاري، كلها أسماء لأماكن مقدسة وتتعلق بالشعائر الدينية الوثنية ومن هنا أطلق على البحرين الأرض المقدسة فالمنامة مكان النوم والراحة وهي تدعى أحيانا بالمنعمة، وعوالي معبد في مرتفع عال من الأرض والمحرق من الحريق واحتراق الجثث المقدمة قرابين للآلهة، وعذارى مكان استحمام العذارى، وهذه الألفاظ جميعها لها دلالات جنائزية وطقوس دينية[٢] يقول نصرت عبد الرحمن ويبدو أن بيوتا شبيهة بالأديرة كانت موجودة في الجاهلية يترهب فيها العذارى، وتسمى بيوت العذارى أو الدوار تميزا لها عن الديرالمسيحي[٣]. وربما حجت القبائل إلى أصنام هجر والمشقر[٤]. وقد أشار شعراء الخليج الجاهليون إلى هذه الأصنام والأوثان. من خلال قسمهم بها. يقول طرفة حالفا بالانصاب التي يذبحون عليها القرابين في اعتذاره لعمرو بن هند[٥].

إني وجدك ما هجوتك ولـ   أنصاب يسفح بينهن دم

وأقسم المتلمس بالأنصاب واللات في قوله يهجو عمرو بن هند[٦]

أطردتني حذر الهجاء ولا   واللات والأنصاب لا تئل

---

(١) أحمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ٣١٨، ٣٢٣.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٨١.

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ٢٧.

(٤) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٨١.

(٥) ديوانه ٨٩.

(٦) ديوانه ٤٢.

وحلف أوس بن حجر باللات والعزى ولكنه يقر بتفوق الله عليهما[١]

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله إن الله منهن أكبر

ويذكر المستوغر رضى عندما كسره في الإسلام فقال : [٢]

ولقد شددت على رضاء شدة   فتركتها تلا تنازع أسحما

وكان لبكر صنم يقال له عوض قال قائلهم[٣]

حلفت بمائرات حول عوض   وأنصاب تركن لدى السعير

فقد حلف بالدماء المائرات أي الجاريات على وجه الأرض حول عوض.

ومن عادة المشركين أنهم كانوا يذبحون ذبائح لأصنامهم فلولا أن عوضا صنم لما ذبح له ولما حلف بالدماء التي حوله تعظيما له، ويدل على كونه صنم ذكره مع السعير. ويشير عمرو بن الجعيد إلى عبادته للات من خلال تأكيده على التمسك بالشراب[٤].

فإني وتركي وصل كأس لكالذي   تبرأ من لات وكان يدينها

ويقول عمرو بن قمئه [٥]

بودك ما قومي على أن تركتهم   سليمى إذا هبت شمال وريحها

وود صنم اتخذته كلب بدومة الجندل.

---

(١) ديوانه ٣٦.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣١٨.

(٣) الألوسي: بلوغ الأرب في أحوال العرب، ٢/ ٢١٠.

(٤) حسين حسن: الأسطورة عند العرب ١٤٦.

(٥) ديوانه ٣١.

أما فيما يتصل بعبادة العرب للكواكب والنجوم، فقد جاء في الملل والنحل أن مدار مذهب الصائبة التعقب للروحانيين وهم ملائكة السماء، وهم يعتقدون أن للعالم خالقا يعجزون عن إدراكه، فتقربوا إليه بالمتوسطات، ومن هذه الروحانيات التي قالوا إنها المتوسطة في تصريف الأمور وتستمد قوتها من الله مدبرات الكواكب السبع السيارة، فالكواكب هيا كل الروحانيات، ولما كانت تأفل وهم يريدون شيئا نصب أعينهم لا يفارقهم توسطوا إليها بالأصنام، فلابد من صور وأشخاص موجودة مائلة نصب أعينهم[١] فالأصنام إذن في شتى صورها عند الصائبة هي عبادة للكواكب التي هي هياكل الروحانيات القادرة على تصريف أمور العالم.

ويمكن الربط بين هذا وبين صنم بكر بن وائل « عوض» وعوض من أسماء، الزمان، وبما أن الكواكب والنجوم مقياس للزمان والوقت كما يقول عبد العزيز شحاده الذي يعد هذا اللون من العبادة عبادة للزمان[٢].

يقول د جواد علي : وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل وترجع الآلهة إلى الشمس والقمر والزهرة[٣].

أما عبادة أهل الخليج الجاهليين للحيوان والكواكب فإذا توغلنا في التاريخ العربي القديم وجدنا الحيوان بين الصور المهمة لمعبودات الانسان القديم فهو إما طوطم الجماعة وجدها الأعلى، وإما معبودها الممثل والرمز للإله السماوي (الكوكب) الذي تتوجه إليه الجماعة في صلواتها. وقد ربطوا

---

(١) الملل والنحل ٢/ ٩٥-٩٨.

(٢) الزمن في الشعر الجاهلي ٣٩.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٥٠.

مثلا بين الثور الوحشي والقمر جاعلين منه رمزا على الاله ود سين أوشهر. وإذا كان الثور كثير الظهور في أنساب العرب اسما لفرد أو علما على قبيلة مشيرا إلى بقايا طوطمية قديمة تتخذ من الثور جدا أعلى للقبيلة تنتسب إليه، إلا أنه في المرحلة التالية مرحلة الديانة الكوكبية قد صار رمزا ممثلا لإله القمر إذ وجدت في معابد القمر جنوبي الجزيرة صور لثور قدمها عابدوه قرابين للاله أو نذورا كانت عليهم له. ولقد عرف القمر باسم ثور[(١)] ويبدو أن عبادة الثور كانت منتشرة في عصور الجاهلية الأولى الموغلة في القدم، فقد ذكر اريانوس وسترابوس وأوريجنوس اسمي الهين هما ديونيسوس وأورانيا، وذكروا أن العرب كانوا يتعبدون لهما، وديونيسوس هذا كان الهايونانيا يمثله الثور ويجسد صفاته في الاخصاب والنماء[(٢)]. وتعكس بعض عاداتهم ارتباط البقر بنزول المطر فقد ذكر الرواة أن العرب في الجاهلية إذا انحبس المطر عنهم وضاقت حالهم في الجفاف والمجاعات والقحط كانوا يجمعون حطب السلع فيوقرون به ظهر البقر وقيل يعلقون ذلك في أذنابها ثم تعلج النار فيها ثم يستمطرون بلهب النار وهم يصعدونها في الجبل فيمطرون. وفي إشعالهم النار تفاؤل بالبرق المصاحب للمطر، يقول مصطفى الشورى: ولكن الرواة لم يوفقوا في تعليلاتهم هذه إذ أن هناك علاقة قديمة بين المطر والبقر، فهذا الحيوان كان يمثل قوة تتحكم في السماء والسحب ونزول المطر، وليس من شك في أن عادة استسقائهم بالبقر من مخلفات عبادة الثور وما يرمز إليه من الخصب والنماء، أما النار المضرمة المعلقة في أذناب البقر فيبدو أنها بقايا طقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الاله الثور[(٣)]. وصور الثور الوحشي التي تكررت في الشعر

---

(١) مصطفى الشوري: الشعر الجاهلي/ تفسير اسطوري ٧٣.

(٢) المصدر السابق ٧٤.

(٣) المصدر السابق.

الجاهلي لها نظير في السماء فهناك ثور وبجانبه مجموعة من النجوم تسمى الجبار، ويقال إن كل الشعوب تقريبا قد شاهدت صيادا أو محاربا في هذه المجموعة، وصورة الكلاب التي تهاجم الثور في الشعرالجاهلي لها ما يناظرها في النجوم، وليس في صيد الحيوان وعبادته أو الانتساب إليه تناقض ما في سلوك الانسان القديم وعقائده، فقد كان هذا الانسان يرى أن تناول لحم الضحية المقدسة يجعله متلقيا لحياة وصفات آلهته وتحل قوى هذه الآلهة في جسده، وكما في طقوس الدفن فإن ميراث المتوفي يقتسم ليتشرب صفاته المتميزة[١].

ولقد دلت النصوص والحفريات حديثا أن الكنعانيين ومنهم الفينيقيون كانوا يرون في الشمس الالاهـه شانش وأن قدامي العراقيين رأوا فيها الاله شماس صاحب العدالة، وفي القديم تبدو لنا صورة حمورابي منقوشة وهو يتسلم دستوره وشريعته من الإله الشمس[٢] ولقد كان القمر والشمس محور الاعتقادات الفلكية والوثنية الأولى عند البدوي، ذلك أن القمر مرتبط برعاية قطعانه على ضوء نوره بينما كانت الشمس تتعلق بحياة زراعته لتمحنها الدفء والنمو والحياة، ولقد أقام العرب لبعضها الأصنام والهياكل والبيوت وقربوا لها القرابين[٣]، ولقد اتخذوا للقمر صنما على شكل عجل وبيده جوهره وكانوا يأتونه للزيارة ومعهم الطعام والشراب فيقيمون عنده أياما معلومة، والملاحظ خلو النصوص الجاهلية القديمة المكتوبة من اسم القمر تنزيها له لهذا أطلقوا عليه أسماء مختلفة ترمز لمعان سامية وتشير إلى تقديسهم له مثل الصديق والأب والعم والكهل والحكم، وجعلوا له أصناما

---

(١) نفسه ٧٥.

(٢) يحيى شامي: النجوم في الشعر العربي القديم ٥٧.

(٣) نفسه.

أشهرها ود وكان هبل الاها قمريا قديما وأنه كان ربا للكعبة التي ضمت تمثالاً له[١] ومن المعتقدات التي عرفها العرب وما زال أثرها باقيا حتى عصرنا هذا أن الغلام كان إذا سقطت له سن أخذها بيده بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت ثم قذفها وقال يا شمس أبدليني بأحسن منها والتجر في ظلمتها إياؤك أي شعاعك، وهذا ما أشار إليه طرفه بن العبد في قوله[٢]

بدلته الشمس من منبته   بردا أبيض مصقول الأشر

ولقد زعموا أن نور القمر يبلي الثياب من الكتان في غير وقتها ولاسيما إذا طرحت الثياب في الماء عند اجتماع النيرين (الشمس والقمر)[٣] وفي غير موضع من كتاب الحيوان نجد كثيرا من هذه المزاعم منها أن الكلب إذا كان على سطح في ليلة مقمرة ووطئت الضبع ظله فإن الكلب يقع من السطح فتأكله الضبع، ومنها أن الثوم إذا زرع في ليلة مقمرة فإن رائحته لا تلبث أن تزول عنه[٤].

وفي عمان عثر على تماثيل لطيورالنسر أو الصقر أو العقاب ووجود هذه التماثيل ربما يكون إشارة لعبادة الاله النسر.[٥] ويذكر ابن حبيب أن تلبية النسر كانت : لبيك اللهم لبيك لبيك إننا عبيد وكلنا ميسرة عتيد وأنت ربنا الحميد أردد إلينا ملكنا والصيد ومن خلال التلبية يبدو أن عابدي النسر يعتبرونه حاميا ورمزا للصيد[٦] . وعرف السكان كذلك عبادة الاله الشمس ومن المحتمل أن معبد الدور خصص لعبادة الالهين النسر والشمس أيضا ورد

---

(١) نفسه ٥٩.

(٢) المصدر السابق، ٧٧.

(٣) نفسه ٧٨.

(٤) نفسه ٧٩.

(٥) حمد صراي: منطقة الخليج ١٨٢.

(٦) نفسه ١٨٣.

ودأب أي ود الأب وربما هذا الاسم يشير إلى الإله ود المعروف عند العرب في الجاهلية وكان الاله الرئيسي عند المعينيين [١].

لقد عرف عرب الجنوب التثليث بعبادتهم للالهة الثلاث (ود) القمر و (اللات) الشمس و (العزى) الزهره، فالقمر والشمس والزهرة ثالوث مقدس لدى عرب الجنوب الجاهليين وهذا الثالوث هو نفسه عند البابليين الاله (سين) القمر و (شمس) الشمس و (عشتى) الزهرة وقد قدم العرب القمر على الشمس وهذا ما فعله البابليون والكلدان، كما سمت التوراة بعض آلهتهم فدعته نشرا ولعله نسر في لغة العرب وهو من أصنام العرب المعروفة [٢].

وعبدت طائفة من ربيعة المرزم واحد المرزمين النجمين المعروفين. كما أن جماعة من تميم عبدت الدبران من النجوم، ومن زعمهم الكاذب أن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرا وهي نجوم صغار نحو عشرين نجمة خاطبا لها ولذلك سموا هذه النجوم القلاص وعليه قول الشاعر [٣].

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته   كما وفى بقلاص النجم حاديها

وقد سموا بالناقة والجمل كثيرا من النجوم كالفتيق وهو الجمل العظيم، وقالوا عن سهيل إذا وقعت عين الجمل عليه مات من ساعته. فالناقة إذن كانت عنصرا مقدسا عندهم يدفعهم إلى هذا التقديس شعور بالتشاؤم منها في ملاحم الغناء التي تقترن بها بعد الصيحة التي أخذتهم إثر ناقة صالح وناقة البسوس [٤].. وكانت طيء تعبد جملا أسود، وعبدت تميم جملين في حرب

---

(١) نفسه ٢٨٤ و ٢٨٥.

(٢) جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام ٣٤.

(٣) بلوغ الأرب في أحوال العرب، ٢/ ٢٣٩.

(٤) الشعر الجاهلي: تفسير أسطوري ٧٧.

لها مع بكر سميت بيوم الزويرين أي الربين وقد جعلوا من هذين ملاذا لهم ورمزا لصمودهم فمنوا بالهزيمة. ومما له تعلق بتقديس الجاهليين للناقة والجمل تحبيرهم البحيرة وتسييبهم السائبة ووصلهم الوصيلة وحماهم الحامي. فالبحيرة ابنة السائبة والسائبة ناقة تابعت في الحمل اثنتي عشرة سنة وجميع صغارها إناث ليس فيهن ذكور فتسيب ولا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف، فإذا نتجت بعد ذلك إناثا شقت آذانها وخلي سبيلها وهي البحيرة، أما الوصيلة فشاة نتجت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيهن ذكر، والحامي فحل الإبل الذي نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر وقتئذ يحمي ظهره(١). وحين رأوا أن الإبل انفردت دون سائر الحيوان بأكل عظامهم إذا ماتوا فقد كانوا يثأرون لأنفسهم منها في حياتهم فأفرطوا في نحرها وعقرها ربطوا ذلك بالمباسرة بها كأن نحرهم لها في حياتهم كان انقاذا لأنفسهم منها بعد مماتهم، فالابل هنا تدخل كرمز للفناء الأبدي الذي هو أصل في دورة الحياة المتجددة لذلك جعلوا من الناقة ما يشبه السفينة في الملاحم الكونية القديمة تحملهم إلى العالم الآخر، وهو ظاهر مفهوم البلية التي كانوا يربطونها عند قبر الميت ساعة دفنه إلى أن تموت فإذا نهض من قبره امتطاها عابرا عليها إلى العالم الآخر(٢). ويذكر الشهرستاني أن بعض العرب كان إذا حضره الموت يقول لولده: إدفنوا راحلتي معي حتى أحشر عليها فإن لم تفعلوا حشرت على رجلي. ولعل فيما قاله صاحب المحيط من أن العرب كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها بعض الحق، فإن دفن ما يحتاج إليه الميت إذا ما بعث معروف في الميثولوجيا القديمة، أترى البلايا شبيهة بمراكب الشمس

---

(١) المصدر السابق: ٧٧.

(٢) نفسه ٧٨.

الفرعونية[١]؟! وقد عثر المنقبون في الدور على مبنى متعدد الغرف وفي داخل احدى الغرف الداخلية لهذا المبنى غرفة دفن فيها رجل وبجواره جمل وسيف حديدي في غمده، كما تم العثور على قبرين لجملين ووجود قبور الجمال هذه ربما تشير إلى نوع من العادات المتصلة بالدفن والأضاحي، وفي نفس فترة آثار الدور عثر على قبر جمل ضمن قبور الظهران بالسعودية وفي الدوحة بقطر وفي البحرين وفي بات بعمان، كما اكتشف في مليحة عدد من قبور الجمال وهي على هيئة النحر محيطة بقبر رجل ربما كان ذا مكانة عالية كما يدل على ذلك لجام فرسه المرصع بحلقات من ذهب، وكانت القبور تحتوي على أدوات وأواني فخارية متنوعة وأسلحة وخرز وأدوات حجرية، واعتمادا على هذه المعثورات يبدو أن سكان المنطقة كان عندهم شيء من الاعتقاد فيما بعد الموت[٢] وفي حفائر قرية ياجران بالبريمي عثر على آثار من لوازم الحياة اليومية من أكل وشرب وزينة وحرب مما يعكس احتمالية اعتقادهم في حياة أخرى بعد الموت[٣] كما عرفت البحرين قديما باسم جزيرة الموتى في ارتباط مع كثرة التلال الجنائزية بها والتي يزيد عددها على مائتي تل أثري بالمكان، ورجح البعض أن تكون جزيرة البحرين قد استخدمت مكانا للدفن يأتي إليه القادمون بموتاهم تبركا بالمكان ولقدسيته التي عكستها ما نعرفه من النصوص السومرية القديمة على أنها الأرض الموعودة والجنة التي لا يشيخ فيها إنسان ولا يمرض ولا يعتدي الذئب فيها على حمل[٤].

---

(١) الصورة الغنية في الشعر الجاهلي ٢٩.

(٢) منطقة الخليج ٢٨٣.

(٣) علاء الدين شاهين: تاريخ الخليج والجزيرة ١٨١.

(٤) نفسه ١٢١.

وكان العرب يوصون أهلهم بالنواح عليهم إذا ماتوا وبقدر عظمة الميت تكون عظمة البكاء عليه. يقول طرفه ابن العبد[١]

فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد

وعبد بعضهم النار ولعل هذه العقيدة سرت إليهم من الفرس المجوس وقد تمثلت عبادة النار في هذه المظاهر.

أ- حلفوا بها فكانت لهم نار باليمن لها سندة فإذا تفاقم أمر بين قوم فحلفوا بها انقطع ما بينهم من تعاد، وسموها الهوله والمهوله، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها، وكان لها قيم يطرح فيها الملح والكبريت فإذا وقع فيها استشاطت وغضبت فيقول له هذه النار قد تهددتك، فإن كان مذنبا نكل وإن كان بريئا حلف. قال أوس بن حجر[٢].

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول المحلف

وقال آخر:

حلفت لهم بالملح والجمع شهد وبالنار واللات التي هي أعظم

٢- وتحالفوا على النار، فكانوا يذكرون عند المحالفة منافع النار ويدعون الله عز وجل بالحرمان والمنع من هذه المنافع للذي ينقض الحلف، وربما سرى ذلك اليهم من المجوسية القائمة على عبادة النار، وابن عبد ربه يفسر قول الأعشى في مدح المحلق

رضيعي لبان ثدي أم تحالفا بأسحم داج عوض لا تتفرق

بأنهما تحالفا على الرماد كما يفعل الفرس، يقول الحوفي وإذا كان

(١) ديوانه ٣٩.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٤٢٤.

التحـالف على الرماد من تأثيـر الفرس فالتـحالف على النار نفسـها أحق أن يكون من تأثيرهم[١].

٣- استـمطروا بها: كانوا إذا أكـدت السماء فـأجدبوا اسـتمطروا بربط السلع والعشر بأذناب البقر وأضرمـوا فيها النار، ولعل ذلك جاء تفاؤلا بالنار طلبا للبرق.

وكلمة مجوس معربة عن مكوش الفارسية الأصل. وتقول عقيدتهم إن الله تعالى شخص روحاني ظهـر فظهرت معه الأشياء روحانيـة تامة فقال لا يتهيأ لغـيري أن يبتدع مثل هذه التي ابتدعتهـا فتولد عن فكرته هذه الظلمة إذ كان فيها جحود لقدرة غيره فقـامت الظلمة «تغالبه» أما شريعتهم التي شرعها زرادشت فهي عبادة النار والصلاة إلى الشمس يتـأولون فيها أنها ملكة العالم وهي التي تأتي بالنهار وتذهب باللـيل وتحيي النبات والحيـوان وترد الحركات إلى أجسادها، وكانوا لا يدفنون موتاهم في الأرض تعظيـماً لها ويقولون أنها منشأ الحياة فـلا نقذرها، وكانوا لا يغتسلون بالماء تعظيـماً له لأن به حياة كل شيء بل يغـسلون وجوههـم ببول البـقر تبـركـابه لذلك فهم لا يرون قـتل الحيـوانات ولا ذبحها، وكـانوا يستحـلون فروج الأمهـات وقالوا الابن أولى بتسكين شهـوة أمه، وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة، وقـد أظهر هذا الأمر مزدك في أيام قبـاذ وأباح النساء لكل من شاء، وهم يرون في الأفعـال خيرا وشرا وأن فاعل الخير لا يفعل الشر، فـأثبتوا الهين وقالوا أحدهما نور حكيم لا يفعل إلا الخير والآخر شيطان هو ظلمه لايفعل الا الشر[٢].

---

(١) نفسه ٤٢٥.

(٢) الشعراء الحنفاء للعمري ٥٤.

وكانت هذه العقيدة في بني تميم، ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب وزعموا أن حاجبا تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس الذي أسلم وحسن اسلامه.

وفي شعر أوس بن حجر حديث عما أباحته الديانة الفارسية من زواج الولد أمه وخالته[(١)].

والفارسية فيهم غير منكرة   فكلهم لأبيه ضيزن سلف

وهناك عادات ومعتقدات تتصل بوثنية الجاهليين أشار إلى بعضها شعراء منطقة الخليج العربي منها قول عمرو بن قمئة[(٢)].

وإني أرى ديني يوافق دينهم   إذا نسكوا أفراعها وذبيحها

وفيما يشير إليه الشاعر من الأفراع والذبيح ما يفسر جانبا من الحياة الوثنية التي كان يعيشها العربي، ففي اللسان الفرع والفرعه أول انتاج الابل والغنم وكان أهل الجاهلية يذبحون لآلهتهم يتبرعون بذلك فنهى عنه المسلمون، ثم قال ابن منظور. وفي الحديث لا فرع ولا عتيره، تقول أفرع القوم إذا ذبحوا أول ولد تنتجه الناقة لآلهتهم وأفرعوا تنجوا، والفرع ذبح كان يذبح في الجاهلية إذا كان للإنسان مائة بعير نحر منها بعيرا كل عام وقد كان المسلمون يفعلونه في صدر الإسلام فنسخ[(٣)].

ومن أساطير العرب في الجاهلية ضربهم للثور إذا عافت البقر الماء فكانوا إذا أوردوها ولم تشرب إما لقلة العطش وإما لكدر الماء، ضربوا الثور

---

(١) ديوانه ٧٥.

(٢) ديوانه ٣٠.

(٣) ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي ٢٩.

ليقتحم الماء لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل وكما تتبع أتن الوحش الحمار، فقال في ذلك أنس بن مدرك في قتله سليك ين السلكة

إني وقتلي سليكا ثم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر

وقيل إنهم كانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء لتمسك البقر عن الشرب حتى تهلك[١] ومما يتصل بعاداتهم ومعتقداتهم الزجر والعيافه وهو أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنواعها فتسعد أو تتشاءم والعائف المكهن بالطير أو غيرها. وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش وإثارتها، فما تيامن منها سموه سانحا، وما تياسر سموه بارحا فما استقبلهم فهو الناطح وما جاء من خلفهم فهو القعيد، وقد اختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤمهم بها فمنهم من كان يتشاءم بالبارح ومنهم من يرى عكس ذلك؛ وإنما اختلفوا لأن الزجر وهم وخرافة تابع للمصادفة فمن زجر طيرا وقضى لبانته تفاءل باتجاهها ومن لم يقض حاجته تشاءم بهذا الاتجاه نفسه[٢]. وتشاءموا بأمور كثيرة أخرى من حيوان ونبات وإنسان حتى تشاءموا بالعطاس يقول المسيب بن علس[٣].

أرحلت عن سلمي بغير متاع   قبل العطاس ورعتها بوداع

ومن خرافاتهم ومعتقداتهم الأستقسام بالأزلام، وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا سفرا أو تجارة أو نكاحا أو نسبا لأحد مجهول جاءوا إلى هبل يستقسمون عنده ويتناول أمين القداح أجره ثم يبدأ بعمله، وأزلامهم كانت

---

(١) الأسطورة عند العرب ٦٨ والشعر الجاهلي تفسير أسطوري ١٢٤.

(٢) نفسه ٥٦.

(٣) ديوانه ١١١.

سبعة قداح محفوظه عند سادن الكعبة كتب على أولها نهاني ربي وعلى الثاني أمرني ربي وعلى الثالث منكم وعلى الرابع من غيركم وعلى الخامس ملصق وعلى السادس العقل وعلى السابع غفل، فإذا أرادوا الإقدام على أمر سفر أو تجارة أو غزو استقسم لهم بقدحي الأمر والنهي ويعمل بأمر الذي يخرج فإن أتت النتيجة غير مناسبة مع صالحهم صبروا سنه وأعادوا الاستقسام بقدحي نعم ولا فإذا ظهر نعم مضوا وإذا ظهر لا توقفوا، أما إذا أرادوا معرفة رجل مجهول النسب عمدوا إلى الأزلام الموسومة منكم من غيركم ملصق فإن ظهر منكم أعزوه وإن ظهر من غيركم نفروا عنه وإن ظهر ملصق بقي مجهول النسب، وكان كثير منهم يخضع لما تتخيره له قداحه ولها الرأي الفصل، يقول شمعلة الضبي(١).

رئيس ما ينازعه رئيس　　　سوى ضرب القداح اذا استشارا

ومن خرافاتهم زعمهم أن القتيل الذي لم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامه فلا يزال يقول اسقوني اسقوني حتى يقتل قاتله فيسكن.

يقول المسعودي: إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط في الجسم فإذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبدا مستوحش يسكن في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده فتخبره به(٢). يقول نصرت عبد الرحمن: وتظهر في الشعر الجاهلي تحول الميت إلى بومه أو صدى،

---

(١) الأسطورة عند العرب في الجاهلية ٤٢.

(٢) نفسه ٧٦.

ولعل هذا هو قرين المتوفى الذي كان يسمى عند المصريين القدماء (كا) [(١)].

وكان الجاهليون الوثنيون يحجون إلى مكه من جميع أرجاء الجزيرة العربية. وكانوا يطوفون بالكعبة عراه إلا الحمس أو يأخذون من الحمس ثيابا إما إعارة وإما إجارة. وكانت سنة الطواف أن يبدأ الحاج بأساف ثم يستلم الركن الأسود ثم يطوف عن يمين الكعبة سبعا ثم يستلم الركن ثم نائله فيختم ثم يخرج. أما الحمس فإنهم يطوفون بثيابهم. وكانت أشهر الحج عند الجاهليين أشهرا حرما يحرم فيها القتال فكان العرب يغتنمون هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال إلى مكة من كل حدب وصوب. ومتى فرغ الناس من هذه الأسواق وقفوا في عرفه، ثم يأتون مكه يؤدون مناسك الحج ومن ثم يؤوبون إلى ديا رهم وهم آمنون مطمئنون لا يخافون غدر غادر أو يتعرض خصم لسلامتهم خلال الأشهر الحرم[(٢)].

وكان لعرب الخليج مشاركة فعالة في الأشراف على بعض مراسم الحج كالاجازة بالحجاج، فقد ولي الافاضة للناس من عرفه بنو سعد بن زيد مناه ابن تميم، وهؤلاء كان من أبرزهم صفوان بن جناب ثم تبعه بنوه من بعده حتى كان آخرهم كرب بن صفوان يقول أوس بن مغراء السعدي مشيرا إلى دور صفوان[(٣)].

لا يبرح الناس ما حجوا بعرفهم حتى يقال أجيزوا آخر الناس

يقول الدكتور سيد نوفل مشيراً إلى مظاهر تعلق الجاهليين القوي ببيئتهم: ولعل هذا الفناء الشديد في البيئة هو الذي انتهى بهم إلى عبادة موجودات البادية، فقد عبدوا البهائم والنبات والغزال والإبل والنخل والأعشاب والصخور والأحجار والنجوم. ولم تكن آلهتهم كآلهة اليونان والرومان موجودات معنوية[(٤)].

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ٢٧.
(٢) أديان العرب قبل الإسلام ٢١١.
(٣) الشرك الجاهلي ٧٣.
(٤) شعر الطبيعة ٣٢.

ب- النصرانية

في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية تأصلت المسيحية في الرها ونصيبين وإربل وجنديسابور وسلوقية طيسفون التي أصبحت مركزا لبطارقة النساطرة، ومن هناك انتشرت في بلاد البحرين وعمان وتحول الكثير من عرب الحيرة إلى النصرانية وعرفوا بالعباد، فالعربية الشرقية دخلتها المسيحية من الشمال من الحيرة ومن البحر من تجار الروم فوجدت سبيلا إلى البحرين وقطر وهجر وبعض جزر الخليج[١] وربما كان للبعثات التبشيرية أثر في ذلك وقد ساعد على دخولها للخليج النواحي التجارية خصوصا من ناحية العراق[٢] وقد انتشرت المسيحية بكثرة في قبائل ربيعة فابن قتيبة يقول كانت النصرانية في ربيعة وغسان وقضاعة، واعتنقت عبد القيس النصرانية وكذلك بكر بن وائل، وتغلب،[٣] وكان هناك كنائس وأساقفه ومجامع تعقد بين حين وآخر للنظر في شؤون الطائفة. وقد تركزت النصرانية على أرض الخليج في قطر وهجر ودارين وسماهيج، ففي قطر كانت أسقفية وتسمى بيت قطرايا وكان على قطر أسقف (هرتوما)، أما دارين فقد تأسست أسقفيتها عام ٤١٠م وفي هجر كانت أسقفية أخرى ويتبعها الخط، ومن هنا ندرك أن الأديرة والكنائس والأسقفيات قد انتشرت في البحرين كما كانت منتشرة في الحيرة. وكان المذهب النسطوري هو السائد في الخليج العربي[٤] ومقتضى كلام ابن العميد أنهم اتباع نسطوريوس بطرك القسطنطينية، ويحكي عنه أن من مذهبه أن مريم عليها السلام لم تلد إلها وإنما ولدت إنسانا وإنما اتحد في المشيئة

(١) أديان العرب قبل الإسلام ٧٦، ٨٢.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٨٢.

(٣) نفسه ٨٣.

(٤) نفسه.

بالذات وأنه ليس إلهـا حقيـقة بل بالموهبـة والكرامـة، ويقولون بجـوهرين وأقنومين وأن كرلس بطرك الاسكندرية وبطرك روميه خالـفاه في ذلك فجمعا له مائتي أسقف بمدينة أفسس وأبطلوا مقالة نسطوريوس وصرحوا بكفره فنفى إلى أخيم من صـعيد مـصر ومات بها فظهـر مذهبه في نصـارى المشرق من الجزيرة الفراتية والموصل والعراق وفارس(١). على يد برصوما بطران نصيبين الذي أحيا المذهب بعد اندثاره زمانا وذلك في زمن قباذ بن فيروز ملك فارس ولذلك سميت كنيسة فارس بالنسطورية كما يسى النسطوريون في هذا العصر بالكلدان(٢).

وإذا كـان جل النصـارى يؤلهون الثـالوث المقـدس (الله والابن وروح القدس) فـإن منهم من يقول: إن الإله واحد وإن المسيح ابتـدأ من مريم وأنه عبد صالح مخلوق خلقه الله تعالى وسماه ابنا على التبني لا على الولادة(٣) وأما الأشيـاء التي يتعبدون بها فإنهم يصلـون سبع صلوات في اليوم والليلة وهي الفـجر والضـحى والظهـر والعصـر والمغرب والـعشـاء ونصف الليل، ويقرأون في صلواتهم بمزاميـر داود كما يفعل اليهود، والسـجود في صلاتهم غير محدود العدد بل قد يسجـدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة، وهم لا يتوضـؤون للصلاة ولا يغتـسلون من الجنابة وينكرون الطهـر للصلاة على المسلمين وعلى اليـهود، ويقـولون الأصل طهارة القلب، وإذا أرادوا الـصلاة ضربوا بالناقوس وهو خشبة مستطيلة نحـو الذراع يضرب عليها بخشبة لطيفة فيجـتمعون، وهو من أهم العلامـات الفارقة لمعابد النصـارى زمن الجاهلية،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/ ٢٨٠.
(٢) مانع الجهني: موسوعة الأديان ٢/ ١١٧١.
(٣) صبح الأعشى ١٣/ ٢٨١.

وكان ينصب فوق سطوح المعابد لإعلان فروض الصلاة ولدعوة النصارى للاجتماع عند أمر مهم[(١)] يقول المتلمس[(٢)].

حنت قلوصي بها والليل مطرق بعد الهدوء وشاقتها النواقيس

كما يذكره المرقش الأكبر وهو يقرع بعد الهدوء[(٣)].

ونسمع تزقا من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس

وصوم النصارى الكبير ستون يوما، ويحرمون أكل لحم الجمل ولبنه كاليهود، ويحلون أكل لحم الخنزير عكس المسلمين واليهود، ويؤمن النصارى بالبعث إلا أن الملكانية منهم تقول بالمعاد الجسماني، واليعقوبية تقول بالمعاد الروحاني[(٤)] وآمن بعض نصارى الجاهلية بالقضاء والقدر استنادا إلى قول الإنجيل : لا تسقط شعره من رؤوسكم إلا بإذن أبيكم الذي في السماوات وللنصارى أعياد أهمها العيد الكبير حسب تعبير ابن الأثير ألا وهو عيد الفصح، وقد احتفل به نصارى الجاهلية فأوقدوا فيه المشاعل وعمرو القناديل وأضاءوا الكنائس بالسرج بعد أن أموها للاحتفال بالفصح، وعن تهيئة المصابيح لعيد الفصح يقول أوس بن حجر[(٥)].

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

وقد أبدى أحد الباحثين تردده في نسبة يوم الفصح الذي ورد في الشعر الجاهلي إلى النصرانية ثم يقول: فإن يوم الفصح هو اليوم الذي يظهر فيه

(١) نفسه ١٣/ ٢٨٤.

(٢) ديوانه ٨٢.

(٣) المفضليه ٤٧.

(٤) صبح الأعشى ١٣/ ٢٨٧.

(٥) أديان العرب قبل الإسلام ٢٦٧.

القمر دون أن يغم عليه الغيم، وعرب الجاهلية كانوا يقدسون القمر فهل يمكن أن يكون يوم الفصح عيد القمر عند العرب[١]؟

وكتاب النصارى يسمى العهد الجديد وقد قامت فلسفة العهد الجديد على فكرة العودة الثانية للمسيح والتي استمدت الرهبنة الأولى فلسفتها منها، بالإضافة إلى أنه استمد جذوره من المذهب الغنوص وشتى الفلسفات والديانات الوثنية السائدة في عصور كتابية والسابقة عليها أيضاً[٢].

جـ - اليهودية:

أطلق الكنعانيون على اليهود لفظ العبرانيين وسموا بالإسرائيلين باسم يعقوب بن اسحاق وغلب عليهم يهود نسبة ليهودا وهو رابع أبناء يعقوب. وقد عرف اليهود عند الجاهليين وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي، إذ من الممكن أن يكون بعض الجاهليين قد تهود أو وقف على أحوالهم الدينية على الأقل[٣]. ويظهر التلمود أن نفرا من العرب قد دخلوا في اليهودية وأنهم جاءوا إلى الأحبار فتهودوا أمامهم، ويتحدث جواد علي نقلا عن اليعقوبي أن اليهودية كانت في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة وغسان[٤]. وسكن اليهود فلسطين وقد سبقهم الكنعانيون إليها، وتعلم منهم اليهود أصول الزراعة والصناعة والتجارة، كما سكنوا في تيماء، أما اليهودية كدين فقد انتقلت من يثرب إلى اليمن في تاريخ يرجع إلى عهد احتلال الحبشة وانتشار المسيحية بها في منتصف القرن الرابع الميلا دي[٥].

---

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ٢٣.

(٢) موسوعة الأديان والمذاهب ٢/ ١١٠٩.

(٣) أديان العرب قبل الإسلام ٢٢٠.

(٤) نفسه ٢٢٢.

(٥) أحمد النجار: شعراء اليهود ٣٣.

وقد عرف اليهود منذ زمن بعيد الطريق التي تمتد من العقير الواقعة على سيف الخليج وتتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شطر اليمن والآخر يسلك قلب الصحراء إلى تيماء وفيها البترا. من عهد حكم الفرس إلى حكم الرومان[١]. وقد اشتهروا بالزراعة متأثرين بما وعوه من السوريين والأنباط الذين سبقوا إلى الإجادة فيها وتنويع المزروعات، ولذلك دار اليهود بأرض الحرات حيث استقروا وزرعوا وتمولوا وتحكموا، كما اشتهروا بإتقان فنون من الصناعات والحرف.

وامتهنوا الصناعة واشتغلوا بالتجارة ورحلوا مع القوافل كأفراد يرتادون الأسواق التي لا يغلب عليها الطابع العربي الخالص، مثل أسواق الحيرة والبحرين وعدن وعمان. وقلما ذهبوا بتجارتهم إلى سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز[٢] وقد سكن اليهود مواضع شتى منها العروض وفي مواضع قصد الاتجار واقراض المال.

أما الذي أقام منهم في العربية الشرقية والبحرين فهم قليل ولقد عاش اليهود في جزيرة العرب كالعرب أنفسهم فلبسوا لباسهم وتزوجو منهم وصاهروهم، ولم ينشيء اليهود ممالك في بلاد العرب بل كانوا شبه مستقلين في حماية سادات القبائل في أكثر الأحيان يعقدون معهم المحالفات ويؤدون لهم الأتاوات[٣] وقد عرفت مساجد اليهود بالمحاريب ورجال دينهم بالأحبار والربانيين وكتبهم بالتوراة والزبور والكتاب يقول المرقش[٤].

---

(١) نفسه ١٣.

(٢) نفسه ٣٠.

(٣) أديان العرب قبل الإسلام ٢٣٢.

(٤) نفسه ٢٣٤.

قد خــط ذلك فــي الزبــو ر الأوليــــــات القــدائم

ولعل اليهـود قد استنسخـوا كتبهم الدينيـة بلغة العرب، فهم يـعرفون الكتـابة الجيـدة بشهادة الـشاعر الأسـود بن يعفـر، الذي يذكر أن يهـوديين مجيدين من تيماء أو من مدين قد خطا سطورا في مهرقيهما يقول:(١)

سطور يهوديين في مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين

ويفهم من وجود مـجلة لقمان وكتـاب (دانيال) وغيرهما أن هناك كـتبا دينية كانت مكتوبة باللغة العربية وهي كتب لليهود يقرأونها في مدارسهم وفي أنديتهم التي يحضرها قوم جاهليون يخالـفونهم العقيدة أو يتلونها على مسامع الناس في أي مكان، لقـد عرف الجاهليـون بعض أحكام دينهم كمـثل الرجم بالنسبـة للزنى والابتعـاد عن النساء في المحيض، واسـتعـمال الشبـور لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، وكانوا يسـدلون شعورهم وغيرهم يفـرقون رؤوسهم(٢) وكتابهم المقدس هو التوراه قال الشهرستاني في الملل والنحل: وهي أول منزل على بني إسرائيل سـمي كتابا إذ ما قبلهـا كان مواعظ وغيـرها، قال صاحب حماه: وليس فـيها ذكر القيـامة ولا الدار الآخرة ولا بعث ولا جنة ولا نار، وكل وعيد يقع فيها إنما هو مجازاة دنيوية يتوعدون على مجازاة الطاعة بالنصر على الأعداء وطول العمر وسعة الرزق، ويوعدون على الكفر والمعصية بالموت ومنع القطر والحيات والحرب ونزول الغبـار والظلمة بدل المطر، وليس فيها ذم الدنيـا ولا طلب الزهد فيـهـا ولا وظيفـة صلوات مـعلومة، بل في التـوراة الموجودة بأيديـهم الآن نسبة أمـور إلى الأنبياء من الأسـباط وغـيرهم لا تحل حكايتها(٣) ومن المحتمل أن يكون نفسها الذي كتبه عزرا أو عزير مختلفا عما

---

(١) نفسه ٢٣٥.

(٢) نفسه ٢٣٦.

(٣) صبح الأعشى ١٣/ ٢٥٤.

أنزل على موسى فبين الرجلين ما يقرب من ألف سنه من الزمان[١].

واليهود يفترقون إلى فرقتين رئيسيتين هما: الربانيون والقراء، فالربانيون يقولون بأن لا قدر سابق وأن الأمر أنف، كما يقول القدرية من المسلمين، والقراء يقولون بسابق القدر كما تقول الأشعرية، أما ما عدا ذلك فكلا الفريقين يقولون إن الله تعالى قديم أزلي واحد قادر، وأنه تعالى بعث موسى بالحق وشد أزره بأخيه هارون، واليهودية وإن كانت دينا سماويا يقوم على التوحيد فقد وقع معتنقوها في أخطاء عقائدية شنيعة منها تشبيههم الخالق بالمخلوق، كما أنهم يزعمون أن الإله المعبود رجل من نور على كرسي من نور على رأسه تاج من نور، وهم يقولون إن عزير ابن الله.. لأنهم رأوه قد عاد بعد الموت[٢]. وهم يعظمون التوراة حتى أنهم يقسمون بها.[٣] ويستقبلون صخرة بيت المقدس في صلواتهم ويوجهون لها موتاهم[٤] ويستعظمون الوقوع في أمور منها: إنكار عيد الظلة وهو سبعة أيام وعيد الحنكة وهو ثمانية أيام يوقدون في الليلة الأولى على كل باب من أبوابهم سراجا، وفي الليلة الثانية سراجين، وهكذا حتى يكون في الليلة الثامنة فيوقدون ثمانية سرج، وهما من أعظم أعيادهم وإلى ذلك يشير أوس بن حجر في قوله

قد نمت عني وبات النجم يسرني   كما استضاء يهودي بمصباح

ومما يستعظمونه استباحة لحم الجمل فإنه محرم عندهم والدلالة على

---

(١) شعراء اليهود للنجار ص ٨ نقلاً عن الفكر الديني لظاظا.

(٢) الشعراء الحنفاء للعمري ٦٦.

(٣) صبح الأعشى ١٤/ ٢٥٨.

(٤) نفسه ١٣/ ٢٥٧.

دانيال، ومنها استباحة يوم السبت والعدو فيه[١] وأكثر الصور اليهودية ظهورا في الشعر الجاهلي هي صورة التجر اليهودي أصحاب حانات الخمر. وفي شعر المرقش الأكبر

سباها رجال من يهود تباعدوا لجيلان يدنيها من السوق مربح

وفي الشعر الجاهلي ذكر لأنبياء اليهود، فسليمان في شعر الأعشى هو الذي بنى حصن الأبلق وأما داود فتنتسب إليه الدروع الجياد، ففي شعر الأعشى مطرفة دروع من نسج داود. يقول عبد الحميد المعيني: إن اليهودية تسربت إلى البحرين عن طريق التجارة، ونظرا لشدة طقوسها الدينية لم تلق رواجا بين العرب بشكل واسع، فلم يكن ليهود هجر أثر واضح قبل الإسلام، ويبدو أنهم قد عملوا في ميادين التجارة والصناعة، ويقال إن الملاح ابن يامن كان يهوديا، وهو تاجر كبير له عدد من السفن، وعندما أسلم العبديون بقي اليهود يدفعون الجزية[٢] ومن يهود البحرين بنو الربدا وهم قوم لهم بصر بالنخيل ومعرفة بغراسه[٣].

ويرى بعض الباحثين إن للأديان السماوية أثراً كبيراً في أخلاق الجاهلي وبعض العادات والتقاليد، فقد جرت العادة بين اليهود القدماء أن يغمض الأقارب عيني الميت، كما عرفت المسيحية البكاء والنحيب على الموتى ولأيام طوال تستمر بعد الدفن، واعتادوا غسل الجثة ولفها بأكفان من كتان وربط الرأس بمنديل[٤].

---

(١) نفسه ١٣/ ٢٦١.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٨٤.

(٣) ديوان امريء القيس ص ٦٠ الهامش.

(٤) أديان العرب قبل الإسلام ٢٨٢.

ومن مظاهر التدين عند الجاهليين التزامهم بتنفيذ ما يحلفون عليه وإن كان جائراً ففي يوم الغبيط لما أسر عتيبه بن الحارث التميمي بسطام بن قيس الشيباني نادى بنو يربوع بجاد أخا بسطام كر على أخيك، وهم يرجون إذا أبسوه أن يكر فيأسروه، فنادى بسطام أخاه إذا كررت يابجاد فأنا حنيف وكان نصرانيا فلحق بجاد بقومه، وفي يوم أواره الأول حلف المنذرين ماء السماء ليسيرن إلى بكر بن وائل فإن ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل أواره حتى يبلغ الدم الحضيض فبر بقسمه بخلط الدم بالماء.

وفي يوم أواره الثاني حلف عمرو بن هند أن يحرق مائة من تميم ففعل ولم يبق سوى واحد، فقيل له أبيت اللعن لو تحللت بامرأة منهم فأكمل بها المائة.

وفي يوم تياس قطع غيلان بن مالك التميمي رجل الحارث بن كعب التميمي فطلبوا القصاص، فأقسم غيلان ألا يعقلها حتى تحشى عيناه ترابا، فتقابلا فجعل غيلان يدخل البوغاء في عينيه ويقول تحلل غيل حتى مات[١].

د - الحنيفية

قال الزجاجي : الحنيف في الجاهلية من كان يحج ويغتسل من الجنابة ويختتن، فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك.

فالتحنف ذو شقين: شق لغوي ومعناه الميل أو التحول من حال إلى حال أو من جهة إلى أخرى. وشق ديني يتصل بالحنيفية وهو الميل لملة إبراهيم الخليل عليه السلام وترك عبادة الأوثان، ومنه جاءت كلمة حنيف بمعنى المتبع

---

(١) انظر هذه الأيام في كتاب أيام العرب في الجاهلية والنقائض بين جرير والفرزدق.

لدين ابراهيم وجمعه حنفاء أو أحناف أو متحنفون[١].

ولقد فهم العرب الجاهليون هذا المعنى الديني جيدا فوجدنا منهم من يقول عن عقيدته الدينية نحن حنفاء على دين ابراهيم، وكان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ وقد تعددت معاني الحنيف عند المفسرين. قال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا، وقال مجاهد حنيفا أي متبعا، وقال ابن قلابه الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وقال قتادة الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله ويدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والعمات والخالات، وما حرم الله عز وجل، وقال السيوطي حنيفا أي موحدا[٢]، وإنما سمي ابراهيم الخليل حنيفا لأنه كان عدل ومال عما كان يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله.. فالحنيف في الجاهلية هو الذي اتبع ملة ابراهيم وسنته ونبذ عبادة الأصنام والأوثان وسائر العبادات وآمن بعقيدة التوحيد.. وقد ذكر ابن قتيبه نصا حدد فيه شريعة الحنفاء وما كانت عليه الحنيفية قبل البعثة وجعلها في الإيمان بالبعث والحساب والملكين الكاتبين وأخذهم أنفسهم بحج البيت والختان وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثا وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر والنسب والغسل من الجنابة ودية النفس مائة من الإبل[٣]. وقد ذكر المفسرون أنه كان للحنفاء العرب مجموعة من السنن منها أنهم كانوا يداومون على طهارة الفطرة وهي خمس في الرأس وخمس في الجسد، فأما التي في الرأس فهي المضمضة والاستنشاق وقص الشارب والفرق والسواك.

(١) د. أحمد العمري: الشعراء الحنفاء/ ٧٧.

(٢) المصدر السابق، ٧٨.

(٣) نفسه ١١٧.

وأما التي في الجسد فهي الاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الأبط وحلق العانة والختان. ومن سنن الحنفاء أيضاً أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم ويكفنونهم ويصلون عليهم، كما كانوا يوفون بالعهد ويكرمون الجار والضيف(١).

ومن حنفاء الخليج وكيع بن سلمة الأيادي الذي تولى أمر البيت بعد جرهم فبنى صرحا بأسفل مكة وجعل فيه أمه يقال لها حزوره، ويذكرون أنه جعل في الصرح سلما فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله، وكان ينطق بكثير من الخير وكان علماء العرب يزعمون أنه صديق من الصديقين.. ويذكرون أنه لما حضرته الوفاه جمع إيادا فقال لهم: اسمعوا وصيتي، الكلام كلمتان والأمر بعد البيان، من رشد فاتبعوه ومن غوي فارفضوه، وكل شاة برجلها معلقة(٢)، وإياه يعني الشاعر بقوله(٣).

ونحن إياد عبيد الاله ... ورهط مناجيه في السلم

ونحن ولاة حجاب العتيق ... زمان الرعاف على جرهم

والمعروف أن إياد من أولى القبائل العربية التي سكنت البحرين في القرن الثاني الميلادي، واشتهرت بزراعة النخيل في هذه المنطقة، ومن نجران في البحرين قس بن ساعدة الأيادي(٤) وينفي أحد الدارسين كون قس مسيحيا ويرى أنه من الحنفاء فيقول: ويظهر مما نسب إليه أنه كان على عقيدة التوحيد يقسم بالله ويحض على ترك مفاسد عصره والظلم، ويضمن آراءه حديثا عن

---

(١) المصدر السابق، ١١٨.

(٢) نفسه ٩٢.

(٣) نفسه ٩٣.

(٤) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبحرين قديماً ٤/ ١٧٢٦.

الموت والبعث والحساب. وقد حاول بعضهم أن يسلكه في عداد النصارى فجعل منه راهبا نصرانيا بيد أنه لا دليل على ذلك، وذهب شنبكر إلى أن قسا كان من الركوسيه وهم فرقة عرفهم أهل اللغة بأنهم بين دين النصارى والصابئين شملت جماعة من الحائرين في أمر دينهم ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهيب والانزواء، وقد حسبهم العرب نصارى فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم عن هؤلاء[١] وفي بلوغ الارب عن قس أنه أول من تأله، من العرب (أي تعبد) وكان النبي ﷺ معجبا به وبفصاحته وبلاغته الدالة على سمو أفكاره[٢].

وقد ذكر الجاحظ لقس خطبه يقول فيها: يا معشر إياد أين ثمود وعاد وأين الآباء والأجداد أين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر، أقسم قس قسما بالله أن لله لدين هو أرضى من دينكم هذا[٣].

ومن حنفاء العروض علاف بن شهاب التميمي ويذكر عنه أنه كان يؤمن بوجود إله واحد خالق لهذا الكون، كما يقر بوجود البعث حيث الحساب والثواب والعقاب، وقد حفظ هذه الأفكار في كثير من شعره[٤] ومنهم عبد الله القضاعي بن تغلب بن وبره، كان من حكماء العرب وفضلائها، وكان يؤمن بالله واليوم الآخر ويتبع الحنيفية، وينهج على نهجها مثل بقية الحنفاء، وفي كلامه البليغ الذي نسب إليه ما يدل على ذلك يقول الألوسي: ومثل اسمه لم يكن في الجاهلية إلا نادرا، بناء على ما اتخذوه من القاعدة والعادة

---

(١) أحمد العمري: الشعراء الحنفاء: ٨٨.

(٢) ٢/ ٢٤٦.

(٣) البيان والتبين ١/ ٢٠٨.

(٤) بلوغ الأرب ٢/ ٢٧٦.

في وضع أسمائهم[١].

أما رثاب الشيني فقد أجمعت المصادر على أنه من عبد القيس إلا أنها اختلفت في عقيدته، فمنهم من ذهب إلى أنه على دين المسيح عليه السلام كابن دريد والمسعودي الذي يقول: وممن كان في الفترة رئاب الشني، وكان من عبد القيس ثم من شن، وكان على دين المسيح قبل مبعث النبي ﷺ فسمعوا مناديا من السماء قبل بعثة النبي ﷺ خير أهل الأرض ثلاثة رئاب الشني وبحيرا الراهب ورجل آخر لم يأت بعد يعني النبي محمد ﷺ وكان لا يموت أحد من ولد رئاب فيدفن إلا رأوا طشا على قبره[٢] ومنهم من ذهب إلى تحنفه وأنه من الحنفاء الجاهليين الذين عرفوا التوحيد وأقروا بالخالق وصدقوا بالبعث والنشور، ودعوا إلى الله ونبهوا قومهم على آياته قبل مبعث النبي ﷺ ويذكر ابن حزم أن قوم البراء يصفون صاحبهم بأنه كان نبيا،[٣] وينسبون إليه قوله: الحمد لله الذي رفع السماء بغير منار وشق الأرض بغير محفار[٤] ولعل هذه العبارة جزء من المواعظ والخطب التي كان يذكر بها قومه بين الحين والحين، ويقول ابن عبد ربه عن رئاب الشني: ممن وحد الله في الجاهلية، وسأل عنه النبي ﷺ وفد عبد القيس، وكان يسقي قبر من مات من ولده، وفي ذلك يقول الحجين بن عبد الله[٥].

ومنا الذي المبعوث يعرف نسله	إذا مات منهم ميت جيد بالقطر
رئاب وأنى للبرية كلها	بمثل رئاب حين يخطر بالسمر

(١) نفسه.

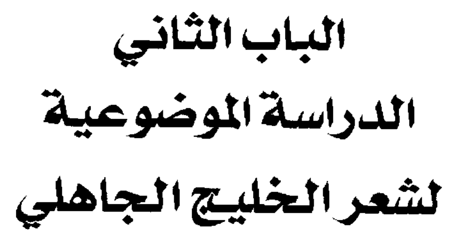
(٢) المسعودي: مروج الذهب ١/ ٦٨.

(٣) جمهرة أنساب العرب ٢٩٩.

(٤) الكلبي: جمهرة النسب ٥٩٤.

(٥) العقد الفريد ٣/ ٣٥٧.





الباب الثاني
الدراسة الموضوعية
لشعر الخليج الجاهلي

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول: الطبيعة والنسب

الفصل الثاني: الفخر والحماسة

الفصل الثالث: العتاب والهجاء

الفصل الرابع: التحريض والتهديد

الفصل الخامس: المديح والشكر

الفصل السادس: الشكوى والرثاء

الفصل السابع: الحكمة والتأملات

الفصل الأول
الطبيعة والنسيب

١) الطبيعة

أ- الطبيعة الحية

ب- الطبيعة غير الحية

جـ- موصوفات أخرى

٢) النسيب

أ- الغزل الحسي

ب- الغزل الوجداني

جـ- الغزل القصصي

د- الغزل المزدوج

١- الوصـــف

فسر العلماء الوصف في معـاجمهم بأنه الكشف والاظهار وذكر الشيء بما فيـه من الأحوال والهيئـات، وهذا الشيء قد يكون حيواناً أو أرضـا وقد يكون خـمرا أو سـلاحـا وحربا. ويكاد شـعر الـوصف في جزيرة العـرب والبحرين خاصـة في العصر الجاهلي مقصوراً على وصف الحيـوان والطبيعة الميتة ووصف الخـمر والسلاح والحرب(١). إلى جانب أشـياء متفـرقة أخرى كوصف القصور وبعض الألبسة.

وسنتناول في هذه الدراسة ذلك كلا على حده.

أ- الطبيعة الحية

عاش العرب في شـبه جزيرتهم وفي (الخليج) خاصة في بيـئة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح، وتشتد عليهـا الطبيعة وتقسو، فكان يتنقل في سبيل العيش ويضرب في الأرض وراء اللقمة، فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحاري شاسعة، فـيلقي مصاعبها ومتاعبهـا إلى أن يرسو به القدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حيناً من الزمن(٢).

وكان سـبيله إلى هذا التنقل حـيوانا يقتـسم معه هذا العـيش الشديد، يقطع عليه المسافـة فيرافقه ويعـايشه ويقضي معه أكـثر حياته فيألفـه ويحبه، ويرى فـيه أعظم صـديق وأنبل رفيق، يتـحمل مـعه التـعب والعناء والسـير والسرى، وقـد وجد ضالتـه هذه في الناقة والفرس، فـالناقة تنيخ ياناختـه وتنهض إلى غايته، تسير كما يريد تؤنس وحشته وتخفف حدته(٣).

---

(١) د. إسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ١٥٧.

(٢) المصدر السابق ١٥٨.

(٣) نفسه.

الإبـــل

كانت صحبة الجاهلي للناقة طويلة، وكانت حياته قائمة عليها، من أصوافها وأوبارها وجلودها بيته ولباسه وفراشه وغطاؤه وأثاثه، ومن لبنها شرابه ومن لحمها وشحمها طعامه، وعليها رحلته، وهذا التلازم بين العربي وناقته في السلم والحرب وفي الحل والترحال مع تعلق حياة أحدهما بالآخر في الأسفار بوجه خاص قد عطفه على ناقته وجعلها أعز شيء عليه، لا ينافسها في هذا المكان إلا الفرس، بيد أن مكان الفرس عند الفرسان خاصة، ومكان الناقة عند الفرسان والعامة على السواء فلم يكن غريبا مع ذلك كله أن تملأ الناقة شعر العربي ولغته، فيضعوا الأسماء لأدق أعضائها وأتفه أدواتها وأخفى حركاتها، وأن تشيع الأخيلية المتعلقة بها في الحياة، فالرجل إن عجز عن الكلام فقد اعتقل لسانه وإن احتال للشيء عند رجل فهو يفتل له بين الذروة والغارب، وإن علا الشيء فقد تسنمه، وإن ترك وهواه فحبله على غاربه، وإن أحسن قالوا: لله دره، وإن أفسد بين الناس فقد القح الشر بينهم (وإن خبر الزمان فقد حلب أشطره) وإن اشتدت الحرب فهي زبون وهكذا نظن أن نصف اللغه يضيع إن نحن أسقطنا ما يتعلق بالناقة من كلمات وعبارات، كما يضيع شطر كبير من شعرنا القديم إن نحن أهملنا ما يتعلق منه بالناقة والأسفار[(١)] .

وفي حديث شعراء منطقة الخليج عن الناقة والجمل نجد صورا متشابهة وأخرى مختلفة، فقد أطالوا الوقوف عند هذا الحيوان ووصفوه من كل ناحية فعمرو بن قمئه يبدد همومه بالترحل على جمل تبلغ به السرعة إلى حد الهوج، وهو جمل ضخم شديد مجتمع ذو هامة ومناكب. يملك جميع

---

(١) د. محمد محمد حسين: شعر الخمر والناقة ٥١ .

أسباب القوة، فقد بلغ تسع سنوات حتى صار في قوته وسرعته (مردي قذاف) والمردي هو الحجر الثقيل، والقذاف ما قبضت بيدك بما يملأ الكف فرميت به، فهو جمل قذاف يرمي بنفسه أمام الإبل في سيرها ويتقدم عليها، ويسير النهار كله إلى الليل بلا كلل أو ملل، يبادر الفلاه ويقبل عليها مسرعا، فهو أقدر من سواه على قطعها، فهذا الجمل يشبه في قوته وسرعته حمار الوحش، يقول [١]

وكنت إذا الهموم تضيفتني ... قربت الهم أهوج دو سريا

بويزل عامه مردى قذاف ... على التأويب لا يشكو الونيا

يشيح على الفلاة فيعتليها ... وأذرع ما صدعت به المطيا

كأني حين أزجره بصوتي ... زجرت به مدلا أخدريا

ويحاول المرقش الأكبر التسلي عند فقد الحبيب بالرحلة على ناقة مكتملة السن في الثامنة أوالتاسعة من عمرها، كالفحل لعظم خلقها جماليه مشبهة بخلقة الجمل نشطة سريعة في السير كالهبوب لم يضعفها الحمل وليس لها لبن، ولم تحمل بهم ألابل كالابل المبتذلة في أجناس الأعمال، بل هي من الرواحل، وهي ناقة سمينة حتى صار سنامها كالجبل، إذا استحثت بالسوط عدت مسرعة، كثور الوحش الذي أفرد خشية القناص فهو لا يألو عدوا، وهو في اندماج خلقه كقدح الميسر يقول[٢]

فهل تسلي حبها بازل ... ما إن تسلى حبها من أمم

عرفاء كالفحل جمالية ... ذات هبات لا تشكي السأم

لم تقرأ القيظ جنينا ولا ... أصرها تحمل بهم الغنم

(١) ديوانه ١٣٥ .

(٢) المفضليه ٤٩ .

بل عزبت في الشـول حتى نوت   وسـوغت ذا حـبك كـالارم
تعـدو إذا حـرك مـجدافـهـا   عـدو رباع مـفـرد كـالزلم
كـأنـه نصـع يمـان وبالـ   أكـرع تخـنيف كلـون الحـمم
بات بغـيـب مـعـشب نبـتـه   مـخـتلـط حـربتـه بالـينم

ووصف المتلمس ناقته بسرعة السير، وبخاصة إذا وقع السوط عليها فإنها تعدو مثل عدو الأتان الحائل الخائفة من ضيق الطريق، وهي ناقة مهرية موثقة الخلق. ليس بين فقارها فصل إذا استنهضتها من بركها نهضت بقوة، لأنها ذات بناء متماسك محكم، وحين تسير في الهاجرة تعرق عرقا كأنه رب، وعرق الابل أول ما يخرج أسود فإذا يبس أصفر، أما في الليل فإنهالا تتوقف ولا تفتر كما يحصل من سائر المطايا، فهي تفذ السير على الطريق الصلب الغليظ، ويتطاير الحصى من أخفافها، فكأنها بعير مقرون إلى آخر ثم انفلت منه وانطلق مسرعاً لا يلوي على شيء يقول (١)

فلتتركنهـم بليـل ناقتـي   تذر السمـاك وتهتدي بالفـرقد
تعدو إذا وقع الممر بدفهـا   عدو النحوص تخاف ضيق المرصد
أجد إذا استنفرتها من مبـرك   حلبـت مغابنهـا برب معقـد
وإذا الركاب تواكلت بعد السرى   وجرى السراب على متون الجدجد
مرحت وطاح المرو من أخفافها   جـذب القرينة للنجـاء الأجرد

وينصب وصف المزق العبدي لناقته على سيرها، وما تركه هذا السير

(١) ديوانه ١٣٥ .

في جسدها، فهي ناقة سريعة تمكن صاحبها من النجاة عليها، كأن هرا علق عند مقعد حزامها أنشب أظفاره فيها فهي تنفر وتسرع، وكأن الحجارة الكثيرة التي تتطاير حول ذنبها ما يتطاير من الرحى عند كسرها النوى، ويشبه الشاعر نضيح بول الناقة بعطر العروس، أما ما يتركه هذا النضح على فخذيها من الخدوش فيشبهه بخدش الذباب الأزرق، وقد أنهك هذه الناقة طول السير حتى ضاق بطنها والتقت عرى الحزام بعضها ببعض، وكأن أثر ركض الرجل بجنبي هذه الناقة وقد انحص عنه الوبر مجثم القطاه التي حان خروج بيضها، وقد باتت الناقة بمكان أصابه البرد فلبده في الأرض، أوأصابه العطش فأبطأ نبته وهو مكان سملق أي قاع مستو أملس. يقول [(١)]

وناجية عديت من عند ماجد	إلى واحد من غير سخط مفرق
ترى أو تراءى عند معقد غرزها	تهاويل من أجلاد هر معلق
كأن نضيح البول من قبل حاذها	ملاب عروس أو ملادغ أزرق
كأن حصى العزاء عند فروجها	نوادي رحى رضاخة لم تدقق
وقد ضمرت حتى التقى من نسوعها	عرى ذي ثلاث لم تكن قبل تلتقي
وقد تخذت رجلي لدى جنب غرزها	نسيفاً كأفحوص القطاه المطرق
أنيخت بحو يصرخ الديك عندها	وباتت بقاع كادىء النبت سملق
تناخ طليحا ما تراع من الشذا	ولو ظل في أوصالها العل يرتقي

ويقطع المثقب العبدي الصحراء بناقة قوية شديدة عصب اليدين، كثيرة الأخذ من الأرض بسبب مرها السريع وشدة سيرها. وقد يبيت الشاعر وناقته

---

(١) الأطمعية ٥٨.

بالفلاة ليس معهما سوى أدوات رحلته وراحلته وذلك في آخر الليل ليأخذ قسطا من الراحة، حيث تبرك الناقة ويتمدد صاحبها قبالة الخليج، ثم تنطلق به راحلته بسرعة، وكأن هرا بجانبها ينوشها ويدفع بها إلى الأمام جادة في سيرها لا تلوي على شيء، شأنها في ذلك شأن القطاة التي اشتد عطشها، فهي لا تألو طيرانا. يقول [(١)]:

قطعت بفتلاء اليدين ذريعة	يغول البلاد سوقها وبريدها
فبت وباتت بالتنوفة ناقتي	وبات عليها ضفنتي وقتودها
وأغضت كما أغضيت عيني فعرست	على الثفنات والجران هجودها
على طرق عند البراعة تارة	تؤازي شريم البحر وهو قعيدها
كأن جنيبا عند معقد غرزها	تراوده عن نفسه ويريدها
تهالك منه في النجاء تهالكا	تقاذف إحدى الجون حان ورودها
فنهنهت منها والمناسم ترتمي	بمعزاء شتى لا يرد عنودها

والمسيب بن علس شارك في وصف الناقة ورسمها ضامرة الخصر واسعة الخطو حديدة البصر شديدة الإذعان، ظهرها كقنطرة ملساء مكتنزة اللحم وسنامها ضخم متعال يشبه أكمة الرمل وعنقها مستطيل كالشراع قوية الصدر نشيطة تندفع نحو العدو كأنها تقاذف كرة في أرض منخفضة سهلة، أو كأنها في سرعتها امرأة تريد أن تنسج ثوبها وأن تتمه قبل أن يقع المساء، وتطوي شراع النهار، وهذه الصورة يعبر عنها في أسلوب جميل (مرحت.. فعل) فدلنا بذلك على ما كان للاعب في أرض العرب، وما للمرأة من عمل بيتها

(١) ديوانه ٨٨.

حين تختلس ساعات النهار في نسج الثوب قبل أن يهبط الظلام فيلف الدنيا بردائه وهو لطيف حين يطير بتصويره إلى قبيلته فيرسمها لاعبه لاهية أو يصور النساء في عملهن اليومي. يقول [١]

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت ... بخميصة سرح اليدين وساع
صكاء ذعلبة إذا استدبرتها ... حرج إذا استقبلتها هلواع
وكأن قنطرة بموضع كورها ... ملساء بين غوامض الأنساع
وإذا تعاورت الحصى أخفافها ... دوي نواديه بظهر القاع
وكأن غاربها رباوة مخرم ... وتمد ثني جديلها بشراع
وإذا أطفت بها أطفت بكلكل ... نبض الفرائص مجفل الأضلاع
مرحت يداها للنجاء كأنما ... تكرو بكفي لاعب في صاع
فعل السريعة بادرت جدادها ... قبل المساء تهم بالاسراع

ويقطع المسيب بن علس الصحراء المجهولة المعالم بناقة شديدة سريعة، لا تتأثر بالحزام أو تكثرت به رغم ما يتركه من جروح وخطوط في صدرها وجوانبها كأنها الجمل في وثاقته وقوته، موثقة الخلق، لينة السير يغلف عنقها وفقرات ظهرها غطاء ناعم من اللحم، أما قوائمها فهي كالغار في السواد يقول [١]

ببيداء، مجهولة قطعت ... بعاهمة تستخف الضفارا
ترامى النسوع يحيزونها ... ندوبا وبالدف منها سطارا
جمالية أجد سهوة ... يلاحم منها التليل الفقارا
كأن على الظهر ديباجة ... وسود القوائم يحسن قارا

(١) الوصف ١٤.

(٢) ديوانه ١٠٩.

وناقة أوس بن حجر سريعة تنجو براكبها ضخمة الوجنتين ضامرة سريعة العدو شديدة لم تروض كالعيسرانية يتنوع مشيها حسب تنوع الأرض التي تمر عليها بين منخفض ومرتفع، وهذه الناقة كما يقول الأزهري ضربها أبوها وليس أخوها فجاءت بذكر ثم ضربها ثانية فجاءت بذكر آخر، فالولدان ابناها لأنهما ولدا منها، وهما أخواها أيضا لأبيها لأنهما ولد أبيها، ثم ضرب أحد الأخوين. الأم فجاءت الأم بهذه الناقة وهي الحرف، فأبوها أخوها لأمها لأنه ولد من أمها، والأخ الأخر الذي لم يضرب عمها لأنه أخو أبيها، وهو خالها لأنه أخو أمها من أبيها، وأبوه نزا على أمه، وقد طال مقامها في الريف حتى خشي صا حبها عليها من الجرب لأنه يكثر فيه بعد أن أنحلها السير في الهاجرة حتى غدا الرحل لا يستقر على ظهرها، وهي من التعب تلقى عنقها وتقلق في موضعها وتتجافى عنه وتريع كما يفعل المها النافر، وحين تنهض من جديد تسرع وتعدو وكأن هرا بجانبها تحت رحلها وديكا وخنزيرا تحت قدميها، وهذه الحيوانات تنهشها وتثيرها فهي لا تهدأ ولا تفتر وكأنها ثور وحشي مذعور يقول [١]

وقد تلافي بي الحاجات ناجية ... وجناء لاحقة الرجلين عيور

تساقط المشي أفنانا إذا غضبت ... إذا ألحت على ركبانها الكور

حرف أخوها أبوها من مهجنة ... وعمها خالها وجناء مئشير

وقد ثوت نصف حول أشهرا جددا ... يسعي على رحلها بالحيرة المور

وفارقت وهي لم تجرب وباع لها ... من الفصافص بالنمي سفسير

---

(١) ديوانه ٤١ .

أبقى التهجر منها بعد كدنتها من المحالة ما يشغي به الكور

تلقي الجران وتقلولي إذا بركت كما تيسر للنفر المها النور

كأن هرا جنيبا تحت غرضتها واصطك ديك برجليها وخنزير

كأنها ذو وشوم بين مأفقه والقطقطانة والبرعوم مذعور

وناقة أوس الأخرى كالصخرة في قوتها وصلابتها وثيقة الخلق ذات حمرة يخالطها سواد، لا تحتاج في سيرها إلى الضرب بل تكتفي بالنقر بالمنقر، وهي تعرف وجهها وقصدها إذا تحير المتحير ولم يستطع المضي، إنها ناقة مشرفة كأن المسافة بين خفها وموضع رحلها نفانف هائلة لبعدها، وهي سهلة السير ضخمة قوية سريعة تشبه الجمل في خلقتها وشدتها يعينها على المشي أخفاف صلبة، وهي في حركتها كأنها مقاذف السفينة، وكأنها في قوتها وضخامتها قوائم متآلفة تنهض معا وتحط معا، لينة السير لا تتعب راكبها خفيفة القوائم في المشي، تهوي بأيديها إلى ضبعها، أثر فيها خشب الرجل فترك ندوبا على ظهرها، إذا همت لتقوم كسا رأسها زبد لغامها وكأنه محلوج القطن الذي تبعثره النوادف، وحين تعتمد في سيرها تصبح كالماتح الذي يجذب رشا الدلو بالبكرة فتصوت وإذا كا ن سيرها لينا في الغالب فقد يخالطه بعض الخرق، وهي في سرعتها تشبه الدرر التي خانها النظام فانفرطت مسرعة يقول[(١)]

وعنس أمون قد تعللت متنها على صفة أو لم يصف لي واصف

كميت عصاها النقر صادقة السرى إذا قيل للحيران أين تخالف

علاة من النوق المراسيل وهمة نجاة علتها كبرة فهي شارف

جمالية للرحل فيها مقدم أمون وملقي للزميل ورادف

---

(١) ديوانه ٦٤.

يشـيعـهـا في كل هضب ورملة قوائم عـوج مجـمرات مـقاذف
تـوائـم آلاف تـوال لـواحـق سـواه لواه مـربذات خـوانف
يزل قـتـود الرحل عـند داياتهـا كما زل عن رأس الشجيج المحارف
إذا مـاركـاب القـوم زيـل بينهـا سرى الليل منها مستكين وصارف
علا رأسها بعد الهباب وسامحت كـمحلوج قطن ترتميـه النوادف
وأنحت كـما أنحى المحـالة ماتح على البئر أضحى حوضه وهو ناشف
يخـالط منهـا لينهـا عـجرفـيـة إذا لم يكن في المقرفات عجارف
كأن ونى خـانت به من نظامـها مـعاقـد فـارفـضت بهن الطوائف
ينقـر طيـر الماء منهـا صريـفهـا صريف مـحال أقلقـته الخطاطف

وعند حديث المخبل السعدي عن ناقـته وصف الطريق الذي مرت عليه بأنه وطيء وذلك من كثرة المشي حتى ذهب نبته إلا أنه لا يستقر فيه من جازه وسلكه بل يذهب عنه بسـرعة حيث لا يصلح للمـيت مع أنه مستـو لا نشز فيه، فهو كالحصير الذي نسـجه صانع حاذق، وقد اتخذت القطا على جانبيه أوكارا لها قبل وصولها الماء بليلة واحدة فسـار الشاعر على ناقته بإزائه مخافة أن يضل، لأنه لا يسير بها إلا في الليل فلم يكسرها سـير النهار، فاحتفظت بقوتها حتى صارت كالفحل المتروك من العمل، ولصلابة مناكبها وشدة وقعها فإنها تكسر الحصى، وعدوها يشتد اشتداد الريح على الرغم من اشتداد حرارة الجـو الذي جعل الراكب يرى السـراب كأنـه يجري، وهذه الناقـة تشبـه في سرعتها بكرة البئر عند الاستقاء، وهي قوية متينة من عجزها إلى كاهلها وهو مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق - وقد ساعدها على السرعة اعوجاج قوائمها الضخمة ذات العصب المـدمج المغطى باللحم، وهي لا تحتاج لكي تسرع إلى ضرب بالعصى بل إن مجرد رفع السوط يفزعـها ويستحثها، ومما ضاعف من

قوتها وقدرتها علـى السير أنها عقيم لا تحمل، وقد أحسن الـعقم نبات ذنبها وغداءه فغطى اللحمتين في ظاهر الفخذين، ولم ينس الشـاعر مناسمها فشبه أطراف أخفافها بالمطارق في صلابتهـا، وهي مكرمة تقضي القيلولة في الخباء كما يقـيل الظبي في كناسه، وهي في صلابتهـا وسرعتها مـثل الصخرة التي يأتي بهـا السيل فـيحطهـا إلى أسفل ولا يوقـفهـا إلا الرضم وهي الحـجارة المجتمـعة بعضهـا ببعض، إلا أن كثرة السـفر أنهكهاحتى أصبـحت كالعظام البالية يقول [١]

عــارضـــتـــه ملث الـظلام بمذ ... عـــان العـــشي كـأنـهـا قـــرم

تذر الحـصى قلقـا إذا عـصـفت ... وجـرى بـحـد سـرابهـــا الأكم

قلقت إذا انـحـدر الطريق لـهـا ... قلق المحـــالة ضـمـهـــا الدعم

لحـــقت لهـــا عـجـــز مـــؤيده ... عـقـد الفـقـار وكـاهل ضـخم

وقـوائـم عـوج كـأعــمـدة ال ... بنيـان عـــولي فـوقـهـــا اللحم

وإذا رفـعت السـوط أفـزعـهـا ... تحت الضـلوع مــروع شـــهم

وتسـد حـــاذيهـا بذي خـــصل ... عـقـمـت فناعم نبـتـة العـقم

ولهـــا مـناسم كـــالمـواقع لا ... مـــعـــرأ شـــــاعـــرها ولا درم

وتقـيل في ظـل الخـبـاء كـمـا ... يغـــشى كناس الضـــالـة الرئم

كـــتريكة الـسـيل الـتي تركت ... بشـفـاء المسـيل ودونهـا الرضم

بليـــتـــهـــا حـــتـى أؤديهـــا ... رم الـعظـام ويـذهـب اللـحـم

---

(١) المفضلية ٢١.

واختار ربيعة بن مقروم الضبي لرحلته ناقة قوية تشبه العير في صلابتها، ضخمة مكتنزة باللحم تشبه الجمل في إشرافه، كتومه لصوتها لصبرها على السير فهي كحمار الوحش في عنفوانه وسرعته يقول[(١)]

فعديت أدماء عيرانه   غذا فرة لا تحل الرسيما
كناز البضيع جمالية   إذا ما نعمن تراها كتوما
كأني أوشح أنساعها   أقب من الحقب جأبا شتيما

أما الأحمر السعدي فقد التفت إلى ناحية أخرى وهي وصف حسنين إبله التي حرمته من النوم طوال الليل، وقد كانت بين الثلاث والعشر، فيشبه ترديد صوتها المنبعث من جوفها تارة بالمرأة التي تنوح على زوجها في مجلس العزاء، وتارة ثانية يشبه حنينها بالمرأة المغنية التي تستعمل المزمار في مجلس الشراب، ويشبهه تارة ثالثة بصوت رجل يحدو للابل يقول [(٢)]

حسنت فأرقني والليل مطرف   بعد الهدوء ببطن السي أذوادي
حسنت بأجوف صراف ترجعه   كأنه صوت ثكلى بين عواد
أو صوت زمارة في بيت مشرفة   أو صوت مستأجر يحدو مع الحادي

الخيل

الفرس صديق العربي في عيشه في الحرب والسلم في الحياة الجادة والهازله، حين يحارب الانسان أو يصطاد الحيوان، وهو وفي له يصحبه في

---

(١) المفضلية ٣٨.

(٢) المؤتلف والمختلف ٣٦.

السراء والضراء، وحين اليأس، فهو قوته وسلاحه وموضع مجده وعزته وفخاره، لذلك أحب العربي هذا الحيوان وراي فيه نجدة وملاذا.[(١)]

وكان عرب الجاهلية يهنئون بعضهم بعضا حين تنتج لأحدهم فرسا، مما يدل على مكانة الخيل العظمى في نفوسهم.

وهذا معقد السعدي يسجل علو منزلة الحصان عند العرب، فعلى الرغم من فقره وعدم قدرته على توفير الضروريات لعائلته من طعام وشراب وكساء فإنه يرفض كل الرفض أن يبيع فرسه كنزه ويضن بها على أي أحد مهما كانت درجة علاقته به، وتبدو شدة تعلق الشاعر بفرسه في تكرار اسمها مرات أربع. يقول[(٢)]

أتأمرني بكنزه أم قشع ... لأشريها فقلت لها دعيني

فلو في غير كنزة تعذليني ... ولكني بكنزة كالضنين

أداويها دواء أخ لطيف ... إذا خمص الوطاب من الحقين

فلا وأبيك لا أحبو خليلا ... بكنزة ما حييت فلا تهوني

رأت جاراتها خدرن ريطا ... وأكثر فوقهن من العهون

والمرقش كان من الشعراء الفرسان، وكان يغدو إلى الصيد بفرس صافي اللون ضامر البطن أملس الجسم جميل الخلق أغر الجبهة محجل القوائم يصيد الشوارد ويقتنص الأوابد، يشاركه حربه وسلمه جده ولهوه ذلول سلس العنان سهل القياد، لكنه حين يثور تسمع له همهمه وزمجره كظبيه فتية قوية شديدة النشاط لا تهدأ ولا تسكن، فهو سريع واسع الخطا حين يشد على العدو

---

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ١٥٨.

(٢) أنساب الخيل ١٠٠.

ويندفع اندفـاع الأتي، فليس فيه عـيب ولا يلحقـه نقد، لذلك كـان موضع فخره واعتزازه، يسبق مطرودا يلحق بخصمه طاردا، ويخرج بصاحبه من كل ضيق وكذلك تكون الجياد، والمرقش لا يقف عند أجزاء الجسم وقفة زملائه، وإنما يصف فرسه بـصفة عامة ويعـدد منافعه في لغة أقرب إلـى السهولة من شعر أقرانه وأدخل في الموسيقى من معلقات أضرابه.

يقول:(١)

غدونا بصـاف كالعسـيب مجلل	طويناه حـينا فـهو شـزب ملوح
أسـيل نبـيل ليس فـيـه مـعـابة	كميت كلون الصرف أرجل أقرح
ويســـبق مطرودا ويلـحق طاردا	ويخرج من غم المضـيق ويجرح
تراه بشكـات المدجج بعـــد مـا	تقطع أقـــران المغــيـرة تجـمح
شـهدت بـه في غاره مـسـبطرة	يطاعن أولاهـا فـئـام مــصـبح
كمـا انتفجت من الظبـاء جداية	أشم إذا ذكـــرته الشـــد أفـــيح
يجم جموم الحسي جاش مضيقه	وجـــرده من تحت غـــيل وأبطح

ويمزج سلامـة بن جندل بين الفخـر بالفروسيـة وصفات خـيل القوم، فيصف أفراسهم بكثرة الكر والفر في ميادين القتال، وأنها بسبب ذلك تحاتت مقدمات حـوافرها وذهبت لأكل الطريق لها ولطول السفر عليـها ولكثرة من قتل فرسان قـومه من الأعداء تضمخت أعناق خيولهم بالدمـاء حتى أشبهت تلك الأعناق الحجارة التي يذبح عليها وبخـاصة في شهر رجب حيث يكون الذبح أعظم. وهذه الأفراس كلها من صنف الجواد الأصيل الذي لا يجاري،

(١) المفضلية ٥٥.

وهو طويل شعر الناصية كثير الجري كريم برأ من العيوب ليس بأقنى أي ضيق المنخر ولا أسفى أي قصير شعر الناصية والذنب أو فيه شعرة تخالف لونه ولا سغل أي مهزول، ومن أين يأتيه الهزال وهو الذي يسقي اللبن ويؤثر به دون الأهل، وهو يتدفق في الجري لأن قوائمه متساوية لا يخذل بعضها بعضا، ففي كل قائمة من قوائم هذا الفرس حيث تندفع منه فنون من الجري كأنها دلو مملوء أفرغت في الحوض فسالت باندفاع.

وكما يستعمل هذا الفرس في الحرب يستعمل أيضا في الصيد فهذا الحصان مضرج بدماء الوحش لأنها تصاد عليه، وإنما يضرج بدمائها ليعلم أنه قد صيدت عليه وقد شبه صدر الفرس بالصلابه لا ملاسه وبريقه، وهذا الفرس يشبه في حدته وطموح بصره الراعي الذي نام عن غنمه حتى وقعت فيها الذئب فهب من نومه مذعورا، وهو فاره الجسم ممتليء الأضلاع كثير الشحم، يعطي ضروبا من الجري لقوته ونشاطه يطاول الحمر الوحشية العدو حتى يبلغها فيصيدها، ولو حاضر الألف من الخيل لسبقها ولم يجهد. يقول(١)

وكرنا خيلنا أدراجها رجعا	كُسّ السنابك من بدءو تعقيب
والعاديات أسابي الدماء بها	كأن أعناقها أنصاب ترجيب
من كل حت إذا ما ابتل ملبده	ضافي السبيب أسيل الخد يعبوب
ليس بأقنى ولا أسفى ولا سغل	يسقي دواء قفي السكب مربوب
في كل قائمة منه إذا اندفعت	منه أساو كفرغ الدلو أثعوب
كأنه يرفئي نام عن غنم	مستنفر في سواد الليل مذءوب

(١) ديوانه ٩٤.

ثم الـدســـبـع إلى هاد له بـتع في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب
تظاهر النبي فـيه فـهو مـحتـفل يعطي أساهي من جـرى وتقريب
يحاضر الجون مخـضرا جحافلها ويسبق الألف عفوا غـير مضروب

ويتحدث السليك السعدي عن حصانه فعندما رجع مع صحبه في المساء بعد رحلة مضنيـة اصطلوا فيها بحـرارة الشمس المحرقة حتى صـارت حوافر فرسه النحام تشبه المكواه في حرارتها، إلا أنه يتحمل الكثير فهو ضخم يشبه الناقة في ضخامتـه، فقوائمه ضخمة وجسمه متين، ولـه غرة كبيرة في رأسه تشبه خماراً أبيض تغطي به المرأة رأسها، وله مناخـر واسعة تمنحه نفسا قويا، فهي في سعتهـا شبيهه بالكير، وهوجهاز من جلد أو نحوه يسـتخدمه الحداد للنفخ في النار لإشعالها يقول(١)

كـــأن حـــوافـــر النحـــام لما تروح صـحـبتـي أصلا مـحـار
على قــرمـاء عـــاليـة شــواه كـأن بيـاض غـرتـسـه خـمـار
كـــأن مناخــــر الـنحــــام لما دنا الاصـبـاح كـيـر مسـتـعـار

ويتحدث الأغر اليـشكري عن رحلة صيد قام بها مع أصحـابه. فيذكر أنه خرج ومـعه مهـرله صفـات مميزة أولها أنه سـريع العدو يسـبق الوحوش ويصيدها، وقد سـاعده على ذلك قوائم خفيفة وعـصب متين يربط المفاصل بعضها ببعض وبطن وظهر قـويان، وثاني هذه الصفات أن جبينه بارز واضح في سعة وبريق، وأن له غـرة في جبهته تضـيئها إضاءة الشعـري ذات التوقد الشديد والسطوع النافذ حـتى بعد انهزام خيوط الظلام أمام أشـعة الشمس. وبعد أن يعـدد الشاعر أبرز صـفات فرس الصـيد يشير إلى كـيفيـة الوصول

(١) أنساب الخيل ٦٢.

للهدف، ففي أثناء الطريق رأوا ورلا - وهو حيوان من الزحافات طويل الأنف والذنب دقيق الخصر وهو أطول من الضب وأقصر من التمساح - كان يتبع الأتن ويطوف حولها، وقد دلهم هذا الحيوان على بغيتهم، ولكي يعطي الحصان أقصى ما يملك من السرعة أخذ فارس القوم يقلب الورل ظهراً لبطن وبطنا لظهر أمام الفرس الذي دفعه الخوف والذعر إلى مضاعفة سرعته حتى وصل إلى الأتن وكانت ثلاث فقطع الطريق عليها، كما تمكن من الرابع وهو حمار الوحش حيث انقض على فرائسه انقضاض النسر وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم. يقول (١)

ولقد غدوت على القنيص معي ... قيد الأوابد ملهب الحضر
ربد القوائم ليس خائنه ... عصب شديد البطن والظهر
صلت الجبين كأن قرحته ... الشعري إذا لاحت مع الفجر
فإذا مدل دون غايته ... ورل يطيف بآتن زعر
قلنا لفارسنا يكفنه ... حتى تجيش مراكل المهر
فكأنه إذ بتهن معا ... رجلاه خافيتان في نسر
عادي ثلاثا وهو مقتدر ... والعير رابعهن في النفر

وفي حديث عبد المسيح بن عسله عن رحلة صيد قام بها آخر الليل على فرسه الجواد يطارد به الوحش في مكان منعزل وحشي النبت، يصف الشاعر الكلأ بأنه بعيد، وأن التهويل أي زهر النبت من بين أصفر وأحمر وأبيض وسائر ألوانه لكثرته قد علا الجنبه وهو نبت سريع الارتفاع.

ثم يعرج الشاعر على وصف الفرس فيذكر أنه وافى الكلأ في الصباح

---

(١) المؤتلف والمختلف ٤٨.

الباكر قبل صياح العصافير على جواده الذي يشبه الذئب في العدو والقفز وأنه منتصب عال كميت اللون، ونظرا إلى أن هذا الجواد أعد للصيد فإن أبرز صفاته التي يتحلى بها هي السرعة إلى جانب صفات أخرى منها الصير واليقظة وقوة الشم، وهذه من صفات الذئب التي يتسم بها، وهذا الجواد بفضل سرعته الفائقة لا يفوته الوحش وإن حذر لاقتداره عليه، ومهما حاول الشاعر أن يخفف من سرعته فإنه يظل كالآتي وهو السيل الذي يأتي بلدا لم يكن فيه مطر فيطفوا نبته عليه، ولا يخفى تأثر الشاعر بامرىء القيس في صفتي السرعة والبكور يقول [(١)]

وعازب قد علا التهويل جنبته	لا تنفع النعل في رقراقه الحافي
مستأسد النبت معلول أطاوله	كأن زاهره تلوين أفواف
صبحته صا حبا كالسيد معتدلا	كأن جؤجؤه مداك أصداف
باكرته قبل أن تلغي عصافره	مستخفيا صاحبي وغيره الحافي
لا ينفع الوحش منه أن تحذره	كأنه معلق منها بخطاف
إذا أواضع منه مر منتحيا	مر الأتي على برديه الطافي

ويتحدث عروة العبدي عن فروسيته وفرسه، فقد ركب على فرسه وقد لبس كامل سلاحه وأقبل على الحرب بقلب لا يعرف التردد ولا التثاقل. أما صفات فرسه فهي عند الاقبال تبدو قوية سريعة كأنها نسر، وكأن ظهرها ساق نخلة قشر لحاؤه فبدا مستقيما صلبا أملسا، وهي عند الادبار ضخمة الهيكل والجوف والقفا، فهي من الجياد الكريمة العالية الجودة. يقول [(٢)]

(١) المفضلية ٧٣.

(٢) الحيوان ١/١٧٥.

وعلى قدام حملت شكة حازم | في الروع ليس فؤاده بمثقل
أما إذا ما أقبلت فمطارة | كالجذع شذ به نقي المنجل
أما إذا ما أعرضت فنبيلة | ضخم مكان حزامها والمركل

حمار الوحش

صور عمرو بن قميئه حمار الوحش في صورة عانة من الحمر، يرعى روضة معشبة، حتى إذا تصرم الربيع وقلصت عنه بقايا الماء وأعوزه البنت علا شرفا من الأرض، ربيئة لها يفكر في أمرها ويخشى عليها الصياد، ثم صاح بها صخبا مختالا يسوقها أمامه، فأوردها ماء عليه صياد فقير أعد سهامه وقوسه ينتظر رزقا يسوقه القدر إليه، وهنا يبدع عمرو فيسوق الأحداث كلها إلى منطقة واحدة تلتقي فيها الحتوف والرغاب معا هي شريعة الماء، الحمر تحلم بالماء وها هو ذا الماء أمامها والصياد يمني نفسه بالصيد، وها هو ذا الصيد بين يديه.. ولكن الحياة تسخر من الجميع وتخيب آمالهم، يرمي الصياد الحمر وقد همت بالشرب بسهم قاتل فيخطيء القصد فتجفل الحمر وتلوذ بالفرار، وينكفيء الصياد على نفسه يلوذ بالحسرة والندم، وفي المدى تدوي قهقهة عابثة ساخرة، ويحاول الشاعر أن يعمق إحساسنا بظلم الحياة ويثير سخطنا عليها، فيصور خيبة هذه الأسرة الفقيرة التي وعدها القدر كما وعد الآخرين ثم أخلفها الوعد كما أخلفهم، فكان مصابها بجوع أولادها الصغار وسوء طالعهم شر من كل مصاب. يقول [1]

---

(١) د. وهب روميه: الرحلة في القصيدة الجاهلية ٢٤٦ - القدر لا يخلف وعده، ولكنه خيال الأدباء وأسلوبهم القائم على المجاز.

فلما لم يرين كثير ذعر ... وردن صواديا وردا كميا
فأرسل والمقاتل معورات ... لما لاقت ذعافا يتربيا
فخر النصل منقصفا رئيما ... وطار القدح أشتاتا شظيا
وعض على أنامله لهيفا ... ولاقى يومه أسفا وغيا
وراح بحسرة لهفا مصابا ... ينبيء عرسه أمرا جليا
فلو لطمت هناك بذات خمس ... لكانا عندها حنتين سيا
فكانوا واثقين إذا أتاهم ... بلحم إن صباحا أو مسيا

وشبه ربيعة بن مقروم ناقته الضخمة بحمار الوحش ثم طفق يتحدث بالتفصيل عنه، فهو حمار (أقب) أي ضامر و (حقب) أي في بطنه بياض و (جأب) أي غليظ و(شتيم) أي كريه الوجه. ثم تحدث عن قيادته لأتنه وحرصه على سلا متها فوصفها بأنها ثلاث، وأنها صلبة أو طويلة مثل القنا، وكانت عطاشا. ومن مظاهر اهتمام الحمار بأتنه وحرصه عليها أنه كان يختار لها المراعي الخصبة الدائمة الخضرة الكثيرة النبات، وخوفا عليها من خطر الصيد أو الافتراس فقد كان يمنعها من الورود أثناء النهار رغم عطشها الشديد، فكانت تراقب الشمس وتحدق النظر فيها وتنتظر غيابها بفارغ الصبر، فإذا أقبل الليل بدأ معهن رحلة الورود، ولكي يتغلب على ملل الطريق نراه يداعبهن فيطاردهن ويعضهن، حتى إذا تنفس الصباح ورد بهن غديرا أو شريعة طامية، ماؤها يميل إلى الزرقة من كثرته وصفائه، وقد عبر الشاعر عن اللون الأزرق بلفظ الأخضر لتداخل اللونين واختلاطهما عند العرب القدماء، فالعربية تطلق على السماء الخضراء كما تطلق على الماء صفة الأخضر، يقول د إبراهيم علي : فإذا كانت الخضرة هي هبة الماء والماء هبة

السماء فربما رأي البدائي أن يجمع بينهما في الخضرة أي أنه وحد بين أساس اللون الأخضر (الماء والسماء)[١] وعند الشرائع إذا بالصياد أبى عامر يترصدها آملا أن تقوم عند الماء ليتمكن منها، وقد أخذ أهبة ا لصيد من قوس جيدة وسهم دقيق، فرماها ولكن السهام أخطأتها رغم قوتها ودقتها، فنجت من شر الصائد، فسر الحمار بحسن العاقبة ونجاح القيادة يقول [٢]

كأني أوشح أنساعها	أقب من الحقب جأبا شتيما
يحلىء مثل القناذبلا	ثلاثا عن الورد قد كن هيما
رعاهن بالقف حتى ذوت	بقول التناهي وهر السموما
فظلت صوادي خزر العيون	إلى الشمس من رهبة أن تغيما
فلما تبين أن النهار	توالي وآنس وحفا بهيما
رمى الليل مستعرضا جوزه	بهن مزرا متلا عذوما
فأوردها مع ضوء الصباح	شرائع تطحر عنها الجميما
طوامي خضرا كلون السماء	يزين الدراري فيها النجوما
وبالماء قيس أبو عامر	يؤملها ساعة أن تصوما
وبالكف زوراء حرمية	من القضب تعقب عزفا نئيما
وأعجف حشر ترى بالرصا	ف مما يخالط منها عصيما
فأخطأها فمضت كلها	تكاد من الذعر تفري الأديما

(١) اللون في الشعر العربي ٢٣٦/ ٢٣٧.

(٢) المفضلية ٣٨.

وتحدث ربيعة أيضا عن الحمار الوحشي في سياق تشبيه الجمل به، فهو حمار متين غليظ اكتسب قوته وصلابته من معيشته في روضة معشبه كثيرة النبات والماء، ويمضي الشاعر في حديثه عن الحمار فيجعله يقود أتانا ضخمة طويلة العنق تتشح بالبياض اللامع، وما يزالان يتسابقان حتى يصلان إلى مواضع المياه بوادي الستار، وما إن يردا الماء عند انبلاج الفجر حتى يجدا صيادا من عنزه صاحب خبرة ودهاء يعيش على صيد الأوابد، ولا يملك من متاع الدنيا سوى قوسه وسهامه، فإذا لم يجد صيدا مات عياله من الجوع، وما إن يراهما هذا الصياد حتى يرسل سهمه الدقيق المحدد تجاه الحمار أو أتانه ولكن وتره انقطع ففرا منه هاربين وأخذ الصائد الجلاني يقول : يا لهف أماه ندما وحسره. يقول متحدثا عن الصيد[١]

كأن الرحل منه فوق جأب ... أطاع له بمعقلة التلاع

تلاع من رياض أثاقتيها ... من الأشراط أسمية تباع

فآض محملجا كالكر لمت ... تفاوته شآمية صناع

يقلب سمحجا قوداء طارت ... نسيلتها بها بنق لماع

إذا ما أسهلا قنبت عليه ... وفيه على تجاسرها اطلاع

تجانف عن شرائع بطن قو ... وحاد بها عن السبق الكراع

وأقرب مورد من حيث راحا ... أثال أو غمازة أو نطاع

فأوردها ولون الليل داج ... وما لغبا وفي الفجر انصداع

---

(١) المفضلية ٣٩.

ويتحدث عن الصائد فيقول [١]

فصبح من بني جلان صلا عطيفته وأسهمه المتاع
إذا لم يجتزر لبنيه لحما غريضا من هوادي الوحش جاع
فأرسل مرهف الغرين حشرا فخيبه من الوتر انقطاع
فلهف أمه وانصاع يهوي له رهج من التقريب شاع

ويقول أوس بن حجر

كأني كسوت الرحل أحقب قاربا له بجنوب الشيطين مساوف
يقلب قيدودا كأن سراتها صفا مدهن قد زحلفته الزحالف
وحلأها حتى إذا هي أحنقت وأشرف فوق الحالبين الشراسف
فأضحى بقارات الستار كأنه ربيئة جيش فهو ظمآن خائف
يقول له الراؤون هذاك راكب يؤبن شخصا فوق علياء واقف
إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهوّل حالف

يقول د سيد نوفل : هذه القصيدة تدل على فن أوس في شعر الطبيعة، فقد بأها بالوقوف بالأطلال معددا الأماكن استجابة لدواعي الحياة البدوية، ثم يتحدث عن الغرام على أنه حديث جهل، وعن الفناء وأنه نهاية كل حي. ثم يصف الناقة وصفا يذكر بأوصاف امريء القيس لفرسه من حيث التتبع للأجزاء وإن لم يخل من طرافة في النظم، ويشبهها بحمر الوحش. متحدثا عن معركة الصيد مثله، وليس التقليد في الطريقة فقط.

---

(١) المصدر السابق.

وإنما يتناول الجزئيات كذلك، فقد كان عند امريء القيس قيادة الحمار للآتن، وآثار الجروح والعض في الجنوب، ومحافظته عليها والتكسب بالصيد وقبح الصائد وقسوته، ومهارته وتسديد الرماية وقت ورود الماء، لكن أوسا مع التأثر بالقدماء يمتاز بالقصد إلى دقيق المعاني والتجويد(١)

وصف الصائد

وبعد أن تحدث أوس بن حجر عن الصيد وهو حمار الوحش، شرع في الكلام عن الصائد فوصفه بالمهارة أوالفتك والعيش على هذه الحرفة المنهكة، حيث حرمته من المبيت في منزله مع عائلته، فعاش في العراء عرضة للطبيعة القاسية من برد قارس وحر لافح، وعطش شديد وجوع منهك، حتى صار غائر العينين شديد الهزال أسود اللون مشقق الجلد ضعيف العظم كثير شعر الساعدين خشن الكفين ضامر الجسم، أما المكان الدائم له فقد كان ناموسه أو قترته وهو بيت صيده المسقف بالحجارة الرفاق، وكل ما معه أنواع من السهام يصنعها ويبريها ويطليها بالغراء ويلصق الريش على صدرها في دقة وإحكام، كما استعان على الصيد بقوس جيدة صنعت من فرع شجر الضال، ورغم دقة الصائد واختياره اللحظة المناسبة لاطلاق سهامه، فإن السهم مر بذراعه ونحره ولم يقتله فنجا الحمار وخاب سعي الصائد وعاد إلى أهله محزونا يقول (١)

فلاقى عليها من صباح مدمرا ... لناموسه من الصفيح سقائف

صد غائر العينين شقق لحمه ... سمائم قيظ فهو أسود شاسف

أزب ظهور الساعدين عظامه ... على قدر شثن البنان جنادف

(١) شعر الطبيعة ٨٨.

(٢) ديوانه ٧٠.

أخـو قـتـرات قـد تيـقن أنه ... إذا لم يصب لحما من الوحش خاسف
مـعـاود قـتل الهـاديات شـواؤه ... من اللحم قصري بادن وطفاطف
قصي مبيت الليل للصيد مطعم ... لأسـهـمـه عـار وبار وراصف
فـيسر سـهـمـا راشـه بمناكب ... ظهار لؤام فـهو أعـجف شارف
على ضـالة فـرع كـأن نذيرها ... إذا لم تخفضـه عن الوحش عازف
فـأمـهله حـتى إذا أن كـأنه ... معـاطى يد من جمـة الماء غارف
فـأرسله مـسـتـيـقـن الظن أنه ... مخالط ما تحت الـشراسيف جائف
فـمـر النـضي للذراع ونحـره ... وللحين أحيانا عن النفس صارف

ثـور الوحـش

وعند تشبيه أوس بن حجر ناقتـه بثور الوحش يتحدث الشاعر عن هذا الثور، فهو من وحش أنبط المشهور بكثرة الوحوش، ويسترسل ابن حجر في الكلام عن هذا الوحش فيذكر أنه بات في ليلة مظلمة ممطرة فتجمع في مكان ضيق يغالب قسوتها ويعاني شدتـها، ويذكر من صفاته أنه تم شبابه وذكاؤه وأنه كان أبـيض اللون وأن ظهره كـالخرز النقي الحـديث العهد بـالجلاء، ثم يذكر صراعه مع كـلاب الصيد عندما اتجه نحوه صائد يسوق كـلابه ويدفعها أمامه فتجتمع وتتقـارب من الثور وتطرده نحو مكان عال مرتفع، ولكن الثور طلبهـا ليصدها عن نفسـه فلما لجت في طلبه تصدى لهـا بكل نشاطه فطعن سابقـها بقـرنه حتى تخضب بدمـائها، فـولت سائر الكلاب عنه خـوفا من بطشه. يقول د إبراهيم علي : وصورة الثور في شعر ما قبل الاسلام مكرورة مألوفة قلما خلا منها شعر شاعر، وفي هذه الصورة نجد ملامح جسدية ثابتة تركز في أغلبـها على اللون وتحدده بدقـة بالغة، ثم يبدأ الـشاعر سرد قـصة

الثور مع أعدائه : المطر (الوجه المدمر للماء) ليلا والصياد وكلابه الشرسة صباحا، وغالبا ما يظهر الثور في الصورة الشعرية ليلا أي عند سيطرة القمر على مملكة السماء، مما يعزز الرأي القائل بأن العرب رمزت للقمر بالثور، ثم يقول : وكثرت الصور التي تشبه الثور بالكوكب الدري، وهي بقايا مختزنة لا شعوريا من فكرة الربط بين القمر والثور يقول الشاعر

وانقض كالدري يتبعه   نقع يثور تخاله طنبا

وإذا كان الشاعر هنا قد شبه الثور بالكوكب الدري الذي يدرأ الشيطان كما يقول ابن الأعرابي، فمعنى ذلك أن الشاعر أعطاه قوة الهية قادرة على محاربة قوى الظلام والعماء، ويكون له بذلك دور القمر الإله نفسه الذي يعد بديلا أرضياله (١) يقول (٢)

وكأن أقتادي رميت بها   بعد الكلال ملمعا شببا
من وحش أنبط بات منكرسا   حرجا يعالج مظلما صخبا
لهقا كأن سراته كسيت   خرزا نقا لم يعد أن قشبا
حتى أتيح له أخو قنص   شهم يطر ضواريا كثبا
ينحي الدماء على ترائبها   والقد معقودا ومنقضبا
فذأونه شرفا وكن له   حتى تفاضل بينها جلبا
حتى إذا الكلاب قال لها   كاليوم مطلوبا ولا طلبا
ذكر القتال لها فراجعها   عن نفسه ونفوسها ندبا
فنجا بشرته لسابقها   حتى إذا ما روقه اختضبا

---

(١) اللون في الشعر العربي ١٤٥/ ١٤٦ .

(٢) ديوان أوس بن حجر ٣ .

كرهت ضواريها اللحاق به ... متباعدا منها ومقتربا
وانقض كالدري يتبعه ... نقع يثور تخاله طنبا
يخفي وأحيانا يلوح كما ... رفع المنير بكفه لهبا

وفي قصيدة أخرى يصور أوس بن حجر مشية الثور خائفا يترقب ومنصتا يتسمع الأصوات، حتى التقطت أذناه صوت الصائد يزجر كلابه ويصيح بها من بعد، فانفتل راجعا بسرعة فجد القانص في اتجاهه مع كلابه المسترخية الأذان القوية التركيب، وقد بدت أسنانها محددة كأسنان المناشير، في مقابل قرنيه الطويلين المحددين وقد بدأ الصراع بينها وبينه، حيث انطلقت تعدو خلفه وهو يوليها الأدبار مجدا في هربه ناجيا بنفسه. لكنها أدركته وانتشرت حوله كالزنانير تنسه نهسا كاللسع، وكانت كلما حاولت أن تنال منه تلك الكلاب المتقدمات كر عليها ولم يفتر عن مهارشتها ومناوشتها، ثم تكرر ذلك منها ومنه حتى حسم الموقف حين بلغ به الهياج مبلغه ورأى أن كبرياءه جرحت، فأنفذ قرنه الحاد الدقيق الطويل طعنا وشكا حتى تركها صرعى، وكأنه موتور منها ولابد أن يدرك ثأره، وأن يدافع عن كبريائه وكيانه، ولما تحقق له ما أراد انفتل ماضيا يباري ظله فرحانا كأنه ذلك الفارس الشجاع المقدام المسرور بما حقق من انتصار[١] يقول [٢]

كأنها ذو وشوم بين مأفقه ... والقطقطانه والبرعوم مذعور
أحس ركز قنيص من بني أسد ... فانصاع منثويا والخطو مقصور
يسعى بغضف كأمثال الحصى زمعا ... كأن أحناكها السفلى مآشير

(١) أحمد النجار: تطور الشعر القصصي ١٣٩.
(٢) ديوان أوس ٤٣.

حتى أشب لهن الثور من كثب ... فأرسلوهن لم يدروا بما ثيروا

ولي مجدا و أزمعن اللحاق به ... كأنهن بجنبيه الزنانير

حتى إذا قلت نالته أوائلها ... ولو يشاء لنجته المثابير

كر عليها ولم يفشل يهارشها ... كأنه بتواليهن مسرور

فشكها بذليق حده سلب ... كأنه حين يعلوهن موتور

ثم استمر يباري ظله جذلا ... كأنه مرزبان فاز محبور

الذئب والكلب

يقص علينا المرقش الأكبر أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف أطلس اللون أغبر، فرمى إليه بقطعة من الشواء حياء لئلا يقال أنه يخيل على جليسه، فعاد الذئب جذلان فرحا يهز رأسه غبطة وسرورا، كأنه بطل عاد من الميدان بفيء كثير ونصر كبير. وهذه الأبيات تصور نفسية العربي في الكرم والسخاء وحب الأحدوثة الطيبة وجميل السير، ولكنه لم يصف الذئب في أعضائه أو أجزاء جسمه وصور قدوم الذئب عليه تصويرا وديا يقرب من تصوير الصعاليك. يقول (١)

ولما أضانا النار عند شوائنا ... عرانا عليها أطلس اللون بائس

نبذت إليه حزة من شوائنا ... حياء وما فحشي على من أجالس

فآب بها جذلان ينفض رأسه ... كما آب بالنهب الكمي المحالس

ومن أحسن ما ورد في المستنبجات وصف المتلمس للكلب وفي سياق

(١) المفضلية ٤٧.

حديثه عنه يتحدث الشاعر عن رجل يسير في الليل على غير هدى، وقد اشتدت الريح حتى كادت تذهب بلباسه لولا تمسكه الشديد به. وحين ضل الطريق ولم يعرف أين يكون أخذ يحاكي صوت الكلاب لتجاوبه فيهتدي، فرد عليه كلب تعود على الإجابة واستقبال الضيوف فلما أقبل نحوه رحب به وهش له حتى أوشك من حبه له أن يتكلم يقول[١]

ومستنبح تستكشف الريح ثوبه ... ليسقط عنه وهو بالثوب معصم

عوى في سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلب أو ليوقظ نسوم

فجاوبه مستسمع الصوت للندى ... له عند إتيان المهبين مطعم

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا ... يكلمه من حبه وهو أعجم

يقول د. سيد نوفل عن عرب الجاهلية: وكان إعزازهم لحيوان البادية كبيرا، يؤثرون الخيل والإبل على النفس والولد.. ومن دلائل إلفهم للحيوان تمام التقليد لصوته، روي أن العربي كان إذا ضل الطريق وغابت عنه المعالم ينبح كالكلب فإذا كانت محلة قريبة منه ردد الكلاب نباحه لدقة ما حاكى فاهتدى إلى المحلة ولجأ إليها. ويتصل بهذا تكنية الحيوان كما يكنى الإنسان فقالوا أبا الحارث للأسد وأبا الحصين للثعلب وأبا مضاء للفرس وأم رئام للنعامة وغير هذا كثير..[٢]

---

(١) ديوانه ٣١٦.

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ٣١.

النحـــل

يصور المسيب بن علس أسرابا من النحل خرجت من بيوتها في الصباح الباكر سعـيا وراء أرزاقها فوق مرتفـعات مخضرة مزهرة ألفت أن تطـير إليها وتبحث عن أقواتها فيها، فكانت تنتقل بين أرجائها فتمتص الرحيق من بعض أزهارها ثم تتحـول إلى غيرها بخفـة ورشاقة بل بسرعـة فائقة فيـسمع طنين أجنحتها كأنه أصوات مطربة أو أنغام شجية، فـانتهز فقير بائس فرصة غيابها عن بيوتها فارتقى الجبل وتدلى إليـها، وكان يلبس على صدره سترة من جلد لتقيه لسع النحل إذا رجعت إلى بيوتها قبل أن يفرغ من عمله وأطبقت عليه، فاجتني منها عسلا كثيرا ملأ سـبعة أوعية كبيرة ونزل إلى الأرض قبل غروب الشمس[١]. يقول:

بكرت تعـرض في مـراتعـهـا	فـوق الهـضـاب بمعـقل الوبر
سـود الرؤوس لصـوتهـا زجل	مـحـفـوفـة بمسارب خـضـر
ويظل يجـري في جـواشنـهـا	حـتى تروح مـقـصـر العـصـر
وغـدت لمسـرحـها وخـالفـهـا	مـتـسـربل أدمـا على الصـدر
يمشـي بمحـجنه وقـربتـه	مـتلطفـا كـتلطف الـوبر
فـهراق في طرف الـعسـيب إلى	مـتـقـبل لنواطف صـفـر
حـتى تحـدر من عـوازبه	أصـلا بسـبـع ضـوائن وفـر
فأصـاب ما حـذرت ولو علمت	حـدبت عليـه بضـيق وعـر

(١) بيئات الشعر الجاهلي ١٤٦.

النخــل

ويصف رجل من بني العنبر النخل وصفـا يقوم على أسلوب الألغاز أو الأحاجي، فيجعلها لقحـة وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن. ويسمى فسائلها الصغيرة الناشئة حولها ببناتها، ويعبر عن رسوخ جذورها في الأرض وتأصل عروقهـا فيها بالبرك وهو الصـدر مما يلي الأرض من صدر البعير، ويصـفها بالانبساط والنمو والسموق والثبات وعدم التأثر بالريح العاتية، ويتحدث عن بناتها من النخـيل التي نمت وطالت حتى صارت أخوات لهـا تعيش بجوارها على أرض ريانه وفي تربة ندية تغنيـها عن السقي وتـستغني عن الماء، فـهذه النخيل إذن ليست في صحراء قاحلة وإنما في قرية خـصبة مثمرة، ولا يفوت الشاعـر أن يشير إلى الفحل الذي يتـوسط النخيل ويلقحـها عن طريق الريح رغم عدم التصاقه بها، وأخيراً يشـير الشاعر إلى الخمر الذي يصنع من التمر أو يستـحلب منه ويصفه بأنه من أقـوى أنواع الخمور وأشدها تأثيـرا حتى أن شاربه يصير كالمجنون من فرط السكر وكأنه أكل من طينة الخبال يقول(١)

لنا لقـحـة بالمـاء تغـذي بنائهـا ... إذا بركت فـي منزل لم تحـــول
تدحي وتسمو في السماء برأسها ... وإن هب يوم شـــامل لـم تحلل
لهـا أخوات حـولهـا من بنائهـا ... جـوازي لا تلفى ببيـداء مجـهل
قـيام حـوالي فـحلها وهو قـائم ... تلقـح منه وهو عنـهـــا بمعـــزل
ترى الشارب السكران من حلبـاتها ... إذا راح يمشي مـثل مشي المخـبل

الشـــيب

ويصف مرقش الأكبر لمته وما أصابها من شيب شبهه الشاعر بالأقحوان وهو نبت له زهر أبيض، وأنه وإن تخلص مـن بياضن لمته بـخضابهـا بالحناء

(١) الأخفش: الاختيارين ١٧٨.

فلن يعيد إليه الشباب الذي ولي، كما يشبه الشاعر رأسه وقد توسطه الصلع بالحطيطه وهي أرض لم تمطر بين أرضين ممطورتين وأن بيض القمل لم يجد شعرا يأوي إليه، لكنه يعزي نفسه بأنه إذا كان أبيض الرأس اليوم فطالما كان أسودا في الأيام الخوالي، يقوم[٢]

هل يرجعن لي لمتي إن خضبتها ... إلى عهدها قبل المشيب خضابها

رأت أقحوان الشيب فوق حطيطة ... إذا مطرت لم يستكن صؤابها

فإن يظعن الشيب الشباب فقد ترى ... به لمتى لم يرم عنها غرابها

ب- الطبيعة غير الحية

الصحراء والطلل

يصف المرقش الأكبر الصحراء سوداء لبعد عهدها بالنبات وحرمانها من الماء، فالإبل تسير في ضنك وإرهاق متعبة مكدودة، والعابرون يصيبهم النعاس لخمود الطبيعة وسكونها وشدة ما يكتنفها من ظلام. وتبدو شخصية الشاعر الحضرية واضحة في وصف الصحراء، والطريف فيه ظهور القصد إلى وصفها وحدة يندرج تحتها كثير من المناظر الطبيعية، وصف مسرعا الصحراء والناقة التي ينساب عليها في الظلام وما خلف وراءه وما يظهر أمامه وصوت البوم ومعرس الناقة ومجلسه ثم وصف الجبال تترآى في السراب كرؤوس رجال يسبحون في الماء يقول [٢]

---

(١) المفضلية ٥٣ .

(٢) المفضلية ٤٧ .

ودوية غبراء قد طال عهدها تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت إلى معروفها منكراتها بعيهامة تنسل والليل دامس
تركت بها ليلا طويلا ومنزلا وموقد نار لم ترمه القوابس
وتسمع تزقا من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس
وأعرض أعلام كأن رؤوسها رؤوس رجال في خليج تغامس
إذا علم خلفته يهتدي به بدا علم في الآل أغبر طامس

وفي وصف الأطلال رأى المرقش الأكبر الدار خالية مقفرة احتمل أهلها ليلا لأنهن منعمات لا يحتملن سفر النهار، فالشمس شديدة على أجسادهن المترفة، فعمر الوحش المكان وسكنه البقر ترعى العشب وترع الأرض كأنها رجال من العجم يختالون في قلانسهم يقول [١].

هل تعرف الدار عفارسمها إلا الأثافي ومبني الخيم
أعرفها دارا لأسماء فالـ دمع على الخدين سح سجم
أمست خلاء بعد سكانها مقفرة ما إن بها من إرم
إلا من العين ترعى بها كالفارسين مشوا في الكمم
بعد جميع قد أراهم بها لهم قباب وعليهم نعم

وفي موضع آخر يلم المرقش الأكبر بديار أسماء فإذا هي أطلال دارسة لا حياة فيها ولا حركة غير الطير تدوم في سمائها وأرضها، ويروعه منظرها الموحش وتتوافد عليه الأحزان ويعيش مع الذكريات حتى لينسى من فرط

(١) نفسه ٤٩ .

الجزع وشدة الفزع ما حوله. يقول [(١)]

أمن آل أسمـاء الطلول الدوارس ... يخطط فـيها الطيـر قفـر بسابس
ذكرت بـها أسمـاء لو أن وليـها ... قريب ولكن حـبسـتني الحوابس
ومنزل ضنك لا أريـد مـبيـتـه ... كـأني به من شـدة الروع آنس
لتـبصـر عيني أن رأيتني مكانهـا ... وفي النفس إن خلي الطريق الكوادس

وفي موضع ثالث يسأل الشاعر: هل الديار أجـابته حين خاطبها ولكنه أصم لا يسـمع الكلام، ولكنه سرعـان ما يقـرر أن الأطلال لا تنطق فكيف تجيب!! ولم يبق فيـها إلا كما يتركه القلم في ظهـر الرقاق من خطوط حسنه ونقوش زاهية، حـيث لم يبق الزهر الندى الكثير الملون ما بين أصفـر وأحمر وأبيض شيئاً يذكر من تلك الأطلال. يقول [(٢)]

هل بالديـار أن تُجـيب صـمـم ... لو كـان رسـم ناطقـا كـلـم
الدار قــفـر والرسـوم كـمـا ... رقش فـي ظهـر الأديم قـلـم
ديار أسـمـاء الـتي تبـلـت ... قلبي فـعـيني مـاؤها يـسـجم
أضـحت خـلاء نبتـهـا ثئـد ... نور فـيـهـا زهوة فـاعـتم

أما عمرو بن قمئة فإن تعلقه بالماضي لا يقتصر على الوقوف على طلل الحبيب الدارس ومنزله العـافي، بل يشمل بيئته المحيطة بل بكل مـا فيها من حيـوان ونبات، كـمبـارك الإبل ومرابط الخـيل ومجـمع الحطب والحشـيش

(١) المفضلية ٤٧.
(٢) المفضلية ٥٤.

المجموع الذي تنفيه الريح، لكن الشاعر يستنكر على نفسه وهو الشيخ الكبير الذي وخطه الشيب أن يصبو كما تصبو القيان لأنه إذا ركبه هذا الميل فلن يستطيع الخلاص منه يقول [١]

أمن طلل قفر ومن منزل عاف	عفته رياح من مشات وأصياف
ومبرك أذواد ومربط عانة	من الخيل يحرثن الديار بتطواف
ومجمع أحطاب وملقى أياصر	إذا هزهزته الريح قام له ناف
بكيت وأنت اليوم شيخ مجرب	على رأسه شرخان من لون أصناف
سواد وشيب كل ذلك شامل	إذا ما صبا شيخ فليس له شاف

والحارث بن حلزة البشكري أرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية من أوانسها الفاتنات، قد عمرتها قطعان البقر الوحشي بيضاء الظهور تبدو كأشعة الشمس في سطوعها وسكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها يقول [٢]

لمن الديار عفون بالحبس	أياتها كمهارق الفرس
لا شيء فيها غير أصورة	سفع الخدود يلحن في الشمس
أو غير آثار الجياد بأع	راض الخيام وآية الدعس
فحسبت فيها الركب أحدس في	جل الأمور وكنت ذا حدس

وفي حديث الأطلال عند أوس بن حجر تتنكر ديار أميمة بعد رحيل الأحباب، تُغيرها يد الدهر ولكنها لا تقفر إقفارا تهلع له النفس ويجف له

(١) ديوانه ٧٠.

(٢) ديوانه ٤٨.

القلب، بل تتغير هذا التغير العذب الجميل تودع فوجا من أبنائها. هم الشاعر وأحبابه وتستقبل فوجا آخر من العين والآرام، ويرسم أوس لهذه الجماعة في ديار أميمة صورة بديعة يندبها الاحساس بالجمال وترشح بالفتنة والحب العميق. . أرأيت أجمل من هذه العوذ المطافيل من بقر الوحش والظباء وقد حنت على فريق من أولادها، وانتشر حولها فريق آخر يرعى بين فطيم ودان من الفطام وناصف بين الداني والفطيم! أرأيت عين الشاعر وقد استهوتها الطفولة الجميلة والأمومة الدافئة فنسي أحزان الحب وراح يسعى بين هذه العوذ المطافيل وأولادها كأنما شغله وجه الحياة الجديد المشرق عن صورة الأمس الكابية[١]. يقول د سيد نوفل : وهذه القصيدة تدل على فنه في شعر الطبيعة فقد بدأها بالوقوف بالأطلال معددا الأماكن استجابة لدواعي الحياة البدوية[٢] يقول أوس [٣]

تنكر بعدي من أميمة صائف ... فبرك فأعلى تولب فالمخالف

فقو فرهبى فالسليل فعاذب ... مطافيل عوذ الوحش فيه عواطف

فبطن السلي فالسخال تعذرت ... فمعقلة إلى مطار فواحف

كأن جديد الدار يسليك عنهم ... تقي اليمين بعد عهدك حالف

بها العين والأرام ترعى سخالها ... فطيم ودان للفطام وناصف

وعلى طريقة شعراء الوبر المتعلقين ببيئتهم يعدد أوس بن حجر مرة ثانية المواضع التي انتقلت إليها محبوبته (تماضر) والآثار التي بقيت في الأطلال التي كانت عامرة بها فقد حل بعدها النعام ذو الغبرة والسواد الذي شبهه

(١) الرحلة في القصيدة الجاهلية ٢٤٩.

(٢) شعر الطبيعة ٨٨.

(٣) ديوانه ١١٧.

الشاعر بالجواري اللابسة الجبب؛ وهي الثياب السابغة الواسعة الكمين المشقوقة المقدم تلبس فوق الثياب، حيث وجد هذا النعام في النبات الغض المختلف الألوان خير مرتع يقول [(١)]

حلت تماضر بعدنا ربيا ... فالغمر فالمرين فالشعبا
حلت شآمية وحل قسا ... أهلي فكان طلابها نصبا
لحقت بأرض المنكرين ولم ... تمكن لحاجة عاشق طلبا
شبهت آيات بقين لها ... في الأولين زخارفا قشبا
تمشي بها ربد النعام كما ... تمشي إماء سربلت جببا

وفي حديث المرقش الأصغر عن أطلال محبوبته (ابنة عجلان) بدا متناقضا، فقد وصف هذه الأطلال بأنها لم تتعف ثم وصفها بأنها عفت. ويمكن تعليل هذا التناقض باضطراب حالة الشاعر النفسية وعدم تمالكه لمشاعره، فعندما نظر إلى أطلال حبيبته لأول مرة كانت نفسه مفعمة بالشوق والحنين فرأى رسومها باقية بعين مخيلته التي سيطرت عليها ذكريات الماضي السعيد. ولكن عندما تحولت هذه الذكريات والأشواق إلى هم وحزن ودموع، وأراد الخروج من هذه الدائرة المظلمة أخذ يعزي نفسه بأن هذه الآثار قد عفى عليها الزمن وأضحت رسوما باهته وقفارا خاوية لا تستدعي كل هذا البكاء، لأنه لا جدوى منه فهو لن يعيد إليه أحبابه الذين رحلوا ورحلت معهم جمالهم وبقي وحده يستعجل الرحيل إلى حيث رحلوا، يقول[(٢)]

---

(١) ديوانه ١ .

(٢) المفضلية ٥٧ .

لابنة عـــجـــلان بالجـورســـوم	لم يتـــعـفين والـعـهـــد قـديم
لابنة عـــجـلان إذ نحن مـــعـــا	وأي حـــــال من الدهــر تدوم؟
أمن ديار تـعـفـى رسـمـــهـــا	عينك من رسـمها ذات سـجوم
أضـحت قـفارا وقـد كـان بهـا	في سالف الدهر أرباب الهـجوم
بادوا وأصـــبـحت من بعـــدهم	أحــــبني خـــــالدا ولا أريم

وفي وصف سلامة بن جندل للطلل بدأ بسؤال وانتهى بسؤال وشتان ما بين السؤالين من الاختلاف، فالأول يفيد الاكبار والانبهار والأخير يفيد التوبيخ والاستنكار، فعندما وقف أمام أطلال محبوبته في البداية انثالت على ذهنه ذكريات الماضي السعيد فعادت هذه الأطلال بيوتا عامرة كأنها كتاب جديد تأنق كاتبه في تجبيره وأفرغ جهده في تجويده، حتى بدا الطلل الدارس منزلا جديدا أنيقا في عين الشاعر التي تراءت أمامها صورة حبيبته أسماء ذات الجمال الخلاب، وكأنها الظبية المادة عنقها ناظرة وهي أحسن ما تكون على تلك الهيئة وهذه الظبية وشبيهتها تجمعهما بيئة واحدة في الصمان من أرض هجر، وهي تجد من البقل ما تتناوله بلسانها ومن الروابي اللينة ما يعجبها، وقد وقف الشاعر أمام الأطلال يسألها وهو يعلم أنها لا تجيبه لأنها صماء، ولكن الحزن الذي أصابه جعله مذهولا وكأنه شرب من خمر عالية الجودة سقاه إياها وأكثر غلام خفيف كريم فلما استيقظ من سكرته وصحا من ذهوله بدت له الأطلال كما هي رسوما باهتة عفت عليها السنين فأصبحت كالثوب اليماني البالي الممزق فأخذ يقرع نفسه على البكاء عليها يقول : [١]

(١) ديوانه ١٥٣.

لمن طلل مـــثل الكتـــاب المنمق خلا عهـده بين الصليب فمطرق

أكب عـليــــه كـــاتب بـدواته وحـادثه في العين جـدة مهـرق

لأسمـاء إذ تهوى وصـالك إنها كذي جدة من وحش صاحة مرشق

له بقـــران الصلـب بقل يلســه وإن يتــقـــدم بالـدكـــادك يأنق

وقـفت بهـا مـا إن تبين لسـائل وهل تفقـه الصم الخوالد منطقي

فبت كـأن الكأس طال اعتـيادها عليّ بصـاف من رحـيق مـروق

كـريح ذكي المسك بالليل ريحـه يصـفق في أبريق جـعـد مـروق

ومـاذا تبكي من رسـوم محـيلة خـلاء كـسحق اليـمنة المتـمـزق

وثعلبة بن عـمرو العـبدي مغـمور في الشعـراء لكنه ترك وصفـا رائعا للديار الخالية يتلخص في أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الأرض تشبه فعل الأصباغ في زخارف البيوت، أو تشبه رسم الكاتب يخلف رسوما دقيقة وأشكالا منمقة بدواته وهو يرفع يده ويضعـها في هدوء لا تطرف عينيه ولا يتحرك جفنه كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتحبير وهذه صورة موفقه لم يقع عليها الشعراء المشهورون[١] يقول :

لمن دمن كـــأنهن صــحـــائف قفار خلا منهـا الكثيب فواحف

فمـا أحدثت فيـها العهـود كأنما تلعب بالسـمان فـيها الـزخارف

أكب عليــهـا كـــاتـب بدواته يقــيـم يديه تارة ويـخـــالف

رجا صنعه ما كـان يصنع ساجيا ويرفع عـينيـه عن الصنع طارف

(١) الوصف ٣١ - دار المعارف بمصر.

ويتحدث المخيل السعدي عن أطلال محبويته وما بقي من آثارها، كالرماد الذي حفظته الآثافي من أن تسفيه الرياح، وما تبقى من الحواجز التي ترفع حول البيت لئلا يدخله الماء، والخضرة المنتشرة في ساحة الدار من جراء المطر، حتى تحولت إلى موضع للوحش ترعى فيه الظبا والبقر وصغار أولاد المعز يقول[١]

وأرى لها دارا بأغدرة ... السيدان لم يدرس لها رسم
إلا رمادا هامدا دفعت ... عنه الرياح خوالد سحم
وبقية النؤي الذي رفعت ... أعضاده فثوى له جذم
فكأن ما أبقى البوارح وال ... أمطار من عرصاتها الوشم
تقرو بها البقر المسارب واخ ... تلطت بها الآرام والأدم
وكأن أطلاء الجآذر وال ... غزلان حول رسومها البهم

يقول د حسن عز الدين: ويلاحظ وجود صغار أولاد المعز (البهم) في مكان أنواع الحيوانات الوحشية في الطلل، ويمكن أن نفسر هذا الوجود غير المألوف للبهم بأن حياة الطفولة الناشئة في الطلل يحاول الشاعر أن يستأنسها من خلال البهم، على نحو ما يستأنس الطلل نفسه من خلال التماس بقية النؤى والرماد الهامد، وعلى نحو ما يرى في الوشم الذي يحمل دلالة مزدوجة، تعويذ الطلل وإنبات الخضرة التي ينجلي عنها المطر.[٢]

أما طرفة بن العبد فقد وقف على الديار وقد مضى عليها حول . يقول

(١) المفضلية ٢١.
(٢) الكلمات والأشياء ١٨٩.

لهند بحزان الشريف طلول　　تلوح وأدنى عهدهن محيل

يقول د عبد العزيز شحاده: يشعر القاريء بأن الشاعر يتحدث عن مشهد يلوح أمام ناظريه في حاضره، وفي ظل الاحساس بالطلل في الحاضر يتحدث عن العوامل التي جعلت الأطلال تبدو على ما هي عليه في الحاضر، وهي عوامل حدثت في الماضي[١]..

أربت بها نآجة تزدهي الحصى　　وأسحم وكان العشي هطول

فغيرن آيات الديار مع البلى　　وليس على ريب الزمان كفيل

وعن تشبيه الشاعر الجاهلي الطلل بالكتابة الباقية والباهتة يقول هذا الباحث: .. يمكن القول أن تشبيه الديار أو بعض آياتها بالكتابة هي محاولة للابقاء على الوجود الانساني المتمثل بالفعل (كتب) ومن الطبيعي أن هذا الاصرار يعكس ما يسود نفس الشاعر من نقيض لوظيفة الكتابة ذلك النقيض الذي يحسه الشاعر هو الفناء[٢] والباحث يرى أن الوضوح وعدمه في الكتابة يعكس إحساس الشاعر باجتماع الموت والحياة في الأطلال، وما ينتج عنهما من موقفين انفعاليين هما الأمل واليأس[٣].

وصف السحاب والمطر

يصف أوس بن حجر البرق ينشر ضوءه في نواحي السماء فيجعل الليل المظلم كالنهار المشرق، ويصف السحاب دانيا حتى يكاد من قام أن يمسه ويدفعه براحته لقربه من الأرض، ويذكر أنه لما مر فوق جبل شطب في ديار

(١) الزمن في الشعر الجاهلي ٨٤.

(٢) نفسه ٩٩.

(٣) نفسه.

بني تميم كان البرق يسطع فيه وكـأنما أضاء منه فرس أبلق ينكشف بياضه عند العـدو، ولم تلبث ريح الجنـوب أن هبت على أعـالي هذا السـحـاب، فاضطربت أطرافه المثـقلة بالماء فأخذ المطر ينصب منها انصبـابا، وكان الرعد يقصف في أعاليه أيضا فتهتز أسـافله وتعجز عن حمل الماء فينهمر منها المطر انهمارا، وظل البـرق يتلألأ في جوانبه فكأنه ملاء بيض منشـورة أو مصابيح معلقة في السماء، واستمر الماء ينهل من هذا السحاب ويسوق كل ما يعترضه على وجه الأرض حتى غـمر الأماكن المرتفعـة والمنخفضة فإذا من اسـتتر في بيتـه كمن كان خـارجه فكلهم قد دهمـه الماء وإذا بعضـه يتدفق في الرياض وبعضه يستقر في القيعان فتدب فيها الحياة وتعشب وتزدهر يقول (١)

إني أرقت ولم تأرق معي صاحي ... لمسـتكف بـعـيـد الـنوم لواح

قد نمت عني وبات البرق يسهرني ... كمـا استـضاء يهـودي بمصـباح

يامن لبـرق أبيـت الليل أرقـبـه ... في عارض كمـضيء الصبح لماح

دان مـسف فريق الأرض هيـدبه ... يكاد يدفـعــه من قـام بالراح

كـأن ريقـه لما عــلا شطبـا ... أقـراب أبلق ينفي الخـيل رمـاح

هبت جنـوب بأعـلاه ومـال به ... أعــجـاز مــزن يسح الماء دلاح

فـالـتج أعـلاه ثم ارتج أسـفله ... وضاق ذرعا بحـمل الماء منصاح

كـأنمـا بين أعــلاه وأســفله ... ربط منشـرة أو ضـوء مصـبـاح

ينزع جلد الحـصى أجش متـرك ... كـأنه فـاحص أو لاعب داحي

فـمن بنـجـوته كـمن بمحـفله ... والمسـتكن كـمـن يمشي بقـرواح

كـأن فـيه عـشـارا جلة شـرفـا ... شعـثا لهاميم قـد همت بإرشاح

هدلا مـشافـرها بحـاحناجـرها ... تزجي مرايعها في صحصح ضاحي

---

(١) بيئات الشعر الجاهلي ١١٥ .

فأصبح الروض والقيعانممرعة من بين مرتفق منها ومنطاح

ويصف عمرو بن قمئه المطر منذ أن كان جنينا في طوايا السحاب إلى أن يصبح غدرانا تفيض به المصانع وممسكات المياه. فقد بدأ في ساعة العشاء واستمر هطوله إلى وقت الضحى، حيث كان السحاب الأبيض القريب من الأرض يركب بعضه بعضا في وسط السماء كأنه الشعر الذي انعقدت أطرافه، وما إن هبت ريح الجنوب تحمل معها الخير العميم حتى حركت السحب، فأخذت تزمجر بصوتها المطرب وتجود بمائها الغزير، ولم تتوقف عن الأمطار إلا بعد أن سالت مجاري المياه، وأخذ أهل الحي يلقون ما في قربهم من ماء قديم ليملأوها بالجديد يقول [(١)]

فسقي منازلها وحلتها قرد الرباب لصوته زجل
أبدى محاسنه لناظره ذات العشاء مهلب خضل
متحلب تهوي الجنوب به فتكاد تعدله وينجفل
وضعت لدى الأصناع ضاحية فوهى السيوب وحطت العجل

ويصف سبيع بن الخطيم التيمي غديرا في أرض منخفضة يضطرب بفعل تحرك الرياح له، ويزداد كثافة واتساعا خلال سحابة مثقلة أطلقتها ريح الجنوب في هدأة الليل، فأخذ ماؤها المتدفق منها يملأ جوانب الغدير، ويدفع بالحصى من نواحيه، وإذا بالنبات المختلف الألوان يحف بالغدير الزاخر وكأنه رواحل ملوك حمير الزاهية الألوان يقول [(٢)]

ومسيب خصرثوى بمضلة وإذا تحركه الريا ح يزيف

(١) ديوانه ٩٤.

(٢) المفضلية ١١٢.

حلت به بعد الهدوء نطاقها مسح مسهلة النتاج زحوف
تزع الصبا ريعانه ودنت له دلح ينؤن عظامهن ضعيف
تنفي الحصى حجراته وكأنه برحال حمير بالضحى محفوف

جـ- موصوفات أخرى

وصف السلاح والحرب

يتحدث سلامه بن جندل عن رماح قومه فيصفها بأنها محددة النصال غير مجوف ثلثها الأعلى الذي يلي السنان صلبة الكعوب وهي ما بين عقد الرمح، مستقيمة لا عوج فيها لأنها قد سويت على التقاف وهي خشبة في وسطها ثقب تقوم بها الرماح إذا اعوجت لا تزيع أبدا عند تسديد الطعن بها لحسن سنها وجوده تركيب النصال فيها، وأسنتها زرق لشدة صفائها وربما تضاعف اشتداد صفائها فخالطت زرقتها حمرة، وقد جعل قوم الشاعر من نصال هذه الرماح مقيلا لليعاسيب، يريد أنهم يقتلون الرؤساء فيرفعون رؤوسهم على نصالها، وكأن هذه الرماح في أكف القوم بكرات أو حبال ملتوية وبعيدة القعر يقول (١)

بالمشرفي ومصقول أسنتها صم العوامل صدقات الأنابيب
سوى الثقاف قناها فهي محكمة قليلة الزيع من سن وتركيب
يجلو أسنتها فتيان عادية لا مقرفين ولاسود جعابيب
كأنها بأكف القوم إذ لحقوا مواتح البئر أو أشطان مطلوب

(١) ديوانه ١٠٩.

ويصف العبدي السيف فيذكره بثلاثة أسماء أولها مشرفي بحسب نسبته إلى البلد الذي صنع فيه وهي مشارف بالشام، والثاني صارم بحسب مفعوله وتأثيره وهو القطع والبتر، والثالث بحسب منظره وبهائه وهو فرند. يقول(١)

تغلبي في كفه مشرفي ... لنفوس العدا شروب أكول

صارم لورمي به الطود ... فل الطود وارتدليس فيه فلول

كاد ماء الفرند فيه ونارا ... الطبع يعلو هذي وذاك يسيل

أما أوس بن حجر فقد أعد سيفا مهندا كأن حده برق تلألأ في وسط سحاب، إذا سل من غمدة اشتد لمعان جوهره كما يلتمع إناء الشرب، وقد صنع من لجين فكأنه في التماع صفحتيه دبيب نمل صاعد وآخر نازل. يقول(٢):

وأبيض هنديا كأن غراره ... تلألؤ برق في حبي تكللا

إذا سل من جفن تآكل إثره ... على مثل مصحاة اللجين تأكلا

كأن مدب النمل يتبع الربى ... ومدرج ذرخاف بردا فأسهلا

على صفحتيه من متون جلائه ... كفى بالذي أبلي وأنعت منصلا

والكنانة التي أعد أوس بن حجر حشاها بالسهام من فروع الأشجار الغريبة، وقد تأنق فيها صانعوها وتمهلوا في صقلها، فركبت فيها النصال حمرا كجمر الغضا في يوم ريح، فلما تمت كساهن ريشا من بلاد اليمن أغبر يميل إلى السواد. يقول(٣)

---

(١) الشمتاطي: الأنوار ومحاسن الأشعار ٢٤.

(٢) الوصف ٤.

(٣) نفسه ٤٢.

وحشو جفير من فروع غرائب ... تنطع فيها صانع وتنبلا
تخيرن أنضاء وركبن أنصلا ... كجمر الغضا في يوم ريح تزيلا
فلما قضى في الصنع منهن فهمه ... فلم يبق إلا أن تسن وتصقلا
كساهن من ريش يمان ظواهر ... سخاما لؤاما لين المس أطحلا
يخرن إذا أنفزن في ساقط الندى ... وإن كان يوما ذا أهاضيب مخضلا
خوار المطافيل الملمعة الشوى ... وأطلائها صادفن عرنان مبقلا

أما قوس أوس بن حجر فقد صنعت من فرع شجرة نبتت في جبل مجلل بالسحاب على ظهر صخر أصم فاكتسب صلابته من الصخر، قطعه صاحبه في عناء كبير وخاطر في سبيل الوصول إليه، لأنه من العود النادر في صلابته و منعته فإذا بلغه قطفه وأمر شفرته عليه وأرسل سكينه وصقلها وجردها صفراء لا يعيبها قصر ولا طول، فإذا تناول الرامي هذه القوس وأنبض الوتر سمع صوتا حنونا وإذا شد السهم ذهبت بعيدا. يقول وهو أحسن ما قيل في وصف القسي(١)

ومبضوعة من رأس فرع شظية ... بطود تراه بالسحاب مجللا
فجردها صفراء لا الطول عابها ... ولا قصر أزري بها فتعطلا
كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ... ولا عجسها عن موضع الكف أفضلا
إذا ماتعاطوها سمعت لصوتها ... إذا انبضوا عنها نئيما وأزملا
وإن شد فيها لنزع أدبر سهمها ... إلى منتهى من عجسها ثم أقبلا

ويصف المفضل النكري معركة بين عبد القيس وبكر فيقول تلاقينا في وادي طريف بالبحرين وكل منا يحمل الحقد على صاحبه مثلما يحمل

---

(١) الوصف ٤٢.

صاحبه من الحقد عليه، فكانوا كأنهم السحاب المنهمر ذو القر والبرد، وكنا كأنا السيل المتدفق يضيق به الطريق، كأن النبل الذي يتساقط بين صفوفهم جراد تدفعه ريح شآمية عاتية، وقل أن نجد منهم فارساً قتيلا إلا وفيه سهم قاتل. وترى الفارس قبل أن يموت يتحرك فيها فيهتز في جسده السنان الذي يحمل إليه الموت أو القرن المحدد الذي أصابه مع السهم، وكأن أصواتنا يوم المعركة صوت أجمة تحترق، وفي كل مكان نجد بنانا مقطوعة أو جمجمة مفلوقة لواحد منا أو واحد منهم، لقد شبعت السباع من قتلانا وقتلاهم وراحت يكظمها الطعام فهي تفوق وتتجشأ. ولقد بكت نساؤنا على ما أصابنا وبكت نساؤهم على ما أصابهم، فهن لا يرقأ لهن دمع ولا يسوغ لهن ريق. وقد نجا منا ابن قران مجهدا وما كاد ينجو ، وقد أسعفته في فراره فرسه فهي فرس كريمة تشق الأرض شقا وترفع ذيلها طويلة العنق كأن عنقها جذع شجرة سامقة. يقول (١)

تلاقينا بغيبة ذي طريف ... وبعضهم على بعض حنيق

فجاءوا عارضا بردا وجئنا ... كسيل العرض ضاق به الطريق

كأن النبل بينهم جراد ... تكفيه شآمية خريق

وبسل أن ترى فيهم كميا ... كباليديه إلا فيه فوق

يهزهز صعدة جردا فيها ... سنان الموت أو قرن محيق

كأن هزيزنا لما التقينا ... هزيز أباءه فيها حريق

بكل قرارة وبكل ربع ... بنان فتى وجمجمة فليق

فأشبعنا السباع وأشبعوها ... فراحت كلها نئق يفوق

---

(١) الأصمعية ٦٩.

فأبكينا نساءهم وأبكوا | نساء ما يسوغ لهن ريق
وأفلتنا ابن قران جريضا | تمر به مساعفة حروق
تشق الأرض شائلة الذنابي | وهاديها كأن جذع سحوق

الخمر ومجالس الشراب

يصف مرقش الأصغر الخمر بأنها بمثابة الملك الذي يطول أمله أو يقصر حسب مدة مصاحبته أو مفارقته لها، وهو يستعملها في الصباح والمساء والنهار والليل، فإذا شربها صبوحا أو غبوقا حولته إلى أسد هصور وملك متوج وذي ثروة وقوة، إلا أنه عندما يكثر منها آخر الليل يفقد توازنه ويترنح في مشيه ويتمايل ويسقط، فيصبح كذكر الضبع الأعرج. وينهي الشاعر مقطوعته بتعجبه من عدم قدرته على الاستغناء عنها على الرغم من قوته وشدة عقله. يقول(١)

الزق ملك لمن كان له | والملك منه طويل وقصير
منها الصبوح الذي يتركني | ليث عفرين والمال كثير
فأول الليل ليث خادر | وآخر الليل ضبعان عثور
قاتلك الله من مشروبة | لو أن ذا مرة عنك صبور

ويصف المسيب بن علس الخمر بأنها صهباء أي صفراء ضاربة إلى الحمرة والبياض، وأن شار بها يطلب المزيد منها للذتها وأنه شرب الكثير منها حتى نفد، عاكفا على ذلك حتى الصباح وكان يمصها مصا قليلا، فيشبع بذلك حاسة التذوق، كما كان يدق آنيتها بعود السواك ليشبع حاسة السمع،

---

(١) الأصمعية ٥٢.

حيث يجد لذلك نغما مطربا ويشتاق إليها في النهار، كما في الليل الذي يقضيه في رفع قدحها وخفضه وتحريكه واهتزازه اهتزاز الطائر يقول [(١)]

وصهباء يستوشي بذي اللب مثلها　　قرعت بها نفسي إذا الديك أعتما

تمززتها صرفا وقارعت دنها　　بعود أراك بعده فترنما

يمد إليها جيده رمية الضحى　　كهزك بالكف البريّ المدوما

ويصف الأسود بن يعفر مجلس شراب أيام الفتوة والشباب أخذ منه قسطا وافرا من اللهو والمتعة، وقد توفر في هذا المجلس خالص الخمر وأجوده، وغلمان قائمون عليها يتحلون بالأقراط واللآلي، وفتيات حسناوات منعمات يشبهن البدور والدمى، وهن يمشين في المجلس يناولن الندماء أقداح الشراب الكبيرة، كما يشبههن الشاعر وهن جالسات ببيض النعام، وهن متأدبات لا ترتفع أصواتهن فيبلغن بحديثهن الهامس الحد الأقصى من التأثير يقول [(٢)]

ولقد لهوت وللشباب لذاذة　　بسلافة مزجت بماء غوادي

من خمر ذي نطف أغن منطق　　وفيّ بها لدراهم الأسجاد

يسعى بها ذو تومتين مشمر　　قنأت أنامله من الفرصاد

والبيض تمشي كالبدور وكالدمى　　ونواعم يمشين بالأرفاد

والبيض يرمين القلوب كأنها　　أدحي بين صريمة وجماد

ينطقن معروفا وهن نواعم　　بيض الوجوه رفيقة الأكباد

ينطقن محفوض الحديث تهامسا　　فبلغن ما حاولن غير تنادي

---

(١) ديوانه ١٣٣ .

(٢) المفضلية ٤٤ .

وصف قصر وحله

يصف راشد اليشكري قصره في ثاج وهي قرية بالبحرين يصفه بالطول والقوة والعلو والاتساع لا تبلغه الطير لارتفاعه، وأنه بنى من صخر قد هيئ وأصلح من عهد إرم. وهي قبيلة من عاد والعرب ينسبون كل قديم إلى عاد فهو على زعم الشاعر قد شيد من حجارة كانت قد أعدت للبناء في عصور أقدم من عصر إنشائه، مما يدل على أن هذا الحصن شيد على آثار عمران قديم على حد تعبير الشيخ حمد الجاسر(١) والشاعر يعلن أن هذا القصر بني ليكون ملاذا للخائف والمستجير، ومأوى لطالب العوض والصلة يقول (٢)

بنيت بثاج مجدلا من حجارة	لأجعله عزا على رغم من رغم
أشم طوالا يدحض الطير دونه	له جندل مما أعدت له إرم
ويأوي إليه المستجير من الردى	ويأوي إليه المستعيض من العدم

ويصف المتلمس حلة موشاه أهداها إليه عمرو بن هند تارة يشبهها بجلد الحيات المرقم، وتارة أخرى يشبهها بدويبة في العشب منقوشة بألوان شتي أو دودة تكون في البقل أيام الربيع مفصلة بحمرة وقد نسجت أطرافها من حرير الدمقس أو من القطن الفاخر، وهي تبدو كالدويبة الملونة عند ظهور الصباح وقبل بزوغ الشمس يقول (١)

إني كساني أبوقابوس مرفلة	كأنها سلخ أبكار المخاريط
محبوكة حبكت منها نمانمها	من المدقمس أو من فاخر الطوط
كأنما لونها والصبح منقشع	قبل الغزالة ألوان الحماطيط

(١) معجم الشرقية ١/ ٣٠٧.
(٢) المفضلية ٣٠٩.
(٣) ديوانه.

وربما مزج شاعر الخليج في وصفه بين الطبيعة الحية والجامدة، ويربط المخبل السعدي بين الناقة ووصف الطريق فيقول:

ومعبد قلق المجاز كبا	ري الصناع إكامه درم
للقاربات من القطا نقر	في حافتيه كأنها الرقم
عارضته ملت الظلام بمذ	عان العشي كأنها قرم
تذر الحصى قلقا إذا عصفت	وجرى بحد سرابها الأكم

فهو يمهد لوصف ناقته بقيمة حيوية لها وذلك بأن وصف وعورة طريقه ومسلكه وخطورة السير فيه، وهكذا خلع الشاعر على ذلك الطريق الوعر الصعب قيمة ناقويه.. نعم.. هو يقصد مدحها.. ولكنه في هذه الأبيات لم يمدحها إلا بعد أن زاد في بيان قسوة ووعورة الطريق الذي تسير على أديمة(١).



(١) صلاح عبد الحافظ: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ١/ ٢٤.

٢- الغـــزل

تعـريفه

الغزل والنسيب والتشـبيب كلمات متقاربة عند البـعض ومترادفه عند البعض الآخر.

فابن سيده يقول : إن الغزل تحديث الفتيات الجواري، والنسيب التغزل بهن في الشعر، والتشبـيب مثله وقال ابن منظور والزبيدي مثل ذلك. . وإذن فالنسـيب والتشبيب مـعناهما واحد، والغـزل مختلف. : يقول التـبريزي: النسيب ذكـر الشاعر المرأة بالحـسن والإخبار عن تصـرف هواهابه وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه(١). ويقول الأسـتاذ السبـاعي في التخصـيص بين هذه الألفاظ: ويحسن أن تختص مطالع الـقصائد التي تعرض لذكر المرأة باسم التـشبيب . وهذا فرق ما بينه وبين الغزل والنسيب أمـا الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن الغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف المرأة مدفوعا إلى ذلك بعقيدة أو مسوقا فيه بصناعة، والنسيب ما توجه فيه إلى ذكر الصبابة والوجد وألم الهـوى والفراق صـادرا عن وجدان وشـعور لا يكونان إلا للمـحبـين المغرمين(٢). أما قدامة بن جعفر فـهو على طريقة أهل المنطق يحب التحديد والتقنين فـيقول : إن النسـيب ذكر خلق النسـاء وأخلاقهن وتصـرف أحوال الهـوى به معـهن، وقد يـذهب على قوم أيضـا موضـع الفرق بين النسـيب والغـزل، والفرق بينهـما أن الغـزل هو المعنى الذي إذا اعتـقده الانسـان في الصبوة إلى النساء نسب بهم من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى

(١) د. الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي ٧ ، ٨ .

(٢) المصدر السابق ١٠ .

نفسه، والغزل إنما هو التصابي بمودات النساء. فعنده أن الغزل معنى وأن النسيب التعبير عن هذا المعنى أي عن الغزل. والذي نخرج به من آراء اللغويين أن النسيب هو بمعنى التشبيب وأن الغزل هو التحدث إلى النساء[١].

والغزل من الأغراض الشعرية التي راجت في العصر الجاهلي والعصور التي تلته، وهو فن التحدث إلى المرأة وإطراء جمالها وتعداد محاسنها ومفاتنها والثناء على مناقبها وهو الإعراب عن مكنونات صدر المحبين لجهة الحديث عن اللوعة لوعة الحب والهجر وحرقة الوجد والهيام والتحنان والغزل إما أن يكون عذريا بعيدا عن ربقة المادة والشهوة وألفاظه وصورة يغلب عليها التعفف والحشمة، وإما أن يكون غزلا حضريا ماديا يغلب عليه الطابع المادي وفيه الجرأة، ولا يخلو من تهتك ومغامرة ومجون. يقول د يحى شامي: وإن شئت فقل إن الغزل قد يكون نسيبا وهو أرقى أنواع الغزل وأرقها تعبيرا وأصدقها عاطفة، وإما أن يكون تشبيبا مشوبا بالنزعة المادية تكثر فيه المغامرة والعهر والتهتك والمجون[٢].

ويرى د طه حسين أن الغزل كغيره من فنون الشعر أو بعبارة أصح كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر كان العرب يبدأون قصائدهم - مهما اختلف موضوعها بوصف الطلول والنساء كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر وقلما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل[٣].

ويقسم د يحى الجبوري الغزل الجاهلي إلى ثلاثة أقسام فالأول كان

---

(١) الجبوري: الشعر الجاهلي ٢٨٠.

(١) طرفه بن العبد ٥٢.

(٣) حديث الأربعاء ٢/ ١٦ نقلاً عن شعر بني عامر للوصيفي ١٦٣.

منصرفا إلى المحاسن الجسمية وهو الطابع العام الشائع في الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة، إلا أنهم لم ينسوا الجوانب الخلقية والنفسية فقد ذكروا المرأة بالحياء والعفة والتمنع وإن لم يطيلوا في ذلك، وهناك طائفة أخرى راحت تصور ما يلقاه العاشق المحب من شوق ووجد وهيام وما يعانيه من ألم الفراق ولوعة البعاد وكيف يسهر الليل ويرقب النجوم يتغنى بخيالها ويمني النفس بزورة من طيفها . وراح فريق ثالث من الشعراء يصورون قصص الحب وما يتساقاه الأحبة من كؤوس الحب والوصال وما يسقاه المحب من كؤوس الصد والهجر، كل ذلك في شعر أصيل صادق فيه عفة ونبل تصونه المثل العليا وتحوطه القيم الجاهلية في المروءة والشرف[١] .

وحين نطبق هذا التقسيم على غزل شعراء الخليج الجاهليين نجد البعض منه يصنف في القسم الأول، والكثير منه يصنف في القسم الثاني، وأما الأقل منه فيصنف في القسم الثالث. ويمكن أن نضيف إلى ذلك قسما رابعا يجمع بين تلك الأقسام أو بعضها.

أ- الغزل الحسي:

فمن اللون الغزلي الأول تشبيب طرفة بن العبد بخوله وهي التي وقف بعد طول غياب عند أطلالها ببرقة ثهمد، وما خوله هذه سوى الشمس في نضارة الوجه والتماعة الخدين ونقاوة اللون، خولة هذه التي إن ابتسمت فإنما تبتسم عن فم نضدت فيه أسنانه فهي من أشر كالأقحوان، وما خوله إلا شادن الحي من الغزلان أو الظبية من الظباء في حوة شفتيها ولما هما وفي الجيد والعينين[٢] . يقول من معلقته

(١) الشعر الجاهلي ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢.

(٢) د. يحيى الشامي: طرفة بن العبد ٥٣.

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن ... مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعي ربربا بخميلة ... تناول أطراف البرير وترتدي
وتبسم عن ألمي كأن منورا ... تخلل حر الرمل دعص له ندي
سقته إياة الشمس إلا لثاته ... أسف ولم تكدم عليه بإثمد
ووجه كأن الشمس حلت رداءها ... عليه نقي اللون لم يتخدد

ويصبر مرقش الأكبر نفسه على رحيل محبوباته ويصرفها عن التفكير في مصيرهن ومصيره معهن، مع أنه تعلق بهن علاقة الصبا، وكيف يتسلى عنهن وقد خلبن قلبه حبا بخصورهن الرقيقة، والحزن لا يعرف إليهن سبيلا، ناعمات مترفات أبكار غريرات ممتلئات مشرقات الوجوه لينات الأعناق في آذانهن قروط مضطربة مذهبة رائعة، وحين ارتحلن اجتنبهن ووقف بعيدا عنهن خوفا من أن يتلهين عنه بأنفسهن ورحيلهن، أحاديثهن مؤنسة تبعث النشوة في نفس سامعها ومن يتاح له أن يحظى بها، وهن لا يود عنها إلا عند من يصونها، ويلم في النهاية بصورة نادرة إذ وصف نزولهن من هوادجهن المزخرفة التي تداعب الرياح أطرافها في حجور الإماء اللائي سبقن لاستقبالهن بعد أن ضربت الخيام لهن[1] يقول:

الابان جيراني ولست بعائف ... أدان بهم صرف النوى أم مخالفي
وفي الحي أبكار سبين فؤاده ... علالة ما زودن والحب شاعفي
دقاق الخصور لم تعفر قرونها ... لشجو ولم يحضرن حمي المزالف
نواعم أبكار سرائر بدن ... حسان الوجوه لينات السوالف

---

(١) د. حسين عطوان: مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي ١٣٨.

يهدلن في الأذان من كل مذهب ... له ربذ يـعـيـا بـه كل واصف
إذا ظعن الحي الجميع اجتنبتهم ... مكان النديم للنجي المساعف
فـصرن شـقـيـا لا يبالـين غيـه ... يعـوجن من أعنـاقـهـا بالمواقف
نشـرن حـديثـا آنسـا فـوضـعنه ... خفـيضا فـلا يلغي به كل طائف
فلمـا تبنى الحي جـئن إلـيـهم ... فكان النزول في حـجور النواصف
تنزلـن عن دوم تهف مـتـونه ... مـزينة أكنافـهـا بالزخـارف

ويوجه المسيب بن علس توبيخه لنفسه على قطيعته حُبيبته (فتر) وإمعانه في هجرها على الرغم من تنصلها من موجبات القطيعة وتأكيدها البراءة مما نسب إليها باليمين، ويصور إعجابه بها من خلال تشبيهه لها بالغزالة في نظراتها ولفتاتها وبالجمانه، وهي الدرة الكبيرة في بياضها وصفائها وصيانتها وصعوبة منالها، كما يشبه مذاق ريقها بالزنجبيل في حرارته وبخالص الخمر المزوج بالعسل المصفى في الحلاوة والتأثير يقول [(١)]

أصـرمت حبل الـوصل من فتـر ... وهجـرتها ولججت في الهجر
وسـمعت حلفـتهـا التي حلفت ... إن كـان سمـعك غـير ذي وقـر
نظـرت إليـك بعين جـازئة ... في ظـل باردة مـن السـدر
كـجـمـانه البـحـري جاء بهـا ... غـواصـهـا من لجـة البـحـر
فلتـلك شـبـة المالكيـة إذ ... طلعت ببـهـجـتـهـا من الخـدر
وكـأن طـعم الزنجـبـيل به ... إذ ذقـتـه وسـلافـة الخـمـر
شـركـاء بماء الذوب يـجـمـعـه ... في طود أيمن فـي قـرى قـسـر

---

(١) المفضليه ٥٠.

(١) ديوانه ١٠٠.

ويؤنب المسيب نفسه على رحيله قبل طلوع الفجر عن حبيبته سلمي دون أن يأخذا حظهما من المتعة والسعادة، ويشعر الشاعر أنه كان قاسيا في هذا الرحيل الذي أفزعها، فقد كان وصالها له قويا ومحبتها له أكيدة وهو مفتون بها وبجبينها الواضح في سعة وبريق وبثناياها العذبة المذاق، وإن تأثيرها في نفسه يشبه تأثير الخمرة الجيدة الصنع الممزوجة بماء الأنهار العذبة أو ماء السحاب النقي البارد. ويبدو أن الشاعر غلب الحكمة على الصبوة في ذلك الهروب، فطالما أعجب النساء بجماله وشبابه، فآن له أن يفيء إلى ظل الحكمة والرشاد يقول (١)

أرحلت من سلمى بغير متاع ... قبل العطاس ورعتها بوداع

من غير مقلية وإن حبالها ... ليست بأرمام ولا أقطاع

إذ تستبيك بأصلتي ناعم ... قامت لتفتنه بغير قناع

ومها يرف كأنه إذ ذقته ... عانية شجت بماء وقاع

أو صوب غادية أدرته الصبا ... ببزيل أزهر مدمج بسياع

فرأيت أن الحكم مجتنب الصبا ... وصحوت بعد تشوق ورواع

ويشكو المسيب من ليلى ذات الشباب الدائم والتي أفسدت عليه حياته بسبب دلها وصدودها مع شدة عشقه لها وولعه بها، فهي في عبثها وتلاعبها به كالغزالة العابثة والمتلاعبة بوليدها، ففيها من تلك الظبية الشاردة عيناها السوداوتان وعنقها المرمري الطويل، وفي ثناياها من العذوبة والسحر ما في الخمرة الخالصة، وهو يتعجب من تذكره لها وقد أدركه الشيب وهو يعرف أن

---

(١) ديوانه ١١١ .

الرجال في مثل هذه السن غير مرغوب فيهم من قبل النساء الحسان، يقول[١]

كلفت بليلى خدين الشباب   وعالجت منها زمانا خبالا
لها العين والجيد من مغزل   تلاعب في القفرات الغزالا
كأن السلاف بأنيابها   يخالط في النوم عذبا زلالا
وكيف تذكرها بعد ما   كبرت وحل المشيب القذالا
فدع عنك ليلى وأترابها   فقد تقطع الغانيات الوصالا

وقد يدخل الشاعر الخمر والمسك في ريق صاحبة الطيف مفضلا ريقها على هذه الخمرة المختلطة بالمسك، أو مصرا على هذا الإختلاط كلما ذاق ريق محبوبته، وبغيره من الروائح الزكية بحيث تشمل أو تحيط هذه الصفة الحسية بالصورة[٢]. قال نهشل بن حري .

طرقت أسيماء الرحال ودونها   ثنيان من ليل التمام الأسود
ومفاوز وصل الفلاه جنوبها   بجنوب أخرى غير أن لم تعقد
رمل إذا أيدي الركاب قطعنه   قرعت مناسمها بقف قرقد
وكأن ريح لطيمة هندية   وذكي جاوي بنصع مجسد
وندى خزامي الجوجو سويقة   طرق الخيال به بعيد المرقد

ويشكو ربيعة بن مقروم من بينونه سعاد عنه وخلفها لمواعيده، وما تركه

(١) ديوانه ١٢٦ .

(٢) حسن عز الدين: الطيف والخيال في الشعر العربي القديم ١٢٨ - دار المناهل.

ذلك من ألم وحزن في نفسه، ورغم هذا فإن الشاعر لم يستطع إخفاء إعجابه بها، فقد كانت في جمالها ورشاقتها وري عودها كالظبية البيضاء التي تعيش في بيئة خصبة، وكان لها شعر طويل يتدلى على ظهرها يشبه في كثافته وسواده عناقيد العنب، وكان فمها باردا طيب الرائحة وأسنانها صافية رقيقة ذات ماء يترقرق كالشهد يقول(١)

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا	وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا
كأنها ظبية بكر أطاع لها	من حومل تلعات الجو أو أودا
قامت تريك عداة البين منسدلا	تخاله فوق متنيها العناقيدا
وباردا طيبا عذبا مقبله	مخيفا متنه بالظلم مشهودا

ومن الغزل القائم على وصف محاسن المرأة قول عدي بن وداع الأزدي(٢)

وحور قد خزرت لهن طرفي	لذيذات المودة والعناق
يدفن الزعفران على خدود	نواعم لا كلفن ولا بهاق
كأن وجوههن متون بيض	جلتها الشمس في ذر الشراق
لذيذات الشباب مخصرات	مخاصرهن في نشر رقاق

فقد وصف جمالهن بصفرة الخدود ونعومتها وصفائها ونقاوتها، مع بياض أخاذ في الوجوه، ونحول في الخواصر، ونضارة في الشباب، وأشار من خلال ذلك إلى جمال عشرتهن، ورغم كل هذه المفاتن فيهن، فإنه يجاهر بعدم انصياعه لهن أو خضوعه لجمالهن الآسر.

---

(١) المفصلية ٤٣ .

(٢) شعراء عمان في الجاهلية والإسلام ٦٣ .

ب- الغزل الوجداني:

ومن اللون الغزلي الثاني هذه الأبيات التي عبر فيها طرفه بن العبد عن مشاعره وقد استبد به الشوق إلى خوله، وكيف السبيل إليها ودون ذلك مهامه وبسابس وأهوال أقلها الضرب في الفلوات طويلا، وأنى له اللقاء: لكن لا بأس بزيارة خيال خوله ولو لدقائق في المنام، فإن في هذه الزيارة ما يخفف من العناء ويطفيء من نار الشوق والوجد، ويتذكر الشاعر كلما مر بالديار ديار خوله بعضا من نعيمات أيامه الخالية يتذكرها والعين تدمع والقلب موجع، وحبذا ذلك اليوم من أيام جرثم أيام الصفاء واللقاء والهناء. يقول طرفه من قصيدة بدأها بذكر الطلل ثم بالغزل(١)

إذا قلت هل يسلو اللبانة عاشق	تمر شؤون الحب من خولة الأول
وما زادك الشكوى إلى متنكر	تظل به تبكي وليس به مظل
متى تر يوما عرصة من ديارها	ولو فرط حول تسجم العين أو تهل
فقل لخيال الحنظلية ينقلب	إليها فإني واصل حبل من وصل
ألا إنما أبكي ليوم لقيته	بجرثم قاس كل ما بعده جلل
إذا جاء ما لابد منه فمرحبا	به حين يأتي لا كذاب ولا علل
ألا إنني شربت أسود حالكا	إلا بجلي من الشراب ألا بجل
فلا أعرفني إن نشدتك ذمتي	لداعي هديل(٢) لايجاب ولا يمل

ويصف عمرو بن قمئه ظعن الأحبة معبرا من خلال هذا الوصف عن مشاعره، فقد شعر بالفزع الشديد عندما سمع بإعلان الرحيل وأخذ سائقا النوق المكتملة السن والجمال يحثان القوم للتأهب للرحلة في الصباح وكلما

---

(١) طرفة للشامي ٥٣ وديوان طرفه ٦١.

(٢) هديل: فرخ حمام تزعم العرب أنه كان على عهد نوح، فمات عطشا أو صاده جارح، فكل حمامة تبكي عليه ولا تمل وتدعوه ولا يجيب (ديوان طرفه) المكتبة الثقافية - بيروت.

بليت نعال حوافر الرواحل من طول السير البست نعالا أخر، والشاعر يعترف أن أحبابه عندما بعدو عنه لم يستطع إيقاف العبرات التي أخذت تتساقط من عينيه بلا توقف وكلما رأى الإبل تسرع في السير زاد أسى وحسرة وقلقا وخوفا على ما تتعرض له حبيبته من حر شديد بعد الظل المديد ونوم غير مريح في الهوادج والرحال بعد الأسرة والستور في البيت يقول[١]

وقد ريع قلبي إذ أعلنوا وقيل أجد الخليط احتمالا
وحث بها الحاديان النجاء مع الصبح لما استثاروا الجمالا
بوازل تحدى بأحداجها ويحذين بعد نعال نعالا
فلما نأوا سبقت عبرتي وأذرت لها بعد سجل سجالا
تراها إذا احتثها الحاديا ن بالحنبت يرقلن سيرا عجالا
فبالطل بدلهن بعد الهجير وبعد الحجال الفن الرحالا

وفي قصيدة أخرى يقول عمرو بن قمئة أيضا في حديث الظعن[٢]

إن قلبي عن تكتم غير سالي تيمتني وما أرادت وصالي
هل ترى عيرها تجيز سراعا كالعدو لي رائحا من أوال
نزلوا من سويقة الماء ظهرا ثم راحوا للنعف نعف مطال
ثم أضحوا على الدثينة لا يأ لون أن يرفعوا صدور الجمال
ثم كان الحساء منهم مصيفا ضاربات الخدور تحت الهدال

ويعلق د وهب روميه: من هذه الفاتنة التي تيمت الشاعر ثم ضنت

(١) ديوانه ١٠٧.

(٢) ديوانه ٦٠.

عليه بالوصال فعلق حبها بقلبه لا يريم! ومن ذا العاشق العاقل في مدينة العشق المجنونة؟ بل من ذا العاشق الخائب الذي يتعزى بصروف الدهر: لقد لوت الأيام عودة الفارع وأقصدته سهامها وصار هذا الفتى الجميل كما يصير كل الناس إلى منزل الشيخوخة البارد الضيق أو هو في سبيله القريبة إليه، ولكن حبيبته لا تزال في نضارة الشباب تفرق مما أصابه وتتعجب، لقد تغير عمرو الجميل ولكن عشق الحياة ظل عالقا بقلبه المفتون، عشقها دهرا غير قليل فتمكنت من قلبه ثم تحولت عنه فوقف يرقبها بعينين دامعتين وهي تجد السير إلى أرض أخرى وقوم آخرين هذا هو الشباب المولي وهذه هي الحياة- الصبية الحسناء التي تنتقل من عاشق إلى عاشق لا تزداد على الدهر إلا جمالا وصبا وما أسرع ما تتنكر لمن فارق الشباب وتتعجب منه ثم تتحول عنه في غير أسى.. وإن حبيبة الشاعر هي الحياة نفسها وإن ظعائنه التي يرقبها - وقد رفعت عنه من صدور الجمال - هي هذه الحياة التي تبتعد عنه تسير وتجد في السير كلما اقترب من الشيخوخة [(١)].

وللمرقش الأكبر قصيدة استهلها بالسؤال عن ظعن تطفو على صفحة الرمال كأنها شجر الدوم أو السفن العظام، سابحات بين بطن وادي الضباع شمالا وسفح النعاف بحصاه ورماله يمينا، وتلوح هوادجها على ظهور إبل فتية مذللة، وهي هوادج مكللة بثياب اليمن المزركشة الجميلة التي تسلب الأفئدة والألباب إلى هوادج أخرى على ظهور ضامرة قوية مدربة، وهي قاصدات إلى موضع يقال له سمسم جادات في السير لا يلتفتن ولا يستمعن لأصوات المحزونين ممن شغفن قلوبهم يقول[(٢)]

---

(١) الرحلة في القصيدة الجاهلية ٢٨٢ - مؤسسة الرسالة.

(٢) ديوانه ١٤٢ والمفضلية ٤٨.

لمن الظعن بالضحى طافيات ... شبهها الدوم أو خلايا سفين
جاعلات بطن الضباع شمالا ... وبراق النعاف ذات اليمين
رافعات رقما تهال له العيـ ... ـن على كل بازل مستكين
أو علاة قد دربت درح المش ... ية حرف مثل المهاة ذقون
عامدات لخل سمسم ما ين ... ظرن صوتا لحاجة المحزون

ويطلب المرقش الأصغر من رفيقه أن يمعن النظر في ظعائن محبوبته التي خرجت مسرعة، وقد ركبن إبلا عظاما ومراكب وافيه واسعة، ورحلن من الوريعة في الخليج العربي بعد ما ارتفع النهار وهن لابسات أغلى الحلي والجواهر من ذهب وياقوت ودر ولؤلؤ وخرز ثمين، وسرن من خلال القرى سالكات منعطف الوادي مخلفات قو في أعالي الصمان وعادلات عنه ومجتازات أطراف الطرق في الجبال يقول[١] :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن ... خرجن سراعا واقتعدن المفائما
تحملن من جو الوريعة بعد ما ... تعالى النهار واجتزعن الصرائما
تحلين ياقوتا وشذرا وصيغة ... وجزعا ظفاريا ودرا توائما
سلكن القرى والجزع تحدى جمالهم ... ووركن قوا واجتزعن المخارما

ويرسم المرقش الأصغر صورة صغيرة لمعاهد بنت عجلان وقد خلت من الأنيس وتحولت إلى مرابع للظباء نتجت فيها وأخذت تنتقل هي وسخالها في ساحاتها بينما تبدو البقر وجآذرها ذات الألوان المختلفة في وديانها. ويمضي يصور طيفها وكيف يهتدي إليه ويلم به في كل منزل ينزل فيه يداعبه قليلا، حتى إذا ما أفاق لم يجد شيئا غير رحله، أما هو فمضى وولى مسرعا بعد أن أيقظه وخلف له الأحزان تدمي قلبه، ويود لو يظل خيالها ملما به

(١) المفضلية ٥٦.

حين يزوره إلى الصباح، وإذا ما انتهى من وصف طيفها مر مرورا سريعا على يوم الوداع وما سفحه فيه من دموع وفضل ريقها على خمر معتقه مصفاه يقول(١)

أمن رسم دارماء عينيك يسفح ... غدا من مقام أهله وترحوا
تزجي بها خنس الظباء سخالها ... جآذرها بالجو ورد وأصبح
أمن بنت عجلان الخيال المطرح ... ألم ورحلي ساقط متزحزح
فلما انتبهت بالخيال وراعني ... اذا هو رحلي والبلاد توضح
ولكنه زور يبقظ نائما ... ويحدث أشجانا بقلبك تجرح
بكل مبيت يعترينا ومنزل ... فلو أنها إذ تدلج الليل تصبح
فولت وقد بثت تباريح ما ترى ... ووجدي بها إذ تحدر الدمع أبرح

ويصف الممزق العبدي شعوره عند ارتحال أحبته فيبين أن قلبه المهتاج قد تيقظ من ميله للهو والهوى ساعة دخول حبيبته في هودجها ورحيلها مع قومها في الصباح الباكر وسير الابل بهم في اتجاه الوادي تحمل أثقالهم، وإن الناظر لهم من بعيد يراهم وكأنهم قد لبسوا أقمصة من السراب تلمع وتتلألأ، وقد أغاظه هذا المنظر أشد الغيظ وما عاد شيء يقدر على إطفائه وإزاحته من صدره المهموم سواء أكان ماء نقيا متحدراً من السحاب أو خمرا مصفى. يقول(٢).

صحا من تصابيه الفؤاد المشوق ... وحان من الحي الجميع تفرق
وأصبح لا يشفي غليل فؤاده ... قطار السحاب والرحيق المروق
لدن شال أحداج القطين غدية ... على جلهة الوادي مع الصبح توسق
تطالع ما بين الرجى فقرا قر ... عليهن سربال السراب يرقرق

(١) المفضلية ٥٥.
(٢) المفضلية ص ١٣٠.

ويتمنى المتقب العبدي لو كان لقلبه أذن تسمع أو عين تبصر لتساعداه في إيقاف هذا النزيف الغزير من الدموع المخضبة بالدماء التي يتواصل هطولها كلما نظر إلى ظعائن الأحبة تعلو الهضاب والحزوم، وقد تغطت هوادجهن بالثياب الملونة والبسط الصوفية والوشي المخطط ذي اللون الأحمر يقول[١]

هل لهـذا القلب سمع أو بصـر	أو تناه عـن حـبـيب يـدكــر
أو لدمع عـن سـفـاه نهـيـة	تمتــري منه أســابـي الدرر
مـرمـعـلات كـسـبـطي لؤلؤ	خـذلت أخـراته فـيـه مـغـر
إن رأى ظعـنا للـيلى غـــدوة	قـد عـلا الحـزمـاء منهن أسـر
قـد علت من فـوقـهـا أنماطهـا	وعلى الأحـداج رقم كـالشـقـر

ويعاتب المنقب حبيبته هندا فيذكر أن محبتها القويةلـه قد ضعفت، بدليل أنها بخلت عليه بالوداع ساعة الرحيل، على الرغم من أن ذلك أمر هين لا يكلفها شيئاً، ويتمنى لو أنها بقيت على العهد القديم من الود والانسجام والمعاملة بالمثل، حيث تغلبه تارة ويغلبها تارة أخرى، ولكنها من الناس الذين يستزلهم ويغرهم أدنى ملاطفة وبشاشة فيرجعون عما قدموه زهدا في الأول يقول[٢]

ألا إن هندا أمس رث جـديدها	وظنت وما كـان المتاع يؤدها
فلو أنهـا من قـبل جـادت لنابه	على العهد إذ تصـطادني وأصيدها
ولكـنهـا ممـا تميـط بودهـا	بشـاشـة أدنى خلة تسـتفـيـدها

(١) ديوانه ٦٢.

(٢) ديوانه ٨٣.

وتقف مقدمة المثقب العبدي لقصيدته النونية علما شامخا بين تلك المقدمات التي يصف فيها الشعراء الظعن لعذوبتها ورقتها، وبعد فاتحتها التي عبر فيها عن صادق حبه، مضى يصف الطريق الذي سلكته القافلة في شعاب الصحراء بدقة ووضوح، إذ تراءت له في صبيب وسرعان ما توارت في وديانه، ولم تخرج منها إلا بعد جهد جهيد إلى طريق بين شراف و ذات رجل عن الشمال والذرانح عن اليمين ولما جاوزت فلجا بدت له الظعن مرة ثانية كأنها السفن العظيمة يقول[1]

لمن ظعن تطلع من ضبيب ... فما خرجت من الوادي لحين

تبصر هل ترى ظعنا عجالا ... بجنب الصحصحان إلى الوجين

مررن على شراف فذات هجل ... ونكبن الذرائح باليمين

وهن كذاك حين قطعن فلجا ... كأن حدوجهن على سفين

يشبهن السفين وهن بخت ... عراضات الأباهر والشؤون

ويسأل المثقب غانيته الحسناء أن تبل فؤاده الصديان بنهلة واحدة من وصالها، ويعدها بحسن الثواب على أيدي أهل مودته، فإن لم يفعلوا فسيكافئها هو حتى يصيب تلك النهلة، ولكن محبوبته وهي التي تعيش في برج عاج عصي المنال عرضت على الشاعر طلبا يفوق الطاقة، فهي تريد منه أن يدفع إليها كل صباح حتى آخر العمر بدرا من الذهب الخالص ليست موجودة إلا في خزائن ملك يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأنعام أو أن يسوق إليها مائة من حمر النعم الغالية الثمن عدا صغارها، وهي تعلق حصوله على تلك النهلة بأن يحقق ما طلبت وقت لم يجد عهدا

(١) مقدمة القصيدة الجاهلية ١٨٨ .

وثيقا تجوز به من قبيلة إلى قبيلة بين موضعي الخل والأوبد المخيفين يقول [(١)]

هل عند غان لفؤاد صد　　من نهلة في اليوم أو في غد
يجزي بها الجازون عني ولو　　يمنع شربي لسقتني يدي
قالت ألا لا يشتري ذاكم　　إلا بما شئنا ولم يوجد
إلا ببدري ذهب خالص　　كل صباح آخر المسند
من مال من يجبي ويجبى له　　سبعون قنطارا من العسجد
أو مائة تجعل أولادها　　لغوا وعرض المائة الجلمد
إذ لم أجد حبلا له مره　　إذ أنا بين الخل والأوبد

ويصور المفضل النكري حنينه إلى جيرته قوم سليمي الذين رحلوا عنه وخلوه لأحزانه وأشواقه، فدمعه يجري فلا ينقطع وقلبه مشوق إلى ذكراها وقد ساق في ذلك وصفا لها ولحديثها وهو حديث يأسر المستمع ثم يطلب وداعها رغم ما في حديثها من طيب. يقول [(٢)]:

ألم تر أن جيرتنا استقلوا　　فنيتنا ونيتهم فريق
فدمعي لؤلؤ سلس عراه　　يخر على المهاوي ما يليق
عدت ما رمت إذ شحطت سليمى　　وأنت لذكرها طرب مشوق
فودعها وإن كانت أناة　　مبتلة لها خلق أنيق
تلهي المرء بالحدثان لهوا　　وتحدجه كما حدج المطيق

ويشكو المسيب بن علس من ظعن الحبيبة في وقت مبكر ورحيلها إلى مكان بعيد، الأمر الذي أدى إلى مرضه وسقمه لفقده محبوبته التي يصفها

---

(١) ديوانه ١٠.
(٢) الأصمعية ٦٩.

بأنها ناعمة رخصة ذات أسنان بيضاء يترقرق ريقها اللماع بين ثناياها.

ويتابع الشاعر مسيرة الظعائن وهي تسرع في المشي فيراها من بعيد من خلال السراب كزهو النخيل ما بين الأصفر والأحمر، وقد زينت الهوادج بأثواب الوشي والخز والستور الرقيقة ذات الأهداب المتدلية التي يغلب عليها اللون الأحمر، وهذه الظعائن تشبه في جمالها ورشاقتها قطيع بقر الوحش. يقول (١)

بكرت لتحزن عاشقا طفل	وتباعدت وتخرم الوصل
أو كلما اختلفت نوى وتفرقوا	لفؤاده من أجلهم تبل
وإذا تكلمنا ترى عجبا	بردا ترقرق فوقه ضحل
ولقد أرى ظعنا أخيلها	تخدي كأن زهاءها نخل
في الآل يخفضها ويرفعها	ريع كأن متونه سحل
عقما ورقما ثم أردفه	كلل على أطرافها الخمل
كدم الرعاف على مآزرها	وكأنهن ضوامرا أجل

وكان لقيط بن زراره سيد بني دارم قد تقدم لخطبة ابنة ذي الجدين سيد بني شيبان بناء على نذر قطعه على نفسه أمام أبيه، عندما كان يمشي في خيلاء فقال له: كأنك أتيت بابنة ذي الجدين، ففعل وحصل على موافقة أبيها قيس ابن مسعود وبنى بها في ديار أهلها، ثم عاد إلى بلاده في هجر بمفرده، وبعث بها أبوها إليه مع أخيها بسطام بن قيس، فخرج لقيط مع ابن عمه قراد في استقبالها وأخذ يتغنى بهذه الأبيات التي سجل فيها مشاعره الجياشة وأن ديار قومه قد أثارت حزنه بعد فراقه عن محبوبته إلا أن هؤلاء القوم وهو

(١) ديوانه ١٢٢.

على رأسهم يستعدون لاستقبال جارته وأهلها النائين، ثم يعبر الشاعر عن شدة تعلقه بحبيبته ولهفته القوية إلى لقائها طالبا من رفيقه أن يمعن النظر فيما حوله لعله يجد ظعائن تسير عبر شقائق الدهنا ومسالكها الصلبة بين رمالها الكثيفة ففي وسط هذه الظعائن تكون محبوبته المنعمة ذات الدل والجمال وقد تضمخت بأجود العطور وغطت صدرها بالدر والمرجان، وأخيرا يبدي الشاعر تعجبه من وصول الحبيب إلى الديار خلال الليل الدامس الظلمة، رغم اختفاء كل المعالم الدالة على الطريق ولكن قلب المحب خير دليل وأفضل مرشد. يقول[١]

هاجت عليّ ديار الحي أشجانا	واستقبلوا من نوى الجيران قربانا
تامت فؤادك لم تقض الذي وعدت	إحدى نساء بني ذهل بن شيبانا
فانظر قراد وهل في نظرة جزع	عرض الشقائق هل بينت أظعانا
فيهن جارية نضح العبير بها	تكسي ترائبها درا ومرجانا
كيف اهتديت ولا نجم ولا علم	وكنت عندي نؤوم الليل وسنانا

وينكر أوس بن حجر على نفسه ميلها إلى اللهو وشوقها إلى النساء وهو في سن الشيخوخة، رغم علمه بصدودهن عمن كان في مثل هذه السن، ولكن ماذا عساه أن يفعل وقد فارقته زينب وقلبه عندها فأوس يرافقه أي يداريه، ولهذا نراه يتابع خط سيرها وتنقلها من موضع إلى موضع بعينيه وبخياله يقول[٢]

---

(١) طبائع النساء لابن عبد ربه ٣٠.

(٢) ديوانه ٥.

صبوت وهل تصبو ورأسك أشيب ... وفـــاتتك بالرهن المـرامق زينب

وغيـرها عن وصلها الشـيب إنه ... شفـيع إلى بيض الخـدور مدرب

فلمـــا أتي خــزان عــرد دونــهـا ... ومن ظلم دون الظهـيـرة منكب

تضـمنهـا وارتــدت العين دونهـا ... طريق الجـواء المستنيـر فمـذهب

ويشكو ربيعة بن مقروم من تذكر الأحباب وما يثيره هذا التذكر من ألم وحسرة بغـيابهم وانقطاع الصلة بهم، حيث حل الشـاعر وأهله بفلج - وهو جزء من أجزاع وادي السنار بالخليج العربي- كما حل قسم منهم بالأباتر مع بني أسد قـبل فلح، على حين حلت حبـيبتـه زينب غمره ومـثقب عند شط البحر، وإذا كان شـيب الشاعر وما صاحبه من ضـعف وراء هذا الغياب فإن من حقه أن يعـرض أمام زينب قوته وسطوته أيام الشباب حـيث يجد العزاء في ذلك الماضي الزاهر فهو يقول : تركت لحاجـتي لشيبي وكنت أباء عليهن أن أقبل عذلهن فلما شبت أطعتهن إما تريني تركت لجاجتني فيارب خصم قد كفيت مدافعته يقول(١)

تذكرت والذكـرى تهيـجك زينبا ... وأصبح باقي وصلهـا قد تقضـبا

وحل بـفلج فـــــالأبـاتر أهلـنا ... وشطت فـحلت غمـرة فمـثقـبا

فـإما تريني قـد تركت لجاجـتي ... وأصبحت مبيض الـعذارين أشيبا

وطاوعت أمر العاذلات وقد أرى ... عليـهن أبا الـقـرينة مـشـغـبـا

فيـارب خصم قد كـفيت دفـاعه ... وقـــومت مـنه دراه فـــتنـكبـــا

جـ- الغزل القصصي:

ومن اللون الغزلي الثالث وهو ذو الملمح القصـصي دالية مرقش الأكبر

---

(١) المفضلية ١١٣.

التي يطلب فيها من ابنة عمه (أسماء) أن تنجز ما وعدته به من جميل الوصال، وأن تزوده بما يحفظ له الحياة فهو ينظر إليها على أنها تملك سر الحياة وأكسير الوجود وبدونها يكون الموت والعدم، ولذلك فإنه يعدها بالمجاهدة والمجالدة في سبيل الوصول إليها أينما كانت وحينما وجدت، حيث تكون الحياة معها ويكون الموت في البعد عنها. ثم يشير إلى قصة انتقالها من الشا م إلى اليمن عندما زوجها عمه بالمرادي ناكثا وعده معه، وأنه سيرحل مع صحبة بخيلهم وجمالهم، فهو أسير حبها وإذا لم تسارع لنجدته فسوف يذهب ضحية هذا الحب. يقول[١]

قل لأسماء أنجزي الميعادا	وانظري أن تزودي منك زادا
أينما كنت أو حللت بأرض	أو بلاد أحييت تلك البلادا
إن تكوني تركت ربعك بالشا	م وجاورت حميرا أو مرادا
فارتجي أن أكون منك قريبا	فاسألي الصادرين والواردا
وإذا ما رأيت ركبا مخبيـ	ن يقودون مقربات جيادا
فهم صبحتي على أرحل العيـ	س يزجون أنيقا أفرادا
وإذا ما سمعت من نحو أرض	بمحب قد مات أو قيل كادا
فاعلمي غير علم شك بأني	ذاك وابكي لمصفد أن يفادا

ومن هذا اللون لامية طرفه التي مطلعها[٢]

أتعرف رسم الدار قفرا منازله   كجفن اليمان زخرف الوشي ماثلة

(١) المفضلية ١٢٩.

(٢) ديوانه ٧٦.

حيث بدأ بالحديث عن أطلال محبوبته (سلمى) وما أثارته من ذكريات جميلة، عندما كانت تسقيه كؤوس الوصال العذبة وتسارقه النظرات الفاتنة الوالهه وقد عاشا معا حياة مفعمة بالهناء والنعيم ثم، يشير إلى طيف خيا لها الذي سما إليه قاطعا مسافات طويلة وقرى عديدة وصحارى شاسعة، خيم عليه وسلب عقله فكان حالة كحال المرقش مع حبيبته أسماء، وهنا يعرض باختصار قصة الحبيبين، وأسماء هي بنت عوف عم المرقش الشاعر وكان وعده بأن يزوجه إياها ثم زوجها إلى رجل مرادي في غياب المرقش، فلما عاد الشاعر من سفره قيل له إنها ماتت، وكان المرادي قد رحل بزوجته إلى اليمن فلما علم المرقش بذلك خرج من العراق في طلبها فمرض في الطريق بعد أن داني أرضها، ومر به راع لزوجها وهو منطرح عياء، فأعطاه الشاعر خاتمه فأخذه هذا لأسماء فأسرعت إليه مع زوجها واحتملاه إلى منزلهما فأقام زمنا يمرضانه حتى مات قبل أن يتحقق له ما أراد، وهنا يشبه طرفه حالة مع سلمي بحال عمه مع أسماء فكلاهما لم يلتمسا سوى العناء من حبها، فالمرقش هلك بسبب هذا الحب وطرفه أشرف على الهلاك بعد أن خولط في عقله. يقول في الجانب المتعلق بقصة المرقش

كما أحرزت أسماء قلب مرقش	بحب كلمح البرق لاحت مخايله
وأنكح أسماء المرادي يبتغي	بذلك عوف أن تصاب مقاتله
فلما راي الاقرار يقره	وأن هوى أسماء لابد قاتله
ترحل من أرض العراق مرقش	على طرف تهوي سراعا رواحله
إلى السرو أرض ساقه نحوها الهوى	ولم يدر أن الموت بالسرو غائله
فغودر بالفردين أرض نطية	مسيرة شهر دائب لا يؤاكله
فيالك من ذي حاجة حيل دونها	وما كل ما يهوي الرؤ هو نائله

فوجدي بسلمى مثل وجد مرقش | بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نحبه وجدا عليها مرقش | وعلقت من سلمى خبالا أماطله
لعمري لموت لا عقوبة بعده | لذي البث أشفى من هوى لا يزاله

ويخاطب سلامة بن جندل السعدي ديار محبوبته، معبرا بذلك عن مدى شوقه إليها متلذذا بذكر إسمها متحسرا على ما فاته من اللهو في تلك الديار، ثم يقول: كانت هذه الديار مرتعا لنا فيما مضى فغيرها الدهر على عادته وصارت السوافي تنقل إلينا التراب مما حولها من الأرضين هل الوقوف في ديار الحبيب والسؤال عنه والتسلم عليه وإهداؤه شعرا غزلا رقيقا إثم ؟؟ ثم يصف الحبيبة بأنها ليست ضعيفة ولا قصيرة ولا أمه بل هي من العرب الأقحاح التي لا تتصف بأخلاق الإماء، ولكن هذه العربية السعدية أعرضت عنه لما رأت شيبه وإنحاء ظهره، فالنساء الحسان لا تميل قلوبهن إلا للشباب ذي الحيوية والنشاط يقول(١)

يا دار أسماء بالعلياء من إصنم | بين الدكادك من قو فمعصوب
كانت لنا مرة دارا فغيرها | مر الرياح بسافي الترب مجلوب
هل في سؤالك عن أسماء من حوب | وفي السلام وإهداء المناسيب
ليست من الزل أردافا اذا انصرفت | ولا القصار ولا السود المناكيب
إني رأ يت ابنة السعدي حين رأت | شيبي وما خل من جسمي وتحنبي
تقول حين رأت رأسي ولمته | شمطاء بعد بهيم الليل غربيب
وللشباب إذا دات بشاشته | ود القلوب من البيض الرعابيب

(١) ديوانه ٢٢١.

د- الغزل المزدوج:

أما اللون الغزلي الرابع والأخير فهو الذي يشتمل على لونين أو أكثر من الألوان السابقة ويتشكى المرقش الأكبر من الأرق الذي سببه سيطرة خيال محبوبته (سليمى) على تفكيره طوال الليل، فهو وحده يعاني من السهر على حين يتمتع كل من حوله بلذيذ المنام وهو في غمرة أحلام اليقظة وجد نفسه يرى أمامه نارا تشتعل بأشجار الأرطي في الموضع الذي ينبت هذا النوع من الشجر، ورأى حول النار مجموعة من النساء الحسناوات فيهن الكبيرة والمتوسطة والصغيرة سماهن أو شبههن ببقر الوحش والظباء البيض والغزلان ووصفهن بأنهن مترفات منعمات لا يعنين أنفسهن مع الأمساء والاصباح وهن ممتلئات الأجسام يلبسن الثياب الغالية الناعمة الملونة بالزعفران، ثم يفيق الشاعر من تخيله فيتذكر في أسى أن حبيبته سافرت عنه إلى بلد بعيد وتركته وحيدا متناسية ما بينهما من عهود ومواثيق ظل محافظا عليها، ولكنه يسلي نفسه بعد ذلك فيستعيد ذكريات الماضي السعيد وما سجلته في مرآتها من صور جميلة؛ صورة تينك الفتيات اللاتي قضى معهن أجمل سني شبابه، وقد تبدي في المرآه من ذلك الجمال شعرهن الأسود الغزير وعنقهن الطويل وأسنانهن المتباعدة الناصعة البياض، وكان كلما انقطع وصله مع واحدة وصله مع أخرى يقول[(١)]

سرى ليلا خيال من سليمى ... فأرقني وأصحابي هجود

فبت أدير أمري كل حال ... وأرقب أهلها وهم بعيد

على أن قد سما طرفي لنار ... يشب لها بذي الأرطى وقود

حواليها مهاجم التراقي ... وأرام وغزلان رقود

نواعم لا تعالج بؤس عيش ... أوانس لا تراح ولا ترود

(١) المفضلية ٤٦.

يرحن معا بطاء المشي بدا عليهن المجاسد والبرود

سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت المواثق والعهود

فما بالي أفي ويخان عهدي وما بالي أصاد ولا أصيد

ورب أسيلة الخدين بكر منعمة لها فرع وجيد

وذو أشر شتيت النبت عذب نقي اللون براق برود

لهوت بها زمانا من شبابي وزارتها النجائب والقصيد

أناس كلما أخلقت وصلا عناني منهم وصل جديد

ويتحدث عمرو بن قمئة عن طيف الخيال فيعاتب صاحبته (أمامه) على عدم اهتمامها به وعدم زيارتها له إلا في الخيال، فعندما يجن عليه الليل يراها في المنام وعندما يصحوا في الصباح لا يجد لها أثرا فودها غير ملموس على الحقيقة، وهو في حالة يأس تام من وصالها له حتى لو حضرت إليه بشحمها ولحمها، ومع ذلك فإن الشاعر متعلق بها رغم صدودها، فحين علم برحيلها مع القوم فزع قلبه واستولى عليه الحزن والأسى، فهي في نظره أجمل النساء جميعا فعيناها كعيني الظبية في الاستدارة والصفاء ورقة الجفون، وفمها بارد طيبة الرائحة كأن ثناياها أصول شجرة السيال السبطة الأغصان ذات الشوك الأبيض والمادة اللبنية البيضاء، وشعر رأسها كأنه في طوله حبال موصول بعضها ببعض، أما وجهها فكأنه في استدارته وضيائه هلال، وأما عجزها فكأنه قطعة رمل مستديرة، هذه الفتاة الجميلة باتت مع الشاعر بخيالها ليلا، ولم تنله منها شيئا قليلا أو كثيرا مع أنها وعدته بشيء من ذلك فإذا وعدها سراب. يقول[1]

(١) ديوانه ١٠٦.

نأتك أمامة إلا سؤالا	وإلا خيالا يوافي خيالا
يوافي مع الليل ميعادها	ويأبى مع الصبح إلا زيالا
فذلك تبذل من ودها	ولو شهدت لم تؤات النوالا
وقد ريع قلبي إذا أعلنوا	وقيل أجد الخليط احتمالا
وفيهن خوله زين النساء	ء زادت على الناس طرا جمالا
لها عين حوراء في روضة	وتقرو مع البنت أرطى طوالا
وتجري السواك على بارد	يخال السيال وليس السيالا
كأن المدام بعيد المنام	علتها وتسقيك عذبا زلالا
كأن الذوائب في فرعها	حبال توصل فيها حبالا
ووجه يحار له الناظرون	يخالونهم قد أهلوا هلالا
إلى كفل مثل دعص النقا	وكف تقلب بيضا طفالا
فباتت وما نلت من ودها	قبالا ولا ما يساوي قبالا
وكيف تيتين حبل الصفاء	من ماجد لا يريد اعتزالا
أراد النوال فمنيته	وأضحى الذي قلت فيه ضلالا

وفي ميمية المخبل السعدي يبدو الشاعر في أبيات الخيال كأنه فقد رباطة جأشه نتيجة لسبب يتعلق بالرباب التي أخذت اسمها من السحاب الأبيض المعلق بين السماء والأرض، والتناظر اللوني الذي يمكن أن يقوم بين مادة الرباب ومادة الدموع أو بين اللؤلؤ والسحاب، يصل بين الشاعر والرباب من جهة ويفصل بينهما من جهة أخرى، ومقام الفصل يأتي من انفراط عقد دموعه أمام انتظام الرباب واستقرارها درة في محراب عرش عزيز العجم، ويظل جوهر اللؤلؤ والدر يربط بين الاثنين على نحو ما يفعل الخيال، ولذلك يستطيع الشاعر أن يرى دار الرباب على الأرض وهو أكثر تماسكا وقدرة على

الرؤية في وسط مائي كـذلك. ومهمـا يكن من أمر فإن العـثور على الرباب يحتاج إلى جـهد كبير من الغـواص، وهذا الوسط المائي الذي تخرج الرباب منه ينعكس على طبيعتها إن فكرة السبق والملامسة تتكرران كذلك في وصف الرباب ببيـضة الدعص، ولكن فكرة الصحـيفة ومـا بعدها من ذكر الشـاعر العجم بالاضـافة إلى فكرة الدفن والتدفئـة التي يقوم بها ذكر النعـام تؤكدان فكرة الولادة الجديدة أو استنزال الرباب مرة أخرى إلى الأرض التي لم تدرس فيها أماكن اندفاع الماء إلى الأودية، هذه الولادة الجديدة تقابل الحياة الطفولية الناشـئة في الأطلال التي تسـتوعب صـغار أولاد المعـزي، كذلك إن البـيت الأخيـر في حركة الأطلال يتجـه بقوة إلى فكرة الولادة من خلال استـخدام صورة الشعر والكرم.(١) يقول (٢)

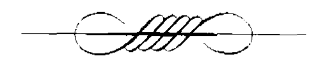
ذكـــر الرباب وذكـــرها ســـقم ... فـصبـا وليس لمـن صـبـا حلم
وإذا ألم خـــيـــالهـــا طـرفت ... عـيني فـمـاء شـؤونهـا سـجم
كـاللـؤلؤ المسـجـور أغـــفل في ... سلك الـنظام فـخـانه الـنظم
وأرى لهـــا دارا بـأغـــدرة ال ... سـيـدان لم يدرس لهـا رسم
ولقـــد تحل بـهـا الـرباب لهـا ... سلف(٣) يفل عـدوهـا فـخم
بردية سـبـق النعـيم بهـــا ... أقـــرانهـــا وغـــلابهـــا عظم
وتريك وجـهـا كالصـحـيفـة لا ... ظمـــآن مـخـتلج ولا جـــهم
كـعـقـيلة الـدر استـضـاء بهـا ... مـحراب عـرش عزيزها العـجم

(١) حسن البنا عز الدين الكلمات والأشياء ٨٩.
(٢) المفضلية ٢١.
(٣) قال الأصعمي: كانت العرب إذا أرادت التحول تقدم السلف على الخيل، فنفضوا الطريق وأصلحوه حتى تأتي الطعن. والنفيضة: هم العيون الذين يرصدون العدو. (المفضلية٢١).

أو بيضة الدعص التي وضعت في الأرض ليس لمسها حجم
وتضل مدراها المواشط في جعد أغم كأنه كرم

ويجمع عدي الأزدي بين لونين من النسيب، فيصف محاسن المحبوبة ويبثها وجده وشوقه، حيث يشبه محبوبته وقد لبست ثوبها القصير وتحلت بالدر، يشبهها بالظبية المنفردة عن القطيع، وقد ولدت في الخريف، فجاءت بضة ناعمة، نشطة منطلقة، تداعب شجر السلم وتستظل به في صحرائها الواسعة. ثم يصف لمعشوقته لواعج أشواقه وفرط صبابته، وما أحدثه حبها في قلبه من وجد حتى صار مريضا ذاهلا متبولا على شفى الهلاك يقول[1]

أرى ابنة الأزدي قد أقبلت بين سموط الدر في المجول
كالظبية الفاردة الخاذل المخروفة المقفرة المطفل
ظلت تعاطي بخلاء من ال أرض شجون السلم المهدل
بعضك يا وجد امريء شفه الحب فلم يفرغ ولم يشغل
أعمى على حال من الحال لا يشعر ما النائي من المقبل
لو كنت قد أدنيتني الودما ألفيت مثل الضمن الزمل
أوديت في المودين إن كنت في الأحياء كالمنسي لم يحفل



(١) شعراء عمان في الجاهلية والإسلام ٦٦، ٦٧.

الفصل الثاني
الفخـــر والحمـاسة

تعريفه

أ) الفخر الشخصي

فخرهم الشخصي بالشجاعة

فخرهم الشخصي بالكرم

الفخر الشخصي الملون

ب) الفخر القبلي

جـ) الفخر المزدوج

تعريفــه

الفخـر هو التمدح بالخصـال الحميـدة وادعاء العظمة والشرف وأشـياء للنفس أو للقبيلة ليست في متناول الجـميع بيسر وسهولة، وهو فن من فنون الأدب الأولي لأنه يمثل تطلع النفس إلى ذاتها، والوسيلة التي تنشر بواسطتها مفاخر القوم وذكريات أيامهم[١].

يقول د يحى الشـامي : من الأغراض الشعرية التي راجت في الـشعر العربي الجاهلي الغرض المعروف بالفخـر أو الحماسة، وهو يضارع المدح لجهة كونه يقوم على الإشـادة بالذات أو النفس وبتعداد مآثرها ومناقبـها مع الأخذ بعين الاعتـبار أن المدح يتوجه به صـاحبه إلى شخص الممـدوح الخارج عنه، فيما ينصب الفخر على امتداح الشاعر لنفسه وتعظيمه صفاتها وهذا ما يدعى بالفـخر الذاتي. وقـد يتجـاوز هذا النوع الأدبي نطاق ذات الشاعـر ليكون موضوعه فضائل القوم قوم الشاعر الذي يطري أمجادهم ويؤكد على مآثرهم ومناقبهم وهو ما يدعى بالفخر الجماعي[٢].

ولقد يجمع الشـاعر بين النوعين فيكون الفخر ذاتيا وجـماعيا في آن، وأيا يكن فإن الفخر في جميع أحواله ملتصق أشد الإلتصاق بشخصية الشاعر وتاليا. إنه نوع من التعبير عن الذات ومظهر من مظاهر إعجاب الشاعر بنفسه المفطورة على حب الظهور وإلى النزوع على التفوق والاقتدار[٣].

وقد قـام الفخر على الفضـائل الاجتمـاعْية التي أقـرتها الحياة العـربية القديمة، إذ كان كل فرد يحـاول أن يثبت امتيازه وتفوقه على غيـره، وإشباعا للشعور بالعزة وإرضاء لحب التسامي والشرف واعتقاداتهم بأن القوة والسيطرة

---

(١) شعر بني عامر للوصيفي ١١٣.

(٢) طرفة بن العبد للشامي ٧٩.

(٣) نفسه.

جزء لا يتجزأ من هذه الحياة ما دامت الغلبة للقوي[١].

ونظرا إلى أن العرب شعب يمجد البطولة ويفخر بالاحساب والمآثر فقد كانوا يحتفلون بالفروسية والشعر، فالفارس يقع عليه عبء التشييد والبناء فهو يقاتل لاحراز الانتصار وفرض سلطان القبيلة ويدفع عن السيادة والشرف ويصنع الأمجاد والأحساب. أما الشاعر فعليه أن يمجد هذه الأفعال وأن يشيد بالأنساب وعليه أيضا أن يتصدى للخصوم وأن ينال من أمجادهم بل عليه أن يهجوهم فيوجعهم ويدمي عزهم، ومن هنا كان الفخر كالهجاء كلاهما شديد الصلة بالعصبية والروح القبلية، فكما أن الفخر صدى اعتزاز الشاعر بنفسه وبقومه وعقيدته، فالهجاء صدى شعور العداء الذي يكنه هذا الشاعر لاعدائه ومعارضيه[٢].

ويرى د يحيى الجبوري أن الفخر ضرب من الحماسة، وهو التغني بالفضائل والمثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسية والصفات القومية، والزهو بالصفات الطيبة، وألذ أحاديث المرء عنده هو حديثه عن نفسه وخصاله وفعاله[٣].

وقد غلبت على الفخر الجاهلي النزعة الحماسية المتمثلة في التغني بالبطولة والنجدة والشجاعة والإقدام والاندفاع، كما غلبت في الجاهلية النزعة القبلية، حيث كان الشاعر أحد أفرادها له مالها وعليه ما عليها[٤].

ويمكن تقسيم الفخر عند شعراء الخليج الجاهليين إلى فخر شخصي

---

(١) شعر الفروسية ٢٤٣.

(٢) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ١٣٠.

(٣) الشعر الجاهلي ٣٠٠.

(٤) طرفة للشامي ٨٠.

وإلى فخر قبلي وإلى مزيج من الفخر الشخصي والقبلي.

أ- الفخر الشخصي

ويقصد به فخر الشاعر بذاته واعتداده بنفسه وإبراز مناقبه وسجاياه، وهو يصدر عن شعراء تميزوا باستقلال الشخصية وقدموا أعمالا مميزة شجعتهم على إبرازها وقد يأتي هذا اللون رد فعل لانتقاص نال الشاعر المفتخر أو سخرية وجهت إليه بسبب قصره أو كبره أو فعله لشيء لا يروق عند بعض الناس، أو بسبب نبذ قومه له لاسرافه وتبذيره أو سوء سلوكه، وقد دار فخرهم الشخصي حول معنين رئيسين هما الشجاعة والكرم.

فخرهم الشخصي بالشجاعة

افتخر بهذا الجانب الشعراء من أهل الفروسية والشجاعة الذين يشعرون بالاعتداد بالنفس ويرون في فخرهم هذا تحقيقا لذواتهم، وإظهارا لشخصياتهم، وإثباتا لرجولتهم.

وتأتي الشجاعة والفروسية في طليعة المعاني الفخرية التي تضمنها فخر شعراء الخليج الجاهليين. فقد شاركوا في المعارك وشهدوا المواقع ودافعوا عن الأهل والديار، فهذا طرفة بن العبد يفخر باستجابته لدعوة الداعي ولو لم يكن منادي باسمه، وكأنه يرى في تلك الاستجابة أعلى مراتب المروءة والنخوة وإغاثة الملهوف، كما يفخر بمنعته وتسلحه وهذا شأن الشجعان المتأهبين لكل غارة، فالسيف ملازم له وإنه لسيف بتار لا يفل له حد ولا ينبو عن ضريبه. ويفخر بمكانته وقوته وجرأته وكرم أصله مما دفع عنه عداوة الأفراد والجماعات ونفى عنه إقدام الرجال وتسرعهم بالمساءة إليه. يقول[١].

(١) د. محمد الهاشمي: طرفة بن العبد ١٢٠.

إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وآليت لا ينفك كشجى بطانة ... لعضب رقيق الشفرتين مهند

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد

ولكن نفى عني الرجال جراءتي ... وصبري واقدامي عليهم ومحتد

ويفخر ربيعة بن مقروم الضبي بالشجاعة فيقول: حضرت الفرسان يوم تطاردهم بالرماح وأنا على فرس ضخم سليم الأعضاء من العيوب، فحين تنادوا عند الحرب وقالوا نزال كنت أول النازلين، ولأي شيء أركب فرسي إذا لم أنزل عند دعائي للنزال، ورب خصم شديد الخصومة صاحب غيظ عليّ تغلي عدواته في صدره غليان المرجل بما فيه على النار دفعته عن نفسي وقد أبصر رشده وكويته فوق نواظره من أعلاه. يقول[١]

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها ... بسليم أوظفه القوائم هيكل

فدعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل

وألد ذي حنق عليّ كأنما ... تغلي عداوة صدره في مرجل

أرجيته عني فأبصر قصده ... وكويته فوق النواظر من عل

ويفخر عمرو بن سلمه العبدي بتمكنه من إدراك ثأره لمالك الذي آلمه فقده، حيث أخذ يضرب قاتله بسيفه حتى تلطخ ثوبه بالدماء وصار كالثوب الخيعل الأحمر، فقدم الشاعر لعصائب الطير مائدة شهية حيث حطت حوله، كأنها ضيوف نزلت في رحاب رجل كريم، والدماء تنزف منه كما ينزل الماء من صدع الجبل يقول[٢]

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٢٣.

(٢) أبو تمام: الوحشيات ١٨ ومعجم الشعراء ٤١.

مـا زلت أضـربه وأنـعي مـالكا   حـتى تركت ثيـابه كـالخيـعل
وتركت مـسنـده ومـوضع رحله   طيـرا توقـع حـولـه كـالنزل
تجري الدماء على محاسن وجهه   والنفس سـاجمـة كماء المفـصل

ومجمع بن هلال التيمي بعد أن يتحدث عن شيخوخته في بداية أبياته يفخر بشجاعته وبأسه فيقول : رب خيل مثل القطا في اجتماعها كففتها لتجتمع في سيرها ثم تندفع في الغارة، ورب غنم حويته ورب لذة عيش استقصيتها، وما العيش إلا الانتفاع بهذه الأشياء، ورب امرأة تعثر في مشيتها لتحيرها من هول يوم الهييمي نظرتها وقد استولى عليها الرعب من داخل قلبها رأيتها وهي ذات شجى لا يفارقها وعينها يجري منها الدمع كأنها أصيبت في حلقها فهي لا تستريح، ورب عاثرة هذه صفتها قالت لي بعد أن سبيتها وفرقت بينها وبين زوجها : تعست أي سقطت لوجهك يا مجمع كما أتعستني بأسرك لي فقلت لها : بل تعسا لك يا أم مجاشع ولقومك حتى أنك اليوم في ذل وهوان، وقد أعددت للعدو رمحا طويلا وحربة إذا أشرعت يرى رأسها كأنه قبس مشتعل، وكم من كريمة معشر تركتها مخدوشة الوجه من الضرب واللطم متفجعة لما حل بمعشرها. يقول :[1]

وخيل كأسراب القطا قـد وزعتها   لهـا سـبل فـيـه المنيـة تلمع
شهـدت وغنم قد حـويت ولذة   أتيت ومـاذا العيـش الا التمـتع
وعـاثرة يوم الهـيـيـمي رأيتـهـا   وقد ضمها من داخل القلب مجزع
لها غلل في الصـدر ليس ببارح   شـجي نشب والعـين بالماء تدمع
تقـول وقد أفـردتها من حليلهـا   تعست كـما أتعـستني يا مـجمع
فقلـت لها بل تعس أم مـجاشع   وقومك حتى خـدك اليوم أضرع

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٣٠٢.

عبأت له رمحا طويلا وآله كأن قبس يعلى بها حين تشرع
وكائن تركت من كريمة معشر عليها الخموش ذات حزن تفجع

وكان أبو ثمامه بن عازب الضبي مقيما على مياه بني ضبه، وهم متجعون عند حفرهم بنواحي الشواجن في الخليج العربي، فجاء قوم يريدون التغلب عليها فطردهم عنها هو وقومه. وقد سجل الشاعر هذا الأمر في أبيات قال فيها : دافعت عن بني ضبه ورددت إليها ماءها، ولولا دفاعي عنهم لتغلبت عليهم الأعادي وسلبت منهم بلادهم، وما زلت أكر عليهم بالخيل والابل حتى طردتهم عن المياه، وكنت أقاتلهم من قيام وإذا قاتلوني وهم منتصبون على ركبهم قاتلتهم كذلك أشد القتال، وإذا زل صاحبي في رأي ولم يوفق للصواب عدلت عنه وطلبت آخر مكانه، وإنني أتفادى من الشر ما أمكن لا أبتديء الخصم ولا أستعمل البغي إلا إذا اقترب الشر وأضطر إليه اضطرارا يقول [١]

رددت لضبة أمواهها وكادت بلادهم تستلب
بكر المطي وأتباعه وبالكور أركبه والقتب
أخاصمهم مرة قائما وأجثوا إذا ما جثوا للركب
وإن منطق زل عن صاحبي تعقبت آخر ذا معتقب
أفر من الشر في رخوة فكيف الفرار إذا ما اقترب

ولعل تشبيه الجمال العبدي نفسه بالحية يرتبط بما يعتقده البدائيون من أن الحيات تجدد شبابها وتحيا إلى الأبد، يذكر الدميري أنهم زعموا أن الحية تعيش ألف سنة وتتصف بالنهم والشره لأنها تبتلع الفراخ من غير مضع وأن من شأنها أنها إذا لم تجد طعاما عاشت بالنسيم تقتات به الزمن الطويل، وليس شيء في الأرض مثل الحية إلا وجسم الحية أقوى منه. والحية هي الصورة

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٢٣٠.

المألوفة التي يسكنها الشيطان والجن غالبا، بل إن العرب تسمي كل حية شيطانا. والغالب على ألوان الحيات في التراث العربي هو اللون الأسود بدر جاته ومنه الأرقم وهو ثعبان مرقم بحمره وسواد وكدره، ولما كانت الحية السوداء من قوى الظلام والشر وفي الوقت نفسه حاملة لسر الخلود فإن الشاعر الجاهلي استخدمها في صوره الشعرية بهاتين الدالتين، كما يقول د إبراهيم علي[١] يقول الجمال العبدي[٢]

وبين حواشي البرد مني ابن صخرة	تردد فيه سمه فهو أكلف
مضب لدى أحقاده متربد	تخال أعالي جلده يتقرف
له نقط سود وحمر كأنما	يجلله للعين برد مفوف
إذا ما رقى الراقون لم تفد الرقى	وكان الذي يرقى له منه أخوف

وفي هذه الصورة تتفاعل خاصية السواد / الموت مع خاصية الخلود، ويبدو الشاعر وكأنه يريد ارتداء جلد هذا الأسود الأرقم حيث يكتسب الخلود الذي سرقت الحية سره وامتلكته، كما يريد أن يصيب اللون الأسود لعنة على أعدائه وعندها لن تستطيع أسلحة العدو اختراقه وهو يرتدي هذا الجلد. وقد جمع الشاعر بين اللونين الأسود والأحمر ليرسم لنفسه صورة مخيفة مرعبة فاللون الأحمر يثير الهجوم والغزو والثأر ويخلق نوعا من التوتر العضلي كما أنه مثير للمخ وله خواصه العدوانية حتى أن الرقية لا تجدي نفعا مع من يقع فريسة للشاعر الأفعى أو الأفعى الشاعر على حد تعبير د إبراهيم علي[٣]

ويفخر شعبة بن الحارث المازني بقتله مفروق بن عتاب العجلي، فيتساءل تساؤل الساخر عن مكانه وما آل إليه؟ ثم يجيب إجابة المزهو المفاخر،

(١) اللون في الشعر العربي ١٨٦.

(٢) الخالديان: الأشباه والنظائر ٢/ ٢٤٩.

(٣) اللون في الشعر العربي ١٨٦.

مبينا المصير الذي انتهى إليه على يدي الشاعر الفارس، وهو القتل عن طريق الرمح الذي طعنه به في فمه، عندما تقدم الكتيبة مدافعا عنها، ولكنها انهزمت وتخاذلت عن نصرته، فخسرت عجل خير رجالها وسادتها. يقول[١]

يا عجل عجل لجيم أين فارسكم ... يوم الكريهة مفروق بن عتاب
أو جرته الرمح إذ خامت كتيبته ... وكركا لليث يحمي غيبة الغاب
فجعت عجلا بحاميها وفارسها ... وربها المنتمي فيها لأرباب

فخرهم الشخصي بالكرم

تمثلت صور الكرم في شعر الخليج الجاهلي في صورة إكرام الضيف وهو أظهر هذه الصور وأكثرها وفي صورة تحمل الحمالات والمغارم.

ويفخر المثقب العبدي بالصورة الأولى فيتحدث عن رجل كان يسير في الليل بحثا عن مكان يأويه وطعام يغذيه وشراب يرويه، فلما أعياه البحث رأى نار الشاعر ساطعة تدعوه إلى الحضور، فبلغ الضيف منزل داعيه وقد بلله المطر فتلقاه مضيفه بالترحاب وقدم له أفضل ما عنده من لحوم الابل، يقول[٢]

وسار تعناه المبيت فلم يدع ... له طامس الظلماء والليل مذهبا
رفعت له بالكف نارا تشبها ... شآمية نكباء أو عاصف صبا
وقلت ارفعاها بالصعيد كفى بها ... مناد لسار ليلة إن تأوبا
فلما رآني والسماء تبله ... فلقيته أهلا وسهلا ومرحبا
وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... يكو ماء لم يذهب بها النى مذهبا

ويقدم عمرو بن الأهتم السعدي صورة قريبة من الصورة السابقة وهي اكرام الضيف، إلا أنه يتوسع في مجال العطاء فهو بدافع حرصه على شرفه

---

(١) المؤتلف والمختلف ٢١٠. (٢) ديوانه ١١٧.

الرفيع يشعر بمسئوليته في مد يد العون والمساعدة لكل محتاج من عشيرته، فهم عياله الذين تجب عليه إعالتهم والانفاق عليهم ثم يخص ضيوفه بوافر عنايته وجميل رعايته، فيقابلهم أحسن مقابلة ويقدم لهم أفضل ما يملك من طعام وشراب. يقول[١]

ذريني وحطي في هواي فإنني ... على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

وإني كريم ذو عيال تهمني ... نوائب يغشي رزؤها وحقوق

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خفوق

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل ... لأحرمه إن المكان مضيق

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... فهذا صبوح راهن وصديق

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... مقاحيد كوم كالمجادل روق

بأدماء مرباع النتاج كأنها ... إذا عرضت دون العشاء فنيق

أما الصورة الأخرى من صور الكرم فيعرضها ربخة الأزدي فقد وقعت حرب بين بني حمام المنتمين إلى مالك بن فهم، فتحمل الدماء الحارث بن كعب الحمامي، فأعانه في ذلك ربخه بن الحارث، وقد حكى الشاعر هذا الموقف فذكر لنا أن الحارث حين وجد نفسه غير قادر على حمل هذه الحمالة الثقيلة بعد أن دفع كل ما يمك في سبيلها - جاء إلى ربخه شاكيا سوء الحال وطالبا المساعدة والنجدة، مذكرا إياه بالنسب الأصيل الجامع بينهما وما تقتضيه القرابة من حقوق وواجبات، فما كان من الشاعر إلا أن رحب بابن عمه وأجاب طلبه في الحال غير متباطيء عن الاغاثة يقول[٢]

أتاني حريث حين ضاق بأمره ... وقد أثقلت حرثا دماء حمام

وأتلف فيها ماله وسوامه ... فأصبح خرباء بغير سوام

ينادي بأعلى الصوت يا ربخ إنني ... تحملت غرما من ثقيل غرام

---

(١) المفضلية ٢٣. (٢) شعراء عمان ٤٦.

فنحن وأنتم من أرومة مالك | من النبع لا من جزعة وثمام
نمت بأرحام لنا قد تواشجت | وحق عظيم لازم وذمام
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا | كفيت بلا رجع برجع كلام
ولبيت داعيه وإني بمثلها | نهوض إذا حملت غير كهام

الفخر الشخصي الملون

وربما جمعوا في فخرهم الشخصي بين أكثر من لون من ألوان الفضائل، مع تغليب بعضها على بعض تبعا لدرجة اهتمامهم بما يتحدثون عنه.

ويقدم ثعلبة بن صعير المازني صورة لحياته في سياق فخره بفروسيته، فنرى في الصورة شخصية تكاملت فيها عناصر الفتوة والسيادة، فهي تجمع بين الكرم والشجاعة وحسن المنادمة والمعاشرة وقوة البيان والجنان، فندماؤه من علية القوم المتمتعين بالمكانة الاجتماعية والخصال الحميدة فهم من أهل السماحة والمآثر الحسنة في السلم والحرب، ففي مجالسهم تجد الفكاهة والظرف والكلام الجميل، وفي الميدان تراهم أصحاب البطولات والملاحم وهؤلاء النبلاء هم ندماء الشاعر في الأندية، وفوارسه في حومة الوغي يشاطرونه مسراته وغاراته، يقدم لهم في مجلسه كل أنواع المسرات من خمر ولحم وغناء ونغم، وفي الميدان يدفع بهم غارات الأعداء بأفراسهم الضامرة وبأسلحتهم الوافرة من دروع ملساء ورماح صلبة قوية، وهو لا ينسى حق زوجه عليه يلاطفها ويلاعبها ويجلو الهم عنها، وهو خطيب صاحب لسان وبيان يخاف أعداؤه من مواجهته وينهار خصومة أمام حجته ومهابته. يقول[١]

أسمي ما يدريك ربت فتية | بيض الوجوه ذوي ندى ومآثر
حسني الفكاهة لاتذم لحامهم | سبطي الأكف وفي الحروب مساعر

---

(١) المفضلية ٢٤.

باكرتهم بسباء جون ذارع　　قبل الصباح وقبل لغو الطائر
فقصرت يومهم برنة شارف　　وسماع مدجنة وجدوى جازر
حتى تولى يومهم وتروحوا　　لا يثنون إلى مقال الزاجر
ومغيرة سوم الجراد وزعنها　　قبل الصباح بشيئان ضامر
تئق كجلمود القذاف ونثرة　　ثقف وعراص المهزة عاثر
ولرب واضحة الجبين غريرة　　مثل المهاه تروق عين الناظر
قد بت ألعبها وأقصر همها　　حتى بدا وضح الصباح الجاشر
ولرب خصم جاهدين ذوي شذا　　تقذي صدورهم بهتر هاتر
لدّ ظأرتهم على ما ساءهم　　وخسأت باطلهم بحق ظاهر
بمقالة من حازم ذي مرة　　يدأ العدو زئيره للزائر

وإذا كانت الشيخوخة قد ذهبت بنشاط عمرو بن قمئة فإن له في شبابه من ذلك الشيء الكثير الذي يعتز به. فكثيرا ما قاد أصحابه في رحلات طويلة شاقة ولكنها كانت ناجحة. وتعكس القصيدة التي بين أيدينا حرص الشاعر على توفير كل وسائل النجاح لتلك الرحلات، فهو لا يختار لصحبته الا الفتيان الكرام ذوي الأخلاق السمحة والهمة العالية، ويتعامل معهم بأسلوب يتسم بالرفق والتحبب، ويختارون لرحلاتهم أجود الرواحل من الابل القوية الضخمة القادرة على تحمل مشاق السفر الطويل، ثم هو يختار لهم الوقت المناسب وهو أول الليل تفاديا لحرارة الشمس في النهار، ومع علمه بمسالك الطرق وحسن قيادته يصل إلى الماء أثناء حاجتهم إليه فيستريحون عنده وينحرون فيه، مرحبين بمن يفد إليهم ليشاركهم الطعام والشراب، وذلك في نظر الشاعر أهون الأمور، يقول [١]

---

(١) ديوانه ٣٥.

إن أك قد أقصرت عن طول رحلة ... فيارب أصحاب بعثت كرام
فقلت لهم سيروا فدى خالتي لكم ... أما تجدون الريح ذات سهام
فقاموا إلى عيس قد انضم لحمها ... موقفة أرساغها بخدام
وقمت إلى وجناء كالفحل جبلة ... تجاوب شدي نسعها ببغام
فأدلج حتى تطلع الشمس قاصدا ... ولو خلطت أنوارها بظلام
فأوردتهم ماء على حين ورده ... عليه خليط من قطا وحمام
وأهون كف لا تضيرك ضيرة ... يد بين أيد في إناء طعام
يد من بعيد أو قريب أتت به ... شآمية غبراء ذات كهام

ويفخر جواس الأزدي بأنه من أهل الفروسية والفتوة، فهو مقدام في الحروب يسارع إلى نجدة من يستغيث به ويحميه، وهو كثير الكرم للضيف عظيم العناية بهم، كما أنه يقدم لندماه أفضل الخمر وأخلصها، فهو في الحرب حامي الحقيقة وفي السلم رجل الضيافة، إنه ذو نجدة وكرم في الوقت الذي يكون فيه بنوبكر قاعدون عن المعالي والمكرمات. يقول(١)

ولقد أقدم في الرو ... ع وأحمي المستضافا
ثم قد يحمدني الضي ... ف إذا ذم الضيافا
ولقد أروي ندامـا ... ي من الخمر سلافا
من أباريق تراها ... لثما بيضا خفافا
وبنوبكر قعود ... يتعاطون الصحافا

وكان الهذلول بن كعب العنبري قد تزوج امرأة من بني بهدله فرأته يوما يطحن للأصناف، فضربت صدرها وقالت أهذا زوجي فبلغه ذلك فقال(٢)

(١) شعراء عمان: ٤٥.

(٢) حماسة أبي تمام ٢٩٤.

تقـول وصكت نحـرها بيمـينهـا ... أبعلي هـذا بالرحى المتـقـاعس
فـقلت لهـا لا تعـجلي وتبـيني ... فعـالى إذا التفت علـيّ الفوارس
ألست أرد القــرن يركب درعـه ... وفـيـه سنـان ذو غـرارين ناعس
واحتـمل الأوق الثـقيل وأمـتري ... خلوف المنايـا حين فـر المغـامس
وأقري الهموم الـطارقات حزامة ... إذا كـثــرت للطارقين الـوسـاوس
إذا خـام أقوام تقـحـمت غمـرة ... يهـاب حـمـيـاها الألد المداعس
لعـمـر أبيك الخـيـر إني لخـادم ... لضيـفي وإني إن ركبـت لفارس
وإني لأشري الحمـد أبغي رباحه ... وأترك قـرني وهو خـزيان ناعس

قال المبرد في الكامل: هذه الأبيات لأعرابي سعدي وكان سيدا رئيسا، فنزل به ضيف فقام إلى الرحى يطحن فمرت به زوجه في نسوة فقالت: أهذا بعلي؟ إعظاما لذلك فأخـبر بما قالت ، فقال يحكي تعجبـها واستنكارها من فعله: إن امـرأتي حين رأتني وأنا أطحن بالرحى للأضـياف ضـربت صدرها بيمـينها تأسـفا منها، أني أقـوم بعمل الرحى وأنا زوجهـا وأنكرت مني هذا الفعل فأجبـتها وقلت لها لا تعجلي وتبيني، فإن كان أسـخطك ما أنافيه من عمل الرحى فلا يسخطك فـعلي إذا علمت ما يكون مني من البأس والنجدة حين تحـيط بي الفوارس من كل جـانب وأنا أكـشفـهم عني، إني أتمكن من القرن عند امـتناعه مني وأطعنه بسناني الصلـب المضطرب ذي الحدين، وإني أحمل من الشدائد ما لا يستطيع أن يحمله غيري، وأطلب الحرب وأثبت فيها إذا فر غيري منها، وإني أتلقى مـا يعتريني من وساوس النفس بالحزم والنظر في العواقب فلا أكون منها في حيرة إذا اشـتدت على غيري وكثرت أحاديث النفس بها، وإذا تأخر غيري عن الحـرب جبنا منه تقدمت أنا إليها ولو ألاقي من شدتها مـا يخاف منه اللجوج المطاعن. ثم يقسم لأبيهـا رجل البر أنه ما

حمله على الطحن بـالرحى إلا التواضع لخدمة أضـيافه، ويدعـوها إلى عدم الأسف على هذا الفعل منه، فـهو ذلك الفارس الفذ إذا ركب للحـرب فهو يشتري بخـدمته لضيفه حـسن الذكر وطيب الأحدوثة في الناس، وذلك هو الربح الحقيقي وفوق ذلـك فهو ليس بجبان بل يترك قرنه مخـزيا مقتولا كأنما غلبه النعاس فلا يتحرك[١].

يقول د عبد الرحـمن الوصيفي : يعد الفخر الشخصي ملمـحا له أسبابه ودواعيـه في الشعر الجـاهلي، لأن الفخر القـبلي هو الأساس والمعين الذي يمد الشعراء الفرسان دوما بالمنعة والعزة ،فالقبيلة القوية تعطي قوتها لكل أبنائها ولمن يدخل في جوارها، ولا يجرؤ أحد من القبـائل الأخرى على الاعتداء على أحد أفرادها مهما كان ضعيفا، لذلك كان الفخر القبلي بالقوة والفروسية أمرا حتميا، وعلى عكس ذلك كان الفخر الشخصي بالفروسـية الذي يتحدث فيه الشاعر عن قوته وبأسه وخلقه وحميد سجاياه بمعزل عن مجد القبيلة وقوتها[٢].

ب- الفخر القبلي:

وهو الرئيـسي والأكثـر في الشعـر الجـاهلي، وذلك لقيـام العلاقـات الاجتماعية على العصبية القبلية وطغيانها بين عرب الجاهلية، فالفرد يشعر أنه جزء لا يتجزأ من القبيلة وهو يعتبـرها دولته التي تحميه من أي خطر يتهدده، لذا يعد فـخره لهـا إعلانا لانتمـائه إليهـا. وقد أوكلت إليه مـهمـة الدعاية والإعلام فصار لسانها المعبر وترجمـانها الناطق فإذا فخر بها فكأنما هو يفاخر بنفسه، لأن جميع أفرادها يعتقدون أنهم من أصل وا حد وأب واحد.

وقد سـيطر على فخـر شعر الخلـيج الجاهلي طابع الحمـاسة فـدار حول

(١) المصدر السابق.

(٢) شعر بني عامر ١١٣.

الحروب والمعارك، مسجلا بطولاتهم وانتصاراتهم ومبررا انكساراتهم وهزائمهم.

ويفخر سلامة بن جندل السعدي بالحروب الظافرة التي خاضتها عشيرته التميمية مع عشائر بكر كبني قيس بن ثعلبه وشيبان وحنيفه وعجل ويشكر. وقد ذكر بعض المواضع التي جرت فيها هذه المعارك أو تجمعت فيها جيوش الفريقين كيترب، وهو يقع في السودة من بلاد بني سعد على البحر في الجهة الجنوبية من الكويت، كما ذكر الشاعر الروحاء وهي في فليج أو بقربه وذكر رهوه وهو هضبه في بلاد بني سعد، وقد سجل الشاعر أسماء قادة بكر الذين اعتدوا على تميم وخاب سعيهم فدارت الدائرة عليهم، فشهاب بن جحدر قتل والحارث بن شريك هرب مجروحا وقتادة الحنفي عاد إلى بلده بأقبح العواقب بعد أن تفرق جمعه، وجثامه الذهلي أسر وقيد وهوذه الحنفي فر مصابا، وأبناء حنيفة وعجل ويشكر هربوا كالنعام في صحراء الكدادية عند بقيق. يقول[1]

ومن كان لا تعتد أيامه له ... فأيامنا عنا تجلي وتعرب

ألا هل أتى أفناء خندف كلها ... وعيلان إذ ضم الخمسين يترب

جعلنا لهم ما بين كتلة روحة ... إلى حيث أوفى صوتيه مثقب

غداة تركنا في الغبار ابن جحدر ... صريعا وأطراف العوالي تصبب

وأفلت منا الحوفزان كأنه ... برهوة قرن أفلت الخيل أعضب

غداة رغام حين ينجو بطعنة ... سؤوق المنايا قد تزل وتعطب

لقوا مثل ما لاقى اللجيمي قبله ... قتادة لما جاءنا وهو يطلب

فآب إلى حجر وقد فض جمعه ... بأخبث ما يأتي به متأوب

---

(١) ديوانه ٢١٢.

ويفخر سلامة بن جندل بعشيرته من بني سعد التميمية فيصفهم بالشجاعة وإجادة فنون الحرب وامتلاك أدواتها. فعندما أراد العرب من معد غزوهم ردهم عن ذلك فرسان القبيلة بطعناتهم النافذة وضربهم القاتل وبسيوفهم المرهفه ورماحهم المحددة، وهذه السيوف والرماح من النوع القوي المتقن الصنع. والحاملة الذين يعدون في الحرب ويحملون يقومون بتعهدها وكشف الصدأ عنها وهم من صرحاء العشيرة ورجالها الأشاوس، ورماحهم تشبه في أيدي المحاربين حبال البئر المفتولة الطويلة وقد غص بها الأعداء ولقوا كل نكال. فهؤلاء السعديون كأنهم شهب ثاقبة تدمر الأعداء وتسحقهم، وهم أصحاب نسب تميمي عريق، إذا اشتد الزمان وعم الناس القحط فغناهم مرفد للفقراء والمعوزين وملجأ للصعاليك المشردين لأنهم يتكفلون بهم، وهم يتميزون بكثرة العدد وبالصبر فهم بذلك في منجاة من الشر والأشرار، ينزلون بكل واد كثير الخطب ليعقرون ويطبخون ولا يبالون أن يكون مجدوبا ومعيبا وأن يكون خاليا من النبت، وهم يجيبون الصريخ باعداد السلاح وتركيب النصال، أو يسارعون إلى المستغيث فتقترع ذيول ثيابهم ظنابيبهم، وكانت إغاثتهم للصارخ أن ترحل إبلهم وتسرح خيلهم لتسارع إليه، وهم يحبسون إبلهم في دار الحفاظ على جدبها لمحاربة العدو ولا يتركونها لأن ذلك أحرى أن تأمن في غد وتستبيح لها مرتعا ترعاه، وإن كان في حبسها الآن ما يقلل لبن النوق ويجفف ضروعها، وأخيراً يقول: لقد حبسنا الخيل والإبل حتى تحامانا الناس فاتسع لظعائننا المرتع وأصبحت تسرح حيث شاءت لا يعترض سبيلها أحد، يقول[1]

همت معد بناهما فنهنها ... عناطعان وضرب غير تذبيب

---

(١) ديوانه ١٠٩.

بالمشـرفي ومـصـقـول أسنتـهـا صم العـوامل صدقـات الأنابيب
يجلو أسنتـهـا فـتـبيـان عـادية لا مـقـرفين ولا سود جـعـابيب
سوى الثقاف قناهـا فهي محكمة قليـلة الزيغ من سـن وتركـيب
كـأنهـا بأكف القـوم إذ لحـقـوا مـواتح البئـر أو أشطان مطلوب
كلا الفـريقين أعلاهم وأسـفلهم شج بأرمـاحنا غـيـر التكاذيب
إني وجدت بني سعـد يفضلهم كل شهاب على الأعداء مصبوب
إلى تميم حـمـاة العـز نسبـتـهم وكل ذي حسب في الناس منسوب
قوم إذا صـرحت كحل بيـوتهم عز الذليل ومـأوى كل قرضوب
ينجيـهم من دواهي الشر إن أزمت صبر عليها وقبص غير محسوب
كنا نـحل إذا هبت شـآمـيـة بكل واد حطيب البطن مجدوب
شـيب المنازل مدروس مـدافعـه هابي المراغ قليل الودق مـوظوب
كنا إذا مـا أتانا صـارخ فـزع كـان الصـراخ له قـرع الظنابيب
وشـد كـور على وجناء ناجـيـة وشد لبـد على جرداء سـرحوب
يقـال محـبـسـها أدنى لمرتـعهـا ولو تعـادى ببـكء كل مـحلوب
حـتـى تركنا ومـاتثنى ظعـائنا يأخـذن بين سواد الخط فـاللوب

وفي سياق فخـر سلامة بن جندل بقومه من بني سعد التمـيميين يهدي الشاعر باقات الزهور والرياحين الندية إلى هؤلاء القـوم المتقدمين على غيرهم في السلم والحـرب، فـهم ينعـمـون بعـيش باذخ ورزق واسع فـيـتـراهنون ويتقامـرون ويتسابقون، حـتى إذا جاء الداعي الملوح لهم بثوبه يستـصرخهم للحرب والنزال سارعوا إلى لبس ثياب الحـرب من دروع واسعة متقنة الصنع منسوبة في عتقـها وجودتها إلى داود وآل لخم، فهي غاليـة الثمن غريبة عن

مواطنها التي صنعت فيـها، فهي في بياضها وصفائها تـشبه ماء الغدير الذي حركته الرياح فترقرق، وبعد أن يستكمل المقاتل السعدي لباسه الحربي ويكون حاد السلا ح يندفع نحو المستغيث فينقذه ويعدد نسبه ويصف نفسه حين يرعد الخوف يدي الجبان فلا يصيب وضع الوتر في شعبتي الفوق.

ويفخـر الشاعر بأنه من هذه العـصبة السـعدية الذين اعتـادت أستتهم الذراب، حيث ينقع السيف في السم فـإذا أنعم سيفه أخرج فشـحذ، وقومه هؤلاءإذا ولت الكتـائب الأدبار أقدمـوا إلى المعركة ولـم ترهبهم كمـا ترهب الجبناء الذين يستقبلونها بنظرات ملؤها الهـلع، كالجمال التي هدتها الأحمال الثقيلة، ومن حضر منهم يكفي من غاب عنهم، ولكثرة معاناتهم للكر والفر على صهوات الجياد وكثرة من صرعوا من الأعـداء فقد عرفتهم الخيل المعلمة نحورها بدماء المضرجين. يقول(١)

ولقد هبطت الغيث حل به الندى	يرفـعن فـاضـله على الأشـداق
أهدى به سلفـا يكون حـديثـهم	خطرا وذكـر تقـامـر وسـبـاق
حـتى إذا جـاء المثـوب قـد رأى	أسـدا وطال نواجـذ المفـراق
لبـسـوا من الماذي كل مـفاضـة	كـالـنهي يوم رياحـه الـرقـراق
من نـسج داود وآل مـحـرق	غـال غـرائبـهن في الآفـاق
شـاك يشد على المضـاف ويدعي	إذ لا توافق شـعـبـتـا الايفـاق
إني امـرؤ من عـصـبة سـعـدية	ذربـي الأسنـة كل يـوم تلاقـي
لا ينظرون إذا الكتـيبة أحـجمت	نظر الجـمـال كـر بن بالأوسـاق

(١) ديوانه ١٤٥.

يكفون غائبهم ويقضي أمرهم   في غير نقص منهم وشقاق

والخيل تعلم من يبل نحورها   بدم كماء العندم المهراق

ويفخر سلامه بن جندل بمواقف قبيلته تميم وحفاظها على محارمها في يوم الفروق بالقرب من هجر وانتصارها على بني قشير في يوم المروت فيعلن للعرب جميعهم في اليمن والعراق وغيرهما بأن قومه أهل القوة والمنعة، وقد تجلت هذه القوة في مواجهتم لبني عامر حيث قابلوهم بكتيبة عظيمة العدد والعدة حتى فرقوا شملهم بطعناتهم وضرباتهم، ولم يبق أمام قوم الشاعر إلا أشلاء الأعداء المتناثرة هنا وهناك حيث بدت هذه الأشلاء من أكف وسيقان كقطع الحديد الملقاة في سوق الحدادين، أما من نجا منهم فقد فروا بسرعة كأنهم أصابتهم دفعة من مطر فرقتهم، وأما من قتل فقد حصدت السيوف رؤوسهم كما تلتهم الرياح الصاخبة الهشيم المحرق، ولولا قدوم الليل لهلكوا جميعا، لقد أنقذهم الليل بظلامه فلم ينج من الموت أو الأسر إلا من كان يمتطي فرسا سريعة، مخلفين وراءهم أمتعتهم ونياقهم وأسلحتهم ودروعهم اللينة الملساء المتقنة الصنع، فمن كان منهم ذو سلاح نالته رماح تميم وبني عمرو منهم ومن طرح إليهم سلاحه وتكمش نجا، إن الرئيس الأسير الذي لا يفتدونه يعيش في بؤس وشقاء، أما الأسير الذي لا يفتدونه بالمال الكثير لهوان أمره فإنهم يطلقون سراحه دون فداء. ثم يشير سلامه إلى مصير قائد الأعداء بجير بن سلمه القشيري وما تفعله أمه حين تعلم بمقتله من تخميش وجهها وحلق شعرها، كما يشير إلى أسر أخيه فراس، أما عامر فقد ساعده ظلام الليل على الهروب ولولا ذلك لأصبح طعاما للطيور الجارحة التي تهافتت على الصرعى. وأخيرا يفخر الشاعر بما تتمتع به قبيلته من عزة قعساء وأنها ليست مجرد سيل ماء صغير في شعب جبل، بل هي بحر واسع في صحراء مترامية لا يستطيع ركوبه أمهر السابحين لغزارة مياهه وهول أمواجه.

إن بني تميم سبقوا القبائل العدنانية في مضمار الشرف فنهضوا بمجد معد ورفعوا شأنه، وإن وجوه قوم الشاعر تشرق في المجالدة بالسيوف وإن تعفرت أقدامهم بالغبار يقول [١]

ومـاذا تبكي من رسـوم محـيلة ... خـلاء كـسحق اليـمنة المتـمـزق
ألا هل أتت أنبـاؤنا أهل مـأرب ... كما قد أتت أهل الدنا والخورنق
بأنا مـنعنا بـالفـروق نسـاءنا ... ونحن قـتلنا مـن أتانا بملزق [٢]
تبلغهم عـيس الركاب وشومـها ... فـريقي معـد من تهـام ومعـرق
من الحمس إذ جاءوا إلينا بجمعهم ... غـداة لقـيناهم بجـأواء فـيلق
ضممنـا عليهم حافيتـهم بصادق ... من الطعن حـتى أزمعـوا بتفـرق
لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم ... ولم ينج إلا كل جـرداء خـيـفق
فـألقـوا لنا أرسـان كل نجـيبـة ... وسـابغـة كـأنهـا مـتن خـرنق
فـمن يك ذا ثوب تنـله رمـاحنا ... ومن يك عـريانا يوائل فـيسـبق
ومن يدعـوا فينا يـعاش بثـيسـة ... ومن لا يغـالوا بالرغـائب نعـتق
تركنا بجـيرا حيـث أزحف جده ... وفـينا فراس عـانيـا غيـر مطلق
فـعـزتنا ليـست بشـعب بحـرة ... ولكنهـا بحـر بصـحراء فـيـهق
ومـجد مـعـد كـان فوق عـلاية ... سـبـقنا به إذ يرتقـون ونرتقي
نجلي مصـاعا بالسيـوف وجوهنا ... إذا اعـتفـرت أقدامنا عند مـأزق
فـخرتم علينا أن قـتلتم فوارسـا ... وقول فـراس هاج فعلي ومنطقي

ويفخـر سلامه أيضا بقـومه بني سعد عـندما التقوا ببني عـامر في يوم

---

(١) ديوانه ١٥٨.

(٢) يوم ملزق كان لبني تميم على عبس وحليـفتها عامر، بعد أن قـاتلت تميم جميع من أتى بلادها من القبائل. «العمدة: ٢ / ٢١٢».

عصيب، ويمدح فتيان قومه فينعتهم بمتانة الذراعين وقوتهما وشجاعة القلب وجسارته، تجري بهم أفراس ضامرة القوائم تضطرم في عدوها فتخفق برؤوسها وتطرد متونها. كما يصف هؤلاء الفتيان ببياض الوجوه وبسطة الأيدي وأنهم ذووا أريحية يفرحون بالعطاء ويهتزون له اهتزاز السيف الصقيل في يمين الفارس، ويصف أفراس القوم بأنها مكتملة السن قوية تشبه الوعول في قوتها وسرعتها، ويعود الشاعر إلى مدح فرسان قومه السعديين فيصفهم بأنهم أسود طوال، ويصف أفراسهم بأنها بين الدهمة والخضرة، ثم يشير إلى آثار المعركة وما تركته من دماء طرية على ثياب المحاربين وقد اختلطت بالمسك الذي على نحورهم مما يعني التحضر والغنى، وأن هؤلاء الفرسان كلما خرجوا من جوله ردتهم إلى جولة أخرى ظلال الرماح المحيطة بهم، ولا يفوت سلامه في النهاية من الإشارة إلى نتائج الحرب وأنها حصدت العلية من بني عامر ولم يبق إلا نساؤهم ينتحبن عليهم يقول [(١)]:

تلاقت بنو كعب وأفناء مالك ... بأمر كصدر السيف وهو جليل
ترى كل مشبوح الذراعين ضيغهم ... يخب به عار شواه عسول
أغر من الفتيان يهتز للندى ... كما اهتز عضب باليمين صقيل
كأن المذاكي حين جد جميعنا ... رعيل وعول خلفهن وعول
عليهن أولاد المقاعس قرحا ... عناهيج في حُوّلهن صهيل
كأن على فرسانها نضخ عندم ... نجيع ومسك بالنحور يسيل
إذا خرجت من غمرة الموت ردها ... إلى الموت صعب الحافتين ظليل
فما تركوا في عامر من منوه ... ولا نسوة إلا لهن عويل
تركن بحيرا والذهاب عليهما ... من الطير غايات لهن حجول

(١) ديوانه ١٨٩.

ويفخر سلامه السعدي يكرم قومه، فهم إذا اشتد البرد واشتد الزمان وصارت صلاب الإبل وقوياتها في مباركها لا تنشط للانتشار في مسارحها، وإن كان النهار قد تعالى سعد بهم القريب والجار والضيف، وقد يضربون بالقداح على الابل الغالية الثمن ليعقروها في ذوي الحاجة.

كما يفخر الشاعر بشجاعة قومه فيذكر بعض أيامهم وانتصاراتهم، ومنها اجلائهم لربيعة عن بلادهم بهجر حيث قاتلوهم قتال من يبغي القضاء على عدوه لا من يذبه ويدفعه، فحال ذلك دون نزولهم وأرغمهم على متابعة الفرار نحو الشام. كما تحدث الشاعر عن يوم الكلاب الثاني الذي انتصرت فيه تميم على مذحج وأحلافها من اليمن، وأشار إلى فرار أبي كرب وهو بشر ابن علقمه بن الحارث وصاحبيه وهما الأسود بن علقمه وعبد المسيح بن الأبيض، ومدح دوابهم بسطا لعذرهم في خلاصهم فوصف خيولهم بالطويلة الأعناق والظهور المسرجه. يقول [(١)]

إنا إذا غربت شمس أو ارتفعت ... وفي مباركها بزل المصاعيب

قد يسعد الجار والضيف الغريب بنا ... والسائلون ونغلي ميسر النيب

سقنا ربيعة نحو الشام كارهة ... سوق البكار على رغم وتأنيب

إذا أرادوا نزولا حث سيرهم ... دون النزول جلاد غير تذبيب

والحي قحطان قدما ما يزال لها ... منا وقائع من قتل وتعذيب

لما التقى مشهد منا ومشدهم ... يوم العذيب وفي أيام تحريب

لما رأوا أنها نار يضرمها ... من آل سعد بنو البيض المناجيب

ولي أبو كرب منا بمهجته ... وصاحباه على قود سراحيب

---

(١) ديوانه ٢٢٤.

قد أوعدتنا معد وهي كاذبة   نصراً فكان لها ميعاد عرقوب
وقد نقدم في الهيجاء إذا لقحت   يوم الحفاظ ونحمي كل مكروب

ويفخر سلامه بسعدي تميم سعد بن زيد مناه وسعد بن مالك بن زيد مناه وبما أحرزوه من مكانة بين قبائل العرب، ويتكيء على يوم جدود في إبانة هذه المكانة وهو يوم كان بين بني سعد بقيادة قيس بن عاصم وبين بني شيبان بقيادة الحارث بن شريك يسانده أبجر العجلي وكان الظفر فيه لتميم على بكر. وقد نعت الشاعر جيش بكر بأنه كثير وله جلبة وأصوات، ومع ذلك فقد ذهبت أعراض المهزوبين مع نقع سنابك خيل الظافرين. وقد أشار سلامه في قصيدته إلى مواجهة ثانية بين تميم وتغلب بقيادة الهذيل التغلبي كما تحدث عن نصرة سعد لبني ضبه والرباب، ويصف هؤلاء بأنهم أسود ذوو صلابة وقوة وعزيمة ومضاء وبأنهم أبطال صناديد ينفذون ما عزموا عليه، ولم يعرف عنهم بأنهم غدروا بجارهم أو خانوا من أنجدوا. وخص الشاعر فارس سعد الذي أسر الربيع التغلبي بأنه سريع النوال لما يرغب فيه من مقاصد وآمال، يعطي تلك الرغائب وينعم بها غير فاخر بالأنعام يقول [(١)]

فسائل بسعدي في خندف   وقيس وعندك تبيانها
وإن تسأل الحي من وائل   تنبئك عجل وشيبانها
بوادي جدود وقد غودرت   بصيق السنابك أعطانها
بأرعن كالطود من وائل   يؤم الثغور ويعتانها
تكاد له الأرض من رزّه   إذا سار ترجف أركانها
قدا ميس يقدمها الحوفزان   وأبجر تخفق عقباتها

(١) ديوانه ٢٥٢.

وجشام إذ سار في قومه ... سفاها إلينا وخسرانها
وتغلب إذ حربها لاقح ... تشب وتسعر نيرانها
غداة أتانا صريخ الرباب ... ولم يك يصلح خذلانها
صريخ لضبة يوم الهذيل ... وضبة تردف نسوانها
تداركهم والضحى غدوة ... خناذيذ تشعل أعطانها
بأسد من الفرز غلب الرقاب ... مصاليت لم يخش إدهانها
فحط الربيع فتي شرمح ... أخوذ الرغائب منانها
فقاظ وفي الجيد مشهورة ... يعنيه في الغل إرنانها

ويفخر أوس بن حجر بانتصار قومه على بني عبس وأخلاط عامر انتصارا ساحقاً، مصورا هذا الانتصار في صورة السحابة الغزيرة المطر بدماء الأعداء، وبصورة العصا التي قشر عنها لحاؤها، ثم يشير إلى ما آل إليه حالهم من تصفية جسدية ومالية حتى صار من بقي منهم في حالة سيئة من الفقر والبؤس. ويتحدث الشاعر عن أسباب هذا النصر المؤزر، ومن هذه الأسباب قوة جيشهم وتماسكه وكثرته فهو كالجبل الشامخ صلابة وامتدادا يمضي أوله ولا ينقطع من كثرته وكل أفراده من صميم تميم. ومن أسباب انتصارهم ثقة القوم بأنفسهم واعتدادهم بقوتهم فهم يرون أن حروب غيرهم تضيق وتتضاءل وأن حروبهم تتسع وتتعاظم، وهم يركبونها على أصعب أحوالها، ومن أسباب غلبتهم شعورهم القوي بالانتماء وارتباطهم بالأرض فقد نشبوا بأرضهم كما ينشب الولد في بطن أمه، وهم بأجمعهم حريصون على حمايتها والدفاع عنها بكل قواهم. ويخص الشاعر عشيرته بني أسيد بن تميم بالذكر فهم مظنة الخير المشهورون به شهرة نجوم السماء، وفي الوقت الذي يحمون فيه حماهم تتسع قدرتهم لاستباحة حمى غيرهم برماحهم القوية، وفي تصوير قوة قومه وهيبة الناس لهم يجعلهم يرتدون جلد أفعى

أسود وفروة أسـد هصورليكتسبـوا من الأفعى صفة الخلود ومن الأسـد صفة الشجاعة فلبسهم لهذا الجلد المزدوج يحميهم من الأعداء بقوة هذين الحيوانين اللذين يرى العرب فيـهما رمزي القوة والخلود. وأخـيرا يفخر الشاعـر بنسبه وحسبه وبمكانته بين قومه ودوره البارز في حمايتهم والدفاع عنهم يقول [(١)]

صبـحن بني عبيس وأفناء عـامر ... بصـادقـة جـود من الماء والدم

لحـينهم لحي الـعـصـا فطردنهم ... إلى سنـة جـرذانهـا لـم تحلم

بأرعن مـثل الطود غـيـر أشـابة ... تناجـز أولاه ولم يتـصـرم

أري حـرب أقـوام تدق وحـربنا ... تجل فـتـعروري بهـا كل مـعظم

ترى الأرض منا بالفضـاء مريضة ... مـعـضلة منـا يجـمع عـرمـرم

لنا مـرجـم ننفي به عـن بلادنا ... وكل تميـم يرجـمـون بمرجم

أسـيـد أبـناء له تتـابعـوا ... نجـوم سـمـاء من تميم بمـعلم

نبـيح حمى ذي العـز حين نريده ... ونحـمي حمـانا بالوشيج المقـوم

يرى الناس منا جلد أسـود سالخ ... وفروة ضرغام من الأسـد ضيغم

متى تبع عـزي في تميم ومنصبي ... تجدلي خـالا غير مـخز ولا عم

تجـدني من أشرافـهم وخيـارهم ... حفيظا على عوراتهم غـير مجرم

ولأوس قصـيدة أخرى جـاءت صدى لحرب كـانت بين تميم وبين أسد وغنى، وهذه القبـائل تتفرع عن خندف المضـرية، فالشاعـر يقول فيهـا : ما أقرب أنسابنا ولكننا كثرنا فتقاطعـنا، ثم يشير أوس إلى موقف قبيلته من أسد عندما أغـارت بنو عامـر بن صعـصعه علـيها فنادت بنو أسـد: يال خندف

(١) ديوانه ١١٩ .

فأصرختهم بنو سعد فذكر ذلك الشاعر ومنّ به على الأسديين، وقال لهم : كيف وجدتمونا وقد ذقتم ما عندكم أي خبرتم أمر أنفسكم فلم تنهضوا حتى نصرناكم وقد كنتم في حالة لا طعم لها ولا طيب فيها، ثم يشير إلى آثار الحرب وما تركته من قتلي وصرعى، فالخيول الطويلة الحسنة الخلق قد ولت الأدبار وتركت فرسانها مضطجعين أشلاؤهم متناثرة هنا وهناك، وقد استلقوا على الأرض وتمددوا مضرجين بالدماء وكأنهم جذوع النخل التي بللها المطر، وفيهم رجال أشداء سقطت عليهم النسور لتنال منهم، وفي آباطهم ثعلب الرمح المنكسر وفي صدورهم طعنة هي في اتساعها كجيب الفتاة. ثم يقول: وإننا وإخواننا من بني عامر نمتثل ما تأمرنا به أنفسنا من الإيقاع بهم والفتك فيهم على ما بيننا وبينهم من قرابة، وإن لنا اهتياجة يتبعها سكون كما يكون للنفساء إذا طرقت بولدها أي صرخت عند تعسر الولادة ثم تسكن حركة المولود فتسكن هي أيضا. وأخيرا يقول : نحن من عزنا وكثرتنا ننزل حيا وراء حيّ ونحبس إبلنا حتى تنحر. يقول [(١)]

غني تآوى بأولادها ... لتهلك جذم تميم بن مر
وخندف أقرب بأنسابهم ... ولكننا أهل بيت كثر
فإن تصلونا نواصلكم ... وإن تصرمونا فإنا صبر
لقد علمت أسد أننا ... لهم نصر ولنعم النصر
فكيف وجدتم وقد ذقتم ... رغيغتكم بين حلو ومر
بكل مكان ترى شطبة ... مولية ربها مسبطر
وأذن لها حشرة مشرة ... كإعليط مرخ إذا ما صفر
وقتلى كمثل جذوع النخيل ... تغشاهم مسبل منهمر

---

(١) ديوانه ٢٩.

وأحمر جعدا عليه النسور وفي ضبنه ثعلب منكسر
وفي صدره مثل جيب الفتا ه تشهق حينا وحينا تهر
وإنا وإخوانا عامرا على مثل ما بيننا نأتمر
لنا صرخة ثم اسكاته كما طرقت بنفاس بكر
نحل الديار وراء الديار ثم نجعجع فيها الجزر

وفي معلقة الحارث بن حلزه يفخر الشاعر بأيام قبيلته بكر فيقول مخاطبا خصومها التغلبيين: قد علمتم حمايتنا الناس أيام أغير عليهم وعلا ضجيجهم وصياحهم في الغارات عندما سرنا بجمالنا سيرا شديدا من البحرين حتى وصلنا إلى الحساء مغيرين على القبائل، ثم ملنا من الحساء فأغرنا على بني تميم ثم دخلنا في الشهر الحرام وعندنا سبايا من بنات القوم الذين أغرنا عليهم فجعلناهم إماء، ولم ينج الهارب منا تحصنه بالجبل ولا بالحرة الغليظة الشديدة، فملكنا الناس بقوتنا واتساع نفوذنا حتى صار المنذر الثالث ملكا على العرب. ومهما حاولت يا عمرو بن كلثوم أن تشي بنا لديه بزيف الباطل فلن ينتهي بك ذلك إلى غايتك، فإن لدينا رصيدا عنده يحفظ مكانتنا وأبرزه ثلاث خلال في كلهن ما يقضي لنا بولاء الملك، إحداها الحرب التي قامت بها معد حين جاءت بألويتها وراياتها متحصنين بسيد من بلاد اليمن هو قيس بن معد كرب حيث كف البكريون عادية قيس وجيشه عن عمرو بن هند، والثانية جماعة من أولاد الكرائم الشواب لا يمنعها عن مرامها إلا كتيبة مبيضه ببياض دروعها وبيضها عظيمة ممتدة، وقد رددنا هؤلاء القوم بطعن خرج الدم من جراحه خروج الماء من أفواه القرب وثقوبها وألجأناهم إلى التحصن بغلظ جبل ثهلان والالتجاء إليه في مطاردتنا إياها وأدمينا أفخاذهم بالطعن والضرب ومنعناهم أشد منع وأعنف ردع فتحركت رماحنا في أجسامهم كما تتحرك الدلاء في ماء البئر المطوية بالحجارة، وفعلنا

بهم فعلا بليغا لا يحيط به علما إلا الله ولا دماء للمتعرضين للهلاك أو الهالكين ولم يطلب بثأرهم ودمائهم. وخلصنا امرؤ القيس من حبسه وعنائه بعدما طال عليه، وكانت مع الجون كتيبة شديدة العناد كأنها في شوكتها وعدتها هضبة دفئه فما جزعنا تحت غبار الحرب حين تولوا ولا حين استعرت الحرب، وقتلنا بقتيل المنذر ملك غسان ومن معه من جنوده الذين استمر القتل فيهم وعظم وأتينا الملك الحيري بتسعة ملوك كرام أسلابهم غالية وهؤلاء الملوك من بني حجر آكل المرار كان طلبهم المنذر فأسرهم بنوبكر وأتوه بهم فقتلهم في الحيرة وقد زوجنا أم هذا الملك بأبيه لما أتانا مهرها فنحن أخواله.

يقول (١)

إذ ركبنا الجمال من سعف البحـ	رين سيرا حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فأحرمنا	وفينا بنات قوم إماء
ليس ينجي موائلا من حذار	رأس طود وحرة رجلا
فملكنا بذلك الناس حتى	ملك المنذر بن ماء السماء
أيها الناطق المبلغ عنا	عند عمرو وهل لذاك انتهاء
إن عمرا لنا لديه خلال	غير شك في كلهن القضاء
من لنا عنده من الخير أيا	ت ثلاث في كلهن البلاء
آية شارق الشقيقة إذجا	وا جميعا لكل حي لواء
حول قيس مستلئمين بكبش	قرظي كأنه عبلاء
وصتيت من العوائك لا تنهاه	الا مبيضة رعلاء
فرددناهم بطعن كما يخـ	رج من خربة المزاد الماء

(١) ديوانه ٢٨.

وحـمـلـناهم على حـــزم ثهـلا ... ن شــــلالا ودمي الأنســـــاء

وجــبـهناهم بطـعن كـمـا تُنهـز ... في جــــمــــة الطـوي الدلاء

وفـــعلنا بـهم كـمـــا علـم الله ... ومــــا إن للحــــائنين دمــــاء

وفككنا غل امـريء القـيس عنه ... بعــــدمــا طال حــبـه والـعناء

ومع الجـون جـــون آل بني الأو ... س عنـود كــــأنهــــا دفــــواء

ما جـزعنا تحت العجـاجة إذ ولّـ ... وا شــــلالا وإذ تلظـى الصـــلاء

وأقـــدنـاه رب غـــســـان بـالمنـ ... ذر كــــرهـا إذ لاتكال الدمـــاء

وأتينـاهم بتـــســـعـــة أمـــلا ... ك كـــرام أســـلابهم أغـــلاء

وولدنا عـــــمـــرو بـن أم أناس ... من قـــريب لما أتانا الحـــبــاء

ويفخر المفضل العبدي بانتصار قومه على بني لجيم بن بكر فيقول : لو رأيتنا يوم سرنا إلى القتال في بطن أثال ونحن نقود جيادنا جهارا لرأيت شيئا عظيما، أفدي بخالتي أهلي من بني لكيز ولا سـيما يوم المعركة حين قتل من قتل وكانت أسنانهم قـصارا فتقلصت شفاههم بعـد الموت عن أسنانهم فبدت طوالا، إنهم هم الذين صـبروا في القتـال وكان صبرهم قـليلا في كل نازلة وشدة تبلغ فيـها النفوس الحناجر وهم ردوا عنا منايانا فـولت عنا وقد كادت تحل بنا، تلاقـينا في وادي ذي طريف وكل منا يحـمل الحقـد على صاحـبه فكانوا كأنهم السحاب ا لمنهمر وكنا كـأنا السيل المتدفق ضاق به الطريق، لقد أضر ثعلبـة بن سيار بأصحـابه الذين جمعهم وسـاقهم ولما احتدمت المـعركة القينا برماحنا وسللنا سـيوفنا نضرب بها الهام فنفلقهـا ونذيقها طعم الموت، وتركنا الضباع تعبث بقتلانا وقـتلاهم والغربان تنعق لما نالها من الشبع، ورب سائلة تـسألنا: أين ثعلبـة بن سيار؟ ولـم تدر أن المنية أودت به. ولما عـرفوا صبـرنا في القتال وذقنا صـبرهم تذكرنا وتـذكروا ما بيننا من أواصـر القربى

ووشائج المودة فكفوا عنا وكففنا عنهم وعندما تذكرنا قرابتنا أبقينا عليهم ولو أردنا لما قامت لبني لجيم قائمة، ولم تستطع قود الخيل ولا سوق الابل. وهكذا أنعمنا بالبقيا عليهم وأبأسنا بقتلهم ففي كل بيت من بيوتهم أسير أطلقنا سراحه. يقول(١)

فإنك لو رأيت غداة جئنا ... ببطن أثال ضاحية نسوق

فداء خالتي لبني حبي ... خصوصا يوم كس القوم روق

هم صبروا وصبرهم تليد ... على العزاء إذ بلغ المضيق

وهم دفعوا المنية فاستقلت ... دراكا بعد ما كادت تحيق

لقينا الجهم ثعلبة بن سير ... أضر بمن يجمع أو يسوق

فألقينا الرماح وكان ضربا ... مقيل الهام كل ما يذوق

تركنا العرج عاكفة عليهم ... وللغربان من شبع نغيق

قتلنا الحارث الوهاب منهم ... فخر كأن لمته العذوق

وسائلة بثعلبة بن سير ... وقد أودت بثعلبة العلوق

فلما استيقنوا بالصبر منا ... تذكرت العشائر والحزيق

وأنعمنا وأبأسنا عليهم ... لنا في كل أبيات طليق

ويشيد النعمان بن زرعة التيمي التغلبي بفوارس قومه وما أظهروه من بطولات على أرض فلج الخليجية ناسبا صباح ذلك اليوم إلى أبي أثال وهو أول غلام قتل من بني عمران بن تغلب وكان حليفا في بني حنظلة بن تيم، ويقسم الشاعر بأن بني تيم هم خير الفتيان وأن أخبار بطولتهم وانتصاراتهم ستنتشر في الآفاق وسيعلم بها كل من يهتم بالبطولات والأبطال، فحين صار

---

(١) الأصمعية ٦٩.

الغزاة على مشارف بلاد بني تميم (فلج) وأوشك الفريقان أن يتقابلا كان فرسان تغلب يمتطون صهوات جيادهم التي برزت نواصيها لمعسكر تميم. ويصف الشاعر هؤلاء المقاتلين بأنهم أصحاب كبرياء وشرف وعلو وارتفاع. وحينما التحم الفريقان كان الموت سجالا بينهما سجل منه على هؤلاء وسجل على هؤلاء، فالأرواح تزهق مع طعنات الرماح والرؤوس تقطع مع ضربات السيوف. ويعدد الشاعر مشاهير تميم القتلى منهم مالك بن قره وعوف بن حابس وابن حرثان وعقال بن أوس وعطارد بن حارثة، إلى جانب الأموال التي أحرزوها والسبايا والأسرى الذين استسلموا من صفوف تميم. ثم يخص النعمان بالتنويه من بني تغلب بني زهير فهم في رأيه فوارس بني مالك كما يرى بني تيم سراة بني غنم ونبلاءهم يقول [١]

لعمر أبيك والأنباء تنمي ... وقد تجلى العماية بالسؤال
لنعم فوارس الهيجاء تيم ... على فلج صباح أبي أثال
غداة رأت نواصيها تميم ... عجال الشد ساقطة النعال
عليها كل أصيد مالكي ... من الشم الشرامخة الطوال
فدارت بيننا رحيا مدير ... يساقون المنية بالسجال
طعان تخرج النسمات منه ... وضرب يختلي هام الرجال
فغودر مالك وأبو يزيد ... وقعقاع وأجلو عن عقال
وأبنا بالنهاب وبالسبايا ... وبالأسرى تقود في الغلال
فقولا للأراقم غير بغي ... وبغي المرء أقرب للسفال

(١) الشمشاطي: الأنوار ومحاسن الأشعار ٨٤.

ألا أنـي رأيت بـني زهـيـر	فـوارس مـالك يوم الـنزال
كـمـا أني وجـدت سـراة غنم	بني تـيم إذا اخـتـلف العـوالي

ويبـعث هناءة بن مالك الأزدي برسالة إلى قومه النائين في الحجاز يخبرهم فيها بقوتهم وانتصاراتهم، فقد استطاعت جيوشهم الكثيفة ذوات العدد والعدة أن تهزم قائد الفرس، وتردهم على أعقابهم خاسرين، بفضل الفتيان الأقوياء الشجعان الذين امتطوا صهوات أعظم الجياد وأقواها ولبسوا أجود أنواع الدروع، فاقتحموا صفوف الفرس وصمدوا في وجوههم وحاربوهم بقوة لا تعرف الهوادة وإقدام لا يعرف النكوص، رغم ما نصبه الأعداء من قسي كأعناق الابل المقطوعة الآذان ورماح قويمة تضطرب في أيديهم، في محاولات يائسة لصد الفرسان وأفراسها يقول [(١)]

ألا هل أتي عنا حجازي قومنا	على النأي أبناء الخميس العرمرم
ومنذ لقينا المزربان وقومه	بكل فتى عاري الأشاجع ضيغم
على كل محبوك السراه مصدر	ومن كل مضخام الحرارة صلدم
عليهم من الماذي كل مفاضة	كمتن الغدير سردها لم يخضرم
فلما التقينا لم تهنا جيادنا	ولم نلف أنكاسا ولم نتلعثم
إذا ما بدرنا بدرة نصبوا لنا	قسيا كأعناق المطي المخدم
يصيحون في أدبارها وورودها	بحل وترجيف الوشيح المقوم

ويفتخر عميرة بن عمارة التيمي بانتصار قومه البكريين في يوم الوقيط على بني تميم، محددا مجال الغارة ما بين لصاف في الصمان بهجر وفلج قرب الخليج العربي، ومشيرا إلى خطتهم الناجحة القائمة على السرعة

---

(١) شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام ٩٤.

والتكتم في تنفيذها، حيث هجموا بغتة على عدوهم متخذين من نقع المعركة دروعا لهم، كما يشير إلى نتيجة الحرب وهي انتصارهم على بني تميم الذين أصبحوا بين قتيل وأسير، ويختم الشاعر أبياته بأن ما وقع لهم إنما كان عقوبة من الله فهو الذي أوقع بهم جزاء وفاقا يقول (١)

مددنا غارة ما بين فلج ... وبين لصاف نوطئها الديارا
فما شعروا بنا حتى رأونا ... على الرايات ندرع الغبارا
وكم غادرن منهم من قتيل ... وآخر قد شددناه إسارا
كذاك الله يجزي من تميم ... ويرزقها المساءة والعثارا

وفي الفخر بالثأر يفخر لقيط بن زراره بتمكن فرسان قومه بني دارم من قتل (أشيم بن عوف) أخي بني قيس بن ثعلبة انتقاما من قتلهم (علقمة بن زراره الدارمي) الذي كان المقتول كفؤا له وكان في قتله خسارة كبرى لقومه البكريين، وكأنما قطع التميميون شرف اليمامة كلها واستأصلوا عزها الشامخ يقول (٢)

فإن قتلوا منا كريما فإننا ... قتلنا به مأوي الصعاليك أشيما
جدعنا به أنف اليمامة كلها ... فأصبح عرنين اليمامة أكتما
قتلنا به خير الضبيعات كلها ... ضبيعة قيس لا ضبيعة أضجما

ويفخر مالك بن مخارق العبدي بقومه الذين اختاروا المكانة الرفيعة في الحياة وتبوأوا سنام المجد والشرف وأنهم ذوو نفوس كبيرة، إذا قتلوا أعداءهم

(١) المرزباني: معجم الشعراء/ ٢٤٢.
(٢) الآمدي: المؤتلف والمختلف ٢٦٧.

لم يستحسنوا سلبهم ولا تركهم وأنهم يقتحمون الأهوال مهما بلغت من الكبر والصعوبات يقول(١)

وإني من القوم الذين تخيروا ... من المجد والعلياء ما يتخير
ومن يسلب القتلى فإن قتيلنا ... وإن كان مشنوءا يجن ويقبر
وإنا لواردون في حومة الوغى ... إذا جعلت صم القنا تتكسر

ويفخر رجل سدوسي بانتصار قبيلته بكر على تميم في يوم الزويرين، وهما جملان جاءت بهما تميم مقيدين مقرونين وأناختهما وسط المعركة وقالت لا نولي حتى يولي هذا الجملان، ولكنها هزمت واستولى البكريون على الجملين وسائر الغنائم بعد كر وفر من الشباب والشيوخ يقول(٢):

يا سلم إن تسألي عنا فلا كشف ... عند اللقاء ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا ... جيش الزويرين في جمع الأحاليف
ظلوا وظللنا نكر الخيل وسطهم ... بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

ويفخر عمرو بن قبيصة الدارمي بقومه مشيدا بشجاعتهم وقدرتهم الفائقة على حماية بلادهم، فهم يملكون من الرماح المسنونة الزرق الشيء الكثير، وهم قادرون أن يروونها من دماء من يعتدي عليهم ، ثم يعدد نفرا من أبرز رجالهم فيذكر زراره بن عدس سيد بني دارم وأبناءه وأحفاده ومنهم عمرو بن زراره وابنه القعقاع بن عمرو وحاجب بن زراره الذي رهن قوسه عند كسرى ليضمن به عدم اعتداء تميم على بلاد كسرى نظير أن يسمح

(١) الأشباه والنظائر ٢/ ٢٧٧.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٢٠٦.

بالإقامة لهم في المواضع المتاخمة لمملكة الفرس ومراعيها الخصيبة بعد أن جهدتهم السنين يقول (١)

نحن بنو زيد إذا حضر القنا	منعنا حمانا والرماح رواعف
وإني لمن قوم زراره منهم	وعمرو وقعقاع أولاك الغطارف
وذو القوس منا حاجب قد علمتم	كفى مضر الحمراء إذ هو واقف

ويفخر ضوء بن اللجلاج السدوسي الشيباني بكثرة قومه وعزتهم، ويبالغ في ذلك مبالغة خيالية حين يرى قبيلته تزيد في عددها على سائر الخلق أجمعين كما يفخر بعدتهم ويخص من بينها سيوفهم المعروفة منذ القدم بصرامتها وحدتها، كما يخص من عتادهم رماحهم التي تغطي أشعة الشمس كثرة وسرعة ونفاذا، أما رجالتهم فيصفهم بالأقدام إلى الحد الذي يجعل الموت يهابهم ويتراجع أمام قوتهم وثباتهم. يقول (٢)

فلو أن خلق الله ضم جميعهم	إلى جمعنا كنا أعز وأكثرا
على عهد ذي القرنين كانت سيوفنا	قواطع يقطعن الحديد المذكرا
يرد شعاع الشمس غاب رماحنا	ونعرف حد الموت حتى تكركرا

ويخاطب راشد اليشكري فتيان قبيلته من بني يشكر فيخبرهم بأنهم سوف يلاقيهم من الشدائد ما يستدعي الصبر، وأوصاهم في تهكم بحي شيبان قوم قيس بن خالد الشيباني، وذكرهم بما قال قيس من استهانة ببني يشكر حين اللقاء، ثم خاطب قيس بن مسعود بن قيس بن خالد وعيره بما كان من فراره

---

(١) المؤتلف والمختلف ٢٢١.

(٢) المؤتلف والمختلف ١٤٦.

وهربه من الأخذ بثأر عمرو حميمه، وبالجراحات البليغة التي قضى الصيف كله في علاجها، ثم فخر بقومه وكرم محتدمهم ووفائهم يقول[(١)]

من مبلغ فتيان يشكر أنني ... أرى حقبة تبدي أماكن للصبر

فأوصيكم بالحي شيبان إنهمم ... هم أهل أبناء العظائم والفخر

على أن قيسا قال قيس بن خالد ... ليشكر أحلى إن لقينا من التمر

رأيتك لما أن عرفت وجوهنا ... صددت وطبت النفس يا قيس عن عمر

رأيت دماء أسهلتها رماحنا ... شآبيب مثل الأرجوان على النحر

ونحن حملناك المصيفة كلها ... على حرج تؤسي كلومك في الخدر

وفي يوم الشيطين غزت بكر تميم وأزاحتها عن الشيطين الواقع في الصمان بعد انتصارها عليها. وقد كان (مقاس بن عمرو) على ثقة من هذا النصر. وقد أشار إلى ذلك في شعره، وبين أنه حذر تميما من الإقامة في هذه البلاد وأن تهيء نفسها للرحيل منها أو ترحل عنها طوعا قبل أن يأتي اليوم الذي تحمل فيه على ذلك حملا، حيث تخلط بكر إبلها التي لا لبن لها بإبل تميم ذات اللبن، ثم يشير مقاس إلى دور المباغتة في انتصار حلفائه البكريين على التميميين والضبيين فيذكر إغارتهم عليهم قبل أن يعلموا ويستعدوا يقول[(٢)]

تمنيت بكرا بالعراق مقيمة ... وأنى لنا بكر بأكناف عرعر

نهيت تميما أن ترب نحاءها ... وتطوي أحناء الركي المعور

حلفت لهم بالله حلفة صادق ... يمينا ومن لا يتق الله يفجر

---

(١) المفضلية ٨٧.

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٢١٩.

ليختلفن العام راع محنب ... إذا ما تلاقينا براع معشر
فأعجلن ضبا بالوريعة خدعة ... ويربوعها ينفقن في كل مجحر
وما كان روضا طيىء غير شربة ... ولكنما كانا لنا شرب أشهر

ويفخر رشيد بن وميض العنزي باستيلاء بكر على الشيطين وإجلاء تميم منها، ويتحدث الشاعر عن قصة الجلاء فيذكر أن قومه اختصروا مسافة الليالي الثمان في أربع أثناء رحلتهم من لعلع إلى الشيطين في الصمان مما يلي الوريعة، حيث ضاقت بهم هذه الأرض لكثرتهم وضاقت جبالها وآكامها الدهم بجيشها الكبير الذي تلمع سيوفه بمنايا الأعداء، وهذا الجيش العرمرم الذي مر بمراحل أربع خلال السفر عندما بلغ ديار القوم أقام الرعيل الأول منه على مكان مرتفع أوقد نارا ليهتدي بها آخره إلى حيث يلتقي الجميع حيث صبح الجيش البكري تميم الخليجية كبني سعد وبني عمرو وبني مالك ابن حنظله فهزموهم وطردوهم وقد طرد منهم أشراف ضبه وجروا إلى خارج الديار كما يجر فصيل الناقة المتساقط الوبر، ثم يشير الشاعر إلى الحق الشرعي في هذه الحرب وأن بكرا عندما تستولي على هذا الصقع فإنما تستعيد حقا من حقوقها، وأن بني تميم اغتصبوا ما ليس لهم بحق وينصحها ألا تقيم في بلادهم فهي حمى لهم لا يقرب. يقول[١]

وما كان بين الشيطين ولعلع ... لنسوتنا إلا منا قل أربع
فجئنا بجمع لم ير الناس مثله ... يكاد له ظهر الوريعة يظلع
بأرعن دهم تنشد البلق وسطه ... له عارض فيه المنية تلمع
إذا حان منه منزل القوم أو قدت ... لأخراه أولاه سنا وتفيعوا

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ٢١٨.

صبحنا به سعدا وعمرا ومالكا فظل لهم يوم من الشر أشنع

وذي حسب من آل ضبة غادروا يجر كما جر الفصيل المقرع

تقصع يربوع بسرة أرضنا وليس ليربوع بها متقصع

وقلت ليربوع أسر نصيحة ولو أن يربوعا إذا امتار يرفع

يخلو لنا صحن العراق[1] فإنه حمى منهم لا يستطاع ممنع

وفي مقطوعة صغيرة لمحرز الضبي يتحدث عن فرار عوف بن نعمان سيد بني هند الشيباني فيقول : ما نجى ابن نعمان من رماحنا إلا شدة ركضه الخيل وإمعانه في الهرب لما تفرق عنه قومه، وما زال هاربا حتى أتي جبال الدهناء في أول الصمان والذي قاسوه في الصمان من الشدائد علمه عند الله تعالى وما زالوا سائرين حتى أتوا مياه وادي الجوف منتصف النهار سيرا لم ير مثله قوم عاد أو إرم لما دخل عليهم من الرعب . يقول[2]

نجى ابن نعمان عوفا من أسنتنا إيغاله الركض لما شالت الجذم

حتى أتي علم الدهنا يواعسه والله أعلم بالصمان ما جشموا

حتى أنتهوا لمياه الجوف ظاهرة ما لم تسر قبلهم عاد ولا إرم

وهكذا نجد أن الفخر القبلي دار كله حول الحماسة ولم يخرج عن إطار الحديث عن الحروب والمعارك التي خاضتها القبائل الخليجية وتغنى شعراؤها بأمجادها فكان شعرهم في هذا المجال سجلا لبطولاتهم.

---

(١) العراق: من البحر والنهر شاطئه طولا (أي الخليج) المعجم الوسيط.

(٢) حماسة أبي تمام ١/ ٢٢٨.

جـ- الفخر المزدوج

وفي شعر الخليج الجاهلي صنف ثالث من الشعر الفخري جمع بين الفخرين الشخصي والقبلي، وقد مثل هذا الصنف الشعراء الفرسان من أهل البيوتات وأصحاب الرياسة الذين أتاحت لهم بيئتهم أن يستعملوا ضميري المفرد والجمع معا. فخصوا أنفسهم بنصيب وقومهم بنصيب آخر. مستمدين من رصيدهم الفردي والجماعي ما يغذي فخرهم المزدوج. وكانت المرأة مدار تفكير الشعراء في هذا اللون من الفخر، حيث كانت المدخل إلى فخرهم هذا في أغلب قصائدهم التي يتصدرها الفخر الشخصي، لتأكيد ذواتهم أمامهن وتلميع صورهم في أعينهن. وكذلك يفعل أهل الفروسية من الشعراء. فالمرأة في حياتهم تلعب دورا مهما.

فهذا مرقش الأكبر بعد أن شكا من ابتعاد (خولة) عنه واحتلالها مع أهلها في دار كلب. ووجوده بهجر مع أهله يحاول الشاعر أن يستعيد توازنه فيسلي نفسه باستعراض ذكريات فتوته وأيام لهوه وفروسية قومه. فيذكر أن غاراته الظافرة قد أهدت إليه من الحرائر الحسناوات الكثير، وأنه أخذ من لذائذ الحياة ومتعها الشيء الكثير فأقام مجالس فنهل وعب من الخمر التي اشتراها من ماله وتفضل بها على ندمائه. ثم أشار إلى أن هذه الملذات لم تشغله عن خوض غمرات الحروب، فكم امتطى مع قومه صهوات خيل قوية سريعة تمر مر الريح، سوابقها تمضي على ارتفاعها في السير إذا دنا من عينيها ذباب ضربته يخفها فقتلته وهي شديدة طويلة كأنها تمطت فخلقت على ذلك. تشبه الشياب السيراء اليمنية في لطافة خلقها ولينها. تحتفظ بنشاطها إذا فتر غيرها، تتقدم الجياد بعد لقائها بها. وأخيرا ينوه الشاعر بفروسية قومه البكريين وكثرة عددهم وتقدمهم على بني وائل في الحروب

وأصحاب اللواء والفضل فيهم يقول (١)

يا خـول مـا يدريك ربت حـرة	خـود كـريمة حـيهـا ونسـائهـا
قـد بت مـالكـهـا وشـارب رية	قـبل الصـبـاح كريمة بـسبـائهـا
ومغـيرة نسج الجـنوب شهدتـها	تمضي سـوابقـهـا على غلوائهـا
بمحـالة تقص الـذباب يطرفـهـا	خلقت مـفاقمـها على مطـوائها
كـسـبيـة السـيـراء ذات عـلالة	تهدي الجـيـاد غداة غب لقـائلها
هلا سـألت بنا فـوارس وائل	فلنحن أسـرعـهـا إلى أعـدائهـا
ولنحن أكـثـرها إذا عد الحـصى	ولنا فـواضلهـا ومـجـد لوائهـا

وشاب رأس عـبد الله النكـري فزعم الغواني أن شـيبـة ذاك لعلو سنه وتقدم عـمره فطفـقن يسخـرن من ذلك، فأجـابهن أن بياض رأسـه ليس لما زعمنه وإنما هي الحروب شيبن رأسه، وفخر باقتحامه الأهوال وذبه عن الحريم وأنه من معشـر سادة أباة يحمون الجـار ويجنون الجناية فلا يطلب منهم ثار. يقول (٢)

زعم الغـواني أن أردن صـريمتي	أن قد كـبرت وأدبرت حـاجاتي
وضـحكن مني سـاعة وسـألنني	مـذ كم كـذا سنة أخـذت قناتي
مـا شبت من كـبر ولكنني امـرؤ	أغش الحروب ومـا تشيب لداتي
أحـمي أناس أن يبـاح حـريمهم	وهم كـذاك إذا عنيـت حـمـاتي

---

(١) المفضلية ٥١ .

(٢) الأصمعية ٣٠ .

من معشر يأبى الهوان أخوهم	شم الأنوف جحاجح سادات
عزوا وعز بعزهم من جاوروا	وهم الذرى وغلاصم الهامات
إن يطلبوا بجريرة ينأونها	أو يطلبوا لم يدركوا بتراث

ويستعرض النعمان بن زرعه التغلبي بطولته في يوم الكنهل أمام ابنته سلمى، فيذكر مقدما نتيجة المعركة وهو حمله رؤوس فرسان بكر على راية تغلب بعد أن قطعتها السيوف وألقتها كما ترمى ثمار الحنظل بعد تقطيعها وشقها، وينصف الشاعر خصومه عند حديثه عن تفاصيل الحرب، فيشبههم في مهابتهم بالجمال المكتملة السن، ولقد لبسوا دروعهم اللينة الواسعة وتقاتلوا معهم فكان موقفا كثير الضيق والحرج، وقد بدأ الاشتباك بدعوة الأراقم التغلبيين للنزال، وقد تسلحوا بالسيوف المشرفية والرماح الدقيقة ودعوة خصومهم بني ضبيعة وبني تيم بن ثعلبة وبني قيس بن ثعلبة، وقد كان الشاعر في هذا اليوم قطب الرحى فلم يكن ضعيفا ولا ذليلا ولا رديء السلاح ولا جبانا غير مستعد، فعندما دعا قومه وجدهم أسودا مغاويرا ففعلوا مع أعدائهم فعل الأسود من قتل وتمزيق. ويشير النعمان إلى قتله لقائد بني قيس بن ثعلبه شيبان بن شهاب بطعنه بالرمح طعنات صرعته وسط الغبار، وتساقط معه فرسان بكر الذين يشيد الشاعر بمناقبهم، فيهم ذورا أعراض نقية وسجايا عالية فكأنهم شهب نورانية تضيء الليل الدامس ويبدي إعجابه بشجاعتهم وصعوبة الوصول إليهم وأن أحدا غير تغلب لا يقدر على هزيمتهم يقول [(١)]

(١) الأنوار ٨٥.

ولوأن سلمى أبصرتني في الوغى	وجموع قيس يوم وادي الكنهل
وبرايتي هام الكماه كأنما	تذري السيوف بها نقيف الحنظل
يمشون في الزعف المضاعف نسجه	مشي الجمال إلى الجمال البزل
في مأزق تدعو الأراقم وسطه	بالمشرفي وبالوشيح الذبل
أيقنت أن أباك غير خديه	رث السلاح ولا اليراع الأعزل
ودعوا ضبيعة ثم تيما بعدها	وثنوا بثعلبة الأغر الأول
فدعوت في حي الأراقم دعوة	خطفتهم خطف الخشام الأجدل
واعتمت شيبانا بأول طعنة	فهوى لحر جبينه في القسطل
في فتية بيض الوجوه كأنهم	شهب تضيء ظلام ليل مقبل
لله در فوارس بهمية	لو غير تغلب سامها لم تفلل

وفي يوم فلج التقت تغلب بقيادة النعمان بن زرعة بتميم بقيادة هزيم ابن مالك الحنظلي فهزمت تميم بعد أن قتل منها من قتل وأسر من أسر. وفي هذه القصيدة يفتخر حسان بقتله رئيس تميم في هذه الغزوة حيث يطلب من صاحبته أن تسأل عنه بني زهير بن تيم - وكانوا كماة الناس - وما فعله بفرسان تميم وبخاصة زعيمهم، فقد تركه الشاعر جثة هامدة وقد انغرز سنان الرمح في جسده وتكسر وكلما حاول النهوض منعه النزف الشديد وقد تراكمت عليه الطيور الجارحة تنهش من لحمه، وكان الشاعر قد هشم صدر القتيل وترك فيه شقا واسعا مثل جيب الدرع كلما دخل فيها الهواء صفرت. وبعد أن يتحدث عما فعله بقائد تميم من الأفاعيل يعود ليتكلم عن سير المعركة عامة فيذكر أن قومه بني تيم يعلمون مكانته وفروسيته، وأن من بداخل الدروع بطلا صنديدا في الموقف المهول. ثم يشيد بخصومهم التميميين الذين هزموهم فهم سادة عظام نشطاء متدرعين بالدروع الفضفاضة ويشير إلى

لحظة نشوب المعركة والشعار الذي كانوا يبدأون به المواجهة حيث نادت تميم ياالخندف ونادت تغلب ياالتغلب، ويعدد حسان أسماء أحيائه وجدوده مركزاً على بني زهير الذين كانوا حماة القوم، وذاكرا جده الثاني السفاح والثالث خالد والرابع كعب، منوها بفروسيتهم وجمعهم بين الكرم والشجاعة يقول[1]

سائلي عني زهيرا تخبري ... يوم فلج والمنايا تختطف

يوم غادرت هزيما ثاويا ... وسنان الرمح فيه منقصف

تعصب الطير عليه كلما ... حاول النهض تأباه النزف

فناي مني وفي حيزومه ... مثل جبب الدرع تمكو وتكف

ولقد تعلم تيم أنني ... نعم حشو الدرع في اليوم الكشف

إذ لقينا من تميم عصبة ... كقروم الشول تمشي في الزعف

يوم نادت في وغاها خندفا ... وتنادينا بأباء شرف

من زهير دون حيي مالك ... وزهير نعم مرداة الهدف

وأبي السفاح ألفى خالدا ... تالد المجد وكعب قد عرف

عصمة الناس إذا ما أمحلوا ... وشهاب حين تصطك الحجف

وفي يوم السلي أغار بنو مازن على بني يشكر فأصابوا منهم ففخر حاجب بن ذبيان المازني بهذا الانتصار، في أبيات أعلن فيها تفوق قومه على بني وائل جميعهم بكرهم وتغلبهم. فحين تشتد الحرب تكون الغلبة لهم على أعدائهم فهم كالسم القاتل في حربهم وعداوتهم، وهم أهل الحكمة يلبسون لكل حالة لبوسها، ففي الحرب جبارون قساة يستعملون بأيديهم الرماح الخطية والسيوف المجلوة التي تطيح بمقدم دماغ العدو، وفي السلم يمدون موائدهم

(١) الأنوار ٨٤.

لكل ضيف وجائع. فهم أهل المجد والشرف الجديرون بالعزة والفخار يقول[١]

سلي يشكرا عني وأبناء وائل ... لهازمها طرا وجمع الأراقم

ألم تعلمي أنا إذا الحرب شمرت ... سمام على أعدائنا في الحلاقم

عتاة قراة في الشتاء مساعر ... حماة كماة كالليوث الضراغم

بأيديهم سمر من الخط لدنة ... وبيض تجلى عن فراخ الجماجم

أولئك قوم إن فخرت بعزهم ... فخرت بعز في اللهى والغلاصم

هم أنزلوا يوم السلي عزيزها ... بسمر العوالي والسيوف الصوارم

وفي سياق اعتذار حرب بن سلمه العبدي لشيبة العاجل وشيخوخته المبكرة يفخر الشاعر بتغلبه على الأهوال التي خاضها والمصاعب التي واجهها، وهو يخاطب ابنته حين أنكرت حالة بعد غياب طويل، مقارنا بين تلك الحال التي كان عليها وبين حالة ابنته أمامه، وما هي فيه من نعمة وترف وأمن وراحة، الأمر الذي جعلها محتفظة بجمالها وشبابها، مما يشير إلى المستوى الاجتماعي العالي الذي تعيش فيه . يقول[٢]

تقول ابنة العبدي يوم لقيتها ... تنكرت حتى كدت منك أهال

فإن تعجني مني أمام فقد أتت ... ليال وأيام علي طوال

وإني من قوم تشيب سراتهم ... كذاك وفيهم نائل وفعال

ولو لقيت ما كنت ألقى من العدي ... إذن شاب منها مفرق وقذال

ولكنها في كلة كل شتوة ... وفي الصيف كن بارد وحجال

تصان وتعلى المسك حتى كأنها ... إذا طرحت عنها النصيف غزال

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٠٢.

(٢) حماسة الخالدين ٢/ ٢١٩.

ويفخر ربيعة بن مقروم بأيام ضبه وتميم، فيذكر يوم بزاخه وفيه انتصرت ضبه على محرق الغساني ومن معه من اياد وتغلب، ثم يذكر يوم النسار الذي انهزمت فيه عامر بن صعصعه على يد ضبه وأسد، كما يذكر يوم طخفه حيث انتصرت ضبه على المنذر بن ماء السماء، ثم يذكر يوم الكلاب الثاني وقد انتصرت فيه تميم وضبه على مذحج وأحلافها، ثم يشير إلى يوم النقيعة وفيه انتصرت ضبه على عبس، وأخيرا يذكر يوم السليم لضبه وتميم، وينهي فخريته بتأكيد شجاعة قومه وقيامهم على الثغور المخوفة وإعدادهم العدة من السلاح والخيل. وفي القسم الأول من القصيدة حتى البيت التاسع عشر بدأ بوصف رسوم دار صاحبته ووقوفه عليها وبكى لتذكرها ثم ذكر الرحلة على ناقة أسهب في نعتها وشبهها بالعير الوحشي، وساق حديثه عنه وعن أتنه وسلطانه عليها، ووصف الصائد يتربص بها عند الماء وكيف فرت منه، ليجعل ذلك شبها لسرعة ناقته، ثم فخر بأخلاقه وحسن سياسته لمخاطبه وبقومه وكرمهم. ومماجاء في هذه القصيدة في الفخر بنفسه وبقومه[(١)]

وإن تسألينى فإني امرؤ ... أهين اللئيم وأحبو الكريما

وابني المعالي بالمكرمات ... وأرضي الخليل وأروي النديما

وقومي وإن أنت كذبتني ... بقولي فاسأل بقومي عليما

أليسوا الذين إذا أزمة ... ألحت على الناس تنسي الحلوما

يهينون في الحق أموالهم ... إذا اللزبات التحين المسيما

طوال الرماح غداة الصباح ... ذوو نجدة يمنعون الحريما

وثغر مخوف أقمنا به ... يهاب به غيرنا أن يقيما

جعلنا السيوف به والرماح ... معاقلنا والحديد النظيما

---

(١) المفضلية ٣٨.

ويبدأ الحارث بن حلزة قصيدة له بوصف طروق خيال الحبيبة وقد وافاه في البادية وهو على سفر، ثم يفتخر بأنه صاحب لهو وشرب وصيد فيستعين في الانتقال إلى صلب الموضوع برب المضمرة الدالة على التكثير، فهو من الفتيان السراة الذين يقضون وقت فراغهم في مجالس الشراب ورحلات الصيد، حيث يحتسي كؤوس الخمر الممزوجة بماء السحاب، ويمتطي فرسه الطويل المعد للصيد ويقوم في مطاردة للظباء، ويشبه الشاعر الظباء في تتابعهن لما ذعرن بلآليء منظومة، ويشبه الفرس في طموحه واستشرافه بصقر يلوذ الحمام منه بشجر العوسج الشائك الأغصان فإذا أصاب منه حمامه لم تستطع الحراك والإفلات. هذا حاله في السلم أما في الحرب فإن جيشهم المغوار الذي عود كتائب الأعداء على التقهقر والنكوص خوفا من ضربات سيوفهم التي تشبه في تداركها وسرعتها بوقع المطر على الخيمة المصنوعة من الجلد، هذا الجيش كفيل بتوفير العزة والمنعة للشاعر وقبيلته التي إذا حل القحط والبرد الشديد فعادت إبلها سريعا إلى كنفها حيث تقدم لبنها للضيف فإذا لم يكن فيها لبن ضربوا عليها بالقداح فنحروها للأضياف يقول (١)

طرق الخيال ولا كليلة مدلج ... سدكا بأرحلنا ولم يتعرج

ومدامة قرعتها بمدامة ... وظباء محنية ذعرت بسمحج

فكأنهن لآليء وكأنه ... صقر يلوذ حمامه بالعوسج

صقر يصيد بظفره وجناحه ... فإذا أصاب حمامة لم تدرج

ولئن سألت إذا الكتيبته أحجمت ... وتبنيت رعب الجبان الأهوج

وحسبت وقع سيوفنا برؤوسهم ... وقع السحاب على الطراف المشرج

---

(١) المفضلية ٦٢.

وإذا اللقاح تروحت بعشية رتك النعام إلى كنيف العرفج
ألفيتنا للضيف خير عمارة إن لم يكن لبن فعطف المدمج

وفي الموقف الصعب وحالة الانكسار التي تحل بالقوم يأتي الفخر ليداوي الجراح ويرفع الروح المعنوية ويعيد التماسك، فالمثقب العبدي يفخر بقدرة قبيلته على التسلح بالصبر في مواجهة النوازل وتخطي الخطوب. كما يفخر بقدرتهم على صيانة أعراضهم وحفظ مكارمهم حتى في أيام الشدة وحلول الأزمات. ثم يفخر الشاعر بأبيه عندما استطاع أن يقيم الصلح بين بكر وتغلب، وبين حيين من عبد القيس هما عوف وعامر. يقول بعد حديثه عن اطلال الحبيبة(١)

فإن تك أموال أصيبت وحولت ديار فقد كنا بدار نقيمها
ونحمي عن الثغر المخوف ويتقي بغارتنا كيد العدي وضيومها
صبرنا لها حتي تفرج بأسنا وفئنا لنا أسلابها وعظيمها
نعد لأيام الحفاظ مكارما فعالا وأعراضا صحيحا أديمها
أبي أصلح الحيين بكرا وتغلبا وقد أرعشت بكر وخف حلومها
وقام بصلح بين عوف وعامر وخطة فصل ما يعاب زعيمها

ويفخر قرة السعدي بقيس بن عاصم أبيه وما قام به في يوم ثيثل من قيادة حكيمة ورئاسة ناجحة. فقد حقق النصر المؤزر لقومه بني سعد التميميين على اللهازم البكريين، عندما صبحهم بثيتل والنباج الخليجيين بعد أن سقى خيله وأطلق أفواه الروايا وقال لأصحابه: قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم، فأحاطوا ببني بكر وأخذوهم على حين غرة فهزموهم وأصابوا غنائم كثيرة وأسروا منهم حمران بن عبد عمرو وجثامة الذهلي. وقد صور الشاعر

(١) ديوانه ٢٥٣.

دور الخيل العراب في هذه المعركة في كرها وفرها وجهدها وعرقها، حتى تمكن فرسانها من تحقيق النصر فسقى قيس أعداءه سم الهزيمة الزعاف يقول[١]

أنا ابن الذي شق المزاد وقد رأى ... بثيتل أحياء اللهازم حضرا

وصبحهم بالجيش قيس بن عاصم ... فلم يجدوا إلا الأسنة مصدرا

على الجرد يعلكن الشكيم عوابسا ... إذا الماء من أعطافهن تحدرا

فلم يرها الراءون إلا فجاءة ... يثرن عجاجا بالسنابك أكدرا

سقاهم بها الذيفان قيس بن عاصم ... وكان إذا ما أورد الأمر أصدرا

وحمران أدته إلينا رماحنا ... فنازع غلا في ذراعيه أسمرا

وجثامة الذهلي قدناه عنوة ... إلى الحي مصفود اليدين منكرا

أما بسطام بن قيس الشيباني فإنه عندما فضله النعمان بن المنذر على عامر بن الطفيل وقيس بن عاصم فحسداه، ارتجل أبياتا أربعة في مجلس الملك أشارفيها إلى سبب حسد التميميين والعامريين له، وهو تفوقه عليهم بآبائه الأجواد الأماجد الذين كانوا لقبائلهم مصدر خير عميم وعطاء غير مقطوع. فكانوا كالربيع بمائه ونمائه وقد سار الشاعر على نهجهم وعمل بوصيتهم حتى بلغ ذروة المجد يقول[٢]:

لعمري لئن ضجت تميم وعامر ... لقد كنت يوما في حلوقهم شجى

أروني كمسعود وقيس وخالد ... وعمرو وعبد الله ذي الباع والندى

وكانوا على أفناء بكر بن وائل ... ربيعا إذا ما سال سائلهم جدي

فسرت على آثارهم غير تارك ... وصيتهم حتى انتهيت إلى مدى

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٨٧ .

(٢) العمدة لأبي رشيق ٢/ ٢٢١ .



الفصل الثالث

العتـــاب والهجـاء

تعريفه

أ) عتاب الشعراء لقبائلهم

ب) هجاء الشعراء للقبائل الأخرى

جـ) هجاء الشعراء للملوك

العتاب والهجاء

بين العتاب والهجاء تقارب شديد لا يفصل بينهما إلا خيط رفيع يكاد لا يبين في بعض الأحيان. فكلاهما يصدران عن عاطفة واحدة هي عاطفة الغضب، إلا أن الغضب في الأول هو غضب الدالة وفي الثاني غضب الكراهية. وقد يتداخل معنى اللفظين حتى ليمكن أن يطلق أحدهما على الآخر. وذلك حين يخشن العتاب فيقوم أسلوبه على اللوم والتأنيب، أو التوبيخ والتقريع. ولهذه العلاقة القائمة بين الأثنين جاز لنا أن نجمع بينهما في فصل واحد. وقد عد بعض الباحثين العتاب الفظ شكلا من الهجاء وأدرج نماذج جاهلية منه في هذا الباب[١].

وعند نظرنا في شعر الخليج الجاهلي نجد أن الشعر الموجه من الشعراء لقبائلهم يغلب عليه العتاب، والشعر الموجه إلى القبائل الأخرى يغلب عليه الهجاء، وكذلك يغلب الهجاء على الشعر الموجه إلى الملوك.

والعتاب لوم شخص أو قوم على شيء سلبي وقع منهم تجاه المعاتب. أما الهجاء فهو تعبير عن عاطفة السخط تجاه شخص تبغضه أو جماعة تنتقم منها. والشاعر الهاجي ينفس بأهاجيه عما يعتلج في صدره من ضغائن وأحقاد، ولذلك كان الهجاء سلاحا من أسلحة القتال يضعف الشاعر به معنوية خصومه، ويرتبط بالوعيد والتهديد والانتقاص من أقدار الخصوم والبحث عن معايبهم[٢] وكانت الحياة القبلية - بحروبها المستمرة - أرضا خصبة لفن الهجاء. فكان الشاعر يعمد إلى خصومه أو خصوم قبيلته ويجردهم من الصفات النبيلة التي كان يعتز بها العرب دائما، كالبطولة

---

(١) الوصيفي: شعر بني عامر ١٥٥، ١٥٦.

(٢) الجبوري: الشعر الجاهلي ٣٣٩.

والثبات في القتال والكرم وحسن الخلق ويثبت لهم الصفات المذمومة التي كان يتحاشاها العربي قدر الأمكان كالجبن والفرار من القتال والبخل. ومن هنا نجد أن الهجاء يدور في غالب الأحيان على ما يناقض مثلهم التي عاشوها[(١)] ولئن قام موضوع الفخر والحماسة في شعر (الخليج) على القيم الأخلاقية والفضائل الاجتماعية كالكرم والشجاعة والوفاء واتصال السؤدد بالأجداد ومنعة القبيلة وشدة بطشها، فإن الهجاء قد قام على عكس هذه الفضائل جميعا. فالهجاء هو ظاهرة السخط والسخرية يتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه، ومن هنا رأينا شاعر (الخليج) يهجو خصومه بخمول النسب وذهاب الهيبة بين الناس والفرار من المعارك، وكان هذا الهجاء جماعيا في معظمه إلا أن شاعر (الخليج) كان يسدد هجائه إلى الأفراد أحيانا، وبخاصة أفراد الأسرة الحاكمة في الحيرة أصحاب الباع الطويل في الوقوف ضد شاعر (الخليج) وقومه في عاداتهم وتقاليدهم ومصالحهم، لذلك خصهم بنصيب وافر من هذا الهجاء[(٢)].

والباعث على الهجاء في (الخليج) يكمن في ذلك العداء الذي نشب بين قبائل (الخليج) أولا وبين هذه القبائل والأسرة الحاكمة في الحيرة ثانيا. وما نجم عن هذا العداء من تحريض وتآمر وقتال وقتل وهزيمة ونصر وتعريض بالمثالب وانتهاك للحرمات[(٣)].

ودراستنا لعتاب شعراء الخليج الجاهليين وهجائهم تأتي من خلال ثلاثة أطر الأول الدائر في مجال القبيلة أفردا وجماعات، والثاني الدائر في مجال القبائل الأخرى، والثالث الدائر في مجال الملوك.

---

(١) الوصيفي: شعر بني عامر ١٥٥.

(٢) العانم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ١٤٥.

(٣) نفسه.

أ- عتاب الشعراء لقبائلهم.

فهذا طرفة بن العبد ينحي باللائمة على ابن عمه مالك هذا الذي كان سلب الشاعر ماله، ويبعد عن الشاعر وينأى عنه، كلما تقرب منه ودنا إليه يلوم الشاعر ويزوي عنه، وما يدري الشاعر لماذا يلومه ويزور عنه، لابل إن مالكا في لومه وازوراره عن الشاعر لكأنما يبعث في نفس طرفه السأم والملالة والقنوط من كل خير يطلبه، لا من الأدنين الأقربين فحسب بل من الأبعدين ومن سائر الناس. وكل ذنب اقترفه طرفه إنما هو عدم حسن رعايته حمولة معبد أخيه أي الإبل المعدة للحمل.

يقول طرفه من أبيات من المعلقة وفيها يعرب عن أساه وألمه وتشكيه ظلم مالك والأدنين(١):

فمالي أراني وابن عمي مالكا	متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم وما أدري علام يلومني	كما لامني في الحي قرط بن معبد
وأيأسني من كل خير طلبته	كأنا وضعنا إلى رمس ملحد
على غير ذنب قلته غير أنني	نشدت فلم أغفل حمولة معبد
وقربت بالقربى وجدك أنني	متى يك أمر للنكيثة أ شهد
وإن أدع للجلى أكن من حماتها	وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم	بشرب حياض الموت قبل التهدد
بلا حدث أحدثته وكمحدث	هجائي وقذفي بالشكاة ومطردي
فلو كان مولاي امرءا هو غيره	لفرج كربي أو لأنظرني غدي
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي	على الشكر والتسآل أو أنا مفتد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة	على المرء وقع الحسام المهند

(١) ديوانه ٥٥ تحقيق علي الجندي.

ويعاتب المتلمس خاله الحارث اليشكري حين شكك في نسبه قائلا عندما سأله عمرو بن هند: أوانا يزعم أنه من بني يشكر، وأوانا يزعم أنه من بني ضبيعة أضجم فقال الملك: ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين. فأنشأ المتلمس هذه القصيدة يرد فيها على هؤلاء المشككين، حيث بين في بداية القصيدة سبب المعاتبة وهو نسبه إلى أمه وأكد نسبه إلى قوم أبيه مع عدم تنكره لأمه وقومها، وافتخر بعشيرته وبعزها وقوتها، وصور بغضه للحارث في بيت هو أشرد مثل في البغض وهي صورة تمايز دمائهما حتى وإن خلطت ببعضها البعض، ثم عاتبه عتابا عنيفا علق عليه الأصفهاني في كتابه الزهرة بقوله: وقد قال المتلمس ما يخرج قبحا وجفاء عن هذا الباب ولا يصلح أن يجري في المخاطبة بين الأحباب، وذلك أنه يخبر أن الجناية قد أثرت في قلبه وولدت حقدا في نفسه وأن الذي يمنعه من أن ينتقم خوفه من تزايد الألم وأنه علي أن يعاقب إذا أمن العواقب والمعاتبة بل المعاقبة أحسن من الإعضاء على مثل هذه الحال(١) وقد نسي صاحب هذا الكلام أن المتلمس هو ابن البيئة الجاهلية المعروفة بالحدة والشدة وأن القول الذي رمي في أهم ما يعتد به الرجل الجاهلي وهو النسب يقول(٢).

يعيرني أمي رجال ولا أرى ... أخا كرم إلا بأن يتكرما
أحارث إنا لو تشاط دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمس دم دما
أمنتقلا من آل بهثة خلتني ... ألا انني منهم وإن كنت أبنما
وإن نصابي إن سألت وأسرتي ... من الناس حي يقتنون المزنما
ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أجذما

(١) النصف الأول من كتاب الزهرة: ١٣٦.

(٢) ديوانه: ١٢، ١٤ - كان المتلمس يعيش في جوار أخواله من بني يشكر، وفيهم ولد حتى كادوا يغلبون على نسبه.

فلما استقاد الكف بالكف لم يجد ... له دركا في أن تبينا فأحجما
فأطرق إطراق الشجاع ولو راي ... مساغا لنابيه الشجاع لصمما

ويعاتب المتلمس أيضا ابنه عتابا ينطلق من العاطفة والعقل معا، أما العاطفة فحين يضع الشاعر أمام ابنه صورة الأب التي غيبها القبر وأبلى عظامه التراب وأما العقل فحين يوازن الشاعر بين أهمية الأب في حياة الابن وأهمية الأصدقاء، وترجيح الأولى على الثانية يقول(١)

لعلك يوما أن يسرك أنني ... شهدت وقد رمت عظامي في قبري
وتهجرك الاخوان بعدي وتبتلي ... وينصرني منك المليك فلا تدري
ولو كنت حيا قبل ذلك لم ترم ... له خطة خسفا وشوورت في الأمر

وكانت عشيرتا بني عمرو وبني سعد التميميتان التقتا بتياس قرب الكويت. فقطع غيلان العمري رجل الحارث السعدي. فطلبوا القصاص فرفضت عمرو ذلك بلسان الجاني، فنشبت الحرب بين الفريقين، وكان رئيس بني عمرو كعب وصاحب اللواء ابنه ذؤيب. فقال يعاتب أبا ه وعمه على إشعال نار الحرب وإهدار الدماء، وأن ذلك كان بسبب الحمق والبخل والظلم، وأن بني عمرو كان بإمكانهم تدارك الصراع لو ضحوا بالقليل من المال، وحفظوا حق النسب والقرابة، وأن الرأي الفاسد لا يضر صاحبه فحسب بل يمتد إلى القوم جميعهم كالناقة الجرباء تعدي بجربها النياق

(١) ديوانه ١٩٨.

السليمة. يقول[١]

يا كعب إن أخاك منحمق	إن لم تكن بك مرة كعب
أتجود بالدم ذي المضنة في	الجلي وتلوي الناب والسقب
فالآن إذ أخذت مآخذها	وتباعد الأنساب والقرب
أنشأت تطلب خطة غبنا	وتركتها ومسدها رأب
جانيك من يجني عليك وقد	تعدي الصحاح مبارك الجرب
والحرب قد تضطر جانيها	إلى المضيق ودونها السرحب

ويجمع الأسود بن يعفر الدارمي بين العتاب والهجاء لكل من رافع بن صهيب وجرير بن شمر والتيحان بن بلج الدارميين، وكان ابن الشاعر (الجراح) قد نهب فرسا تدعى العصماء لأحد بني تيم الله بن ثعلبه، فادعى هؤلاء المخاطبون بأنهم خفراء فارس العصماء وطالبوا الأسود بردها إليهم ليعيدوها لصاحبها، فوجه إليهم هذه الأبيات التي عبر فيها عن سخطه عليهم لأنهم يقفون ضده تجاه كل غنيمة يحصل عليها، وأنه على الرغم من شدته عليهم لم يرتدعوا عن مناوأتهم له، وهو يعلن أنه لن يمكنهم من ظلمهم له ولن يمنع عنهم حقا لهم عليه. ثم يقارن بين كرمه وشح أبي التيحان، ففي الوقت الذي يكون فيه ضيفه شبعانا يكون ضيف غريمة جائعا وإذا كان (بلج) وهو اسم أمه على ما يبدو - يعني النضارة والمسرة والاشراق فقد خذل التيحان اسم أمه أو أن أمه خذلت اسمها لعدم نجاحها في تربية ولدها، ويحاول الأسود أن يعطي لتيجان الفرصة في إصلاح موقفه منه، فيتراجع عن اصراره على ما طلب منه وينزع عن غيه، ويتمنى أن يكون في طاعته ليدله

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢/ ٣٣٢.

على الطريق السوي، ويعلي الشاعر من نبرة مخاطبته له لتجرئه عليه، مبينا أن كبر سنه لم يوهن من قوته ولم يذهب بشجاعته وأنه قادر على ردعه إذا تمادى في غيه واتبع الرذل من الأمر يقول[١]

أتاني ولم أخش الذي ابتعثا به	خفيرا بني سلمى جرير ورافع
هم خيبوني يوم كل غنيمة	وأهلكتهم لو أن ذلك نافع
فلا أنا معطيهم عليّ ظلامة	ولا الحق معروفا لهم أنا مانع
وإني لأقري الضيف وصى به أبي	وجار أبي التيحان ظمآن جائع
فقولا لتيجان ابن خاذلة اسمها	أمجر فلاقي الغي أم أنت نازع
ولو أن تيحان بن بلج أطاعني	لأرشدته وللأمور مطالع
وإن يك مدلولا علي فإنني	أخو الحرب لا قحم ولا متجازع
ولكن تيحان ابن خاذلة اسمها	له ذنب من أمره وتوابع

وكان بنو الأعشى - وهم بيت من بني مالك بن زيد مناه- أقبلوا حتى نزلوا وسط الرباب فأغار عليهم ناس من بني ضبه فأخذوا إبلهم، فأتوا عوف بن عطية التيمي مستجيرين ومستنجدين، فانطلق عوف إلى عبد مناه فقال: أدوا إلى هؤلاء إبلهم، فأخذوا يضحكون به وقالوا: إن شئت جمعنا لك إبلا وإن شئت عقلنا لك. قال أما عندكم غير هذا؟ قالوا لا، فانصرف عنهم فقال لبني الأعشى اتبعوا مصادر النعم حتى إذا أوردوا قال يا بني الأعشى لا تقصروا خذوا مثل إبلكم، فأخذوا ثم انطلقوا حتى نزلوا على أهله معه فجاءه بنو عبد مناه فقالوا يا عوف ما حملك على ما صنعت ؟ قال الذي صنعتم حملني، فأخذ يلعب بهم وقال إن شئتم جمعنا لكم وإن شئتم

(١) شعراء النصرانية ٤٧٨ .

عقلنا لكم. فقال عوف في ذلك هذه القصيدة التي خيرهم في بدايتها بين أن يبقى كل من الفريقين على ما بأيديهم، أو يعيد كل واحد منهما مأخذه من الآخر أو يقدم الدية أو العوض، يقول هذا على سبيل السخرية والتهكم جزاء وفاقا. ثم يذكر أنه أعطى جيرانه كرام الإبل وأكثرها قوة وجوده وصبرا على الجوع والعطش، وأنه فعل ذلك حفاظا على سمعة العشيرة الضبية، ولكي يغسل عار الغدر الذي لحقها من جراء البغي على الجار، وأن الذي فعل ذلك هم أراذل الناس يقول[(١)]

هما إبلان فيهما ما علمتم — فأدوهما إن شئتم أن نسالما

فإن شئتم القحتم ونتجتم — وإن شئتم عينا بعين كما هما

وإن كان عقلا فاعقلوا لأخيكم — بنات المخاض والبكار المقاحما

جزيت بني الأعشى مكان لبونهم — كرام المخاض واللقاح الروائما

مهاريس لا تشكو الوجوم ولورعت — جماد خفاف أورعت ذا جماجما

وتشرب أسآر الحياض تسوفها — وإن وردت ماء المريرة آجما

فمن مبلغ تيما على نأي دارها — سراتهم والحاملين العظائما

عمدت لأمر يرحض الذم عنكم — ويغسل عن حر الأنوف الخواطما

أتأكل أشباه المغازل ذمتي — ولما تكن فيها الرباب عما عما

وأما الدقاق الأسوق الضلع منهم — فلست بهاجيهم وإن كنت لائما

بودهم لاقرب الله ودهم — ولا زال معطيهم من الخير حارما

ولكنني أهجو صفي بن ثابت — مثبجة لاقت من الطير حاتما

وحصنا ضؤورا جونة خلت استها — وصفوان زلقا فوقه الماء دائما

(١) الأصمعية ٥٩.

وطرفة بن العبد مات أبوه وهو صغير فأبى أعمامه أن يقسموا ماله وظلموا حقا لأمه وكان اسمها ورده فقال[١]

ما تنظرون بحق وردة فيكم	صغر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر الصغير كبيره	حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم فرق بين حيي وائل	بكرا تساقيها المنايا تغلب
قد يورد الظلم المبين آجنا	ملحا يخالط بالذعاف ويقشب
وقراف من لا يستفيق دعارة	يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
والأثم داء ليس يرجى برؤه	والبربرء ليس فيه معطب
والصدق يألفه الكريم المرتجى	والكذب يألفه الدنيء الأخيب
ولقد بدا لي أنه سيغولني	ما غال عاد والقرون فأشعبوا

ويحلل د علي الهاشمي هذه الأبيات بقوله : ينصب طرفه على أعمامه بهذا الاستفهام المفعم بالاستنكار والتوبيخ لأكلهم حق أمه بالباطل مستغلين صغر أبنائها وغيبة قومها « ما تنظرون بحق وردة فيكم؟! إنها المجابهة المحرجة المخجلة لمن أكلوا أموال الأرامل واليتامى ظلما، ويكر عليهم مهددا بالانتقام والانتصاف للحق المهدر المضيع، مبينا أن الأمر الصغير قد يجر إلى الأمر العظيم حتى تتصبب الدماء وتزهق الأرواح، ويضرب لهم المثل بالحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين بكر وتغلب، بسبب الظلم المفرق بين أبناء العمومة المقطع وشائج الرحم والقربى، ويلح على فكرة الظلم وما ينتج عنها من آثار مروعة فهو يجر إلى أوخم العواقب ويؤدي إلى مر النتائج، ويمثل النتائج المرة التي يدفع إليها الظلم بالماء الآسن المتغير الملح الأجاج

(١) ديوانه ١١ .

يخالطه السم الزعاف، ولا يخفى ما في هذا التمثيل من تعبير عن انفعاله الشديد وتألمه مما لاقى من ظلم أعمامه(١)

ومن لومه الحار ما صبه فوق رؤوس أصحابه الذين خذلوه ساعة الشدة ولم يتحركوا لنجدته وإنقاذه من السجن الرهيب الذي ألقي فيه ولم يخرج منه، إنها أبيات قليلة في عددها ولكنها طافحة بشعور قائلها، إنها أشبه شيء بالأنين المكبوت يتفجر ساخطا على أخلائه الذين خذلوه عند الشدة ولم يغضبوا لما أصابه، ولقد ارتدت السوءة عليهم لخذلانهم إياه، وإنها لسوءة فادحة تصمهم جميعا بالذل والخزي والعار، ومن نفس مترعة بالألم وخيبة الأمل يعلن أن كل خليل خاللـه خذله عند الشدة، ويدعو على الجميع بألا يترك الله لهم سنا ضاحكة كي يكونوا أمثولة بين الناس، ويعممهم جميعا بالحكم فكلهم أروغ من ثعلب ويأتي بالمثل المشهور: ما أشبه الليلة بالبارحة في الظلمة والسواد والحلكة، فلقد تشابهوا جميعا في صفة الروغان وسواد القلب وسوء الطوية، ويحمل التعميم الذي أطلقه في البيت الأخير زفرة نفس مكلومة مهيضة متألمة مما أصابها من تخاذل الصحب والخلان عنه ساعة العسرة:

يقول طرفة بن العبد (٢)

أسلمني قومي ولم يغضبوا ... لسوءة حلت بهم فادحة

كل خليل كنت خاللته ... لاترك الله له واضحة

كلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحة

---

(١) طرفه بن العبد حياته وشعره: ١٧٨.

(٢) المصدر السابق ١٨٢.

وهجت ليلى بنت منظور العبدي من دعته أخاها حين قتل زوجها غيله وعيرها بذلك، فبنت هجاءها له على أسلوب السخرية، حيث رأت أن ما فعله أخاها لا يفعله إلا العبيد، أما الأحرار فإن صراعهم مع أعدائهم يقوم على المواجهة. وقد دعا زوجها أخاها إلى المبارزة صباح المرج فجبن ونكص، رعبا من مقابلته وكأنه رأى الموت رأي العين في تلك الدعوة، ناسيا أن المنايا موكلة بالآجال، تقول [(١)]

عيرتني يا أخي أن كنت قاتله ... ولست أول عبد ربه قتلا
وقد دعاك غداة المرج من ملك ... إلى البراز فلم تفعل كما فعلا
فلا عدمت امرأها هالتك خيفته ... حتى حسبت المنايا تسبق الأجلا

ويعاتب الحارث بن حلزة عمرو بن قيس بن شراحيل الشيباني، لاحتمائه لتغلب وميوله معها ضد قبيلته البكرية، وفي ذلك من العقوق الأثيم ما فيه، مقارنا بين فعله السلبي وفعل أبيه قيس الإيجابي، من قيامه بالصلح بين بكر وتغلب وإصلاح ذات البين بين الحيين، معليا من شأن الجد شراحيل ومنوها بمكانته الرفيعة بين قبائل بني وائل يقول [(٢)]

أعمرو ابن فراشه الأشيم ... صرمت الحبال ولم تصرم
وأفسدت قومك بعد الصلاح ... بني يشكر الصيد في الملهم
دعوت أباك إلى غيره ... وذاك العقوق من المأثم
كفى شاهداً بمباح الصفا ... إلى ملتقى الحج بالموسم

(١) الأشباه والنظائر ٢/ ٢٤٤.
(٢) ديوانه ٥٧.

فهلا سعيت لصلح الصديق ... كسعي ابن مارية الأقصم
وقيس تدارك بكر العراق ... وتغلب من شرها الأعظم
وأصلح ما أفسدوا بينهم ... وذلك فعل الفتى الأكرم
وبيت شراحيل من وائل ... مكان الثريا من الأنجم

ويعاتب العوام الشيباني فوارس قومه ويخص منهم مفروق بن عمرو وقبيصة بن هانيء لمخالفتهما رأي بسطام الشيباني ووقوع القوم في الهزيمة التي حذرهم منها، فيشير في بداية معاتبته إلى يوم الغبيط وكان لتميم على بكر. ويوم العظالي الذي يدير الشاعر حوله هذه القصيدة، ملخصا أهم أحداثها التي على رأسها تمكن بسطام من النجاة على فرسه (النسوع) بعد مطاردة مضنية وأسر هانيء وقتل أو جرح مفروق بن عمرو، ولم يفت الشاعر الإشارة إلى أسر بسطام في يوم الغبيط وكل ذلك كان بسبب الخلاف بين الرؤساء وعدم الاستعداد والتخطيط اللازمين للنصر. يقول[1]

إن يك في يوم الغبيط ملامة ... فيوم العظالي كان أخزى وألوما
أناخوا يريدون الصباح فصبحوا ... وكانوا على الغازين دعوة أشأما
فررتم ولم تلووا على محجريكم ... لو الحارث الحراب يدعى لأقدما
وما يجمع الغزو السريع نفيره ... وإن تحرموا يوم اللقاء القنا الدماء
ولو أن بسطاما أطيع بأمره ... لأدى إلى الأحياء بالنحو مغنما
ولكن مفروق القنا وابن خاله ... الاما فليما يوم ذاك وشوما
ففر أبو الصهباء إذ حمس الوغى ... وألقى بأبدان السلاح وسلما

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٩٤.

فأيقن أن الخيل إن تلتبس به تئم عرسه أو يملأ البيت مأتما

أبى لك قيد بالغبيط لقاءهم ويوم العظالي إذ نجوت فكلما

فأفلت بسطام جريضا بنفسه وغادرن في كرشاء لدنا مقوما

وقاظ أسيرا هانيء وكأنما مفارق مفروق تغشين عندما

ويعاتب أنس بن مساحق العبدي خليله راشد عتابا يقوم على التحذير من أن الأمر الصغير قد يؤدي إلى الخطر الكبير، وأن العزيز قد ينقلب إلى ذليل باندفاعه وسوء فعله. وأن الحزم يقتضي مسالمة الأصدقاء والأقربين ومعاداة الأعداء والأبعدين وتوجيه الرماح إليهم، ويخير الشاعر صاحبه بين أن يكون سيدا لقومه بوقوفه إلى جانبهم وحرصه على مصالحهم، وبين أن يتخلى عنهم ويتخلون عنه يقول [(١)]

ألا أبلغا خلتي راشدا وصنوي قديما إذا ما اتصل

بأن الدقيق يهيج الجليل وأن العزيز إذا شاء ذل

وأن الحزامة أن تصرفوا لحي سوانا صدور الأسل

فإن كنت سيدنا سدتنا وإن كنت للخال فاذهب فخل

وهذا الكلح الذهلي وهو أحد فرسان بكر بن وائل وسادتها، يعاتب قومه على تنكرهم له وعدم تذكرهم له إلا بعد أن يرحل مع أهله عنهم مضطرا، اتقاء لأذاهم وتتبعا لزلاته ووصمه بالجهل، مع ادعاء الحلم والرصانة لأنفسهم، مما ينافي الأخوة الصادقة التي تحرص على ستر العورات وصيانة السمعة يقول [(٢)]

---

(١) ديوان عبد القيس للمعيني ٩٥ .

(٢) المؤتلف والمختلف ١٧٣ .

إذا ما غدت منكم بليل ظعينتي تذكرتموها فاستتب التذكر

وقلتم أخونا زل عند حلومنا ومن لك بالأمر الذي يتدبر

ولو كنتم إخوان صدق حفظتم بني عمكم مما يذم وينشر

ويعاتب خرطوم الحباري؛ عبد الله الذهلي الشيباني بعض العشائر من قبيلته على تجنبهم على قومه بلا ذنب وقع منهم تجاههم، وكل ما فعلوه أنهم تمسكوا بتعاليم المسيح عليه السلام. يقول (٢)

أري النظر المقصور دوني ووجها كواسف غشاها السلامي عظلما

على أنكم يوما أخذنا بفضلنا ولاحق مظلوم أخذنا فنظلما

فهل سركم أنا قتلنا بفضلنا فنقتل خرطوم الحباري وعرزما

وما ذنبنا في قومنا غير أننا زكا وسطنا زرع المسيح ابن مريما

ويعاتب الجمال العبدي قبيلته عبد القيس لمخالفتها له وعدم قبولها لنصيحته، وما أدى إليه ذلك من قوعها في الهزيمة المنكرة في يوم القطيف. فقد أسلمت قيادها لرجل جبان أخرق قادها إلى الهاوية، فما إن ثار غبار الحرب واشتجرت الرماح وجد الجد حتى ولى هذا القائد العاجز هاربا لا يلوي على شيء، إلا على النجاة بفرسه السريع الضخم، محققا بهذا الهروب وما أدى إليه من تفرق الصفوف، النصر المؤزر للعدو الذي عز من بعد ذل وارتفع من بعد الضعة يقول(٢)

---

(١) نفسه ١٦١.

(٢) ديوان عبد القيس للمعيني: ٨٦.

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها ... وما خير نصح قيل لا يتقبل
فلو أن قومي طاوعوني لأصبحوا ... بمنزلة فيها عن الشر مزحل
ولكن قومي طاوعوا أمر عاجز ... جبان إذا ما ثار للحرب قسطل
فأوردهم حتى إذا اختلف القنا ... تولى به نهد المراكل هيكل
لقد عزت الدنيا رجالا فأصبحوا ... بمنزلة ما بعدها متحول

ويعاتب الأعشى بني مرثد وبني جحدر خلال الحرب التي كانت بينه وبين الحرقتين، فبعد المقدمة الطللية القصيرة طفق الشاعر يرفع عقيرته بمرافعة قوية، طالب المعاتبين أن يحتكموا إلى علماء القوم وأهل الرأي والحكمة منهم، فإنهم القادرون على إعطاء كل ذي حق حقه. وإذا لم يرتضوا بحكام العشيرة فبإمكانهم الرجوع إلى حكام آخرين من العشائر التي تشاركهم في البلاد كعشيرة الهجيم ومازن وشيبان فهؤلاء قادرون على إقامة العدل بينهم، ثم يشير الشاعر إلى سبب الخلاف وهو تعدي المعاتَبين على جارة المعاتِبين والقصاص من المعتدي ومحاولتهم قتل المقتص، والتشهير بظلمهم في هذه المحاولة، ثم يشير الأعشى إلى قانون الحصار الإقتصادي الذي يمارسه المخاطبون ضد قوم الشاعر وهو منعهم من دخول هجر والحصول على الميرة منها لأنها تقع تحت نفوذهم، فبين أن في القطيف التي هي خارج سيطرتهم غنى. يقول[(١)]

مصارع إخوان وفخر قبيلة ... علينا كأنا ليس منا قبيلها
تعالوا فإن العلم عند ذوي النهى ... من الناس كالبلقاء بادحجولها
نعاطيكم بالحق حتى تبينوا ... على أينا تؤدي الحقوق فضولها
وإلا فعودوا بالهجيم ومازن ... وشيبان عندي جمها وحفيلها

---

(١) ديوانه ١٦٣.

أولئك حكام العشيرة كلها　　وسادائها فيما ينوب وجولها
فإني بحمد الله لم أفتقدكم　　إذا ضم هماما إليّ حلولها
أجارتكم بسل علينا محرم　　وجارتنا حل لكم وحليلها
فإن كان هذا حكمكم في قبيلة　　فإن رضيت هذا فقل قليلها
فإني ورب السا جدين عشية　　وما صك ناقوس النصارى أبيلها
أصالحكم حتى تبوؤا بمثلها　　كصرخة حبلى يسرتها قبولها
تناهيتم عنا وقد كان فيكم　　أساود صرعى لم يوسد قتيلها
وإن امرءا يسعى ليقتل قاتلا　　عداء معد جهلة لا يقيلها
ولسنا بذي عز ولسنا بكفئه　　كما حدثته نفسه ودخيلها
ويخبركم حمران أن بناتنا　　سيهزلن إن لم يرفع العير ميلها
فإن تمنعوا منا المشقر والصفا　　فإنا وجدنا الحظ جما نخيلها

ولسعد بن مالك الضبعي قوله يذكر امتناع قبائل بكر عن مساعدتهم على تغلب في حرب البسوس يقول [١]

إن لجيما قد أبت كلها　　أن يرفدونا رجلا واحدا
ويشكر أضحت على نأيها　　لم نسمع الآ ن لها حامدا
ولا بنو ذهل وقد أصبحوا　　بها حلولا حلقا واحدا

ويهجو خالد بن علقمه الدارمي ابن عم له فيستعين بالتشبيه في تصوير سوء هذا الرجل فرغم محاولات الشاعر اليائسة في إصلاحه فقد كان مثل

---

(١) شعراء النصرانية ٢٦٦.

الساق المكسورة التي جبرت ثم دار عليها الحول دون أن تبرأ، وقد أزال الشر ملامح الجمال في وجهه كما أزالت أظافر الضب كثرة حفره للحجر الصلب حتى غدا دميما قبيحا، ويتضاعف القبح في هذا الوجه فيبدو بلا أنف أو عينين حتى يرى ابن عمه في حالة من اليسر والغنى فيحوله هذا الحال إلى ذلك المنظر الشديد البشاعة يقول(١)

ومولى كمولى الزبرقان دملته ... كما دملت ساق تهاض على جبر

إذا ما أحالت والجبائر فوقها ... مضى الحول لابرء يفيد ولا كسر

ترى الشرى قد أفنى دوابر وجهه ... كضب الكدى أفنى براثنه الحفر

تراه كأن الله يجدع أنفه ... وعينيه إن مولاه ثاب له وفر

ويهجو طرفة بن العبد عبد عمرو صهره، فيرميه بالبغي ويسخر من ضخامة جسمه، فيصفه بأنه ذو كشح ضامر، كأنه جريدة من نخل ملهم، كشط خوصها، كما يصفه بأنه قعيد نساء لا يصلح لمهمات الأمور، وأنه شرب حتى انتفخ وكثر لحمه وصار يشبه ماء الرحم الثخين في ترجرجه وليونته ويصفه بالنعومة والميوعة، حتى أن السلاح ليبدو على جسمه كأنه معلق فوق غصن بان لين رخو، وترى في جسمه انتفاخات من الشحم ورهل من اللحم، وقد علت طرائق بطنه حمرة مشوبة بسمرة(٢).

يا عجبا من عبد عمرو وبغيه ... لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما

ولا خير فيه غير أن له غنى ... وأن له كشحا إذا قام أهضما

---

(١) المؤتلف والمختلف ٢٢١.

(٢) ديوانه ١٤٢ - الجندي.

يظل نساء الحي يعكفن حوله ... يقلن عسيب من سرارة ملهما
له شربتان بالنهار وأربع ... من الليل حتى آض سخدا مورما
ويشرب حتى يغمر المحض قلبه ... وإن أعطه أترك لقلبي مجثما
كأن السلاح فوق شعبة بانة ... ترى نفجا ورد الأسرة أسحما

ويهجو الأسود بن يعفر الدارمي بني سلمى بن جندل النهشلي، فيسخر من وعيدهم له وتهديدهم إياه، ويراهم ليسوا أهلا لهذا التهديد، لأنهم لم يفعلوا شيئاً عندما سلبهم بنو عمومتهم من رهط قعقاع وابن حابس حقهم من إرث أبيهم، ونكسوا رؤوسهم أمام هذا الضيم المخزي، مستسلمين له عاجزين عن دفعه يقول(١)

أحقا بني أبناء سلمى بن جندل ... وعيدكم إياس وسط المجالس
فهلا جعلتم نجوة من وعيدكم ... على رهط قعقاع ورهط ابن حابس
هم منعوا منكم تراث أبيكم ... فصار التراث للكرام الأكايس
هم وردوكم ضفة البحر طاميا ... وهم تركوكم بين خاز وناكس

وفي يوم (ذي نجب) وهو لتميم على بني عامر وكان بنو مالك بن حنظلة في أعلى الوادي مما يلي مجيء القوم الغازين، وكان بنو يربوع في أسفله. فقال عمرو بن عمرو بن عدس يا بني مالك لا طاقة لكم بهذا الملك وما معه من العدد فخفوا من مكانكم هذا ففعلوا، وانتصر بنو الأبرص أو بنو يربوع الذين كانوا يلون القوم والملك، وفر طفيل بن مالك على فرسه (قرزل) وقد سجل أوس بن حجر هذه الوقعة وعير بني مالك على خوفهم من المواجهة ونزولهم خلف بني يربوع، تاركين المجد القديم والحديث لهم،

(١) شعراء النصرانية ٤٧٩.

بتوليهم حرب الغزاة ودحرهم بكتيبتهم القوية المدحجة بالسلاح، التي تمكنت من قطع رؤوس بني عامر بن صعصعه وقتلت قائدهم الأكبر حسان بن كبشه الكندي، ولم ينج من هؤلاء القادة سوى طفيل العامري، الذي يعود الفضل في نجاته إلى فرسه الشديد الجري الذي يلتهب في عدوه، ويسرع سرعة التهاب الميسم في الوبر. يقول:

كان بنو الأبرص أقرانكم ... فأدركوا الأحدث والأقدما
إذ قال عمرو لبني مالك ... لا تعجلوا المرة أن تحكما
باتوا يصيب القوم ضيفا لهم ... حتى إذا ليلهم أظلما
قروهم شهباء ملمومة ... مثل حريق النار أو أضرما
والله لولا قرزل إذ نجا ... لكان مثوى خدك الأخرما
نجاك جياش هزيم كما ... أحميت وسط الوبر الميسما

ويهجوا العوام الشيباني الجماعة الذين عصوا بسطام الشيباني من بكر وعلى رأسهم عتيبة بن شهاب ومفروق بن عمرو حين نصحهم بعدم المضي في الحرب إلى نهايتها في يوم الإفاقة، والاكتفاء بالإمالة على بني زبيد معتبرا أن السلا مة إحدى الغنيمتين، فعدوه في هذه المشورة جبانا، فهزمتهم تميم بعد أن لاذ من نجا منهم بالفرار والإفتداء، فكانوا كما قال الشاعر أسودا في الرخاء ونعاما في الحرب. يقول[1]

قبح الاله عصابة من وائل ... يوم الأفاقة أسلموا بسطاما
ورأى أبو الصهباء دون سوامهم ... شركا يسلي نفسه وزحاما
كنتم أسودا في الرخا فوجدتم ... يوم الافاقة بالغبيط نعاما

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٩٦.

وقال ابن علافة أخو بني الحارث بن همام بن مره بن ذهل بن شيبان يعير آل ذي الجدين تركهم قيس بن مسعود رهينه في يد كسرى حتى مات، وأنهم إنما رهنوه بأكلة تمر ،وبتزويجهم إمرأته في حياته، وبقتل عاصم الضبي بسطاما وأنهم لم يثأروا له. يقول [١]

أقيس بن مسعود رهنتم بأكلة	من التمر لم تشبع بطون الجراضم
وأنتم نكحتم عرسه في حياته	فكانت عليكم بعد ضربة لازم
فخرتم ببسطام ولم تثأروا له	أحار ابن همام حلائل عاصم

فعيرهم أنهم لم يدركوا بدم بسطام، وجعلهم حلائل لعاصم بن خليفة الضبي.

ويدعو قيس بن عاصم السعدي على بني كليب بن يربوع التميميين؛ لتخليهم عن نجدة إخوانهم بني ربيع بن الحارث السعديين، عندما أغار عليهم الحوفزان ببكر وظفر بهم، يدعو عليهم عاصم التميمي أن يجازيهم الله على تنكرهم لرابطة الدم ومسالمتهم لأعداء القبيلة ساعة الاعتداء عليها، وأن هذا العار سيبقى لاصقا بهم لصوق الحبل بأنف الناقة الجرباء المبعدة عن مربد الابل خشية العدوى، بل أصبحوا أشبه بالمحتضر الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويتعجب الشاعر منهم في جميع الأحوال، فهم في حالة السلم والشبع يتفاخرون على بني عمومتهم من القبيلة، وفي حالة الحرب يهربون ويلومون اخوانهم المعتدي عليهم. أما قيس بن عاصم فقد حول الهزيمة إلى نصر؛ عندما قاد القبيلة وطعن قائد بكر في مؤخرته وهو يفر هاربا منه فعصم دماء تميم وحفظ كرامتها، أما الذي قعد عن النصرة والمواجهة من أبناء القبيلة فقد

(١) النقائض ١/ ١٧٢.

صار بتخاذله كالدخيل عليها الذي لا يشاركها في أصلها وشرفها وخيرها. يقول [١]

جزى الله يربوعا بأسوأ فعلها	إذا ذكرت في النائبات أمورها
ويوم جدود قد فضحتم أباكم	وسالمتم والخيل تدمي نحورها
ستخطم سعد والرباب أنوفكم	كما غاط في أنف القضيب جريرها
فأصبحتم والله يفعل ذلكم	كمهنؤة جرباء أبرز كورها
فأصبحتم والله يفعل ذلكم	كمؤودة لم يبق إلا زفيرها
أفخرا على المولى إذا ما بطنتم	ولوما إذا ما الحرب شب سعيرها
أتاني وعيد الحوفزان ودونه	من الأرض صحراوات فلج وقورها
أقم بسبيل الحي إن كنت صادقا	إذا حشدت سعد وجاس نصيرها
عصمنا تميما في الحروب فأصبحت	يلوذ بنا ذو وفرها وفقيرها
وأصبحت وغلا في تميم فأصبحت	معادنها تجبي سواك وخيرها

ويهجو يزيد بن الخذاق العبدي ذلك الفتى الذي أعجب فتاته وفضلته على الشاعر، ويعد هذا التفضيل سفاها منها وجهلا بحقائق الرجال وأقدارهم، فهذا الفتى لا يأكل ولا يشرب إلا وحده وبخاصة في أيام الشتاء حيث القحط والجدب وشدة الحاجة إلى الطعام، وحيث لا يضيف من العرب إلا المبرز في السماحة لشدة البرد وصفَر البيوت، كما أن الزاد في الشتاء قليل وفي الصيف كثير، ولذلك يصف الشاعر هذا الفتى بأنه دهين القفا كناية عن البخل وعدم المبالاه، كما يصفه بالرخاوة والجبن في الشطر الأخير من المقطوعة، وإن أدنى قبيعة سيفه وهي ما على طرف مقبضه من فضة وذهب.

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٨٠.

فالسيف بضاربه لا بحده. يقول[١]

نبت عينها عني سفاها وراقها فتى دون أضياف الشتاء شروب
فتى يوم تلقاه صبيحة ديمة سماكية لها السحاب سكوب
دهين القفا يدني قبيعة سيفه وما كل أصحاب السيوف صليب

ويعاتب أو يهجو لقيط بن زراره بني مالك بن حنظلة بإحراق عمرو بن هند مائة منهم دون مقاومة تذكر، فيشتد في عتابه لهم إلى درجة التأنيب والتقريع والسخرية والتعبير. ويبدأ أبياته بوقوفه على آثار الديار التي خلت بعد رحيل أصحابها، وبكائه عليها بعد أن عرفها ووجد الغربان تصيح فيها؛ والعرب تتشاءم من الغراب أشد التشاؤم فيكنونه بأبي الشؤم، ثم يرسل الشاعر رسالة إلى بني مالك وإخوانهم من الرباب؛ يعلن فيها سخريته من استسلامهم للطاغية عمرو بن هند مع أن خيامهم الكبيرة تحيط بخيمته من كل جانب، وكان يمكنهم المقاومة عندما قام بإحراقهم الواحد تلو الآخر، فأهانهم أقبح إهانة وقتلهم أشنع قتل، فكانوا كالقطيع من المعز والضأن في ضعتهم وسهولة القضاء عليهم، ولم يصلوا إلى رتبة الابل التي تملك القدرة على رفض ما لا يطيب لها من الشراب، وينهي الشاعر أبياته بمعاتبة الملك على إفراطه في العقوبة، مبينا أن أفضل الملوك من يعتق الرقاب بدلا من أن يقطعها فالعفو مع القدرة من شيم الكرام يقول[٢]

أمن دمنة أقفرت بالحباب إلى السفح بين الملا فالهضاب
بكيت لعرفان آياتها وهاج لك الشوق نعب الغراب

(١) ديوان عبد القيس ٤٨.
(٢) أيام العرب في الجاهلية ١٠٥.

فأبلغ لديك بني مالك ... مغلغلة وسراة الرباب
فإن امرءا أنتم حوله ... تحفون قبته بالقباب
يهين سراتكم عامدا ... ويقتلكم مثل قتل الكلاب
فلو كنتم إبلا أملحت ... لقد نزعت للمياه العذاب
ولكنكم غنم تصطفي ... ويترك سائرها للذئاب
لعمر أبيك أبي الخير ما ... أردت بقتلهم من صواب
ولا نعمة إن خير الملو ... ك أفضلهم نعمة في الرقاب

ب- هجاء الشعراء للقبائل الأخرى:

ويهجو جندل بن أشمط العبدي عشيرة شن القطرية هجاء صادرا من نفس مفعمة بالغضب العارم، ويبدأ أبياته بمخاطبة زوجته داعيا الله لها بالحفظ والرعاية، وطالبا منها إخباره عن سبب ما فعله هؤلاء بجارهم، من تركه للضباع تأكل منه وتمزق جسده لترمي الشجر أشلاءه هنا وهناك. ويقسم الشاعر أنه لن يغفر لهم هذا العمل المشين، ولن ينسى هذا الغدر الفاضح ما دام الليل والنهار، وما ساعدت الشمس القمر في إمدادها له بالنور الساطع. ويكرر الشاعر فضيحة الغدر التي لطخت شن نفسها به تكرارا يعكس غضبه، وكأنه يتوعدها بالانتقام، ويختم أبياته ببيان أن هذا الغدر ينبع من أصل هذه القبيلة التي خلقت من ماء مر كطعم العلقم. يقول[1]

قعدك الله ألما تخبري ... يا ابنة العمري عن أهل قطر
تركوا جارهم تأكله ... ضبع الوادي وترميه الشجر

(١) ديوان عبد القيس ٩٠، هناك رأي يقول: إن شنّ هو ابن أفصى وليس ابن عبد القيس، ولعل هذه الأبيات تعزز هذا الرأي.

فيمين الله لا أنساهم — أبدا ما ساعد الشمس القمر

غدرت شن بجيرانهم — إن شنا ما علمنا لغدر

شنة لم يعلموا ما ماؤها — إنما ماؤك صاب وصبر

وكان عرب الجاهلية إذا غدر أحدهم بجاره رفعوا له راية على جبل مكه قائلين هذه غدرة فلان. ليحذره الناس[1] وتعير أسماء بنت مسعود من عبد القيس الزبرقان بن بدر السعدي بجاره، عندما غدر به فترى في ذلك الخزي والعار لعشيرته كلها، حيث لا يجدي مع ما فعله اعتذار ولا يخفيه شيء، فعار هذا الغدر ظاهر له دوي قوي يسمعه حتى قصير السمع، فهو عار فاضح يشبه الناقة التي حرمت من فصيلها فظلت ترغو عليه ليل نهار، رغم محاولة خداعها بحشو جلده تبنا بعد ذبحه وتنهي أبياتها باستفهام تأنيبي للجيران الغادرين، تتساءل فيه عن نظرتهم إلى المغدور به، وهل هو إنسان له ماهية وحضور حقيقي، أم هو في حكم المغيبين والمعدوين تقول[2]

تقلد خزيها عوف بن كعب — فليس لجلفها منا اعتذار

إذا وردت عكاظ تسمعوها — بآذان مسامعها قصار

فإنكم وما تخفون منها — كذات البوليس لها حوار

أجيران ابن ميه خبروني — أعين لابن مية أو ضمار

وتهجو (د ختنوس) بنت لقيط بن زرارة الدارمي النعمان بن قهوس التيمي، وكان حاملا في يوم شعب جبله لواء تميم وهو من أشراف تيم الرباب ففر هاربا وقتل أبوها قائد تميم. وقد أدارت الشاعرة هجاءها حول

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢/ ١٦٢.

(٢) أشعار النساء ٩٤.

هروب المهجو من المعركة وصورت هذا الـهروب في صور ساخرة تبعث على الهزء والاحـتقار. فـقد فر من الحـرب برمحه الشديـد الذي لم ينتفع به لأن جبنه منعه من استعماله، والفضـل في نجاته يعود إلى فرسه القوي الذي يشبه ولد الضبع في قوته وسرعـته، وقد اختارت الشاعرة هذا التشـبيه لأن العرب تتشـاءم من الضبع وتـراه رمزا للخراب والجـدب. ثم تقول له إنـك من قوم جبـناء فلا تسـر مع غطفان أصـحاب الشـدة، ولو حل الذل بغطفان فـإنهم يستغنـون عنك وعن آبائك، وضربت له مثلا بفـخر الفاجرة بمركب سـيدتها عند رحيل القوم وأرادت بالبغي بني تيم قوم المهجو، وعنت بربة الحدج وهي السيـدة غطفان، ووصـفت أباه بأنه يبزو وهذا كنايه عن الجبن، وبأنـه يجمع الجلة وهي البعر، وبأنه لا يصلح إلا لرعاية الغنم حين يـضع حبالها في عنقه كأنها أغلال تغلها. تقول [1]

فـــر ابن قـــهـــوس الشـــجـــا	ع بكـــفـــــه رمح مـــــتـــــل
يعـــــدو به خـــاظي البـــضي	ع كـــــــأنه ســــــمـع أزل
إنـــك مـــن تـيـــم فـــــــــدع	غطـفـــان إن ســـــاروا وحـلوا
لا مـنـك عـــــــــدهـم ولا	آبـــاك إن هــــلـــكـــوا وذلـــوا
فـخـر الـبـغي بحـدج ربتـــهـــا	إذا النـاس اســــــتـــــــقلـوا
ولـقـــــــد رأيـت أباك وسـط	القـــــــوم يبـــــــزو أو يـجل
مـــــتــــــقلدا ربـق الغـــــرا	ر كـــأنه فـي الجـــيـــد غـــسل

ويهجـو أوس بن حجر التـميمي طفـيل بن مالك العامـري لفراره من المعركة في يوم السـوبان وتخليه عن قومه وعن أخيه عـامر ملاعب الأسنه، وهم يكابدون وطيـسـها ويصلون نارهـا، تشاطرهم في ذلك خـيـولهم التي

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٦٤.

أنهكتها الحرب، وقد ساعد طفيل على الهروب فرسه (قرزل) ذلك الحصان الأصيل المتميز بالقوة والسرعة الفائقة، فهو في سرعته كأنه مريخ الوليد وهو قضيب يجعل الصبي في أعلاه تمره وطينه تثقله ثم يرمي به بغير ريش. ويرجع أوس لهذا الحصان الفضل في نجاته فلولاه لوقع في قبضة الأعداء ولكان من الهالكين، وقد عاد طفيل إلى زوجتيه ليقص عليهما خبر الجيش كلما حلوا بمكان يقول (١)

لعمرك ما آسي طفيل بن مالك ... بني عامر إذ ثابت الخيل تدعى

تقبل من خيفانه جرشعية ... سليلة معروق الأباجل جرشع

وودع إخوان الصفاء بقرزل ... يمر كمريخ الوليد المفزع

ولو أدركته الخيل شال برجله ... كما شال يوم الخال كعب بن أصمع

فرارا وأسلمت ابن أمك عامرا ... يلاعب أطراف الوشيج المزعزع

لقد علمت عرساك أنك آيب ... تخبرهم عن جيشهم كل مربع

وهجا أوس بن حجر الحكم بن مروان العبسي، وكان مدحه فلم يثبه، فبدأ مقطوعته بالدعاء على ناقته بالضياع إذا ما توجهت إليه مرة ثانية، وكفى بالمرة الأولى زاجرا، حين وفد إليه فانتابت المهجو رعدة شديدة، وكأنها من أثر حمى خيبر المشهورة بثقل وطأتها وقسوة حرارتها، وكأن الشاعر حين مدح هذا البخيل مدح صخرة عطاؤها جاف لا يرتجي خيره. ثم يدعو الشاعر عليه أن تتعاوره أسياف منولة من بني فزارة المعروفة بشدتها. ويشبه الشاعر وعد الحكم العرقوبي الذي لم تقم له قائمة بناقة رجزاء ضعيفة العجز إذا نهضت من مبركها لم تستقل، ولو عقل المهجو لما منع الشاعر عطاء القليل،

---

(١) ديوانه ٦١.

ولعد ذلك بيعة أو صفقة خاسرة لا تؤثر على ماله الكثير. وأخيرا ينهي أبياته بقوله : إن كلامك الذي تلقيتني به يوم النجير كان من السوء والفساد حتى إنه ليفسد أطيب الروائح يقول[١]

إذا ناقة شدت برحل ونمرق	إلى حكم بعدي فضل ضلالها
كأن به إذ جئته خيبريه	يعود عليه وردها وملالها
كأني حلوت الشعر حين مدحته	صفا صخرة صماء يبس بلالها
ألا تقبل المعروف منا تعاورت	منولة أسيافا عليك ظلالها
هممت بخير ثم قصرت دونه	كما ناءت الرجزاء شد عقالها
منعت قليلا نفعه وحرمتني	قليلا فهبها بيعة لاتقالها
تلقيتني يوم النجير بمنطق	تروح أرطى سعد منه وضالها

ويهجو أوس بن حجر بني هواره بن مالك بن ضبيعة فيرميهم بالقبيح وأنهم إلى المخزيات مسرعون، كما ينسبهم إلى المجوسية في جواز إتيان المحارم، فالابن يزاحم أباه في امرأته، والرجل يأتي أمه وخالته فهو ضيزن لأبيه بالأم وسلف له بالخاله، ولا يقف الشاعر عند ذلك بل يتبذى على فكيهه بنت قتادة العواريه من قيس بن ثعلبه، ويتهم قومها بأنهم يجتمعون على الفواحش، كما يجتمعون للغزو والذب عن الحريم، ويستثني بني مالك منهم تقديراً للحلف والعهد القائم بين قوم الشاعر وبينهم. وينهى أبياته بتهديد من يتطاول عليه منهم وينال منه، بأنه الأعلم كيف ينالهم مضمنا الشطر الثاني المثل القائل (أعرف من أين تؤكل الكتف) ومعناه أن لحم الكتف

(١) المصدر السابق: ١٠٠.

إذا أكل من أعلاه تناثر وإذا أكل من قبل الغضروف لم يتأت لآكله، وهذا المثل يضرب لمن جرب الأمور ودرى مآخذها وعلم مواردها ومصادرها يقول:[١]

طلس العشاء إذا ما جن ليلهم	بالمنديات إلى جاراتهم دلف
والفارسية فيهم غير منكرة	فكلهم لأبيه ضيزن سلف
لولا بنو مالك والألّ مرقبة	ومالك فيهم الآلاء والشرف
أم دلكم بعض من يرتاد مشتمتي	بأي أكلة لحم تؤكل الكتف

ويهجو أوس بن حجر قوما من عبد القيس فيصفهم بالشح والدناءة والمهانة والخيبة، وأنهم لا يملكون من القوة المادية والمعنوية ما يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم، ومع ذلك يجاهرون بعداوتهم للشاعر إذ ينظرون إليه من جانب أعناقهم دلالة على الكبرياء والاحتقار، وكانوا في نظر الشاعر صهب السبال، والعرب تصف الأعداء بذلك أي شعرهم أصهب وهو الأصفر الضارب إلى الحمرة والبياض، وكانوا يحملون عصيا عظاما كعصا القصار كناية عن ابتعادهم عن الحكم والقيادة، ولهذا تنكب الاقتراب منهم ومن مياههم وذلك للؤمهم وضعفهم. ثم يذكر الشاعر أنهم لو لم يكونوا في حماية الملك الهمام الكثير الجود لغزاهم جيش عظيم لا يقدرون على مقاومته، لضعفهم وجبنهم ولفروا في الحال خوفا منه، ومن علامات لؤمهم أنهم إذا أصابوا الغنى والخصب أشروا وبطروا، وإذا كانوا في موضع المخافة ضجروا وقد أفادت الأخبار الظنية وكشفت عن يوم سيء لعبد القيس، والشاعر على ما يبدو يتمنى حلول ذلك اليوم. يقول:

---

(١) المصدر السابق ٧٥.

قوم لئام وفي أعناقهم عنف ... وسعيهم دون سعي الناس مبهور
ويل أمهم معشرا جما بيوتهم ... من الرماح وفي المعروف تنكير
إذ يشزرون إليّ الطرف عن عرض ... كأن أعينهم من بغضهم عور
نكبتها ماءهم لما رأيتهم ... صهب السبال بأيديهم بيازير
مخلفون ويقضي الناس أمرهم ... غس الأمانة صنبور فصنبور
لولا الهمام الذي ترجي نوافله ... لنا لهم جحفل تشقى به العور
لولا الهمام لقد خفت نعامتهم ... وقال راكبهم في عصبة سيروا

ويهجو أوس بن حجر بني لبيني بن أسد بن وائله فيعيرهم بأنهم أبناء أمه، إذ ينسبهم إلى الأم تهجينا لشأنهم وأنهم هجناء، ثم يقول لهم إنه يخاصمهم ولكنه يدعو عليهم أن يمقتهم الله كما يمقتهم هو، ويؤكد لهم أنه لا مكان لهم بين الأحرار وليس لهم من العروبة نصيب، فأبوهم عبد وأمهم أمه، ويذكر أن رحمها يخرج بعد الولادة وأنه يشد كما يشد رحم الناقة، وهم في نظر الشاعر منفيون عن طرق الكرام، كما ينفي عصا النجاد التي يضرب بها الصوف والقطن ما تمقط من الوبر وتلبد يقول (١)

أبني لبيني لستم بيد ... إلا يدا ليست لها عضد
أبني لبيني لا أحقكم ... وجدا الاله بكم كما أجد
أبني لبيني لست معترفا ... ليكون الأم منكم أحد
أبني لبيني إن أمكم ... أمة وإن أباكم عبد
تنفون عن طرق الكرام كما ... تنفي المطارق ما يلي القرد

---

(١) السابق ٢١.

ويهجو أوس أيضا بني أسد فينسبهم إلى أمهم وكأنهم لا أب لهم، ويراهم ألأم الناس وأكثرهم شحا ومهانة ودناءة، وأجدرهم بهجائه الذي يسير بين الناس في كل مكان لا يعوقه شيء، أما أصولهم في نظر الشاعر فلا تساوي شيئا على الإطلاق. يقول [١]

أبني لبيني لم أجد أحدا ... في الناس الأم منكم حسبا

وأحق أن يرمي بداهية ... إن الدواهي تطلع الحدبا

وإذا تسوئل عن محادتكم ... لم توجدوا رأسا ولا ذنبا

ويهجو أوس بن حجر رجلا من بني لبيني بن سعد الأسدي وكان قد هجاه فيبدأ أبياته باستفهام تحقيري ساخر، فالشاعر يتعجب من أن يضع المهجو نفسه في عداد المتعاظمين والمتفاخرين وهو لا يجد أي سبيل يفضي به إلى ذلك ولا يملك أي شيء يحمله على ذلك، وهو في نظر الشاعر لا يعدو أن يكون في ذيل عشيرة قعين بن الحارث بن ثعلبه بن دودان بن أسد، بل هو منها بمنزلة الأست من الإنسان ويمضي في سخريته فيجعل زاده أير الكلب المشوي نافيا عنه ما زعمه من التمتع بتمر العراق وبره، ثم يصمه بالبخل الشديد فيجعله ينفرد وينزل محلا غير مطروق خوفا من الضيوف، ويشبهه في هوانه بالليلة التي يستتر فيها القمر من أوائل الشهر أو أواخره. يقول [٢]

عدمت رجالا من قعين تفجسا ... فما ابن لبيني والتفجس والفخر

شأتك قعين غثها وسمينها ... وأنت السه السفلى إذا دعيت نصر

وعيرتنا تمر العراق وبره ... وزادك أير الكلب شوطه الجمر

---

(١) السابق ٤.

(٢) السابق ٣٨.

معازيل حـلالون بالغيب وحدهم بعمياء حتى يسألوا الغد ما الأمر
فلو كـنتم من الـليـالي لكـنتم كلـيلة سـر لا هـلال ولا بدر

ويهجو محرز بن المكعبر الضبي بني شيبان، حين أطلق في يوم الشقيقة سبعين أسـيرا منهم وجز نواصيهم على عادة الجـاهليين، فلم يحفظوا له هذا الجميل ولـم يشكروا له هذا الفضل، مع أن الحر الحقـيقي هو الذي لا ينسى فضل من أسدى إليه معروفا مهمـا كان قليلا، فما بالك بهذا الاحسان الذي أعتـقت فيه رقاب بدون فـداء، والشاعر يرجـو أن يتكرر هذا الموقف موقف أسر فريق من شيبان مرة ثانية ليجز لحاهم، لأنهم لا يستحقونها فهو لا ينتظر منهم جزاء ولا شكورا. يقول (١)

أطلقت من شيـبان سبعين عـانيا فـأبوا جمـيعـا كلهم ليس بشكر
إذا كنت في أفناء شـيبان منعـما فـجز اللحى إن النواصي تكفـر
فـعل تميـمـا أن تغـيـر عليكم بجـيش وعليّ أن أغـيـر فأقـدر
فلا شكركم أبغي إذا كنت منعما ولا ودكم في آخر الدهر أضـمر

وهجـا أوس بن علباء الهـجيـمي يزيد بن الصعق الكلابـي بقصـيدة، تحدث فيها عن نتائج يوم ذي نجب الذي انـتصرت فيه تميم على بني كلاب، حيث أسـر المهجـو على يد أنيف بن الحارث الـيربوعي بعد أن ضـرب على رأسه في الحـرب. وفي بداية القصيدة تحـدث أوس عن المواضع التي سلكها الجيش التميمي إلى أن لقي الجيش الـذي فيه يزيد، وهو جيش ضعيف سيء النظام. وتهكم الشاعـر بابن الصعق وهجاه بالـسفه والضعـة والحمق والجبن

(١) النقائض ١/ ١٧٢.

والغدر، وذكره ماأصاب قومه من هزيمة، وعيره بقعودهم عن الثأر لعجزهم وغدرهم بجيرانهم، وفي أواخر القصيدة خاطب من أسماه الجرمي ورماه بالعجز والاستسلام للأسر. يقول (١)

وجدنا من يقود يزيد منهم	ضعاف الأمر غير ذوي نظام
فأجر يزيد مذموما أوانزع	على علب بأنفك كالخطام
وإنك من هجاء بني تميم	كمزدان الغرام إلى الغرام
هم منوا عليك فلم تثبهم	فتيلا غير شتم أو خصام
وهم تركوك أسلح من حبارى	رأت صقرا وأشرد من نعام
فإنا لم يكن ضباء فينا	ولا ثقف ولا ابن أبي عصام
ولا فضح الفضوح ولا شييم	ولا سلماكم صمي صمام
قتلتم جاركم وقذفتموه	بأمكم فما ذنب الفلام؟؟

ويهجو ربيعة بن طريف العنبري بني الخصيب بن بكر، لتخاذلهم وضعفهم عن الأخذ بالثأر ممن قتل في يوم غول الأول، الذي انتصر فيه بنو عمرو بن تميم على بكر وقتلوا طريف بن شراحيل وعمرو بن مرثد المحلمي والمحسر وأسروا بعضهم وشردوا بعضهم الآخر، ولم يجد أقرب المشردين منهم غير الاستعانة بالتميميين ليخلصونهم من صنوف الأذى التي تعرضوا لها على أيدي المغيرين عليهم. يقول (٢)

(١) المفضلية ١١٨.

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٢.

يا راكـبـا بلغـن عني مـغـلغلة | بني الخـصيب وشـر المنطق الفند
هلا شـراحيـل إذ مال الحـزام به | وسط العجاج فلم يغضب له أحد
أو المحـسـر أوعـمرو تحـيـفـهم | منا فوارس هيجـا نصرهم حشد
إن يلـحظوني بـزرق من أسنتـنا | يشفى بهن الشنا والعـجب والكمد
وقـد قتلـناكم صبـرا ونأسـركم | وقـد طرناكم لـو ينفع الـطرد
حتى استـغاث بنا أدنى شريدكم | من بعـد مامـسه الضـراء والنكد

ويهجـو طرفة بن العـبد بني تغلب فـيصـفهم بالجبن والخـوف وبعدم الاستطاعـة على مواجهـة الحرب. إنهم كالنخل يطيف بـه البكريون يجزونه يقطعونه، فيما نساؤهم تطيف به مشمـرة سيقانها تجترم رديء النخل وساطقه وهن عجـائز شمط، أما مـرعى القوم فهـو أسوأ الكلأ وأردأ الشـجر إنه من الطحمـاء السيء الذي إذا أكلته الماشـية انتفـخت بطونها، ثم يوجه الشـاعر هجاءه إلى الغلاق بن شهاب التمـيمي الذي أرسله عمرو بن هند ليصلح بين بكر وتغلب، فما كان سعيه إلا كذبا وخـداعا مثله مثل من استقسم بالأزلام فكان سهمه سهم الغواية والضلال، حيث زاد الحرب شدة وسعارا كان النصر فيها للبكريين. يقول (٢)

أنـتـم نـخـل نـطـيـف بـه | فـإذا مـاجـز نجـتـرمـه
وعـذاريكم مـقلصـة | في ذعـاع الـنخيل نختـرمـه
شـجـر شـمط مـعـا لكم | تصـطلي نيـرانه خـدمـه
خيـر مـا ترعـوه من شـجـر | يابس الطحـمـاء أو سـحـمـه

(١) ديوانه ٨٥.

فسعى الغلاق بينهم سعي خب كاذب شيمه
فأتى أغواهما زلمه أخذ الأزلام مقتسما

ويمزج الحارث بن حلزه اليشكري في معلقته بين العتاب والهجاء فيقول مخاطبا بني تغلب: لقد أتانا من الحوادث والأخبار مصيبة كبرى ونحن محزونون لأجلها، وهي أن اخواننا التغلبيين ألزمونا ما لا نطيق، إنهم يسوون البريء بالمذنب فلا تنفع البريء براءته فهم يلزمونا ذنب كل من ضرب وتدا بخيمه، وكأنا مسئولون عن ذنوب الناس جميعا، وقد أطبقوا على أمرهم من قتالنا عشاء فلما أصبحوا جلبوا وصاحوا من مناد ينادي صاحبه فيقول يا فلان ومن مجيب يقول ها أنذا وبين ذلك رغاء الإبل، فهو يسخر من جمعهم هذا الذي لا يحمل معه سوى الفشل والخيبة، ثم يشير إلى عدم اكتراثه بكل محاولاتهم مع الملك عمرو بن هند فيقول أيها المبلغ بما نكرهه لابقاء لما أنت عليه لأن الملك يعرف أن ما تدعيه كذب فلا تظننا متخاشعين لإغرائك الملك بنا فقد وشى بنا أعداؤنا إلى الملوك قبلك، ثم يقول لبني تغلب أي أمر تريدونه فابعثوا ببيانه إلينا مع السفراء فإن شهدت الجماعات له كان ذلك لكم، وإن ادعيتم ما لا تعرفه الجماعات فليس بشيء، وإذا ما بحثتم ما بين موضعي ملحة والصاقب في الخليج العربي وجدتم أن قتلاكم أموات لأنه لم يثأر لهم وقتلانا أحياء لأننا ثأرنا لهم، وإذا استقصيتم ما جرى بيننا نبين لكم براءتنا وذنبكم وإن أعرضتم عن الاستقصاء أعرضنا عنكم مع إضمارنا الحقد عليكم كمن أغضى الجفون على القذي، وإن منعتم ما سألناكم من المسالمة والصلح فمن بلغكم أنه اعتلانا يوما فتطمعون فينا، فاتركوا الكلام القبيح والتعالي لأنكم إذا تعاليتم أجبرتمونا على التصريح

بأخبـاركم فلزمكم العـار. ثم يذكرهم بحلف ذي المجـاز وهو الموضع الذي جمع فيه المنذر بين بكر وتغلب وأصلح بينهما وأخذ منهم المواثيق والرهائن، وفي ذلك الحلف تم الصـلح وأخـذت العـهـود والكفـلاء حـذرا من الظلم والتعدي، وكتب ذلك في الصحف فكيف تنقصه أهواؤكم؟! إننا اشترطنا أن تكون الجنايات علينا وعليكم فلم تلزمونا؟ وإن اعـتراضكم علينا باطل وأنتم تأخذوننا بذنوب غيرنا كما تؤخذ الظبا بدل الشياه وفي هذا التشبيه إشارة إلى عادة الجاهليين بالنذر بالتضحية بالغنم إذا بلغت عددا معينا، وكان بعضهم إذا نال ما يريد ضن بما نذر. ثم يصعـد الشاعر من عتابه فيهـجوهم هجاء مبطنا معددا هزائمهم أمام من اعـتدى عليهم ويقول إنكم لم تقدروا على دفع كندة عنكم وتريدون أن تحملونا ذنوبهم فـيكون لهم الغنم وعلينا الجزاء، أتريدون أن تحملونا ذنوب الناس كـما فعل بطسم الذي أخذ بذنب أخـيه جديس حين هرب بخـراج الملك، ويعيـرهم بضرب الملـك المنذر لهم وقتلهم وهم قـيس وجندل والحـذاء سـادة من بني تغلب أثـاروا الفتن، ويقـول لهم أتريدون أن تحملونا جناية بني عتـيق والعباد كما تعلق الأحمال على عـنق البعير. وينهي الحارث معلقته بذكر سلسلة من هزائم تـغلب على يد حنيفة وقضاعة وتميم.
ومما جاء في هذه المعلقة قوله[١]

وأتانا مـن الحـوادث والأنبـاء — خـطب نـعنـي به ونسـاء
إن إخـوانـنا الأراقم يـغلـو — ن علينا في قـيلهم إحـفـاء
زعمـوا أن كل من ضرب العـير — مـوال لـنا وأنـا الـولاء

(١) ديوانه ٥٣.

أيهــــا النـاطق المـرقش عـنا ... عند عــمـرو وهل لذاك بـقـاء
لا تخـلـنـا على عــــراتـك إنا ... قـبل مـا قــدوشي بنا الأعـداء
إن نبـثتم مـا بين ملحـة فالصـا ... قب فـيـه الأمـوات والأحـيـاء
فـاتركوا الطيخ والتـعاشي وإمـا ... تتـعـاشوا فـفي التـعـاشي الداء
واذكـروا حلف ذي المجـاز ومـا ... قـدم فـيـه العـــهـود والكفـلاء
أعـليـنا جـناح كـندة أن يـغنـم ... غــــازيهم ومـنا الجــــزاء
أم علـيـنا جــرى إياد كــمــا ... قـــيل لطسـم أخـــوكـم الأباء
ليس منـا المضـربون ولا قــيس ... ولا جـندل ولا الحـــــــداء
أم جنايا بني عـتـيق فمن يغـدر ... فــــإنا مـن حــــريهـم برآء
أم علينا جـرى العبـاد كمـا نبط ... بجــــوز المحــمل الأعـــبـــاء

ويعاتب أدهم بن حازم الضـبي بني عامر بن صعصعه عـتابا يقوم على الموازنة بين أخلاق الضـبيين وأخلاق العـامر يين، فالمعـاتبون هم الذين بدأوا بالقطيعة والغدر والعـداوة والحرب، على الرغم مما بين الطرفين من الصلات الحميمـة وأوا صر النسب، فحل البعد بعد القـرب والكراهية بعد المودة، ثم يعيـرهم الشاعـر بسلب ثياب القـتلى، ومنع الأسرى من الطعـام والشراب، ويعلن ترفع قومه عن ذلك تنفيذا لوصية أبيهم يقول [١]

بني عامـر أضرمتـم الحرب بيننا ... وبينـكم بعـــد المـودة والقـــرب
غدرتم ولـم نغدر وقمتم ولـم نقم ... إلى حربـنا لما قعدنـا عن الحرب
وكنا وأنتم مـــثل كف وسـاعـد ... فصرنا وأنتم مثل شرق إلى غرب

(١) الحماسة البصرية ٢٠٥.

فما نسلب القتلى كما قد فعلتم ولا نمنع الأسرى من الأكل والشرب
وسلب ثياب الميت عار وذلة ومنع الأسير الزاد من أقبح السب
بذلك أوصانا أبونا ولم نكن لنترك ما أوصاه في الخصب والجدب

وفي يوم النسار جاور بنو عامر بن صعصعه ومن معهم من هوازن بني سعد والرباب في بلادهم بالخليج، فكان الضامن لما كان في سعد الأهتم السعدي، والضامن على هوازن قره بن هبيرة العامري. فرعوا ذلك الغيث ما شاء الله، ثم إن رجلا من بني ضبه يقال له الحنتف أغار على خيل مالك ذي الرقيبة القشيري فاستودعها رجلا من بني أسد بن خزيمة يقال له خالد بن عمرو، وكان غيبها قبل ذلك عند عوف بن عطيه التيمي، فأخذ الأهتم من إبل عوف حتى أرضى ذا الرقيبة، فرد الحنتف على عوف عدة ما أخذ منه وأمسك الخيل. فقال عوف بن عطية يخاطب قره بن هبيرة طالبا منه أن يتدخل في هذا الأمر لينصفه من هذا الغرم الذي لحقه، ومضمنا كلامه شيئا من التهديد والمباهاه والتعجب والاستنكار من أن يغرم لبني عامر ما لم يأخذه منهم يقول (١)

يا قريا ابن هبيرة بن قشير يا سيد السلعات إنك تظلم
يا قر إن تشعر فإني شاعر أو إن تكارمني فإني أكرم
هل أغرمن لعامر من عامر ولما ألاقهم ولم أتكلم
أو أغرمن لذي الرقيبة خيله إن كان دلهم عليّ الأهتم

ويعاتب عبد المسيح الشيباني كعب النمري على تجاوزه آدا ب المنادمة وتحرشه بجاريته وتكرار المحاولة رغم تحذيره المتكرر من ذلك. الأمر الذي

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٨٨.

اضطر الشاعر إلى قطع يد نديمه أو إصابة جسمه تحت تأثير الخمر، ويقول له إنك لو اكتفيت بالمنادمة الحسنة والاستماع إلى غناء الجارية في ذلك اليوم الجميل الملبد بالغيوم حتى تنام وتصحو على هذا الصوت الحلو المطرب لصحوت أيها النديم وأنت تحسب هذه القينة في عظم قدرها عما للسماك وخالة للثريا، ثم يقول الشاعر لنفسه رد عنها كعبا حيث لا يصبر عنها. وكانت النتيجة أنه جرح وأصابه الدم فتزلج به واسود من حمرته. ثم يبين الشاعر سوء عاقبة الخمر وأنها لا تحابي أحدا فمن شربها ذهبت بعقله وأنها إذا طابت لشاربيها زينت لهم القبيح. وأخيراً يكني بالكلم والدم عن الهجاء وأنه إن هجاهم ذاع شعره فلم ينقطع ذكره. يقول [(١)]

يا كعب إنك لو قصرت على	حسن الندام وقلة الجرم
وسماع مدجنة تعللنا	حتى تؤوب تناوم العجم
لصحوت والنمري يحسبها	عم السماك وخالة النجم
هلهل لكعب بعد ما وقعت	فوق الجبين بمعصم فعم
جسد به نضح الدماء كما	قنأت أنامل قاطف الكرم
والخمر ليست من أخيك ول	كن قد تخون بآمن الحلم
وتبين الرأي السفيه إذا	جعلت رياح شمولها تنمي
وأنا امرؤ من ال مره إن	أكلمكم لا ترقئوا كلمي

جـ- هجاء الشعراء للملوك:

يهجو طرفة بن العبد عمرو بن هند وأخاه قابوس هجاء مقذعا فيتمنى

(١) المفضلية ٧٢.

لو كان له ولقومه رغوث أي نعجة مكان عمرو هذا الملك المستهتر، نعجة قليلة الصوف غزيرة اللبن طويلة ا لأذنين تعلوها الكباش، لو كان هذا الأمر لكان الحال أحسن وأيسر والحياة أنعم وأرغد. ثم يهجو طرفه قابوس بقسوة فيصفه با لحمق والغباء والجهل، لأنه جعل الشاعر وخاله المتلمس قعيدا الحبس، ويتمنى لو كانا كالكروان يمرح في الفضاء حرا طليقا حتى لو طارده الصقر وغيره من كواسر الطير. يقول:

فليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثا حول قبتنا تخور

من الزمرات أسبل قادماها ... وصرتها مركنة درور

يشاركنا لنا رخلان فيها ... وتعلوها الكباش فما تنور

لعمرك إن قابوس بن هند ... ليخلط ملكه نوك كثير

قسمت الدهر في زمن رخي ... كذاك الحكم يقصد أو يجور

لنا يوم وللكروان يوم ... تطير البائسات ولا نطير

فأما يومهن فيوم نحس ... تطاردهن بالحدب الصقور

وأما يومنا فنظل ركبا ... وقوفا ما نحل وما نسير

ويهجو المتلمس عمرو بن هند فيبدأ هجاءه باستفهام ينطوي على التهديد بأنه لن يجد لنفسه ملجأً أو مهربا من هجائه الذي كان خوف الملك منه سببا في طرده من بلاطه، فصار عمرو وأمه هند عرضة وهدفا لهذا الهجاء الذي سينقش في الصحف كما تنقش بطانة السيف بالذهب، فهذا الملك هو أكثر الملوك شرا وحسبه وأعماله كلها شر بل هو أشر الناس جميعهم جاهلهم وعالمهم. ومن شيمه الملازمة له صفة الغدر والخداع والكذب، وهو يجد في عرقوب المثل والقدوة، وهذه الصفات التي اشتهر بها عمرو بن هند أصيلة توارثها من آبائه وأجداده من ناحيتي أبيه وأمه، فبيته

الواهي الذي لا يقوم على أساس كلعبة الصبيان المعروفة بالطين أو السدر أو الفيال. يقول [١]

أطردتني حذر الهجاء ولا ... واللات والأنصاب لا تئل

ورهنتني هندا وعرضك في ... صحف تلوح كأنها خلل

شر الملوك وشرها حسبا ... في الناس من علموا ومن جهلوا

الغدر والأفات شيمته ... فافهم فعرقوب له مثل

بئس الفحولة حين جدبهم ... عرك الرهان وبئس ما بخلوا

أعني الخؤولة والعموم فهم ... كالطبن ليس لبيته حول

ويهجو المتلمس أيضا عمرو بن هند فيصمه بالخيانة والحقد الدفين والفحش في الكلام وكل أنواع الشر والفساد، ويرميه بالتشبه بالمجوسية في نكاح الأمهات، كما ينسبه إلى الحمق والخرق والبعد عن السداد والرشاد في المعاملات والأحكام، ويعلن له أن تهديده ووعيده لا يهمه وبخاصة إذا كان بعيدا عنه في (غاوه) حيث لا تصل إليه يده الملوثة بدماء الأبرياء يقول[٢]

إن الخيانة والمغالة والخنا ... والغدر أتركه ببلده مفسد

ملك يلاعب أمه وقطينها ... رخو المفاصل أيره كالمرود

بالباب يطلب كل طالب حاجة ... فإذا خلا فالمرء غير مسدد

فإذا حللت ودون بيتي غاوة ... فابرق بأرضك ما بدالك وارعد

وهجا المتلمس الملك أيضا بصفات معنوية كالحقد والكذب والغدر

(١) ديوانه ٤٢.

(٢) المصدر السابق ١٤٦.

والخيانة ونكث ما وعد به، كما هجاه بصفات حسية جسمانية، كوصف أنفه بالقصر وأضراسه بالسواد والصفر فهي كالعدس، وأنه كالكلب بل أخس الكلاب(١).

ويهجو يزيد الشني الملك النعمان بن المنذر بالخيانة والغدر والمكر والخداع يقول (٢)

نعمان إنك خائن خدع ... يخفي ضميرك غير ما تبدي
فإذا بدالك نحت أثلتنا ... فعليكها إن كنت ذا حرد
ومكرت معتليا مختنتا ... والمكر منك علامة العمد

وينعت سويد الشني عمرو بن هند بالجور والتعدي فيقول (٣)

أبى القلب أن يأتي السدير وأهله ... وإن قيل عيش بالسدير غزير
به البق والحمى وأسد خفية ... وعمرو بن هند يعتدي ويجور

ويهجو عامر بن ثعلبة الأزدي عددا من الأوطان والمواضع التي لا تروقه الاقامة فيها، فيذكر عدم رغبته في سكن (أبيده) وإن كانت صالحة للحياة وتوفر فيها من الماء والشجر الشيء الكثير، و (ذي الأحقاف) لا يحب الإقامة فيها والتردد عليها كما تتردد البقر إلى أوطانها، وكذلك لا يميل إلى الإقامة الدائمة في (قملى) أو الارتباط بها كما يرتبط (الغمر) بجنب الراكب، والغمر هو أصغر الأقداح يقتسم القوم به الماء بينهم إذا قل في السفر بأن يلقوا فيه حصاه ويعطي كل منهم من الماء قدر ما يغمر هذه الحصاه، والشاعر

(١) ديوانه ٢٩٨.
(٢) المفضلية ٧٨.
(٣) ديوان عبد القيس ٥٨.

في هذه المقطوعة يذم الإقامة الدائمة في مكان واحد، ويفضل التنقل من مكان إلى آخر، ولكنه في نهاية الأبيات يثني على من في عمان وهجر من سادة الأزد قوم الشاعر. يقول [١]

أبلغ أبيده أني غير ساكنها ... ولو تجمع فيها الماء والشجر

ولا أقيم بذي الأحقاف من طربي ... كما تروح إلى أوطانها البقر

ولا أقيم بقملي لا أفارقها ... كما يناط بجنب الراكب الغمر

منا بأرض عمان سادة رجح ... عند اللقاء وحي دارهم هجر

وتعاتب (الخرنق) أخت طرفه عمرو بن هند ملك الحيرة على طرده لزوجها عمرو بن مرثد ورهطه من البلاد التي كانا يعيشان فيها في نعمة وأمان، فأخرجهما هذا الملك الظالم منها بلا ذنب يستحق كل هذا العقاب. وتوظف الشاعرة الأسطورة في التعبير عن مشاعرها، فتشير إلى قصة (زرقاء اليمامة) حين أنذرت قومها بوجود جيش يزحف نحوهم على بعد أيام فلم يصدقوها، وقد أشارت في قصتها إلى القطا وكيف أن من عادته أن يهجع في الليل ويتحرك في أول النهار، أما أن يسري في الليل فهذا يعني أن في الأمر شيئا أزعجه، كما أزعج عمرو بن هند رهط الشاعرة وأخرجهم من البلاد تقول[٢]

ألا من مبلغ عمرو بن هند ... وقد لا تعدم الحسناء ذاما

---

(١) شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام ٥٤.

(٢) شعراء النصرانية ٣٢٢.

كما أخرجتنا من أرض صدق ... ترى فيها لمغتبط مقاما
كما قالت فتاة الحي لما ... أحس جنانها جيشا لهاما
لوالدها وأرأته بليل ... قطا ولقل ما سرّى ظلاما
ألست ترى القطا متواترات ... ولو ترك القطا لغفى وناما



الفصل الرابع
التحريض والتهديد

١) التحريض.

٢) التهديد.

التحريض والتهديد من موضوعات شعر البحرين (الخليج) وهو موضوع شديد الصلة ببيئة البحرين. ويكاد يكون صدى لموضوعي الفخر والهجاء، فكثيرا ما يسلم إليهما أو يسلمان إليه، وقد أفرد بحديث خاص لأنه يختلف عنهما في كونه لا يسجل أحداثا وقعت - إلا نادرا - وإنما يتمسك بالناحية المعنوية ويصطنع أسلوب الإثارة، ويجنح إلى الإفصاح عن الخطة التي يعدها الشعراء لضرب خصومهم.[1]

١- التحريض:

ولعل أكثر المحاور التي دار حولها التحريض هو الثأر. يقول طرفه بن العبد محرضا الملك عمرو بن هند على الثأر لأخيه عمرو بن مامه: ما رأيك في هؤلاء القوم الذين قتلوا أخاك حينما استجار بهم وأقام معهم، لقد ارتكبت (مراد) جريمتها علنا فأهانوا شرفك وأصبحوا كلهم أعداءك ولن تثأر لنفسك إلا بقتلهم جميعا، وحينما هجموا عليه استغاث بأهل أمه واستنصر قوما آخرين، ولو أنه استنجد بجماعته من آل ثعلبة بن عكابه لأسرعوا لنجدته بكل شهامة وإخلاص، ولو جاءت بنو قران لنجدته لتحققت له كل أمانيه. ولو كانت قبيلة تغلب معه لكان قويا منيعاً وفاز بالنصر. فلم يستنجد عمرو بن مامه بقوم أقوياء وأبطال وإنما استنجد بجماعة ضعفاء جبناء لا شأن لهم بالحرب وجلائل الأعمال وقد استكانوا للكسل والخمول. لقد دفن في هذا الوادي من كان أعظم الناس في السلم والحرب فضمت الأرض بموته أغلى الأموات قدرا فهو خير الناس حيا وميتا. لقد فقدنا كريما جوادا لا

(١) العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ١٥١.

يبخل بشيء فجزع عليه الجميع، وخرجت النساء كاسفات حاسرات يذرفن الدموع جزعا عليه، على الرغم مما بيننا من العداوة فإني قد غضبت لفقده، فما أفدح الخطب وما أشنع جريمتك يا مراد، فأسرع يا عمرو بن هند إلى حربهم ولا يكن بعد موطنهم سببا في تأخير إهلاكهم، وأصدر الأوامر لجميع القبائل بالهجوم عليهم في الحال. وأخيرا يطلب الشاعر من الملك عمرو بن هند أن يحرم على نفسه متعة الحياة حتى يبعث إليهم الجيوش الكثيرة المتتابعة وتقضي عليهم. يقول(١)

أعمرو بن هند ما ترى رأي معشر ... أماتوا أبا حسان جارا مجاورا

فإن مرادا قد أصابوا جريمة ... جهارا وأضحى جمعهم لك واترا

دعا دعوة إذ تنكث النبل صدره ... أمامه واستعدى هناك معاشرا

فلو أنه نادى من الحصن عصبة ... لألقوا إليه بالصعيد الشرشرا

ولكن دعا من قيس عيلان عصبة ... يسوقون في أعلى الحجاز البرائرا

ألا إن خير الناس حيا وميتا ... ببطن قضيب عارفا ومناكرا

يقسم فيهم ماله وقطينه ... قياما عليه بالمآلي حواسرا

أنفت له على عداوة بيننا ... وقلت قتيل ما قتيل يحابرا

فلا يمنعك بعدهم أن تنالهم ... وكلف معدا غزوهم والأباعرا

ولا تشربن الخمر إن لم تزرهم ... جماهير خيل يتبعن جماهرا

ويقول المتلمس الضبعي حاشا قوم طرفه بن العبد على الأخذ بالثأر

(١) ديوانه ١٨٩.

ورفض الدية[١]

أبني قـــلا به لم تكن عـــاداتكم … أخـذ الدينة قـبل خطة مـعضـد

لن يرحض السوءات عن أحسابكم … نعم الحـــواثر إذ تساق لمعـــبد

فـالعبـد عبـدكم اقتلوا بأخـيكم … كـالعيـر أعـرض جنبـه للمطرد

فهو يحث قـوم طرفه على الأخذ بالثأر ويقول لـن يغسل عنكم العار أخذكم الـدية دون أن تثأروا به وتقـتلوا عمرو بـن هند، الذي هو كالحـمار أعرض جنبه للرمح وأمكنه من جسمه.

ويحرض أوس بن حـجر عـمرو بن هند على الانتـقام من بني حنيـفة البكريين قتله أبيـه المنذر بن ماء السمـاء يوم عين أباغ، ويخص بالذكر منهم بني سـحيم الذين أدخلوا دم المنذر إلى بيـوتهم، ويذم بشر بـن عمرو قـاتله لسوء فعله. ويشير إلى إجارة مراره بن سلمى الحنفي لمن ورد اليمامة من غير أهلهـا، وكان النعـمان بن المنذر أراد أن يجليـهم منها فـسوغـه الملك ذلك. ويحث أوس الملك علـى الثـأر من قـاتلي المنذر وألا يتـركـهم دون قـود أو عقاب، وأن يشعل النيران في بيوتهم حتى يلفـها لهب متوهج شديد البياض كناصية الحصان الأشقر. يقول [٢]

نبـئـت أن دمـا حـرا مـا نـلتـه … فـهريق فـي ثوب عليك مـحبـر

نبـئت أن بنـي سـحـيم أدخلوا … أبيـــاتهم تامـــور نفس المـنذر

فلبئس ما كسب ابن عمرو رهطه … شـمـــر وكـان بمسـمـع وبمنظر

زعم ابـن سلمـي مـــرارة أنه … مـــولى الســواقط دون آل المنذر

---

(١) ديوانه ١٤٩.

(٢) ديوانه ٤٧.

منع اليـمامـة حزنهـا وسهولـها — من كل ذي تاج كـريم المفـخـر
إن كان ظني في ابن هند صـادقا — لم يحـقنوها في السـقاء الأوفـر
حـتى يلف نخـيلهم وزروعـهم — لهب كناصـية الحـصان الأشـقر

وتستعمل ابنة حكيم العبدية أسلوبا قاسيا في تحريضها لقومها على الثأر لأبيها مستخدمة استفهاما تهكميا لقاتله ربيع، حين يظن أنه سيرجع إلى أهله سالما وقد دفن والدها في قبره، وراهنة كرامة قومها بأخذهم القصاص العادل من قاتله، وهي تعـدّهم في حكم النساء البائسـات والعبيـد بل تسقطهم من عداد البشر إذا لم يدركوا الثأر: تقول(١)

أيرجو ربيـع أن يؤوب وقد ثوى — حكـيم وأمـسـى شلوه بمطـبق
فـإن كنتم قومـا كرامـا فعـجلوا — له جرأة من بأسكم ذات مـصدق
فإن لـم تنالوا بأسكم بسيـوفكم — فكونوا نسـاء في الملاء المخلق
وقولوا ربـيع ربكم فاسـجدوا له — فـمـا أنتم إلا كمـعـزى الجـبلق

ويحث المتلمس قومه بني ضـبيعة على المبادرة بقتـال بني حنيفة الذين يكنون لهم البغضاء وينوون الغـدر بهم ويعدون جيشا كبيـرا لقتالهم، فإن لم يسارعوا إلى افتراسـهم سيقعون فريسة لهم رغم ما بينهـم من كفالة موثقة، ويتمثل لهم ببيـهس الذي دفعه خوف العار إلى الثأر لإخـوانه وإشهارالسيف في وجوه قاتليهم والانتقام منهم يقول:

أبلغ ضـبيـعـة كهلـها ووليـدها — والحرب تنبو بالرجـال وتضرس
القـوم آتوكم بأرعن جـحـفل — حنقين إلا تفـرسـوهم تفـرسـوا
خيـر من القوم العـصاه أميرهم — يا قوم فـاستحيـوا النساء الجلس

(١) حماسة البحتري ٣١.

ما إن أزال أذب عنكم كاشحا	قد كاد من حنق بسم يقلس
أتقول هم منعوا حنيفة حقهم	بعد الكفالة والتوثق أم نسوا
لم يعلموا أن قد مشى حذر الخزي	بالسيف للموت ابن بدره بيهس

وقد يأتي التحريض عن طريق التعريض بالذم. فهذا سعد بن مالك بن ضبيعة، أحد سادات بكر وفرسانها في حرب البسوس التي هاجت بين بكر وتغلب، عندما اعتزل عنها الحارث بن عباد في أول الأمر يعرض به سعد لقعوده عن هذه الحرب. وقد بدأ قصيدته بالأسف على داهية الحرب التي تركها جماعة فاستراحوا من شدائدها التي بها نيل المكارم، ثم بين أن الحرب داهية لا يبقى لحر وطيسها صاحب التخيل والمراح، فالذي يجربها يعلم حقيقتها حيث لا يقوم لحومة الحرب إلا الفتى الحابس نفسه على الدواهي، والفرس الصلب الحافر وأدوات الحرب التي يكون بها التحصن. إن الحرب لاحظ فيها للأوشاظ والذنبات إذا بلغ الأمر الفضيحة فإنهم يسقطون حينئذ، ويكون المعول على الرؤساء لما لهم من صدق العزيمة عند اللقاء، فحين يعز التقدم والمناطحة تظهر محمدة الكر بعد الفر عند اشتداد غمرات الحرب، وهمتنا في ذلك الوقت أن نسبي النساء، لا أن نغير على الإبل فنحن الذين بنا تقوم الحرب ويحصل الدفاع، فإذا غبنا فبئس الخلائف أولاد يشكر وبني حنيفة بعدنا، إذ ليسوا أهلا لأن يحمون حوزتهم بعدنا فهم لمن غلب. ومن أعرض عن الحرب خوفا من شرها- يقول الشاعر - فأنا ابن قيس بن ثعلبه صاحب النجدة لابراح لي عن هذه المعركة إلا بعد الغلبة، فاصبروا يا بني قيس لهذه الحرب حتى تقتلوا أعداءكم فتريحوهم من شرها أو يقتلوكم فيريحوكم من ذلك. إن الذي يطلب المفزع والنجاة خوفا من الحرب يمنعه من ذلك أجله المقدر له فلا ينفعه التوقي مما وقع، إن الموت قد حال دون أن يفوت بالرجل فيذهب عن هذه الحرب منهزما فليس إلا القتل أو الغلب.

يقول(١)

يا بؤس للحرب التي	وضعت أراهط فاستراحوا
والحرب لا يبقى لجا	حمها التخيل والمراح
إلا الفتى الصبار في	النجدات والفرس الوقاح
والنثرة الحصداء والبيض	المكلل والرماح
وتساقط الأوشاظ والذ	نبات إذ جهد الفضاح
والكر بعد الفر إذ	كره التقدم والنطاح
كشفت لهم عن ساقها	وبدا من الشيء الصراح
فالهم بيضات الخدو	رهناك لا النعم المراح
بئس الخلائق بعدنا	أولاد يشكر واللقاح
من صد عن نيرانها	فأنا ابن قيس لا براح
صبرا بني قيس لها	حتى تريحوا أو تراحوا
إن الموائل خوفها	يعتاقه الأجل المتاح
هيهات حال الموت دو	ن الفوت وانتضي السلاح

وربما جاء التحريض بواسطة الفخر ويحرض حنظلة بن ثعلبة العجلي قومه على التأهب للقتال في يوم ذي قار فيدعوهم إلى التعبئة والاحتشاد، ويتخذ من نفسه مثالا للجد والاقدام، فهو الرجل الصلب القادر على ممارسة الحرب المستعد لخوضها بكل قوته غير هياب من الموت، ويوميء الشاعر إلى قوته بشيئين هما سلاحه وفرسه، ويذكر من سلاحه القوس فالقوة في الرمي، كما يشبه حصانه بالحية في القوة وسرعة اللف والدوران. ثم يدعوا العجليين

(١) حماسة أبي تمام ١/ ١٩٧.

إلى الاستقلال بالحرب وحمل أثقالها ويفتديهم بنفسه وبأبيه وجده. يقول[(١)]

قـد جـد أشيـاعكم فجـدوا ... مـا علتي إذ أنـا مـؤد جـلد
والقـوس فـيهـا وترعـرد ... مـثـل ذراع البكـر أو أشـد
قـد جعلت أخـبـار قومي تبـدو ... إن المنـايا لـيس منهـا بـد
هذا عـمـيـر حـيـة ألد ... يقـدمـه ليس لـه مـرد
حـتى يعـود كـالكـميت الورد ... خلوا بني شـيـبـان فاستبـدوا

نفسي فداكم وأبي والجد

وقد يجيء التحريض عن طريق التحذير من مغبة الفرار من مواجهة العدو وما يترتب على ذلك من تفريط في العرض والحرم، مع الإشارة إلى أثر الوراثة والطباع في الإقدام والاحجام يقول[(٢)]

من فـر منكم فـر عن حـريمه ... وجـاره وفـر عن نـديمه
أنا ابن سـيـار على شكيـمـه ... إن الشـراك قـد مـن أديمه
وكلهـم يجـري علـى قـديمه ... من قـارح الهجنة أو صـمـيمـه

وورد التحـريض في صورة المديح، كمـا نري في قول المتلمس مشيدا بحمية بني صعب وبني محارب يقول[(٣)]

لم يرجعوا من خشية الموت والردي ... وقد جلبـتهـا من بعيـد جوالب
سـيـمنعهـا من أن ترد حـفـيظة ... فوارس صعب والكمـاة محارب

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣١.
(٢) نفسه ٣٢.
(٣) ديوانه ٢٥٤.

وأتى تحريض شعراء الخليج الجاهليين في شكل الهجاء بالتهوين من شأن العدو، وازدراء من يهرب من ملاقاته. يقول عمرو بن جبله اليشكري[(١)]

يا قوم لا تغرركم هذي الخرق ولا وميض البيض في الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذا العنق فجنبوه الراح واسقوه المرق

وقد يدور التحريض حول الدعوة إلى الهجرة عن دار المذلة والهوان. ويحرض المتلمس الضبعي قومه على ذلك والابتعاد عن كل ما يشين، فيبين أن الحر لا يرضى بالضيم وحتى الناقة القوية ترفضه ولا يصبر عليه إلا الحمار، ويذكرهم بأن الأوائل من قبيلته بكر دفعها إباء الذل إلى قتل ملكها من تغلب (كليب) عندما أسرف في الظلم والغرور، ويحذرهم من أن يكونوا كعبد القيس عندما استسلموا للملك الطاغية عمرو بن هند فأذلهم وقتلهم، فكانوا في ذلك مثل الكلب الذي يأكل قيئه، ويعود الشاعر ليؤكد أن الكل يأبى الهوان والتمادي في الاذلال باستثناء اثنان أحدهما حمار الحي المربوط بحبله، والاخر الوتد المركوز في الجدار، فهما اللذان يضربان على الدوام دون أن يحسا أو يغضبا، والناس لا يتأثرون بما يحدث لهما لأنهما لا يغضبان بما يقع عليهما. ثم يقول المتلمس لقومه في سياق الحث: إذا كنتم لا تملكون من الرواحل ما يمكنكم من الانتقال عن مواطن الخسف فإنه على استعداد لتقديم ذلك لهم، وهو في كلامه يسخر منهم حين يقيمون على الضيم وهم يملكون القدرة على الارتحال، ثم يضرب لهم مثلا بسامه بن لؤي ابن غالب عندما تغاضب مع قومه فرحل من مكة إلى عمان في رحلة طويلة شاقة حتى وجد المكان والمأوى اللائقين، فالابتعاد عن أهل العداوة والسوء

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٢.

واجب على الأحرار لأن أرض الله واسعة يقول[١]

إن الهوان حمار القوم يعرفه	والحر ينكره والرسلة الأجد
كونوا كبكر كما قد كان أولكم	ولا تكونوا كعبد القيس إذ قعدوا
يعطون ما سئلوا والخط منزلهم	كما أكب على ذي بطنه الفهد
ولن يقيم على خسف يسام به	إلا الأذلان عير الأهل والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته	وذا يشج فما يرثى له أحد
فإن أقمتم على ضيم يراد بكم	فإن رحلي لكم وال ومعتمد
كونوا كسامه إذ شعف منازله	إذ قيل جيش وجيش حافظ وصد
شد المطية بالانساع فانحرفت	عرض التنوفة حتى مسها النجد
وفي البلاد إذا ما خفت نائرة	مشهورة عن ولاة السؤ مبتعد

وقد يجمع الشاعر بين التحريض والتهديد . يقول المتلمس إن الإنسان مرتهن بأجله فإما أن يموت حتف أنفه فيدفن، وإما أن يقتل في معترك فيترك لعافي الطير، فلا داعي - إذن- لقبول الضيم مخافة الموت وهو واقع لا محالة، ولتمت أبيا حتى لا يلحق بك عار فما الناس إلا رؤية وتحدث، اعتبار بالمشاهدة أو بما يروي من الأخبار، ويتكيء المتلمس في تحريضه على التاريخ وأمثال العرب فيستشهد ب (قصير بن سعد اللخمي) و (بيهس بن خلف الفزاري)، وقد حمل الحرص على الثأر أن قطع قصير أنفه وثأر لجذيمة الأبرش من الزباء لقلتها مليكه حتى مكن (عمرو بن عدي) من الدخول عليها للانتقام فماتت بالسم أو السيف. كما دفع التمسك بالثأر (بيهس) إلى أن يأخذ قميصه يغطي به رأسه ويكشف عن دبره حتى يستره ثوب الثأر. ثم

---

(١) ديوانه ٢٠٣ - نائرة: عداوة.

يضرب مثلا ثالثا بحصن اليمامة المنيع الذي أعيا تبعا ملك اليمن، مشيرا إلى أن الانسان ليس كالحجارة والجبال التي لا تؤثر فيها الأيام. ولكنه غرض للحوادث فلا ينبغي أن يقبل ضيما رجاء الحياة. وإذا كان تبع قد عجز عن حصن اليمامة عندما غزا المدن والقرى فلم يصل إليه فإن المتلمس يتحدى أيضا عمرو بن هند فيقول : إن قدرت على اليمامة فاقصدها فإنها أخصب ما تكون مزردعها مثار وداليتها تدور. ثم يشير الشاعر إلى الخلاف الذي وقع بين بني ضبيعة وبين ذهل بن ثعلبة بن عكابه فعاتبهم المتلمس بقوله: إن قبلوا ما نوبس نقبل مثله وإن أقبلوا بعد ذلك وادين ووامقين أقبلنا بمثله، وإلا فنحن أشد إباء وأبلغ شماسا وأحمر أنفا وأعز جانبا، ثم يشير إلى قران وهي قرية باليمامة وإلى أصحابها وهم بنو سحيم بن مرة بن حنيفة فيقول أجرونا مجرى نظرائنا فإنا نرضى بهم قدوة، وأعرضوا ما تسوموننا على بني قران فإن وجدتموهم يتلقونه بالقبول ويوطئون أنفسهم عليه فلنا بهم أسوة وإلا فالامتناع منه واجب، ثم يقول إني أرصد لهم من ينذرني بهم فيخبرني بمجيئهم إذا هموا به فأتقي وأستجن وأتحرز. ويقول عن حبيب بن كعب بن يشكر بن بكر: وإن تكاسل بنو حبيب عن إدراك ثأرنا فقد كان منا من يدأب ويسهر يقول[(١)]

أعاذل إن المرء رهن مصيبة	صريع لعافي الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيما مخافة ميته	وموتن بها حرا وجلدك أملس
فما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا	وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا
فمن طلب الأوتار ما حز أنفه	قصير وخاض الموت بالسيف بيهس
نعامة لما صرع القوم رهطه	تبين في أثوابه كيف يلبس
ألم تر أن الجون أصبح راسيا	تطيف به الأيا م ما يتأيس

(١) ديوانه ١١٠.

عصى تبعا أيام أهلكت القرى ... يطان على صم الصفيح ويكلس

هلم إليها قد أثيرت زروعها ... وعادت عليها المنجنون تكدس

وذاك أوان العرض حي ذبابه ... زنابيره والأزرق المتلمس

فإن يقبلوا بالود نقبل بمثله ... وإلا فإنا نحن آبى وأشمس

وجمع بني قران فاعرض عليهم ... فإن يقبلوا هاتا التي نحن نُوبس

يكون نذير من ورائي وجنة ... ويمنعني منهم جلي وأحمس

فإن يك عنا في حبيب تثاقل ... فقد كان فينا مقنب ما يعرس

٢- التهديد

وأكثر شعر التهديد والوعيد عند شعراء الخليج الجاهليين جاء مرتبطا بالحرب والقتال. وكان شاعرهم يهدد أعداء قومه بمقاتلتهم من أجل رفع معنويات الفرسان وليسمع صوت قبيلته للمجتمع القبلي. فطرفة بن العبد يهدد تغلب إذا ا فكرت بالاعتداء على قومه أو النيل منهم، بمقاتلتهم بجيش ضخم مهلك لا يحصى عدد من فيه من الشجعان، وهذا الجيش إذا مر في أرض مطمئنة فلقها وصيرها ترابا مرتفعا في السماء ، وأبطال هذا الجيش يمسكون بأبطال الأعداء ويضيقون عليهم الخناق حتى يقضي عليهم[١]

وقتال لا يغبكم ... في جميع جحفل لهمه

رزه قدم وهب وهلا ... ذي زهاء جمه بهمه

يتركون القاع تحتهم ... كمراغ ساطع قتمه

لا ترى إلا أخا رجل ... آخذا قرنا فملتزمه

(١) ديوانه ٨٦.

وقد يتخذ شاعر الخليج من التذكير بوقائع سبقت لقومه أو له أسلوبا لتهديد العدو. كما نرى في قول سلا مه بن جندل يذكر الأعداد بالغارات التي انتصر فيها قومه عليهم[(١)]

من مبلغ عنا كلابا وكعبها ... وحي نمير باليقين رسول

بأني بيوم مثل يوم بملزق ... لكم ولقاء إن حييت كفيل

غداة تركنا من ربيعة عامر ... دماء بأعلى الواديين تسيل

ويحدثنا (ثعلبة بن عمرو) بأن رجلا قتل أخاه فقام يأخذ بثأر أخيه والتقى مع عدوه في منطقة النسير بالبحرين ولم يكن سوا هما في هذه المواجهة، فأقسم عدوه على أن ينال منه ما وسعه الجهد، وأقسم الشاعر إن ظفر بعدوه ألا يعيده للحياة. ويصف ثعلبه قدرة عدوه فهو صلب قوي لكنه عندما أقبل خدعته نفسه، فلم يكن يدور في حسبانه أنه يوا جه فارسا أشد منه قوة وأمضى بأسا، ويقبل الشاعر على عدوه فيطعنه طعنة نجلاء تدفق دمه غزيرا على أثرها. وأخيرا يهدد الشاعر عدوه بدحره عندما يقدم هذا العدو عليه مرة ثانية. يقول[(٢)]

أخي وأخوك ببطن النيسي ... ر ليس به من معد عريب

فأقسم بالله لا يأتلي ... وأقسمت إن نلته لا يؤوب

فأقبل نحوي على قدرة ... فلما دنا صدقته الكذوب

أحال بها كفه مدبرا ... وهل ينجينك شد وعيب

---

(١) ديوانه ٢٠٤.

(١) المفضلية ٦١.

فتبعته طعنة ثرة يسيل على الوجه منها صبيب
فإن قتلته فلم آله وإن ينج منها فجرح رغيب
وإن يلقني بعدها يلقني عليه من الذل ثوب قشيب

ويهدد الحارث بن عباد بني سدوس تهديدا ممتزجا بالفخر فيسجل انتصاره عليهم بفروسيته وقتله لفرسانهم، ويتوعدهم بأيام لا تنسى وبمعركة إثر معركة. مشيرا إلى أن قتلهم لأبيه وإخوانه لم يفت في عضده، فمن معه من الفرسان الأقوياء كفيلون تحت قيادته بتحقيق النصر والظفر. يقول:(١)

لقد شهدت حقا سدوس بأنني أنا الفارس المعتاد قطع الحناجر
تلقيت نصرا والمعمر بعسده وأرديته كرها برغم المناخر
وسوف يرى منصور منا عجائبا يعدد ذكري في جميع المحاضر
ولابد من غبر يتابع غبرة ويتبع أولادا وشيكا بآخر
ظننتم سدوس إذ قتلتم والدي وتسعة إخواني أمد بعاشر
فهلا علمتم أن حولي فتية تصول على بيض السيوف البواتر

والتهديد المقترن بالفخر شائع عند شعراء الخليج الجاهليين، ففي حديث الحارث بن عباد الضبعي عن حرب سدوس كان للرماح التي تشبه الشعلة الساطعة دور في حسم المعارك لصالح الشاعر وفرسانه الشجعان، فقد أفنت كتائب الأعداء وبددت جموعهم، وكان الصبر الذي تحلى به الحارث ورفاقه أساس النصر والمنعة، ويتهددهم بحلول الشر بهم على يد كتائبه الغفيره، وأنه سيسير إليهم بالسيوف البتارة والخيول القوية السريعة والنياق الفتية التي يرعاها الفرسان المغاوير، وسيحيطون بهم ولن يفلتوا من قبضتهم. ويختم

(١) شعراء النصرانية ٢٧٧.

أبياته بتأكيد تهديده لهم بالقسم يقول[١]

سائل سدوس التي أفنى كتائبها ... طعن الرماح التي في رأسها شهب
إن لم تلاقوا بنا جهدا فقد شهدت ... فرسانكم أنني بالصبر معتصب
يا ويل أمكم من جمع سادتنا ... كتائبا كالربى والقطر ينسكب
أبا عقيل فلا تفخر بسادتكم ... فأنتم أنتم والدهر ينقلب
فإن سلمنا فإنا سائرون لكم ... بكل هندية في حدها شطب
وكل جرداء مثل السهم يكنفها ... من كل ناحية ليث له حسب
لا تحسبوا أننا يا قوم نفلتكم ... أو تهربون إذا ما أعوز الهرب
كلا ورب القلا ص الراقصات ضحى ... تهوي بها فتية غر إذا انتدبوا

ويتحدث شاعر من محارب عبد القيس عن فروسية قومه فيصفهم بأنهم أهل الحرب وأبناؤها الذين تربوا عليها منذ الصغر، وأنهم أصحاب العزة والمنعة لا يطل لهم قتيل ولا ينال منهم ثأر. يقول معددا مظاهر قوتهم المتمثلة في الخيول القوية السريعة والرماح الخطية الدقيقة والسيوف اللامعة القاطعة يقول[٢]

معاقلنا في الحرب جرد كأنها ... أجادل في جو السماء كواسر
وسمر من الخطي ذات أسنة ... وبيض كأمثال البروق بواتر
إذا ما انتضيناها ليوم كريهة ... رأيت لها هام العدى تتطاير
وما أدرك الساعون فينا بوترهم ... ولا فاتنا من سائر الناس واتر
فلا توعدنا بالفرار فإننا ... بنو الحرب ربتنا ونحن أصاغر

---

(١) شعراء النصرانية ٢٧٦.

(٢) ديوان عبد القيس ١٠١.

وكان بنو شيبان أرادوا نفي بني مازن عن ماء لهم يقال له (سفوان) وادعوا أنه لهم، فقال وداك المازني هذا الشعر الذي طلب فيه من بني شيبان- على سبيل التهكم - الترفق والتمهل في وعيدهم، موجها تهديده لهم بأنه عن قريب ستأتي خيله إلى سفوان، عليها الفرسان البيض الوجوه الباسلو القلوب وسيلاقون من بلائهم ما يستدل به على حسن صبرهم على الحدثان، وهم أهل إقدام وشجاعة يحملون في أيديهم السيوف القاطعة، وهؤلاء لحرصهم على الحرب إذا دعاهم أحد لينصروه على أعدائه أجابوه ولم يسألوه عن مكانها ولم يتعللوا بشيء كما يفعل الجبان يقول[1]

رويد بني شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غدا خيلي على سفوان

تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى ... إذا ما غدت في المأزق المتداني

عليها الكمأة الغر من آل مازن ... ليوث طعان عند كل طعان

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم ... على ما جنت فيه يد الحدثان

مقاديم وصالون في الروع خطوهم ... بكل رقيق الشفرتين يمان

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم بأي مكان

ويجمع مقاس العائذي بين التهديد والفخر في أبيات يبدأها بالتوعد مشيرا إلى عادة العرب حين يركبون الابل ويقودون الخيل إذا أرادوا الغارة فإذا صاروا إلى موضع القتال ركبوا الخيل، محذرا المخاطب من أن يركب رأسه بجهل وحمق ويرجع إلى قتال قومه الذين يفخر بهم بأنهم أهل بادية، يصبرون على البؤس والجفاف لا كأهل القرى الذين يغلبهم الحنين إلى أوطانهم فينتقض ذلك من عزمهم. ثم ذكر فرار امريء القيس وسبقه الخيل

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٤١.

وأنه لولا ذلك لأدركه الأسر أو الطعن، ثم عرج على ذكر قوم امريء القيس فجعله فداء لمن أعاد له حالتهم الأولى من السلامة ولذاذة العيش يتهكم بهم. وأخيرا سفه عقولهم التي دفعت بهم إلى مناجزة قومه والعدوان عليهم. يقول(١)

أولى فأولى يا ا مرأ القيس بعدما	خصفن بآثار المطي الحوافرا
فإن تك قد نجيت من غمراتها	فلا تأتينا بعدها الدهر سادرا
تذكرت الخيل الشعير عشية	وكنا أناسا يعلفون الأياصرا
فوالله لو أن امرأ القيس لم يكن	يفلج على أن يسبق الخيل قادرا
لقاظ أسيرا ً أو لعالج طعنة	تري خلفه منها رشاشا وقاطرا
فدى لأناس ذكروهم معيشة	ترى للثريد الورد فيها نواخرا
فإن بنى عجل هم صبحوكم	صبوحا ينسي ذا اللذاذة ساعرا
أجئتم إلينا في بقية مالنا	تزجون من جهل إلينا المناكرا

وقد يأتي التهديد مقترنا بالعتاب أو الهجاء. ففي قصيدة لمره بن همام الشيباني دعا الشاعر في الأبيات الأربعة الأولى صاحبيه أن يتأهبا للرحيل، وأن يعدا له ناقة قوية وصف خلقها وسيرها وجودة غذائها، وشبهها بالنعامة تسابق الظليم وتباريه في منطقة مليحة بالخليج العربي، ثم خلص إلى صميم الغرض فتعجب من عوف كيف يسطو على ماله اليوم وكان بالأمس يتهيب ذلك، ثم يتوعده أن لو شا ء لشنها عليهم حربا شعواء يسترد بها إبله ويرعاها حيث يريد، ثم مدح عوفا على عادة فرسان العرب من تمجيد الرجل لقرنه والقاتل لمقتوله. يقول(٢)

---

(١) المفضلية ٨٥.

(٢) المفضلية ٨٢.

يا صـــاحـبي تـرحـلا وتقـــربا فلقـــد أنى لمســـافـــر أن يطربا
تاللـه لولا أن تشـــاءي أهلهـــا ولشـر مـا قـال امـرؤ أن يكذبا
لبعثت في عرض الصراخ مفاضة وعلوت أجرد كـالعسيب مـشذبا
لتــركـــتم إبلي رتاعـــا إنني مما أرد الجـيـش عنهـا خـيـبـا
للـه عـــوف لابـســا أثـوابه يالهف نفـسي قـرن ما إن يغلبـا

وفي قصـيدة لراشد اليـشكري بدأ في الأبيات الثـلاثة الأولى بالحديث عن أرقه بسبب مـا بلغه من هجاء قيس الشيـباني له نافيا عن نفسه مـا نسبه الهاجي إليه من الخنا والعار، ثم يتوعد راشـد قيسا بأشد التوعد ويطلب منه أن يكف عن الهجو كي لا يلقى منه شرا مستطيرا، ويتهدده بالسلا ح فينعت سيفه وقوسه وسهامه ورمحه ودرعه، ثم يذكره بما كان بينهما من كرم الجوار والصحبة، ويكرر وعيده محذرا من مغبة الهجاء يقول (١)

فـمهـلا أبا الخنسـاء لا تشتـمني فتـقرع بعد اليـوم سنك من ندم
ولا توعـــدني إنني إن تـلاقني معي مـشرفي في مضـاربه قضم
ونبل قـران كـالسيـور سـلاجم وفـرع هتوف لا سـقي ولا نشم
ومطرد الكعـــبين أسـمـر عـاتر وذات قـتـير في مـواصلهـا درم
مـضاعـفـة جدلاء أو حـطمية تغـشي بنان المرء والكف والقـدم
لعـادية من السلاح اسـتـعرتهـا وكان بكم فقر إلى الغدر أو عدم
وكنت زمانا جـار بيت وصاحـبا ولكن قيـسا في مـسامعـه صمم
أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد أمـوف بأدراع ابن طيـبـة أم تذم
بذم يغـــشى المرء خـــز ياورهطه لدي السرحة العشاء في ظلها الأدم

(١) المفضلية ٨٦.

ولشـمـاس بن أسود الطـهوي أبيـات خـاطب بهـا حرى بـن ضمـره النهشلي. ومناسـبة هذه الأبيات أن قيس بن حـسان بن عمرو بن مـرتد كان نازلا في أخواله بني مـجاشع بفلج، وكان رجل من بني أسد يقـال له عمرو ابن عمران جارا لحري بن ضمره، فأخذ قيس بن حسان بكرا من إبل عمرو، فأتى عمرو حري بن ضمره وأخبره، فغضب حري وأتي قيسا فضربه بالسيف فقطع زنده ثم أخذ مـن إبله ثلاثين بعيرا وأعطاها إلى عمـرو، فانطلق قيس إلى أخواله بني مجاشع وأخبرهم بما صنع به حري فغضبوا من ذلك، ومضوا إلى بني نهشـل وجرى بينهم كلام وعـرضوا على حـري أن يرد الابل فأبى، فخذله قومه وأسلموه إلى بني مجـاشع، فجروه وضربوه وأخذوا منه أكثر مما أخذ، فاسـتنصر بقومه فـأبوا أن ينصروه، فقـال شماس الطهوي يعـير حري الدارمي بتخلي عـشيرته عنه، رغم القضاء الجـائر الذي مني به على يد قيس وأخواله، والخزي الذي لقيه بإفراده عن قومه افراد البعير الأجرب، ثم يطالبه الشاعر أن ينصف جاره قيس ويهدده أن يفعل برضاه حتى لا يرغم على ذلك بقوة السيف. يقول[1]

أغـرك يومـا أن يقـال ابن دارم	وتقصي كما يقصي من البرك أجرب
قضى فـيكم قيس بما الحق غـيره	كـذلك يخـزوك العـزيز المدرب
فـأد إلى قيـس بن حسـان ذوده	ومـا نيل منك التـمـر أو هو أطيب
فإلا تصل رحم ابن عمرو بن مرثد	يعمك وصل الرحم عضب مجرب

ويهدد طرفة بن العـبد المسيب بن علس الشاعر فيـقول له إن الشخص الذي يستـسيغ شتمي ويسـتلذه، كأنه عسل ممزوج بالسحـاب إنما هو شخص مخـطيء ضال لا عـقل له، ومن يفعل ذلك مـعي سوف يلقى جـزاءه مني

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٢٠١.

كاملا، لأني رجل خبير بالأدواء أعرف كيف أشفي كلا من مرضه، وأنا بطل شجاع ذو قوة وسطوة أعرف كيف أواجه الجيوش بجيوش أعظم وأقوى، كما أنني حاذق بالرمي أعرف كيف أصيب المقاتل، بصير بمواضع الرمي والقتل في كل حال، وإنني ماهر في الطعن بالرمح، أصيب العروق فينزف صاحبها حتى يموت، إن المتكبر الشرير لا يرده إلا الشر، وجزاء مثله حسام يقطع رقبته، أو هجاء مر قاتل، فمن الكلام ماهو أشد إيلاما وقتلاً من الجرح النافذ الواسع يقول[1]:

إن امرءا سرف الفؤاد يرى	عسلا بماء سحابة شتمي
وأنا امرؤ اكوى من القصر الـ	بادي وأغشى الدهم بالدهم
وأصيب شاكلة الرمية إذ	صدت بصفحتها عن السهم
وأجر ذا الكفل القناة على	أنسائه فيظل يستدمي
وتصد عنك مخيلة الرجل الـ	عريض موضحة عن العظم
بحسام سيفك أو لسانك والـ	كلم الأصيل كأرغب الكلم

وعندما تزوج قراد الدارمي امرأه طلقها حاجب بن زراره وقال بيتين يشير فيهما إلى استحاله عودته إليها وظلمه لها بالتطليق، تهدده حاجب وأخوه عمرو، فرد قراد عليهما بأبيات أربعة سخر فيها من هذا التهديد المبني على محاولة قتله بلا ذنب جناه سوى ذكره لزوجته الحصان التي خسرها حاجب. ثم يعلن الشاعر أنه من عشيرة دارم التي لا تهاب، ولكنه يستثنى منها حاجب وأخاه وكأنهما ليسا منها فعدوهما قراد في مأمن لعدم قدرتهما على النيل منه. يقول [2]

(١) ديوانه: ١٤٣.

(٢) معجم الشعراء ٣٢٨.

تمنى حاجب وأخوه عمرو لقائي بالمغيب ليقتلاني
فما أجرمت شيئا غير أني ذكرت خيال مكملة حصان
يخو فينكما عمرو وقيس كأني من طهية أو أبان
ولو لم يخش غيركما عدو لأصبح آمنا صعب المكان

ويهدد المسيب بن علس بني عامر بن ذهل بأنه سيسمهم بعار الأسر إذا حملوا قومه على الاصطدام بهم في يوم عبوس أسود تدور فيه الدائرة على الجناة، مؤكدا تهديده بالقسم المكرر بصيغتي (عمري وأقسم)، ثم يشير الشاعر إلى سبب العداء والتوتر وهو محاولة آل عامر نهب إبل قوم المسيب السود الغالية الثمن، حين جيء بها قرب البيوت فالتفت فرآها أهل الجوار وأعجبوا بها، وما دروا أن أصحابها من الفرسان القادرين على حمايتها، وأن من سولت له نفسه أخذها سيسفح دمه على أسنة الرماح وينزف كما ينهمر الماء من فم القربه. ثم يدعو الشاعر بني عامر الذهليين إلى الخوف من الله، وإن كان يشك في إجابة هذه الدعوة، لأنهم من نوع الأبلّ وهو الذي يمضي على أمره وشأنه ولا يرجع عنه، ومن نوع الأصم الذي لا يسمع ولا يعي. وأخيرا يشير الشاعر إلى يقدم وهم بنو عنزه بن أسد بن ربيعة الذين امتنعوا عن سماع كلمة الحق والرشاد ولم يصونوا العهد المحكم، لأن عهدهم ولث وقع منهم من غير قصد وكان غير مؤكد يقول [(١)]

لعمري لئن جدت عداوة بيننا لينتحين مني على الوخم ميسم
فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

---

(١) ديوانه ١٣٤ .

رأوا نعـما سـودا فهـموا بأخـذه　　إذا التف من دون الجـميع المزنم

ومن دونه طعن كـأن رشـاشـه　　عـزالـي مـزاد والأسنـة ترذم

ألا تتـقـون الله يا آل عـامـر　　وهل يتـقي اللـه الأبلّ المصـمم

كـما امـتنعت أولاد يقـدم منكم　　وكان لها ولث من العـقد محكم

وكان عبد الله بن عنمه الضبي مجاورا في بني شيبان فقال يتلهف على عميرة بن طارق بإنذار قومه على أخـواله بني عجل، ويشير إلى ما أدى إليه فعله هذا من عـداء مستحكم، يحـمل الرغبة العـارمة في الانتقام والهـجاء القائم على الازدراء والاحتقار.(١)

عـميـرة فـاق السـهم بيني وبينه　　فلا يطعمن الخـمر إن هو أصعدا

فلم جـارا وابن أخت وصـاحبـا　　تكيـد منا قـبله مـا تكيـدا

رأيت رجـالا لم نكن لنبـيعـهم　　يباعـون بالبعران مثنى ومـوحدا

وإذا كان الشاعر الخليجي الجاهلي قـد تحدث كثيرا عن تهديده لأعدائه فإنه تحدث على قلة أو ندره - عن تهديد عـدوه له، ويفخر ابن زيانه التيمي بفروسـيته في إطار من التـهكم والسخرية بعـمرو حين هدد الشاعـر وتوعده تحت تأثير الجهل والغفـوه. ومع ثقة التيمي بأن عمرا يقـول ما لا يفعل فإنه يتمنى أن يفـعل ليواجهـه ببعض قوته، فهـو يملك من القدرة القتـالية الشيء الكثير، وهو لا يقـاتل بالرمح وحده ولا يقتصر عليه لئـلا يملأ كفه به، وإنه ثابت على ظهر فرسـه لا يتبع ميلان السرج فيمـيل معه، وهو لا يطلب من الرمح السابغة لأن كل إنسان مسترهن بأجله، ويمضي الشاعر إلى القول وإني

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٨٨.

متى تركت الغزو على فرسي (حواء) واغتنام الأموال وبذلها لم يعد لي هم.
وأخيرا يعرض الشاعر بالمخاضب حين أحدث أحدهم في حرب حضرها فقال: بخروه لتطيب رائحته فإني لا أدفن القتيل منكم إلا طاهرا يقول (١)

نبئت عمرا غارزا رأسه ... في سنة يوعد أخواله
وتلك منه غير مأمونه ... أن يفعل الشيء إذا قاله
الرمح لا أملأ كفى به ... واللبد لا أتبع تزواله
والدرع لا أبغي به نثرة ... كل امريء مستودع ماله
إني وحواء وترك الندى ... كالعبد إذ قيد أجماله
آليت لا أدفن قتلاكم ... فدخنوا المرء وسر باله

ولم يقف تهديد شعراء الخليج الجاهليين عند حد الأفراد العاديين أوالقبائل بل تعدى ذلك إلى الملوك والأمراء.

ففي قصيدة ليزيد بن الخذاق الشني يعلن الشاعر أنه قد هيأ نفسه للقتال أعد سلاحه وفرسه الشموس وصنع فرسه صنعة جيدة وجعل ألبان إبله حبسا عليه ثم وصف درعه وسيفه، وانتقل بعد إلى مخاطبة الملك اللخمي وكان آلي ليغزونهم فليأخذن أموالهم وليقسمنها أخماسا، فوجه إليه يزيد القول أن يتحلل من يمينه تلك لأنه لا يستطيع أن يبر بها، ثم أوعد بيت الملك وأنذرهم أن يعدلوا في الحكم كي لا يعرضوا أنفسهم للشر، وخاطب يزيد بن المعلى الجارود في أمر المكوس التي يراد أن تؤخذ منهم ونوه باستعداد قومه وتحفزهم يقول(٢)

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٤٦.

(٢) المفضلية ٧٩.

ألا هل أتـاها أن شكة حـــازم لديّ وأني قد صنعت الشـموسا
وداويتـها حـتى شـتت حبـشيـة كـأن عليـها سـندسا وسـدوسـا
قـصرنـا عليهـا بالمقـيظ لقـاحنا رباعـــيـــة وبـازلا وســـديسـا
فآضت كـيتس الرمل تنزو إذا نزت على ربـذات يغـتـلين خنوسـا
نعـد ليوم الروع زغـفا مـفاضـة دلاصا وذا غـرب أحذ ضـروسا
نجيـد عليهـا البز في كـل مأزق إذا شهد الجـمع الكثيف خمـيسا
تحلل أبيـت اللعن من قـول آثم على مـالنا ليـقسـمن خـموسـا
إذا مـا قطـعنا رملة وعـــدا بهـا فـإن لنا أمـرا أحـــذ غـمـوسـا
أقيموا بني النعمان عنا صدوركم وألا تقـيـموا كـارهين الرؤوسـا
أكل لئـــيم منـكم ومـــعـلهج يعـد علـينا غـارة فـخــبـوسـا
ألا ابن المعلى خلـتنا وحـسـبـتنا صـراري نعطي الماكسين مكوسـا
فـإن تبـعـثـوا عـينا تمني لقـاءنا تجد حول أبياتي الجـميع جلوسا

وفي قصيدة أخرى يتوعد يزيد الشني النعـمان بن المنذر ويهجوه فيقول له بأنه خائن مخادع يخفي ضميره غـير ما يبدي، ويذكره بأنهم قوم يرفضون الخـضـوع وأن أصلهم لا يسـمح لهم بذلك، وأنه إن فكر في غـزوهم فـإن كتائب الموت ستلقـاه. ثم يتساءل هل طمعت فينا لأنك حسبتنا قـوما ضعافا ولا نحسن الكر والفر يقول(١)

أعـددت سبـحة بعـدما قـرحت ولبـــست شكـة حـــازم جـلـد
لن تجـمـعـوا ودي ومعـتـبـتي أو يجـمع السـيـفان في غـمـد

(١) المفضلية ٧٨.

نعــمــان إنك خــائن خــدع	يخـفي ضمـيرك غـير ما تـبدي
فـــإذا بـدالك نـحت أثـلتـنا	فــعليــهــا إن كنت ذا حــرد
يــأبـى لــنـــا أنـا ذوو أنـــف	وأصـولنا من مــحـتـد المجـد
إن تغــز بالخــرقـاء أســرتنا	تلـق الكـتــائـب دوننـا تردي
أحـســبـتنا لحـمــا على وضم	أم خلتنـا في البـأس لا نجـدي
ومكرت مــعــتليــا مــخـنـتنا	والمكر منـك عـلامـة العــمـد
وهزرت ســيـفك كي تحــاربنا	فـانظـر بسـيـفـك من به تردي
وأردت خطـة حـــــازم بطـل	حـيــران أوبقـه الذي يـسـدي
ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت	سـبل المسـالك والهـدى يعـدي

ويبدأ المتلمـس الضبعي قـصيدته في تهـديد عمرو بـن هند باستفـهام تهكمي يفـجـر من خلاله سـخريـته على الملك ذي الملـك العظيم والسلطان الواسع والقـصور والديار والمال والضـياع، ورغم ذلك فـإنه يكاد يمتلىء من الغيظ إذا أخذت من ولده لعبة الدوامة التـافهة، مما يدل على بلوغه الغاية في الشح. ثم يتوعد المتلمس عمرو بن هند بأن رمـاح قومه ستصل إليه في يوم من الأيام لتطيح برأســه، ثم يقوم الشـاعر باستـعراض قـوات عشيـرته التي كونتها الشدائد والخطوب وما مرت به من تجارب مريره، فيذكر الخيل العراب الجـياد وهي مـحل عناية القـوم ورعايتـهم، والرماح الخطـية المتـقنة الصنع والسيوف اللامعـة والدروع المتينة، وقد بلغ من فروسيتـهم واستعدادهم أنهم جعلوا السيوف القاطعة عصيا لهم لا تفارقهم في حل أو ترحال، كما اتخذوا القلاع الشـامخة التي تحلق حول جـوانبها جوارح الطيـر. ثم يذكر أنهم عند الحرب جاهزون ومتأهبون بمخـتلف السلاح وبالرجال الخيالة والرجاله، الذين كونوا صفـوفا وجماعات متـلاحمة ضد هذا الملك الذي ظلمهم ونشـر بغيه

فيهم. يقول (١)

ألك السدير وبارق	ومبايض ولك الخورنق
والقصر ذو الشرفات من	سنداد والنخل المبسق
والغمر ذو الاحساء والذ	نبات من صاع وديسق
والثعلبية ... كلها	والبدو من عان ومطلق
وتظل في دوامة ال	مولود يظلمها تحرق
فلئن تعش فليبلغن	أرماحنا منك المخنق
أبقت لنا الأيام وال	لزبات والعاني المرهق
جردا بأطناب البيو	ت تعل من حلب وتغبق
ومشقفات ذبلا	حصدا أسنتها تألق
والبيض والزعف المضا	عف سرده حلق موثق
وصوارما تعصى بها	فيها لنا حصن وملزق
ومحلة زوراء في	حافاتها العقبان تخفق
وإذا فزعت رأيتسنا	حلقا وعادية وزردق
ما للبيوت وأنت جا	معها برأيك لا تفرق
والظلم مربوط بأف	نية البيوت أغر أبلق

وفي قافية الممزق العبدي ذكر في البيتين الأولين أنه صحا من غفوة الصبا وأيقظه تفرق آلافه ففقد السلوى والعزاء. ثم طلب من يؤدي إلى

---

(١) ديوانه ٢٣٦.

النعمان بن المنذر أن رجلا سماه ابن أخته أو أسيدا قد أضحى لا يأبه بالنعمان، فهو يغني مرحا بشعره حيث يشاء، وهو في ذلك براغم النعمان لا يحفل به، ونوه للنعمان بشأن قبيلته لكيز بن أفصى بن عبد القيس أنهم خلقوا للقنا والسيوف وأن لكيزا قد أخذ قومه بأن يخرجوا في الحرب تحت قيادة حازمة، وأنهم كانوا إذا خرجوا تناذرهم الناس، فود من في الشرق أن تتجه نحو الغرب ومن في الغرب أن تتجه إلى الشرق خوفا من شدة بأسها يقول(١)

فمن مبلغ النعمان أن ابن أخته	على العين يعتاد الصفاء ويمرق
وأن لكيزا لم تكن رب عكة	لدن صرحت حجاجهم فتفرقوا
قضى لجميع الناس إذ جاء أمرهم	بأن يجنبوا أفراسهم ثم يلحقوا
يؤم بهن الحزم خرق سميدع	أحذ كصدر الهندواني مخفق
فلما أتى من دونها الرمث والغضا	ولاحت لها نار الفريقين تبرق
ووجهها غربية عن بلادنا	وود الذين حولنا لو تشرق

وفي يوم الشباك، ولما قتل إياس بن عبله من تيم الله بن ثعلبه مسعود ابن القصاف، ثم أسرت تيم الله وكيع بن القصاف وحبسوه عندهم ظن بنو حنظله أنهما قد قتلا كلاهما، فقال زيد بن عمرو اليربوعي يرثيهما، ويتوعد بني تيم الله هذه المقطوعة التي يحث فيها نساء العشيرة على البكاء على الفقيدين اللذين كان لهما شأن كبير في القبيلة، حيث كانا بمثابة الدعامتين اللتين تسندان عرش البناء، وقد أوشك على الانهيار بذها بهما، ثم يهدد تيم الله بالانتقام والثأر ورفض الديات أو الهبات يقول (٢)

---

(١) المفضلية ٨١.

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٢٢٦.

لتبك النساء المرضعات بسحرة وكيعا ومسعودا قتيلا الحناتم

كلا أخوينا كان فرعا دعامة ولا يلبث العرش انقضاض الدعائم

فلا ترج تيم الله أن يجعلوهما ديات ولا أن يهزما في الهزائم

وقد أفرز موضوع التهديد والوعيد بعض النقائض القصيرة ومن ذلك ما دار بين الحارث بن همام الشيباني وابن زيانه التيمي، ومناسبة ذلك أن الحارث أغار على إبل ابن زيانه وكان غائبا فوقع بينهما الشر فقال الحارث بيتين عير فيهما ابن زيانه وهدده بفروسيته وبإقدامه وإقدام فرسه معا. وافتخر بأنه ليس براعي إبل يبعد بإبله عن الناس، وإنما هو صاحب فرس ورمح يغير على الأعداء ويحارب من يريد حربه على فرسه القصير الشعر الذي يتقدم في الحروب كراكبه من حدة نفسه وجرأته. يقول[(١)]

أنا ابن زيانة إن تلقني لا تلقني في النعم العازب

وتلقني يشتد بي أجرد مستقدم البركة كالمراكب

فأجابه ابن زيانه بقوله يا لهف أمي على الحارث إذ صبح قومي بالغارة فغنم منهم ورجع سالما أن أكون لقيته فقتلته أو أسرته. أنا ابن زيانه إن دعوتني علمت حقيقة ما أقول فادعني واخلص من الظن فإنك تظن بي العجز عن لقائك والظن من شأن الكاذب يقول:

يا لهف زيانه للحارث الصابح فالغانم فالآئب

والله لولا قيته خاليا لآب سيفانا مع الغالب

أنا ابن زيانه إن تدعني آتك والظن على الكاذب

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٤٧.

الفصل الخامس

المديـــح والشـــكر

١- مديح الاعجاب.

٢- مديح الشكر.

٣- مديح الاستعطاف.

أ- بين الشعراء والملوك.

ب- بين الشعراء والرؤساء.

جـ- الشعراء وقرابتهم.

٤- مديح التكسب

المدح فن الثناء والإكبار والاحترام قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك وشجاعة القواد فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض الزوايا وأضاف إلى التاريخ - صادقا أو كاذبا - ما لم يذكره التاريخ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه[١].

وقد مدح شعراء الخليج الجاهليون بدافع الإعجاب أو الشكر أو الاستعطاف أو التكسب.

أ- مديح الإعجاب:

هذا اللون من المدح يصدر في العادة عن عاطفة صادقة هدفه التعبير عن امتلاءنفس الشاعر بروح الإكبار للمدوح لقيامه بعمل مبهر جدير بالتنويه والإشادة، وكثيرا ما تكون الشجاعة محور إعجابهم.

فهذا المثقب العبدي يطلب ممن يسمع رسالته أن يبلغ بني عدوان استعداد رجال أبوي لمواجهتهم، وأنهم حين يلبسون دروعهم وأسلحتهم يصبحون مثل أسود الجن في البطش والفتك. يقول[٢]

ألا من مبلغ عدوان عني ... وما يغني التوعد من بعيد

فإنك لو رأيت رجال أبوي ... غداة تسربلوا حلق الحديد

إذن لظننت جنة ذي عرين ... وآساد الفريعة في صعيد

ويمدح ابن قوزع الكسري علقمة بن سيف التغلبي مدحا ينطلق من إعجابه الشديد بشخصيته القيادية الفذة المتسمة بالشجاعة والرأي السديد والصبر والجلد، فقد قاد كتيبته المنطلقة على ظهور الخيل التي رقت حوافرها

---

(١) د. سامي الدهان: فن المديح ٥.

(٢) ديوانه ٢٦٩.

من كثرة المشي وصارت في ضمورها كقداح الميسر وما زالت تجري بفرسانها مسيرة شهر حتى وصلت سفح متالع جنوب وادي الستار بهجر، وقد أجهدها السير المتواصل فأخذت تصوت صوتا دون العالي، وعند انبلاج الفجر دارت المعركة مع أهل متالع من التميميين والخندفيين، وهزموا شر هزيمة وخرجت الخيول من غبار الحرب كلمي بعد أن كانت سليمة، وكان لفرسان تغلب غمغمه وصوت مدو عند القتال، وكان لها ضحايا في صفوف المغار عليهم الذين اكتسحوا واستبيحت ديارهم. يقول (١)

لعمرك ما قاد الجياد على الوجى ... مقاد ابن سيف فارس الخيل علقمه

أباح تميما يوم سفح متالع ... بخيل كأمثال القداح مسومه

فأوردها قبل الصباح متالعا ... صحاحا فجالت في العجاج مكلله

يخوض لظاها عصبة جشمية ... لها تحت نقع الخندفيين غمغمه

ويمدح حمران بن عبد عمرو، رئيس بني سعد بن مالك بن ضبيعة، الذين حاربوا معه في يوم المعا بأسفل الصمان من الخليج العربي فيثني على فروسيتهم وبسالتهم واهتمامهم بجلائل الأمور، حيث لم ينشغلوا بالإبل وألبانها عن مواجهة المغيرين عليهم، فلحقوا بهم شعثا غبرا على أفراسهم الضامرة الخصور المسرعة السير كسرعة القطا، حتى هزموهم وأسروا رئيسهم المنبطح الذي لم يفلت من الإسر إلا بعد تقديم الفدية يقول (٢)

---

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار ٨٠.

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٧.

إن الفوارس يوم ناعجة المعا   نعم الفوارس من بني سيار
لم يلههم عقد الأصرة خلفهم   وحنين منهلة الضروع عشار
لحقوا على قب الأياطل كالقنا   شعث تعد لكل يوم عوار
حتى حبون أخا الغواضر طعنة   وفككن منه القد بعد إسار
سالت عليه من الشعاب خوانف   ورد الغطاط تبلج الأسحار

ويفتدي أبو الغول الطهوي بنفسه وبكل ما يملكه هؤلاء الفتيان الخليجيين الذين أعجب بشجاعتهم وتضحيتهم بأنفسهم في سبيل الدفاع عن حماهم. فقد كانوا عند حسن ظن الشاعر بهم في الفروسية والبسالة، فهم يقبلون على الموت المرة بعد المرة بلا ملل أو كلل، ولا يقابلون السوء إلا بمثله ولا الغلظة إلا بمثلها، ومهما قاسوه من الحروب فإن قوتهم لا تضعف ونشاطهم لا يفتر. وفي (الوقبى) كان لهم يوم مشهود اجتمعت فيه المنايا المتفرقة التي دفعوا بها الأعادي عن ديارهم، وقابلوا الشر بالشر وذهبوا في إقدامهم إلى اتخاذهم المراعي في الأراضي المحمية وليست المراعي السهلة المنال. يقول(١)

فدت نفسي و ما ملكت يميني   فوارس صدقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا   إذا دارت رحى الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسيء   ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلى بسالتهم وإن هم   صلوا بالحرب حينا بعد حين
هم منعوا حمى الوقبى بضرب   يؤلف بين أشتات المنون
فنكب عنهم درأ الأعادي   وداووا بالجنون من الجنون
ولا يرعون أكناف الهويني   إذا حلوا ولا الأرض الهدون

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ١٧.

ويمدح الأعشى بني شيبان فيفتديهم بناقته وبنفسه ويرى ذلك قليلا في حقهم، لما أحرزوه في يوم ذي قار من نصر مؤزر على الفرس، فقد نكسوا راية هرمز السوداء وأذاقوا الأعداء الطغاة مرارة الهزيمة فتمزق شملهم. وقد ركب فوارس بني شيبان خيولا كأنها العقبان الخارجة من مراقبها في انقضاضهم على عدوهم، ينزلون بهم الموت من كل جانب ويصبونه عليهم انصباب المطر الغزير، حتى ولّى من نجا منهم هاربا أمام ضربات فوارس شيبان القوية يقول (١):

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلت

كفوا إذ أتى الهامرز تخفق فوقه ... كظل العقاب إذ هوت فتدلت

أذاقوهم كأسا من الموت مرة ... وقد بذخت فرسانهم وأذلت

فصبحهم بالحنو حنو قراقر ... وذي قارها منها الجنود ففكت

على كل محبوك السراة كأنه ... عقاب سرت من مرقب إذ تبلت

فجاءت على الهامرز وسط بيوتهم ... شآبيب موت أسبلت فاستهلت

تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم ... فوارس من شيبان غلب فولت

ويمدح أصم بني الحارث بني شيبان، فيدعو الساقية أن تبدأهم بالكأس لأنهم الأحق بها لما قدموه من بسالة وتضحيات في يوم ذي قار، وهو ذلك اليوم الذي بلغوا فيه غاية الشرف والإكرام، بانتصارهم الساحق على الفرس. ويعدد الشاعر الأسماء الشيبانية التي حظيت بالمشاركة الفاعلة في ذلك اليوم الأغر وهم: بنوهمام وأبو ربيعة ومحلم، فقد ضربوا بسواعدهم القوية رؤوس بني الأحرار بسيوفهم المرهفة المشرفية الصنع، وكان لعمرو بن قيس دور بارز وبطولة مشهودة في هذه الحرب، فقد شد على الأعداء شدة رجل قوي حكيم

(١) ديوانه ٤٤.

مجرب جعلت ذكره يذهب بعيدا ويتردد في كل مكان يقول[١]

إن كنت ساقية المدامة أهلها	فاسقي على كرم بني همام
وأبا ربيعة كلها ومحلما	سبقا بغاية أمجد الأيام
ضربوا بني الأحرار يوم لقوهم	بالمشرفي على مقيل الهام
شد ابن قيس شدة ذهبت لها	ذكرا له في معرق وشآم
عمرو وما عمرو بقحم دانف	فيها ولا غمر ولا بغلام

وفي يوم عتيد أغارت تغلب على بني قيس بن ثعلبه، فانهزمت بنو قيس وأصابت تغلب سبايا ونعما كثيرة، فقال سلمة بن قرط- وكان قائد الحملة - يمدح أنصاره مدحا يقوم على الإعجاب الشديد ببسالتهم وفتكهم، بأعدائهم حيث ارتوت رماحهم بدماء بني جحدر ولم يثنهم اختلاف السيوف واشتجار الرماح عن خوض غمار المعركة، بل كانوا يقدمون عليها ويضربون بسهم وافر فيها، وهو يوم يشيب الولدان من هوله صارت ضبيعة تحت أقدامهم يطأونها من كل جانب، وعندما مال فوارس تغلب على بني عباد وقع الذعر والهلع فيهم ولاذوا بالفرار، ووقع الحطم بن ضبيعة أسيرا ولم يتحرر منه إلا بعد تقديم الفدية، وأسرت نساؤهم الحسان فشفت تغلب غليلها بعد هذا الانتصار الساحق يقول [٢]

لله در فوارس من تغلب	خضبوا الأسنة من فوارس جحدر
لا ينثنون إذا الصفاح تخالفت	يوم الهياج وكل لدن أسمر
وطأوا ضبيعة يوم جو وطأة	شاب الوليد لها مشيب الأكبر

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٩.

(٢) الأنوار ٨٩.

ولقد شفى نفسي وأذهب وغمها قتلى بمعتلج العجاج الأكدر
من حي قيس والضبيع وجحدر كانوا الشفاء لكل ثأر موغر
ولقد دعا حطم النزال فبزه بشر بن شلوه نفسه في العشير
فثوى يقود في الغلال جبينه يمشي العرنضة كالخدب الأزور
واستيق من تيم خرائد أنس من ثيب أو كاعب كالجؤذر

ويسجل ابن القائف الضبي إعجابه بفوارس ضبه، فيستهل مديحه بصيغة (نِعْم) الدالة على المدح. ويخص الفوارس الذين حاربوا في يوم بزاخه وعلى رأسهم زيد الفوارس وابنا منذر وبنوجبار، الذين أسرعوا بخيلهم إلى الميدان ومزقوا برماحهم محرق وجيشه المؤلف من إياد وتغلب. ويؤكد الشاعر شجاعة زيد فهو كالأسد الكاسر، ويذكر اسم فرسه الكامل الذي اقتحم به أهوال المعركة الحامية الوطيس التي حولت الأعداء إلى جثث هامدة، حتى صارت طعاما للطيور تطوف حولها عصائب، بعد عصائب كما يطوف الناس حول نصب دوار. ولا ينسى الشاعر أن ينوه بقوة الرقاد العقلية والجسمية، وينهي أبياته بتأكيد اعجابه بهؤلاء الفوارس الذين استطاعوا بشجاعتهم أن يدحروا العدو المغير ويحفظوا العرض والأرض يقول [(١)]

نعم الفوارس يوم جيش محرق لحقوا وهم يدعون يال ضرار
زيد الفوارس كر وابنا منذر والخيل أوجفها بني جبار
حتى سموا لمحرق برماحهم بالطعن بين كتائب وغبار
يرمي بغرة كامل وبنحره خطر النفوس وأيّ حين خطار

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٨٨.

لما رأوا يوما شديدا بأسه كره الحياة وشقة الأسفار
وكأن زيدا زيد آل ضرار ليث بكفيه المنية ضار
وكأن آثار الغريب عليهم ومكره يوما مطاف دوار
جعلوا لعافي الطير منهم وقعة صرعى تغور في قنا اكسار
ولعمر جدك ما الرقاد بطائش رعن بديهته ولا عوار
لولا فوارسهن قظن عواطلا في غير ما نسب ولا اصهار

ويمدح رشيد بن رميض العنزي شريح بن ضبيعة حين غزا اليمن في جموع جمعها من ربيعة، وأم شريح اسمها هند بنت حسان بن عمرو بن مرثد. يقول الشاعر إنهم أقاموا الليلة وهم نيام وابن هند لم تذق عينه النوم، يعاني الغارة كيف يوقعها غلام خفيف كأنه قدح، إن هذا الغلام ممتلىء الساقين متناهي القوة عنيف السوق، لا يرفق بوسائقه رفق الرعاه ولا رفق الجزار الذي يبيع اللحم على الوضم وهي الخشبة، يقول [١]

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزم
خدلج الساقين خفاق القدم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

ومن مديح الإعجاب أبيات حجر بن خالد بن سعد بن مالك التي يقسم فيها بعز الحياة أن هذا الممدوح غير متلون في أحواله، بل حاله في غيبته كحاله في حضوره، إن الرجل (الياء) غير مختلف الفعال غداة أوقعه جبار في داهية وانحرف هو عن القتال، إن اليا ضرب جبارا ضربة بسيف

(١) حماسة أبي تمام ١/ ١٣٩.

أبيض يصقل كل يوم ففرق بها مجامع كتفية ثم يقول كالمقتدر. لو كنا معكم لنصرناكم بجيش كثيف كأنه من كثرة رماحه رجل كثير الشعر، فكثرة الشعر كناية عن كثرة الرماح، لكننا رأيناكم لا تحتاجون إلى نصرتنا لقوتكم فتأخرنا عنكم، على أننا مع تنائينا لا نقصر في السؤال عن أحوالكم، فإن القلوب غير مائلة عنكم. يقول [١]

لعمرك ما ألياء بن عبد ... بذي لونين مختلف الفعال

غداة أتاه جبار بإد ... معضلة وحاد عن القتال

ففض مجامع الكتفين منه ... بأبيض ما يغب عن الصقال

فلو أنا شهدناكم نصرنا ... بذي لجب أزب من العوالي

ولكنا نأينا واكتفيتم ... ولا ينأي الحفي عن السؤال

ويبعث زهير السكب الدارمي من الحجاز إلى بني عمه في الخليج العربي بقصيدة يعبر فيها عن حبه لهم وإعجابه بأخلاقهم، وأنهم نعم السند والمعين، للقريب المحتاج والغريب المضطر، ويكرر صيغة المدح (نِعْم) في سياق نغنيه بخصالهم وإشادته بذكرهم ومحامدهم، وأنهم في أوقات الجدب وزمن المحل يتكافلون ويتآزرون، ويتعطف بعضهم على بعض، ويخلطون غنيهم بفقيرهم، وموسرهم بمعسرهم، حتى يجتازوا السنة الشهباء بسلام، كما أنهم عند الخطر والفزع يتناصرون ويتحامون ويشد بعضهم إزر بعض، حتى يتغلبوا على الخطر ويزيلو العدوان، أما إذا أصيبوا ونكبوا فإنهم يتماسكون ويصبرون حتى تنجلي الغمة وتذهب المحنة، دون أن تذهب بريحهم أو تكسر شوكتهم. والشاعر يرى بني حنبل المازنيين خير الناس؛

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٢٠٥.

لأنهم أسبقهم إلى المكرمات، ولذلك فقد بلغوا من المجد أسمى مكان، يقول في ذلك داعياً لهم بالسقيا ولديارهم بالخير العميم[(١)].

إذا الله لم يسق غير الكرام ... فسقى وجوه بني حنبل
وسقى ديارهم... باكرا ... من الغيْث في الزمن الممحل
فنعم بنو العم والأقربون ... لدى حطمة الزمن الممحل
ونعم المواسون في النائبات ... للجار والمعتفي المرمل
ونعم الحماة الكفاة العظيم ... إذا غائظ المرء لم يحلل
ميامين صبر لدى المعضلات ... على موجع الحدث المعضل
مباذيل عفو جزيلو العطاء ... إذا فضلة الزاد لم تبذل
هم سبقوا يوم جرى الكرام ... ذوي السبق في الزمن الأول
وساموا إلى المجد أهل الفعال ... فطالوا بفعلهم الأطول

ومن مديح الإعجاب قصيدة الأسلع بن القصاف الطهوي التي مدح فيها ابن عمه ورهطه الذين تمكنوا من قتل إياس بن عبله البكري ثأرا لمسعود ابن القصاف الطهوي. فقد أشاد الشاعر بهذا الموقف وأبدي إعجابه بأبناء عمومته الذين استطاعوا غسل العار، فافتداهم بنفسه وبناقته، ونوه بشجاعتهم وإقدامهم، ثم أشار إلى أن ما حدث إنما كان انتقاما من الله تعالى وقصاصا عدلا لا يخالطه ظلم ولا تجني على أحد، وأنه بيّض وجوها كانت مكفهرة ومظلمة، وبعث السرور في نفوس كانت حزينة ومكلومة. يقول[(٢)]

فدى لامريء لاقى ابن عبلة ناقتي ... وراكبها والناس باق وذاهب
عدا ثم أعداه على الهول فتية ... كرام وأسياف رقاق قواضب

(١) الشعر الإخواني حتى نهاية العصر الأموي ١/ ٨٨.
(٢) أيام العرب في الجاهلية ٢٢٧.

ولم يحفلوا ما أحدث الدهر بعدها وما كشف الناس الأمور الشواغب
ولم ترو حتى بل أسيافنا دم يداوي بها قرح القلوب الجوالب
ولا شر حاجات طواهن بعدما تباعد أسباب الهوى المتقارب
فما الناس أردوه ولكن أقاده يد الله والمستنصر الله غالب
سقا سقما إن كانت النفس تشتفي قتيل مصاب بالشباك وطالب
شفا الداء وابيضت وجوه كأنما جلا النفس عنها وهي سود كوائب
لعمري لقد ردت عشية مثقب غليلا وساغت في الحلوق المشارب

٢- مديح الشكر

مديح الشكر يستبطن عاطفة صادقة لأنه وليد خلق الوفاء، وهو أداة الشاعر للمكافأة والمجازاة على صنيع أسدي له أوجميل قدم إليه أو معروف ناله أو نال قومه لم يستطع الشاعر أداء حقه إلا بالشكر إعظاما له ووفاء بحقه.

وقد كان قانون الجوار أكثر المحاور التي دار حولها شعراء الخليج الجاهليون في شكرهم لممدوحيهم.

فهذه أبيات في الشكر للسليك بن السلكه السعدي وهي ومناسبتها تعكسان تقديس أهل الخليج العربي الجاهليين للجوار، فقد أغار السليك على بني عوارة - بطن من مالك بن ضبيعة - فلم يظفر منهم بشيء، فلما أحس بتمكنهم من القبض عليه لاذ بأقرب دار منه، فكانت لامرأة منهم تدعى فكيهة، فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها، واخترطت سيفها وقامت دونه فكاثروها، وكشفت عن خمارها وصاحت بإخوتها فدافعوا عنه حتى نجا. فقال السليك يمدحها ويشيد بموقفها النبيل وشخصيتها المتسمة بشدة الحياء وحسن السمت وجمال السمعة إلى جانب جمال الخلقة يقول(١):

(١) مختار الأغاني ٤/ ٢٨١ ونساء شاعرات ١٣٨.

لعـــمـــر أبيك والأنـبـاء تـنمي ... لنعـم الجـار أخـت بني عـــوار
من الخـفرات لم تـفضح أخـاها ... ولـم تـرفـع لوالـدهـا شـنـارا
كـــأن مـجـــامع الأردان منهـــا ... نقى درجـت عليـــه الـريح هارا
يعـاف وصال ذات البـذل قلبي ... ويتـــــبـع الممـنعـــــة الـنوارا
وما عـجزت فكيـهه يوم قـامت ... بنصل السيـف واستلبوا الخـمارا

ويمدح قريط العنبري بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم شكرا لهم، حين أغار ناس من بني شـيبان على ثلاثين بعـير له وأخذوها، فـاستنجد قـومه فلم ينجدوه، فأتى بني مازن واستجار بهم فركب معه نفر منهم، فاطردوا لبني شيبان مائة بعير، فدفعوها إليه وخرجوا معه حتى صاروا إلى قومه فقال قريط(١)

لو كنت من مازن لم تستبح أبلي ... بنو الشقـيقة من ذهل بن شيـبانا
إذن لقـام بنصري مـعشر خـشن ... عند الحـــفـيظـة إن ذو لوثة لانا
قـوم إذا الشر أبدى ناجـذيه لهم ... طاروا إليـــه زرافـات ووحـــدانا
لا يسألون أخـاهم حين يندبهم ... في النائبـات على ما قـال برهانا

فهو يقول في هذه الأبيات: لو كنت مـن هذه العشيرة لما أغار بنو ذهل على إبلي وسلبوها، ولو كان ذلـك لقام بنصري قوم صعاب أشـداء يدفعون عني، ويأخـذون بحقـي ممن اعتـدى علي وظلمني إذا لان ذو الضـعف ولم يدفع ضيـما ولم يحم حقيـقة. وحين يداهمهم الشـر بكل شراسته يهـبون لمقاومته فرادى وجماعات دون أن يتكل بعضهم على بعض، وإذا دعاهم داع لينصروه على أعدائه أسرعوا إلى الحرب ولا يسـألون عن سببها ولا يتعللون كما يتعلل الجبان.(٢)

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ١٣.

(٢) نفسه.

ويمدح سبيع بن الخطيم التيمي زيد الفوارس الضبي حين استنقذ إبله وردها إليه. فيشيد بمناقبه عندما دعاه إلى نجدته، فسارع إليه ووجد فيه الرجل القوي من جميع الجوانب جانب الأخلاق وجانب العتاد وجانب الرجال الذين هبوا خلفه بوجوههم المشرقة وكأنهم من كثرتهم وتدفقهم سيل جارف، فأعادوا إليه كرائم إبله البيض الغالية، ولولا الله تعالى ونبل وشرف ومكارم هذا الممدوح لاختطفها قطاع الطرق، الذين أخذوا من قوافل الميرة ما أخذوا، ولا ابتلعوها ابتلاعا بدلا من مضغها. وقد حماهم الممدوح من نقص خيرهم وعار انتقاصهم الذي يسود الوجوه. والشاعر يؤكد منذ البداية أن هذا السعي المشكور لا يمكن جحده أونسيانه بحال من الأحوال يقول[١]

نبهت زيدا فلم أفزع إلى وكل	رث السلاح ولا في الحي مكثور
إن ابن آل ضـــرار حين أندبه	زيدا سعى لي سعيا غير مكفور
سالت عليه براق الحي حين دعا	أنصاره بوجوه كالدنانير
ليس الهجان إذا ما كنت مفتحلا	كالورق تنظر في ألوانها الحور
لولا الاله ولولا مجد طالبها	للهذموها كما نالوا من العير
فاستعجلوا عن حثيث المضغ فاسترطوا	والذم يبقى وزاد القوم في حور
لولا تلاقيهما من بعد ما اطردت	ظلت وجوه بها لون من القير

وكان الأسود بن يعفر الدارمي مجاورا في القاعة لبني قيس بن ثعلبة وأمه من بني عجل فنهبت طائفة من بني بكر إبله، فجاور بني محلم بن ذهل بن شيبان، فسعوا معه حتى استنقذوا إبله، فمدحهم بقصيدته التي أولها[٢]

(١) المؤتلف والمختلف ١٥٩.

(٢) شعراء النصرانية ٤٧٥.

أجارتنا عـضي من السيـر أوقفي وإن كنت قد أزمعت بالبين فاصرفي
تداركنـي أسـبـاب آل مـحلم وقد كدت أهوى بين نيقين نفنف
هم القوم يمسي جارهم في غضارة سـويا سليم اللحم لم يتـحـرف

وكما نرى فقد أشاد بحسن جـوارهم ووصفهم بالحماة المنجدين، حيث تداركوه من خطر محـقق حتى لكأنه أوشك على السقـوط من أعلى الجبال، فاحتضنوه وأكرموه وعاش آمنا عزيزا.

ويمدح أعشى بن عوف بن همـام بن مره الشيباني بني هند السـبعة من بني شيـبان على حسن جـوارهم، فيدعـو مخاطبـه إلى أن يلزم جوار هؤلاء القوم الأوفيـاء، ويعده بعدم الندامة على ذلك فهم يحـمون جارهم من أي أذى أو مكروه، ويهيئون له عيشا آمنا هنيئا فيعيش آمن النفس والقلب، وآمنا على ماله وأهله إذا دخل في حـرمتهم وعهـدهم وحمايتهم، وهـو ذو حرمة وعز مـا دام بين ظهرانيهم سـواء كانوا في حالة السلم أو الحـرب، فهم أهل عفاف وكرم لا يصل إليه ظلـم من أحد ولاغدر أبدا، وإذا ما أراد العودة إلى قومه عاد سالما غانما. يقول[1]

عليك بني هند فكن في جوارهم فـإنك إن جـاورتهـم لن تندمـا
هم يمنعـون الجار من كل سـوءة ويصبح فيهم آمن السرب محرما
فلم أر جيرانا إذا الحـرب شمرت كـمـثل بني هند اعف وأكـرمـا
إذا كنت فـيهم لم تنلك ظلامـة ولا غـدرة حتى تؤوب مـسلمـا

ويمدح وائل بن شريح البـكري قرواش الضبي لإجـارته له في يوم خوي فيبعث برسـالة إلى سراة قومه من قيس بن ثعلبة أينما كانوا. أمـا مضمون هذه

(١) المؤتلف والمختلف ١٣.

الرسالة فهو إعلان وفاء ممدوحه له وفاء بلغ الكمال، وهو وفاء مشفوع بالسخاء والجود ،وقد بلغا به ذروة المجد والشرف اللذين ورثهما من أبيه. يقول(١)

أبلغ سـراة بني قيس مـغـلغلة ... من سار غـورا به منهم وأنجـادا
أني وفى بي قـرواش وأسـرته ... أيام يتـخـذ الجـيـران أزوادا
أني وفت بي قـبل اليـوم ذمـتـه ... إن الكريم إذا استـرفـدتم زادا
من كل ذروة مـجد نالهـا أحد ... أورثهـا صـرمـة الضـبي أولادا

ويمدح مقاس العائذي ذهل بن شيبان بن ثعلبه وبني شيبان جميعا بما لقي فيهم من حسن الجوار وكمال الحزم. ويقول : لا جعل الله انصرافي عنكم هذه المرة وداعا، فـقد وجدت عندكم خـير معـيشة وأكـرم مقام. وعـيش الإنسان يتناقص كل يوم ويذهب عمره قطعة قطعـة، ولقد كنتم في الشدائد عندما تحرك البلايا والحروب الناس أصحاب الحزم الشديد والباع الطويل. يقول (٢)

ألا أبلغ بـني شـيـبـان عني ... فـلا يـك من لقـائكم الـوداعـا
بعـيش صـالح مـا دمت فـيكم ... وعـيـش المـرء يهـبطـه لماعـا
إذا وضع الـهـزاهز آل قـوم ... فلم أر مـثلكم حـزمـا وباعـا

ويمدح يزيد السكوني بني شيبان حيث كان مجاورا لهم فحمد جوارهم ورآهم أفـضل من قومـه في الشدائد والملمـات، وأنهم أهل الحروب والـقوة والنصرة، وأنهم يبـالغون في إكرام الجار زمن الجـدب حتى يظن أنه منهم. وما يزال فيهم معززا مكرما إلى أن يفارقهم، مجتمعة أسبابه مفارقة مختار لا مكره، ومن مظاهر حرصـهم عليه أنهم يضعـونه في أعز مكان وأكثـره منعة

(١) الأنوار ٥٦.

(٢) المفضلية ٨٤.

ورفعة يقول[١]

إني حمدت بني شيبان إذ خمدت ... نيران قومي وفيهم شتت النار
ومن تكرمهم في المحل أنهم ... لا يعلم الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزا من نفوسهم ... أو أن يبين جميعا وهو مختار
كأنه صدع في رأس شاهقة ... من دونه لعتاق الطير أو كار

ويمدح أوس بن زيد مناه العبدي مالك بن فهم الأزدي، فيركز مدحته على حرمة الجوار، بوصفه كان جارا للممدوح وصاحب تجربة ناجحة في هذا المجال، فجار هؤلاء القوم في مأمن دائم فهو لا يخاف أحدا أبدا لأنه يعامل كواحد من القوم لا فرق بينه وبينهم، وهذه المعاملة العالية التي يجدها منهم توارثها هؤلاء النبلاء الكرام كابرا عن كابر، فقد أوصى فهم أبناءه وصاة التزموا بها ونفذوها. وتقوم هذه الوصية على إكرام الضيف، وحفظ حرمة الجوار وفتح بابهم لكل من يحبهم ويتودد إليهم. وختم الشاعر مدحته بالاشارة إلى علائم ملوكية الممدوح من الخاضعين لسلطانه، وخوف أعدائه من وثوبه عليهم وقهره لهم. يقول[٢]

من الأسد الكرام إن حل جار ... فمع النجم لا يخاف عريبا
عزمن كان مالك له جارا ... لست في الأزد إن حللت غريبا
كان فهم أوصى بينه وصاة ... حفظوها وكان فيهم مصيبا
اكرموا الضيف واحفظوا حرمة الجار ... ر وكونوا ممن أحب قريبا
فرعى مالك وصاة أبيه ... وكذاك النجيب يحيي النجيبا
مالك يأخذ الخراج من النا ... س وسعد تخاف منه الوثوبا

(١) حماسة أبي تمام ١/ ١١٥.

(٢) شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام ٤٣.

ومما يتصل بالجوار أو الإجازة الشفاعة. ويمدح المثقب العبدي خالد بن الحارث بمناسبة شفاعته لدى بعض الملوك بإطلاق الممزق العبدي ابن أخت المثقب. وقد بدأها بالحديث عن طيف الخيال، وكانت صاحبته حكيمة حيث بدأت حوارها معه بقولها (من يجد يحمد ومن يبخل يذم) ثم يدخل المثقب في الإشادة بالممدوح فيقول: لقد قدم الممدوح عطاء جزلا بشفاعته في اطلاق سراح شاس من الأسر، ذلك البلاء العظيم الذي أحاط به، فقد تداركه من موت محقق بهذا الجميل الجليل، لأنه في غاية الجود فجفنته الواسعة تقدم للضيفان في وقت مبكر ونداه متقدم قديم، ومجلسه مجلس سكون وحلم لا مجال فيه للطيش والسفه، وهو يرى صيانة العرض أهم من المال. فإنفاق المال في المكارم في نظره قصد ليس بإسراف ولا خطأ يقول[١]

إنما جاد بشاس خالد ... بعدما حاقت به إحدى العظم

من منايا يتخاسين به ... يبتدرن الزول من لحم ودم

باكر الجفنة ربعي الندي ... حسن مجلسه غير لطم

يجعل المال عطايا جمة ... إن بذل المال في العرض أمم

لا يبالي طيب النفس به ... عطب المال إذا العرض سلم

كما يتصل بنظام الجوار الضيافة. وقد حفل شاعر البحرين بتسجيل الشكر لمن أسدى خير ا وفتح بابه للناس جميعا، في وقت كان عصيبا قل فيه الخير والنعيم. وخير مثال على ذلك قول طرفة بن العبد مادحا قتادة بن سلمه الحنفي الذي كان من أسخياء العرب وبه يضرب المثل في الجود.[٢]

(١) ديوانه ٢٢١.

(٢) ديوانه ٨٨.

أبلغ قتادة غير سائله ... منه الثواب وعاجل الشكم

أني حمدتك للعشيرة إذ ... جاءت إليك مرقة العظم

ألقوا إليك بكل أرملة ... شعثاء تحمل منقع البرم

ففتحت بابك للمكارم حي ... ن تواصت الأبواب بالأزم

وأهنت إذ قدموا التلاد لهم ... وكذاك يفعل مبتني النعم

فسقى بلادك غير مفسدها ... صوب الغمام وديمة تهمي

فالشاعر يرجو أن يصل شكره لقتاده دون أن ينتظر منه جزاء على ثناء أو مدح، وهو يشكره لما قدمه لقوم طرفه حينما قدموا إليه وهم في أشد الحاجة، ففتح بابه لهم وأفاض عليهم من الخير والنعيم. ويقول الشاعر ولا عجب في ذلك فقتادة من بناة المجد المحبين للخير وفعل الجميل. وفي نهاية المطاف يدعو طرفه أن تظل ديار ممدوحه خصبة كثيرة الخير.

وفي هذا الصدد يقسم أوس بن حجر أن حليمة بنت فضاله بن كلده أحسنت نزله ولم تمل من ضيافته، عندما صرعته ناقته بالقرب من بلادها وبقي شهرين كاملين تتعهده وتقوم على حاجاته وعلاجه. وقد وجد عندها غاية الإكرام والرعاية. وشعر الشاعر بدافع الوفاء أن من واجبه الإشادة بمناقبها، فهي ذات أصالة وعراقة، كثيرة الحياء والسكوت والستر، إلى جانب أنها برزه أي عفيفة في أخلاقها وثيقة في رأيها، وكفى بهاتين الصفتين فخرا لمن يتحلى بهما، وهو يلهج بثنائها ويسجل شكره لها عرفانا بمالها من فضل عليه. يقول(١)

لعمرك ما ملت ثواء ثوبها ... حليمة إذ ألقت مراسي مقعد

ولكن تلقت باليدين ضمانتي ... وحل بشرج م القبائل عودي

---

(١) ديوانه ٢٦.

وقد غبرت شهري ربيع كليهما بحمل البلايا والحباء الممدد
ولم تلهها تلك التكاليف إنها كما شئت من أكرومة وتخرد
هي ابنة أعراق كرام نمينها إلى خلق عف برازته قد
سأجزيك أو يجزيك عني مثوب وقصرك أن يثني عليك وتحمد

والمحور الآخر الذي دار حوله مديح الشكر هو المن بالإطلاق من الأسر أو المن بالمال.

وتشكر امرأه من بني مجاشع التميمية علقمة بن سيف التغلبي حين أعتق النساء وحملهن إلى قومهن قبل أن يصل إلى بلاده وأطلق الأسرى، فتبدأ مقطوعتها بالدعاء للممدوح أن يتولى عنها الرحمن جزاءه بأفضل الثواب - على ما قدمه للخندفيين جميعهم من منن ومكرمات في يوم متالع العصيب. وتختمها بالشكر الدائم المتجدد تجدد النهار لهذا المرء الذي لا يجاري في مروءته ولا يشابه في إحسانه وفضله. تقول[1]

جزى الرحمن علقمة بن سيف على النعماء خير جزا مثاب
عن آل مجاشع وبني فقيم وأحياء البراجم والرباب
وحيي نهشل وسراة سعد بسفح متالع ولوى إراب
جززت نواصيا منا فراحت نساء الحي طاهرة الثياب
وأطلقت العناة وكان يوما يغص الشيخ منه بالشراب
فأنت المرء تشكر نعمتاه علينا ما بدا وضح السراب

---

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار ٨١.

ويشكر الكندي بني عدي ويخص منهم بني حبيب جاعلا ممدوحه ثعلبه في دائرة الضوء لمديحه، فهو الرجل المشهور بالشجاعة والجود، فبعد أسره للشاعر وأهله ومن هو في جوارههم من مراد- وكانوا في هجر - منّ الممدوح على الكندي بإطلاقه وزوجه من الأسر، ولم يكتف بذلك بل أطلق له نساء مراد، ورد عليه ماله. ولعل للعلاقة الطيبة التي كانت بين قبيلة تغلب وقبيلة كنده. منذ القدم - أثرا في هذا الإحسان الكبير. وقد سجل الشاعر في مدحته هذه المنن والعطايا وأكد شكره وولاءه للممدوح على الدوام. يقول (١)

سأشكر ما حييت بني عدي	وشكري منهم لبني حبيب
لثعلبة الأغر عليّ منّ	بإطلاقي وفكي من كروبي
وقد غلت يداي فصرت رهنا	أسيرا رافعا بردي شعوب
فأنعم نعمة سبقت وسارت	بإطلاق الكبول عن الغريب
وأعطاني الخرائد من مراد	وعرسي منتهى نفسي وطيبي
وأعطاني مؤبلة هجانا	وقد حويت على ماء الكثيب
فلن أكفر بلاء بني عدي	وعفوهم على حدث الخطوب

وفي يوم ذي طلوح أسر عبد الله بن عنمه الضبي - وكان مجاورا في بين شيبان- فافتكه متمم بن نويره. فقال يمدحه داعيا الله أن يتولى عنه جزاءه، ومشيدا بعفته وما تعنيه من ترفع عما لا يجمل من الأقوال والأفعال وبلوغه الذروة من المجد، وما ينطوي عليه من الشرف والسؤدد والمكارم. ومنوها بعزته الباذخة وما يتمتع به من منعة وقوة، حتى لكأنه في ذلك حصن

(١) المصدر السابق ١٠٧.

منيع من صنع الجن. فقد أجار الشاعر وأبناءه وأطلقهم من ذل الأسر، فقدم له جميلا لا ينسى، وهو يؤكد حفظه لهذا الجميل واستعداده لرده بما يملك من مال يجعله بين يديه ورهن إشارته يقول[(١)]

جزى الله رب الناس عني متمما ... بخير الجزاء ما أعف وأكرما
كأني غداة الصمد حين دعوته ... تفرعت حصنا لا يرام ممردا
أجيرت به أبناؤنا ودماؤنا ... وشارك في إطلاقنا وتفردا
أبا نهشل إني لكم غير كافر ... ولا جاعل من دونك المال موصدا

ويشكر سلامه بن جندل السعدي صعصعه بن محمود بن عمرو بن مرثد عندما أطلق سراح أخي الشاعر أحمر بن جندل الذي كان أسيرا لديه. وقد خير الشاعر الممدوح بين مديحه بقصيدة، وبين افتداء المأسور بمئة من الإبل فقال المدحة والثناء أحب إلينا- وفي هذه الرسالة الشعرية القصيرة التي بعث بها سلامه إلى صعصعه - وكان بثليث في طريقه إلى الحج- سجل الشاعر اعترافه بجميل الممدوج ووصفه بالأروع وهو الكامل الجمال بعد أن أثنى على أبيه. يقول[(٢)]

سأجزيك بالقد الذي قد فككته ... سأجزيك ما أبليتنا العام صعصعا
فإن يك محمودا أباك فإننا ... وجدناك منسوبا إلى الخير أروعا
سأهدي - وإن كنا بتثليث - مدحة ... إليك وإن حلت بيوتك لعلعا
فإن شئت أهدينا ثناء ومدحة ... وإن شئت عدينا لكم مئة معا

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ١٨٨.

(٢) ديوانه ٢٠٠.

وحين أنشد حجر بن خالد بن مرثد شعرا بين يدي النعمان بن المنذر فأحفظ عمرو بن كلثوم، فلطمه عمرو في مجلس الملك ثم اقتص منه حجر وأجار الملك حجر، فقال حجر أبياتا يمدحه فيها مدح الشاكر الحامد قال فيها: إنه سمع كثيراً من أخبار الملوك لكنه لم يجد فيها مثل النعمان بن المنذر في شدة الحزم وكثرة العطاء، ثم يدعو له بالخصب ومزيد النعم وأن تكون الدنيا تحت أمره وتدبيره، وحيثما حللت في واد وجدته مريعا خصيبا، وإن الجود والكرم والتقوى والشجاعة مفقودة بعد النعمان، وأخيرا يقول له: أنت أعز من الملوك، وأجل من أن تمدحك السوقه. يقول (١)

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد ... كمثل أبي قابوس حزما ونائلا
فساق الاله الغيث من كل بلدة ... إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فأصبح منه كل واد حللته ... من الأرض مسفوح المذابنب سائلا
متى تنع ينع الجود والبأس والتقى ... وتصبح قلوص الحرب خرباء حائلا
فلا ملك ما يدركنك سعيه ... ولا سوقة ما يمدحنك باطلا

وربما جمع الشاعر بين مديح الإعجاب والشكر كقول سامه بن لؤي القرشي، وكان سامه انتقل إلى عمان ونزل بتؤام، فزوج ابنته هند الأسد بن عمران، فبعث إلى قومه في مكة بهذه الرسالة، يخبرهم فيها بما هو فيه من رغد وراحة بال، كما يخبرهم بموافقته على تزويج ابنته بذلك الرجل المتميز بعلو المقام والسيادة، حيث كان أهلا للتفضيل من دون القوم رغم سيادتهم. يقول(٢)

---

(١) حماسة أبي تمام ٢/ ٢٧٨.

(٢) شعراء عمان ٤٨.

ساكني الأبطح إني بعدكم ... في جوار الأسد مثلوج الكبد
خطب القوم إلى أختكم ... وهم في الدار أرباب معد
فرددت القوم لما خطبوا ... رغبة منهم وزوجت الأسد
سيد القوم وباني مجدهم ... ما انتوى في الغرب من بطن أحد

٣- مديح الاستعطاف

أما المديح الاستعطافي فحيث أنه مبني على الخوف والرهبة غالبا فإن حظ الصدق فيه قليل، وأكثره يدور بين الشعراء والملوك والرؤساء، وقد ذهب جانب منه في طلب العفو والمسامحة، وجانب آخر ذهب يطلب الخلاص من الأسر واطلاق السراح، وبعض مديح الاستعطاف دار بين الشعراء وذوي قرابتهم أوقبائلهم، وربما حمل هذا البعض شيئا من المشاعر الصادقة.

أ- بين الشعراء والملوك.

كان بعض هؤلاء الشعراء من بكر وبعضهم الآخر من عبد القيس. فها هو عمرو بن قمئة يمدح المنذر الثالث ملك الحيرة مدحا يمتزج بالاستعطاف والاعتذار، فبعد المقدمة الطللية الطويلة يعترف بأن مشاعر مختلطة من الخوف في عقابه والرجاء في ثوابه كانت مسيطرة عليه أثناء قدومه إليه. ثم يمهد لاعتذاره بمدح الملك بأنه خير الملوك وأكثرهم وفاء وأبرأهم ذمة وأجزلهم عطاء، ثم يفتديه بأهله على جهة الاستعطاف ويعاتبه برقة على تصديقه الوشاة فيما نقلوا إليه وهم أعداء له، وكان العدل يقتضي أن يتأكد الملك من الشاعرعن حقيقة القول وأصل الوشاية، فهو لم يقل شيئا من ذلك ولم يتوقع أن يقال عنه، ويؤكد صدقه بالقسم والدعاء على نفسه ألا تصل يمينه بشماله إذا لم تكن الوشاية باطلة، وأخيرا يرجو عمرو من المنذر أن يتصدق عليه

بالعفو وقبول الاعتذار، وهو يعترف صراحة بخوفه من الملك على الرغم من عدم ارتكابه أي جرم. يقول [١]

إلى ابن الشقيقة أعملتها	أخاف العقاب وأرجو النوالا
إلى أين الشقيقة خير الملوك	أوفاهم عند عقد حبالا
ألست أبرهم ذمة	وأفضلهم إن أرادوا فضالا
فأهلي فداؤك مستعتبا	عتبت فصدت فيّ المقالا
أتاك عدو فصدقته	فهلا نظرت - هديت - السؤالا
فما قلت ما نطقوا باطلا	ولا كنت أرهبه أن يقالا
فإن كان حقا كما خبروا	فلا وصلت لي يمين شمالا
تصدق عليّ فإني امرؤ	أخاف على غير جرم نكالا

ويمدح المرقش الأكبر أحد ملوك جفنه على الرغم من غزوه لقومه الذين يلتمس الشاعر العذر لهم في عدم قدرتهم على صده ومقاومته، فهو يملك من الحزم ما يمكنه من إرغام من يغزوهم وغلبته عليهم، وهو من سلالة ملكية كريمة الأبوين ذو قوة توارثها من آبائه وأمهاته من الأزد ولم ينافسه في رحم أمه آخر فيؤثر في قوته. وقد قاد جيشا من الصعاليك الأقوياء الماضين في أمورهم المتجردين لها فانقض على أعدائه انقضاض الصقر على الفريسة، وقد ساعده على النصر الطاعة المطلقه التي وجدها من جنوده فهم يغضبون لغضبه وينسلون خلفه انسلال الحية من جلدها. وينهى المرقش مدحته باستعطاف الملك فيذكره بصلة الخؤوله التي تربط قبيلة الشاعر بالممدوح يقول[٢]

---

(١) ديوانه ٦٥.

(٢) المفضلية ٥٤.

مـــا ذنبنا فـي أن غـــزا مـلك	من آل جـــفنة حـــازم مـــرغم
مـــقـــابل بين العـــواتك وال	غـــلّـف لانـــكـس ولا تـــؤم
حـارب واسـتغوى قـراضـبـة	ليـس بهـم مما يـحـــاز نـعم
بيض مـــصـــاليـت وجـــوههم	ليـست مـيـاه بـحـارهم بعـمم
فـانقض مـثل الصـقـر يقـدمـه	جـيش كـغـلان الـشـريف لِهمّ
إن يغـضبوا يغـضب لذاك كـما	ينسـل من خـــرشـــانه الأرقم
فنحن أخـــوالك عـــمـرك وال	خـــال له مـــعـــاظم وحـــرم

ويمدح طرفة بن العـبد عمرو بن هند فـيشيـد بسلطانه ونفوذه وأن أهل عمان والبـحرين دانوا له بالطاعة وصاروا تحت نفـوذه، وكذلك خضع له بنو ربيعـة ومن عن يمينهم من مـضر، ومن يخـالف أمره لا يعـصمه مـن شدته شيء. ثم يشبه الشـاعر الخوذات التي على رؤوس فرسـان الملك المغيرين في الصباح بالغدد المنتفخة في الجسم يقول(١)

أعطاك أهـل الطود عن عـــرض	سـيف صـحـار كـلهـا وهجـر
والجـون من ربيـعـــة القـشـعم	تكنفـــهم عن اليـــمين مـــضـر
من يعص مـنهم أمـر كـــفك لا	يحـــقنـه في مـــاعـــز أو فـــر
كـــأن بـيض الـدارعين عـلى	رؤوسـهم قـبل الصـبـاح جـدر

وللمنقب العبدي قـصيدة مدح بها النعمـان بن المنذر وقد بدأها بالغزل فوصف النـاقة ثم طفق يمدحـه فنوه بأفضال المـمدوح على الشاعـر وهي نعم كثيرة لا يجوز جحدها أو إخـفاؤها. ،ثم أشار إلى نسبه الصالح والعالي وأنه متـفوق على سـائر الأنساب كتـفوق سـعود النجوم العـشرة على غـيرها من

(٢) ديوانه ١٨٦ - مكتبة الأنجلو المصرية.

النجوم. كما مدحه بسعة القدرة التي لا تحدها حدود، حتى أن الجبال على ضخامتها وعظمتها لو تجرأت على ظلمة لأعطاه الله حبالها وأسلس له قيادها، فصارت طوع أمره يجرها إلى حيث يريد، فمابالك بسائر الناس إذا خرجوا عن هذه الطاعة، كقبيلة الشاعر العمانية التي جانبت الصواب وبلغ بها العناد ما بلغ، حتى انتهي أمرها بأن وقعت في قبضته وسيقت إلى وفادته، فأصبحت بين يدي خير المخلوقات وأفضلهم، وهو الذي غلب الملوك في الرأي بحزمه وفي الجود بعطائه، وأي قوم لم يستبح النعمان حماهم بغارة يشنها عليهم ؟ يقول(١)

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه	جزاء بنعمي لا يحل كنودها
وجدت زناد الصالحين نمينه	قديما كما بذ النجوم سعودها
فلو علم الله الجبال ظلمنه	أتاه بأمراس الجبال يقودها
فإن تك منا في عمان قبيلة	تواصت بإجناب وطال عنودها
وقد أدركتها المدركات فأصبحت	إلى خير من تحت السماء وفودها
إلى ملك بذ الملوك بسعيه	أفاعيله حزم الملوك وجودها
وأيّ أناس لا يبيح بقتلة	يؤازي كبيدات السماء عمودها

ويرسل المثقب قصيدة أخرى إلى عمرو بن هند بمناسبة اخضاع الملك لفريق من قبيلته في قطر لخلعها طاعته وتمردها عليه. وقد مدح فيها الشاعر الملك ببياض الوجه وما يرمز إليه من الكمال الخلقي، والخلو من الدنس والعيوب، ولهذا الوجه خضع الجميع لسلطانه، وصارت مدن الخط كلها وسواحل الخليج العربي في قبضته. ثم ينوه الشاعر بنسب الملك فيشيد به من جهة أمه هند، واعتزازه بآكل المرار الكندي جد الحارث والد عمرو، كما

(١) ديوانه ١٠٢ .

يشيـر إلى نسب الممدوح من ناحية أبيـه؛ وهو المنذر بن ماء السماء، ويـشيد بنقـاوة دمه الفاقع الحـمرة، وأن المصـاب بداء الكلب إذا قطر عليـه من دمه شفي، وفق المعتقد الجـاهلي الذي يقول (دماء الملوك تشفي من الكلب). ثم يتحدث الشاعر عن وقعة (حنو) التي فتك فيها ابن هند بعبد القيس شرفتك، فيعلن اعترافـه بالهزيمة على يد كتيبة (دوسر) التي أنشأهـا النعمان الأكبر بن امريء القيس، وهي فيلق مجتمع القوة كثير السلاح يحمي بعضه بعضاً. ثم يدعو الشاعر الله أن يتولى عنه جزاء الممدوح كفاء نعمه عليه، كما يدعو الله أن يعاقب من يقرعه لانتقاضـه على عمرو بن هند، الذي قوم ميل الخارجين عليـه، وكسـر شـوكتـهم، هؤلاء الذين أودى بهم عـيش الدهر وأودى بهم ممدوح الشاعر. يقول [(١)]

وإلى عـــمـــرو وإن لـم آته	تجلب المدحـة أو يمـضي السـفـر
واضح الوجـــه كـــريم نجـــره	ملك السـيف إلى بطن العـشـر
حـــجـــري عـــائدي نســـبـــا	ثم للـمنذر إذ جلـى الخـمـــر
باحـــري الـدم مـــر طعـــمـــه	يبـــريء الكلب إذا عـض وهر
كـل يوم كـــــان عنـا جلـلا	غـيـــر يوم الحنو في جنـبي قطر
ضـــربت دوسـر فـــينا ضـــربة	أثبـتـت أوتاد ملك مـسـتـقـر
صـبــحـتنا فـــيلق ملمـــومـة	تمنع الأعـــقـــاب منهن الأخـــر
فـــجـــزاه الله مـــن ذي نعـمـــة	وجـــزاه الله إن عـــبـــد كـفـــر
وأقـــام الرأس وقـــع صـــادق	بعـدما صـاف وفي الخـدّ صعـر
ولقـــد رامـــوا بســـعـي ناقص	كي يـزيلوه فـــأعــيـــا وأبر
ولـقـــــد أودى بمن أودى بـه	عـيش دهـر كـان حلوا فـأمـر

(١) ديوانه ٦٨.

ويمدح الممزق العبدي عمرو بن هند بقصيدة بدأت بشكوى الهموم فوصف الناقة ثم أخذ في المديح، فذكر بأنه قادم إلى الملك برحلة متواصلة ليقدم له فروض الطاعة والولاء وآيات الاعجاب والاكبار، وأشاد بعلو الملك وأنه سبق جميع الملوك في الأمجاد والمفاخر، وأن الممدوح جمع في قبضته من القدرة والسلطان ما يجعل قوله نافذا لا يرد وما يجعل فعله واقعا لا يدفع، فهو شجاع حين يجبن الناس وكريم حين يبخلون وعدل حين يجورون. ثم يأخذ الشاعر في استعطاف ممدوحه فيتساءل عن حقيقة تهديد من أسماه ابن فرتن له، فإذا كان لابد من قتله فليكن على يد الملك فذلك خير له.

وإذا كان السبب يعود إلى ظن الملك بأن الشاعر مع القوم الخارجين عليه فإنه يعلن براءته منهم. ويطلب الشاعر منه أن يتداركه من الغرق فهؤلاء القوم لاصلة له بهم وهو لا يرتبط بهم بأي شيء، وليس بينه وبينهم عقد موثق ولاكفالة مكتوبة. ويختم الممزق استعطافه بإظهار يقينه من أن ابن هند سينعم عليه بالعفو والأمن، ولا يدع لأعدائه فرصة الاستقرار أو الفرار. يقول[1]

تروح وتغدو ما يحل وضينها	اليك ابن ماء المزن وابن محرق
علوتم ملوك الناس في المجد والتقى	وغرب ندى من عروة العز يستقي
وأنت عمودالدين مهما تقل يقل	ومهما تضع من باطل لا يلحق
وإن يجبنو تشجع وإن يبخلوا تجد	وأن يخرقوا بالأمر تفصل وتفرق
أحقا أبيت اللعن أن ابن فرتنا	على غير إجرام بريقي مشرقي
فإن كنت مأكولا فكن خيرآ كل	وإلا فأدركني ولما أمزق
أكلفتني أدواء قوم تركتهم	وإلا تداركني من البحر أغرق

(١) الأصمعية ٥٨.

فإن يتهموا أنجد خلافا عليهم ... وإن يعمنوا مستحقبي الحرب الحق
فلا أنا مولاهم ولا في صحيفة ... كفلت عليهم والكفالة تعتقي
وظني به ألا يكدر نعمة ... ولا يقلب الأعداء منه بمعبق

ب- بين الشعراء والرؤساء:

غزا ثعلبة بن حبيب العدوي أحياء مراد وهم يومئذ نزول بماء يقال له الكثيب في هجر، فصبحهم وهزمهم وأكثر القتل في مراد، وكان في قبيلة مراد جار لهم من كنده ومعه أهله وماله، فبينما ثعلبه يستعرض السبي إذ هو بامرأة الكندي تدعوه بأبيات، تلخص فيها ما حدث من غلبته على مراد وقتله رئيسها وسبيه لأبكارها الحبيبات، ثم ترجو منه أن يمن على أهلها بإطلاق سراحهم من الأسر، وتعده بحفظ هذا الجميل وإذاعته بين الناس، مشيدة بأريحيته وشدة بطشه بمراد تقول [(١)]

يا صاحب الخيل الذي توردا ... على مراد قد حويت الخردا
وقد تركت الكبش فيهم مقصدا ... أمن علينا واتخذ فينا يدا
بيضاء في كندة أفشيها غدا ... إني أراك سيدا مسودا
توري إذا واردى الزناد أصلدا ... تركت بالبيض مرادا همدا

وفي يوم الكثيب حين حقق ثعلبه العدوي النصر المؤزر على مراد وأسر وسبي كان من بين من أسرهم رجل من كنده ومعه أهله، ولكنه استطاع بمدحه له أن يظفر بالحرية. فقد أشار في مقطوعته إلى شجاعة ثعلبه وما أحدثه من بطش ونكاية بمراد، وما لقيته من ضرب شنيع بالسيوف الهندية

(١) الأنوار ١٠٦.

والرماح الخطيه، مشيرا إلى أن ما فعله العدوي بمراد مماثلا لما فعلته جديس بطسم الغشوم، حينما دعته إلى مأدبة الموت وفتكت به أشنع فتك. وطلب في النهاية العفو والخلاص من الأسر . يقول(١)

ثعلبة الخير أخو عدي لاقى مرادا بالأضا الماذي
صبحهم بالبيض والخطى على الكثيب صبحة الطسمي
فهم بها كالخشب العادي وقد حويت العز بالهندي
هل لك في عفو عن الكندي ومنة منك على السبي

وفي يوم الوقيط أسر جويره بن بدر من بني عبد الله بن دارم، فلم يزل في الوثاق حتى قال أبياتا يمدح فيها بني عجل، وأنشأ يتغنى بها رافعا عقيرته فلما سمعوه أطلقوه. وقد مدحهم بقوة السواعد وكثرة السلاح والاسراع في النجدة والبطء عما يشين. كما مدحهم بالرزانة والوقار ثم رجا منهم العفو عنه وإطلاق سراحه مظهرا تفاؤله بفضلهم يقول مستهلا أبياته بذكر انشغاله عن زيارة الحبيب بما هو فيه من قيد الأسر وذله.(٢)

وقائلة ماغاله أن يزورها وقد كنت عن تلك الزيارة في شغل
وقد أدركتني والحوادث جمة مخالب قوم لا ضعاف ولا عزل
سراع إلى الداعي بطاء عن الخنا رزان لدى النادي من غير ما جهل
لعلهم أن يمطروني بنعمة كما طاب ماء المزن في البلد المحل
فقد ينعش الله الفتى بعد عسرة وقد يبتدى الحسنى سراة بني عجل

وتقول أخت الحطم بن ضبيعة تمدح بني مالك التغلبيين في يوم عتيد، حين

(١) المصدر السابق ١٠٧.
(٢) العقد الفريد ٥/ ١٨٤.

أسر أخوها على يد بشر بن سوار ثم منّ عليه وجز ناصيته وأطلقه. وقد أشادت الشاعرة بشجاعة بشر وبني تغلب، وشبهت قائدهم ابن قرط بأسد الغابة، عندما صبحهم بكتيبته الملتهبة بسيوفها اللامعة وخيولها القادحة، منوهة بعزة فوارسها من بني مالك وبني تيم الذين احتلوا الذروة من تلك العزة تقول[١]

فلله بشر غداة اللقاء ... على أيّ فارس قوم هجم؟
ولله تغلب من معشر ... إذا أبدت الخود عنها الخدم
هم صبحونا بمشبوبة ... عليها ابن قرط كليث الأجم
فوارسها الشم من مالك ... وتيم هي الأنف منها الأشم

جـ- الشعراء وقرابتهم

يتحدث عمرو بن قمئه عن علاقته بعمه مرثد بن عمرو التي اضطربت بسبب زوجة العم اللعوب، وما قامت به من مكيدة للشاعر أمام عمه، لعدم انصياعه لغواتها مما أغضب عمه عليه، وجعله يكثر من تأنيبه وتوجيه الشتائم المقذعة إليه . ثم يعلن الشاعر تنصله من الذنب الذي اتهم به ويحيله إلى كذب الناقل، ويحاول أن يثير عاطفة العم فيشيد بحسن خلقه حتى في حالات الضيق والعوز، ويشكو من أذى أقربائه له وصبره عليها وأن ذلك هو سلوك أهل الحفاظ والكرم. يقول [٢]

لعمرك ما نفسي بجد رشيدة ... تؤامرني سرا لأصرم مرثدا
وإن ظهرت منه قوارص جمة ... وأقرع في لومي مرارا وأصعدا

(١) الأنوار ٩١.

(٢) ديوانه ٢٧.

على غـير ذنب أن أكـون جنيتـه ... سوى قـول باغ كادني فـتجـهدا

لعـمري لنعم المـرء تدعو بحـبله ... إذا مـا المنادي في المـقـامـة ندداً

عظيم رمـاد القـدر لا متـعـبس ... ولا مـؤيس منهـا إذا هو أوقـدا

وإن صرحت كـحل وهبت عربة ... من الريح لم تترك لذي المال مرفدا

صبرت على وطء الموالي وخطمهم ... إذا ضن ذو القربى عليهم وأجهدا

ولم يحم فرج الحي إلا مـحافظ ... كريم المحـيا مـاجد غـير أحـردا

ويمدح عمرو بن قمئه قبيلته سعد بن مـالك بن ضبيعة بقصيدة يستهلها بالحديث عن ابله المشتـاقة إلى قومها من عشيـرة مالك فهي لا تريد أن تبرح مكانها معه إلى حيث يقصد، ولكنه يؤكـد لها عزمه على الرحيل مادحا من سيـرحل إليهم بحسن الوجوه أي أنـهم مصدر فأل ويمن، وعظم القـباب أي أنهم أهل غنى ومدنية، وطول الرماح أي أنهم أهل قوة وشجاعة.

وهنا يبدأ الشاعر رحلتـه المتواصلة عبر صحراء مقفـرة صامته لا يسمع فيهـا إلا صوت أولاد النعام، حتى وصل إلى حي كبـير كثير البـيوت حيث يقطن بنو سعد بن مالك الذين يصفـهم الشاعر بالترف والجود وأنهم يمنحونه مودتهم وكـرمهم حتى في أيام الجدب والجـفاف، ويقدمـون له مما يفيض به القدر المبيض من شحم يشبه موج البحر. ثم يعبر عن تقديره لهم لما يتحلون به من كرم الطباع وسخـاء اليد ونجدة المستغيث، فيدعو السـاقية أن تقدم لهم أجود أنواع الشراب مفتديا إياهم بكل أقربائه، مـؤيدا اعجابه بالتمثيل لبعض مواقفهم الجـديرة بذلك الاحترام، حيث كانوا فرسـان يوم الفرات ذلك اليوم المهول الذي كانت فيـه الخيل مثل إناث الغيلان في كرها وفـرها، وقد ثبتت حين استطار الشر والفـساد فكانوا أكثر صمودا من شـجر الطلح العظيم أمام ريح الشمال العاتية. وقد ضمت فروسيتهم إلى جانب الشجاعة جانبها الآخر

وهو الجود على معتفيهم بأجمل الخيول وتقديم ضيوفهم على عيالهم وإيثارهم بالطعام والشراب. يقول [(١)]

تحن حنينا إلى مالك ... فحني حنيك إني معالي
إلى دار قوم حسان الوجوه ... عظام القباب طوال العوالي
فوجهتهن على مهمة ... قليل الوغى غير صوت الرئال
سراعا دوائب ما ينثنين ... حتى احتللن بحي حلال
بسعد بن ثعلبة الأكر ... مين أهل الفضال وأهل النوال
ليالي يحبونني ودهم ... ويحبون قدرك غر المحال
فتصبح في المحل محورة ... لفيء إهالتها كالظلال
فإن كنت ساقية معشرا ... كرام الضرائب في كل حال
على كرم وعلى نجدة ... رحيقا بماء نطاف زلال
فكوني أولئك تسقينها ... فدى لأولئك عمي وخالي
أليسوا الفواس يوم الفرات ... والخيل بالقوم مثل السعالي
وهم ما هم عند تلك الهنات ... إذا زعزع الطلح ريح الشمال
بدهم ضوامر للمعتفين ... أن يمنحونهن قبل العيال

ومن مديح الاستعطاف هذه الأبيات التي وجهها الأسلع بن القصاف الطهوي إلى بني حارثه بن لأم، الذين احتجزوا إبلا لبني طهية بسبب قتلهم لإياس بن عبلة البكري ،الذي كان وأناس من بني تيم الله بن ثعلبه مع بني حارثة بن لأم متجاورين على ماء الشباك في البحرين، ولما كان القتل قصاصا وكان بنو طهية جيرانا لبني حارثة في الخليج فقد بني الأسلع مديحه الاستعطافي على حقي العدل والجوار، فحرك في نفوسهم مشاعر الأخوة والنخوة والشهامة،

---

(١) ديوانه ٤٠ .

قائلا لهم: لو كنا في مثل حالكم لرددنا الابل إليكم، لأنكم أصحابها الحقيقيون، ولأن رابطة الجوار تجمعنا معا وحق الحوار عظيم. يقول[١]

فأبلغ بني لام إذا ما لقيتهم ... وما شاهد يدعى كمن هو غائب
فهم أنتم إلا أخونا فتحدبوا ... علينا إذا نابت علينا النوائب
ولو أننا كنا على مثلها لكم ... لآبت إلى أربابهن الركائب
لما برحت حتى أنيخت إليكم ... جميعا وحتى حل عنها الحقائب
فإن رحال القوم وسط بيوتكم ... وللجار معروف من الحق واجب

فلما أتى بني حارثة هذا الشعر سرهم، وقالوا مالنا على ركابكم من سبيل، قوم أدركوا بثأرهم، ولهم جوار، والذي بيننا وبينهم حسن، فردوا على بني القصاف ركابهم، وطاح ابن عبله ولم يدرك بثأره

٤- مديح التكسب

وطبيعي أن تكون العاطفة في هذا اللون من المديح أقرب إلى الكذب؛ لأن دافع الشعراء فيه نفعي يقوم على الطمع والمصلحة الشخصية. وقد توجه الشعراء بمديحهم هذا إلى الملوك والرؤساء ولعل المسيب بن علس الضبعي هو صاحب القدح المعلى في هذا المجال، من شعراء الخليج الجاهليين.

فها هو ذا يهدي مدحته إلى القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي مبتدأً بالغزل ووصف الناقة، وهي مدحة يقول عنها إنه سيعرفها الداني والقاصي وستجري على كل لسان، وقوامها أن الممدوح فاق جميع الملوك في الشرف والمفاخر والمكرمات، ومن مظاهر كرمه أنه يبني بيته بين الجمع الكثير من الناس، ليكون أقرب إليهم في قضاء حوائجهم ويشملهم ببره وعنايته في كل

(١) أيام العرب في الجاهلية ٢٢٨.

وقت وبخاصة في الأوقات الشديدة البرودة حيث القحط والجفاف، وهو أجود من الخليج الزاخر المتلاطم الأمواج التي إذا انقلبت تشبه الخيل البلق. أما شجاعة الممدوح فتشبه الأسد المعاود الفتك بالفرائس مرة بعد مرة بل تزيد عليه في ذلك، وحين يغير على القوم الكثيري السلاح يصبحون في جلبة وصياح خوفا منه. وأما وفاء الممدوح فإن عقده وثيق وجاره منيع، على حين تذهب بحرمة غيره عقاب الخلس وهي أخبث العقبان وأسرعها، وإذا تجرأ أحد على رمي الممدوح أو المساس بجماله رماهم بمختلف السهام المحددة الطويلة منها والقصيرة. وبهذه المكرمات التي تحلى بها افتخرت قبيلته به وصار واسطة عقدها. يقول(١)

فلأهدين مع الرياح قصيدة	مني مغلغلة إلى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة	في القوم بين تمثل وسماع
وإذا الملوك تدافعت أركانها	أفضلت فوق أكفهم بذراع
أحللت بيتك بالجميع وبعضهم	متفرق ليحل بالأوزاع
ولأنت أجود من خليج مفعم	متراكم الآذي ذي دفاع
وكأن بلق الخيل في حافاته	يرمي بهن دوالي الزراع
ولأنت أشجع في الأعادي كلها	من مخدر ليث معيد وقاع
يأتي على القوم الكثير سلاحهم	فيبيت منه القوم في وعواع
أنت الوفي فما تذم وبعضهم	تودي بذمته عقاب ملاع
وإذا رماه الكاشحون رماحهم	بمعابل مذروبه وقطاع
ولذاكم زعمت تميم أنه	أهل السماحة والندى والباع

(١) ديوانه ١١٤.

ويمدح المسيب بن علس مالك ذو الرقيبة بقصيدة يبدأها بالغزل ووصف الظعينة، فالممدوح في نظر المادح أكرم الكرماء وأفضل الأجواد، وهو ميمون النقيبة كلما أتلف مالا أخلفه، وهو لا يعطي إلا أجزل المنح، فمن عطاياه الخيل الضامرة المختلفة الأحجام ما بين الطوال والقصار والكبار والصغار، والابل الضخمة الشبيهة بالبقر في بروكها ونهوضها وغدوها ورواحها، وفي الشتاء الشديد البرودة حين تهب ريح الشمال فتسرع الابل سرعة النعام يبسط الممدوح يديه ويفتح أبوابه لكل محتاج، ويعترف الشاعر بأفضال الممدوح عليه، ويشبهه بالتيار الواسع المتدفق ذي الأمواج العاتية، ويؤكد شكره له وعدم إغفاله عن معارفه مدى الحياة. ويختم المسيب مدحته بتتويج الممدوح صفة الشجاعة وبخاصة في المواقف الصعبة وينوه بأعماله التي لا تجاري يقول[١]

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... ولذي الرقيبة مالك فضل
كفاه مخلفة ومتلفة ... وعطاؤه متخرق جزل
يهب الجياد كأنها عسب ... جرد أطار نسيلها البقل
والضامرات كأنها بقر ... تقرو دكادك بينها الرمل
والدهم كالعيدان آزرها ... وسط الأشاء مكمم جعل
وإذا الشمال حدت قلائصها ... رتكا فليس لمالك مثل
للضيف والجار الغريب ... وللطفيل التريك كأنه رأل
ولقد تناولني بنائله ... فأصابني من ماله سجل
متبعج التيار ذو حدب ... مغرورب تياره يعلو
أنت الشجاع إذا هم نزلوا ... عند المضيق وفعلك الفعل

(١) ديوانه ١٢٣.

وينطلق المسيب بن علس في مديحه لزيد بن قيس الحاشدي الهمداني مما يعتقده العرب الجنوبيون في الجاهلية، من تأليههم للقمر وعده ربا للخصب والماء والحقول والتحكم في سقوط المطر، وقد ربطت الأساطير القديمة بين القمر الاله وبين الثور الوحشي كبديل أرضي له، وكنى عن المقه بثور والمقه هوالقمر الأبيض اللامع ورمز له برأس ثور، والعلاقة الشكلية بين الهلال وبين قرني الثور علاقة واضحة، فقد سمي الشاعر ممدوحه (هلالا) وهي تسمية تجمع بين القمر والثور والممدوح بجامع القداسة والبركة والبياض. فالممدوح هو خير من يستمطر به وكفه تفيض بالجود ونسبه الملوكي أفضل نسب من ناحية أبويه، بل هو أفضل اليمنيين في السخاء زمن الجدب، فدلاؤه المترعة بماء الخيرات تنهمر بلا حدود أو توقف، والشعب القحطاني يضع الممدوح في أعلى المراتب بوصفه أكثر الجميع عطاء وفضلا، وحين تنزل الحروب بساحته يتصدى بقوة لها، حين يكره الشجعان والقواد ذلك التصدي ويقودها من مكان إلى مكان بلا كلل أو ملل مهما كثرت وتباعدت، وجياده المتفرقة هنا وهناك تسرع سرعة الظباء وهي بكثرتها وسرعتها تمزق أديم الأرض وتقطع الفلوات بما في ذلك صغارها، وهو ذو عزة وجبروت يخضع الجميع له بحكمته التي اكتسبها من تجاربه المختلفة الأحوال، وجوده غير المحدود يفوق خليج الفرات العظيم التدفق الذي يحط الصخور ويغطي الجبال ويقتلع عظام الأشجار ويقلب السفن، وهو يهب من النياق أغلاها وأعظمها ومن الجياد أجملها وأقواها. يقول:

إلى خير مستمطر كفه — وخير المقاول عما وخالا

تخلق في البيت من حاشد — تراه البرية فيها هلالا

---

(١) ديوانه ١٢٧.

وأفـــــضل ذي يمن كـلهــــا	إذا افـتـقـد المستنون السـجـالا
فـــقـــحطان تعلم أن لـيس حي	من الناس أكــرم منكم فــعـالا
وأنك مــرسى حــروب النزال	إذا كـــره المعلمـــون الـنزالا
تقـــود الجـــيـــاد بأرســانهــا	يغـــادرن في الفـلوات النقــالا
شـــمـاطيط تمـزع مـزع الظبــا	وتفري فلا الأرض منها السخالا
إذا ما انتـضى التاج فـوق السرير	فلن يعـــدل الناس مـنه قـبــالا
يســوم البـريـة سـوم العـــزيز	وقـد لبس الدهر حـالا فـحـالا
ومـا مـزبد من خـليج الفـرات	يحط الصـخـو ويـعلو الجـبـالا
يكـب السـفـين لأذقـانهـــا	ويصـرع بـالعـبـر أثـلا وضـالا
بأجــــود منه إذا جــــئـتــــه	على حـادث الدهـر يومـا نوالا
هو الـواهب المائـه المصطـفــاه	تجـاوب منها العـشـار الفصـالا
وكل أمـين الشـطا ســـابح	يقطـع منه النحـــيط الجــلالا

ويمدح الحارث بن حلزه قيس بن شراحيل، طالبا من ناقته أن ترحل به إلى هذا الملك الحديد الذكي الذي لا مـثيل له في الجود. فهو يـعطي الشاعر الدرع المحكمة الواسعـة التي تفيض على لابسها بهـميانها أو شـدادها، كما يهب الخـيل الضـاربة إلى الســواد الشبـيـهـة بالنخل في طولهـا وحبـكتهـا وضـمورها، إلى جـانب هبـاته سـبائك الذهب والجـواري البـيض التي في شفـاهها سواد مسـتحسن، وهو يمنح في كل وقت ولا ينفق في نجم مـبارك ليـخلف عليـه. فله الـفضل فـي هذا الزمـان لا عليـه إذا دعي على القـوم بالتعس. يقول [١]

(١) ديوانه ٥٠.

أفــلا تعـديـهـا إلى مـلك	شــهم المقـادة حـازم الـنفس
فـإلـى ابن مـارية الجـواد وهل	شـروي أبي حـسـان في الأنس
يحبـوك بالزعف الفيـوض على	هيـمـانهـا والـدهم كـالغـرس
وبالسـبـيك الصـفـر يعـقبـهـا	بالآنسـات البـيض والـلعس
لا ممسـك للـمـال يهـلكـه	طلق الـنجـوم لـديه كـالـنحس
فـله هـنالـك لا علـيـه إذا	دفـعت أنوف القـوم للتـعس

ومن مديح الاستماحه قول قيس بن خفاف البرجمي الذي مدح فيه حاتم الطائي طالبا منه أن يحمل عنه حمالات قومه من البراجم الذين عجز موسروهم عن مشاطرته فيها وعجزّوه عن القيام بها، فلم يجد أمامه سوى حاتم طيء الذي رحب به وتكفل بدفع المغارم، وختم الشاعر أبياته بالإشادة بكرم الممدوح، متخذا منه رمزا للجود يبقى ببقائه ويزول بزواله يقول[(١)]

حـملت دمـاء للبـراجم جـمـة	فـجـئتك لما أسلمـتني البـراجم
وقـالوا سفـاها لوحملت دمـاءنا	فقلت لـهم يكفي الحمـالة حاتم
مـتى آته فيـهـا يقل لي مـرحبـا	وأهلا وسـهلا أخطأتك الأشـائم
فيـحملها عـني وإن شئت زادني	زيادة من حلـت عليـه المكارم
يعيش الندى ما عاش في الناس حاتم	وإن مـات كـانت لـلنسـاء المآتم

يقول عبد العزيز شحاده: وقـد رأى الشاعر في الأشخاص ذوي القدرة والقوة والنعـمة ملجأ له ومـلاذا، وتصورهم منقذيـن له من الزمن وبطشه، ولذلك لا عجب أن يرى منهم قوة مـعادلة للزمن نفسه، فالقـوة التي سيلجأ

---

(١) معجم الشعراء ٣٢٥.

إليها الشـاعر يجب أن تكون بداهة من نوع القوة التي يهرب منها، ليـتحقق التوازن والتكافؤ في عالم الشاعر ويسوده الأتزان[١]

ثم يقول أيضـا : لا عجب إذن أن يصف الشعراء ممدوحـيهم بالكرم، فالحاجة والعوز كانا من إفراز الحياة الجاهلية المجدية، فإعطاء الممدوح المال هو في حقيقته إنقاذ للآخـرين من هذه الحاجة، مما يضيف على حياتهم نوعا من الأمن والطمأنينة اللـتين يبحثـون عنهما، وسط الخـوف والتوتر والقلق، إن الممدوح يصـبح بطلا يستطيع القيـام بما عجز عنه الآخـرون، إنه يوفر الأمن والسكينة للناس حينما يكونون في حاجة ماسة إليهما.[٢]



(١) الزمن في الشعر الجاهلي ١٦٠.

(٢) نفسه ١٦٤.

الفصل السادس
الشكوى والرثاء

١ - الشكوى

أ- الشكوى الشخصية.

ب- الشكوى القبلية.

٢- الرثـــاء

أ- رثاء الأقارب.

ب- رثاء الأصدقاء والممدوحين.

جـ- رثاء النفس.

د- الرثاء التأملي.

الشكوى

هي التعبيـر عن حالة نفسية عانى منها الشـاعر بسبب مكروه تعرض له أو لقـومه، أو هـي حالة من الحـزن والكآبة والضـيق رانت عليـه فظهـرت أصداؤها في شعره.

وقد جاءت شـكواهم شخصيـة غالبا وبعضـها قبلية وربما جـمعت بين الأمرين- فشكوا من الغـربة ومن الجفاء ومن العجز والشيـخوخة ومن فراق الأحبة ومن العقوق ومن المرض.

كمـا شكو مما ينزل بالقـبيلة من هزائم أو خطوب ومـا تتعـرض له من ويلات وحروب، إلى غير ذلك من المشاكل الشخصية والقبلية.

أ- الشكوى الشخصية:

ويبدو أن عمرو بن قـمئه الضبعي أكثر شعـراء الخليج الجاهليين تشكيا؛ فقد شكا من العجز والكبر وشكا من قلة نصرة القريب وجفوة العشيرة وشكا من فرقة الأهل والأحباب. ففي ميمتـه شكا من الشيخوخة وما تنطوي عليه من الضعف الذي اضطره إلى استعمال العصـا للنهوض والحركة ، فقد تجاوز التسـعين عاما مر الشـاعر خلالها بكثـير من المصائب والمصـاعب، فهي بنات الدهر وسهـامه التي ترمـيه بقوة لا يسـتطيع ردها أو دفعهـا مع تطاول الزمن وطول العمر. ونراه يتحسر على الحالة التي وصل إليها، مقارنا بين ضعفه في هرمه وفتوته في شبابه يوم كان يرتدي ثـياب القوة والهمة والنشاط حيث خلع العذار وانهمك في الغي، وعندمـا كان غير كهام فلم يكن بطيـئا عن النصرة والحرب، أما الآن فقد صار شيخا فـانيا مع كل يوم وليلة يعيشهما ويطرح في تجددهما شبابه فهو يموت شيئا فشيئا والدهر لايفنى ولا يموت. يقول[1]

(١) ديوانه ٣٦.

إن أك قد أقصرت عن طول رحلة	فيا رب أصحاب بعثت كرام
كأني وقد جاوزت تسعين حجة	خلعت بها يوما عذار لجامي
على الراحلتين مرة وعلى العصا	أنوء ثلاثا بعدهن قيامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى	فكيف بمن يرمي وليس برام
فلو أنها نبل إذا لا تقيتها	ولكنني أرمي بغير سهام
إذا ما رآني الناس قالوا ألم تكن	حديثا جديد البز غير كهام
وأفتي وما أفتى من الدهر ليلة	ولم يفن ما أفنيت سلك نظام
وأهلكني تأميل يوم وليلة	وتأميل عام بعد ذاك وعام

وفي أبيات ثانية يشكو عمرو بن قمئة من كبر السن وموت الأقارب، حتى لم يبق منهم من يعتمد عليه الشاعر فيما بقي من حياته التي ستنتهي في يوم من الأيام. ويقول للدهر يكفيك ما فعلته بنا فلتتلطف بحالنا فإنا بشر من لحم ودم ولسنا حجرا أو حديدا. يقول(١)

كبرت وفارقني الأقربون	وأيقنت النفس ألا اخلودا
وبان الأحبة حتى فنوا	ولم يترك الدهر منهم منهم عميدا
فيا دهر قدك فأسجح بنا	فلسنا بصخر ولسنا حديدا

ونراه يكرر شكواه في أبيات ثالثة فبعد أن بلغ مرحلة الشيخوخة وما صاحبها من ضعف وهرم وعجز، أخذ يتذكر أيام الشباب وما حملته معها من قوة وفتوة وهمة ونشاط وسرور وحبور يقول(٢)

---

(١) ديوانه ٧٢.

(٢) نفسه ٣٨.

يا لهف نفسي على الشباب ولم … أفقد به إذ فقدته أمما
قد كنت في ميعة أسر بها … أمنع ضيمي وأهبط العصما
وأسحب الربط والبرود إلى … أدنى تجارى وأنفض اللمما
لا تغبط المرء أن يقال له … أمسى فلان لعمره حكما
إن سره طول عيشه فلقد … أضحى على الوجه طول ما سلما

ويشكو عمرو بن قمئة من فرقة الأهل وما نزل بدارهم من خراب بعد رحيلهم، ويشبه نفسه بالقدح الخاسر في جعبة السهام، مستنكرا على نفسه عدم الصبر على ما نزل به وهو في سن الشيخوخة يقول(١)

هل عرفت الديار عن أحقاب … دارسا أيها كخط الكتاب
وكأني لما عرفت ديار ال … حي بالسفح عن يمين الحباب
يسر حارض الربابة حتى … راح قصرا وضيم في الأنداب
جزعا منك يا بن سعد وقد أخـ … ـلق منك المشيب ثوب الشباب

وأبدى مرقش الأكبر حسرته وأظهر جزعه وصرح ببكائه لفراق الحبيبة بكاء لم يفارقه آناء الليل وأطراف النهار، وهو يعترف بأن هذا البكاء من قبيل السفاهة والجهل، لعلمه اليقيني بعدم جدواه حيث حالت بين بلاده في البحرين وبلادها في دار كلب قرى كثيرة. يقول(٢)

ما قلت هيج عينه لبكائها … محسورة باتت على إغفائها
فكأن حبة فلفل في عينه … ما بين مصبحها إلى إمسائها

---

(١) السابق ٤٧.
(٢) المفضلية ٥١.

سفها تذكره خويلة بعدما | حالت قرى نجران دون لقائها
واحتل أهلي بالكثيب وأهلها | في دار كلب أرضها وسمائها

ويبعث مرقش الأكبر إلى أخويه أنس وحرمله برسالة شعرية قصيرة موضوعها الشكوى. وقد استهلها بحكمة دعا من خلالها صاحبيه إلى التلبث وعدم الاستعجال، فلعل في الأول خلاص من مغرم وفي الآخر فوات مغنم، ثم يطلب من حامل الرسالة أن يبلغ أخويه المذكورين أن رفيقه الغفلي قتله وهو الذي رافقه مع زوجته في رحلته، فلما ثقل المرض على المرقش تركه في الغار وأصبح طعمة للضباع تنهش من جسده وترد عليه ورودها إلى الماء.. يقول (١)

يا صاحبي تلوما لا تعجلا | إن الرحيل رهين أن لا تعذلا
فلعل بطأ كما يفرط سيئا | أو يسبق الاسراع سيبا مقبلا
يا راكبا إما عرضت فبلغن | أنس بن سعد إن لقيت وحرملا
لله دركما ودر أبيكما | إن أفلت الغفلي حتى يقتلا
من مبلغ الأقوام أن مرقشا | أمسى على الأصحاب عبئا مثقلا
ذهب السباع بأنفة فتركنه | أعشى عليه بالجبال وجيئلا
وكأنما ترد السباع بشلوه | إذ غاب جمع بني ضبيعة منهلا

وللحارث بن عباد الضبعي مقطوعة يذكر لويس شيخو في مناسبتها أن غلاما لعمران بن نبيه السدوسي اسمه معمر بن سوار أورد إبل سيده عين ماء تعرف بعين قويره، فاصطدمت إبله بإبل عباد أبي الحارث فأهاب بها وحذر راعيها فلم ينته إلى أن اقتتلا فرمى الحارث معمرا وقتله، فأقبل الفضيل بن

(١) نفسه ٤٥.

عمران على الحارث فرماه بسهم آخر فأتبعه بغلامه. ولكن الذي يفهم من هذه الأبيات أن معمر بن سوار غلام ابن عباد وأن الحارث قتل الفضيل بن عمران وعبده ثأرا له، فهو يعتذر لما فعل ويشكو مما وقع ومما عسى أن يجري بعد ذلك من حرب طاحنة، وقد حدث ذلك فقامت حرب سدوس يقول[(١)]

قتلت ابن عمران الفضيل وعبده	بذحل غلامي معمر بن سوار
وما رمت قتلا للفضيل وإنما	أردت ذمامي إذ أخذت بثاري
رميت به سهما فعجل حتفه	وذلك شيء لم يكن بخياري
ألا فاسعدوني للوقيعة والبلا	وإضمار خيل قربت لمغار

وهناك أبيات أخرى للحارث بن عباد ذكر لويس شيخو في مناسبتها أن يوم قضه هو أول يوم شهده الحارث في حرب البسوس بعد أن ولي أمر بكر، حيث التقت بتغلب في عويرض وهزمت شر هزيمة، وأسر الحارث مهلهلا وهو لا يعرفه فقال له دلني على مهلهل فقال له هل تؤمنني إذا دللتك عليه فقال نعم قال إذن أنا هو، فقال الحارث دلني على كفؤ لبجير قال لا أعلمه إلا امرؤ القيس، فشد عليه فقتله. وفي هذه المقطوعة يشكو الشاعر من عدم معرفته المهلهل عندما كان أسيرا لديه ليقتص منه لبجير حيث لم يمنعه من ذلك إلا وفاء العهد، ولكن الحارث يسلي نفسه بأنه ثأر لابنه بمكافيء شجاع يملأ العين. يقول[(٢)]

لهف نفسي على عدي ولم	أعرف عديا إذ أمكنتني اليدان
طل من طل في الحروب ولم	يطلل قتيل أباته بأبان

---

(١) شعراء النصرانية ٢٧٠.

(٢) نفسه ٢٧٦.

فارس يضـرب الكتيـبة بالسـيف　　　وتسـمـو أمـامـه العـينان

ويشكو طرفة بن العـبد من الغربة ويقول : أقـمت بمكان كثير الـشجر يعلو منطقة مثقب وهو مكان غير ملائم للإقامة فيه قاربت فيه الهلاك. أقمت في هذا المكان وكانت الريـح تلقي ثوبي على وجهي ورأسي، وأنا قاعـد قد أسندت ظهـري إلى بعيـري القوي الضامـر وهو بارك. إن جارته الـتي كان ينزل عندها آلمه جدا تصرفها، فقد كان من العـجيب أن تسأله مستنكرة فتقول له أليس لك أهل تعيش بينهم؛ فتألم الشاعر ثم دعا عليها من قلبه أن تضطر للغربة والبـعد عن الأهل والأقارب، وتنزل عند قـوم ليست منهم فيـسألوها مثلمـا سألته عن أهلهـا وقومهـا، إن هذه المرأة تعتب عليّ سيـري في البلاد وتنقلي بين الناس، ولكنهـا لا تعلم أن لي ديارا كـريمة غير دارهـا. إن العزة والمهابة والحياة لا تتحقـق للشخص إلا بين أهله وذويه، أما الذي يفني شبابه في غير قومه فليس إلا كشخص ميت، لما يلقى من الذل والهوان. إني إنسان كريم وحياتي غـالية لدى جميع الناس، فلو اعتراني مـرض ولو يسير لعادني أكرم الرجال وعقائل النساء من قومي. يقول [(١)]

ظللت بذي الأرطى فويق مـثقب　　　ببـيـئة سـوء هالكا أو كـهـالك

ترد علـيّ الريح ثوبي قـاعـدا　　　إلى صـدفى كـالحـنيـة بارك

ولا غـرو إلا جـارتي وسـؤالهـا　　　ألا هل لنا أهل سـئلت كـذلك

تعـيرني جـوب البـلاد ورحلتي　　　ألا رب دار لي سـوى حر دارك

وليس امرؤ أفنى الشباب مجاورا　　　سـوى حـيـه إلا كـآخـرها لك

ألا رب يوم لو سـقمت لعـادني　　　نسـاء كـرام من حـبي ومـالك

---

(١) ديوانه ١٠٦ .

وربما جمع أحدهم بين الشكوى وألوان أخري يقول طرفة بن العبد شاكيا وهاجيا ومعتذرا إلى عمرو بن هند حين بلغه آنه هجاه وأوعده: من الذي قطع حبل المودة والصلة أنا أم أصحابي؟ ثم يقول لست أنا بل هم الذين بدأوا بالقطيعة والابتعاد، وليس عجيبا منهم ذلك فهم لئام، واللئام دائما لا يدومون على مودة الصديق والاخلاص له فمن عادتهم القطيعة والخيانة. ثم يخاطب الملك معتذرا فيقول إني أريد أن أبين لك الحقيقة خشية أن تعاقبنا بغير حق لأنني لم أرتكب شيئا ضدك حتى يتحدث عني بأني غدرت بك أو أسأت إليك. يقول:(١)

أصرمت حبل الوصل أم صرموا	يا صاح بل صرم الحبال هم
إن اللئام كذاك خلتهم	كانوا إذا آخيتهم سئموا
إني وجدك ما هجوتك وال	أنصاب يسفح بينهن دم
ولقد هممت بذاك إذ حبست	وأمردون عبيدة الوذم
أخشى عقابك إن قدرت ولم	أغدر فيوثر بيننا الكلم

ويشكو مالك بن فهم الأزدي من ابنه سليمه متهما إياه بالعقوق والجفاء مبديا تعجبه من سوء عمله معه رغم ما قدم له من حسن الرعاية. فقد رباه صغيرا وأطعمه بيده وتعهده بنفسه، فلما كبر وشب علمه فنون الفتوة من رماية وغيرها. ولكن الابن كما اعتقد الأب قابل الاحسان بالإساءة والخير بالشر، فرماه بسهمين نافذين حادين أحدهما أصاب عينه وغار فيها والآخر نفذ إلى قلبه ومزقه، فلم يجد الوالد حرجا من أن يدعو على ولده سليمه أن يشل الله يديه يقول(٢)

(١) ديوانه ١٤٧.

(٢) شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام ٨٦.

فيا عجبا لمن ربيت طفلا ... ألقمه بأطراف البنان
جزاه الله من ولد جزاء ... سليمة إنه شرا جزاني
أعلمه الرماية كل يوم ... فلما استد ساعده رماني
أعلمه الفتوة كل وقت ... فلما طر شاربه جفاني
رمي عيني بسهم أشقذني ... حديد شفرتاه لهذمان
توخاني بقدح شك قلبي ... دقيق قد برته الراحتان
فأهوى سهمه كالبرق حتى ... أصاب به الفؤاد وما اتقاني
فلا ظفرت يداه حين يرمي ... وشلت منه حاملة البنان

وقد شكا سليمه بن مالك من وقوعه في خطأ جسيم عندما رمي والده بسهم في الظلام ظنا منه أنه عدو فأصابه في مقتل . وقد ذكروا أن مالكا أراد اختبار يقظة ابنه في أثناء الحراسة ومقدار احترازه في الظلام، وكان مالك بن فهم قد جعل على أولاده الحرس في كل ليلة على رجل منهم مع جماعة من خواصه وأبنائه من قومه الأزد. فرماه سليمه خطأ وفي الأبيات يظهر الشاعر سليمه ندمه وحسرته على ما فرط منه، حتى أنه يتمنى لو أصابه السهم القاتل بدلا من أبيه يقول [(١)]

إني رميت بغير ثائرة ... بيت المكارم من بني غنم
ما كنت فيما كنت تعلمه ... من قد أحاطت من ذوي الفهم
ولقد رميت الركب إذ عرضوا ... بين التليل فروضة النجم
فرميت حاميهم بلا علم ... أن ابن فهم مالكا أرمي
فوددت لو نفع المنى أحدا ... أني هناك أصابني سهمي

(١) السابق ٥٣.

ويبدي سبيع التيمي أسفه وشكواه لرحلة صاحبته صدوف وأثر ذلك في قلبه وجسمه وأن خيالها يعاوده في النوم، وأبدى أيضاً أن من أسباب هذه الرحلة عنف الغنى على الفقير، ثم تحدث عن إبله وحنينها وذكر مرابعها ومصايفها ومقيظها ومشتاها يقول[١]

بانت صدوف فقلبه مخطوف ... ونأت بجانبها عليك صدوف

واستودعتك من الزمانة إنها ... مما تزورك نائما وتطوف

واستبدلت غيري وفارق أهلها ... إن الغني على الفقير عنيف

أما ترى إبلي كأن صدورها ... قصب بأيدي الزامرين مجوف

فزجرتها لما آذيت بسجرها ... وقفا الحنين تجرر وصريف

فاقني حياءك إن ربك همه ... في بين حزره والشرير طفيف

فاستعجمت وتتابعت عبراتها ... إن الكريم لما ألم عروف

واعتادها لما تضايق شربها ... بلوي نوادر مربع ومصيف

ويشكو حاطب بن مالك النهشلي من الكبر والشيخوخة وما يحملان معهما من الضعف والذل والهوان. فصاحبهما ملقى في المنزل كسقط المتاع، وإذا استطاع الحراك تحرك ببطء وتثاقل وإذا مشى فمشية د بيب وئيد. فهو يعيش بين أهل البيت على هامش الحياة، منكمشا ضامرا كولد النعام الصغير، يرى الفتيان حوله في صحة وجمال ونشاط فيتحسر على حاله، ورغم ما هو عليه من سوء الحال فإن الموت قريب منه، وهو قادم لا محالة فلا خلود في هذه الدنيا الفانية، ولو خلد أحد من الناس لخلد خاله الماجد الكريم حيث لا بقاء إلا للحجارة كهبل. يقول شاكيا ويختم راثيا[٢]

---

(١) المفضلية ١١٢.

(٢) المعمرون ٣٧.

كأنك ترجو أن تعـيش ابن مالك | كعيش هبل لقد سفهت على عمد
ومـاذا تـرجي من حـيـاة ذليلة | تعـمـرهـا بين الغطارفـة المرد
وأنت لقى في البيت كالرأل مدنف | وقد كنت سباقـا إلى غاية المجد
وللموت خير لامـريء من حياته | يدب دبيـبـا في المحلة كـالقـرد
فلو أن شـيـئـا نال خلـدا لناله | حليف الندى عمرو سليل أبي الجعد
فـتى كان سـبـاقا إلى كل غـاية | يبـادر فتـيان العـشيـرة للحمـد

يقول د عبـد العزيز شحادة: حـينما تعز ساعات الـصفو من بين يدي الشاعـر، وقد أحس بهذا الانقلاب، ولا نراه يتـحدث عن الزمن الرخي إلا في مجال التـذكر، وهذا يعني أنه لا ينتبه إلى الزمـن إلا حين يدرك أن تغيرا طرأ على حياته، ويكون هذا التغير الذي يشعر به نحو الأسوأ، فالتغيير سمة أساسية من سمات الزمن كما رآه الجاهلي، يقول عمرو بن قمئه

فـزعت تكتم وقـالت عـجيبـا | أن رأتني تغـيـر اليـوم حـالي
يا ابنـة الخـيـر إنما نـحن رهن | لصـروف الأيام بعـد الليـالي
جلح الدهر وانتحى لي وقـد ما | كـان ينحي القـوى على أمثـالي
أقـصـدتني سـهـامـه إذ رمـتني | وتولت عـنه سليـمـي نبـالي

فالفزع ظهر على وجه تكتم حينما رأت الشاعـر متغير الحال ، والتغير مصدر هذا الفزع كـما يظهر في الأبيات، وسر التغـير هو الزمان الذي يكون الجميع تحت سطوته وتصرفه، وغيـر خاف ما في هذه الأبيات من الاحساس الشـديد بالزمن قوة مـغيـرة، فالـفعـلان « فزعت وجلح» يدلان على حـدة التغيير(١)

---

(١) الزمن في الشعر الجاهلي ٦١ .

وقد يجمع شاعر الخليج الجاهلي بين الشكوى الشخصية والقبلية، ويشكو عمرو بن قمئة من أحد أقربائه الذين لا يعاملونه كما يعاملهم ولا يقفون منه موقفه منهم، فهو ينصر هذا القريب بكل قوته على الرغم من بعد مكانه ويتحمل من المتاعب الشيء الكثير من أجله، على حين لا يجد منه نصرا يذكر ولا تعاونا كافيا، فهو لا يشتد على القرن إلا حين يرى الشاعر مقبلا نحوه فإذا ابتعد عنه لا يحرك ساكنا، وأخيرا يشكو الشاعر من قومه لتخليهم عنه وقت الحاجة وتسليمه لأعدائه ينتقمون منه، ولولا هروبه منهم لنالوا وترهم منه. وقوم الانسان كما يرى الشاكي من واجبهم حمايته ونصرته مهما ارتكب من الجرائر مع الآخرين يقول عمرو بن قمئه [١]

ومولى ضعيف النصر ناء محله ... جشمت له ما ليس مني جاشمه

إذا ما رآني مقبلا شد صوته ... على القرن واعلو لي على من يخاصمه

على أن قومي أسلموني وعرتي ... وقوم الفتى أظفاره ودعائمه

ويشكو الأسود بن يعفر من الأرق الذي لازمه طوال الليالي، لا من مرض نزل به بل من الحزن الذي أضناه وأصاب قلبه، فقد سدت عليه الأرض للضعف والكبر وفقد البصر، فلم يعد قادرا على الحركة والتنقل بين المنازل والديار كما كان أيام الشباب، لكن قومه من بني مالك بن حنظله الدارميين فيهم الأسوة والقدوة والخير والصلاح والاصلاح. ثم يشير الشاعر إلى ما حل بقومه من ال زيد فقد كان المنذر بن ماء السماء خطب امرأة تدعى أم كهف من بني زيد بن مالك بن حنظله، فأبوا أن يزوجوه إياها فغزاهم وأجلاهم من بلادهم وقتلهم. وقد كانوا قبل ذلك في عز وسعة وكرم فائق.

(١) ديوانه ٤٦.

ثم يحاول الأسـود تعزية نفسه وهو في هـذه المرحلة من الشيخوخـة، حيث ذهب شبابه ونقص من بصره وتضعضعت شخصيته يسلي نفسه بتذكر أيام الفتوة والشباب يوم كان يقضي في الحانة ساعات اللهو وهو في أبهى صورة، مرجل الشعر لين الشباب كثير البذل ينفق بلا حساب يقول[١]

نام الخلي وما أحس رقادي	والهم محتضر لديّ وسادي
من غير ما سقم ولكن شفني	هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبالك - أنني	ضربت عليّ الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لموضع تلعة	بين العراق وبين أرض مراد
في آل غرف لو بقيت لي الأسى	لوجدت فيهم أسوة العداد
ما بعد زيد في فتاة فرقوا	قتلا ونفيا بعد حسن تاد
فتخيروا الأرض الفضاء لعزهم	ويزيد رافدهم على الرفاد
إما تريني قد بليت وغاضني	ما نيل من بصري ومن أجلادي
وعصيت أصحاب الصبابة والصبا	وأطعت عاذلتي وذل قيادي
فلقد أروح على التجار مرجلا	مذلا بمالي لينا أجلادي

ويشكو الحارث بن حلزة من الدهر، وما أثقله به من مصائب عظمي تهد الجبال، وأكبرها في نظر الشاعر فرسان قومه الذين فقدهم . ويطلب الحارث من صاحبته أن تكشف قناعها حزنا على أبناء معد الذين أفناهم الدهر، كما يتمنى الشاعر أن يجد الحكم العدل الذي يأخذ له بحقه من هذا الزمان الغادر الجائر، فبعد أن أصابه في أعز الناس وحرمه منهم حرمه من المال والنعيم، على حين أعطى الجهلة والأغنياء الكثير من المال والولد، حتى

---

(١) شعراء النصرانية ٤٧٩ .

يئس أهل الذكـاء والفطنة المحرومـين من حالهم، وصـاروا يفضلون الحـمق والغفلة مع الثراء والنعمة على العقل والحكمة مع الفقر والبؤس يقول[١]

ولـو أن مـــــا يـأوي إلـيّ	أصــحــاب من ثـهــلان فندا
أو رأس رهـــــــوه أو رؤو	س شـــمـــارخ لهـــددن هدا
خـيـلي وفـارســهـا ورب	أبيـك كـان أعـــز فـقـــدا
فـــضــعـي قناعـك إن ريب	الدهـر قــد أفنى مــعـــدا
مـن حــــاكـم بيـني وبيـ	ن الدهر مـال عـليّ عـمــدا
ولقـــد رأيت مـــعـــاشــراً	قــد جــمـعّـوا مــالا وولدا
وهـم زبـاب حــــائـر	لا يســـمـع الأذان رعـــدا
فــانـعم بجـــد لا يـضـــر	ك النـوك مـا أعـطيت جـــدا

ب- الشكوى القبلية:

وإلى جانب الشكوى الشخصية، والتي امتزجت بالقبلية، هناك شكوى قبلية بحتة، فمنها شكوى الحارث بن حلزة من الدهر ومـصائبه التي بددت سعادته، عندمـا كانت قبيلته تنعم بالألفـة والأمن فإذا بالفتن والحروب تمزق الأواصر بين الأبناء والعشائر وتخرب الحروب بيوت الجميع. يقول[٢].

قــذفـتك الأيام بالحـــدث الأك	بر منهـا وشـاب رأس الصـغيـر
وتفـــاني بنـو أبيك فـــأصـــبح	ت عـقيـرا للدهر أو كـالعـقيـر
ليس من حـادث الزمـان إذا حل	على أهل غـــبطة من مـجـــير

ويشكو أوس بن حجر مما حل بقومـه من هزائم وبرجال قومه من أسر

(١) شعراء النصرانية ٤١٧ وديوانه ٤٥.

(٢) ديوانه ٧٠.

وقتل، في يوم زباله الذي كان بين تميم وبكر وأسر فيه الأقرعان المجاشعيان، ويوم تياس الذي اقتتل فيه بنو عمرو بن تميم وبنو سعد بن زيد مناه بن تميم، كما ذكر قتلى القريتين. ثم يقسم الشاعر برب الكعبة على إخلاصه للعشيرة وتفانيه في خدمتها وإصلاحه لكل خلل فيها، ثم يخاطب أوس - على ما أظن - بني أسد فيتهكم من تباكيهم على الصلح الموثق بينهم وبين تميم، في الوقت الذي يعدون فيه مقنبهم أي رجالهم وخيلهم للغارة عليهم، في الرمث وهو ماء لهم، ويشكو أوس من هذا التصرف الذي لا يبعث على الإطمئنان بل على الشك والتوجس، ويمضي في شكواه وتعجبه من مواربتهم وازدواجيتهم، فهم حين ينهزمون يعتدون بقبيلة الشاعر، وحين ينتصرون ينسون أو يتناسون هذه العلاقة يقول [1]

وصبحنا عار طويل بناؤه ... نسب به ما لاح في الأرض كوكب

فلم أر يوما كان أكثر باكيا ... ووجها ترى فيه الكآبة تجنب

أصابوا البروك وابن حابس عنوة ... فظل لهم بالقاع يوم عصبصب

وإن أبا الصهباء في حومة الوغى ... إذا ازورت الأبطال ليث محرب

ومثل ابن غنم إن ذحول تذكرت ... وقتلي تياس عن صلاح تعرب

وقتلي بجنب القريتين كأنها ... نسور سقاها بالدماء مقشب

حلفت برب الداميات نحورها ... وما ضم أجماد اللبين وكبكب

أقول بما صبت عليّ غمامتي ... وجهدي في حبل العشيرة أحطب

أقول فأما المنكرات فأتقي ... وأما الشذا عني الملم فأشذب

بكيتم على الصلح الدماج ومنكم ... بذي الرمث من وادي تبالة مقنب

فأحللتم الشرب الذي كان آمنا ... محلا وخيما عوذه لا تحلب

---

(١) ديوانه ٦.

إذا مـا علوا قـالوا أبونـا وأمنا — وليـس لهم عـالين أم ولا أب
فـتـحـدركم عـبس إلينا عـامـر — وترفـعنا بكـر إليكم وتـغلب

ويشكو يزيد بن الخـذاق الشني من مـصائـب الدهر ونوازله التي نزلت بالصالحين من عرب الخليج العربي، فبدت الحـياة في عينيه صورا بشعة منكرة فيها صـورة الجمل المجبوب السنام، وصورة الفرس المنـتوف العرف، وصورة الرجل الملتـوي العنق المصلوم الأنف والأذنـين، وكل هذه الصور تـعبـر عن تهجم الحيـاة في عيني الشاعر واتشـاحها ثوبا أسودا مـغبرا. فهـو يرى أحياء العرب ومنهم كعب ودارم من تميم قد حل بهم ما حل من النكال والفاقة، في الوقت الذي يجد فيه الجـاليات غير العربية بالخليج تتـقدم وتحصل على الثروة والجاه لا عن كفاءة وذكاء واستحقاق بل عن خيانة من الدهر وعزوف يقول(١)

ولما رأيت الدهر وعـرا سـبيله — وأبدى لنا ظهـرا أجب مـسلعـا
ومعـرفة حـصاء غـير مـفاضـة — عليـه ولونا بالعـثـانين أجـدعـا
وجـبهـة قرد كـالشـراك ضئـيلة — وصـعر خـديه وأنفـا مـجدعـا
هناك ذكرت الصـالحين أولى النهى — وقلت لعمـرو وا لحسـام ألا دعا
فـإني أرى الحيين كـعـبا ودارمـا — أصابـهم دهر وإن كان مـفجـعا
أري كل مـأفـون وكـل حـزنبل — وترعـيـة شـهـدارة قـد تضلعـا
وسامى المعـالي يبتـغيـها لنفسه — فـيـالك دهـرا لا يزال مـروعـا

ومن الشكوى القبلية قول أبي دؤاد الأيادي

أوحشت من سروب قـومي تعار — فـأروم فـشـابة فـالسـتـار

(١) ديوان عبد القيس ٥٠.

بعد ما كان سرب قومي حينا لهم النخل كلها والبحار
ربما الجامل المؤبل فيهم وعناجيح بينهن المهار
ورجال من الأقارب بانوا من حذاق هم الرؤوس الخيار
وجواد جم الندى وضروب برقاق الظبات فيه صعار

يقول د نصرت عبد الرحمن : فالزمن قد ارتبط بالعمل، والماضي عند أبي داود ليس ماضيا مجردا بل معاشا فيه، ماضي انسان له نخيل يتعهده بالتربية والنماء، ويرقبه منذ أن غرسه فسيلا، حتى اكتمل وأينعت ثماره، وماضي إنسان له سفن يركب بها عرض البحر فيضرب البحر بمجدافيه، وتهب عليه الرياح رخاء وغير رخاء، وماضي انسان له إبل تجوب فجاج البيداء وتقطع فلواتها، وله خيول يصطاد بها ويغير عليها، وفي الزراعة - النخيل - والتجارة - السفن والابل - والصيد والغارة - الخيول - جهد إنساني يصرف ودم يتفصد وعرق يتصبب.(١)

٢- الرثاء

هو بكاء الميت وتعداد فضائله، وإظهار اللوعة والأسى على فراقه، والحث على الأخذ بثأره وتذكير الأعداء بما صنعه الميت بهم.

وقد جاء أكثر رثائهم تأبينا وبعضه تأمليا وكان أقله ندبا. ولعل سبب قلة الأخير تحليهم بالصبر والجلد ورغبتهم في الظهور بمظهر القوة أمام أعدائهم، حتى لا تضيع هيبتهم ويذهب ريحهم. يقول اسماعيل العالم: والرثاء في شعر البحرين قليل ومرد ذلك في رأينا إلى الاتصاف بالجلد وكره

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ١٦١، ١٦٢.

إظهار الجزع والحزن على القتيل؛ لأن القتيل مات في ساحة الحرب دفاعا عن قبيلته وعن عرضه وحماه، كما أن قلة شعر الرثاء يعود إلى عدم انشغال القبيلة برثاء قتلاها، وإنما كانت تشغل نفسها بالأخذ بالثأر لهم، وحرص القبيلة على ألا تبدو ضعيفة أمام قبائل المجتمع القبلي كان يمنعها من ذكر قتلاها، كما أن نظرية ضياع الشعر ينطبق على شعر الرثاء.[١] وإذا طبقنا مجمل هذا القول على رثاء الخليج الجاهلي فإنا نقصره على اللون الندبي منه لأنه الجانب الذي يبدو فيه الضعف والجزع، أما الجانبان الآخران فأحدهما يسجل الشاعر فيه آراءه وتأملاته في الحياة وأخذ العظات والعبر من الموت والموتى، وهو جانب أقرب لفلسفته البسيطة القائمة على التجربة والتأمل والنظرات الشخصية.

وحيث أن التأبين وهو اللون الغالب في رثائهم يدون المآثر والفضائل ويقوم على مديح الميت والثناء عليه، فإن أكثر هذا الاتجاه من الرثاء ذهب في رثاء رجال القبيلة بين الأهل والقرابة والقوم. وأقله ذهب في رثاء الشعراء لرجال من غير قبائلهم وفاء لعلاقة شخصية ربطتهم بهم. أما رثاء النفس فهو قليل بل نادر في الشعر العربي، وقد جاء شيء يسير منه في الشعر الخليجي الجاهلي. وأظهر ما يميز الرثاء صدق العاطفة وحرارتها مما جعله أكثر تأثيرا في النفس وعلوقا بالوجدان .

أ- رثاء الأقارب

توزعت مرثيات القرابة عند شعراء الخليج الجاهليين بين رثاء الزوجة لزوجها والأخت لأخيها والأم لابنها والبنت لأبيها وابن العم لابن عمه والعم لابن أخيه.

---

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٠٤.

وقد شكل الرثاء الشخصي غالب هذا اللون من شعر القرابة، أما الرثاء القبلي الذي يتناول فيه الشاعر أو الشاعرة فرسان القبيلة وجماعة القوم فقد وجد قليل منه في شعرهم.

فهذه الخرنق بنت هفان ترثي زوجها بشر بن مرثد فتقسم أنها لن تحزن على أحد بعده وبعد من قتل معه من أبنائها وقومها الذين صرعوا حوله فصاروا كالجذوع التي مالت بالاحتراق. ثم تشير إلى قاتل بشر وهو (عميله الوالبي) وإلى مكان قتله وهو عند قلاب، وتتحسر عليه وعلى من معه ممن مزقتهم هذه الحرب، وتوميء إلى مكانتهم عند الملوك فقد كان زوجها نديما لهم يشاركهم صفوة الخمر، ولكن بني أسد قطعوا هذه الأنوف الشم واستأصلوها فلم تعد الشاعرة تقدر على ابتلاع ريقها من الحسرة والألم، ولم يبق البكاء في عيون النساء شيئا من الكحل، لكثرة الدموع حزنا على بشر وأصحابه. تقول[١]

ألا أقسمت آسي بعد بشر	على حي يموت ولا صديق
وبعد الخير علقمة بن بشر	إذا نزت النفوس إلى الحلوق
وبعد بني ضبيعة حول بشر	كما مال الجذوع من الحريق
مني لهم بوالبة المنايا	بجنب قلاب للحين المسوق
فكم بقلاب من أوصال خرق	أخي ثقة وجمجمة فليق
ندامي للملوك إذا لقوهم	حبوا وسقوا بكأسهم الرحيق
هم جدعوا الأنوف وأوعبوها	فما ينساغ لي من بعد ريقي
وبيض قد قعدن وكل كحل	بأعينهن أصبح لا يليق
أضاع قدورن مصاب بشر	وطعنة فاتك فمتى تفيق؟

(١) شعراء النصرانية ٣٢٤.

وترثي الخرنق زوجها بشر رثاء تأبينيا فتتحدث عن بعض جوانب فتوته حيث كان يقوم بين الحين والحين برحلات الصيد إلى الكلأ البعيد العازب الكثير النبات والخضرة المشبعة بماء المطر الغزير المصحوب بالرعد المزمجر، مصطحبا فرسه القصير الشعر النشط القوي القوائم السريع، حتى أنه من سرعته يركب وحش الصيد ويمكنه من التقاط بيض النعام بجانب العشب. ثم تتحدث عن كرمه وتعجيله بنحر الابل العظام السنام كما يفعل الملوك، يقدمها بخاصة للفقراء والمحتاجين عندما تشح الأرزاق في زمن الشتاء والجدب، وقد غاب عن أصحابه بعد أن أغناهم وقدم لهم كل ما يسعدهم، فكان فقده خسارة على الجميع. تقول (١)

يا رب غيث قد قرى عازب ... أجش أحوى في جمادى مطير
سار به أجرد ذو ميعة ... عبلا شواه غير كاب عثور
فألبس الوحش بحافاته ... والتقط البيض بجنب السدير
ذاك وقدما يعجل البازل ... الكوماء بالموت كشبه الحصير
يبغي عليها القوم إن أرملوا ... وساء ظن الألمعي القرور
غاب وقد غنم أصحابه ... يلوي على أصحابه بالبشير

أما رثاء الشعراء لزوجاتهم في الجاهلية فلا نكاد نجد له أثرا إلا نادرا، وفي مراثي النساء نقرأ قول العوام بن كعب المازني في امرأته.

فقلت لقلبي لاتبك فإنه ... كذاك الليالي طولها وقصيرها
فإني لباك ما بقيت وإنه ... لأسوأ عبرات الرجال كثيرها

---

(١) السابق ٣٢٦.

فنحس بإبائه من البكاء وزجره لقلبه عن ذلك، رغم إقراره بأن ذلك أسوأ عبرات الرجال، وهل من دليل أوضح من قول هذا الرجل رغم كونه في معرض حزن ورثاء[١]

ورثت أم بسطام الشيباني ابنها عندما قتلته بنو ضبه في يوم الشقيقة رثاء تأبينيا، فعبرت عن فجيعتها بفقده حين طلبت من قبيلة المرثي كلها أن تبكيه، لأنها فقدت أحسن رجالها خلقا وأجملهم أخلاقا فقد كان فيهم كالهلال وسط النجوم، ثم تبدي إعجابها بفروسيته في جانبيها الشجاعة والكرم، ففي الأول هو رجل الحرب يجيد الكر والفر يصول ويجول كالأسد الكاسر المهاب، وفي الثاني هو ملجأ المضطر يحمل حمالات الغارمين ويؤمن خوف الخائفين ويفك الأسرى والعانين وينفق على الأرامل والمحتاجين، فهو الفارس والشجاع والبطل؛ هو الفارس حين يشد إذا شدوا وهو الشجاع حين يدعوا إلى البراز أو يجيب داعيه وهو البطل حين يحمي ظهور القوم إذا ولوا، وقد فجعت تميم بنكايته وغاراته الظافرة ، ولكنها ظفرت بعثرته في يوم نقا الحسن وقتله على يد عاصم الضبي، وهي عثرة لا تقال ولهذا فقد خسرته شيبان ويشكر وقبائل بكر، كما فقدته طيور الصيد حين يمسكها أو يطلقها وراء الطرائد: تقول[٢]

لتبك ابن ذي الجدين بكر بن وائل	فقد بان منها زينها وجمالها
إذا ما غدا فيهم غدوا وكأنهم	نجوم سماء بينهن هلالها
فلله عينا من راي مثله فتى	إذا الخيل يوم الروع هب نزالها
عزيز المكر لا يهد جناحه	وليث إذا الفتيان زلت نعالها
وحمال أثقال وعائذ محجر	تحل لديه كل ذاك رحالها

(١) بشرى الخطيب: الرثاء في الجاهلية وصدر الإسلام ١٧٨ .

(٢) نساء شاعرات ٢٤ .

سيبكيك أسرى طالما قد فككتهم ... وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مفرج حومات الخطوب ومدرك ... الحروب إذا صالت وعز صيالها
تغشى بها حينا كذاك ففجعت ... تميم به أرماحها ونبالها
فقد ظفرت منا تميم بعثرة ... وتلك لعمري عثرة لاتقالها
أصيبت به شيبان والحي يشكر ... وطيريري إرسالها وحبالها

وترثى أم السليك بن السلكه ابنها السليك رثاء يقوم على الندب والبكاء فتقول: إنه خرج طائفا يطلب نجاة من الفقر فمات، ولم أعلم سبب موته فأنا لذلك في ضلال وحيرة، وتتساءل أصدك المرض عن العود إلينا، أم عرض لك عدو فقتلك، أم أصابك من الحوادث ما خطفك خطفة الحجل. وتحاول التماسك فتقول إن المنايا للفتى بالمرصاد أينما ذهب وإذا دنا الأجل فكل شيء يقتل، وكثيرا ما نلت مقصدك من غير تعب، وإن الذي منعك عن جوابي أمر عظيم، وأتمنى أن يملك قلبي الصبر عنك ساعة أو أن نفسي هي الهالكة دونك تقول[(١)]

طاف يبغي نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة ... أي شيء قتلك
أمريض لم تعد ... أم عدو ختلك
أم تولى بك ما ... غال في الدهر السلك
والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك
كل شيء قاتل ... حين تلقى أجلك

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٣٨٦.

طال مـــا قـــد نلت في غـــيـــر كـــد أملك
إن أمـــرا فـــادحـــاً عن جـــوابي شـــغلك
لـيت قـلبـي ســـاعـــة صـــبـــره عنك ملك
ليـت نفـــسي قـــدمت لـــلـــمـــنـــايـــا بـــدلـــك

وترثي دختنوس بنت لقيط بن زراره الدارمي أباها رثاء تأبينيا فتراه خير مضر كلها كبيرها وصغيرها، كما تراه أنبلها نسبا وأكثرها شجاعة وكرما ومكانة وبيانا، يتولى رعاية القبيلة ويحوطها بعنايته ويدافع عن أحسابها ومكتسباتها، ومن أجلها يخاطر بنفسه ويتعقب آثار العدو في مسالك لم يتعود أن يجري فيها، فهو يفعل كما تفعل الأسود الواثقة من نفسها يقدم غير هياب ويقتحم المهالك بلا وجل، فهو لقبيلته كالكوكب الدري يضيء لها المسالك المظلمة ويهديها سواء السبيل. ثم تشير إلى قاتله شريح بن الأحوص ناعتة إياه بالسيد كما تشير إلى هروب قبيلة هوازن أيضا واصفة إياها بالجبن. وهم بفرارهم فقدوا شرفهم ولم يجتمعوا بلقيط على العدو بل تركوه يقاتل وحده. تقول[(١)]

بكر النعي بخير خندف كهلهـا وشـبابها
وبخيرها نسـبا إذا عـدت إلى أنسـابها
وأضـرهـا لعدوهـا وأفكهـا لرقابهـا
وفريعها ونجيبهـا في المطبقـات ونابهـا
ورئيسها عند الملوك وزين يوم خطابهـا
فرع عمـود للعشيرة رافعـا لنصابهـا

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٦٢.

فيعولها ويحوطها ويذب عن أحسـابهـا

ويطا مواطيء للعدو وكان لا يمشي بهـا

فعل المـدل من الأسـود لحينها وتبابهـا

كالكوكب الدري في الظلماء لا يخفى بها

عبث الأغربـه وكـل منيـة لكتابهـا

فرت بنو أسد فـرار الطـير عن أربابهـا

وهوازن أصحـابهم كالفـأر في أذنابهـا

لم يحفظوا نسبا ولم يأووا لفيء عقابهـا

وترثي (دختنوس) أباها لقيط وقد ضربه بنو عبس بعد قتله في يوم شعب جبله، فتدعو بالويل والهلاك والثبورعلى بني عبس، وتندبه متحسرة وباكية على فقده، وتمزج رثاءها بالهجاء والتهديد بعد أن تؤبنه، بقولها إن الصخور التي تغطي جسمه في قبره لا تكاد تضمه لعلو شأنه، ثم تقول لبني عبس لو لقيتم لقيطا بالأسنة والرماح لرأيتم بأسه وفررتم من وجهه وقد غلبتموه بالغدر، ولكنكم فررتم قبل ذلك من وجهه كالنعام متى أحس بالصيادين، وهم قد أوقدوا له نارا ليقتنصوه، وليس لكم الفخر يا بني عبس فإنما قاتله والمطلوب بدمه هو شريح بن الأحوص العامري، سواء قتل لقيط بالأسنة في ساحة الحرب أو حمل وبه طعنات فمات بعد ذلك، ثم تتوعد قتلته فتقول إذا دارت الأيام فأمكنتنا من شريح وقومه فسترونا نسعر نار حرب لا تطفأ إذا ما علا ضرامها وانتشر سعيرها، وسوف نقتل منكم أضعاف ما قتلم منا، ولا نجد منكم يا مالك أحدا يساوي بالقدر والشأن الخمسة الذين قتلوا منا فنقتلهم بهم، وقد سرنا أن القتلى لم يقتلهم أحد من بني عبس ولو

كان ذلك لحل بنا عـار لا يمحى. وإنا رأينا بني كعب وبنـي كلاب يبلون في الحرب البلاء الحسن، ولكنا لما طلبناكم لم نجدكم هناك. تقول[1]

ألا يا لها الويلات ويلة من بكى   لضرب بني عـبس لقيطا وقـد قضى
لقـد ضربوا وجـها عليـه مهـابة   ولا تحفل الصم الجنادل من ثوى
فلو أنكـم كنتم غــداة لقيــتم   لقــيطا ضــربتم بالأسنـة والقنا
غـدرتم ولكن كنتم مثل خـضب   أضاءت لها القناص من جانب الشرا
فــمـا ثأره فــيكم ولـكن ثأره   شــــريح أأردته الأسنـة أم هوى
فإن تعـقب الأيام من فارس تكن   عليكم حـريقـا لا يرام إذا سمـا
لنجـزيكم بالقتل قـتلا مـضعـفا   وما في دماء الخمس يا مال من بوا
ولو قـتلتنا غـالب كـان قـتلهـا   علينا مـن العـار المجـدع للعـلا
لقد صبرت للموت كعب وحافظت   كـلاب ومـا أنـتم هناك لمن رأى

وترثى ابنة أبي الجدعـاء التميـمية أباها بعـد ما قتل في يوم مـبايض، فتجمع بين معاني الفروسـية في رثائها له وأبرزها الكرم والشجاعة، فنجدها تدعو الذين كانوا يعـتمدون عليه في معـيشتهم من ضيـوف وعيال وأرامل، نراها تدعـوهم للبكاء عليـه لأنهم فقـدوا الراعي والمعـيل، ثم تتحـدث عن فروسيته وشجاعته وبطولته فـتشير إلى ثباته في مواجهة الموت مع قدرته على النجاة بفرسه السـريعة، ولكنه آثر الصمود حماية للعرض ودفـعا للعار، وقد كان البطل الوحيد في هذه المعركة، فلم يشهدها الكثير من فرسان قومه، أما من كان معـه من عشيرته فلم يكونـوا رجالا، بل كانوا أشبه بالبـعران المسنة والقرود القبيحة الذين آثروا الفرار على المواجهة، فكان فقد أبيها فجيعة كبرى

(١) أيام العرب في الجاهلية ٣٦١.

لها وخسارة عظمى للقبيلة فهو حامي الذمار والمدافع عن الأهل والجار. تقول[١]

ليبك أبا الجدعاء ضيف معيل وأرملة تغشي النّدي فترمل

ولو شاء نجاه من الخيل سابح جموح على الساقين والسوط مفضل

ولكن فتى يحمي ذمار أبيكم فأدركه من رهبة العار محفل

دعا دعوة إذ جاءه ثم مالكا ولم يك عبد الله ثم ونهشل

وغابت بنو ميشاء عنه ولم يكن نعيم بن شيطان هناك وجرول

ولكن دعا أشباه نيب كأنهم قرود على خيل تخب وتركل

لقد فجعت شيبان قومي بفارس محام على عوراتهم ليس ينكل

وجدتم بني شيبان مرا لقاءهم وكانت بنو شيبان ذلك تفعل

وترثي أخت سعد بن قرط العبدي أخاها رثاء تأبينيا يقوم على التنويه والإشادة، فقد بني أخوها على القوة منذ نشأته الأولى حيث تضلع من لبن أمه حتى ارتوي وشبع، فغدا متينا قويا يقود الخيل بقدرة وقوة إلى المعارك التي يقتحمها بفرسانه المدججين بالسلاح والمتدرعين بالدروع الملساء اللينة، فهو في حربه شجاع وفي سلمه كريم، لا تشقى بسيفه إلا الإبل الضخام الطويلة القوائم المسندة السنام، فنار قراه الكثيرة الحطب الدائمة الاتقاد تفوح بدسم اللحوم السمينة التي يتم طبخها وشيها. وتنهي الشاعرة مرثيتها بالدعاء لقبر أخيها أن يجعل منه المطر الغزير روضة غناء، يؤمها الناس يتفأون بها ويدعون للمرثى بالخير والسعادة تقول[٢]

(١) الأنوار ٥٣.

(٢) أشعار النساء ٩٣.

يا سعد يا خير أخ نازعت در الحلمه
يا ذائد الخيل ومجتاب الدلاص الدرمه
سيفك لا يشقى به إلا السناد السنمة
يا سعدكم أوقدت للأ ضياف نارا زهمه
جاد على قبرك غي ث من سماء رزمه
ينب نورا أرجا جرجاره واليـنمه

وفي يوم الكثيب قتل رئيس مراد حيث كان وقبيلته ينزلون في هجر، فغزاهم ثعلبة العدوى التغلبي وقتل قائدهم ورئيسهم عمرو بن بشر. فقالت أخته ترثيه متلهفة على فقده حزينة لقتله، مؤبنة إياه بأنه كان مؤوي الأضياف ومعين المحتاجين ومغيث الناس في الأيام العصيبة والسنوات العجاف، مشبهة ما لقيته قبيلتها مراد على يد بني عدي التغلبيين بما حصل لعاد من فناء ودمار. تقول[1]

ألا يا لهف نفسي بعد عمرو ومصرعه بمعترك الصعاد
مناخ الضيف قد علمت مراد وغيث الناس في اللزب الشداد
لقد لقيت مراد من عدي كما لقيت قبائل آل عاد

أما رثاء الأخ لإخوته فلعله الأكثر بين مراثي الأقارب، ويرثي ثعلبه بن عمرو العبدي أخاه، فيصفه بزعامة القبيلة القائم بمهاتها الجسيمة القادر على تحمل الشدائد العظام، ثم يظهر الشاعر أسفه على عدم تمكنه من الثأر من قاتل أخيه وقتله في يوم فارعة المنقى، رغم ما بذله من جلاد وما تعرض له من أخطار، فلو أدرك الشاعر ثأره لنام نوما هانئا. يقول[2]

(١) الأنوار ١٠٧.

(٢) ديوان عبد القيس ٧٥.

فكان أخي زعيم بني حيي وكل قبيلة لهم زعيم
كأني يوم فارعة المنقي على أني كظمت لها أميم
هجمت بحد سيفي ثم جاشت إليّ النفس وابتهشت رعوم
ألوم النائبات من الليالي وما تدري الليالي من ألوم
بلى إن المنية لو أصيبت بمقتله هي الثأر المنيم

ويرثي توبة بن مضرس العبدي إخوته فيجمع في رثائه لهم بين التأبين والندب، فقد كانوا كماة كرماء إلا أن الموت أقام عندهم وحصدهم، وكأنما كان عليه نذر أن يقضي عليهم ويبدد شملهم. وقد بدأ الشاعر مرثيته بذكر موقف زوجتيه من مصيبته أما الأولى فلم تكترث من مصابه، وأما الأخرى فقد شاطرته الحزن مشاطرة العارف المحزون. يقول (١)

وسائلة عن توبة بن مضرس وهان عليها ما أصاب به الدهر
وسائلة أخرى حفي سؤالها إذا ذكرته فاض من دمعها غزر
رأت إخوتي بعد ائتلاف تفرقوا فلم يبق إلا واحد منهم شفر
فلا وأبيك الخير ما كان إخوتي معازيل أبراما إذا جارد القطر
أرب بهم ريب المنون كأنما على الدهر فيهم أن يفرقهم نذر

ويشكو مسعود بن سلامه العبدي من الكبر والوحدة، بعد أن مات جميع أشقائه وأصدقائه وبقي وحيدا ينتظر الموت ليجن في القبر يقول(٢)

أقلي عليّ اللوم إني صائر إلى جدث تسفي عليه الأعاصر
ألم تعلمي أن قد تفرق إخوتي جميعا وإخواني الذين أعاشر

(١) المصدر السابق ٩٨.

(٢) نفسه ١٠٠.

وأفردت سهما في الكنانة واحدا سيرمى به أو يكسر السهم كاسر
إذا سار من خلف الفتى وأمامه وأوحش من حداثه فهو سائر

وأما عن مراثي الآباء أو الأعمام فمنها هذه القصيدة التي يرثي فيها الحارث بن عباد البكري ابنه بجير وقيل ابن أخيه، وهو رثاء يجمع بين الندب والحماسة مستهلا مرثيته بحكمة مناسبة لموضوع الرثاء وهي أن كل مخلوق محكوم عليه بالفناء والبقاء لله وحده وللعمل الصالح الذي هو ذكرى باقية لصاحبها وهي عمر ثان له لا ينتهي، والناس وهم ينظرون إلى هذا الفناءالماثل أمامهم لا يملكون رده ولا الخلاص منه. ثم يطلب الشاعر من أم بجير أن تبكيه فلم يعد يشغل الرجال شيئا سوى الأخذ بثأره، ويتلهف الحارث على فقده وعدم مشاركته في هذه الحرب العضال، حيث الكر والفر والصراع والصدام، وهنا تخرج النساء من خدورهن في أبهى صورهن داعيات يالبكر لتحميس القوم على المضي في الحرب حتى النصر. ويعد الحارث بجبر بعدم الصلح حتى تقر العيون بسفك دماء المعتدين، مشيرا إلى إعتزاله حرب البسوس قبل قتل بجير ظلما وعدوانا، عندما أرسله الحارث إلى المهلهل التغلبي للصلح، فقتله قائلا له بوء يشبع نعل كليب. فغضب الحارث ودعا بفرسه، وكانت تسمى النعامة فجز ناصيتها ونتف ذنبها، وأنشأ هذه القصيدة التي كرر فيها اسم فرسه على سبيل التحميس. ولم تخل القصيدة من التأبين لبجير فهو في نظر الحارث لا مثيل له، وهو كذلك مفكك الأغلال وعاتق الرقاب وهو المفتدى بالعم الخال. يقول [1]

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال
وترى الناس ينظرون جميعا ليس فيهم لذاك بعض احتيال

---

(١) شعراء النصرانية ٢٧٢.

قل لأم الأغـــر تبكي بـجـيــرا　　حــيل بين الرجــال والأمـــوال
ولعـــمــــري لأبكين بجــيـــرا　　مــا أتى الماء من رؤوس الجــبـال
لهف نفـسي على بجـير إذا مـا　　جالت الخـيل يوم حرب عـضال
وتسـاقي الكمـاة سـمـا نقيـعـا　　وبدا البـيض من قبـاب الحجـال
وسـعت كل حرة الـوجه تدعـو　　يالبـكر غـــراء كـالـتـمــثـــال
يا بجيـر الخيـرات لا صلح حتى　　نملأ البـيـــد من رؤوس الرجـال
وتقـــر العـــيــــون بعـد بـكاها　　حين تسقي الدمـا صدور العوالي
قـد تجنبت وائـلا كي يفـيـقـوا　　فـــأبت تغلب علـيّ اعـتـــزالي
وأشـــابوا ذؤابتـي ببـــجـــيـــر　　قـتـلوه ظلمـا بغـــيـر قـــتـال
قـــــتلوه بـشـــسـع نعل كلـيب　　إن قـتل الكريم بـالشـسع غـال
يا بني تـغلب قـتلـتم قـتـيـلا　　مـا سـمـعنا بمثله في الخـوالي
قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني　　لقحـت حرب وائل عن حـيالي
قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني　　ليس قـــولي يراد لكن فـــعـــالي
قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني　　جـــد نوح النســـاء بالأعـــوال

ويرثي هناءه بن مالك الأزدي والـده مالك بن فهم بهـذا الرثاء التأبيني الذي يقوم على الاشادة والتنويه بالمرثي، فـيرى أن أباه نال غاية الشرف وهي غاية لم يبلغـها سواه. ومع ذلك فقـد مات فكان موته جـائحة عظمى لملك الأمـلاك وسيـدهم، الذي انطوت بذهابه كل الأمـجاد والمفـاخر. ثم يدعـو الشاعـر لأبي جذيمة الأبرش أن تظل ذكراه حاضـرة على الدوام بعد أن هلك وبعد بجـسمه. ويتمنى الشـاعر لو أمكن دفع الموت عنه بالفدية إذن لافـتداه بكل من يمشي على الأرض. وينهي أبياته بالإشارة إلى الحالة التي انتهي إليها

بعد رحيل ملكهم العادل وقائدهم الحكيم. يقول [١]

لو كان يبقى على الأيام ذو شرف ... لمجده لم يمت فهم وما ولدا
حلت على مالك الأملاك جائحة ... هدت بناء العلا والمجد فانفصدا
أبا جذيمة لا تبعد وقد غلبت ... به المنايا وقد أودى وقد بعدا
لو كان يفدي ببيت العز ذو كرم ... فداك من حل سهل الأرض والجلدا
يا راعي الملك أضحى الملك بعدك لا ... تدري الرعاه أجار الملك أم قصدا

ويرثي الأسلم بن قصاف الطهوي ابن أخيه مدرك فيعبر عن عميق حزنه، ويشير إلى عظم المصيبة بفقده معتبرا إياها أم المصائب التي مرت عليه في حياته فابتلعها بصبر دون أن تقضي عليه، إلا أنها شيبته كما يشيب كل من يتعرض لمثلها من الناس، فقد كان الفقيد كفؤا طموحا صادقا فحق لعمه الشاعر أن يحزن لهذا المصاب الذي يكسر العظم يقول[٢]

لعمري لقد أنستك حاجة مدرك ... نوائب كانت قبلها ذات مذكر
مرازيء قد غيرن رأسي ولمتي ... ومن يسترط أمثالها يتغير
فتى كان في الأكفاء والأصل يبتني ... وبالصدق معروفا له غير منكر
وشيبني أن لا تزال تصيبني ... قوارع إلا تعرق العظم تكسر

ومن رثاء أبناء العمومة يرثي مرقش الأكبر ابن عمه ثعلبه بن عوف بن مالك، فيعلن أن أعظم الحوادث التي أحزنته فقد هذا الفارس الذي جمع في شخصه بين الرأي والشجاعة، ثم يعزي الشاعر نفسه فتتحول مرثيته إلى موعظة قوامها فناء المخلوقات، وأن الموت قدر كل مخلوق حي، وأنه لن

(١) شعراء عمان ٩٠.
(٢) المؤتلف والمختلف ٥٤.

يبقى إلا الجبال مثل جبلي أشابه وأدم. يقول[١]

لم يشج قلبي ملحوادث إلا صاحبي المتروك في تغلم
ثعلب ضراب القوانس بال سيف وهادي القوم إذ أظلم
فاذهب فدى لك ابن عمك لا يخلد إلا شابة وأدم

ومن رثاء الشعراء لأبناء قبائلهم هذه الأبيات التي يرثي فيها حدار بن ظالم العبدي هداج بن مالك العبدي، عندما غزاهم داود بن هباله بن ضجعم وقتل أحد رجالهم وهو زهير بن جناب الكلبي بن مالك. ويقسم الشاعر أن المقتول كان خسارة للقبيلة حيث كان من أشرافها المميزين وخطبائها البارزين وأجوادها المعروفين، وقد أهان الغازي رجال عبد القيس بقتله شريفهم وعاملهم معاملة الأباعر، ويدعو الشاعر للفقيد أن يكون حاضرا في قلوب عشيرته على الدوام، ويعده أن يسلك مسلكه في التضحية من أجله كما ضحى من أجل القبيلة. يقول[٢]

لعمري لقد أروت سيوف ابن ضجعم غداة التقوا منا خطيبا وياسرا
أهان الرجال بعده فكأنما يرى بالرجال الصالحين الأباعرا
فلا تبعدن إما لقيت ابن مالك سبيل التي فيها لقيت المعاذرا

وكان مسروق بن المنذر بن سلمى النهشلي سيدا جوادا مؤثرا للأسود ابن يعفر النهشلي كثير الرفد له، فمات مسروق واقتسم أهله ماله وبان فقده على الأسود، فقال يرثيه رثاء تأبينيا مبتدئا بالدعاء له أن يبقى ذكره على الدوام، فبقاء الذكر للانسان بعد موته حياة له، والمرثي بمعروفه قريب من

(١) المفضلية ٥٤.

(٢) ديوان عبد القيس ٩٦.

الناس قربا نفسيا يجعله حيا في قلوبهم، فقد كان صاحب فروسية جمعت في شخصه بين الشجاعة والكرم حيث كان مردى حروب يحسن قيادتها وإدارتها بسداد رأيه ورباطة جأشه، يحسم المعارك لصالحه بضرباته القاضية وطعناته النافذة، كما كان واسع الجود يقدم لضيوفه الجفان الممتلئة باللحم كل ليلة، ولا يبقى شيئا من اللحم مقددا أو مجففا أو مشروحا، ويقدم في ضيافته اليتامي والأرامل والبائسين. ولهول الفاجعة على الشاعر نجده في نهاية المقطوعة يشكك في موته استعظاما لذلك وكأنه غير مصدق، ولكنه حين يسلم بنعيه يشيد بنقاء عرضه وسمو مكانته وخلود ذكره. يقول[١]

أقول لما أتانا هلك سيدنا ... لا يبعد الله رب الناس مسروقا

من لا يشيعه عجز ولا بخل ... ولا يبيت لديه اللحم موشوقا

مردى حروب إذا ما الخيل ضرجها ... نضح الدماء وقد كانت تقاريقا

والطاعن الطعنة النجلاء تحسبها ... شنا هزيلا يمج الماء مخروفا

وجفنه كنضيح البئر متأفة ... ترى جوانبها باللحم مفتوقا

يسرتها ليتامي أو لأرملة ... وكنت بالبائس المتروك محقوقا

يا لهف أمي إذا أودى وفارقني ... أودى ابن سلمى نقي العرض مرموقا

ويرثي عمرو المحاربي العبدي الريان بن حويص العبدي داعيا لقبره بالسقيا ليتحول إلى روضة خضراء، منوها بما قدمه المرثي من صدقة جارية لفقراء عشيرته، حين جعل فرسه الهراوة وقفا للمحتاج يتأهل عليها حتى سميت بهراوة الأعزاب، فكانت هذه الفرس السريعة وسيلة الرزق لكل المحتاجين من القبيلة حيث أغنتهم ووسعت عليهم. يقول [٢]

(١) شعر النصرانية ٤٧٩.

(٢) ديوان عبد القيس ٩٤.

سقى جدث الريان كل عشية … من المزن وكاف العشي دلوح
أقام لفتيان العشيرة سهوة … لهم منكح من حربها وصبوح
فيا من رأى مثل الهراوة منكحا … إذا بلّ أعطاف الجياد جروح
وذي إبل لولا الهراوة لم يثب … له المال ما انشق الصباح يلوح

ومن الرثاء الموجه للقوم ترثي الحنظلية فرسان قومها التميميين الذين سقطوا في يوم فلج على يد حسان بن زرعه التغلبي وقومه، فتعلن أن ما حدث يعد فاجعة عظيمة صدعت النفوس وأحزنت القلوب وأدت إلى سفح الدموع والنواح وشق الجيوب. تقول ناعية فوارس تميم ومنوة بأسماء من قتلوا في هذه المعركة.

إن ابن زرعة حسانا وأسرته … جروا علينا شؤونا ذات أشجان
أبقى ابن زرعة أنواحا مفجعة … تفري الجيوب على عوف وحرثان
فانعي عقالا وقعقاعا ومن عدس … زيد بن عمرو وأوسا وابن زيان

وتطلب امرأة من مراد من عينيها أن تجود بالدمع الكثير وألا تتوقف عن البكاء على قتلى قومها من مراد في يوم الكثيب، ولما حل بهم من نهب وأسرو تشريد وقتل بعد أن قتل قائدهم عمرو المرادي على يد ثعلبة التغلبي. وقد أشارت الشاعرة إلى وقت الغارة وهو الفجر كعادة الجاهليين، كما ذكرت طريقة مقتل رئيس مراد وهي طعنة بحرف الرمح في فيه، فما كان أمام من نجا من فلول المهزومين إلا الفرار على فرسه المعد للركوب تقول[(١)].

أيا عين جودي ولا تجمدي … لقوم أتيح لهم ثعلبه
هم صبحونا قبيل الصباح … على كل سرحوبة سلهبة

---

(١) الأنوار ١٠٧.

فأوجر عمرو طرير السنان يشبه بالشعلة المثقبة
فخر صريعا وولت مراد وجالت خيولهم المقربة

وترثي الخرنق بنت بدر قومها الذين قتلوا مع زوجها في يوم قلاب، فتدعو الله ألا يبعدهم عن ذاكرتها وذاكرة الأحياء من عشيرتها، وهي من دعاء الجاهليين الذي اعتادوا ذكره عند مخاطبتهم لموتاهم. ثم تتحول المرثية إلى التأبين فتمدحهم بالكرم فهم آفة الجزر، وتشيد بشجاعتهم فهم أهل الحروب وتشير إلى عفتهم، ثم تعود فتكرر نعتهم بالشجاعة فهم أهل الضراب والطعان بأيديهم القوية وسواعدهم المتينة، ثم تثني على تآزر القوم وتقاربهم وتكافلهم وتعود إلى وصفهم بالكرم مرة ثانية، كما تصفهم بالتعفف والوقار وتصور كثرتهم وقوتهم وكثرة خيولهم. وتختم الشاعرة رثاءها بدوامها على ثنائهم ما بقيت، وبقاءهم أحياء في الذا كرة بعد موتها. تقول[1]

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نزلت والطاعنون بأذرع شعر
والخالطون لجينهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقر
إن يشربوا يهبوا وإن يذروا يتواعظوا عن منطق الهجر
قوم إذا ركبوا سمعت لهم لغطا من التأييد والزجر
من غير ما فحش يكون بهم في منتج المهرات والمهر
هذا ثنائى ما بقيت لهم فإذا هلكت أجنني قبري

---

(١) شعراء النصرانية ٣٢٤.

وتؤبن شاعرة من عبد القيس فرسان قومها الذين قتلوا في ساحة الحرب، فتشيد بشجاعتهم الفائقة التي دفعتهم إلى المواجهة رغم قلة عددهم وكثرة عدوهم، وكان يمكنهم أن يهربوا من هذه المنازلة غير المتكافئة، ويعذروا في ذلك ولكنهم وجدوا في الفرار عيبا تأباه نفوسهم الكريمة، وقد أعانهم على الصمود خلق الصبر الذي تحلوا به، فكان لهم على الثبات خير معين. تقول[(١)]

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم ... ولم يبتغوا من رهبة الموت سلما

ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ... ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

ب- رثاء الأصدقاء والممدوحين:

لعل أبرز شعراء الخليج الجاهليين الذين رثوا رجالا من غير قبائلهم أوس بن حجر التميمي الذي حركه الوفاء، فرثى ممدوحيه بعدة قصائد تميزت عن مرثيات الأقارب بالطول، أما من حيث صدق العاطفة فقد كانت قاسما مشتركا بين رثاء القرابة والصداقة وإن رجحت كفة الأولي على الثانية في أغلب الأحيان.

وفي رثاء أوس بن حجر لفضاله بن كلده الأسدي يطغى الجانب التأبيني أي المديح أوالثناء على الجانب الندبي وهو الحزن والأسى، وإن كان الشاعر قد بدأ قصيدته بإظهار اللوعة والأسى على الفقيد حتى استحال عنده النور إلى ظلام والنهار إلى ليل والبياض إلى سواد، فاتشح الكون كله برداء أسود ولفت الشاعر الظلمة من كل ناحية وهي ظلمة الكآبة والحزن. فقد فقد الناس كلهم رجلا في وزن الجبال الراسيات، رجلا ليس مثل سائر الرجال

---

(١) ديوان عبد القيس ١١٧.

في سموه وعظمته، فهو نسيج وحده في سد الخلل ووجود النظير، والشاعر يتلهف على هذه الأخلاق العالية التي دفنت مع المرثي، فهو في السلم جابر عثرات الكرام وفي الحرب كاسر عظام الجبابرة، ويبالغ الشاعر في تصوير عظمة صاحبه فيقول لو علا فضالة جبل الصاقب لأصبح مدقوقا مكسورا كالرمل، ويشير الشاعر إلى مكانة فضاله المرموقة عند الملوك فحين ينتظر الإذن بالدخول عليهم يجعل بين السرادق والحاجب وإذا حتم عليه الملك في أمر يخافه أطاعه وأجابه، أو إذا حلف الملك على أمر حتم يحاذره رقاه وسهله حتى يرجع عنه، وإذا حصر الرجال استغنى به عن غيره لبيانه وصوابه، فقد كفى من وراءه غير معيب عندهم ولا عائب، ويتبع ما يفعله من الخير بأجمل البشر، ولا يكب مفكرا يندم على ما فعل ولا طالب حيله يدفع بها السائل . ومن عطاياه الناقة الخيفة السريعة، والعبد والجارية الجميلة كولد البقرة الوحشية أو النياق الشديدة البياض والتي أتي عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر؛ أي أنه يعطيها في أحسن حالاتها فهو قدوة لذوي العطاء وهو في السلم سهل بذول حلو مقبول ولا يمنعه ذلك من أن يكون جلدا في الحرب، وهو مع ذلك فطن طبن نقب طواف ببدنه وفكره يظن فيصيب. ويختم أوس قصيدته بقوله تفوقت في فعل كل خير حتى أن أحدا لا يقارب سعيك فيه. يقول [1]

ألم تكسف الشمس والبدر وال	كواكب للجبل الواجب
لفقد فضاله لا تستوي ال	فقود ولا خلة الذاهب
ألهفا على حسن أخلاقه	على الجابر العظم والواهب
على الأروع السقب لو أنه	يقوم على ذروة الصاقب

(١) ديوانه ١٠.

لأصبح رتما دقاق الحصى ... كمتن النبي من الكاتب
ورقبته حتمات الملو ... ك بين السرادق والحاجب
ويكفي المقالة أهل الرجا ... ل غير معيب ولا عاتب
ويحبو الخليل بخير الحبا ... ء غير مكسب ولا قاطب
برأس النجيبة والعبد وال ... وليدة كالجؤذر الكاعب
وبالأدم تحدي عليها الرجا ... ل وبالشول في الفلق العاشب
فمن يك ذا نائل يسع من ... فضالة في أثر لا حب
هو الواهب العلق عين النفي ... س والمتعلي على الواهب
نجيح مليح أخو مأقط ... نقاب يحدث بالغائب
فأبرحت في كل خير كما ... يعاشر سعيك من طالب

ويرثي أوس بن حجر عمرو بن مسعود الأسدي رثاء تأبينيا بدأه بالندب داعيا عينيه أن تسفح الدموع الغزار على فقده، فقد أخذ معه كل معاني النبل من عفة وحزم وجود، وهلك أبو الفقراء الذي كان يرعاهم ويتعهدهم، وهلك كل ما فوق الأرض من صالح الأعمال، فقد كانت سفرته ممدودة لكل أحد غني وفقير، يقدم لضيفانه الابل السمينة العظيمة السنام والغلاظ الشداد يهبها لمن يسترفده، ويتبعها يوم المحاربة بالسهام بغيرها وهو مسرور النفس مرتاح البال. ويختم الشاعر أبياته بأن المرثي منقطع النظير فإذا مات أحد خلفه من يقوم من مقامه ويفعل مثل فعله، إلا المرثي فإنه لم يخلفه أحد في جوده وشجاعته يقول[١]

(١) ديوانه ٢٥.

يا عين جودي على عمرو بن مسعود	أهل العفـاف وأهل الحزم والجود
أودي ربيع الصعاليك الأولى انتجعوا	وكل ما فوقهـا من صالح مودي
المطعم الحي والأمـوات إن نزلوا	شحم السنام من الكوم المقـاحيد
والواهب المائة المعكاء يشـفـعهـا	يوم النضال بأخرى غيـر مجهود
إن من القـوم موجـودا خليـفتـه	ومـا خليف أبـي وهب بموجـود

أما مرثية أوس بن حـجر العينية فهي من عيـون المراثي وقد نظمها في هذا السلك مطلعـها المؤثر الأخاذ. وقـد بدأها بمخاطبة نـفسه طالبـا منها أن تتماسـك وأن تتذرع بالصبر وتتـجمل في الجزع، بعد أن وقع المحـذور وفقد العزيز الجامع لمكارم الأخلاق من جود وكرم وشـجاعة في القتال وسرعة في الاغاثة، إلى جانب تمتعه بقوة الفراسة التي تجـعله يستشرف المستقبل ويصيب المظنون، فهو المعـي حديد اللسان والقلب، يتلف جودا وكـرما ويخلف نجدة واكتـسابا وهو لما يعطي ويـسأل مرزا في مـاله لم يقم وهو ضعـيف، غلب الطمع ولم يغلبـه وأماته ولم يمتـه. وفي زمن الجدب خـاصة عندما يـنحروا الفصال لئلا ترضـع فتضر بالأمهات، يحفظ الناس مـن غوائل الجوع وعندما يبلغ الأمر المكروه حـده يكون المرثي حصن الجـميع وملاذهم، وحين يشـتد الضر ويصـبح ضجيع الفتـاة مجانبـا لها لا يريدها من الجهد وشـدة الزمان ويلبس الغليظ الخلقة الأحمق خلقانه الخشنة كأنه ولد الناقة المكسو بجلد فرع الناقة، وتصير الفتاة كالسـبع في زاد أهلها بعد أن كانت تعاف طيب الطعام، يكون مال المرثي وطـعامه مـبذولا للجمـيع، ولكنه هلك كما يـهلك طالبوا عظائم الأمـور المعرضـون للنوازل، حـيث لا يقف أمام طمـوحهم حـذر أو وجل، ويختم مرثيته بدعوة ندمائه والـطامعين في عطاياه والأمهات الفقيرات ذوات الصبية إلى البكاء عليه، لفقـدهم عائلهم والمنعم عليهم كما يدعو إلى

ذلك حيه عند إغارة المغيرين عليهم لغياب حصنهم وملجئهم يقول [١]

أيتها النفس أجملي جزعا	إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والن	جدة والحزم والقوي جمعا
الألمعي الذي يظن بك الظ	ن كأن قدراي وقد سمعا
والمنخلف المتلف المرزأ لم	يمتع بضعف ولم يمت طبعا
والحافظ الناس في تحوط إذا	لم يرسلوا تحت عائذ ربعا
وازدحمت حلقتا البطأن بأة	وام وطارت نفوسهم جزعا
وعزت الشمال الرياح وقد	أمسى كميع الفتاة ملتفعا
وشبه الهيدب العبام من الأ	قوام سقبا ملبسا فزعا
وكانت الكاعب المنعة ال	حسناء في زاد أهلها سبعا
أودي وهل تنفع الاشاحة من	شيء لمن قد يحاول البدعا
ليبكك الشرب والمدامة	والفتيان طرا وطامع طمعا
وذات هدم عار نواشرها	تصمت بالماء تولبا جدعا
والحي إذ حاذروا الصباح وقد	خافوا مغيرا وسائرا تلعا

ويرثي أوس بن حجر أبا دليجه الأسدي رثاء غلب عليه جانب التأبين المبني على تعداد المناقب والمحامد . فقد فقده المتحير الذي لا يدري أين يتوجه فكأنه الذي أصابته الصاعقة فتحير لتوقع الغارة، وخص شهر شوال لأنه شهر حل ففيه يغير الناس بعضهم على بعض. ثم يميل الشاعر ميلا يسيرا إلى الندب فيذكر أن عينيه ترسل الدمع

---

(١) ديوانه ٥٣.

منهمرا كلما تذكر فقيده، ويمضي إلى التأبين فيشيد بمكانته وأن المرثي ساد الملوك وسبقهم إلى أبعد الغايات، رغم اعتلائهم صهوات الجياد الأجواد، ويصفه بالحكمة وعلو المكانة وأنه كلما أفسد أحمق ما بين العشيرة وأثار الفتن بكلامه المؤذي عمد أبو دليجة إلى رأب الصدع وأصلح ذات البين. ثم يدعو الشاعر لضريحه أن يصبح روضة للورد والرياحين فهو نعم الملجأ في الفزع والأمن، ونعم المأوي لطالب العون إذا دعاه والخيل خارجه من غبار المعركة. يقول [1]

أبا دليجه من لحي مفرد	صقع من الأعداء في شوال
وإذا ذكرت أبا دليجة أسبلت	عيني قبل وكيفها سربالي
ومعصبين على نواج سدتهم	مثل القسي ضوامر برحال
وقوارص بين العشيرة تتقي	داويتها وسملتها بسمال
لا زال ريحان وفغو ناضرا	يجري عليك بمسبل هطال
فلنعم رفد الحي ينتظرونه	ولنعم حشو الدرع والسربال
ولنعم مأوى المستضيف إذا دعا	والخيل خارجة من القسطال

وفي مرثية أوس بن حجر ذات الستة والعشرين بيتا نجد جانب التأبين يتغلب على جانب الندب كما هي عادته في كل مراثيه، ونظرا إلى أننا تحدثنا عن تلك المراثي فسنقتصر في هذه القصيدة على ناحية الندب. فقد استهل الشاعر مرثيته هذه بدعوة عينيه إلى أن تسكب الدموع الغزار على فقيده العزيز فضالة الأسدي، معللا ذلك بعظمة المصاب الذي يعجز الصبر عن احتوائه، ومكررا أمره لعينيه أن تكثر من سفح الدموع حتى آخر قطرة، لأن

(١) ديوانه ١٠٧.

هذا الفقيد أعز من فقدهم الشاعر وأغلاهم. وفي الأبيات الأخيرة من القصيدة يشير أوس إلى الصدى وهو طائر خرافي يزعم الجاهليون أنه يخرج من رأس المقتول، ولا يزال يقول اسقوني حتى يؤخذ بثأره، ثم يدعو أوس لمرثيه أن يسقي على الدوام بماء نقي مضمخ بعبير المسلك وأرج الرياحين، وأن يكون قبر المرثي مظللا بالغمام أو وارف الأشجار ليتفيأ عنده كل غاد ورائح. وإذا كان الشاعر قد افتقد شخص المرثي فقد بقي منه محبته لبنيه وصداقتهم وبعد صيته المشفوع بالمهابة والجلال، وسيظل ثناؤه على الدوام يترجم عن عاطفة مشبوهة صادقة، ويصدر عن قلب لا ينسى صاحبه ولا يسلو عنه مدى الحياة، هذه التي اختلت بفراقه، ونقصت برحيله، وكان على استعداد أن يفتديه بالأهل والمال، لو ملك الشاعر فرصة التخيير. يقول[١]:

عيني لابد من سكب وتهمال ... على فضالة جل الرزء والعالي
جما عليه بماء الشأن محتفلا ... ليس الفقود ولا الهلكى بأمثال
لا زال مسك وريحان له أرج ... على صداك بصافي اللون سلسال
يسقي صداك وممساه ومصبحه ... رفها ورمسك محفوف بإظلال
ورثتني ود أقوام وخلتهم ... وذكرة منك تغشاني بإجلال
فلن يزال ثنائي غير ما كذب ... قول امريء غير ناسيه ولا سالي
لعمر ما قدر أجدي بمصرعه ... لقد أخل بعرشي أيّ إخلال
قد كانت النفس لو ساموا الفداء به ... إليك مسمحة بالأهل والمال

ويرثي مقاس العائذي بعض سادات بني شيبان، حيث كان يعيش في جوار بني ذهل الشيبانين، فرثى الحارث بن شريك وآخرين رثاء تأبينيا يقوم على التنويه بمكانتهم والاشادة بحسن الجوار والرعاية الحقه للجار ومعاملته معاملة القريب برا وكرما. يقول[٢]

(١) ديوانه ١٠٢.
(٢) المؤتلف والمختلف ١٠٧.

بكيت شـريكا في المقار وأسـودا وذا العلق حتى ما بعيني من ملل

رجالا لهم ربعية المجد لم يخف مجـاورهم ريب الحوادث والزلل

وكنا بهم نرعى الجميع ونأكل الربيع ونكفي حامل الأصل ما احتمل

جـ- رثاء النفس

ويرثي يزيد بن الخذاق العـبدي نفسه، فيـبدأ مقطوعتـه باستفهـام يفيد النفي، فمصـائب الدهر لا واقي منها وحمام الموت لا رقيـة له، ثم يتحدث عن مراسيم دفن الموتى في الجاهلية حديث المعايش للتـجربة فيشير إلى غسل الميت بعد موته وتكفينه ورفعه عـلى النعش وإدراجه في اللحد، وقيام أفاضل القوم بمهمة الدفن وتأبينه وتعداد محـاسنه، ثم التفاف أهله على ماله بعد أن ينفض مجلس العزاء، وينهي الشـاعر أبياته بحكمة يعظ فيـها الحريص على المال الخائف عليه أن يتـخفف ويتلطف ويجمل، فإن هذا المال الذي يجـمعه سيؤول إلى الورثة بعد موته. يقول[(١)]

هل للفتى من بنات الدهر من واقي أم هل له من حمام الموت من راقي

قد رجلوني وما بالشعر من شعث وألبـسـوني ثيـابا غيـر أخـلاق

ورفـــعـــوني وقـــالـــوا أيمارجل وأدرجـوني كـأني طي مـخـراق

وأرسلوا فتـية من خـيرهم نسـبا ليسندوا في ضـريح القبـر أطباق

وقسمـوا المال وارفضت عوائدهم وقـال قـائلهم مـات ابن خـذاق

هون عليك ولا تـولع بإشـفـاق فـإنما مـالنا لـلوارث البـاقي

---

(١) ديوان عبد القيس ٤٤.

وفي رثاء المتلمس الضبعي لنفسه وقد بلغ النهاية من المرحلة الأخيرة من حياته يستعرض الشاعر شريط الذكريات الجميلة لمرحلة الفتوة والشباب وألوان المتع والملذات التي مرت عليه. فيذكر من ذلك تمتعه بالفتيات الحسان الممتلآت الأجسام ذوات الأفواه العذبة، كما يذكر تمتعه بصبوح الشراب الذي يعده الجاهليون المتعة الكبرى في حياتهم، ومن تلك المتع ممارسته لهواية الصيد البري وبخاصة قنص الظباء البيض وبقر الوحش السمان التي رعت أفضل البقول، وذكر المتلمس من أنواع النشاطات التي قام بها زيارته للملوك ومدحه لهم وحصوله على عطاياهم وخص، منهم عمرو بن هند الذي كان يطلق عليه لقب الهمام، ووصفه بالغلب وهو الجافي الغليظ الذي لا يطمع فيما عنده من كلمة أوغيرها. يقول [(١)]

خليلي إما مت يوما وزحزحت	مناياكما فيما يزحزحه الدهر
فمرا على قبري فقوما فسلما	وقولا سقاك الغيث والقطر يا قبر
كأن الذي غيبت لم يله ساعه	من الدهر والدنيا له ورق نظر
ولم تسقه منها بعذب ممتع	برود حمته القوم رجراجة بكر
ولم يصطبح في يوم حر وقرة	حميا فدبت في مفاصله الخمر
ولم يرع العيس الكوانس بالضحى	بأسرار مولي ألدته صفر
لسن يقول الصيف حتى كأنما	بألسنها من لسن حلبها الصقر
ولم يمدح القرم الهمام بكفه	لطائم يسقي من فواضلها القفر
رمى نحره في الناس والناس حوله	وذو يسرة غلب مناكبه سعر

يقول د عبد العزيز شحاده : فالشاعر ينقل الموت من المستقبل ويعيشه

(١) ديوانه ٢٥٦.

في حاضـره، ويتوجه إلى رفـيقيـه إذا سبقـهما إلى الموت أن يمرا على قـبره ويدعوا له بالسقيـا (رمز الخصب ومعنى الحياة) هكذا يرى الشاعر نفـسه ميتا في حفرة تفصله عن العالم، ولا يرى أي معنى لممارساته جميعا ما دام الأمر انتهى به إلى الموت، لقد كـان يملأ حياته تماما بكل أنواع التحـققات، شرب الخـمر وتمـتع بالمرأة وذهب في رحلة صـيـد ومدح الملك الـعظيم الذي تعم نعمه، ومع ذلك فهو ميت فلا جدوى إذا من كل ما فعل[١]

د- الرثاء التأملي

ونعني به الرثاء الذي يتـحول إلى مـا يشبه العظة والحكـمة والذي يدور حول الحـديث عن فكرة الموت وفناء المخلوقات، ويتـخذ من أحـداث التاريخ ونهاية الأقوياء ومصرع العتاه مثلا. وهو يقوم على التأمل والاعتبار فهذا مجاله موضوع الحكمة والتأملات. ومن أمثلتـه رثاء مرقش الأكبر لابن عمه ثعلبة بن عوف، حيث تتحول مرثيتـه إلى موعظة قوامها فناء الأنام، وأن الموت قدر كل مخلوق حي. ويضرب مثلا لذلك بالوعل القـوي المتحصن في أعالي الجبال، حيث الأمن والأمان ولكنه رغم ذلك خر صـريعا تحت أنياب الموت، ثم تتجه موعظته إلى حكمة تأمليه فيـرى أنه ليس على فوات طول الحياة ندم وأمام المرء ما يعلم عاقبة عمله أو الهرم والكبر والضـعف وكثرة الملل. ومهما طالت حياة الانسان على مـا فيهـا من تقلبات فإنهـا منتهيـة بالموت المحقق. وهكذا يموت الوالد ويخلفـه الولد ومن النساء الوالـدات ومنهن من كتب الله لهن العـقم. يقول مستهلا مرثيته بإعلان حزنه الشديد على الفقيد[٢]

لم يشـج قلبي بـالحـوادث إلا ... صـاحـبي المـتروك في تـغلم

---

(١) الزمن في الشعر الجاهلي ١٣٥.

(٢) المفضلية ٥٤.

لو كـــان حي ناجـــيـــا لنجـــا	من يـومـــه المـزلم الأعـــصم
في باذخــات من عــمــاية أو	يرفـــعـه دون الســمـاء خـيم
من دونـه بيض الأنـوق وفـــو	قـــــه طـويل المنكـبين أشـم
يرقـــاه حـــيـث شـــاء منه وإن	مـــــا تأته مـنيـــــة يهـــــرم
فــفـــاله ريب الحـــوادث حـ	تي زل عـن أرباده فـــــحـطم
ليس عـلى طول الحـــيـــاة ندم	ومـن وراء المرء مـــــا يـعلـم
يهـلك والـد ويخـلف مــــو	لـود وكل ذي أب يـيــــتـم
والوالدات يـســتـفـــدن غنى	ثم عـلى المقـــدار من يعـــقم

ويرى توبه بن مضرس العبدي أن الدهر يفرق بين الأخوة، والمنون تأتي عليهم فتبدل الائتلاف فراقا والتلاقي بعدا، وتوبه متفجع متحسر يصحو على حقيقة مرعبة ويطل على واقع مخيف. يقول [١]

رأت إخوتي بعد أتئـلاف تفرقوا	فلم يبق إلا واحـدا منهم شـفـر
تقـســمـهم ريب المنـون كـأنما	على الدهر فيهـم أن يفرقهم نذر

يقول د محمد النويهي: والذي لاشك فيه أن الشعر الجاهلي حفل بأبيات حزينة تكمن فـيها مظاهر الطيرة وتنبـعث منها رائحة التشـاؤم، فالدهر عندهم سريع التـغير منقلب الأحوال، والحـياة قاسـية عسيـرة وسط طبيعة صـحراوية جافة، حـيث المطر الشحيح والمرعى القليـل في بعض المناطق والمناخات، ولذا قامت نظرة الجاهلي على العلم بيقين الموت والفناء، واعتقد أن وجوده محصور في عالمه المحدود وأحس إحساسا مخيفا بالموت وحتم وقوعه[٢].

---

(١) حماسة البحتري ٢٢٨.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ١٨٣.

وهذه أبيات تنسب إلى عمرو بن حلزه اليشكري يظن أنها منحولة وهي من قبيل التأمـلات الواعية قالها يرثي فيهـا أخاه الحارث بن حلزه. ولكنا لا نجد فيهـا ذكرا لأخيه ولا بكاء عليه، فـهي أقرب إلى الحكمة التي لا تعكس عاطفـة مشـبوبة، إنهـا تحذر من الإغـترار بالأيام وتجـمع بين التشاؤم مـنها والتفاؤل بها. فمصائب الدهر عـجيبة لها ظاهر وباطن. وكلما هون الانسان من الأمر مهما كان صعبـا فإنه يغدو هينا يسيرا، ومن وطن نفسه على الألم لم يكن موجعا ولكن ذلك لا يعني احتقار ما يهم الآخرين [(١)]

يقول :

يأمن الأيـام مـغـتـريهـا	مـا رأينا قـط دهرا لا يخـون
والملمـات فـمـا أعـجبـهـا	للـملمـات ظهـور وبطون
هون الأمـر تعـش في راحـة	قلمـا هونت إلا سيـهـون



(١) معجم الشعراء ٢٠٣.

الفصل السابع
الحكمة والتأملات

تعريف الحكمة

أ) المجال الديني والتأملي.

ب) المجال الأخلاقي والاجتماعي.

جـ) المجال الاقتصادي والمعيشي.

تعريف الحكمة:

شعراء الحكمة في العصر الجاهلي يمثلون طبقة من أذكى طبقات الجاهليين وأكثرها ثقافة وأدقها حسا، مما أتاح لهم النفاذ إلى إدراك غير قليل من حقائق الحياة وطبائع الأحياء، فصاغوها في شعرهم حكما يرسلونها تعبيرا عن خبرتهم وتجاربهم الذكية الدقيقة، يفتحون بها أعين الناس لإدراك ما حولهم من شئون الحياة ونقدها، وهي تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم في الحياة وأحوال الناس(١)

والحكمة كما هو معروف نظرة صائبة في الحياة ومعرفة بحقائق الأمور على ما هي عليه بقدر الاستطاعة. وهي العلم الذي يصور فلسفة الحياة.(٢)

والحكمة تجربة وقع بها الناس فعرضها الحكماء نثراء والشعراء نظما، ولقد استنتجوا من خلال تجاربهم واصطدامهم بأحداث الواقع حكما ترجموها كلاما بلاغيا وألبسوها أسلوبا فنيا وصبوها في أشعارهم بإيجاز وتماسك(٣).

والحكمة الجاهلية نظرات وانطباعات، وتأمل في الحياة والموت، ومحاولات لسن نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات(٤)

ولقد جاءت المباديء العامة والحكم في شعر البحرين إما أبياتا مجتمعة وإما أبياتا متفردة متناثرة، وكان يأتي بها الشاعر إما في ثنايا حديثه عن

---

(١) د. صلاح الدين الهادي: أمراء الشعر في العصر الجاهلي ٣٨٤.

(٢) د. أحمد العمري: الشعراء الحنفاء ١٨٥.

(٣) د. محمد النوينجي: المعجم المفصل في الأدب ١/ ٣٧٦.

(٤) د. يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي ٤٠٣.

موضوع معين لدعم ما يقول وتأكيده، وإما قائمة بذاتها لمجرد الافصاح عما يعتلج في صدره، فأبان فيها تجاربه وخبرته بالناس والحياة، ويجمع هذا الموضوع آراء عن الدهر وسطوته، وعن المال وأثره، وعن الصفات التي ترفع قدر صاحبها وتعلي مكانته، وعما يخبئه القدر من خير وشر.[١]

إن نظرات شعراء الخليج الشخصية التي لا تخلو من حكمة راجعة إلى مصادر ثلاثة: وهي البيئة الجاهلية بما فيها من علاقات سلب ونهب وغارات وحوادث واضطرابات روحية وسياسية واجتماعية وغير ذلك مما عايشه الشاعر، وأما المصدر الثاني فهو تجارب الشاعر ذاتها لا سيما إذا عرفنا أن بعضهم عاش عمرا مديدا، وأما المصدر الثالث فربما كان نتيجة لتطواف الشعراء في شبه جزيرة العرب وزيارتهم لامارة الحيرة وغيرها على تخوم شبه الجزيرة، كل ذلك قد أسهم إلى حد في صقل الوعي الديني عند هؤلاء الشعراء وفي توسيع نظراتهم وأفقهم نحو الأشياء، ولابد أنهم اختلطوا بنصارى الحيرة وغيرهم من أهل الديانات السماوية وغير السماوية وعرفوا شيئا من الإيمان والوحدانية من أهل تلك البيئات[٢] إلى جانب ما حوته بيئة الخليج من تيارات فكرية ويمكن دراسة حكمة شعراء الخليج من خلال مجالات رئيسية ثلاثة: المجال الديني والتأملي، والمجال الاجتماعي والأخلاقي والمجال الاقتصادي وا لمعيشي.

أ- المجال الديني والتأملي:

لقد وجد شعراء الحكمة في هذا المجال من التاريخ والتراث مادة دسمة لحكمتهم، حيث اتخذوا من الأعلام والشخصيات التاريخية منطلقا لتأملاتهم

(١) إسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي ١٩٢.

(٢) د. أحمد الجاسم: شعر بني أسد في الجاهلية ٢٨٣.

وعظاتهم، ومن إيمانهم و روحانيتهم ملجأً يحميهم من المعتقدات السيئة التي كانت شائعة في بيئتهم.

ولعل الصورة المشوشة لعقيدة التوحيد التي جاءت بها اليهودية، ثم قالت بها النصرانية بعد ذلك، قد جعلت بعض العرب يعودون في تصوراتهم إلى عقيدة إبراهيم الخليل عليه السلام للوقوف على حقيقة الأمر، وهم ما يطلق عليهم اسم الحنفاء ممن كانوا على بقية من دين إبراهيم[١]. وإن ورود لفظ الجلالة في الشعر الجاهلي إنما يفيد أن الجاهليين كانوا متأثرين بدعوة التوحيد يعتقدون بوجود الله الواحد الأعلى الذي خلق الكون ومن هنا توجهوا إليه وأقسموا به شأنهم في ذلك شأن الحنفاء[٢]. يقول د أحمد العمري: بل إننا نستطيع استنادا إلى ما بين أيدينا من شعر جاهلي استخلصناه من دواوين الشعراء ومن بطون المصادر القديمة ومعاجم اللغة أن نؤكد حقيقة اعتقاد الجاهليين بوجود الله، وأنهم كانوا يحاولون جهدهم التقرب إليه واتقاء غضبه بشتى الوسائل منها احترام الجار وقرى الضيف، وفي بعض الشعر اعتراف بأن هذه الأرض الراسعة هي بلاد الله، وأن الله عدو للأشقياء شديد عليهم لا يرحم ظالما، والله يثيب على الاحسان ويجزي المحسن على جميل إحسانه[٣]. يقول أوس بن حجر[٤]

أطعنا ربنا وعصاه قوم فذقنا طعم طاعتنا وذاقوا

والبدوي الجاهلي الذي يعيش في متاهات الصحاري ويظعن دائما وراء الماء والكلأ يرى أن مصدر الخير ومرسل غيان الماء هو الله تعالى يقول أوس

(١) نفسه ٢٨٢.

(٢) المصدر السابق ٢٨٠.

(٣) د. أحمد العمري: الشعراء الحنفاء ١٤٥.

(٤) ديوانه ٧٩.

ابن حجر[(١)]

ألم تر أن الله أرســـل مزنــه   وعفر الظباء في الكناس تقمع

وهو الذي نتقى وتخاف، يقول أوس [(٢)]

ألا تتقــون الله إذ تعلفونهـــا   رضيخ النوى والعض حولا مجرما

ويقول أيضا بعد اعترافه صراحة أن الله هو الذي منّ عليه بماله[(٣)]

وذلك من جمعي وبالله نلته   وإن تلقني الأعداء لا ألق أعزلا

ورأس الحكمة مخافة الله، هذا ما عناه المخبل في قوله[(٤)]

إني وجــدت الأمر أرشــــده   تقـــوى الإله وشــره الإثم

ويظهر من أشعــار الجاهليين أن القوم عرفوا الرحمن وتعـبدو له، يقول سلامه بن جندل[(٥)]

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم   وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

ومنهم من اعتقد بالتوحيد كقس بن ساعده الذي يقول

كـــلا بل الله اله واحـــد   ليس بمولـــود ولا والــــد

ويعــدد قس بن ساعــده الأيادي الآيات الكونية الدالة على وجــود الله تعالى ووحــدانية، فيذكــر اختلاف الليل والنهار والجــبال الراسيات والبــحار

---

(١) نفسه ٥٧ .

(٢) نفسه ١١٢ .

(٣) نفسه ٩٠ .

(٤) المفضلية ٢١ .

(٥) ديوانه ١٨٢ .

الراخرة والنجوم والقمر والشمس الساطعة والرعد والبرق والمطر والحياة والموت وغير ذلك مما يقصر عنه حدس الناظر المتأمل يقول [١]

هاج للقلب من هواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ... ومياه بحارهن غزار
ونجوم يحثها قمر الليل ... وشمس في كل يوم تدار
ضوؤها يطمس العيون وارعا ... د شديد في الخافقين مثار
وغلام وأشمط ورضيع ... كلهم في التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخير ... وأخرى خوت فهن قفار
وكثير مما يقصر عنه ... حدسة الناظر الذي لا يحار
والذي قد ذكرت دل على الله ... نفوسا لها هدى واعتبار

وفي موضع آخر يتحدث قس عن البعث والنشور وعودة الموتى إلى الحياة يوم القيامة يقول [٢]

يا ناعي الموت والملحود في جدث ... عليهم من بقايا خزيهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم فرق
حتى يعودوا بحال غير حالهم ... خلقا جديدا كما من قبلها خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم ... منها الجديد ومنها المنهج الخلق

---

(١) لويس شيخو: شعراء النصرانية ٢١٢.

(٢) نفسه ٢١٣.

ويقول قس بن ساعدة أيضاً [(١)]

منع البقاء تقلب الشمس … وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها حمراء صافية … وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء كما … يجري حمام الموت في النفس

ويقول د عبد العزيز شحادة حول الأبيات: يربط الشاعر بين الفناء وحركة الشمس على نحو عجيب يثير الدهشة، إذ أدرك أن حركة الشمس هي حركة الزمان، وأن الشمس بهذه الحركة الدائبة يصاحبها حركة موافقه لها في ايقاعها على الأرض وهي حركة الإنسان تجاه الموت، ولا تبدو الشمس وحركتها وسط السماء مثيرة لاعجاب الشاعر، بل إنها تبدو صورة حزينة تبعث في نفسه الحزن والتشاؤم، إنه إذ رأى أن حركة الشمس مانعة للبقاء لا يستطيع إلا أن يرى صورتها مثيرة لحس مأساوي[(٢)]

وآمن بعضهم بالبعث والحساب فالناس لابد أن تعرض على ذي العرش الذي يعلم الجهر وما يخفي لمحاسبتهم ومجازتهم بما عملوا في دنياهم، وفي ذلك المعنى يقول علاف بن شهاب التميمي[(٣)]

ولقد شهدت الخصم يوم دفاعه … فأخذت منه خطة المعتال
وعلمت أن الله جاز عبده … يوم الحساب بأحسن الأعمال

ونجد المتلمس يقسم بالله في شعره ويذكر الله في مثل جمله (أبى الله)

---

(١) شعراء النصرانية ٢١٦.
(٢) الزمن في الشعر الجاهلي ٤٠.
(٣) الشعراء الحنفاء ١٧٨.

تعبيرا عن مشيئته وإرادته يقول [١]

يا آل بكــــر ألا لله أمكــــم   طال الثواء وثوب العجز ملبوس

ويقول

وهل لي أم غيرها إن تركتها   أبى الله إلا أن أكون لها ابنما

ونرى في شعر المتلمس جملة (لله دري) كان يستـخدمها في التعجب، قال [٢]

تفرق أهلي من مقيم وظاعن   فللـــه دري أي أهـلي أتبع

كمان نجد جملة (تقـوى الله) و (عاداك الله) وغيرهما مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويـحب المحبين. يقول د أحمد العمري. إن استنطاق الشعـر ودراسة الحياة الدينية القـديمة هي التي توحي بأن الرجل كان متأثرا بعقيدة التوحيد المتفشية في مجتمعه وبيئته [٣].

وقد أطال حكـماء الخليج الجاهليـون الوقوف عند فكرة الفـناء وتحدثوا عنها حديثـاً مكرورا مستغلين معلوماتهم التـاريخية وغيرها. فهـذا عمرو بن قمئة البكري يجسد هذه الفكرة في صورة الملوك الأقوياء الأوائل الذين سادوا ثم بادوا، ودالت دولتهم وأصبحوا أثرا بعد عين كالغساسنة في الشام والمناذرة في العراق والتبابعه في اليمن. يقول [٤]

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) الشعراء الحنفاء ١٤٤ .

(٤) ديوانه ٧٥.

قد كن من غسان قبلك أملاك ومن نصر ذووهم
فتتوجوا ملكا لهم همم ففنوا فناء أوائل الأمم
لا تحسبن الدهر مخلدكم أو دائما لكم ولم يدم
لو دام دام لتبع وذوي الأصناع من عاد ومن إرم

ويقول طرفة بن العبد للمتمني خلود العمر: إن لقمان بن عاد عاش عمرا طويلاً ولكنه في النهاية مات، ثم يضرب الشاعر مثلا آخر بملك جبار عاش زمانا في جبروت وطغيان، ثم انتهى أمره إلى الموت والهلاك، وكان الصعب ذو القرنين إذا وجه جيشه إلى ملك ينافسه في السطوة والجاه هزمه الصعب وأهلكه. يقول [١]

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت عليه النسور ثم غابت كواكبه
وللصعب أسباب تجل خطوبها أقام زمانا ثم بانت مطالبه
إذا الصعب ذو القرنين أرخى لواءه إلى مالك ساماه قامت نوادبه
يسير بوجه الحتف والعيش جمعه وتمضي على وجه البلاد كتائبه

ويقلب ابن أشمط العبدي صفحات التاريخ فيري أمما وملوكا طواهما الموت، منها إرم وعاد وداود وإياد وأسعد بن كرب الحميري الملك الواسع النفوذ الممتد السلطان ذو الأيد والقوة، فقد رحل كل أولئك ولم يبق منهم إلا الذكرى [٢] يقول:

أأمام إن الدهر أهـ لك صرفه إرما وعادا

(١) ديوانه ١٦٤.
(٢) حماسة البحتري ٩١.

واحــتــط داودا وأخ	رج من مــســاكنهــا إيا دا
وســمــا فـأدرك أســعــد الـ	خـيــرات قـد جـمـع العـتـادا
البـيـض والحلـق المضــا	عف نسـجـه وحـوى الـتـلادا
وله الـكتــائـب يجـلبـو	ن الخـيـل شـقـرا أو و رادا
فــاحــتطـه والدهـر يع	قب بعـد صـالحـة فـسـادا
فـكـأن ذلـك ذلـك لـم يـكـن	إلا الـتـفـكـر حين بـادا

وفي تأملات الأسود بن يعفر الدارمي نجد الشاعر - بصدد حديثه عن الموت - يعرض طائفة من الذين سادوا ثم بادوا على سبيل العظة والاعتبار، فيذكر ذا الأعواد وهو مخاشن بن معاوية الذي عاش ثلثمائة عام فيما يقال، وكانت العرب تحمله على سرير حيث توجهوا وكان يقال له ذو الحلم، فالأسود يقول لوأغفل الموت أحدا لأغفل ذا الأعواد ولو قبل فديه لفداه بكل ما يملك من مال، فكيف يأمل في الخلود وقد رحل ملوك العرب كالمناذرة وغيرهم، كما رحل كعب بن مامه الأيادي الذي يضرب به المثل في الجود، وجاره أبو دؤاد الشاعر المعروف، لقد ذهب هؤلاء جميعا وكأنهم كانوا مع الفناء على وعد محقق وأجل مصدق، فلما دعوا أجابوا ولما روسلوا استجابوا بعد أن كانوا ينعمون بأفضل عيشة وأحسن حال، وهكذا يستخلص الشاعر العظة والعبرة بنهاية كل نعيم دنيوي. يقول [1]

ولقـد علمت لو أن عـلمي نافع	أن السـبيل سبـيل ذي الأعـواد
إن المنيـة والحـتـوف كـلاهمـا	يوفي المخـارم بِرقـبـان سـوادي
لن يرضـيـا مني وفـاء رهينة	من دون نفـسـي طارفي وتلادي

(١) شعراء النصرانية ٤٨١.

مـــاذا أؤل بعـــد آل مـــحـــرق	تركـــــوا مـنازلـهم وآل إيـاد
أهل الخـــورنق والســـدير وبارق	والقصر ذي الشـرفات من سنداد
أرض توارثهـا لطيـب مـقـيلهـا	كـعب بن مـــامـه وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مـقر ديارهم	فكأنهـم كـانوا علـى مـيـعـاد
ولقـد غنوا فـيهـا بأنعم عـيشـة	فـي ظل مـلـك ثـابت الأوتـاد
نزلوا بـأنقـــرة يسـيـل عليـــهم	مـــاء الفـرات يـجيء من أطواد
فـإذا النعـيم وكـل مـا يلهي به	يومـا يـصـيـر إلى بلـى ونفـاد

ويتـحدث مـرقش الأصغـر عن حال الإنسـان المتقلب الذي لا يعـرف الثبـات والاستـقرار، فالـدهر لا يبقي على أحـد ولا يبقي أحد عـلى حالة واحـدة، فكثيـر من الأثرياء صاروا مـعدمين وكـثيـر من الأقوياء أصـبحـوا ضعـفاء، وكثـير من الأعزة غـدوا أذلة، والمرء في تنقل مسـتمر بين النعـمة والشقـاء وبين البؤس والنعـيم، والإقامـة والترحل، وفي النهـاية يأتي الموت ليحصد أرواح الأحياء. يقول [١]

كـم من أخـي ثروة رأيـتـــــه	حل علـى مـاله دهـر غـشـــوم
ومن عـــزيز الحـمى ذي منعـة	أضـحى وقد أثرت فـيـه الكلوم
بينـا أخـــو نعـــمـــة إذ ذهبت	وحـــولت شـقـــوة إلى نعـــيم
وبيـنمـــا ظـاعن ذو شـــقــــة	إذ حل رحــلا وإذ خف المـقـيم
وللـفـــتى غـــائل يـغـــوله	يا ابنة عـجـلان من وقع الحتـوم

ويتخـذ الأسود بن يعـفر سلوة وعـزاء وعظة واعتـبار ممن مـضى من

(١) المفضلية ٥٧.

المشاهير الأقوياء والأمم القوية البائدة، فكلهم مضى واندثر ولم يبق منهم أثر. يقول (١)

فإن يك يومي قد دنا وإخاله ... لوارده يوما إلى ظل منهل
فقبلي مات الخالدان كلاهما ... حميد بني حجوان وابن المضلل
وعمرو بن مسعود وقيس وخالد ... وفارس رأس العين سلمي بن جندل
وأسبابه أهلكن عادا وأنزلت ... عزيزا يعنى فوق غرفة مؤكل
تغنيه بحاء الغناء مجيدة ... بصوت رخيم أوسماع مرتل

ويتحدث جندل بن أشمط العبدي عن الموت وأنه حالّ لا محالة بكل حي إذا حان حينه، أينما كان سواء في السهل أو الجبل أو الجو. يقول (٢)

لا ينفع الهارب الفرار من ... الموت إذا ما تقارب الأجل
تغدو المنايا على أسامة في ... الخيس عليه الطرفاء والأسل
وتصرع الطائر المدوم في ... الجو ويشقى بريه الوعل

ويصور ثعلبة بن عمرو استحالة التخلص من الموت مهما حاول الانسان التحرز منه واتخذ كافة الاحتياطات كأن يقيم في قصر غمدان باليمن يحيط به الحراس الأشداء من كل جانب، ومهما كان حذرا في حركاته وسكناته فإن الهلاك سيبتلعه في أية بقعة يكون فيها. يقول (٣)

---

(١) شعراء النصرانية ٤٨٤.
(٢) حماسة البحتري ١٠٠.
(٣) المفضلية ٧٤.

ولو كنت في غمدان يحرس بابه | أراجيل أحبوش وأسود آلف
إذن لأتتني حيث كنت منيتي | يخب بها هاد لأثري قائف
أمن حذر آتي المهالك سادرا | وأية أرض ليس فيها متالف

وفي تصوير استحالة الخلود لأي مخلوق يتحدث ربيعة بن ثوبه العبدي عن ذلك الوعل القوي القابع في كهف جبل عماية بالبحرين، وهو جبل ضخم حصين عال مزود بالماء الكثير والأشجار المتنوعة، عاش هذا الحيوان القوي فيه لا ينقصه شيء من أسباب الحياة والبقاء، فلما دنا أجله قيض الله له صيادا ماهرا فقيرا يعول أسرة بائسة تعيش على الصيد، فوجه إليه قوسه ورماه بسهامه النافذة فأرداه يقول (١)

لو كان شيء فائت الموت أحرزت | عماية إذ راح الأغر الموقف
يرود يأرض ماؤها في قلائها | يصيف بها بعد الربيع ويخرف
إذا شاء طلع أو أراك وسخبر | لديه وذو ظل من الغار أجوف
يكسر أطراف البشام بروقه | ومن دونه هضب منيف ونفنف
فما زال عنه الحين حتى سما له | أبوصبية طاو من الزاد أعجف
يعالجه عن نفسه وبكفه | مدربة زرق وفرع معطف

وتجلل رجل من عبد القيس نظرة تشاؤمية تجاه الحياة تتركز في كلمات مثل (عانيا) و (الدواهيا) و (صروف) فالدهر يوم في الحساب الفلكي الذي هو أربع وعشرون ساعة، أما اليوم الذي قصده الشاعر، وذكر بجانبه الليلة فهو النهار. فالليل بجانبيه يمثلان الحياة، والإنسان مربوط بحبليه وهو في

(١) حماسة البحتري ٦٩.

عناء من هذا الرباط، تترصده المنية فـي ذهابه وإيابه، وهي تختبيء في داهية من الدواهي تقع عليه فتسلبه حياته، وكيف يـرجو الخلود من يرى المصائب تقتلع أقوى المخلوقات. يقول [(١)]

ألـم ترأن الـدهـر يـوم وليـلـة — وأن الفتـى يسعي بحـبليه عـانيا

يروح ويغــدو المنيــة قـصــده — ولابد يومـا أن يلاقـي الدواهيـا

ضلال لمن يرجو الخلود وقد رأى — صروف الليالي يبـتلعن الرواسيا

وفي معرض حديث الممزق العبدي عن الموت وعدم القدرة على التحرز منه بأي حال من الأحوال، يشيـر الشاعر إلى ما يعتقـده عرب الجاهلية حين يخافون على الرجل من الجنون أو تعرض الأرواح الخبيثة له، فينجسوه بتعليق الأقذار عليه كخرقة الحيض وعظام الموتى. يقول [(٢)]

ولو كنت في بيت تسد خصاصه — حــوالي من أبناء بـكرة مـجلس

ولو كـان عندي حازيان وكـاهن — وعلق أنجـاســا عليّ المـنجس

إذن لأتتني حـيث كـنت منيـتي — يخب بهـا هـاد إليّ مـعـقـرس

ولكننا نجد عددا مـن شعراء الخليج الجاهليين يدفعـهم إيمانهم إلى عدم الاعتقاد فيما يخضع له الجاهليون من مـعتقدات وثنيه كالطيره وغيرها. يقول طرفة بن العبد لقد رأيت وأنا في طريقي ظباء كـبيرة وقبيل الصبح مربي ظبي سريع الجري، ومربي كذلك عقاب تضرب بجناحـها وتتبختر كأنها شيخ في بجاد مـخطط، ويقول طرفـه للعقـاب عندما رآها. لن أتشـاءم بك لأنك لا تستطيعن أن تمنعين الرزق عن إنسان يطلبه، ولن يـكون التشاؤم بك سببا في

(١) نفسه ١٠٠.

(٢) حماسة البحتري ٩٧.

الموت[١]

لعمري لقد مـرت عواطس جمة	ومر قـبيل الصـبح ظبي مصـمع
وعـجـزاء دفت بالجنا ح كـأنهـا	مع الصبـح شيخ في بجاد مـقنع
فلن تمنـعي رزقـا لعبـــد يريده	وهل يعـدون بؤسـاك ما يتـوقع

وفي موضع آخر يظهر طرفه عـدم اعتقاده في التطير، ويوصي من أراد فعل شيء ألا يتراجع عنه بسبب التـشاؤم، معللا ذلك بالإيمان بالقدر، فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ يقول [٢]

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه	وخل الهـوينا جـانـبـا مـتنائيـا
ولا يمنـعك الطـيـــر ممـا أردته	فقد خط في الألواح ما كنت لاقيا

وممن كـان ينكر الطيـرة ويوصي بذلك خزز السـدوسي الذهلي، فـفي رسالة له إلى من دعـاه عمرو بن لأي نعي فيهـا نفسه وإقامـته الدائمة بمأرب اليمنية علـى غير ما كان يعـتقد أو يظن، وما يؤدي إليه خـبر النعي من بكاء قومـه عليه وشق النساء لجيـوبهن أسفا وحـسرة على فقده، وخـروجهن من خدورهن على غير وجه كـالبقر العطاش، ويسجل الشاعر عدم اعتـقاده فيما يعتقده غـيره من الجاهلين في التمائم التي تعلق في عنق الصبي لتـحميه من العين، أو التـشاؤم بطائر الصـرد أو الغـراب ونحو ذلك، فـالحيـاة في نظر الشاعر تقلب الانسان بين الخير والشر ولا تدوم على حال يقول [٣]

---

(١) ديوان طرفة تحقيق الجندي ١٧٨ .

(٢) نفسه ٢١٣ .

(٣) الآمدي: المؤتلف والمختلف ١٤٣ .

طال الثواء بمأرب ... وظننت أني غير رائم
من مبلغ عمرو بن لأ ... ي حيث كان من الأقاوم
فلرب باك من بني ... ذهل وقاعدة وقائم
ومشققات للجيو ... ب عليّ كالبقر الحوائم
لا يمنعك من بغا ... ء الخير تعقيد التمائم
ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا ... شر على أحد بدائم

ويشير عوف بن عطية التيمي إلى انفلاته من دائرة التطيّر الجاهلية، بفضل إيمانه الذي جعله يسير نحو بلاده للقاء أحبته دون خوف أو وجل مما يسمونه بالسانح والبارح. يقول(١)

نؤم البلاد لحب اللقاء ... ولا نتقي طائرا حيث طارا
سنيحا ولا جاريا بارحا ... على كل حال نلاقي اليسارا

ب- المجال الإجتماعي والأخلاقي

تدور الحكمة في هذا المجال حول العلاقات الإنسانية والإجتماعية في إطار القبيلة والصلات بين أبناء العمومة فيها وبين الجيران وما يتمتعون به من أخلاق ومثل في معاملة بعضهم لبعض.

فهذا أوس بن حجر يوجه إلى قريبه أو خليله عبد الله نصيحة يلفت نظره من خلالها إلى أهمية الارتباط بالمجتمع برباط المحبة والولاء، وأن هذا

(١) المفضلية ١٢٤.

الرباط لا يتحقق إلا بالحلم مع الصغير والكبير، وترك النميمة والغيبة والفحش مع الجميع، والتعامل بروح أخويه بعيدة عن الشر والعدوانية، ويقدم الشاعر بين يدي نصيحته أمثلة حسية يبرهن بها على ما يقول مؤيدا بها وجهة نظره. يقول(١)

يا راكبا إما عرضت فبلغن	يزيد بن عبد الله ما أنا قائل
بآية أني لم أخنك وأنه	سوى الحق مهما ينطق الناس باطل
فقومك لا تجهل عليهم ولا تكن	لهم هرشا تغتا بهم وتقاتل
وما ينهض البازي بغير جناحه	ولا يحمل الماشين إلا الحوامل
ولا سابق إلا بسابق سليمة	ولا باطش ما لم تعنه الأنامل
إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا	أصبت حليما أو أصابك جاهل

وقدم شعراء الخليج الجاهليون أكثر من تعريف للأخ الحق والقريب الحميم، وأشاروا إلى كيفية معاملته، فربيعه بن مقروم يعرف الأخ المحض بأنه الصادق الإخاء الذي تدنو منه وترجو مودته، وإذا دعوته لأمر اعتراك أجابك، وإذا حاربت عدوك قرب منك هذا المواخي لك ومعه سلاحه ليعينك. يقول(٢)

أخوك أخوك من تدنو وترجو	مودته وإن دعي استجابا
إذا حاربت حارب من تعادي	وزاد سلاحه منك اقترابا

وأوس بن حجر يعر ف الأخ الحقيقي بأنه الذي يحفظ غيبتك ويستر عيوبك، وإن كنت بعيدا عنه، وإذا حل بك أمر أو داهمك خطر قرب منك

(١) ديوانه ٩٩.

(٢) حماسة أبي تمام ١/ ٢١٥.

ووقف إلى جانبك يقول(١)

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك إن ولي ويرضيك مقبلا
ولكن أخوك الناء ما دمت آمنا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

ويعبر هرم بن حيان العبدي عن أثر وجود الفرد في نسق الجماعة، وما يتركه هذا الأثر من قوة ومهابة، لا يتوفر شيء منهما لمن عاش بمفرده، حيث يصبح عرضة للعدوان والهوان يقول(٢)

أراني متى أغضب من الناس ذا ثري له إخوة يشدد علي بهم معا
ولا يجد المكثور ما دام واحدا وعادي ذوي الأضغان للضيم موضعا

وهذا ما جعل النعمان بن حنظله العبدي يحرص على بقاء الصلة بالقريب وإن كان سيئا ليتخذه ردءا يحميه من الأعداد الأبعدين . يقول(٣)

وإني لأستبقي امرء السوء عدة لعدوة غريض من القوم جانب
أخاف كلاب الأبعدين وهرشها إذا لم تهارشها كلاب الأقارب

ويعبر ربيعة بن مقروم عن قوته واستعداده لمجابهة خصمه اللدود وإيثاره جانب اللين والسياسة فيقول كم من رجل بصدره حقد عليّ شديد يعطيني بلسانه ما أحب ويضمر لي في قلبه ما أكره، ولو أردت الانتقام منه لانتقمت بلسان طلق ذلق يهيج للشر، ولكنني أبقيت على من يعاديني ووصلت أسباب محبته بحبل عمي أبي بيان، كما وصلته بحبل ضمرة الذي

---

(١) ديوانه.

(٢) حماسة البحتري ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٤٩ .

هو خير جار لي، وبيني وبينه وافر اتحاد وعرى وثيقة، فله كرم في الحي وصفا، خلق كالذهب الخالص الذي يتلألأ لآخذه يقول(١)

وكم من حامل لي ضب ضغن	بعيد قلبه حلو اللسان
ولو أني أشاء نقمت منه	بشغب أو لسان تيحان
ولكني وصلت الحبل منه	مواصلة بحبل أبي بيان
وضمره إن ضمره خير جار	علقت له بأسباب متان
هجان الحي كالذهب المصفى	صبيحة ديمة يجنيه جان

ويتمدح أوس بن حجر بإظهار حلمه لابن عمه إذا جهل عليه، ونصحه النصيحة إذا استشاره، وتقديم كل ما يستطيع من مساعدة عند حاجته إليها. يقول (٢)

فلا أعتب ابن العم إن كان ظالما	وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا
وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني	يجدني ابن عم مخلط الأمر مزيلا

ويبدي طرفة بن العبد رأيه في مجال العلاقات الاجتماعية فيقول إذا لم يكن المرء ذا نفع للأهل وشديد على الأعداء فلا خير فيه، وهو بعيد عن دائرة الضوء والأهمية. إن الأيام تذهب ولا تعود والعمر يفنى ولا يبقى للانسان إلا عمله، فالعاقل من يغتنم فرصة الحياة ويتزود فيها بالخير النافع والعمل الجليل. وليس هنا لذة في خير يأتيك عن طريق الاساءة إلى غيرك أو الاعتداء عليه، كما أنه لا خير في شيء تناله بالخصومة والتهديد وإذا

(١) حماسة أبي تمام ٦/٢.

(٢) ديوانه.

أردت أن تعرف شخصية إنسان ومكانته فابحث عن أصحابه وجلسائه لأنه حتما يقتدي بهم ويسير على منوالهم. يقول [١]

إذا أنت لم تنفع بودك أهله ... ولم تنك بالبؤسي عدوك فابعد

لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما اسطعت من معروفها فتزود

ولا خير في خير ترى الشر دونه ... ولا باطل يأتيك بعد التلدد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فإن قرينا بالمقارن يقتدي

ويجمع المخبل السعدي في حديثه عن العلاقة بينه وبين قبيلته بين قوة الحق وحق القوة، فشاعرنا حريص على التوفيق بين الأمرين أو المنطقين، ليحفظ للعشيرة مكانتها وهيبتها، وهي حريصة على ذلك، ولهذا فهي تقف معه ضد أي ظالم مهما كانت قوته، وبدافع من ثقته بها يبدو قويا صلبا حيال الأعداء، وفروسية القوم تجعلهم ينصفون الضعيف قبل القوي، ولا يتركون مجالا لأي أحد يتعاظم عليهم أو يتكبر. يقول [٢]

وقالوا أخانا لا تضعضع لظالم ... عزيز ولا ذا حق قومك تظلم

رأوا أنني لاحقهم أنا ظالم ... ولا ناصر إن جاوز الحق مسلمي

وإنا أناس تعرف الخيل زجرنا ... إذا مطرت سحب الصوارم بالدم

وإنا لنعطي النصف من لو نضيمه ... أقر ونأبى نخوة المتظلم

ويوصي قيس بن عاصم السعدي بنيه بالألفة والاتحاد وترك الخلاف والشقاق، مبينا لهم أن عزهم وبقاءهم في ترابطهم واجتماعهم، حيث القوة

---

(١) ديوانه ١٧٨.

(٢) حماسة البحتري ١٥٦.

والمنعة، وأن ذهابهم وزوال ريحهم في تنابذهم وفرقتهم، مؤيدا رأيه بالأمثلة الحسية المستمدة من البيئة يقول[١]

بصلاح ذات البين طول بقائكم ... إن مد في عمري وإن لم يمدد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم ... لمسود منكم وغير مسود
إن القداح إذا جمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزت ولم تكسر وإن هي بددت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

وتبلغ الواقعية عند أوس بن حجر إلى حد الصراحة التي تجعله لا يجد غضاضة في توجيه النقد الذاتي لنفسه ولقومه الذين ورثوا مجدا تليدا، وبدلا من أن يضيفوا اليه الطارف من الأمجاد ويعلو بناءه جعلوه بإهمالهم واتكال بعضهم على بعض عرضة للضياع والتبدد. يقول [٢]

ورثنا المجد عن آباء صدق ... أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته ... بناة السوء أوشك أن يضيعا

ويشير سلامة بن جندل السعدي إلى منهجه الذي ارتضاه في معاملة الناس قريبهم وبعيدهم، وهو أسلوب يقوم على الكشف والمجاهرة لا على الغش والخداع، وإذا كان صديقه لا يفصح بمعاذيره فإن الشاعر يفصح بها ويعلنها. وقد وقف ممن عاداه ثلاثة مواقف: أحدها المقاطعة مع من لا أمل في صلاحه والثاني مواصلته وتحمل أذاه على سبيل التفضل والثالث وهو الرجل الذي سارع إلى الشر واللؤم فقد جابهه بالبطش يقول [٣]

---

(١) العسكري: ديوان المعاني ١/ ١٥١.

(٢) ديوانه ٥٦.

(٣) ديوانه ١٩٥.

أمـا الخلى والمسـح إن كـان منهّ   عليّ فـإني غـير خـال ومـاسح

وأمـا مـعـاذير الصـديق فـإنني   سأبلغـها إن كنت لست بـفاصح

وذي مثـرة من الصديق اجتنبـته   وآخـر قد جـاملتـه وهو كـاشح

تحـملته عـمـدا لأفـضل بعدمـا   بدت ابن في ســاقـه وقــوادح

ومـهـتـزع حـالا ولؤم خليـقـة   صـقـعت بـشـر والأكف لواقح

وفي تأملات طرفة بن العـبد في العلاقات الانسانية يشـير إلى أثر القرابة في توفير العزة والمنعة للانسان، وأن العاقل هو الذي يحافظ على هذه العلاقة، ويتحمل في سبيلها الكثير فيتحلم على قريبه ويغفر له زلاته وهفواته، كما يشير إلى أثر التجانس الروحي أو التعاكس في العلاقات الإنسانية. يقول[١]

وأعلم عـلمــا ليس بالـظن أنه   إذ ذل مـولـى المرء فـهــو ذليل

وإن لسـان المرء مــا لم تكن له   حــصــاة علـى عـوراته لـدليل

وإن امـرءا لم يعف يومـا فكاهة   لمن لم يـرد ســوءا لجـــهـــول

تعـارف أرواح الرجال إذا التـقوا   فــمنهم عــدو يتــقي وخـليل

ويسجل المخـبل السعدي بعض خـواطره المتعلقـة بالعلاقات الانسـانية والاجتمـاعية، فينصح من يتـعرض لمعادة الناس ألا يجعل من عـرضه هدفا لهم، فلا يفعل ما يخل بشرفه وينال من كرامته، ولو أدى ذلك به إلى الموت الذي هو واقع عليه حتى من غـير الجهة التي يخاف منها ويحـسب حسابها، والعاقل قد يقع في الجهل ولكن سرعان ما يعود إلى الحلم ويكون له وجاء، ونظرة الناس إلى الانسـان ليست صـائبة عـلى الدوام، فقـد ينتقص اللبـيب

(١) ديوانه ١٢٠.

ويحمق الرزين ويستضعف الحازم يقول [١]

إذا أنت عاديت الرجال فلاقهم   وعرضك عن غب الأمور سليم
وإن مقادير الحمام إلى الفتى   لسواقة ما لا يخاف هموم
وقد يسبق الجهل النهي ثم إنها   تريع لأصحاب العقول حلوم
وقد تزدري النفس الفتى وهو عاقل   ويؤفن عند القوم وهو حزيم

ويقدم المثقب العبدي صورة رائعة للعلاقات الإنسانية فحين سمع كلمة معيبة من حاسده القريب مر عليها كأن لم يسمعها، وعلى الرغم من أن الآخرين عابوه عليها واستفزوه بها فإنه لم يتأثر بها ولم تحرك منه ساكنا، فقد صدرت هذه الشتيمة من ابن عمه وليس في طبعه الرد عليه بمثلها، بل هو فوق ذلك لا يخلف وعده معه رغم ظلمه له وتعديه عليه، ورغم أن هذا القريب ذو شخصية مزدوجة يلقاه بوجه طلق وينال منه في غيابه، والشاعر مع علمه بعيوب ابن عمه إلا أنه لم ينتقم منه بكشفها أمام الناس، بل سترها عليه بدافع الحفاظ على الحسب والدين واللفظة الأخيرة من الألفاظ المعربة، ويرى كثير من المستشرقين أن لفظ دين في الفارسية من أصل دانيا، فقد ذهب غولرس إلى أن هذه اللفظة كانت معروفة عند الجاهليين بهذا المعنى الاصطلاحي وأنها دخلت إليهم من الفارسية يقول [٢]

وكلمة حاسد من غير جرم   سمعت فقلت مري فانفذيني
وعابوها عليّ ولم تعبني   ولم يعرق لها يوما جبيني

(١) القالي: الأمالي ٢/٢٣٣.
(٢) ابن عبد البر: بهجة المجالس ١/١٠٣- في كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة ص ٦٩) الدين والديانه: المعتقد، مأخوذ من الفارسية دين وهو المعتقد ويطلق أيضاً على ملاك كان موكلاً على محافظة العالم، وعلى اليوم الرابع والعشرين من كل شهر الذي كان فيه الفرس يرسلون أولادهم إلى المدرسة ويزوجون ويتزوجون.

وما من شيمتي شتم ابن عمي ولا أنا مخلف من يرتجيني
وذو الوجهين يلقاني طليقا وليس إذا تغيب يأتليني
بصرت بعيبه فكففت عنه محافظة على حسبي وديني

ويوصي نفيل بن مره العبدي ابنه بحفظ الأمانة والوفاء بها على الدوام طول حياته ليترك لنفسه سمعة حسنة بعد مماته ويبقى في نظر الناس الرجل الأمين. يقول (١)

بني استمع مني هويت وصاتيا ولا تك عنها مدة الدهر ساهيا
إذا ما امرؤ أسدي اليك أمانة فأوف بها إن مت سميت وافيا

ويقدم الشاعر من نفسه المثل أمام ابنه والناس فيتحدث عن الأمانة وعن رعايته لها ومحافظته عليها، سواء كان خليلة صاحب الأمانة حاضرا أم غائبا. يقول(٢)

وإن أمانتي لا يجتويها خليل في زيال واجتماع
سأرعاها وإن هو غاب عني لكل أمانة بالغيب راع

أما علاقة الجوار عند أهل الخليج الجاهليين فقد كانت غالبا محل رعاية الكثير منهم كما سجلها شعرهم.

فحين أغار بنو محلم بن ذهل على إبل جار حزن المازني وذهبوا بها أتبعهم وقتل منهم وارتجع الابل، وقد سجل حزن ذلك في أبيات بين فيها أن دفع الفقر وطلب الغنى لا يكون من هذا الوجه، وأن جوار الشاعر حمى لا

(١) حماسة البحتري ٧٤.
(٢) نفسه.

يقرب وجاره في منعه يحميه بدمه ويموت دونه يقول[١]

أمن مال لجاري جئت تحترش الغنى	وتدفع منك الفقر يا ابن محلم
لقدما أتيت الأمر من غير وجهه	وأخطأت جهلا وجهه المتغنم
فما نحن بالقوم المباح حماهم	وما الجار فينا إن علمت بمسلم
وإنا متى نندب إلى الموت نأته	نخوض إليه لج بحر من الدم

وحين تعرض جار وفاء المازني للقتل على يد أخيه عندما طمع في زوجته كان إيمانه العميق وراء موقفه الفذ، ويحدثنا وفاء المازني عما دار بينه وبين أخيه قيس قبيل قتله إياه بجاره، فيذكر مناشدة أخيه له عندما جرد سيفه من غمده ليقتله، وأخذ يتوسل إليه ألا يفعل، ولكنه رد عليه بأن غدره بجاره قطع كل جسور المودة والرحم والذمة بينهما، ولم يبق أمامه إلا أن يغسل عار الغدر بضربة واحدة ولكنها قوية.[٢]

يناشدني قيس قرابة بيننا	وسيفي بكفي وهو منجرد يسعي
غدرت فما بيني وبينك ذمة	تجيرك من سيفي ولا رحم ترعى
سأرحض عني ما فعلت بضربة	عقيم البديّ لا تكر ولا تثنى

غير أن بعضهم شكا من سوء الجوار، فتجربه عمرو بن هبيرة العبدي غير الناجحة في ظل الجوار جعلته يخرج بنتيجة خلاصتها أن من يعيش خارج عشيرته وبين قوم غير قومه يلقى الذل والهوان وضياع الكرامة والعزة، ويصبح ويمسي في مؤخرة القوم وعلى هامش حياتهم، فإن غضب بسبب

(١) المؤتلف والمختلف ١٤٢.

(٢) حماسة البحتري ١٤٢.

ظلم أو ضيم لا يجد من يرضيه ويرفع عنه الحيف. وإن رفع أحد صوته عليه لا يستطيع إعلاء كلمته ورفع صوته، وإن جوبه بالمنكر لا يقدر على رده وتأنيب أحد عليه، وإن ورد إلى منهل تقدم عليه الجميع وشربوا قبله، فهو في مهانة ومذلة حتى يرجع إلى قومه. يقول [(١)]

ومن تك في غير العشيرة داره ... يغضب فتبرد غير مرضي مغاضبه
يرى كل صوت منهم فوق صوته ... ولا يوجبوا منه الذي هو واجبه
وينكر عليه إن أراب بخطة ... ولا يستطع تنكير ما هو رائبه
وليس وإن آووا عليه بمؤنبي ... وينكر عليه غيره ويشاربه

وقد طردت بنو دارم الحارث بن ظالم من جوارها خوفا من حرب محتملة تنوي بني عامر شنها عليهم بسبب هذا الجوار، فعاتبهم الحارث عتابا ممزوجا بالهجاء على تخليهم عنه، فرد عليه حاجب بن زراره ردا زعم فيه محافظتهم على حقوق الجار ووفاءهم له، إلا أنه اعتذر عن تعريض قومه لخطر حرب غير مبرره. يقول [(٢)]

وإنا إذا ما خاف جار ظلامه ... لبسنا له ثوبي وفاء ونائل
ولو حاربتنا عامريا ابن ظالم ... لعضت علينا عامر بالأنامل
ولكنني لا أبعث الحرب ظالما ... ولو هجتها لم ألف شحمة آكل

وجاور الأسود بن يعفر الدارمي بني مره بن عباد بن قيس بن ثعلبه في

(١) نفسه ١٠٧.

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٣٤٦.

نطاع الخليجية، فأغار على إبله ناس من بكر بن وائل فقال، معبرا عن سخطه على المكان والسكان.(١)

وما كانت الأجواف مني محبة وساكنها من غدة وأفاعي
طحون كملقي مبرد القين فعمة بجرعاء ملج أو بجو نطاع

وبين الناحية الاجتماعية والأخلاقية تلازم وتمازج فالأخلاق إنما تتجلى في المعاملات بين الناس. وقد أولى شعراء الخليج في الجاهلية جانب الأخلاق وآداب السلوك مزيد اعتناء، وجاءت حكمهم الأخلاقية من خلال وصاياهم لأبنائهم أو مخاطباتهم لزوجاتهم أو فخرهم بأنفسهم أو قومهم.

ويوصي عبد قيس البرجمي ابنه بجملة من الصفات العالية يأتي على رأسها تقوى الله والوفاء بنذره والتحلل من حلف اللغو، ثم الدعوة إلى إكرام الضيف والتلطف مع الصديق ومواصلة المخلصين، واجتناب مواطن السوء والنزوح عن دار المذلة، والتراخي في عمل الشر والاسراع في عمل الخير، والقناعة في حالة الغنى والتجمل في حالة الفقر، ومساعدة الكرام ومشاركتهم في الضيق والسعة. يقول محقق المفضليات عن هذه القصيدة : هي من الأدب الرفيع والخلق السامي، فهي من أولها إلى آخرها سياسة رسمها الشاعر لابنه اقتبسها من خلق العربي ومن تجاربه هو وحنكته، فهي بذلك سجل للمثل الأخلاقي العالي عند العرب، ودليل على عناية هؤلاء بتربية أبنائهم وحرصهم على السمو بها. ولعل للحنيفية أثر في هذه الوصية. يقول(٢)

---

(١) معجم الشرقية للجاسر ٤.

(٢) المفضلية ١١٦.

اللـه فـــائقـــة وأوف بـنذره ... وإذا حلفـت مماريا فـتـــحلل
والضـيف أكـرمه فـإن مـبيتـه ... حـق ولا تـك لـعنـة لـلـنـزل
ودع القـوارص للصـديق وغيـره ... كي لا يروك من اللـئام العـزل
وصل ! لمواصل ما صـفا لك وده ... واحـذر حـبال الخـائن المتـبـدل
دار الـهـــــوان لمن رآهـا داره ... أفـراحل عنهـا كـمن لم يرحل
وإذا همت بأمـــر شـر فـاتـئـد ... وإذا همـمت بأمر خـيـر فافـعل
واسـتغن مـا أغناك ربك بالغنى ... وإذا تصبك خـصاصـة فتـجمل
وإذا لقـيت البـاهشين إلى الندى ... غـبـرا أكـفـهم بـقـاع ممـحل
فـأعنـهم وايسـر بما يـسـروا به ... وإذا هم نـزلوا بضنـك فـــانزل

ويوصي عـمـرو بن الأهتم السـعـدي ابنه ربعي بوصـيـة تتناول ثلاثة جوانب: الأول المحـافظة على تراث الأباء والأجداد، وما خلفوه من أمـجاد ومآثر، ومحاولة الإضـافة إليها ما استطاع إلى ذلك سبـيلا، والثاني الإشارة إلى حقوق الجـار والضيف، ووجوب العناية بهمـا وإكرامهمـا وبخاصة حين يكونان في حاجة إليها، والجانب الثـالث التنبيه إلى الحذر من الصديق، وأن منهم من قد يتحول إلى عدو مبين. فإذا جاهر بالعداوة وحمل لواءها فليقابل بالقوة حـتى يفيء إلى الحق، أما إذا أصر على الجور فـلا مانع من مواجـهته بمثل ذلك . يقول(١)

لقـد أوصـيت ربعي بن عـمـرو ... إذا حـزبت عـشـيـرتك الأمـور
بأن لا تفـسـدن ما قـد سـعـينا ... وحـفظ السـورة العليـا كـبـيـر
وإن المجـــــد أولـه وعــــور ... ويصـدر غــبـه كـرم وخـيـر

---

(١) المفضلية ١٢٣ .

وإنك لا تنال المجد حتى ... تجود بما يضن به الضمير

بنفسك أو بمالك في أمور ... يهاب ركوبها الورع الدثور

وجاري لا تهينته وضيفي ... إذا أمسى وراء البيت كور

وإن من الصديق عليك ضغنا ... بدالي أنني رجل بصير

بأدواء الرجال إذا التقينا ... وما تخفي من الحسك الصدور

فإن رفعوا الأعنة فارفعنها ... إلى العليا وأنت بها جدير

وإن جهدوا عليك فلا تهبهم ... وجاهدهم إذا حمي القتير

فإن قصدوا لمر الحق فاقصد ... وإن جاروا فجر حتى يصيروا

أما المثقب العبدي فطالعنا بشعر فيه الوصية والمناداة بنعم نعم ولا لا) ومن زاد على ذلك فهو من الشرير، كما ورد في الكتاب المقدس على حد تعبير الأب جرجس داود، كما أن فيه الكثير من الحرص على رضا الناس وتحاشي الغيبة وتجنب الرياء والحلم على الجهال، إنه نفحة من رياض الله. يقول[١]

لا تقولن إذا ما لم ترد ... أن تتم الوعد في شيء نعم

إن لا بعد نعم فاحشة ... فبه فابدأ إذا خفت الندم

لا تراني راتعا في مجلس ... في لحوم الناس كالسبع الضرم

إن شر الناس من يكثر لي ... حين يلقانـي وإن غبت شتم

وكلام سيئ قد وقرت ... عنه أذناي وما بي من صمم

ويقدم الحارث بن حلزه بين يدي دعوته إلى الكرم وجهة نظره القائمة

---

(١) أديان العرب قبل الإسلام ٢٧٩.

على انكار الطيرة، حيث يدعو المزمع على الأمر إلى المضي فيه دون اعتبار لزاجر الطير ونعيب الغراب أو الالتفات إلى ما يجيء من ورائه من ظبي مكسور القرن أو نحو ذلك مما كانت العرب في الجاهلية تتشاءم به، ثم يوصي الشاعر ابنه عمرو ببذل الموجود قبل أن يضيع، وأن يحلب النياق وينتفع بها قبل أن يموت أو يغار على إبله فيذهب بها وتصير منفعة ذلك لمن نهبها، ويكرر هذا المعنى فيقول رب عشار قد صرها صاحبها وحفظها فأغار عليها رجل فأخذها وأسرع بها دون أن يعرج أو يميل بها، بل يسرع في الذهاب لئلا يلحق، فانتفع بما لك قبل أن تموت وينتقل كل ما جمعته وأصلحته إلى الوارث الذي لم يتعب في جمعه فيتلفه. ويمضي الشاعر في دعوته إلى السخاء فيحث على بذل اللبن للضيف وإيثاره على نفسه وولده، مكررا عدم الاغترار بالدهر والركون إليه لما يحمل في طياته من معاطب. يقول[1]

يا أيها المزمع ثم انثنى	لا يثنك الحازي ولا الشاحج
ولا قعيد أعضب قرنه	هاج له من موقع هائج
قلت لعمرو حين أرسلته	وقد حبا من دونه عالج
لا تكسع الشول بأغبارها	إنك لا تدري من الناتج
قد كنت يوما ترتجي رسلها	فاطرد الحائل والدالج
رب عشار سوف يغتالها	لا مبطيء السير ولا عائج
يطيرها شلا إلى أهله	كما يطير البكرة الفالج
بينا الفتى يسعى ويسعى له	تاح له من أمره خالج
يترك ما رقح من عيشه	يعيث فيه همج هامج
فاصبب لأضيافك ألبانها	فإن شر اللبن الوالج

(١) ديوانه ٦٤.

واعلم بأن النفس إن عمرت يوما لها من سنه لاعج
كذاك للانسان في عيشه غالية قام لها ناشج

ودعا شعراء الخليج الجاهليون إلى التحلي بمكارم الأخلاق من خلال مخاطباتهم لزوجاتهم وبناتهم وحوارهم معهن، ويتحدث مرقش الأصغر عن كرمه الذي أعانه عليه ماورثه من المجد الكبير وما يتمتع به من عقل عظيم، مبينا إصراره على ذلك الجود رغم غضب زوجته وانذارها إياه بمفارقته يقول(١)

آذنت جارتي بوشك رحيل با كرا جاهرت بخطب جليل
أزمعت بالفراق لما رأتني أتلف المال لا يذم دخيلي
إربعي إنما يريبك مني إرث مجد وجد لب أصيل

ويطلب يزيد بن خذاق العبدي من زوجته أن تدعه يسعى في طلب المال لا ليجمعه أو يتمتع به، وإنما ليساعد به طلاب الحاجات وأرباب الحقوق، فهو يرى أن عجزه عن مثل هذه المساعدة شيئا كبيرا لا يقدر على احتماله، وهو عجز يتساوى مع الموت، بل الموت الحقيقي أجمل منه وأفضل. يقول(٢)

ذريني أسير في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
فإن نحن لم نملك دفاعا لحادث تلم به الأيام فالموت أجمل
أليس كبير أن لم تلمسه وليس علينا في الحقوق معول

(١) المفضلية ٥٩.

(٢) المرزباني: معجم الشعراء ٤٩٥.

ويدعو رديح بن تيم الله بن ثعلبة إلى التحلي بمكارم الأخلاق الشهيرة، وإلى استفادة الانسان من آرائه السديدة، وإلى عدم التخلي عن عمل الخير بدافع الشح فما يبقيه الشحيح لا بركة فيه ولا خير. يقول [(١)]

سام الندى وارفع يديك الى العلا فليس بأخلاق الكرام خفاء
إذا أنت لم تأخذ برأيك فضله فإنك والرأي الضعيف سواء
ولا يمنعنك الخير بقيا معيشة فليس لما يبقى الشحيح بقاء

وعاتبت سلمى بنت الأسود بن يعفر أباها على إضاعته ماله فيما ينوب قومه من حمالة وما يمنحه فقراءهم ويعين به مستميحهم فقال مسجلا ما دار بينهما من حوار حول هذا الأمر مبينا إصراره على الانفاق، مؤيدا سلامة مسلكه بفكرة الفناء الذي لا يبقى ولا يذر، فقد هلك أصحابه وإخوانه وبقي وحده في انتظار الموت المفرق بين الأحبة فكيف يضن بالمال أو يأسف على فواته، وإذا كان كل شيء مصيره الفناء بما في ذلك المال فالأولى إنفاقه في وجوه الخير ليبقى من ورائه الذكر الجميل يقول[(٢)]

وقالت لا أراك تليق شيئا لتهلك ما جمعت وتستفيد
فقلت بحسبها يسر وعار ومرتحل إذا رحل الوفود
فلومي إن بدا لك أوأفيقي فقبلك فاتني وهو الحميد
أبوالعوراء لم أكمد عليه وقيس فاتني وأخي يزيد
مضوا لسبيلهم وبقيت وحدي وقد تفني رباعته الوحيد
فلولا الشامتون أخذت حقي وإن كانت بمطلبه كؤود

(١) المؤتلف والمختلف ١٧٥ .
(٢) شعراء النصرانية ٤٨٠ .

وفي سياق وصية حجر بن خالد الضبعي لزوجته يقول هام الفؤاد بحب هذه المرأة الكلبية، ولا تزال النفس ترى من شدة الشغف بها أهوالا لا تقاسيها، ثم يوصيها الشاعر بأن تلتزم بالحياء أثناء غيبته التي قد لا تنتهي بالعودة إليها، وأن تبقى وفية له فلا تقترن بضعيف لئيم من الرجال ولا بخيل شحيح ولن تجد صهرا لأهلها يماثله أو يساويه في الكرم والشجاعة يقول [(١)]

كلبية علق الفؤاد بذكرها ... ما إن تزال ترى لها أهوالا

فاقني حياءك لا أبالك أنني ... في أرض فارس موثق أحوالا

وإذا هلكت فلا تريدي عاجزا ... غا ولا برما ولا معزالا

واستبدلي ختنا لأهلك مثله ... يعطي الجزيل ويقتل الأبطالا

غير الجدير بأن تكون لقوحه ... ربا عليه ولا الفصيل عيالا

ويطلب طرفه بن آلاءه الدارمي من امرأته أن تثني عليه بالصفات التي تعرفها فيه ومنها إجابة دعوة المولى المستصرخ سواء كان ابن عم أو حليفا أو صديقا، ومنها الوفاء له والمحافظة على عهده وعدم خيانته أو الغدر به، ومنها عدم الحرص على الحياة أو التعلق بها حين يقدر الله فراقه عنها يقول[(٢)]

أثني علي بما جربت من خلقي ... فقد بلوت وقد جربت أخلاقي

لا أخذل الداعي المولى لدعوته ... ولا أخون ولم أغدر بميثاق

ولست إن ساقني ربي إلى قدري ... إلى الحياة ولا الدنيا بمشتاق

أتابع ورق الدنيا لأخلده ... وما على الدهر والأحداث من باقي

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ١٣٧.

(٢) المؤتلف والمختلف ١٤٦.

إني لأرجو مليكي أن يعافيني ويعقب الله أمنا بعد إشفاق

ويفخر عمرو بن الأهتم بكرمه فيذكر حسن استقباله لضيفه وترحيبه به، وتقديم شراب الصبوح إليه لبنا أو خمرا منذ اللحظة التي حل فيها ضيفا عليه، ثم يقرر أن ما فعله لا يخرج عن فعل الكرام والصالحين من الناس الذين تتسع أخلاقهم للآخرين فلا يصبح المكان ضيقا أمامهم مهما كان يقول[(١)]

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل لأحرمه إن المكان مضيق

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا صبوح راهن وصديق

وكل كريم يتقي الذم بالقرى وللخير بين الصالحين طريق

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ويكشف عوف بن عطيه التيمي عن جانب من أخلاقه الرفيعة المرتكز على الجود والسخاء وحماية الجار ورعايته يقول[(٢)]

فما زادتي الشيب إلا ندى إذا استروح المرضعات القتارا

أحيي الخليل وأعطي الجزيل حياء وأفعل فيه اليسارا

وأمنع جاري من المجحفات والجار ممتنع حيث صارا

ويفخر ربيعة بن مقروم بجملة من الصفات الكريمة ذات الجذر الواحد القائم على الكرم الحسي والمعنوي. فهو كريم مع الصديق والنديم والضيف على حد سواء، يعطي كلا منهم حقه كاملا، أما سائر الناس فإن أسلوبه في التعامل

---

(١) المفضلية ٢٣.

(٢) المفضلية ١٢٤.

معهم مبني على المماثلة، فهو مع الحسن حسن ومع المسيء سيء يقول [١]

وإن تسألينى فإني امرؤ أهين اللئيم وأحبو الكريما
وأبني المعالي بالمكرمات وأرضي الخليل وأروي النديما
ويحمد بذلي له معتف إذا ذم من يعتفيه اللئيما
وأجزي القروض وفاء بها ببؤسي يئيسي ونعمي نعيما

هذه هي أخلاقه الشخصية التي يتمدح بها، وهي أخلاق تقوم على الواقعية، أما أخلاق قومه التي يفخر بها فهي أخلاق الفرسان التي تجمع بين الكرم والشجاعة، فهم في الشدائد والمجاعات يبذلون أموالهم لكل محتاج، وهم أهل نجدة وحرب، يملكون السلاح ويجيدون استعماله ساعة الغارة أو الدفاع، وهم أهل عزة وكرامة، لا يحتملون الإقامة في دار الهوان بأي حال كما يحتمل ذلك سواهم. يقول [٢]

وقومي فإن أنت كذبتني بقولي فاسأل بقومي عليما
أليسوا الذين إذا أزمة الحث على الناس تنسي الحليما
يهينون في الحق أموالهم إذا اللزبات التحين المسيما
طوال الرماح غداة الصباح ذوو نجدة يمنعون الحريما
بنو الحرب يوما إذا استلأموا حسبتهم في الحديد القروما
ودار هوان أنفنا المقام بها فحللنا محلا كريما
إذا كان بعضهم للهوان خليط صفاء وأما رؤرما

(١) المفضلية ٣٨.

(٢) نفسه.

ويفخر قيس بن عاصم بأخلاقه وبأنه شريف الخصال نقي العرض راجح العقل، كما يفخر بأصله وأنه من قوم كرام، فهو كريم مثل الغصن ينشأ عنه غصن فيكون مثله..، وهم لكرم أخلاقهم لا يتفصحون خفي أمر جارهم بل يلابسونه على ظاهر أمره، ويحفظون جواره فيحامون عنه ويبذلون نفوسهم دونه. يقول(١)

إني امرؤ لا يعتري خلقي ... دنس يفنده ولا أفن

من منقر في بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن

لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن

ويذكر أن قيس بن عاصم كان أحد من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية بسبب شيء محرج وقع فيه وله في ذلك أبيات سجل فيها موقفه من الخمر ورأيه فيها، فهي تجمح بالانسان وتخرجه من وقاره وتفقده رشده، وتحمل الرجل الكريم على عمل مالا يليق به وارتكاب ما يذهب بحيائه وبهائه، وما يوقعه في الفضائح والمنكرات، لأنها تغطي عقله فلا يميز بين الصواب والخطأ والجميل والقبيح، ولهذا نجد الشاعر يقسم بعدم تناولها أو الدعوة إليها أو شرائها أو بيعها أو استعمالها حتى في الإستشفاء لما تجلبه لصاحبها من عار وشنار يقول (٢)

وجدت الخمر جامحة وفيها ... خصال تفضح الرجل الكريما

فلا والله أشربها حياتي ... ولا أدعو لها أبدا نديما

ولا أعطي بها ثمنا حياتي ... ولا أشفي بها أبدا سقيما

---

(١) حماسة أبي تمام ٢/٢٥١.

(٢) تجريد الأغاني ٤/١٥٠٧.

فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجشمهم بها أمرا عظيما
إذا دارت حمياها تعلت ... طوالع تسفه الرجل الحكيما

وفي موضع آخر يقسم قيس بن عاصم بعدم شربه شيئا من الخمر قل أو كثر، لأنها تخل بشرف الانسان وتذهب بعقله وتنقص من قدره، ثم يوصي شاربها أن يتخلى عنها للسفهاء، ويشغل نفسه بجلائل الأمور، لأنه إذا أصاب منها جانب الصواب، وفقد عقله ورشده وارادته الواعية. يقول:

فوالله لا أحسو مدى الدهر خمرة ... ولا شربة تزري بذي اللب والفخر
فيا شارب الصهباء دعها لأهلها الـ ... غواة وسلم للجسيم من الأمر
فإنك لا تدري إذا ما شربتها ... وأكثرت منها ما تريش وما تبري

وفي مضمار فخر دجاجه الضبي ببني تميم والرباب يعرض الشاعر جانبا من أخلاقهم، فهم يؤمنون الخائف المستجير ويعينون المحتاج، أما أبناء القبيلة فهم في عز ومنعة، وبينهم من التكافل والضمان الاجتماعي ما يجعل الجميع في بحبوبة من العيش والحياة الكريمة، فالفقير يصل إليه حقه من أخيه الغني دون سؤال . يقول [(١)]

قومي تميم والرباب عمادي ... وأنا ابن ضبة في النصاب الأكرم
من يأتنا لجليل أمر خائفا ... أو قاصدا لسماحة وتكرم
يجد الندى والعز حول بيوتنا ... والخافقات وكل طرف مرجم
وعديمنا متعفف متكرم ... وعلى الغني ضمان حق المعدم

---

(١) المصدر السابق ٤/١٥٠٨.

ويرى الجاهليون أن من واجب الانسان أن يدفع عن نفسه بما يملك ما يواجه من شر ومهانة وذم. يقول المرقش الأكبر[١]

أموالنا نقـي النفوس بها   من كل ما يدني اليها الذم

فالمال عند هؤلاء الناس ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة إلى غاية أكبر هي وقاية النفس والعرض من كل ما يدني إلى الذم، ويكشف التشكيل اللغوي عن إحساس بقيمة المال على الرغم من عدم الضن به. ومن ذلك قول المثقب العبدي[٢]

لا يبالي طيب النفس به   عطب المال إذا العرض سلم

فالذي يدفع عن عرضه بالمال طيب النفس، وطيب النفس يدفع عن عرضه بماله، فطيبة النفس هي مصدر الخير والعقل والجميل ويحدثنا المرقش الأصغر عما يقتضيه فعل الخير وفعل الشر، ففعل الخير يحمد صاحبه عليه، وفعل الشر يذم. وأيضا يحدثنا عما تقتضيه الصداقة من تجشم المجاشم وركوب الهول يقول [٣]

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره   ومن يغو لا يعدم على الغي لائما
ألم تر أن المرء يجذم كفه   ويجشم من لوم الصديق المجاشما

ويرى طرفه بن العبد أن الصاحب الوفي ناصح مخلص ومخالفة الناصح الأمين مهلكة، والنصيحة لا تهدي إلا للعاقل المتزن، أما المكابر العنيد فلا يستحق النصح. ويقول أيضا إن إرضاء الأحباب جميل، ولكن لا

(١) حسن يوسف: النفس في الشعر الجاهلي ٧٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣)

تستطيع إرضاء كل من تحب.[١]

فلا أرفد المولى العنود نصيحتي إذا هو لم يجنح إليّ ولم يفض
فما كل ذي غش يضرك غشه ولا كل من تهوى كرامته ترضي

وينصح حزن السعدي الانسان بالابتعاد عن الشر طالما أنه بمنجاة من أذاه، وأن يحافظ على عرضه ويضن به على الآخرين، لأن العرض حق الأهل والوالدين وليس له وحده فيبتذله على حسابهم، كما يدعو الشاعر إلى التفاؤل واجتناب كل ما يؤدي إلى الهموم والأحزان من شرور وآثام، ولا ينسي الدعوة إلى حفظ النفس من أذى الهوان، ولوأدى ذلك إلى الانتقال من بلد إلى آخر حفاظا على العزة والكرامة. يقول[٢]

ولا تعترض للشر من دون أهله إذا كنت خلوا عن أذاه بمعزل
ومن يق أعراض الرجال بعرضه يبح محرما من والديه ويجهل
فلاتك ممن يغلق الهم بابه عليه بمغلاق من الشر مقفل
وإن خفت من دار هوان فولها سواك وعن دار الأذى فتحول

ومع تسليم كعب بن عمرو التميمي وغيره من العقلاء بأن من يرتكب الجناية أو الجرم هو الجاني والمجرم، وهو وحده المسئول عنها والمتحمل لتبعاتها ومسئولياتها، إلا أنه في بعض الأحيان قد يتحمل تبعة الجريمة غير صاحبها الذي لا ذنب له فيها، فيكون حاله في ذلك كحال الابل السليمة حين تجاور الابل الجرباء فتصاب بداء الجرب، وكذلك من يسعى إلى الحرب

---

(١) ديوانه ٢/ ٢.

(٢) المؤتلف والمختلف ١٤٢.

فإنه قد يضع نفسه في أضيق الأماكن وأكثرها حرجا، وهو قبل ذلك في سعه ورحابة، وفي بعض الحالات قد يؤخذ البريء بذنب المجرم، ويسلم الأخير من العقوبة. يقول[١]

جانيك من يجني عليك وقد ... تعدي الصحاح مبارك الجرب
والحرب قد تضطر جانيها ... إلى المضيق ودونه الرحب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المقارف صاحب الذنب

ويوصي قيس بن مسعود الشيباني قومه وصية تحذرية في أبيات له. وكان قيس بن ذي الجدين ضمن لكسرى أحداث بكر بن وائل بأصحاب كسرى فحبسه بإيوان حلوان حتى مات في حبسه، وعلم وهو في الحبس أن الملك يعبيء الجيوش ليوم ذي قار، فقال قيس ينذر قومه بهذه الأبيات التي تمني فيها لو كان مطلق السراح ليعلم قومه ما يدبره كسرى لهم، وليشاركهم في مواجهته بكل ما يملك من سلا ح وخيل، ويوصيهم بتقوى الله أولا، وإصلا ح ذات البين، وأن يتصدر القيادة فيهم سراة القوم وحكماؤهم الذين لا ينطقون إلا بالمعروف، فيوجهون إلى الخير والصلاح والوحدة والألفة، ويكرر تمنيه في أن يكون معهم ليشاركهم في الضراء قبل السراء وأخيرا يحذرهم من الاقتراب من جوانب العراق وألا يدنون منه فتقاد إليهم خيل العدو. يقول[١]

ألا ليتني أرشو سلاحي ونبلتي ... لأن تعلم الأنباء والعلم وائل
فأوصيكم بالله والصلح بينكم ... لينطق معروف ويزجر جاهل
وصاه أمريء لو كان فيكم أعانكم ... على الدهر والأيام فيها الغوائل
وإياكم والطف لا تقربونه ... ولا الماء إن الماء للقود واصل

(١) د. عادل الفريحات : الأوائل ٢٤٥.

(٢) معجم الشعراء: ٣٢٤.

وأوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه وصية حسنة عرف في آخرها المجد بأنه صرح يشترك في بنائه الآباء والأبناء، وتقوم لبنائه على الشجاعة والحلم والعفاف والجود، وأساسه الصدق. يقول[1]

إنما المجد ما بنى والد الصد ... ق وأحيا فعاله المولود

وكمال المجد الشجاعة والحل ... م إذ ازانه عفاف وجود

يقول جرجس داود: كما كان للنصرانية - كما أظن - وغيرها كاليهودية والحنيفية أكثر كبير في أخلاق الجاهلي وتصرفاته، فهو يحرم الغدر ويغض طرفه عند مرور جاراته، ويلجم نفسه عن هواها، يقول أوس بن حجر[2]

على ألية عتقت قديما ... فليس لها وإن طلبت مرام

بأن الغدر قد علمت معد ... عليّ وجارتي مني حرام

ويمضي قائلا: وهذه الشذرات الآلهية من أين أتى بها شعراء الجاهلية لو لم يطلعوا من أهل الكتاب وخاصة النصارى على إيمانهم وما يشمله هذا الإيمان من التقرب لله ابتغاء مرضاته من أعمال البر والتقوى وأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر.[3]

جـ- المجال الاقتصادي والمعيشي

في هذا المجال يعبر المثقب العبدي عن الجهل المطبق بالغيب وعن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أديان العرب قبل الإسلام ٢٧٦.

(٣) نفسه.

العجز التام عن استشراف المستقبل، والخوف الشديد مما يخفيه من الشر المتربص به، طالبا من صاحبته أن ترشده إلى طريق الخير إن استطاعت إلى ذلك سبيلا يقول [(١)]

وما أدري إذا يممت أرضا ... أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني
دعي ما قد علمت سأتقيه ... ولكن بالمغيب خبريني

ويتحدث المتلمس الضبعي عما يسعد الانسان في دنياه وأخراه، فيجعل على رأس ذلك تقوى الله وما يؤدي إليه هذا التقوى من التحصن من الوقوع في الشرور والآثام، ومن ذلك حسن التدبير في المعيشة وعدم تبذير المال وإضاعته بوصفه قوام الحياة والعناية بتثميره ونمائه بدلا من إنفاقه وهدره، فإن الحصول عليه يتطلب الكثير من المشاق والمصاعب، والمال مهما كان كثيرا فإنه مع السرف يذهب ويتبدد على حين نجد القليل مع حسن التصرف ينمو ويزيد. يقول [(٢)]

وأعلم علم حق غير ظن ... وتقوى الله من خير العتاد
لحفظ المال أيسر من بغاه ... وسير في البلاد بغير زاد
وإصلاح القليل يزيد فيه ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

ويوجه المسيب بن علس طالب الحاجات إلى التأني الحسن في التماسها، والأخذ بما يتسير من الأمور، حتى يلين المتعسر منها ويصبح في

---

(١) ديوانه ٢١٢.

(٢) ديوانه.

متناول اليد، فالقصد والإعتدال وحسن التأني في الطلب يجعل جميع الأمور القريبة من الواقع ممكنة التحقق يقول [١]

إذا حاجة ولتك لا تستطيعها فخذ طرفا من غيرها حين تسبق
فذلك أحرى أن تنال جميعها وللقصد أبقى في المسير وألحق

وأوس بن حجر يرى أن الإقامة في البلاد مرهونة بمكانته الاجتماعية ودوره في المجتمع، فإذا تمكن في هذه البلاد من ضبط الأمور وإتقانها فإنه يظل فيها مؤديا لهذا الدور كما ينبغي أن يكون، أما إذا لم تتح له الفرصة للقيام بذلك وأصبح البقاء في البلاد عجزا فإنه يؤثر الرحيل إلى بلاد أخرى عله يجد فيها المكان والدور اللذين يناسبانه. يقول [٢]

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها وأحر إذا حالت بأن أتحولا
وأستبدل الأمر القوي بغيره إذا عقد مأفون الرجال تحللا

والسليك السعدي وهو أحد الصعاليك النشطاء يفرق بين صعلوك وصعلوك، فيرى أحدهما مذموم والآخر ممدوح، أما غير الممدوح فهو الكسول الضعيف صغير الهمة الذي يعيش عاله على غيره ويهتم بالأكل والشرب والسمن، وأما الصعلوك المحمود فهو الطموح القوي المغامر المقاتل الذي لا يهاب الموت وينال رزقه بطرف رماحه. يقول [٣]

---

(١) ديوانه ١٤١.

(٢) يوانه ١٧٢.

(٣) حماسة البحتري ١٢٧.

فـلا يغـررك صـعـلوك نؤوم إذا أمـسى يعـد مـن العـيـال

إذا أضـحـى تفـقـد منكبـيـه وأبصـر لحـمـه حـذر الهـزال

ولكن كـل صـعلوك ضـروب بنصل السـيف هامـات الرجـال

ويقدم سلامه بن جندل من نفسه نموذجا حيا للرجل الطموح صاحب الهمة، الذي لا يقعده الخوف من الموت عن السعي والحركة، وخوض غمار الحرب من أجل الوصول إلى مستوى معيشي أفضل. فحين شكت ابنته لأبيها خوفـها من فقـده عندما رأته خـارجا للغزو أقنعـها بأن الموت قـدر الإنسان وهوواقع لا محالة سواء جلس في بيـته أو رحل عنه، وطالما أن الأمر كذلك فليعش عيشة كريمة عن طريق الحصول على المال الكافي. يقول (١)

تقـول ابنتي إن انطلاقك واحـدا إلى الروع يومـا تاركي لا أباليـا

دعينـا من الاشفاق أو قـدمي لنا من الحـدثان والمنـيـة واقـيـا

ستتلف نفسي أو سـأجمع هجمه ترى سـاقيـيـهـا يألمان التـراقيـا

ويقول المتلمس الضبعي (٢)

وما اليأس إلا حمل نفس على السرى وما العجـز إلا نومـة وتشمس

يقف الشاعر من نفسه ويجاهدها ويحملها على المخاطرة وصولا بها إلى حضرة صحيحة عميقة، وتنقية لها من كل ما يمكن أن يصيبها من عجز وكسل، والمصاحب اللفظي هنا المصدر حمْل، وحمل النفس على السرى دفعها لهذا الفعل رغما عنها، أي أنه فعل يترتب عليه ألم لهذه النفس أو

(١) ديوانه ١٩٨.

(٢) النفس في الشعر الجاهلي ٨٣.

إرغام لهـا يقول د زكريا ابراهيم: إن الألم هو الذي يـكشف لنا عن وجودنا الفردي في حدة قـاسية. . وحينما تستـشعر الذات اللذة فإنها تسـتسلم لهذا الشعور، بحيـث انها لتكاد تنسى نفسها وتتخلى عن ذاتهـا، في حين أنها ما تكاد تستشعر الألم حتى تضيع في ذاتها وتنطوي على نفسها[١].

ويتحدث عمرو بن مالك بن ضبيـعة عن قيمة المال في حياة الناس من واقع تجربته الشـخصية. فيبين أن أي شـيء لا يغني عنه بحال من الأحوال، سـواء كان هذا الشيء نسـبا أو عـقلا أو قـوة، فهـو القـوة التي تعلو على الجميع، وبه يكتسب المرء مكانته الاجتماعـية العالية، ولهذا فإن الفتى الحازم يسعى في طلبه بكل جد، ويتحمل الأهوال من أجل الوصول إليه يقول [٢]

أتيت بني عمرو ورهطي فلم أجد ... عليـهم إذا اشتـد الزمان مـعولا

ومن يفتقر في قومه يحمد الغني ... وإن كان فيهم ما جد العم مخولا

يمنون إن أعطوا ويبـخل بعضـهم ... ويحسب عجزا سـكته أن تعجلا

ويزري بعـقل المـرء قلة مـاله ... وإن كان أقوى من رجال وأحيلا

فـإن الفتى ذا الحـزم رام بنفسـه ... جـواشن هذا الليل كي يتـمـولا

ويذهب أوس بن حجـر المذهب ذاته في إعلاء شـأن المال، فالناس إلا القليل منهم لا يحترمون إلا صـاحب المال، أما من لا يملكه فلا أصحاب له البتـه وإن كان ذا نسب رفيع، فمن لديه المال يقـدره الجميع وإن كان عـبدا. يقول [٣]

(١) المشكلة الخلقية ٢٣٩.

(٢) معجم الشعراء ٢١١.

(٣) ديوانه ٩١.

فـــإنـــي رأيت الناس إلا أقــلهم　　خفــاف العهــود يكثرون التنــقلا
بني أم ذي المال الـكثيــــر يرونه　　- وإن كان عبدا - سيد الأمر جحفلا
وهــم لمـقــل المـــال أولاد عــلــة　　وإن كان محضا في العمومة مخولا

ويرى أوس بن حجر أن من يعــجبك من الناس بطول قامته وضــخامة جسمه وفصاحة لسانه وجمال هيئته قد لا يعجبك في ساحة الحرب، لأن لها صفاتا أهم من ذلك قد لا تتوفر فيه أهمها شجاعة العقل وما تنطوي عليه من رباطة الجأش وحــسن التصــرف وإجادة فنون الفروســية من ضــرب بالسيف وطعن بالرمح وتسديد للسهام وبراعة في الكر والفر. يقول [(١)]

إذا الحرب حلت ساحة القوم أخرجت　　عيوب رجال يعجبونك في الأمن
وللحــرب أقوام يحــامون دونهــا　　وكم قد ترى من ذي رواء ولا يغني

والأضــبط بن قريــع السعــدي يجــمع في نظرته للحــيــاة بين التفــاؤل والتشاؤم، ويدعو إلى تقبلها بما ما تشــتمل عليه من حلو ومر والتكيف معها في جمــيع الأحوال، وعدم التعــلق الشديد بها فكل ضــيق يعقبه ســعة وكل قبيح يــقابله جميل، والحــياة ليست صفوا كــلها، وكلما عاش الإنســان أكثر وتكرر عليه الملــوان واجه الكثيــر من المكدرات والاخفاقــات، وهو لن يظفر بكل ما يطلب فعليــه القناعة والرضا ليستريح ويريح، والشــاعر يتعجب من ذلك المرء الذي يســر بمصائب الآخــرين وهو لا يملك القدرة على صــد هذه المصائب عــن نفسه، ويقــارن الأضبط بين مــوقفــه من هذا الحاســد الأحمق وموقف هذا منه، إن الشاعــر يحاول دفع الأذى عن ذلك بينما يراه يقف منه موقفا معاكسا ينتهي به إلى السقوط في الهاوية حيث لا ينفع الندم، ثم يشير

---

(١) نفسه ١٣٠ .

ابن قريع إلى رأيه في جمع المال وفي العلاقات الاجتماعية وأن دوام الحال من المحال. يقول[(١)] مستعيناً في إبراز معانيه بالتشكيل اللغوي القائم على المقابلات

لكل هم من الهموم سعه ... والمسي والصبح لا فلاح معه

ما بال من سره مصابك لا ... يملك شيئا من أمره وزعه

أذود عن حوضه ويدفعني ... يا قوم من عاذري من الخدعة

حتى إذا ما انجلت عمايته ... أقبل يلحي وغيه فجعه

قد يجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه

ويقطع الثوب غير لابسه ... ويلبس الثوب غير من قطعه

فاقبل من الدهر ما أتاك به ... من قر عينا بعيشه نفعه

وصل حبال البعيد إن وصل ال ... حبل وأقصى القريب إن قطعه

ولا تهين الفقير عللك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

ويبدي مرقش الأصغر تعجبه من جامع المال الذي لا يستفيد منه أو يستفيد منه أحد، وهو كثير العرضه للتلف والفساد، وأخيرا يدعو الشاعر طالب المال أن يتجمل في طلبه، فلا يسعى إليه بعجلة ولهفه لأن الأرزاق مقدره ومكتوبه، وما لم يكن مكتوبا لك لن يصل إليك مهما بذلت من محاولات يقول[(٢)]

عجبا ما عجبت للعاقد الما ... ل وريب الزمان جم الخيول

ويضيع الذي يصير إليه ... من شقاء أو ملك خلد بجيل

---

(١) الأغالي ١/ ١٠٧.

(٢) المفضلية ٥٩.

أجـــمل العـــيش إن رزقك أت لا يرد الترقـيح شـروي فـتـيل

ويضع الحارث بن حلزه القاريء في مواجـهة سافرة بين الحظ والعقل، لكنه يظهـر انحـيازه الكامل مع الأول حـتى لو كـان على حـساب الثـاني، فالأحـمق الذي يعيش في النعـيم والغنى أفضـل من اللبيب الذي يحـيا في الشقاء والفاقـة، فصاحب الحظ السعيد أكـثر توفيقا ورشدا وإن كـان أحمقا قليل البضـاعة من العقل والدهاء. من صاحب الحظ الـتعيس وإن كان كـبير العقل واسع الرأي. وهذه المعادلة الصـعبة التي رأينا فيها الشـاعر ينحاز إلى جانب الغني مع الحماقة هي محل دهشة واستنكار من الكثير من الناس، فقد سأل الأصمعي أحد ناشئة الأعراب : أتحب أن تكون أحمقا وتعطي مائة ألف درهم ؟ فقـال لا ؟ لأني لو كنت كذلك فـقد يذهب مـالي ويبقى حـمقي. يقول الحارث [(١)]

فـــانـعم بجـــد لا يـضـــر ك النـون مـــا أعـطيت جــــدا

فـــالنـوك خـــيـــر فـي ظلا ل العـــيـش ممن عـــاش كـــدا

هل يـحـــرم المـرء القـــوي وقـــــد تري للـنوك رشـــــدا

ويشيـر هناءه الأزدي إلى حال الزمـان القلب وما يأتي به من عـجائب وغرائب، بحيث يتـحول فيه الأرفع من الناس إلى أسفل، والعبـد إلى سيد يتحكم في رقاب السادة الأجواد . يقول [(٢)]

سـيـأتي على الـناس من بعـدنا زمـــان بـه الأســـفـل الأرفع

ويغـدو به العـبــد مـسـتـعليـا على مـن يجــود ومن يفـــضل

---

(١) ديوان ٤٧ .

(٢) شعراء عمان ٩٣ .

أما نظرة الشاعر الجاهلي إلى الهرم فقد كانت نظرة غير مريحة بل هي نظرة كريهة، وربما داخلها شيء من الخوف حتى أن الأمر قد يصل به إلى أن يضعها بمقابل ا لداء ويشير عمرو بن قمئة إلى أثر الزمن في الإنسان وأنه كلما تقدم به العمر تأخرت صحته، وحتى لو سلم من الأمراض العارضة فإن الهرم والشيخوخة كافيان في ضعفه والحط من قوته، فسلامة الجسد مع الخرف والتخلف العقلي أكبر مرض يواجه الإنسان يقول [(١)]

كانت حياتي لا تلين لغامز — فألأنها لا صباح والامساء
ودعوت ربي في السلامة جاهدا — ليصحني فإذا السلامة داء

ويختزل ابن قمئة حياة الإنسان في صورة نجم يبدو في عنفوان شبابه ساطعا بهي المنظر، ثم لا يلبث أن يشيخ فيتبدد ضوؤه ويصير هباء يقول[(٢)]

وماعيش الفتى في الناس إلا — كما أشعلت في ريح شهابا
فيسطع تارة حسنا سناه — ذكي اللون ثم يصير هابا

يقول د عبد العزيز شحادة : ولعل الاحساس بصفة التغيير المستمر للزمن والتغيير الواقع على عالم الشاعر هو الذي كان وراء قول عمرو بن قمئة: (ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحبني فإذا السلامة داء) لعل عمرا كان يبحث عن السلا مة فإذا به يرى في سلا مته داءه، إن هذا موقف مدهش للشاعر إزاء الوجود حتى يطالعنا هذا التعبير (السلامة داء) ولعله رأى في وجود الإنسان إزاء الزمن شيئا ضئيلا واقعا فريسة للتغيير باستمرار فتوصل إلى مثل هذه المقولة الفلسفية[(٣)] وأضاف الشعراء إلى الزمن صفة

---

(١) ديوانه ٧١ ، تحقيق العطية. (٢) نفسه
(٣) الزمن في الشعر الجاهلي ٦٩ .

الشمولية، فهو في فاعليته التغييرية لا يحصي إنسانا دون آخر إنه القوة التي تطول الجميع، ويظهر ذلك في قول عمر بن قمئة:

فيا دهر قدك فأسجح بنا   فلسنا بصخر ولسنا حديدا

ولذلك يبدو النضال بين الزمن والإنسان غير متكافيء كما في قول طرفة بن العبد:

ومن حارب الأيام طاشت سهامه   ومن أمن المكروه فالدهر عائقه

فطرفة يحكم ابتداء على نتيجة المواجهة بين الإنسان والزمن، وهو فشل الانسان في مواجهة الزمن وتصديه له وعبثية هذا التصدي، كما يظهر مثل هذا الإحساس بالعجز في مواجهة الزمن مباشرة عند عمرو بن قمئة[١].

والملاحظ أن هذه النظرات الشخصية جاءت في عمومها متشابهة وكانت تدور حول حقائق معينة، كنظراتهم إلى حتمية الموت وفناء الحياة وفعل الخير وسجايا النفس البشرية بوجه عام، ومرد ذلك إلى أن هؤلاد الشعراء كانوا يخضعون لظروف معيشية وبيئية وثقافية واحدة، وكان لابد أن ينتج عن ذلك النمط الموحد من الحياة نظرة شبه موحدة من قبل الخاضعين لهذا النمط من العيش. وقد تميز شعراء عبد القيس الجاهليون بالإكثار من الحديث عن الموت. فما بالك ونحن نعالج نظرات صدرت عن أبناء منطقة واحدة، الأمر الذي من شأنه أن يكون تأثير هذه العوامل السابقة الذكر أكثر التصاقا بحياة الأفراد، ولذا فقد جاءت نظرات هؤلاء الشعراء مستمدة من الواقع المعاش لهم، وكانت مستمدة من البيئة الجاهلية بالدرجة الأولى، ومن ملاحظة الشاعر الجاهلي الخليجي لتقلبات أحوال الدهر وشؤون الحياة.[٢]

---

(١) نفسه ٧٠-٧٢.

(٢) انظر: شعر بني أسد في الجاهلية ٢٨٠.

الباب الثالث
الدراسـة الفنيـة
لشعر الخليـج الجـاهلي

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول
لغة الشعر وبناؤه الفني

١) اللغــة

أ- السهولة.

ب- الوعوره.

جـ- الأجنبي.

٢) صيغ التبليغ.

٣) الواقعية.

٤) الاستفهام.

٥) الالتفات.

٦) التكرار.

٧) السرد القصصي.

٨) التأثر بالموروث.

٩) الابتكار والمحاكاة.

١ - الملمح اللغوي

أ - السهولة:

اللغة العربية لغة شاعرة، وتتجلى شاعريتها أكثر في فن الشعر، فاللفظة المفردة تلعب دورها في السياق العام لأسلوب الشعر، وقد استعمل شعراء الجاهلية الأنماط العالية من الألفاظ، فكانوا المثل المحتذى لمن جاء بعدهم، وقد أشار نقاد العرب القدماء إلى مزايا لغة الشعر، يقول أبو هلال العسكري: فمن مراتبه العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام النظم الذي به زنة الألفاظ وتمام حسنها، وليس شيء من أصناف المنطوقات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر.. ومن أفضل فضائل الشعر أن ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزلها وفصيحها وفحلها وغريبها من الشعر؛ ومن لم يكن راوية لأشعار العرب يتبين النقص في صناعته[(١)] ويجعل ابن رشيق للشعر قاموسا خاصا من الألفاظ، يرى لزاما على الشاعر ألا ينهل من سواه[(٢)]. ويرى صاحب الموشح أن القافية وحدها لا تصنع شعراء، فهو « أبعد من ذلك مراما وأعز انتظاما[(٣)] ويصف هيجل العرب بأنهم ذوو طبيعة شعرية رفيعة، معللا ذلك بحسن استخدامهم للغة الشعرية على الوجه الأمثل[(٤)].

وحين ننظر في المعجم اللغوي لشعراء الخليج الجاهليين نجد الألفة والبساطة هما السمة الغالبة فيه و «ليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك، وإنما الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها» فإن لفظة (تضرس) في قول المتلمس

أبلغ ضبيعة كهلها ووليدها   والحرب تنبو بالرجال وتضرس

---

(١) كتاب الصناعتين ١٤٣، ١٤٤.

(٢) العمدة: ١/١٢٨.

(٣) المرزباني ٥٤٧.

(٤) فن الشعر ٢١٠.

أعطت الحرب صورة الحيوان المفترس الذي يمزق بأسنانه القوية الحادة أجساد الأعداء. وكلمة عقاب كلمة تدل على طائر معين هو النسر ولكن المثقب العبدي عندما استخدمها ليصور لنا كتيبة أبي قابوس ملك الحيرة في بأسها وقوتها، وعند هجومها السريع الخاطف على الأعداء لتأديبهم قد استعملها لتوحي لنا بالحركة السريعة الخاطفة لهذه الكتيبة.

لها فرط يحمي النهاب كأنه ... لوامع عقبان مروع طريدها.

والحارث بن عباد عندما قال:

إن لم تلاقوا بنا جهدا فقد شهدت ... فرسانكم أننا بالصبر نعتصب

جعل من الصبر عصابة تحيط برأسه، لتمنحه الاحساس بالقوة والمنعة والصمود. وصور حريت العبدي الردى في صورة محسوسة حين جعله يخر من السيف خرا عندما يطيح برؤوس الألداء

مهنـد منه الردى يخـر ... ألأ منـا اليوم الذي يفـر

وعندما أراد المفضل العبدي الإفصاح عما صنعه قومه بالأعداء حيث رموهم بنبال كثيرة فلم يجد كلمة مصورة لذلك الأكلمة جراد فقد خلق منها صورة تدل على كثرة ما ألقى على الأعداء من نبال على حد تعبير العالم(١)

كأن النبـل بينهم جـراد ... تكفيـه شـآمية حـريق

ويقول رشيد العنزي

فجئنا بجمع لم ير الناس مثله ... يكـاد له ظهر الوريعة يضلع

فإن لفظة يضلع ضاعفت من الاحساس بكثرة الجيش بعد أن حولت

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٢٩.

المعنى إلى صورة محسوسة. يقول اسماعيل العالم وأراد المتقب العبدي أن يفخر بنفسه وبأخلاقه فاستخدم كلمة (الضرم) و الضرم أخذ من ضرم النار وهو التهابها ولكنه استخدمها لتعبر عن شدة الجوع، يقول[١]

لا تراني رائعا في مجلس ... في لحوم الناس كالسبع الضرم

ويقول المسيب بن علس

أصرمت حبل الوصل من فتر ... وهجرتها ولججت في الهجر

فإن لفظة (لججت) عبرت بقوة عن ضيق الشاعر بهذا الهجر، وحملت من معاني اللوم والتأنيب الشيء الكثير.

وللدارسين في تعليل مسألة الوضوح في لغة الشعر الجاهلي أكثر من رأي، فمنهم من يرده إلى وظيفة الشعر، ومنهم من يرجعه إلى البيئة، ومنهم من يربطه بالغرض، فقد أدرك الشعراء سلاح القصيدة، وما يمكن أن يسهم به في السلم والحرب، فرب قوم يخيفهم الشعر فيرعووا ولا يتعدوا على حمى القبيلة، أولا يعودوا إلى الغدر، وكان سلاح الشعر فتاكا في تلك البيئة، كما كانت للشاعر منزلة، وهذا ما جعل الشعراء لا يهتمون بالصنعة اللفظية، فهمهم ينحصر في التعبير بلسان القبيلة عن مفاخرها أو مشاكلها التي تعانيها من قبائل أخرى، ومن السلطة في الحيرة، أو للرد على شاعر قبيلة أخرى، إلى غير ذلك من موضوعات شعراء البحرين (الخليج)، وشعر هذه طبيعته لابد وأن يكون واضحا سهلا بليغا ينفذ إلى قلوب الناس فيؤثر فيهم، ولا يمكن حدوث ذلك التأثير إلا إذا كان مفهوما واضحا.[٢]

---

(١) نفسه ٧٩٠.

(٢) المصدر السابق ٢٣٠.

ويعيد عبد الحميد المعيني هذه البساطة والوضوح في شعر الخليج الجاهلي إلى البيئة الجغرافية فيقول : ولعل مصدر هذه السهولة البيئة المدنية، فإن المدن والمناطق الساحلية كانت أكثر استقرارا وتحضرا فلانت لغتها وسهل شعرها، وقديما لاحظ ابن سلام أن عدي بن زيد إنما لان لسانه، وسهلت أشعاره لأنه يسكن الريف والحيرة، وكذلك كان حال العبديين سهلت لغتهم ووضحت عبارتهم، لاتصالهم بالأمم الحضارية القريبة منهم والبعيدة عنهم[(١)] أما الجبوري فإنه يقول: ومن المعلوم أن هناك صلة وثيقة بين الموضوع الذي يتناوله الشاعر وبين اللغة، فموضوعات الوصف التي تتحدث عن بيئات بدوية ومشاهدها يكثر فيها الوحش والغريب[(٢)] وسار على هذا المنوال عبد الرحمن الوصيفي، فلم يعط مقياس البيئة الذي ارتضاه الباحثون من قبل أساسا في الحكم العام على سهولة وعورة لغة قبيلة ما، لم يعده المؤثر الكلي في ذلك بل أرجع السبب الأول إلى الأغراض وحدها، فهي القوالب التي حتمت على الشعراء السهولة أو الصعوبة. فعندما يتحدث الشاعر عن المرأة جسدا وروحا أو يفتخر بنفسه وبقومه ويهجو الأعداء أو يتحدث عن معركة حامية الوطيس، اذا تحدث عن هذه الأغراض مال إلى السهولة للتعبير عنها، وعلى العكس من ذلك إذا أراد أن يصف ناقته أو فرسه أو الحيوانات المفترسة أو دروب الصحراء أتت الألفاظ رغما عنه وعرة لا مكان لليسر فيها.[(٣)] ونحن نجد سهولة اللغة وألفتها عند أغلب شعراء الخليج الجاهليين، وجل شعرهم، لتوفر كل العوامل التي تحملهم على ذلك، فأنت ترى هذه البساطة لدى أكثر هؤلاء الشعراء قدما، ومن أمثلة ذلك الأضبط بن قريع السعدي، فاسمعه يقول من قصيدة تأملية له.

---

(١) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٢٠٨.

(٢) الشعر الجاهلي ٢٧٥.

(٣) شعر بني عامر ٢٢٤.

لكل هم من الهموم سعة والمسي والصبح لا فلاح معه

وصل حبال البعيد إن وصل الحبل وأقص القريب إن قطعه

ولا تهين الفقير علك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

ويبدو الوضوح في الأسلوب ما ثلافي قول حصين بن وعلة السدوسي؛ حيث استعمل ألفاظاً سهلة لا عسر فيها ولا غرابة. يقول(١)

إن تك تدنو إذا طمعت كما تدنو إلى عقر حوضها الإبل

فإن أصبت الغنى نزلت به حيث يكون المريخ أو زحل

آليت حلف اليمين مجتهدا مالك فيما فعلته مثل

كما نلمس هذه السهولة البليغة في سائر أغراضهم الشعرية، قال ابن سلام: ولم يكن أوس بن مغراء التميمي إلى النابغة في قريحة الشعر، وكان النابغة فوقه، فقال أوس

فلست بعاف عن شتيمة عامر ولا حابس عما أقول وعيدها

ترى اللؤم ما عاشوا جديدا عليهم وأبقى ثياب اللامسين جديدها

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

فقال النابغة: هذا البيت الذي كنا نبتدره، وغلب الناس أوسا على النابغة(٢). وفي منا فراتهم ومفاخراتهم نجد شيئا من هذا الوضوح واليسر، قال الحارث بن همام الشيباني

أيا ابن زيابه إن تلقني لا تلقني في النعم العازب

وتلقني يشتد بي أجرد مستقدم البركة كالراكب

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٧٨.

(٢) الموشح للمرزباني ٩٢.

فأجابه ابن زيانه

والله لولا لاقيته خاليا لآب سيفانا مع الغالب
أنا بن زيابة إن تدعني آتك والظن على الكاذب

يقول اسماعيل العالم: إذن فقد كان شعراء البحرين (الخليج) يعمدون إلى الأبانة والسهولة، معتبرين ذلك جزءا من معاركهم وسلاحا يصل بهم إلى النصر، لولا أسماء الأعلام وبعض الألفاظ المتصلة بتلك البيئة الجاهلية لغدا شعر البحرين (الخليج) سهلا واضحا، أو بمعنى أدق لكان معظم شعر البحرين واضحا سهلا[١]

ب- الوعورة:

وربما وجدنا في القصيدة الخليجية الجاهلية التي تجمع بين أكثر من غرض اختلافا في اللغة من حيث السهولة والوعورة واليسر والجزالة والألفة والغرابة. ففي بائية سلامة بن جندل السعدي يقول في أولها:

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأوغير مطلوب
ولي حثيثا وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض اليعاقيب
أودى الشباب الذي مجد عواقبه فيه تلذ ولا لذات للشيب

ثم يقول في وصف الفرس:

من كل حت إذا ما ابتل ملبده ضافي السبيب أسيل الخديعبوب
ليس بأقنى ولا أسفى ولا سغل يسقى دواء قفي السكب مربوب
تم الدسيع إلى هاد له بتع في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب

ففي القسم الأول الذي شكا فيه الشاعر من ذهاب الشباب وحلول الشيخوخة نجد الألفاظ سهلة واضحة مألوفة، وفي القسم الثاني الذي وصف

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٣١.

فيه حصانه نرى مفردات غريبة منها حت، ويعني الفرس الجواد الذي لا يجاري، وملبده وهو موضع حزامه، والسبيب وهو شعر الناصية والذنب، ويعبوب، وهو الكثير الجري أو الكريم، وأقنى والقناحدة في الأنف، وما كان سهل الوجه فليس بأقنى والأسفى، وهو الخفيف شعر الناصية والذنب، وقيل أن تكون فيه شعرة تخالف لونه، وسغل أي مهزول.

يقول العالم: ولكن هذا الوضوح لا يقلل من شأن هذا الشعر، فلم يكن الشاعر ليلجأ إلى الوضوح على حساب الصورة، فقد عرض الشاعر الخليجي صور بيئته الحربية والسلمية في لوحات شعرية مشرقة. ثم يشير إلى أثر اختلاف الأغراض في هذه القضية الأدبية، ويقول: فالشاعر عندما يفتخر يبحث عن ألفاظ تلائم غرض الفخر فيختارها ألفاظا جزلة معبرة عن معاني القوة ذات جرس خاص يوحي بالغرض الذي استعملها الشاعر من أجله، ثم يستشهد الباحث لذلك بنص واحد للمرقش الأكبر يجمع بين غرضين، أولهما الرثاء والآخر الفخر يقول في الأول [1]

لم يشج قلبي بالحوادث ... إلا صاحبي المتروك في تغلم
ثعلب ضراب القوانس بال ... سيف وهادي القوم إذ أظلم
لو كان حي ناجيا لنجا ... من يومه المزلم الأعصم
ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء ما يعلم

ويقول في الثاني:

لسنا كأقوام مطاعمهم ... كسب الخنا ونهكة المحرم
لكننا قوم أهاب بنا ... في قومنا عفافة وكرم
أموالنا نقي النفوس بها ... من كل ما يدني اليه الذم

---

(١) المفضلية ٥٤.

فالفرق واضح بين الألفاظ ونسيجها عندما رثى والألفاظ وتناسقها عندما حاول أن يفتخر، ففي الحالة الأولى اختار الألفاظ التي توحي بالأسى والتأثر بحيث تخلق جوا مناسبا للحزن، بينما في المقطوعة الثانية اختار ألفاظا تنبض بالقوة التي تعبر عن شجاعة الشاعر وقومه[(١)]. ويجمع راشد اليشكري في قصيدة له بين الألفاظ القوية والغريبة، فيقول في وصف قصره الذي بناه بإحدى مدن البحرين (ثاج) حيث يبني أبياته من ألفاظ جزلة واضحة.

بنيت بثاج مجدلا من حجارة لأجعله عزا على رغم من رغم

أشم طوالا يدحض الطير دونه له جندل مما أعدت له إرم

فهو قصر شاهق لا يصل إليه الطير لارتفاعه، وحتى إذا بلغه لا يثبت عليه لاملاس حجارته. وفي وصف سلاحه يقول راشد[(٢)]

ونبل قران كالسيور سلاجم وفرع هتوف لاسقي ولا نشم

ومطرد الكعبين أسمر عاتر وذات قتير في مواصلها درم

يقول العسكري وصف النبل والقوس والرمح والدرع في بيتين فأحسن[(٣)] وقد استعمل الفاظا جزلة ولكنها غريبة، فالقران المتشابهة؛ والسلاجم؛ الطوال، والأدرم: الأملس، والسقي: الذي يشرب الماء، والنشم: شجر، فشاعر الخليج يناسب بين الألفاظ ومعانيها فيجعل لكل لبوس لباس. يقول العالم: وجملة القول إن أي فاحص لشعر البحرين

---

(١) شعراء البحرين في الجاهلية ٢٣١.

(٢) المفضلية ٨٦.

(٣) ديوان المعاني ٢/ ٦٥.

(الخليج) يلحظ هذا كما يلحظ أن مجموعة المفـردات التي يستخدمها الشاعر في غرض معين تختلف عنها في غرض آخـر. وإن أصدق الشعر ما كان من تناسق أجود الألفاظ المناسبة للغرض الشعري الذي ينظم فيه الشاعر.(١)

واشتمل شعر الخليج الجاهلي على شيء من أبيات المعاني، وقد عرض ابن قتيبة طائفة من هذه الأبيات، ومنهـا في باب التشبيه بالرشا، قول المرقش الأصغر.

تراه بشكات المدجج بعد ما　　　تقطع أقران المغيرة يجمح

قال في الشرح: الشكه السلاح، والأقران الأسباب، وفيه قولان أحدهما أنه يقول تراه يجـمح بعد انقضـاء أسباب المغيـرة وهم القوم يغيـرون وبعد أن انصرم أمرهم من الغارة والخيل أشـد ما تكون كلالا في ذلك الوقت، والقول الآخـر أنه أراد بالأقران الحـبال يقـول تراه يجـمح بعد طول المسـير وبعـد أن تقطعت حبال المسافرين والجموح الاعتراض في السير من النشاط. وقال:

شـهدت بـه في غارة مـسـبطرة　　　يطاعن أولاهـا فـئام مــصـبح

كمـا انتفجت من الظبـاء جداية　　　أشم إذا ذكــرته الشـــد أفــيح

مســبطرة: منقادة، المصبح المغـار عليه في الصبـاح، كما انتـفجت من الظباء جداية أي كما ينتـفج الجداية إذا ذعر، وهو أفيح أي واسع في الجري، إذا ذكر أي إذا أريد منه وحمل عليـه. وروى ابن قتيبة لأوس بن حـجر وقد ذكر ظليما.

وتبـري له زعـراء أما أنتـهـارها　　　فـفـوت وأمـا حين يعي فـتلحق

كـأن جهـازا مـا تميل عليـهمـا　　　مـقاربة اخـصامـه فـهو مـشنق

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٣٣.

الجهـاز المتاع ومـا زائده يريد كأن علـى كل واحدة منهـما حمـلا من جناحه، وأخصامه نواحـيه واحدها خصم، مشنق مرفوع عليهـما. كما ذكر لأوس قوله

وشبه الهيدب العبام من ال   أبرام سقبـا مجللا فرعـا

الهيـدب مثل العـبام وهو الثقـيل الغبي، والابرام الذين لا ييـسرون، والفرع أول ولد الناقـة، وكانوا يذبحون ذلك لألهـتهم، يقول فهـذا قد لبس جلد الفرع من شدة البرد فكأنه فرع وأنشد لعبد الله بن عنمة الضبي

حرابي متنيه تديص كأنها   حصي أكلب نيزون في رأس أقرعا

يقول : تديص: تموج، وتدسع: تدفع وترمي بالزبد يعني القـدر كأنها تقيء عليهم. وأورد ابن قتيبة لسلامه بن جندل[١]

فمن يك ذا ثوب تنله رماحنا   ومن يك عريانا يوائل فيسبق

يقول من كان عليه سلاح طعناه، ومن طرح الينا سلاحه وأكمش نجا. وذكر ابن قتيبه للمرقش قوله[٢]

بودك من قومي على أن هجرتهم   إذا هب في المشتـاة ريح أضائف

وكـان الرفـاد كل قـدح مـقـرم   وعـاد الجـميع نجـعـة للزعـانف

جديرون أن لا يحبسوا مجتديهم   للحـم وألا يدرأوا قـدح رادف

يريد إذا لم يكن رفـاد في ذلك الزمان إلا بالقـداح، والمقرم المؤثر فـيه بعض أو بغير ذلك، وأصل القرمه السمـه، قال الأصمعي ربما عجل أحدهم

(١) كتاب المعاني الكبير ٢/١٠٩٦.

(٢) نفسه ٣/١١٥١.

فعض قدحه، والزعانف القليل من الناس، الواحدة زعنفه، يقول صاروا إلى الأحياء العظام ينتجعونهم.

وربما ترك الشاعر من اللفظ ما يخل به المعنى، وهو ما سماه المرزباني بالاخلال، وهو من عيوب اللفظ والمعنى في الشعر، وقد مثل له بقول الحارث بن حلزه(١)

والعيش خير في ظلا ... ل النوك ممن عاش كدا

فأراد أن يقول والعيش خير في ظلال النوك من العيش بكد في ظلال العقل، فترك شيئا كثيرا، وعلى أنه لو قال ذلك لكان في هذا الشعر خلل آخر؛ لأن الذي يظهر أنه أراده هو أن يقول إن العيش الناعم في ظلال النوك خير من العيش الشاق في ظلال العقل، فأخل بشيء كثير. وأنكر على عمرو ابن قمئة قوله:

لما رأت استيدما استعبرت ... لله در اليوم من لامها

يريد لله در من لامها اليوم، فقدم وآخر.

يقول الجبوري معللا كثرة الغريب في الشعر الجاهلي، ولا ننسى أن أكثرية الشعراء الجاهليين كانوا من البادية، وحتى الذين سكنوا الحاضرة كانت حياتهم أقرب إلى البداوة، فهم يصوغون شعرهم في لغة بدوية، ويصفون بيئات صحراوية، وفي هذه البيئات يكثر الغريب والوحشي والنادر(٢)

وإذا سلمنا بمقولة هذا الباحث عن الشعر الجاهلي بعامة فإننا نستثني شعراء الخليج الجاهليين من هذا الحكم، حيث رأينا صفة الوضوح والسهولة غالبة في شتى أغراضه وموضوعاته.

---

(١) الموشح ٣٦٤.

(٢) الشعر الجاهلي ١٨٩.

ويصف د المعيني شعر منطقة الخليج الجاهلية بأنه سهل في ألفاظه واضح في معانيه يكاد يخلو من الوعوره والخشونه التي الفناها في قلب الصحراء وعند أهل البادية. ثم يقول: وقد يكون في شعرهم شيء من الألفاظ الصعبة والتراكيب الغريبة لكنه على أية حال يختلف عن شعر الهذليين الذي يمتاز بغرابة ألفاظه، ويرد هذا الباحث سمة السهولة في ألفاظ شعر شرق الجزيرة العربية الجاهلي إلى تأثر القوم بالمواطن والمراكز الحضارية، وبلغات الأمم التي اتصلت بها وأشهر تلك الأمم الفرس[١].

جـ- الأجنبي:

وفي قاموس لغة شعر الخليج الجاهلي العديد من المفردات الأجنبية المعربة، يغلب عليها لغة الفرس، بحكم احتكاكهم المباشر بعرب الخليج حيث يقيم بعضهم معهم على أرض الخليج، إلى جانب الوفادات المتكررة للشعراء الخليجيين لبلاط المناذرة بالعراق الذي هم في أكثر الأحيان عمال للأكاسرة، فتأثروا بهم، وأثروا فيهم.

ولعل أكثر الشعراء استعمالا للفظ الأجنبي المتلمس الضبعي والمثقب العبدي وأوس بن حجر التميمي، فمن أمثلة تسرب المفردات في شعر المتلمس قوله:

هلم إليها قد أثيرت زروعها   وعادت عليها (المنجنون) تكدس

والمنجنون: الدولاب التي يستقي عليها، أو أداة الساقية التي تدور، جعلها مؤنثة. ويقول في صفة الثور

له جدد سود كأن (أرندجا)   بأكرعه وبالذراعين (سندس)

(١) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٢٠٧.

والأرندج: جلود سود تكون للأساكفه، فارسي معرب.

والسندس: ضرب من الثياب خضر من القز رقيق، فارس معرب.

ويقول أيضاً:

وبالوجه ديباج وفوق سراته ديا بوذة والروق اسحم أملس

يقول في وجهه سفعه، وهو سواد إلى حمرة، والديباج، الخد وأصله الثياب المتخذة من الإبريسم، أعجمي معرب، وسراته أعلى ظهره، وديا بوذه، ثوب ينسج على نيرين أبيض

وهو بالفارسية دوايوذ. وللمتلمس - أيضا - يخاطب عمرو بن هند ملك الحيرة:

ألك السدير وبارق ومبايض ولك الخورنق

فالسدير، قصر كان يقال له بالفارسية سدلا له ثلاثة أبطن أو قباب، وكان المنذر الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم. والخورنق، كان يسمى بالفارسية خورنكاه، وهو محل الأكل والشرب، وقد بناه النعمان لبعض أولاد الأكاسرة.

والغمر ذو الأحساء وال لذات من صاع وديسق

والديسق، بعض الآنية، وهو خوان من فضة.

وإذا فزعت رأيتنا حلقا وعادية ورزدق

والرزدق بالفارسية، صف وصف ههنا.

ومما أخذه المتلمس من الرومية (قومس) وهو الأمير يقول:

وعلمت أني قد رميت بنيطل إذ قيل صار من آل دوفن قومس

ومن أمثلة الألفاظ الأجنبية في شعر المثقب العبدي قوله في وصف قوة راحلته، واحتفاظها بنشاطها رغم كثرة الأسفار.

فأبقى باطلـي والجـد منها كـد كـان الدرابنة المطـين

فـالدكـان وهو الحـانوت، فـارسي الأصل، وكـذلـك الدرابنة، وهم البوابون، وفي الغزل يقول المثقب

أرين محاسنا وكنن أخـرى من الديباج والبشـر المصون

والديباج، الحرير، وهي من أصل فارسي واستعمل المثقب لفظة قنطار الفارسية يقول:

من مـال من يجبي ويجبي له سبعون قنطـارا من العسـجد

أما الألفاظ الأجنبية في شعر أوس بن حجر، فمنها قوله :

وفارقت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمي سفسير

والسفسير والسمسـار : المتوسط بين البائع والشاري، تعريب سيار وهو الدلال، ويحتـمل أن يـكون من أصل آرامي بمـعني نقل ودار فـي بعض القرى. ويقول يتحدث عن الحمار الوحشي وأتنه

يقلب قيدودا كـأن سـراتها صفا مدهن قد زحلفته الزحالف

السراة : أعلـى كل شيء، تعريب سـراي الرأس، والأوج، وسروات القوم: رؤسـاؤهم ، مأخوذ من سـرى المنسوب إلى سـراري الرأس، ومعناه رئيس القوم. ومن ذلك قوله:

ورأسا كدن التجر جـأبا كأنما رمـى حاجبيه بالحجارة قاذف

والجـآب الحمـار الغليظ مطلقـا، أو كل جـاف غليظ، تعـريب، كب ويقول أيضا.

تضمنها وهم ركـوب كـأنه إذا ضـم جنبيه المخـارم رزدق

والرزدق، السطر الممدود، وأصله بالفارسية رسته.

ولم يقتـصر وجود اللفظ الأجنبـي في شعر الثـلاثة الأنفي الذكر، بل

وجد على قلة عند سائر شعراء الخليج، ففي شعر الحارث بن حلزه قوله:

يجبوك بالزعف الفيوض على هيميانها والدهم كالغرس

والهيمان لفظ فارسي، وهو كيس يجعل فيه النفقه ويشد على الوسط وجاء في شعر الحارث بن حلزه أيضا (المهارق) جمع مهرق، وهي الصحيفة، تعريب مهره. يقول :

حذر الجور والتعدي ولن ين قض ما في المهارق الأهواء

ويستعمل يزيد الشني (سندس) وهي لفظة فارسية تعني ثيابا من الحرير، يقول مشيرا إلى عنايته بفرسه الشموس.

وداويتها حتى شتت حبشية كأن عليها سندسا وسديسا

ووردت جدث أي القبر في شعر مسعود بن سلامه وهي من أصل عبراني.

أقلي علي اللوم إني صائر إلى جدث تسفي عليه الأعاصر

واستعمل المسيب بن علس (جمانه) في قوله

كجمانة البحري جاء بها غواصها من لجة البحر

والجمان اللؤلؤ من فضة، ومعناه المرج والخضرة في الفارسية.

واستخدم شعراء الخليج لفظة (البوصي) بمعنى الزورق، فارسي معرب، وقيل أن الكلمة من أصل آرامي. يقول طرفة بن العبد في وصف عنق الناقة.

وأتلع نهاض اذا صعدت به كسكان بوصي بدجلة مصعد

وذكروا (الآجر) في شعرهم، وهو فارسي معرب، يقول ثعلبه المازني:

تضحي إذا دق المطي كأنها فدن ابن حيه شاده بالآجر

واستعملوا القنطرة وهي لفظة أعجمية ، يقول المسيب بن علس

وكأن قنطرة بموضع كورهـــا ملساء بين غوامض الأتســـاع

كما ورد في شعرهم الأقحوان وهو من الوان الزهور يقول المرقش الأصغر.

رأت أقحوان الشيب فوق حطيطة إذا أمطرت لم يستكن صؤابها(١)

وورد في شعر الخليج الجاهلي بعض المفردات التي اختصوا باستعمالها، منها أقـواع ومعين ومـجداف والقوع هـو مسطح التمـر، وقد جـاء في قول المثقب العبدي.

وطار قشاري الحـديد كـأنه نخـالة أقواع يطير حصيدها

والمعين الأجير وهو لغة بحرانيه، يقول المثقب عند حديثه عن سرعة ناقته

كـأن نفي ما تنفـي يـداها قـذاف غـريبة بيدي معين

والمجداف بمعنى السـوط، وهو في الأصل للسفينة فـاستعمله الشـاعر الخليجي للناقة، يقول المرقش الأكبر

تعـدو إذا حرك مجدافهـا عـدو رباع مفرد كالزلـم

يقول اسماعيل العالم: ويمكننا القـول أن شاعر البحرين الذي صور لنا جانبـا من جوانب بيئتـه بطر فيها الحـربي والسلمي قد خص بألفاظ مـعينة، متصلة بالحرب والسلم، فالفـارس أسد وليث والجيش سرب قطا أو عصائب طير، والقتـيل في المعركة اختار له الشاعـر أكثر من لفظة لتعبـر عن حالته، وسيد القـبيلة خصه الشاعـر بأكثر من لفظ للدلالة عليه والخيـول لها نصيب وافر من الاهتمام عندهم، والدموع تلمع كأنها النجوم(٢)

---

(١) المعرب للجواليقي والألفاظ الفارسية المعربة للسيد ادي شير ودواوين أصحاب الشعر.

(٢) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٣٤.

وهناك ألفاظ وحروف معينة كـانت قطب الرحى في مختلف أغراضهم الشعريه، حـتى صارت فيها كـاللازمات، ككاف التشبـيه وكأن في الوصف والغزل، وضـميـري المتكلم والغائب مـفرداً وجمـعا في الفخـر والحمـاسة والتـحريض والتـهديد؛ والأعـلام والأسماء فـي العتاب والـهجاء، وصـيغ التـعجـب (لله) والمدح (نِعْم) والشكر (الجـزاء) في المديح، وألفـاظ التلهف والنعي والبكاء في الشكـوى والرثاء، أما الحكمـة فقـد كان مـحورها كـاف الخطاب.

٢- صيغ التبليغ:

من الظواهر الفنية عند شعراء الخليج الجاهليين استعمالهم صيغ التبليغ، سواء بالصيـغة الأصلية وهي صيغة (بلّـغ) ومشتقاتها أو بمرادفـاتها وبديلاتها (كـأتي وأتتني وسـائل وقل وألكني وإلى) . وقـد ارتبط أسلوب التـبليغ في شعرهم بأمور عـامة وخاصة إلا أن أكثرها وأهمهـا الغارات والحروب. وقد تنوع هذا التـبليغ بين ما هو موجـه من الشعـراء إلى من يجمعـهم بهم صلة النسب والقرابة من القـبائل والعشـائر والأفراد في قضايـا تحريضية وتنويهـية وعصبية ووجدانية، وما هو موجـه إلى قبائل أخرى أو عشائر أخرى أو أفراد آخرين بما فيهم المـلوك، في أشياء تقوم على الفخر أو التـهديد أو الهجاء أو الإعلان.

ويجمع أسلوب التـبليغ في جميع الأحـوال هدف عام هو إذاعة الخـبر وإيصاله للناس عامتهم وخاصتهم للإشعار بأهميته ولفت الأنظار إليه.

أ- التبليغ في إطار قبيلة الشاعر

تبليغ الشعراء لقبائلهم.

هذا المتلمس الضبعي يبعث برسالة إلى قبيلته ضبيعة أضجم يبلغها فيها أنها أصله الذي ينزع إليه كما ينزع الفرع من الشجرة إلى جذره فيها، وأن أخواله وإن كان مكرما في جوارهم لا يغنون غنى أعمامه مهما عرضه ذلك للوم اللائمين. يقول:

ألكني إلى قومي ضبيعه إنهم أناسي فلوموا بعد ذلك أودعوا

وقد كان أخوالي كريما جوارهم ولكن أصل العود من حيث ينزع

ويرسل المتلمس أيضا إلى قبيلته ضبيعة رسالة تحريضية يحثها فيها على رص الصفوف والاستعداد للعدو القادم ومواجهته بقوة قبل أن يفتك بهم. يقول:

أبلغ ضبيعة كهلها ووليدها والحرب تنبو بالرجال وتضرس

القوم آتوكم بأرعن جحفل حنقين إلا تفرسوهم تفرسوا

ويبعث المسيب بن علس إلى قبيلته ضبيعة أضجم بكتاب ينصحهم فيه بترك البلاد التي يهانون فيها إلى بلاد تحفظ كرامتهم فكل شيء يمكن احتماله إلا الهوان يقول :

أبلغ ضبيعة أن البلا د فيها لذي حسب مهرب

فقد يجلس القوم في دارهم إذا لم يضاموا وإن أجدبوا

ويطلب عوف التيمي من يبلغ قبيلته تيم خاصا بالذكر منهم كبراءها الذين يهمهم سمعة القبيلة، مبينا لهم أن ما فعله من المحافظة على حق الجار الذي ضيعه بعض سفهاء القبيلة إنما أدى إلى دفع الذم عن القبيلة كلها ورفع العار عنها، مبديا احتقاره وسخريته من أولئك الضعفاء التافهين الذين اعتدوا على

جيرانه وانتهكوا الحرمات وخرجوا على أعراف الجماعة ولكنه أدبهم. يقول:

فمن تبلغ تيما على نأي دارها ... سراتهم والحاملين العظائما
عمدت لأمر يرحض الذم عنكم ... ويغسل عن حر الأنوف الخواطما
أتأكل أشباه المغازل ذمتي ... ولما تكن فيها الرباب عما عما

تبليغ الشعراء لعشائرهم

هذا راشد اليشكري يخاطب فتيان عشيرته من بني يشكر ويخبرهم بأنهم سوف يوافيهم من الشدائد ما يستدعي الصبر، وأوصاهم في تهكم بعشيرة شيبان، وذكرهم باستهانة قيس سيدهم ببني يشكر حين اللقاء. يقول:

من مبلغ فتيان يشكر أنني ... أرى حقبة تبدي أماكن للصبر
فأوصيكم بالحي شيبان إنهم ... هم أهل أبناء العظائم والفخر
على أن قيسا قال قيس بن خالد ... ليشكر أحلى إن لقينا من التمر

تبليغ الشعراء لعشائر أخرى في قبائلهم:

ويخبر المرقش الأكبر من بني ضبيعة بن قيس بن ثعلبة أن رسالة بلغته كشف مضمونها عن بصره، وهو خروج بني الوخم وهم بنو عامر بن ذهل ابن ثعلبة البكريين، لقتال تغلب بجيشهم الكبير المدجج بالسلاح الذي تلمع سيوفه لمعان نجوم السحر الكبيرة الوضاءة. يقول:

أتتني لسان بني عامر ... فجلت أحاديثها عن بصر
بأن بني الوخم ساروا معا ... بجيش كضوء نجوم السحر

تبليغ الشعراء للأفراد من قبائلهم:

ويلتمس أوس بن حجر من جماعة المسافرين إلى حيث يوجد يزيد بن

عبد الله أن يبلغوه نصحه الصادق ووصيته المخلصة بأن يرجع المخاطب إلى الحق والانصاف والصواب ويحسن صلته بقومه، فلا يجهل عليهم ولا يغتابهم ولا يؤذي أحدا منهم، لأنهم حصنه الذي يحميه وركنه الذي يؤويه. يقول:

يا راكبا إما عرضت فبلغن ... يزيد بن عبد الله ما أنا قائل

بآية أني لم أخنك وأنه ... سوى الحق مهما ينطق الناس باطل

فقومك لا تجهل عليهم ولا تكن ... لهم هرشا تغتابهم وتقاتل

ويأمر المرقش الأكبر مخاطبه أن يبلغ حبيبته أسماء أن تنجز ما وعدته به وأن تنظر في تزويده بما يطفيء لواعج شوقه فهي حياته التي لا يستطيع أن يعيش إلا بها ومعها . يقول:

قل لأسماء انجزي الميعادا ... وانظري أن تزودي منك زادا

أينما كنت أو حللت بأرض ... أو بلاد أحييت تلك البلادا

وحين أراد المرقش الأكبر أن يوصل شكواه إلى أخويه وذويه عندما كان مريضا في الكهف بعيدا عن بلاده، وشعر أن عسيفيه ينويان تركه والتخلي عنه، كانت صيغة التبليغ ملاذه ووسيلته لبث شكاته، فكررها مرتين على سبيل التأكيد لنجدته من غربته والانتقام من خائنيه يقول :

يا راكبا إما عرضت فبلغن ... أنس بن سعد إن لقيت وحرملا

لله در كما ودر أبيكما ... إن أفلت الغفلي حتى يقتلا

من مبلغ الأقوام أن مرقشا ... أمسى على الأصحاب عبثا مثقلا

ويطلب طرفة بن العبد من أحدهم أن يبلغ قتادة الحنفي عظيم شكره الذي لا يرجو من ورائه شيئا سوى العرفان بالجميل للممدوح، حين فتح بابه لعشيرة الشاعر وغمرها بإحسانه وبره، في وقت كانت فيه هذه العشيرة أشد

ما تكون حاجة إلى المساعدة والعون. يقول

أبلغ قتادة غير سائله منه الثواب وعاجل الشكم
أني حمدتك للعشيرة إذ جاءت اليك مرقة العظم

ب- التبليغ في إطار القبائل الأخرى

تبليغ الشعراء لعموم القبائل:

ولم يقتصر شعراء الخليج الجاهليون على تبليغ قبائلهم ما يريدون إعلانه وإنما شمل كل القبائل العربية الأخرى. فهذا سلامه بن جندل السعدي التميمي يستعمل أكثر من صيغة في التبليغ على سبيل التأكيد كأتت المكررة وتبلّغ، وهو بهذا التكرير يعبر عن حرصه واهتمامه الشديدين على أن يعلم الداني والقاصي من العرب في شرق الجزيرة العربية وغربها وشمالها وجنوبها بأن قومه بني سعد قد صانوا حرماتهم وحفظوا نساءهم وبلادهم في يوم الفروق، كما طردوا العامرين ومن اقترب من حماهم وبلادهم في يوم ملزق، فهو ينشر هذا الخبر بين الناس ليبني لعشيرته سورا من المهابة يجعلها في مأمن من عدوان المعتدين يقول:

ألا هل أتت أنباؤنا أهل مأرب كما قد أتت أهل الدنا والخورنق
بأنا منعنا بالفروق نساءنا ونحن قتلنا من أتانا بملزق
تبلغهم عيس الركاب وشومها فريقيْ معد من تهام ومعرق

وفي قصيدة ثانية يطلب الشاعر من يبلغ بني عامر بأن قومه بني سعد لا زالوا أقوياء أشداء قادرين على دحر كل معتد، مذكرا إياهم بيوم ملزق الذي دارت فيه الدائرة عليهم وعلى أعوانهم، وهزموا شر هزيمة، فهو ينذر بني عامر ويهددهم لكي يخافوا ويرتدعوا. يقول :

من مبلغ عني كلابا وكعبها وحي نمير باليقين رسول
فإني بيوم مثل يوم بملزق لكم ولقاء - إن حييت - كفيل
غداة تركنا من ربيعة عامر دماء بأعلى الواديين تسيل

وفي قصيدة ثالثة يتساءل سلامه بن جندل عما إذا كان قد بلغ قبائل الياس بن مضر وقيس بن عيلان خبر انتصار بني سعد على بني شيبان في يوم جدود بالخليج العربي، حيث التقى الجيشان التميمي والبكري في معركة طاحنة انتصر فيها السعديون على الشيبانيين الذين قتل من صفوفهم شهاب ابن جحد أحد بني قيس بن ثعلبه. يقول :

ألا هل أتى أفناء خندف كلها وغيلان إذ ضم الخميسين يترب
جعلنا لهم ما بين كتلة روحة إلى حيث أوفى صوتيه مثقب
غداة تركنا في الغبار ابن جحدر صريعا وأطراف العوالي تصبب

ويستمر سلامة بن جندل في ترديد نغمة الفخر بقومه بني سعد مستعينا بصيغ التبليغ التي ساعدته على إظهار قوة قومه وإعلانها لقبائل العرب من مضر وربيعة، فيكرر الشاعر حديثه عن يوم جدود حيث انهزمت بكر على يد سعد، كما تحدث عن يوم الهذيل أو إراب الذي أغار فيه الهذيل التغلبي على بني ضبة وقتل من قتل وأسر من أسر، فتداركهم من بني سعد أبطال صلاب الأجسام والعزائم ينفذون ما عزموا عليه ولم يعرف عنهم أنهم غدروا بمن أجاروا أو خانوا من أنجدوا كما يقول الشاعر:

فسائل بسعدي في خندف وقيس وعندك تبيانها
وإن تسأل الحي من وائل تنبئك عجل وشيبانها
بوادي جدود وقد غودرت بصيق السنابك أعطانها

صـريخ لضبـة يوم الهـذيل وضـبـة تردف نسـوانـهـا
تداركـهم والـضـحى غـدوة خنـاذيد تشـعـل أعطانـهـا
بأسـد من الفـرز غلب الرقـاب مـصـاليت لم يخش إدهـانها

ويحرص عـوف التيمـي على إبلاغ أكبر عـدد ممكن من القبـائل بغزو قبيلتـه المظفر للأعداء وانتصارها علـيهم، فيكرر صيغـة التبليغ ثلاث مرات، معددا من خلالها من يهم الشاعر وصول نبـأ النصر إليهم على سبيل التباهي والافتـخار، في الوقت الذي يشـهر فـيه الشاعـر بجبن بني حنيفـه البكريين اللاهين عن الغزو بالرعي والزرع. يقول :(١)

فـأبـلغ رياحـا على نأيـهـا وأبلـغ بني دارم والجـمـارا
وأبلغ قـبـائل لم يشـهـدوا طحـابـهم الأمـر ثم اسـتـدارا
غـزونا الـعـدو بأبيـاتـنا وراعي حنيـفـة يرعى الصـفـارا

تبليغ الشعراء للعشائر من القبائل الأخرى

ويهجو الحارث بن عـتبه التميمي بني شيـبان البكريين من خلال رسالة يطلب من رفيقه فيها بتبليغها إليـهم، يشير فيها الشاعر إلى انتصار تميم على بني بكر وأسرهم قائدهم بسطام ابن قيس الشيباني. يقول:

أبلغ سـراة بني شـيـبـان مـألكة أني أبأت بعـبـد الله بسـطامـا
إن تحـرزوه بذي قـار فـذاقنة فـقـد هبطت به بيـدا وأعـلامـا
قـاظ الشـرية في قـيـد وسلسلة صـوت الحـديد يغنيـه اذا قـامـا

ويهجو أوس بن حجر بني كـاهل الأسدبين فيطلب من ركب المتوجهين

(١) المفضلية ١٢٤ .

إلى ديارهم أن يبلغوهم أنهم من أراذل الناس، فهم لا يذبحون إلا ما كان عليلا لا ينتفع به من لؤمهم، ويضعفون عن السقي أول الناس فلا يسقون حتى يسقي الناس فيكونون آخرهم . يقول:

فيا راكبا إما عرضت فبلغن | بني كاهل شاه الوجوه لكاهل
مباشيم عن لحم العوارض بالضحى | وبالصيف كساحون ترب المناهل

ويطلب مقاس العائذي من مخاطبه أن يبلغ جيرانه بني شيبان خالص تحياته وجزيل شكره كفاء ما لقيه منهم من حسن الجوار وكرم العشرة، داعيا أن تظل صلته بهم حية على الدمام. يقول

ألا أبلغ بني شيبان عني | فلايك من لقائكم الوداعا
بعيش صالح ما دمت فيكم | وعيش المرء يهبطه لما عا

تبليغ الشعراء لأبناء القبائل الأخرى

ويطلب أوس الهجيمي أحدهم أن يبلغ من أسماه بالجرمي بالوضع المشين لمن كناه بأبي معاذ وعلبه وما رئيا عليه من حالة مخزية تدعو للانتقام وغسل العار، مشبها تلك الحالة بالسرج المثبت بالحزام على ظهر الدابة. يقول:

ألا من مبلغ الجرمي عني | وخير القول صادقه الكلام
فهلا إذ رأيت أبا معاذ | وعلبة كنت فيها ذا انتقام
أراه مجامع الوركين منها | مكان السرج أثبت بالحزام

تبليغ الشعراء للملوك

ها هي الخرنق أخت طرفه بن العبد تبعث إلى الملك عمرو بن هند رسالة تعلن فيها الشكوى من ظلمه حين أمر بنفيها وذويها من بلادهم دون

ذنب ارتكبوه، وهي بهذا التبليغ الصارخ إنما تشهر بجوره وتحذر الآخرين من الوقوع فريسة له. تقول:

ألا من مـــبلغ عـمـــرو بن هند   وقـد لا تـعـدم الحـسنـاء ذامـا
كـما أخـرجتنا من أرض صـدق   ترى فـيـهـا لمغـتـبط مـقـامـا

ويرسل الممزق العبدي إلى عمرو بن هند رسالة معلنا فيها أن عشيرته تعيش في بلادها قريرة العين جذلة، تتمتع بعين محلم وتغني على خرير مياهها غير وجلة من تهديده، فرجالها ليسوا ممن تشغلهم التجارة وبيع كعك السمن، إنما هم أصحاب خيل وسلاح وكر وفر، وقد استعمل الشاعر أسلوب التبليغ لإعلان قوة قبيلته وإظهار هيبتها أمام الملك الذي كان يهددها بالغزو يقول:

فـمن مبلغ النـعمـان أن أسيـدا   على العين تعـتـاد الصفـا وتمرق
وأن لكيــــزا لم يكـن رب عكة   لدن صرحت حجاجـهم فتفرقوا

تبليغ الشعراء لبعضهم

ويبلغ المتلمس الضبعي سائر الشعراء بخبر صحيفته التي أمر فيها عمرو ابن هند عامله على البحرين أن يقتل الشاعر عندما يصل إليه، وكان الملك قد ذكر للمتلمس أن بالصحيفة هدية سنية في انتظاره ببلاده، فلما ارتاب في الأمر وفض الخطاب اكتشف الخدعة فرماها في النهر وهرب. وكان ابن هند قد سلم طرفه بن العبد رسالة مماثلة لرسالة المتلمس إلا أنه لم يرتب فيها ولم يفتحها فكان مصيره القتل. فالمتلمس يحذر الشعراء من الاقتراب من هذا الملك الغشوم الغادر حتى لا ينالهم ما نال طرفه. يقول المتلمس:

من مبـلغ الشعراء عن أخـويهم   خبـرا فتـصدقتـهم بذاك الأنفس
أودى الذي علق الصحيفة منهما   ونجـا حـذار حـبـا ئـه المتلمس

٣- الواقعية

الواقعية بمدلولها اللغوي تعني تصوير الواقع والتعبير عنه، وهي قديمة قدم الأدب والفن وموجودة قبل أن يكون لها أنصار وخصوم. والواقعية الهادفة تتحقق بكل تعبير فني عن الواقع الاجتماعي، يستهدف تثبيت ما فيه من قيم أصيلة صالحة.. تصبوا إليها الجماعة الانسانية وتغيير ما في الواقع من قيم فاسدة. وإذا كان مفهوم الواقعية هو تصوير واقع الحياة بكل صدق وأمانة فإن الشعر الجاهلي نقل لنا واقع الحياة للقبائل والمجتمعات الأهلية نقلا صادقا، وعرض لنا صورا حية من الطبيعة حولهم، فالحياة واسعة كبيرة فكان شعرهم عظيما كبيرا تحدث عن كل جوانب الحياة تلك. وقد قال معظم الباحثين بواقعية أدبنا العربي في العصر الجاهلي قبل أن توجد الواقعية كمذهب بمئات السنين، ومن يتحقق منه يجد أن التزام الحقائق ظاهرة من ظواهره الواضحة، ولم يكن هذا الالتزام من الشعراء مراعاة منهم لدين أو خضوعا لشريعة ولكنه كان أثرا من آثار حياتهم الساذجة التي تكتفي بقدر الضرورة من كل شيء في المأكل والمشرب والملبس وتدع الفضول والمبالغات جانبا، وقد فطرهم على ذلك صراحتهم مع أنفسهم تلك الصراحة التي لابد أن تكون قد تسللت إلى نفوسهم من حياة البادية الواضحة المكشوفة التي لا أدغال فيها ولا أحراش، ومن تلك الخيمة التي تلقنهم دروسا لا تنتهي في الصراحة والوضوح والعفوية.. وذلك بفضل حوائطها الرقيقة التي لا تكاد تخفي عن أعين الناس شيئا.. وتبدو آثار تلك النزعة في البعد عن المبالغة والاغراق وتوخي القصد في المدح والفخر[1] وقد التزم شعراء الخليج الجاهليون بسمات الصراحة والوضوح والصدق والواقعية أكثر مما التزم بها غيرهم من شعراء الجاهلية . وقد جمعت بيئة منطقة الخليج الجاهلية بين

(١) الكفراوي: الشعر العربي بين الجمود والتطور ١٠.

شعراء المدر وشعراء الوبر فتجلت في شعرهم مظاهر تلك البيئة في جانبيها الحضري والبدوي والبري والبحري، كما سجل هذا الشعر حياة عرب الخليج من كافة أنحائها حالة السلم وحالة الحرب وحالة الظعن والإقامة، وحالة الغنى وحالة الفقر وحالة الجد وحالة اللهو وحالة الرضا وحالة الغضب وحالة الشباب وحالة الشيخوخة والحياة والموت.

أ- ففي مجال العلاقات والسلوكيات:

لا يخفى المرقش الأصغر حياءه من محبوبته فاطمة أن تلقى مصارما له يسبقه عندها وينال منه، ثم يسجل هذه الحقيقة الواقعية وهي إعجاب الناس بالناجح وقدحهم للفاشل يقول:

وإني لأستحييك والخرق بيننا　　مخافة أن تلقي أخالي صارما
فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره　　ومن يغو لايعدم على الغي لائما

وتري الواقعية عنده حين يشير إلى الحقيقة القائلة دوام الحال من المحال، وأن الغني ربما يعود فقيرا والقوي قد يصير ضعيفا والصحيح سقيما، يقول:

كم من أخي ثروة رأيته　　حل على ماله دهر غشوم
ومن عزيز الحمي ذو منعة　　أضحى وقد أثرت فيه الكلوم

ويذهب الغضب بالمتمس الضبعي إلى تهديد أخواله بني يشكر بهجائهم هجاء يكون لهم وصمة عار تلازمهم إلى الأبد، بسبب تشكيك خاله الحارث ابن التوأم اليشكري في نسبه، وكأنه يعيره ببقائه بينهم بعيدا عن قومه بني ضبيعة أضجم يقول:

يعـيــرني أمي رجـالا ولا أرى   أخـــا كـــرم إلا بأن يتكـرمـــا
ولو غيــرأخوالي أرادوا نقيـصتي   جعلت لهم فوق العرانين مـيسما

ويجمـع يزيد الشني بين الواقعـية والصـراحة، فكمـا أنه يستـحيل أن يجتـمع سيفـان في غمـد واحد، فكذلك لا يجتـمع الحب والكره في قلب واحد، وتصل الصراحـة إلى أقصى مداها عند الشاعر، فيـصف الملك عمرو ابن هند بالخيانة والخداع وفساد الطوية. يقول

لن تجـمـعـوا ودي ومـعـتـبني   أو يجـمع السيـفان في غـمـد
نعـــمـــان إنك خـــائن خـــدع   يخـفي ضمـيرك غـير ما يـبدي

ويوضح المثـقب العـبـدي صداقـة الجـاهلي التي لا تعـرف المجـاملة والإزدواجية ، فإما صداقة حقة وإما عداوة ظاهرة. يقول:

فـإمـــا أن تكون أخي بـصـدق   فـأعرف منك غـثي من سمـيني
وإلا فـــاطرحنـي واتخــــذني   عـــدوا أتقـــيك وتتـــقـــيني

ويعكس عبد قيس البـرجمي نظرة واقعية استمدها من بيـئته الجاهلية، وإن كانت تقوم على مبدأ عادل، وهو المعـاملة بالمثل، فإذا شتمك عدوك فرد الشتيمة بمثلها ولا تصمت، وإذا واجهت الأعداء فاضرب بيد من حديد، ولا تدخـر جهـدا في الأذية والترهيب حـتى يخافـون منك، كمـا يخافـون من الاقتراب من البعير المطلي بالقطران. يقول:

وإئا أتتك مـن العـدو قـــوارص   فاقرص كـذاك ولا تقل لم أفعل
وإذا لقيت القـوم فاضرب فـيهم   حتى يـروك طلاء أجرب مهـمل

ويسجل أوس بن حجـر ضيقه من لوم زوجه له في الهـزج الأخير من

الليل حيث يكون في قمة أنتشائه بكئوس الشراب، وهو يعلم أنه في انسياقه وراء هذه المتع وإنفاقه ماله فيهـا إنما يجنح إلى الفساد، ويعترف بذلك ولكنه راض بهذا المسلك. يقول:

قاتلها الله تلحاني وقد علمت أني لنفسي إفسادي وإصلاحي
إن أشرب الخمر أو أرزا لها ثمنا فلا محالة يوما أنني صاحي

ويجاهر ربيعة بن مقروم بسياسته في معاملة الناس موجزا ذلك في إهانته للئيم وإكرامه للكريم، ومقابلة الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها. يقول:

وإن تسأليني فإني امرؤ أهين اللئيم وأحبو الكريما
وأجزي القروض وفاء بها فبؤسى بئيسي ونعمي نعيما

وتتجلى الواقعية عند سلامة بن جندل السعدي في أوضح صورها، فهو لا يختل ولا يمسح كما تمسح الدابة ويدني لها الحشيش لتغر، وإنما هو واضح صريح لا يخدع أحدا ولا يحب أن يخدعه أحد، فإذا أراد أمرا صدع به دون مواربه. يقول:

أما الخلي والمسح إن كان منة عليّ فإني غير خال وماسح
وأما معاذير الصديق فإنني سأبلغها إن كنت لست بفاصح

وتظهر صراحة الشاعر مرة ثانية في مواجهته الشرير بصفته التي هو عليها من الشر، مشيرا إلى أثر البيئة الاجتماعية في السلوك. يقول:

رأيتك ذا شر وفي الشر منقعا إذا كنت في أرض بها الشر شامل

ب- وفي مجال الشكوى

أشار عمرو بن قمئة إلى سفره مع امريء القيس في رحلته التي مات

فيها وسمي بسببها عمرو الضائع، فقد شكا إلى صاحبه العوز وكبرالسن وكثرة العيال، فلم يجد منه إلا التشجيع على المشاركة في الرحلة، وكأنها رحلة صيد ماتعة ينعمان فيها بما لذ وطاب من لحوم حمر الوحش. يقول[1]:

شكوت إليه أنني ذو خلالة ... وأني كبير ذو عيال مجنب

فقال لنا أهلا وسهلا ومرحبا ... إذا سركم لحم من الوحش فاركبوا

وواقعية هذا الشاعر تجعله لا يجد غضاضة من إظهار ضعفه بعد أن جاوز عامة التسعين، وهو ضعف مزدوج يشمل العقل والجسد معا، أما عقله فما عاد يملك لجامه بعد أن شاخ وخرف، وأما جسمه المنهوك فقد صار لا يستطيع القيام إلا على ثلاث يديه وعصاه، فقد مر عليه من مصائب الدهر ما لا يستطيع لها دفعا. يقول:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها يوما عذار لجامي

على الراحلتين مرة وعلى العصا ... أنؤ ثلاثا بعدهن قيامي

وتبدو الواقعية عند الحارث بن حلزه البكري في شكواه المعلنة من التغلبيين حين يحملون بكر ذنوب جميع الناس، ثم يقول لهم : إن أعرضتم عن الإستقصاء أعرضنا عنكم، مع إضمارنا الحقد عليكم كمن أغمض الجفون على القذي، وفي غارات بكر على القبائل يحدد الشاعر نقطة البداية والنهاية فيقول سرنا بجمالنا سيرا شديدا من البحرين حتى وصلنا إلى الحساء مغيرين على القبائل:

زعموا أن كل من ضرب العير ... موال لنا وأنا الولاء

أو سكتم عنا فكنا كمن أغـ ... ـمض عينا في جفنها الأقذاء

إذ رفعنا الجمال من سعف البحر ... ين سيرا حتى نهاها الحساء

---

(١) ديوانه ٦٢ تحقيق العطية.

جـ- وفي مجال الحروب

في منصفة المفضل النكري تبدو الواقعية والصدق معا، فهو يذكر أن الحرب كانت سجالا بين الفريقين، وأن الجميع تجرعوا كأس المرارة بالسوية، وأن القتل استمر بين الجانبين، والسباع شبعت منهم ومن خصومهم، وأن الحزن شمل الكل فبكت نساؤهم ونساء أعدائهم، فليس لأحد من المعسكرين مزية على الآخر. يقول:

وكم من سيد منا ومنهم بذي الطرفاء منطقة شهيق
فأشبعنا السباع وأشبعوها فراحت كلها تئق يفوق
فأبكينا نساءهم وأبكوا نساء ما يسوغ لهن ريق

أما المثقب العبد ي فقد مضى في واقعيته وصدقه إلى أبعد من ذلك، فسجل الهزيمة المنكرة التي تلقتها قبيلته عبد القيس على يد جيش عمرو بن هند وكتيبته المظفرة (دوسر) فقد رسخ ذلك الانتصار الساحق سلطان الملك عمرو على القبيلة المنكوبة وأخضعها لنفوذه وسيطرته، بعد عصيانها له وتمردها عليه. يقول:

ضربت دوسر فينا ضربة أثبتت أوتاد ملك مستقر
صبحتنا فيلق ملمومة تلحق الأعقاب منهن الأخر
وأقام الرأس وقع صادق بعد ما صاف وفي الخد صعر

وفي يوم (زبالة) أغار البروك الحنظلي والأقرع بن حابس وأخوه في مجاشع عل بني بكر، فانهزمت تميم وأسر قوادهم، فافتك بسطام الشيباني الأقرعان، فسجل أوس بن حجر التميمي هذا اليوم بكل أمانه، حيث أشار إلى ما لحق قومه من عار الهزيمة وذل الأسر، وما صاحب ذلك من حزن

وكآبة. كما نوه بقائد بني شيبان وما يتميز به من شجاعة وشهامة. يقول:

وصـــبـحنـا عـار طويـل بناؤه ... نسب به ما لاح في الأفق كوكب
فلم أر يومـا كـان أكـثر باكـيا ... ووجـهـا ترى فـيـه الكآبة تجنب
أصابوا البـروك وابن حابس عنوة ... فظل لهم بالقـاع يوم عصـبصب
وإن أبا الصهباء في حومة الوغي ... إذا ازورت الأبطال ليث مـحرب

ويبلغ الصـدق والواقعـية عند أوس إلى درجـة الاعتراف بـالخوف في المعركة والفرار منها، فقد كانوا يواجهون نمورا لا بشرا عاديين، فحق له أن يهرب من رماحهم التي تحمل الموت. يقـول مصورا ذلك في صورة ضاحكة لموقف باك(١)

أجـــاعلة أم الحـــصين خـــزاية ... عليّ فراري أن لقـيت بني عبس
ورهط بني عمـرو وعمرو بن عـامر ... و تيما فجاشت من لقائهم نفسي
كأن جلود النمـر جيـبت عليهم ... إذا جعجعوا بين الأناخة والحبس
لقـونا فضـموا جـانبينا بصـادق ... من الطعن حش النار في الحطب اليبس
ولما دخلنا تحـت فيء رمـاحـهم ... خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس
فأبت سـليما لـم تمزق عمامـتي ... ولكنهم بالطعن قد خرقوا ترسي

د- وفي حالة الغنى والفقر

يشير الأسود بن يعفر الدارمي إلى حالة الغنى التي يعيشها تلك الحالة التي مكنته من الإعتناء بمظهره والتفرغ للهو والمتع ينفق فيهما بلا حساب يقول(٢)

---

(١) ديوانه ٥١.

(٢) المفضلية ٤٤.

فلقد أروح على التجار مرجلا ... مذلا بمالي لينا أجيادي
ولقد لهوت وللشباب لذاذة ... بسلافة مزجت بماء غوادي

ويصور عمرو بن مالك الضبعي واقع الفقير وما يعانيه من ذل وهوان، وإن كان من أعقل الناس وأقواهم، الأمر الذي يضطره إلى الضرب في الأرض والسير بعيدا فيها ليدرك الغنى

ويزري بعقل المرء قلة ماله ... وإن كان أقوى من رجال وأحيلا
فإن الفتى ذا الحزم رام بنفسه ... جواشن هذا الليل كي يتمولا

هـ- وفي البيئة الخليجية المتباينة

يعكس المرقش الأصغر البيئة الحضرية المترفة حين يتحدث عن ظغائن محبوبته وألوان الزينة اللاتي يتحلين بها من ياقوت وذهب وجزع يماني ودر يقول :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن ... خرجن سراعا واقتعدن المفائما
تحلين ياقوتا وشذرا وضيعة ... وجزعا ظفاريا ودرا توائما

ويشبه المرقش الأكبر الظعائن بالسفن العظيمة الطافية وبأشجار الدوم. يقول :

لمن الظعن بالضحى طافيات ... شبهها الدوم أو خلايا سفين

وهو تشبيه استمده الشاعر من واقع بيئته البحرية، وشبه المثقب العبدي ناقته عندما يوضع الرحل عليها بالسفينة القرواء أي طويلة الظهر السابحة المدهونة، وهي تشق الماء بجؤجوئها أي صدرها، وهو يعلو مع ارتفاع أمواج البحر المرتفعة على المدى البعيد، ويشير الشاعر إلى ما كان يفعله البحارة

الخليجيون من دهن السفن بزيت السمك. يقول :

كأن الكور والأنساع منها ... على قرواء ماهرة دهين
يشق الماء جؤجؤها ويعلو ... قوارب كل ذي حدب بطين

واستجابة لدواعي البيئة البدوية التي تملي على الشاعر الحنين إلى الديار التي عاش فيها سواء في ظل الجوار أو العشيرة، نرى أوس بن حجر يعدد الأماكن التي كانت له فيها ذكريات طيبة أثارها في ذهنه مروره عليها، ولكنه لم ينسها رغم ذهاب كل آثارها. ومن هذه المواضع (قوّ) وهو واد بين اليمامة وهجر و (رهبا) وهي خبراء في الصمان من ديار بني تميم و (عاذب) وهي في أعالي الصمان و (معقلة) في جانب الصمان الموالي للدهناء و (مطار) موضع بين الصمان والدهناء و (واحف) في جانب الصمان. وكل هذه المواطن التي ذكرها أوس بمنطقة الخليج العربي تعكس واقعيته وارتباطه ببيئته، هذا الارتباط الحميم الذي أثار شجونه وجعلها راسخة في أعماقه، مما يدل على أن شعور البدوي بالانتماء إلى الوطن يظل على الدوام قويا يقول:

تنكر بعدي من أميمة صائف ... فبرك فأعلى تولب فالمخالف
فقو فرهبي فالسليل فعاذب ... مطافيل عوذ الوحش فيه عواطف
فبطن السلي فالسخال تعذرت ... فمعقلة إلى مطار فواحف

ويقول المرقش الأكبر:

أمن آل أسماء الطلول الدوارس ... يخطط فيها الطير قفر بسابس
ودوية غبراء قد طال عهدها ... تهالك فيها الورد والمرء ناعس
وتسمع تزقاء من البوم حولنا ... كما ضربت بعد الهدوء النواقس
وأعرض أعلام كأن رؤوسها ... رؤوس رجال في خليج تغامس

يقول د سيد نوفل: وفيها يتحدث عن الاطلال فتظهر ملامح شخصيته الحضرية حين يتأمل حاله وما يقف أمامه من عقبات، وما يعتري نفسه من روع يشتد حتى يرى الأنس في المكان الضنك وتحيط به الأحداث والأوهام، وتظهر كذلك في التعليل الدقيق لتعلقه بالقفر الذي جمع بينه وبين الحبيبة، فالبحث في النفس والتأمل على هذا النحو المنظم لا يتيسران للبدوي الضارب في البيداء، وإنما يتيسران لهذا الشاعر الذي أقا م مقاما حضريا واتصل بالروم وفارس، فجميع مقومات الفن الحضري واضحة في هذا الوصف أشد وضوح، فالربط بين الأجزاء محكم، والمواد منتزعة من البيئة التي يعيش فيها والبادية التي يطوف بها. (١)

وامرؤ القيس الذي أقام فترة من الزمن بمنطقة الخليج سجل جانبا مهما من بيئتها الزراعية فقد صور مراكب الأحبة فوق ظهور الابل على مثال حدائق الدوم والسفن السوداء والنخل العالي، وما على الهوادج من الوشي باحمرار البسر في خضرة النخل قد حمته بنو الربداء من أهل البحرين حتى أثمر وأينع، ثم أتى عمال كسرى لجبايته يتأملون فيه وينعمون النظر إعجابا، وقد جمع بين معاني البادية ومعاني الحضر بقدر ما يتصل بالبدويين في إيجاز بديع جمع بين الجمل والسفينة وبين جدب البادية واعتمام الزهر ووفرة الثمر، وبدت نغمة الأسى في حديثه عن هذا الثمر الذي ينضجه ويجنيه الآخرون، واستطاع أن يجلي هذا المنظر البدوي الرهيب لارتحال الأحبة في صورة مزهرة مشرقة يقول (٢)

فشبهتهم في الآل لما تكمشوا ... حدائق دوم أو سفين تقيرا

أو المكرعات من نخيل ابن يامن ... دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ٧٥.

(٢) ديوانه ٦٠ - دار الكتب العلمية بيروت.

سوامق جبار أثيث فروعه ... وعالين قنوانا من البسر أحمرا
حمته بنو الربداء من آل يامن ... بأسيافهم حتى أقر وأوقرا
وأرضي بنو الربداء واعتم زهوه ... وأكمامه حتى إذا ما تهصرا
أطافت به جيلان عند قطافه ... تردد فيه العين حتى تحيرا

و- وفي البيئة اللغوية

ونظرا للتغلغل الفارسي في بيئة الخليج العربية، عن طريق الجالية المقيمة بها، وعن طريق الصلات، وكذلك عن طريق الحكم المباشر وغير المباشر، فقد سجل شعراء الخليج في العصر الجاهلي هذا التأثير الكبير الذي أثرى مفرداتهم وألفاظهم ووسع لغتهم ولون صورهم وخيالاتهم. وقد تجلت المظاهر الفارسية في مختلف أنحاء شرقي الجزيرة العربية، رأيناها في بعض أسماء مدنهم منها (الفارسي) وهو ثمد بقرب جبل تياس في الكويت، ومنها (داريوش) اسم عين بصفوا، ومنها (دارين) وهي بلدة في القطيف، ومنها (سماهيج) جزيرة في البحرين، تدعى بالفارسية ماشي ما هي فعربتها العرب، وقد سمي لقيط بن زراره ابنته (دختنوس) باسم بنت كسرى ومعناها بنت الهنيء. وقد مثلت بطائفة من المفردات الفارسية عند الحديث عن الملمح اللغوي، وأضيف إلى ذلك قول عمرو بن قمئة:

وكنت إذا الهموم تضيفتني ... قربت الهم أهوج دوسريا

والدوسر الجمل الضخم والأسد الصلب مأخوذ من دوسراني وهوالصلب الضخم، وهو مركب من دراي اثنين ومن سراي أي رأس أي أبوراسين ويقول راشد اليشكري.

رأيت دماء أسهلتها رماحنا ... شآبيب مثل الأرجوان على النحر

والأرجوان معرب ارغوان، وهو شجر له ورد ينتقل به الفرس، وقيل

أن عوده إذا احترق نفع لإنبات الشعر، ويطلق على الأحمر، والثياب الحمر وورد في شعرهم لفظ (الديباج) وهو ضرب من الثياب سداه ولحمته الحرير فارسي معرب. قال المسيب بن علس:

كأن على الظهر ديباجة ... وسود القوائم يحسبن قارا

ويقول الممزق العبدي مستعملا لفظ (سربال)

تطالع ما بين الرحى وقراقر ... عليهن سربال السراب يرقرق

وهو لباس معرب شروال وأصله سربال مركب من سر أي فوق ومن بال أي القامة. وذكروا من أنواع الورود (الأقحوان) قال طرفه

بادن تجلو إذا ما ابتسمت ... عن شيت كأقاحي الرمل غر

يقول د الحوفي: وأثر اتصال العرب بالفرس في خيال الشعراء فجاءوا بصور شتى من علاقاتهم بالفرس، فالمرقش الأكبر يشبه البقر الوحشي التي ترعى في الأطلال برجال من الفرس يمشون مختالين في قلانسهم

أمست خلاء بعد سكانها ... مقفرة ما إن بها من أرم

إلا من العين ترعى بها ... كالفارسين مشوا في الكمم

ووجود هذه الكلمات وسواها يعكس بجلاء الأثر الحضاري الفارسي فيما خلفه شعراء شرق الجزيرة من شعرهم الجاهلي، يقول العالم: وفي نهاية المطاف لا ننسى أن نقرر أن شعر البحرين (الخليج) فيه من السهولة واللين ما لا يساير الاتجاه السائد في العصر الجاهلي، وتعليل ذلك يعود إلى الاتصال بالفرس واصطناع الحياة الحضرية[١] ويذهب المعيني في الاتجاه ذاته في تعليل سهولة شعر الخليج الجاهلي، وكثرة المفردات الأعجمية به مرجعا ذلك إلى

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٨٤.

البيئة المدنية واتصال المنطقة بالأمم المتحضرة، وأشهر تلك الأمم الفرس ويقول : ومن هنا كان هذا الظهور للمفردات الفارسية في لغة الشعراء، وقديما لاحظ الباحثون أثر المفردات الفارسية في شعر الأعشى والمتلمس وأبي دؤاد الأيادي وعدي بن زيد، وذلك لصلتهم وصلة قبائلهم المباشرة وغير المباشرة مع الفرس[1] وهكذا نرى أن الواقعية في شعر شرق الجزيرة العربية في العصر الجاهلي كانت عدسة لاقطة لكافة مظاهر الحياة نقلتها بكل أمانة وصدق لكل من يريد الاطلاع عليها والوقوف عندها.

٤- الاستفهام:

يعرف الاستفهام بأنه طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل. وأدوات الاستفهام تتعلق بصحة الأسلوب لا بمزاياه الجمالية. لذا أهتم بها النحاة فتعرضوا لضبطها والتعرف على كل أداة من حيث طبيعتها وما يسأل بها عنه، والخصائص التي تميزها عن سواها، غير أن اهتمام البلاغيين نحا منحى آخر، فهم يبحثون عن خروج تلك الأدوات إلى معان ودلالات فنية أخرى، والتقاط تلك المعاني والدلالات من الأسا ليب الفنية للاستفهام.[2]

وقد استخدم شعراء الخليج الجاهليون أسلوب الاستفهام المجازي بمختلف أدواته إلا أن همزة الاستفهام كان لها من ذلك أكبر نصيب. يلي ذلك (هل) الاستفهامية ثم (من) وقد لعب أسلوب الاستفهام في حديث الأطلال دورا كبيرا عند شعراء الخليج الجاهليين. فها هو المرقش الأكبر يخاطب نفسه على سبيل التجريد عندما وقف على أطلال متهدمة لم يبق منها إلا الحجارة التي كانت توقد تحتها نار الطعام وبعض أدوات الخيام، فأخذ

---

(١) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٢١١.

(٢) شعر بني عامر ٢٥٦.

يسائل نفسه هل يعرفها؟ وبعد لحظة تأملية علم أنها دار محبوبته (أسماء) فأخذ يبكي عليها وينوح، وأخيرا حين لم يجد فائدة من ذلك طفق يسأل نفسه عن وسيلة للخروج من حزنه، فلم ير غير ناقته القوية علها تفرج كربه حين تنطلق به إلى الصحراء المترامية الأطراف، وتبتعد به عن موطن الذكريات يقول:

هل تعرف الدار عفا رسمها	إلا الأثافي ومبنى الخيم؟
أعرفها دار لأسماء فالـ	ـدمع على الخدين سح سجم
فهل تسلي حبها بازل	ما إن تسلي حبها من أمم

وفي وقفة ثانية للمرقش الأكبر أمام أطلال محبوبته يسألها عن أحوال الحبيب الراحل وهو يعلم أنها لا تجيب، ولكنها الحاجة النفسية الملحة التي تدفعه إلى سؤال جوابه ليس عند المسئول، بل عند السائل، لهذا نراه يجيب في الشطر الثاني على سؤاله في الشطر الأول من المطلع، ثم يطرح على نفسه سؤالا آخر يتعلق بمشاعره تجاه ظعن الحبيب التي يشبهها بنخيل ملهم السامقات، وهو تشبيه يوحي بالجدب النفسي الذي حل به برحيل الأحباب يقول:

هل بالديار أن تجيب صمم	لو كان رسم ناطقا كلم
بل هل شجتك الظعن باكرة	كأنهن النخل من ملهم

وينكر المرقش الأكبر أيضا على نفسه أن يسفح الدموع الغزار على أطلال الحبيبة التي رحلت منذ مدة عنها، فلم يعد هناك جدوى من هذا البكاء، كما يشير عبر الاستفهام إلى خيال الحبيب الذي ألم به في المنام ثم استيقظ ليجد نفسه وحيدا مما جعله حزينا. يقول:

أمن رسم دار ماء عينيك يسفح ... غدا من مقام أهله وتروحوا
أمن بنت عجلان الخيال المطوح ... ألم ورحلي ساقط متزحزح

ويقف المرقش الأصغر على أطلال محبوبته في اليمامة يتأملها فيراها جديدة في عينيه على الرغم من قدم عهدها بعد أن سيطرت عليه الذكريات الجميلة، وحل فيها الأحزان والبكاء، مما جعله يفيق من غفلته، وينظر إليها بعقله، فينكر على نفسه عبر همزة الاستفهام الأنكاري أن يسفح الدموع يقول:

لابنة عجلان بالجو رسوم ... لم يتعفين والعهد قديم
أمن ديارتعفي رسمها ... عينك من رسمها ذات سجوم

وهذا عمرو بن قمئة يسأل نفسه سؤال المستنكر أن يبكي على طلل دارس، وهو شيخ مسن له من التجارب الشيء الكثير. يقول:

أمن طلل قفر ومن منزل عاف ... عفته رياح من مشات وأصياف
بكيت وأنت اليوم شيخ مجرب ... على رأسه شرخان من لون أصناف

ونراه في موضع آخر يسأل نفسه سؤال المستنكر عندما وقف على أطلال الأحبة فلم تثر شجونه أو تبعث أشواقه، ويتبعه بسؤال ثان يحمل جوابا محيرا وهو الشيخوخة التي ربما جعلته هادئا بعيدا عن غزل الشباب واندفاعهم، ثم يعود الشاعر إلى نفسه بسؤال ثالث ينسخ السؤالين السابقين رابطا سؤاله الأخير بظعن الأحبة الذين اكتشف الشاعر حقيقتهم فأصابوه بمقتل حين خانوا صحبته، رافضين مرافقته لهم. فما عاد يشعر نحوهم بشيء عندما مر على أطلالهم. يقول:

هل لا يهيج شوقك الطلل ... أم لا يفرط شيخك الغزل

أم ذا القطين أصاب مقتله ... منه وخانوه اذا احتملوا

ويبدأ ثعلبة العبدي قصيدته بسؤال، وينهيها بسؤالين، ففي البداية يستعمل (من) الاستفهامية الدالة على التصور، حيث يسأل الشاعر عن صاحبة هذا الطلل الخالي الواقع في الكثيب وواحف بهجر، وفي البيت الأخير يستعمل الشاعر الهمزة التي خرجت من معناها الأصلي المراد به التصديق إلى معنى مجازي هو الاستنكار، حيث ينكر الشاعر على نفسه الحذر من الموت حين لا يخرج غازيا، والدليل على ذلك اشتمال الشطر الثاني من هذا البيت على السؤال بأي الاستفهامية، وهو يحمل الجواب القاطع حيث لا توجد بقعة لا يصل إليها الموت. يقول:

لمن دمن كأنهن صحائف ... قفار خلا منها الكثيب فوا حف؟

أمن حذر آتي المهالك سادرا ... وأية أرض ليس فيها متالف؟

ويجمع سلامة بن جندل السعدي في حديثه عن الطلل بين ثلاثة استفهامات، الأول وهو (من) استفهم بها عن صاحب هذا الطلل، عندما رآه لأول مرة، بعد خلوه من قاطنيه بزمن، ولكنه بعد أن تأمله أخذ يتجدد في عينيه، حتى صار مثل الكتاب الذي كتب حديثا بخط واضح جميل، مما جعله يتعرف على صاحبته وهي أسماء التي أحبته ودأبت على وصله، فكان حقا عليه أن يبكي مرابعها عله يطفيء لواعج أشواقه اللاهبة، رغم علمه أن هذه الأطلال مجرد أحجار صماء لا تحس ولا تنطق. وهنا أخذ الشاعر يلوم نفسه على البكاء عند هذه الرسوم البالية بلاء الثوب اليماني المزق يقول:

لمن طلل مثل الكتاب المنمق ... خلا عهده بين الصليب فمطرق

أكب عليه كاتب بدواته ... وحادثه في العين جدة مهرق

لأسمـاء إذ تهوي وصـالك إنها ... كذي جدة من وحش صاحة مرشق
وقـفت بهـا مـا إن تبين لسـائل ... وهم تفقه الصم الخوالد منطقي؟
ومـاذا تبكي من رسـوم محيلة ... خـلاء كـسحق اليـمنة المتـمـزق

وكما أكثر شـعراء الخليج الجاهليون من صيغ الاستفـهام المتمثلة في (ء وهل ومن) عند وقوفـهم على الأطلال، فقد استـعملوا أسلوب الاستـفهام أيضا في حـديث الظعن، كطريقة فنية في إعـلان خبر الرحيل وإذا عـته بين الناس، أو مـدخلا من مداخل الحـديث عن هذه الظعـائن. فها هو المـثقب العبدي يتساءل عن طريق (من) الاستفـهامية عن أصحاب الظعن التي طلعت من صبيب طالبـا من نفسه أو من رفيق سـفره أن يمعن النظر في هذه الظعن التي تسير بسرعة بجنب الصحصحان إلى جهة الوجهين. يقول:

لمن ظعـن تطالع من صـبـيب ... فـمـا خـرجت من الوادي لحين
تبـصـر هل ترى ظـعنا عـجـالا ... بجنب الصحـصحان إلى الوجين

ويشكو المثقب العبدي مرة ثانية عبر (هل) الاستفهامية المكررة من ظعن الحبيب، وما يسببه له من آلام مبرحه ودموع كثيرة يقول :

هل لهـذا القلب سمع أو بصـر ... أو تناه عـن حـبـيب يـدكـر
أو لدمع عـن سـفـاه نهـيـة ... تمتـري منه أسـابـي الدرر
إن راي ظعـنا لليلي غـدوة ... قـد عـلا الخـرمـاء منهن أخـر

كما يشكو المفـضل النكري من رحيل الأحبة وفرقـتهم الأمر الذي أدى به إلى سفح الدموع. يقول:

ألم تر أن جـيـرتنا استـقلوا ... فنيـتنـا ونيـتـهم فـريق
فـدمـعي لؤلـؤ سلس عـراه ... يخـر على المهـاوي مـا يليق

ولما كانت همزة الاستفهام القطب الذي دار عليه هذا الأسلوب البلاغي فقد استعملت في شتى المواقف والأغراض. وفي استفهام استنكاري يوجه المتلمس الضبعي سخريته المرة إلى عمرو بن هند حين يراه وقد ملك البلدان والقرى والقصور يتحرق لهبا ويتفجر غضبا إذا أخذ من ابنه (دوامة) وهي اللعبة التي يلعب بها الصبيان تلف بسير أو خيط ثم ترمي فتدور، ثم يستنكر الشاعر من عدم اختلاف الأبطال الذين جمعهم حوله وخروجهم عليه، وهو لا يملك من الحكمة وسداد الرأي ما يجعلهم معه على كلمة سواء. يقول[1]

ألك السدير وبارق ومبايض ولك الخورنق

والقصر ذو الشرفات من سنداد والنخل المسبق

وتظل في دوامة ال مولود يظلمها تحرق

ما لليوث وأنت جا معها برأيك لا تفرق؟

وقد وجد الحارث بن حلزه في الاستفهام ما يفلج به خصمه عمرو بن كلثوم، في المناظرة التي جرت بينهما أمام الملك عمرو بن هند، حيث وجد فيه الأسلوب الأمثل لعرض الهزائم المنكرة التي منيت بها قبيلة تغلب على يد القبائل والتنصل من تبعاتها، فذكر ما فعلت بهم كندة حين لم يقدروا على دفعها، وما فعل بمن ذكرهم من سادة بني تغلب الذين قتلوا بأمر المنذر الثالث، وما فعل بهم العباد من نصارى الحيرة الذين غزوهم ولم يستطيعوا الثأر منهم، فكيف يحملوا بكرا جناية هؤلاء، كما تعلق الأحمال على وسط البعير، وما فعلت بهم حنيفة، وما جمعت الأرض عليهم من المحاربين، وكذلك ما فعلت بهم قضاعة وكانت غزت تغلب فنالت منهم ولم يأخذوا

(١) ديوانه ٢٣٦.

بثأرهم . يقول (١)

أعلينا جناح كندة أن يغنم ... غازيهم ومنا الجزاء

أم علينا جرا إياد كما ... قيل لطسم أخوكم الأباء

أم جنايا بني عتيق فمن يغدر ... فإنا من حربهم براء

أم علينا جرا العباد كما نيط ... بجوز المحمل الأعباء

أم علينا جرا حنيفة أو ما ... جمعت من محارب غبراء

أم علينا جرا قضاعة أم ... ليس علينا فيما جنوا أنداء

ويتساءل يزيد بن الخذاق العبدي عما إذا كانت حبيبته قد سمعت بعدته واستعداده لدرء كل خطر، بما يحمل معه من سلاح وبعنايته بفرسه الشموس التي أعتني بها كل عناية لملاقاة عدوه لتكون مطمئنة بقوته وواثقة من غلبته، ثم يوجه استفهاما انكاريا يحمل معه السخرية والتحقير لعمرو بن هند وجنوده الأوباش الذين يعدون العدة للعدوان عليه وعلى قبيلته، ثم يخاطب الشاعر قائد الملك ابن المعلى باستفهام إنكاري مبطن بأن يراجع حساباته فلا يفكر في العدوان حتى لا يرتد ذلك عليه، مبينا أن قوم الشاعر ليسو من الملاحين الذين اعتادوا في ذلة وصغار أن يدفعوا الأتاوات والمكوس لأهل البغي والظلم. يقول

ألا هل أتاها أن شكة حازم ... لدي وأني قد صنعت شموسا

أكل لئيم منكم ومعلهج ... يعد علينا غارة فخبوسا

ألا ابن المعلى خلتنا وحسبتنا ... صراري نعطي الماكسين مكوسا

---

(١) ديوانه ٣٧ .

ويستعمل الأسود بن يعفر الدارمي همزة الأستفهام التي تحمل معنى السخرية والتهكم، في خطابة لبني سلمي بن جندل، لما بلغه عنهم من الوعيد والتهديد، مبينا لهم أنهم لو يملكون القدرة على ذلك لوجهوها إلى رهط حابس الذين ظلموهم فلم يحركوا ساكنا يقول:

أحقا بني أسماء سلمى بن جندل وعيدكم إياي وسط المجالس

فهلا جعلتم نحوه من وعيدكم على رهط قعقاع ورهط ابن حابس

ويحذر ضوء الذهلي من خلال همزة الاستفهام عن صغير الشر، لأنه يقود إلى كبيره، وكذلك الجرب الصغير الذي لا ترا ه العين، فلا يعالج حتى يكبر ويصير ظاهرا للعيان. يقول[1]

ألم تر أن الشر مما يهيجه أصاغره حتى يتم ويكبرا

وأن كمين العر يخفي دواؤه على أهله حتى يبين ويظهرا

وبني الحارث بن وعله الشيباني ميميته على أسلوب الإستفهام فكرره ظاهراً ومضمرا، سبع مرات، في بداية القصيدة وأثنائها. وقد ساعد التكرار الشاعر على إظهار عاطفته تجاه مخاطبه، الذي أخذ الحارث يعدد مظالمه، كما مكنه ذلك من إعلان قوته، ومواجهته بها. يقول بعد سؤاله عن الديار(١)

أقتلتنا ظلما بلا ترة عمدا لتوهن آمن العظم

ووطئتنا وطءا على حنق وطء المقيد نابت الهرم

وتركتنا لحما على وضم لو كنت تستبقي من اللحم

أرأيت إن سبقت إليك يدي بمهند يهتز في العظم

هل ينجينك إن هممت به عبداك من لخم ومن جرم

---

(١) المؤتلف والمختلف ١٤٦.   (٢) كتاب الاختيارين ٣٨٥، ٣٨٦.

وهناك بعض أدوات الاستفهام التي استعملها شعراء الخليج الجاهليون استعمالا يسيرا، مثل كيف ومتى وأي.

يقول طرفه بن العبد وكأنه يلوم نفسه على التعلق بمن لا أمل له في مواصلتها

فكيف صبوت أو ترجو مهاة   منعمة تزار ولا تزور

وفي موضع آخر يستعمل طرفه كيف في توبيخ ابن عمه الواشي

وكيف تضل القصد والحق واضح   وللحق بين الصالحين سبيل

ويقول أبي العفراء المحاربي(١)

حتى متى الجعشم في الأحياء   ليس بذي أيد ولا غناء

أما أي الدالة على الإنكار فيقول شهاب بن صيف(٢)

لا هم إن الحارث بن جبله

زنا على أبيه ثم قتله

فأي أمر سيء لا فعله؟

٥- الالتفات

عرف علماء اللغة العرب القدماء (الالتفات)، ولعل أول من أطلق عليه اسمه الاصطلاحي الأصمعي الذي عرفه بقوله: هو التحول من معنى إلى آخر .(٣) ويفصل قدامه بن جعفر هذا التعريف في قوله: هو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن رادا يرد عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا على ما قدمه فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه(٤) أما ابن المعتز فقد عرف الالتفات بقوله: هو

(١) ديوان عبد القيس ١٠٨.

(٢) نفسه ١١٠.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ٢٦١.

(٤) نقد الشعر ١٦٧.

انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الأخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر.[(١)]

ويربط الزمخشري الالتفات بالمتلقي فيقول: لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب آخر كان ذلك أكثر تطربه لنشاط السامع وإيقاظا للاصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد.[(٢)]

والقيمة البلاغية للالتفات تكمن في حالة التيقظ الذهني والنشاط العقلي الذي يتولد لدى السامع أو القاريء ويبعده عن الملل الذي يصيبه من السير على نمط واحد من أنماط التعبير. ويرى د الوصيفي أن الالتفات من الأساليب البلاغية التي تؤدي دورا في الايحاء والدلالة في شتى أغراض الشعر. ثم يقول: وقد نظرت الدراسات الحديثة للالتفات على أنه ظاهرة أسلوبية تثري الابداع، إذ يغير مسار السياق اللغوي والدلالي في النص، ويجعله سياقا تدب فيه الحركة والتحول من حالة إلى أخرى.[(٣)]

وقد استعمل شعراء الخليج الجاهليون أسلوب الالتفات لإثراء دلالة خطابتهم الشعري، الذي حفل بالعديد من مواطن الالتفات منها:

أ- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب

فهذا عمرو بن قمئة يستخدم ضمير الغيبة عندما يتحدث عن حبيبته التي غابت عنه طويلا ثم التقيا، فلما رأته قد شاخ وهزل بفعل السنين فزعت وتعجبت مما جعله يقبل عليها يحدثها بالكنبة الدالة على التوفير والاحترام، مبينا لها أن الدهر يحدث الكثير من العجائب وأن الانسان عرضة لحوادثه التي تهد الجبال. يقول:

فزعت تكتم وقالت عجيبا ... أن رأتني تغير اليوم حالي

يا ابنة الخير إنما نحن رهن ... لصروف الأيام بعد الليالي

---

(١) البديع ٥٨.

(٢) الكشاف ١/ ١٠.

(٣) شعر بني عامر ٢٤٨

ويستعمل المثقب العبدي ضمير الغيبة عند حديثه عن تبدل المحبوبة وتقلب مشاعرها، ثم ينتقل إلى مناداتها ومخاطبتها فيستعرض قوته أمامها وقدرته على اجتياز الصعاب وقطع البراري في الهاجرة على راحلته القوية. يقول:

ولكنها مما تميط بودها ... بشاشة أدنى خلة تستفيدها

أعاذل ما يدريك أن رب بلدة ... إذا الشمس في الأيام طال ركودها

قطعت بفتلاء اليدين ذريعة ... يغول البلاد سوقها ويريدها

ويخبر عمرو بن قمئة عن محبوبته بأنها جادت بخيالها ولكنها بخلت بشخصها، ولعلنا نلحظ أن التحول إلى الخطاب في البيت الثاني يعطي إيحاء بمدى حاجة الشاعر إلى محبوبته وتعلقه بها، فهو يتعجب من قطعها حبل مودته ويستعمل ضمير الغيبة في التعبير عن نفسه ليتسنى له الثناء عليها بلا تحرج، ورغبته في مواصلته لمن يحب. يقول

فباتت وما نلت من ودها ... قبالا ولا ما يساوي قبالا

وكيف تبتين حبل الصفا ... من ماجد لا يريد اعتزالا

فتى يبتني المجد مثل الحسا ... م أخلصه القين يوما صقالا

ويخبرنا الحارث بن حلزه بقصة حبيبته التي لزمت رحلة بطيف خيالها متجشمة العناء حتى وصلت إليه في جنح الظلام، يقول :

طرق الخيال ولا كليلة مدلج ... سدكا بأرحلنا ولم يتعرج

أني اهتديت وكنت غير رجيلة ... والقوم قد قطعوا متان السجسج

وحتى يستمر الحديث في سياق الغيبة كان المفترض أن يبدأ البيت

الثاني بـ (أني اهتدت وكانت) لكــن الشاعر عدل عن ذلك إلى الخطاب الذي أثرى الدلالة الإيمائية للبيت. فقد اختفى الراوي للقصة - الشاعر - وأصبحنا نرى مشهدا لحوار بين حميمين بدلا من أن كنا نسمع عنه.

ويستـعمل المرقش الأصـغر ضمـير الغيـبة ثم الخطاب في حـديثه عن محبوبته فاطمة مما يدل على سيطرتهـا الكاملة عليه واستيلائها على وجدانه. يقول:

وإني لأسـتحـيي فطيمـة جائعـا   خميصا واستـحيي فطيمة طاعما
وإني لأسـتحـييك والخـرق بيننا   مخـافة أن تلقـي أخالي صـارما

ويتحدث حـجيه بن المضرب عن موقف زوجـته الرافض لافراطه في مساعدة بني أخيه اليـتامى، وموقفه من ذلك، فيذكر بضميـر الغيبة لومها له على الاسـراف، ثم يواجهـها بموقـفه المصـر على استـمراره في المسـاعدة، ويخاطبها بعدم اكتراثه من غضبـها في هذا الأمر، ولو أدى إلى مفارقتها له. يقول:

تلوم على مـال شـــفـاني مكانه   فلومي على ما فاتك اليـوم واغضبي
فإن تجلسـي فأنت بعض عيـالنا   وإن تكرهي هذه المعيـشة فاذهبي

ويسقط سبيع التيمي مشاعره على ناقته الدائمة الحنين إلى الوطن فيعلن زجره لها عن ذلك الصوت القوي الذي آذاه، ويؤنسنها فيطلب منها أن تلتزم بالحـياء وتكف عن الحنين إلى مـرابعه التي أصـبحت صلتـه بأهلها واهـية. يقول:

فزجرتها لما أذيت بسجرها　　وقفا الحنين تجرر وصريف

فاقني حياءك إن ربك همه　　في بين حزره والثوير طفيف

ويستخدم سلامة بن جندل الإلتفات في التعبير عما يعانيه من شعور ممض وألم دفين تجاه فراق ابنته وخروجه للغزو، حيث ينتقل من ضمير الغيبة إلى الخطاب، فهو يستعمل ضمير الغيبة عند حديثه عن كلام ابنته الذي يبدو فيه راويا لمخاوفها من فقده حين يخرج غازيا، ولكنه يستخدم ضمير الخطاب فيواجهها بحقيقة لا تستطيع دحضها وهي عدم القدرة على ضمان بقائه سالما إذا بقي معها : يقول :

تقول ابنتي إن انطلاقك واحدا　　إلى الروع يوما تاركي لا أباليا

دعينا من الإشفاق أو قدمي لنا　　من الحدثان والمنية واقيا

ويستعين قراد الدارمي بالالتفات في هجائه الساخر لحاجب بن زراره وأخيه عمرو، فيغيبهما في البيت الأول احتقارا لهما، ويخاطبهما في البيت الثاني تحديا لهما. يقول [(١)]

تمنى حاجب وأخوه عمرو　　لقائي با لمغيب ليقتلاني

ولو لم يخش غير كما عدو　　لأصبح أمنا صعب المكان

ويغيب أوس الهجيمي يزيد بن الصعق الكلابي وجيشه الضعيف السيء النظام تحقيرا لشأنهم، ثم يخاطبه فيقول أجر إلى عدواننا أو اكفف على صغر معلوب الأنف. يقول:

وجدنا من يقود يزيد منهم　　ضعاف الأمر غير ذوي نظام

فأجر يزيد مذموما أو انزع　　على علب بأنفك كالخطام

(١) معجم الشعراء ٣٢٨.

وفي حديث راشد اليشكري لبني قومه يطلب من يبلغهم باتخاذ موقف الاحتكام إلى العقل والحكمة، ثم يخاطبهم فيوصيهم ببني شيبان خيرا رغم ما بدا منهم من أمور تدعو للحنق، ففي الغيبة كانوا بعيدين عنه فطلب من يبلغهم ما يريد، وفي الخطاب تخيل أنهم حضروا أمامه فأخذ يلقي عليهم وصيته. يقول:

من مبلغ فتيان يشكر أنني أري حقبة تبدي أماكن للصبر

فأوصيكم بالحي شيبان إنهم هم أهل أبناء العظائم والفخر

ويجمع ثوب النار بين ضمير الغيبة وا لخطاب ليجمع بذلك بين الشكر وأسبابه، ففي الأول أخبر الشاعر عن إكرام صاحبه لعياله، وفي الثاني أمرهم بالشكر وحفظ الجميل. يقول[1]

فأضحى عيالي كلهم كعياله سواء ثووا في ظل ذي فخر غمر

فأثنوا عليه بالسماحة والندى ولا تكفروا إن الكرام ذوو شكر

ويتحدث المثقب العبدي بضمير الغيبة عن نعم عمرو بن هند عليه ويشكره عليها، ثم يوجه خطابه إليه ملتمسا منه قبول شفاعته في إطلاق أسارى قومه. يقول :

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه جزاء بنعمي لا يحل كنودها

فأنعم أبيت اللعن إنك أصبحت لديك لكيز كهلها ووليدها

ويستعمل المرقش الأصغر ضميرالغائب في الحديث عن المتهالك على جمع المال مبديا تعجبه منه، وكأنه لا يعلم أن عوامل الفساد والفناء تحيط به

(١) المؤتلف والمختلف ٧٠.

من كل جانب. ثم يقترب في الحديث منه فيخاطبه مخاطبة القريب الناصح فيدعوه إلى الاعتدال والتؤده في الطلب لأن الرزق المقدر لا يفوت قل أوأكثر يقول:

عـجبـا ما عـجـبت للعاقـد المـا ... ل وريب الزمـان جـم الخـبـول

أجـــمل العـــيش إن رزقك آت ... لا يرد التـرقـيح شـروى فـتـيل

ويقول المتلمس الضبعي

يعيرني أمي رجال ولا أرى ... أخـــا كرم إلا بأن يتكـــرما

أحارث إنا لو تشاط دماؤنا ... تزايلن حـــتى لا يمس دم دما

فهو كما نرى غيب خاله الحارث اليشكري في البيت الأول تعبيرا عن غضبه وزرايته، وخاطبه في البيت الثاني على سبيل المجابهة والاستعلاء.

ب- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

ويلتفت عبد المسيح الشيباني من الخطاب إلى الغيبة فيقول:

يا كـعب إنك لو قصـرت على ... حـــســن الندام وقلـة الحـــرم

لصـحوت والنـمري يحـسـبهـا ... عم الســمـــاك وخـالة الـنجم

النمـري هو كعب، وهذا من بديع الالتـفات، يقـول لصحـوت وأنت تحسب هذه القينة في علو قدرها عما للسماك وخالة للثريا[١].

ويستـخدم المرقش الأصـغر كاف الخـطاب في الحديث عن نفسـه على سبيل التجريد، وكأنه يروي لشخص آخر بهرته مـفاتن فاطمة، كما يستعمل ضمير الغيبة وهو يتكلم عن قلبه المتيم بحب فاطمة. يقول:

---

(١) المفضلية ٧٢ - هامش ص ٢٧٩.

أرتك بذات الضال منها معاصما ... وخدا أسيلا كالوذيلة ناعما
صحا قلبه عنها على أن ذكرة ... إذا خطرت دارت به الأرض قائما

ويقول المسيب بن علس

أنت الوفي فما تذم وبعضهم ... تودي بذمته عقاب ملاع
وإذا رماه الكاشحون رماهم ... بمعابل مذروبة وقطاع

حيث خاطبة أولا ليظهر اقترابه منه وإعجابه به، وغيبه في الثاني تأدبا وتوقيرا.

وينتقل المسيب بن علس من الخطاب إلى الغيبة أيضا في مديحه لقيس ابن كرب الكندي فيخاطبه بتاء الخطاب المؤكدة بلام التوكيد، واصفا إياه بالجود الذي يطغى على غزير المطر، ثم يواصل وصفه بالكرم فيتحدث بضمير الغيبة عن مظهر بارز من مظاهر هذا الكرم، وهو تقديم الجفان الواسعة لطراق الليل وضيوف المساء. يقول:

ولأنت أحيا من مخبأة ... عذراء تقطن جانب الكسر
وله جفان يدلجون بها ... للمعتفين وللذي يسر

ويقول المتلمس الضبعي لعمرو بن هند

أطردتني حذو الهجاء ولا ... والله،والأنصاب لا تئل
الغدر والآفات شيمته ... فافهم فعرقوب له مثل

فقد خاطبه أولا في مقام التهديد وإثبات القدرة على المواجهة، ثم غيبه بعد ذلك على سبيل الاحتقار والتشهير.

ويستخدم مرة بن همام الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فيلوم عوف في

الأول لوم القادر على المواجهة، ويبدي اعجابه بشجاعته في الثاني. يقول:

يا عوف ويحك فيم تأخذ صرمتي ولكنت أسرحها أمامك غيبا

لله عوف لابسا أثوابه يا لهف نفسي قرن ما إن يغلبا

جـ- الالتفات من الغيبة إلى التكلم والعكس

واستعمل ثعلبة العبدي ضمير الغيبة عند حديثه عن امتلاكه آلات الحرب من سلاح وشجاعة وإيمان، ثم اتبعه بضمير المتكلم عند كلامه عن خوض غمار الحرب وقدرته على صراعها بقوة الواثق القادر يقول:

عناد امريء في الحرب لا واهن القوي ولا هو مما يقدر الله صارف

به أشهد الحرب العوان إذا بدت نواجذها واحمر منها الطوائف

ويتحول حجية السكوني من التكلم إلى الغيبة في حديثه عن إيثاره أبناء أخيه المتوفي على أبنائه وإعطائهم ماله فيقول:

أحابي بها قبر امريء لو أتيته حريا لآساني على كل مركب

أخوك الذي إن تدعه لملمة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

ففي الأول استخدم ياء المتكلم مبينا أن ما فعله من الإيثار إنما كان من قبيل الوفاء لأخيه المفضال وفي الثاني استخدم كاف الخطاب حيث جرد من نفسه شخصا آخر وأخذ يخاطبه ليعزز موقفه الذي فضل فيه أخاه على نفسه.

د- الالتفات الثلاثي:

نرى هذا اللون من الالتفات في صرخة الغائب عندما يفخر الشاعر بالكرم في قول المثقب العبدي:

وسـار تغـشـاه المبـيت فلم يدع   له طامس الظلماء والليل مـذهبا
رفـعت له بالكف نارا تشـبـهـا   شـآميـة نكباء أو عـاصف صبـا

فالساري في الليل البـهيم وقد هام على وجهه يبحث عن مـلاذ يحميه فلم يجد حتى أعياه السير وبات في الصحراء، والتحول إلى المتكلم هنا بمثابة الفخر بالنجدة وإبراز أسـبابها لمن يحتاجها، وهذا النمط من الالتـفات يحتاج إلى مخاطب حتى يؤدي الفـخر غرضه(١)، لذا يتبع الشاعر الـبيتين السابقين ببيت يتحول فيه إلى الخطاب فيقول:

وقلت ارفعاها بالصعيد كفى بها   منـــاد لســار ليلة إن تأوبـــا

ومن ذلك أيضا قول حجية بن المغرب

رثيت لهـم لما رأيت سـوامـــهم   عطاء الموالي من أفيل ومـصعب
فـقلت لعـبـدينا أريحـا عليـهم   سأجـعل بيتي مـثل آخر مـعزب

حيث تحدث الشاعـر بضمير الغائب عن أبناء أخيـه المعوزين، ثم تحول إلى ضمير المتكلم مفاخرا بإيثـاره لهم على أبنائه، ولكي يحقق الفخر غرضه تحول إلى الخطاب فقال:

وقلت خذوها واعلموا أن عمكم   هو اليوم أولى منكم بالتكسب

ويلتفت المسيب بن علس من الغياب إلى الخطاب ثم العودة إلى الغياب في مديحه لزيد بن قيس الحاشدي لتأكيـد انتشار ممدوحه ومعرفة جميع الناس له بهذه الخلال النبيلة التي يعرفهـا الداني والقاصي والحاضر والغائب وليظهر له مشاعر التقدير التي يكنها نحوه.

---

(١) الوصيفي: شعر بني عامر ٢٥٤.

تخلق في البيت من حاشد | تراه البرية فيها هلالا
وإنك مردى حروب النزال | إذا كره المعلمون النزالا
إذا ما انتضى التاج فوق السرير | فلن يعدل الناس منه قبالا

وينتقل طرفه بن العبد من التكلم إلى الغيبة ثم الرجوع للتكلم في سياق الفخر. يقول:

ولقد تعلم بكر أننا | صادقوا البأس وفي المحفل غر
يكشفون الضر عن ذي ضرهم | ويبرون على الآبي المبر
نمسك الخيل على مكروهها | حين لا يمسكها إلا الصبر

ويمزح عمرو بن قمئة بين الاعتذار والعتاب في قصيدته التي تحدث فيها عن علاقته المتوترة بعمه مرثد بن سعد وقد بدأها بتوجيه الخطاب إلى رفيقي السفر طالبا منهما أن يمهلاه وقتا ليقضي حق القرابة ثم استعمل الشاعر كاف الخطاب التي خاطب من خلالها إما نفسه على سبيل التجريد أو رفيقه معبرا عن حرصه على صلته بعمه التي أشار عن طريق ضمير الغيبة إلى سوء موقفه منه وإكثاره من تأنيبه وتقريعه بلا ذنب جناه. يقول

وإن تنظراني اليوم أقض لبانه | وتستوجبا منا علي وتحمدا
لعمرك ما نفسي بجد رشيدة | تؤامرني سرا لأصرم مرثدا
وإن ظهرت منه قوارض جمة | وأفرغ في لومي مرارا وأصعدا

ويستعمل عمرو بن قمئة ضمير المتكلم والمخاطب والغائب عندما يتحدث عن ظعن حبيبته تكتم وما أحدثته الأيام والليالي فيه من ضعف وكبر بعد فراقها، فقد لجأ الشاعر إلى ضمير المتكلم عندما عبر عن حزنه من

ارتحال حبيبته الذي لم يقو على مواجهته مما جعله يستعين بضمير الخطاب فيطلب من رفيقه متابعة خط سير الرحلة، حيث نزلوا بحوسويقه في الصمان، ثم مروا بالدثينة إلى أن اتخذوا من الحساء مصيفا لهم، حيث الماء والخضرة والشجر الوارف الظلال، وهو في حديثه عن تنقل الظعن يستخدم ضمير الغياب، حيث غاب عن ناظريه ، وتابعه بقلبه. يقول:

إن قلبي عن تكتم غير سالي   تيمتني وما أرادت وصالي

هل ترى عيرها تجيز سراعا   كالعدو لي رائحا من أوال

نزلوا من سويقة الماء ظهرا   ثم راحوا للتعف نعف مطال

وفي مفضلية راشد اليشكري الميمية يستعمل الشاعر أسلوب الالتفات استعمالا رشيدا، حيث يجعل لكل مقام مقال، فقد كان موضوع القصيدة الأساسي هو الرد على خصمه الذي سبب له الأرق بسوء مقالته التي بلغته عنه، وقد استخدم الشاعر ضمير الغيبة الدال على التحقير عند حديثه عن هذا الرجل المغتاب، واستعمل ضمير المتكلم في دحضه لهذه المقالة، ثم يوجه كاف الخطاب لدى مواجهته لهذا الخصم، مقابلا بين تهديده له بما هو أشد ومستعرضا أمامه كامل قوته، ولكنه لم يقطع معه كل خيوط الاتصال فنراه بتاء الخطاب يذكره بزمن الصحبة الطيبة والجوار الحسن الماضيين، على حين يستخدم الشاعر ضمير الغيبة لإثبات غياب هذه المشاعر الأخوية عن صاحبه القديم وعدوه الجديد[١] يقول:

أرقت فلم تخدع بعيني خدعة   ووالله ما دهري بعشق ولا سقم

ولكن أنباء أتتني عن امريء   وما كان زادي بالخبيث كما زعم

---

(١) المفضلية ٨٦.

ولكنني أقصي ثيابي من الخنا　　　وبعضهم للغدر في ثوبه دسم
فملا أبا الخنساء لا تشتمنني　　　فتقرع بعد اليوم سنك من ندم

٦- التكرار:

التكرير أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس بمثير معين، واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة، لاتصاله الوثيق بالوجدان.

فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتماما عنده، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه، أو من هم في حكم المخاطبين، ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والمكان، فاللفظ المكرر مصدره الثورة وهدفه الإثارة حبا أو بغضا في أي غرض من أغراض الكلام.[١]

والتكرار مرتبط بقانون التردد من قوانين تداعي المعاني ولذا يعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير، ويرجع أثر التكرار إلى أنه يزيد الشيء المكرر تميزا من غيره. فالأقوال التي تتوافر في سمعي تكون أكثر ورودا على لساني أو خلال تفكيري من الأقوال العابرة، ولهذا كان التكرار والالحاح فيه هو الركن الأساسي الذين يقوم عليه فن الدعاية.[٢]

ويعد التكرار في الشعر العربي انعكاسا لحالة شعورية ما في نفس الشاعر، هذه الحالة تلح على الشاعر الحاحا فلا يجد مناصا من التعبير عنها إلا بالتكرار، ومن ثم يتضح لنا أن مستوى الابداع في التكرار لا يكمن في توالي الألفاظ والعبارات المتشابهة، وإنما يكمن في الايحاء الدلالي لتوالي هذه الألفاظ وتلك العبارات، وهو بهذا يحتوي على كل ما يتضمنه أي

---

(١) عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير ١٣٧.
(٢) نفسه ١٣٨.

أسلوب آخر من امكانات تعبيرية، إضافة إلى الدور الذي يؤديه التكرار في البناء الفني للأبيات.[١]

ويمكن دراسة التكرار في شعر الخليج الجاهلي حسب العناوين الفرعية التالية:

أ- تكرار العلم والكنية:

هذا سعد بن زيد مناه يكرر اسم زوجه الناقمية تكرارا يعبر عن تعلق شديد بها، وقلق عارم على فراقها، وهو وإن تظاهر بعدم المبالاة عندما رآها تهدد بمفارقته، إلا أنه في داخله يحمل شعورا قويا نحوها وفي تعلله بأبنيه الصغيرين هبيره وصعصعه ما يشير إلى ذلك. يقول[٢]

أجد فراق الناقمية فانتوت ... أم البين يحلو لي لمن هو مولع
لقد كنت أهوي الناقمية حقبة ... وقد جعلت أقران بين تقطع
فلولا بنياها هبيرة إنه ... بني الذي يشفي سقامي وصعصع
لكان فراق الناقمية غبطة ... وهان علينا وصلها حين يقطع

وتبدو سلمى في الشعر الجاهلي رمزا للحب العذري والعفة، وتظهر كأنها فتاة غريرة حسناء تحب ولا تحب.[٣] وتظهر كطيف رقيق يمر بالقلوب فتظل متعلقة به فهي رفيقة جواب الصحراء.

وقد كرر طرفة بن العبد اسم سلمى في لاميته سبع مرات، وفي تكراره لذة له، حيث يرضى لواعج نفسه، غير أن الشاعر يتبع هذا الاسم

---

(١) الوصيفي: شعر بني عامر ٢٣٧.

(٢) أمثال الضبي.

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ١٥٠.

بضميرالغائبة في بعض الآبيات، وكـأن الشاعر يتأرجح بين الأمل المتمثل في سلمى واسمهـا وبين الواقع المر الذي فرض عليه غيـابها عنه، فنحن في كل مرة نصل فيـها إلى هاء الغائبة نشـعر بفدا حة مـأساة الشاعر، لا سـيما إذا عرفنا أن هذه الهـاء الغائبـة تعود على محـبوبته سلمى التي تـغنى بذكرها. يقول[١]

ديار لسلمـى إذ تصـيـدك بالمنى ... وإذ حـبل سلمى منك دان تواصله

سما لك من سلمى خيال ودونها ... سـواد كثـيب عـرضه فـأمـايله

وأنى اهتدت سلمى وسـائل بيننا ... بشاشـة حب باشر القلب داخله

وكم دون سلمي من عـدو وبلدة ... يحاربهـا الهادي الخـفيف ذلاذله

وما خلت سلمي قـبلها ذات رجلة ... إذا قسوري الليل جـيبت سرابله

وقـد ذهـبت سلمى بقلـبك كله ... فهل عـند صيد أحـرزته حبـائله

ويسـتعـمل المتلمس الضبـعي تكرار العلم الدال على التنويه والإشـادة والتعظيم، فيكرر اسم ممدوحه خمس مرات، فيقول[٢]

إلى ربهـا قيـس تروح وتغتـدي ... فـلا فـرح قيس ولا مـتـعـبس

إذا بلغت قـيس اليـماني ناقـتي ... فـأي خليل بعـــد قـيس تلمس

لعمري لنعم المـرء قيس اذا انتهى ... إلى بابـه راج له ليس يـحـــبس

ويبكي الحارث بن عباد الضبـعي ابنه بحيرا بكاء الرجال الذي من شأنه الهاب الحماس للأخذ بثأره، ويجد في التكرار وسيلته لهذه الغاية، كما يكرر

---

(١) ديوانه ٧٦.

(٢) ديوانه ٢٣٤.

اسم القبيلة المعادية (تغلب) على سبيل الترهيب والوعيد يقول[١]

قل لأم الأغـر تبكي بـجـيـرا   حـيل بين الرجـال والأمـوال
ولعـمـري لأبكين بحـيـرا   مـا أتى الماء من رؤوس الجبـال
لهـفت نفسي على بجـير اذا مـا   جالت الخـيل يوم حرب عـضال
يا بجيـر الخيـرات لاصلح حتى   نملأ البـيـد من رؤوس الرجـال
يا بني تـغلب خـذوا الحـذر إنا   قـد شـربنـا بكأس مـوت زلال
يا بني تـغلب قـتلـتم قـتـيـلا   مـا سـمـعنا بمثله في الخـوالي

وأوس بن حـجر في مـقام الهـجاء لناس من بني أسـد بن وائله يكرر خمس مرات نـسبتهم للأم، ويناديهم بالكنيـة تحقيرا لهم، فـهم في الضعف وقلة النفع كيـد بطل عضدهـا، وهو يترفع عن مخـاصمتـهم، ولكنه يدعو عليهم أن يمقتهم الله كـمقته لهم، لأنهم في نظره الأم خلق الله، وهذا ليس بغريب فـهم أبناء أمه مهجنون، ولهم في العـبودية قد م راسخـة. وقد منح هذا التكرار الشاعر فرصة تشفي المنتقم ونفثه المصدور. يقول[٢]

أبنـي لبـيـني لسـتم بيـد   إلا يدا ليـست لهـا عـضـد
أبنـي لبـيـني لا أحـقـكم   وجـد الالـه بكم كـمـا أجـد
أبني لبـيني لست مـعـتـرفا   لـيكـون الأم منكم أحـد
أبـني لـبـيـني إن أمكـم   أمـه وإن أباكم عـبـد
أبـني لـبـيـني إن أمكـم   دحـقت فـخـرق ثـغـرها الزند

---

(١) شعراء النصرانية ٢٧٢.

(٢) ديوانه ٢١.

ويستخدم طرفة بن العبد تكرارالكنية في مجال الاسترحام وإثارة العاطفة والشعور. يقول:

أبا منذر كانت غرورا صحيفتي ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي

أبا منذرأفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ب- تكرار الضمائر والحروف:

كرر شعراء الخليج الجاهليون مختلف الضمائر المتصلة والمنفصلة، المتكلم منها والمخاطب والغائب، مذكرا ومؤنثا، ومفردا وجمعا.

ويستعين عمرو بن عائش التيمي بضمير الجمع المنفصل في سياق الفخر بقومه تيم الله بن ثعلبه، فيكرر الضمير (نحن) مرات ثلاث لتأكيد تفوق قومه على بني يشكر البكريين، وأنتزاع الرئاسة منهم. يقول[١]

ونحن هدمنا عز يشكر بعدما مضت حقبة تحمي الرياض وتغشم

ونحن وطئنا هامة الفرخ إذ عسا على حين لا يغشى ولا يتظلم

ونحن سلبنا البكر جمعا مكوسا فأصبح فينا لحمه متقسم

وبلغة تقوم على الإدانة للخصم يبتديء طرفه بن العبد مرافعته بضمير الخطاب المنفصل (أنت) الموجه إلى ابن عمه (عبد عمرو) فهو سيء مع القريب حسن مع البعيد يبخل على ذوي قرباه ويجود على أعدائه، ويفعل كما يفعل الجبناء اللئام، والتكرار هنا وإن دل في جانبه اللفظي على إبراز مساويء المهجو وتأكيدها ونشرها إلا أنه في جانبه المعنوي يكشف عن مرارة يكابدها الشاعر وظلت تلح عليه حتى نفثها من خلال هذا التكرار الموجه. يقول[٢]

(١) معجم الشعراء ٢٢٣.

(٢) ديوانه ٨٥.

فأنت علـى الأدنى شمـال عريّة　　شـآمـيـة تزري الوجـوه بليل
وأنت على الأقصى صبا غير قرة　　تذاءب منهـا مـرزغ ومسـيل
وأنت امـرؤ منا ولست بخـيـرنا　　جواد على الأقـصى وأنت بخيل

وعن طريق تكرار تاء الخطـاب المؤكدة بلام التـوكـيـد خمس مـرات، استطاع المـسيب بن علس أن يخلع على ممدوحـه صفـات الكرم والشجـاعة والفصاحة وصلة الرحم والحياء. يقول:

ولأنت أجـــود بالعطـاء من الر　　يـان لما جـــــاد بـالقـطـر
ولأنت أشـــجع من أسـامــة إذ　　يقع الصـــراخ ولج في الذعــر
ولأنــت أبين حـين تـنـطق مـن　　لقـــمــان لما عي بـالأمــر[1]

ويمدح المسـيب بن علس أيضاً القـعـقـاع بن زرارة التـمـيمي فـيستـعين بالتكرار في التعـبير عن عاطفـة الإعجاب لديه، فتراه يذكر المـمـدوح باسمه الصريح في البـداية لكونه المحور الذي يدور حوله الموضوع، ثم يعـيد ذكره بالضـمائر كـاف الخطاب مرة وتاء الخطاب، ثلاث مـرات وهاء الغائـب مرة واحدة، أما الضمـير الأول فقد ذكره الشاعر للدلالة عـلى كرمه حين يجعل بيتـه وسط الناس ليكون في متناولهم ويصبح مـوئلا للمحتاجين والمعـتفين، وأما الضمـيران الثاني والثالث فقد أكـدهما بلام الابتداء في سياق استـعماله لصيـغة أفعل الدالة على المفاضلة، فـهو في الكرم أجود من البحـر الزاخر، وفي الشجاعـة أجرا من الأسد الفاتك، وهذان التشبـيهان من النوع المقلوب الذي يقوم على المبالغة، أما الضمير الثالث (أنت) فقد ذكره في سياق مقارنة وفـائه بمن لا وفاء له، وكـأن المـمـدوح هو المختص بـالوفاء، الدائم، وأمـا

(١) ديوانه ١٠٦.

الضمير الرابع هاء الغائب فقد استخدمه الشاعر في مقام دفع الأذى ومقابلة السوء بمثله أو أشد، فلم يكن من اللائق مخاطبة الممدوح بذلك. وهكذا نرى أنّ تكرار الممدوح صريحا أو مضمرا عدة مرات ساعد في التعبير عما أراد الشاعر أن يضفي على ممدوحه من صفات. يقول(١)

فلأهدين مع الرياح قصيدة	مني مغلغلة إلى القعقاع
أحللت بيتك بالجميع وبعضهم	متفرق ليحل بالأوزاع
ولأنت أجود من خليج معفم	متراكم الأذى ذي دفاع
ولأنت أشجع في الأعادي كلها	من مخدر ليث بعيد وقاع
أنت الوفي فما تذم وبعضهم	تودي بذمته عقاب ملاع
وإذا رماه الكاشحون رماهم	بمعابل مذروبة وقطاع

وكرر مرقش الأكبر دار الحبيبة الدارسة مرتين، فذكرها أول مره معرفة بأل، وثاني مرة منكرة، وهذا التكرار أتاح للشاعر فرصة التأكد من أنها أطلال أسماء، مما جعله يسفح الدموع الغزار، ثم ذكر الدار خمس مرات بضمير الغائب بعد أن غاب عنها أهلها، وهذا التكرار يدل على تعلق الشاعر العميق بها بوصفها المكان الذي جمع بينه وبين محبيه الغائبين، فهو الرمز الذي يحمل للشاعر أجمل الذكريات وأعزها عليه. يقول:

هل تعرف الدار عنا رسمها	إلا الأثافي ومبنى الخيم
أعرفها دارا لأسماء فا ال	دمع على الخدين سح سجم
أمست خلاء بعد سكانها	مقفرة ما إن بها من إرم
بعد جميع قد أراهم بها	لهم قباب وعليهم نعم

---

(١) ديوانه ١١٥.

وفي حديث عوف بن عطية الربابي عن فرسه نراه يستعين بالتكرار في تعداد صفاتها، ويستعمل لام الملك وهاء الغائب أربع مرات (لها) وقد مكنه هذا التكرار من وصف الظهر والرسخ والحافر والكفل. يقول:

لهـا شعب كأياد الغبيـ ـط فضض عنها البناة الشجارا

لهـا رسغ مكرب أيد فلا العظم واه ولا العرق مارا

لها حافر مثل قعب الوليـ ـد يتخذ الفأر فيه مغارا

لها كفل مثل متن الطرا ف مدد فيه البناه الحتارا

ويكرر أوس الهجيمي ثلاث مرات ضمير الغائب المتصل بميم الجمع، مسجلا من خلاله نتائج الحرب التي مني بها مهجوه يزيد بن الصعق الكلابي على يد قبيلة الشاعر والصورة المزرية التي أنتهى إليها بسبب لؤمه يقول[١]:

هم بنو عليك فلم تثبهم فتيلا غير شتم أو خصام

وهم تركوك أسلح من حبارى رأت صقرا وأشرد من نعام

وهم ضربوك ذات الرأس حتى بدت أم الدماغ من العظام

ومن تكرار حرف التشبيه (كأن) المقترن بالهاء قول أوس بن حجر يصف الطريق وسرعة الفرس فيه، فقد بدا الطريق بين مخارم الجبال كسطر مستو ممتد، وبدا الجواد وهو يقطع وسط الصحراء عرضا ويعتلي المرتفعات ذات الحجارة المسطحة الملساء كأنه يطأ صحفا منشرة، كما بدا الطريق الواضح الموازي لطريق القعقاع وقد تفرع إلى فرعين كأنه ماء يجري هنا وهناك، وصار الحصان في سرعته التي تسبق الطرف كأنه معلق في الفضاء. وقد مكن هذا التكرار الشاعر من التوضيح والتأثير. يقول[٢]

(١) المفضلية ١١٨.

(٢) ديوانه ٧٧.

تضمنها وهم ركوب كأنه ... إذا ضم جنبيه المخارم زردق

على جازع جوز الفلاة كأنه ... إذا ما علا نشزا من الأرض مهرق

يوازي من القعقاع موارا كأنه ... إذا ما أنتحى للقصد سيح مشقق

يدف فوين الأرض فوتا كأنه ... بإعجاله الطرف الحديد معلق

وفي تصوير انتصار الثور على كلاب الصيد يعتمد أوس بن حجر على تكرير حرف التشبيه (كأن) وضمير الغيبة المتصل به، فيكرره عدة مرات، فهو عندما أقبل عليها يقاتلها كان كإنسان يقبل على وليمة أو حفلة سعيدة، وعندما طعنها بقرنه الحاد كان كإنسان ينتقم من واتره، وعندما انتصر كان كفارس مقدم شجاع تغلب على خصمه. يقول(١)

ولى مجدا وأزمعن اللحاق به ... كأنهن بجنبيه الزنابير

كر عليها ولم يفشل يهارشها ... كأنه بتواليهن مسرور

فشكها بذليق حده سلب ... كأنه حين يعلوهن موتور

ثم استمر يباري ظله جذلا ... كأنه مرزبان فاز مسرور

جـ- تكرار اللفظ بذاته ومشتقاته

واستعمل (عبد قيس البرحمي) التكرار اللفظي الذي يغلب عليه الاشتقاقي، وكذلك التكرار المعنوي، ففي البيتين الأول والثاني نجد في شطريهما الأول تكرارا لبيان (أوصيك إيصاء- صل - المواصل) ، وفي شطريهما الثاني تكرار التوكيد المعنوي (طبن - غير مغفل - الخائن- المتبدل) وفي البيت الثاني نجد التكرار اللفظي بشقيه المماثل والاشتقاقي، وهما

---

(١) ديوانه ٤٣.

يحملان معنى التوكيد (دار - داره- راحل- يرحل) وكذا نجد البيت الثالث يحمل تكرار اللفظ المماثل الذي منح الشاعر فرصة التعبير عن الضدين (هممت بشر- هممت بخير) وجاء التكرار الاشتقاقي المعبر عن القوة في البيت الرابع (قوارص - أقرص)، وكذلك استعمل قيس التكرار الاشتقاقي (الفواضل - المفضل) وهو ما يسمى بالارصاد أو التسهيم، أما البيت الأخير فقد بنى كله على التكرار الاشتقاقي (استغن - أغناك - الغني) وهو يحمل الدعوة إلى القناعة والتجمل. يقول[١]

أوصيك إيصاء امريء لك ناصح	طبن بريب الدهر غير مغفل
وصل المواصل ما صفا لك وده	واحذر حبال الخائن المتبدل
دار الهوان لمن رآها داره	أفراحل عنها كمن لم يرحل
وإذا همت بأمر شر فاتئد	وإذا هممت بأمر خير فافعل
وإذا أتتك من العدو قوارص	فاقرص كذاك ولا تقل لم أفعل
إذا افتقرت فلا تكن متخشعا	ترجو الفواضل عند غير المفضل
واستغن ما أغناك ربك بالغنى	وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ويستعمل المثقب العبدي في مدحته الهائية التكرار المعنوي واللفظي والاشتقاقي ففي قوله:

فلو أنها من قبل جادت لنابه	على العهد إذ تصطادني وأصيدها
فبت وباتت بالتنوفة ناقتي	وبات عليها ضفنتي وقتودها
تهالك منه في النجاء تهالكا	تقاذف آحدى الجون حان ورودها
وقد أدركتها المدركات فأصبحت	لديك لكيز كهلها ووليدها

(١) المفضلية ١١٦.

استخدم الشاعر التكرار الاشتقاقي في (تصطادني - أصيدها - بت - بات - تهالك - تهالكا- وأدركتها - المدركات) وهذه المشتقات تفيد المشاركة في الفعل والتوحد في الحال.

وفي قوله:

فلو علم الله الجبال ظلمنه ... أتاه بأمراس الجبال يقودها
فإن تك منافي عمان قبيلة ... تواصت بإجناب وطال عنودها
فأنعم أبيت اللعن إنك أصبحت ... لديك لكيز كهلها ووليدها
وأطلقهم تمشي النساء خلالهم ... مفككة وسط الرحال قيودها

استعمل الشاعر التكرار اللفظي في تكرار الجبال. وفي قوله: (تواصت بإجناب- طال عنودها - ولديك لكيز - كهلها ووليدها- وأطلقهم - مفككة) استخدم التكرار المعنوي الذي يفيد التوكيد.

ويستعمل طرفة بن العبد التكرار اللفظي، حيث يكرر الظرف (يوم) والحرف (أما) عدة مرات، لإفادة البيان والتفصيل. يقول:[1]

لنا يوم وللكروان يوم ... تطير البائسات ولا نطير
فأما يومهن فيوم نحس ... تطاردهن بالحدب الصقور
وأما يومنا فنظل ركبا ... وقوفا ما نحل وما نسير

ويقول عوف بن عطية الربابي في مفضليته الرائية [2]

(١) ديوانه ٤٩.

(٢) المفضلية ١٢٤.

كـأني اصطحبت عـقـارية ... تصعد بالمرء صرفا عقارا
أحيي الخليل وأعطي الجزيل ... حياء وأفعل فيه اليسارا
وأمنع جاري من المجحفا ... ت والجار ممتنع حيث صارا
تشق الحزابي سلافنا ... كما شقق الهاجري الدبارا
فكادت فزارة تصلي بنا ... فأولى فزارة أولى فزرا
أبرن نميرا وحي الحريش ... وحي كلاب أبارت بوارا

حيث يستخدم التكرار الاشتقاقي (عقارية - عقارا) وهو هنا يفيد التوكيد، ويتبعه بتكرار اشتقاقي آخر إلا أنه يفيد البيان (أحيي - حياء) مع ملاحظة اختلاف معنى اللفظ المكرر عن أصله، كذلك نجد اللون ذاته من التكرار في (جاري - الجار) وهو يفيد البيان أيضا، ثم يستعمل تكرار اللفظ المماثل الدال على الوعيد والتهديد (فأولى فزارة - أولى فزار) ثم يعود الشاعر إلى التكرار الاشتقاقي المتضمن معنى التوكيد (أبرن - أبارت - بوار)

ويستعل طرفة بن العبد البكري التكرار الاشتقاقي في قوله:

ولي الأصل الذي في مثله ... يصلح الآبر زرع المؤبتر
ورثوا السؤدد عن آبائهم ... ثم سادوا سؤددا غير زمر

أما أوس الهجيمي فيستخدم التكرار اللفظي في قوله [(١)]

جلبنا الخيل من جنبي أريك ... إلى أجلي إلى ضلع الرجام
أصبنا من أصبنا ثم فئنا ... على أهل الشريف إلى شمام
وإنك من هجاء بني تميم ... كمزدان الغرام إلى الغرام

(١) المفضلية ١١٨.

حيث كرر الشاعر الحرف (إلى) والفعل (أصبنا) والاسم (الغرام)

د- تكرار الجملة والشطر:

في مجال الرثاء يكرر عمرو بن قيس العجلي الجملة الفعلية المسبوقة بألا الاستفتاحية، يقول:

ألا هلك المكسر يال بكر وأودى الباع والحسب التليد
ألا هلك المكسر فاستراحت حوافي الخيل والحي الحريد

حيث كرر الجملة الفعلية في الشطرين مرتين تعبيرا عن حزنه الشديد على فراق المرثي وإعلانا لنعيه ودعوة للأخذ بثأره، فقد هلك بهلاكه المجد والحسب والقوة والهيبة[١].

ويطلب عمرو بن الأهتم من زوجه ألا تلومه على الجود لأن البخل يذهب ببهاء صاحبه، ويأتي على الحسن من أخلاقه، ويكرر طلبه منها أن تدعه وشأنه ليقضي حقوق المحتاجين، ويخفف عن المصابين أرزاءهم. يقول[٢]

ذريني فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق
ذرني فإني ذو فعال تهمني نوائب يغشي رزؤها وحقوق

وفي مقطوعة صغيرة من أربعة أبيات يكرر حطائط بن يعفر الدارمي جملة فعل الأمر (ذريني) ثلاث مرات في خطابه لزوجه أن تدعه يتصرف وفق سجيته في البذل والعطاء، وكأنه بهذا التكرار يريد أن يضع حدا لملاماتها الملحة له، مقدما بين يدي اللفظ المكرر ما يسوغ تصرفه ويؤيد مسلكه يقول[٣]

(١) معجم الشعراء ٢٢٤.
(٢) نفسه ٢١٢.
(٣) مختار الأغاني ١/ ٣٣٩.

ذريني أكن للـمـال ربا ولا يكن   لي المال ربا تحـمـدي غبـه غـدا
ذريني فمـا أعيا بما حل سـاحتي   أسـود فـأكـفي أو أطيع المسـودا
ذريني يكن مالي لعـرضي وقاية   يقي المال عـرضي قبل أن يتـبددا

وحين رحل الشـباب الناضر عن سـلامة بن جندل، وترك مـا ترك من الأسى والحسـرة، وجد في تكرار الجملة الفعليـة ما يعبر عن تلك المـشاعر، فكررها ثلاث مرات تجسيـدا لحزنه وأساه، وتأكيدا لواقعه الذي صار حـقيقة مؤلمة لا تنسى ولا مفر منها. يقول[٢]

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب   أودى وذلك شـأو غيـر مطلوب
أودى الشباب الذي مجـد عواقبه   فـيـه تلـذ ولا لذات للشـيب

ويكرر الحارث بن عباد البكري الشطر الأول من لاميته التي يقول فيها

قـربا مـربط النعـامـة مني   لقـحت حرب وائـل عن حيـال
قـربا مـربط النعـامـة مني   جـد نوح النسـاء بالأعـوال

في طائفة كبيرة من قصيدته. يقول السيوطي: ومن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الابلاغ بحسب العناية بالأمـر، ثم يستشهد بشـعر الحارث بن عباد، ويقول: فكرر قـوله (قربا مربط النعامة مني) في رؤوس أبيـات كبيرة عناية بالأمر، وإرادة الابلاغ في التنبيه والتحذير.[٢]

ويستـخدم طرفـة بن العبـد تكرار الشطر الأول أربع مرات في مـجال الفخر بكرم عـشيرته من بني قيس بن ثعلبـه، وشجاعتهـا وما تتحلى به من

(١) ديوانه.
(٢) المزهر ١/ ٣٣٢.

حكمة ووقار، وهذا التكرار التأكيدي يحمل في طياته استشهاد القبيلة البكرية كلها على الاقرار بمناقب قومه. يقول[١]

ولقـــــــد تعلـم بكـر أننـا آفـة الجـزر مسـاميـح يسـر

ولقـــــــد تعلـم بكـر أننـا واضحـوا الأوجه في الأزمـة غر

ولقـــــــد تعلـم بكـر أننـا فـاضلوا الـرأي وفي الروع دمـر

ولقـــــــد تعلـم بكـر أننـا صادقـوا البأس وفي المحـفل غر

هـ- تكرار الشرط والاستفهام:

ويستخـدم عبد قيس البرجـمي تكرار الشرط غير الجـازم في الوصية، حيث كانت (اذا) الظرفية الخافضـة للشرط المنصوبة بالجواب حجر الزاوية في بنائه الفني ومنطلقا لإزجاء النصح، فقد دعا الشاعر ابنه إلى الشدة في معاملة الخصـوم ليرهـبوه، وإلى الأناه والحلم في اتخـاذ القرار، وإلى التـوكل عند العزيمة على الأمر، وإلى حسن الاختيار وإلى مساعدة الكرام في حالة العسرة ومشاركتهم في نوازلهم يقول:

وإذا لقيت القـوم فاضرب فـيهم حتى يـروك طلاء أجرب مهـمل

واستأن حلمك فـي أمورك كلها وإذا عزمت عـلى الهوى فـتوكل

وإذا تشـاجـر فـي فـؤادك مـرة أمـران فاعـمد للأعف الأجـمل

وإذا لقـيت البـاهشين إلى الندى غـبـــرا أكـفـــهم بقـــاع ممحل

فـأعنـهم وايسـر بما يـسـروا به وإذا هم نـزلوا بضنـك فـــانزل

ويستـعمل كلثوم بن أوفى المازني تكـرار الشرط فيبـدأ عتابه لأخـيه به

(١) ديوانه ٥٦.

ويختمه به، جامعا بين الأداة غير الجازمة (إذا) وحرف الشرط الجازم (إن)، متمنيا لأخيه الشقى النهاية المؤلمة التي يستحقها بعد أن يعدد المساويء التي يستحق بموجبها أخوه ذلك المصير الأسود. يقول[١]

إذا لم يرج قومك منك خيرا — تجود به ولا خلقا رغيبا

وسبهم العدو فلم تنكر — عليه وكنت بعدلهم سبوبا

وإن منيتهم شرا وذعرا — وفيت به وكنت به طبيبا

وإن منيتهم خيرا وميرا — لقومك كنت مخلافا كذوبا

فليت الحي قد حفروا بفأس — قليبا ثم أعمرت القليبا

وبني مره بن عمرو النهشلي مرثيته لقريبه يزيد بن نهشل على أسلوب الشرط الجازم وغير الجازم، فكرره مرات أربع، حيث استهل قصيدته بحرف الشرط (إن) الجازم المؤكد بلام التوكيد، الدال على عمق تأثر الراثي بموت المرثي. كما كرر بعد ذلك (إذا) الظرفية المتضمنة معنى الشرط ثلاث مرات، وجمع من خلال هذا الأسلوب بين التأبين والندب، فأبرز مكانة الفقيد الاجتماعية العالية، التي تبوأها بفضل جوده المنقطع النظير، وعبر عن حزنه الشديد لفقد يزيد الذي كان له خير سند وظهير . يقول[٢]

لعمري لئن أمسى يزيد بن نهشل — حشا جدث تسفى عليك الروائح

لقد كان ممن يبسط الكف بالندى — إذا ضن بالخير الأكف الشحائح

إذا ابتدر الباب المهيب رأيته — يدن جنابيه الكهول الجحاجح

إذا جمدت عنك العيون وحادرت — فيبكيك من عيني دمع مسامح

إذا أرقي أفنى من الليل ما مضى — تمطى به ثني من الليل جانح

(١) معجم الشعراء ٣٥١.

(٢) حماسة الخالديين ٢/ ٣٥٢.

وفي مرثية أوس بن حجر لفضالة بن كلدة الأسدي يعتمد على تكرار الاستفهام في عرض مناقب المرثي ومزاياه، ويجعل من تكرار الكنية منطلقا لذلك، فحين يوجه خطابه إليه عن طريق النداء المحذوف الأداه يؤبنه الشاعر فيصفه بالكرم والرحمة وبالفصاحة والبيان وبالزعامة والحكمة وبالرئاسة والقيادة وبالشجاعة والاقدام. يقول(١)

أبا دليجة من يوصي بأرملة	أم من لأشعث ذي طمرين طملال
أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا	لدى ملوك أولي كيد وأقوال
أم من لقوم أضاعوا بعض أمرهم	بين القسوط وبين الدين دلدال
أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ	أمسوا من الأمر في لبس وبلبال
أم من لأهل لوي في مسكعة	في أمرهم خالطوا حقا بابطال
أم من لعادية تردي ململمة	كأنها عارض من هضب أو عال

و- التكرار المتعدد الألوان

وتعتمد ميمة المرقش الأصغر على التكرار اعتمادا كليا فهي عبارة عن لوحة فنية ذات خطوط وألوان مكررة، تكرر فيها الحرف والاسم والفعل، فقد تكررت فيها (ألا) الاستفتاحية ثلاث مرات، وتكررت الياء المصاحبة لها ثلاث مرات، وتكرر حرف النداء سبع مرات ثلاث منها بدون الأداة واثنتان بالهمزة الدالة على القرب وواحدة بالياء الدالة على البعد، وتكررت (إن) التوكيدية وياء المتكلم المضافة إليها ثلاث مرات، كما كرر الشاعر العلم (فاطمة) سبع مرات، وضمير المخاطب ثماني مرات (ك -ي - أنت) وذكرها بالكنية مرة واحدة (ابنة البكرى) ، وهذا الذكر المكرر المختلف الصيغ يعكس مدى لهفة الشاعر على فاطمة وتعلقه بها وإكباره لها، وحين ورد العلم مرخما محذوف الحرف الأخير ست مرات وبدون حرف النداء أراد الشاعر أن

---

(١) ديوانه ١٠٣.

يدلل ويوحي بالقرب الوجداني بنية وبين محبوبته ويظهر الصرخة الوجدانية التي تحمل كثيرا من الحب والود والحنان، كما ذكر مرقش العلم غير مرخم مرتين في بيت واحد ومصغرا ثلاث مرات في سياق شعوره بالانكسار والاستخذاء أمام محبوبته المدللة، واستخدام التكرار الاشتقاقي (راجم - مراجما) يجشم - المجاشما، اللوم - لائما) ثلاث مرات ليفيد توكيد المعاني التي تحتاج إلى ذلك، وتحقق للشاعر إشباعا نفسيا وتفريغا لحالات التوتر التي يعاني منها، واستعمل المرقش فعل المضارع (استحي) الدال على الاستمرار ليعبر عن تعايشه الدائم مع مشكلته التي أرهقته وقضت عليه المضجع وجعلته لا يهنأ بطعام ولا بشراب فهو في خجل مستمر منها.

وهذه القصيدة مرتبطة بمناسبتها ارتباطا عضويا بحيث لا يمكن فهمها إلا بذكرها، فقد وقع الشاعر بين محنتين محنة الحبيبة التي ائتمنته على سرها الذي لا يجوز البوح به، ومحنة الصديق الذي ألح عليه حتى أفشى هذا السر، فوقع فيما هو أشد وهو الندم القاتل، فالشاعر يعتذر لصاحبته وهو يعلم أنها لن تقبل عذره مهما كان صادقا، لهذا نراه يحتشد احتشادا في قصيدته هذه علها ترضى عنه، فالقصيدة مزيج من الاستعطاف والتلطف والتودد والحسرة والحرقة وقد لعب التكرار دوره الكبير في التعبير عن مشاعر الشاعر الممتزجة باللوعة والأسى والمرارة والحزن، وحاول بكل طاقته أن يسترضي حبيبته الغاضبة مستعينا بكل وسائل التأثير الممكنة. يقول[1]

ألا يا اسلمى لا صرم لي اليوم فاطما ... ولا أبدا ما دام وصلك دائما

رمتك ابنة البكرى عن فرع ضالة ... وهن بنا خوص يخلن نعائما

وإني لأستحي فطيمة جائعا ... خميصا وأستحيي فطيمة طاعما

وإني لأستحييك والخرق بيننا ... مخافة أن تلقي أخالي صارما

(١) المفضلية ٥٦.

وإني وإن كلت قلوصي لراجم	بها وبنفسي يا فطيم المراجما
أقاطم إن الحب يعفو عن القلى	ويجشم ذا العرض الكريم المجاشما
ألا يا اسلمي بالكواكب الطلق فاطما	وإن لم يكن صرف النوى متلائما
ألا يا اسلمي ثم اعلمي أن حاجتي	إليك فردي من نوالك فاطما
أفاطم لو أن النساء ببلدة	وأنت بأخري لا تبعتك هائما

ويهجو أوس الهجيمي يزيد بن بن الصعق الكلابي، فيتكيء في هجائه على التكرار بألوانه المختلفة، من تكرار الحرف وتكرار الفعل وتكرار الاسم، فقد استعمل ضمير المتكلمين في مجال الفخر عند حديثه عن قيام قومه بغزو بني عامر في يوم (ذي نجب) ثم كرر الضمير نفسه لتسجيل نتائج الحرب، وهي الانتصار والنكاية بالأعداء، ثم وجه الشاعر خطابه إلى المهجو فهدده بوقوع الشر عليه إذا تجرأ على هجاء قومه، بعدما وقع عليهم من شر الهزيمة المنكرة، فخاطبه وجها لوجه (انك - عليك - تركوك) ليظهر له شدته واستعلاءه عليه، ثم استخدم ضمير الغائب (هم) وكرره مرات ثلاث، وكأن الشاعر إنما يتكلم عن قوم آخرين لا يدفعه إلى الحديث عنهم إلا الحيدة والإنصاف، مسجلا خلال ضمير الغيبة ما فعلوه من أفاعيل بالمهجو الذي خاطبه الشاعر بكاف الخطاب على سبيل التحقير والسخرية، وكرر أوس كذلك حرف الجر (إلى) الذي يفيد انتهاء الغاية واستعمل أوس التكرار الإشتقاقي المقترن بالمثل (صمي صمام) أي زيدي كما كرر الشاعر من الأسماء لفظ (الغرام) مرتين حيث يفيد اتساع الشر وتفاقم الخسران، ومن الأفعال كرر الفعل الماضي (أصبنا) المفيد للتحقق كرره مرتين ليدل على كثرة من قتل في صفوف العدو. ومما جاء فيها قوله[1]

---

(١) المفضلية ١١٨.

جلبنا الخيل من جني أريك ... إلى أجلى إلى ضلع الرجام
وجدنا من يقود يزيد منهم ... ضعاف الأمر غير ذوي نظام
هم منوا عليك فلم تثبهم ... فتيلا غير شتم أو خصام
وهم أدوا إليك بني عداء ... بأفوق ناصل وبشر ذام
ولا فضح الفضوح ولا شييم ... ولا سلماكم صمي صمام

ويستعمل عوف بن عطية الربابي التكرار في مفضليته الرائية فيبدأ باللون الاشتقاقي، ثم يتحدث عن صفات فرسه من خلال لام الملك وضمير الغائب، وفي كلام عوف عن الجيش استعان الشاعر بالتكرار الاشتقاقي في التعبير عن كثرته وما تحدثه سنابك الخيل من الأثر في الأرض الصلبة وكأنها تحرثها حراثة فلاحي هجر لها، ويكرر اللفظ المماثل الدال على الوعيد وعلى الاقدام واقتحام الأهوال دون وجل، حتى تحقق النصر المؤزر على القبائل المغزوة. ومن ذلك قوله(١)

كأني اصطحبت عقارية ... تصعد بالمرء صرفا عقارا
لها كفل مثل متن الطرا ... ف مدد فيه البناة الحتارا
تشق الحزابي سلافنا ... كما شقق الهاجري الدبارا
ولو أدركتهم أمرت لهم ... من الشر يوما ممرا مغارا
وفر ابن كوز بأذواده ... وليت ابن كوز رآنا نهارا
وحي سويد فما أخطأت ... وغنما فكانت لغنم دمارا
فكل قبائلهم أتبعت ... كما أتبع العر ملحا وقارا

---

(١) المفضلية ١٢٤ .

٧- السرد القصصي

من الخصائص الفنية لشعر الخليج الجاهلي (السرد القصصي) ويعرف السرد بأنه عرض الحديث بتتابع وجوده، وبسطه بسطا عاد يا من غير حوار غالبا. وقد اتكأ الشعراء الخليجيون على هذا الأسلوب في أغراضهم الشعرية المختلفة، ولا سيما في الوصف والفخر والتحريض والحكمة والغزل، وجاء هذا الأسلوب في أجزاء من القصائد الطويلة، كما احتوى بعض القصائد برمتها وبخاصة القصيرة منها ففي مجال الوصف كان للقطاع الحيواني نصيبا كبيرا من الملمح القصصي تمثل في تشبيه الناقة والجمل بحمار الوحش وثور الوحش، وبالنعامة والظليم فهذا عمرو بن قمئة في سياق وصفه لجمله بالقوة والضخامة يحكي لنا قصة الحمار الوحشي والصياد فيصف الحمار بأنه من النوع الأخدري، وهو ضرب من الخيل أفلت فضرب في الحمر، فجمع بذلك بين قوتي الحصان والحمار معا، ويتحدث الشاعر عن حرص الحمار على سلامة أتنه وحمايته لها واختيار المراعي الخصبة لها، حتى إذا شبعت وسمنت وأكلت الأخضر، ولم يبق إلا اليابس أخذ يقودها إلى موارد المياه، وهوأثناء قيادته لها يتقدمها ليدفع عنها أي خطر قد تتعرض له، فلما أشرفت على المنهل كان الصياد في الانتظار يترصد الفرائس، ويصفه الشاعر بأنه كان خبيثا أغبر يعيش هو وأهله على الصيد، وقد حمل معه آلات الصيد من قوس جيدة وسهام متخيرة، واختفى في ناموسه، وحين شرعت الحمر في شرب الماء فاجأها الصياد بإطلاق سهامه المسمومة، ولكنها تكسرت دون أن تحقق الهدف وتصيب مقتلا من الطرائد، وهنا لم يفت الشاعر تصوير الحالة السيئة التي كان عليها الصياد وأهل بيته عندما فاتهم الصيد الذي كانوا يعتمدون عليه في معاشهم وكان مصدر رزقهم وقوام حياتهم، حيث كني عن ذلك بعض الأنامل من اللهفة وإطلاق استغاثه وأأماه. يقول[١]

---

(١) ديوانه ٥٩.

تمهل عـــانة قـــد ذب عنـهـــا	يكون مـصـامـه منهـا قـصـيـا
أطال الشـد والتـقـريب حـتى	ذكـــــرت بـه ممـرا أندريـا
بهـا في روضـة شـــهـري ربيع	فـسـاف لهـا أديما أدلصـيـا
مشـيحـا هل يرى شيـحا قـريبا	ويوفي دونـهـا العلم الـعليـا
إذا لاقى بظـاهرة رحـيـــقـا	أمـر عليـهـمـا يوما قـسـيـا
فلمـا قـلصت عنه الـبـقـايا	وأعـوز مـن مـراتعـه الـلويا
أرن فـصـلكهـا صـخب دؤول	يعب على مناكبـهـا الصـبـيـا
فـأوردهـا علـى طمـل يمان	يهـل إذا رأى لحـمـا طـريا
له شـــريانة شـــغلت يـديه	وكـان علـى تقلدهـا قـويا
وزرق قـد تنخـلهـا لقـضب	يشـد على مناصـبـهـا النضـيـا
تـردي بـرأة لمـا بـنـاهـا	تبـوأ مـقـعـدا منها خـفـيـا
فلمـا لم يرين كـثـيـر ذعـر	وردن صـواديا وردا كـمـيـا
فـأرسل والمقـاتل مـعـورات	لما لاقت ذعـافـا يثـربـيـا
فـخر النصـل منعقـضـا رثيمـا	وطار القـدح أشـتـاتا شظيـا
وعض علـى أنامله لهـيـفـا	ولاقي يومـه أسـفـا وغـيـا
وراح بحـره لهـفـا مـصـابا	ينبـيء عـرسـه أمـرا جليـا
فلو لطمـت هناك بذات خـمس	لكـانا عندهـا حتين سـيـا
وكـانـوا واثقـين إذا أتاهـم	بلحم إن صـبـاحـا أو مـسـيـا

ويشبه ربيعـة بن مقروم ناقته المكتنزة الضخـمة بحمار الوحش الغليظ، ثم يسوق حكايتـه مع أتنه الصلبة الضـامرة التي منعهـا من شرب الماء ثلاث ليال، واختار لها أخصب المـراعي التي ظلت ترعاها برعايته حتى أتت على نبـاتهـا، وظلت في عطش شـديد تراقب زوال الشـمس إلى أن خـيم الليل

بظلامه الدامس. وهنا طفق الحمار يسوقها سوقا طوال الليل ويدفعها بالعض والطرد نحو المنهل إلى أن وصلت إليه مع تنفس الصبح، فأوردها شريعة مفعمة بالماء الصافي، حيث كان أبوعامر الصياد يراقبها، وفي يده قوسه القوية المصنوعة من القصب، والتي يسمع لها صوت كعزيف الجن، وقد صوب نحوها سهامه الدقيقة، فلما قامت على الورد تنهل منه أطلق قيس سهامه المصمية التي تشق الجلد تجاه الحمر، ولكنها أخطأت الهدف ونجت الأتن وحمارها من الموت.(١)

وهذه القصة قريبة من قصة ابن قمئه، ولا ينقصها إلا تصوير نفسية الصياد وأهله حين فشل في اصطياد الفريسة.

وقد تلافى ربيعة بن مقروم في قصيدة أخرى ذلك النقص فجاءت قصته أكثر شبها بقصة عمرو بن قمئة وقربا منها فقد شبه ابن مقروم بعيره العظيم الجرم الشديد السرعة بالحمار الغليظ الذي تربى في (معقله) الخليجية ذات الرياض الدائمة الخضرة الكثيرة المطر حتى صار هذا الحمار سمينا مفتولا كالكر في متانته ووثاقته. وقد قاد أتانا سمينة طويلة العنق بها آثار بياض، وأخذا يتسابقان ففي السهل تتقدم عليه ولكنه يظهر عليها في بعض المواضع فيساويها أو يكاد يسبقها ويحدد الشاعر المواضع الخليجية التي يميلان عنها كقو والتي يقتربان منها كآثال وغمازه ونطاع، وهما رائحان إلى مورد الماء الذي بلغه قبل الفجر بقليل دون أن يشعر بالتعب، ثم يتحول ربيعة بحديثه إلى الصياد فيذكر عنه أنه كان من بني جلان التغلبيين وأنه ذو دهاء وفطنة في فن الصيد، ورغم ذلك فقد كان فقيرا معدما لا يملك أكثر من قوسه وسهامه وأدوات حرفة الصيد التي هي المصدر الوحيد لرزقه وأهل بيته وبعد أن يشير الشاعر إلى مهارة الصياد في الصيد ودوافعه الملحة في ذلك يفجر نتيجة الصراع بينه وبين الحمار وأتانه وهي نتيجة لم تكن في صالحه، فقد

---

(١) الأبيات في ص ١٩٢ من هذا الكتاب.

أرسل سهمه المحدد الدقيق نحو الفريسة من قوسه الذي انقطع وتره فطاش ذلك السهم وأخذ الصائد يقول والهف أماه بعد أن لاذ الحمار وأتانه بالفرار.

وهكذا نجد أمامنا قصة شعرية أبطالها الحمار وأتانه والصياد، وقد حدد الشاعر الملامح الوصفية لكل واحد من هؤلاء الثلاثة، وجاءت هذه القصة في سياق تشبيه ربيعة بعيره بحمار الوحش ناسيا أن يعود إلى المشبه لانشغاله بإشباع حاسته الفنية بهذا الوصف البديع.[١]

ولأوس بن حجر مقطع طويل من قصيدته الفائية التي مطلعها:

تنكر بعدي من أميمة صائف فبرك فأعلى تولب فالمخالف

حكى فيه من خلال تشبيه ناقته القوية بحمار الوحش قصة هذا الحمار في صراعه مع الصياد وقد بدأ حكايته بوصف الحمار بأنه أحقب أي في بطنه بياض وبأنه قارب أي يتعجل ليلة الورد، كما وصف أتانه التي كان يصرفها يمينا وشمالا بأنها قيدود أي طويلة، وبأن ظهرها أملس كصفا مدهن أي بعض حجارة الماء وبأنها حقباء أي في عجزها بياض، وتعجل الحمار ليلة الورد يشير إلى عطشه ورغبته في الوصول إلى موارد الماء النطاف وهذا ما دفعه إلى الانتقال من الشيطين حيث الجدب والجفاف إلى مكان آخر أكثر خصبا وماء، فاندفع مسرعا نحو ذلك المكان جاعلا أتانه أمامه يدفعها بعنف ولا يرعوي عن عضها حتى أحدث فيها ندوبا من كثرة العض، وحتى نالها الضعف والهزال من كثرة الجري، فرارا من الأشجار الشائكة في القريان والحجارة المتوقدة في الصمان، وما زال الحمار يدفع بأتانه حتى أضحى بقارات الستار أو وادي المياه وهناك وقف على مرتفع يستطلع الأحوال ليختار المنهل الآمن، وبينما هو يتأمل هنا وهناك وقد آذته أشعة الشمس تذكرعين غمازه عند هجر تلك العين الغزيرة المياه وما يحيط بها من أرض ندية رطبة

(١) الأبيات في ص ١٩٣ و ١٩٤ من هذا الكتاب.

كأنها قطيفة ذات خمل، فأسرعا إليهـا بسير فيه تقريب حيث ترفع فيه اليدان معا وتخفـضان معا، وسير فيه شـد وعدو، حتى وصلا إلى ذلك الماء الدائم الذي ألفته القطا[١] ثم ينتقل الشاعـر إلى الحديث عن الشخصيـة الثالثة في هذه القصة وهو الصياد فيصفه بأنه من عشيرة صباح العبدية وأن الصيد البري هو وسيلته الوحيدة في العيش، وعالم الصيد هو عالمه الذي لا يعرف غيره، فهو خير نموذج لرجل الصيد يمثله في شكله المتمثل في غؤور العينين من شدة الجهـد والعطش، وتشـقق الجلد واسوداده ويبسه من شـدة الحرارة وسـموم الرياح، وتشمير السـاعدين اللذين يغطيهما الشعـر الأسود، وخشونة الكفين وغلظهما وغلظ الجلد واجتماع الخلق، كـما يصفه بأنه صاحب قترات أي أنه يبت في الفتـرة وهو بيت الصائد المبني والمسـقف من حجـارة رقاق، وأنه لا يعرف من اللحم إلا ما جاءه من قتل الهاديات المتقـدمات من جماعة الحمر، فهو يأكل منها القصـرى وهو ما يلي الكشح أسفل الأضلاع والطفاطف وهي لحم الخاصرة أو أطراف الجنب وكلاهما من اللحم اللين، وأخيرا يصفه بشدة العناية بألات الصيد وأهمها السهام التي يجيـد صنعها ويبريها ويطليها بالغراء ويلصق الريش على صدرها بدقة وإحكام، وهويختار سهامه من شجر الضال القوي المنبت المتين الأغصان، ولما كان هذا الصياد من أهل الاحتراف والخبرة فقد اختـار الوقت المناسب لاطلاق السهام على الضحية، حيث أمـهلها لتمد عنقها لتشرب وفي هذه الأثناء أرسل السهـام المحددة من قوسه القوية ولكنها لم تصب من الحمارين مقتلا وفرا هاربين وكـانت النتيجة حزن الصياد وندمه الشديدين على فوات الفرصة، وفرح الحمار وأتانه العظيم بالنجاة، وقد صور أوس مظاهر هذا السـرور في تسابقـهما فـي الجري، حيث كـانت الأتان في المقدمة ورجلاها عند يديه، ورأسه في موضع الحقـيبة منها عند العجز، وكان الحمـار حذرا مادا عنقه فـي استواء كأنه سـهم، وقد بدت على جسـمه آثار

---

(١) الأبيات في ص ١٩٤ من هذا الكتاب..

القـذف بالحجـارة جراء السـرعة، وكـان يشم الأبوال كعـادته، وقد سـالت خياشيمه بالماء سائغا أو معشرا بنهيق متصل يصك الأسماع، كأنه يعبر بذلك عن فرحه بالسلامة من موت محقق[١] يقول د أحمد النجار معلقا على هذه القصة الشعـرية: اننا نلحظ أنه قد استوفى كل العناصر المرعـية في مثل هذه القصة إن رسم شخوص قصـته ودقق في إبراز ملامحها، ووقف طويلا عند تصوير الحمـار بخاصة، ثم صور الصياد في جـملة أبيات هي أقل عددا من الأبيات التـي صور فيـها الحـمار، ولم يركز على الأتـان كما ركـز عليهـما واعتمد في تصويره كله على ما صورة الخيال الجـزئي كالتشبيه ليحقق صفات هذه الأشخاص، وجعل للحركة قدرا كبـيرا من عنايته كما تبدو في مثل هذه الأفعال (يقلب قيدودا) و (أضحى بقارات الـستار) و (لاقى عليها من صباح مدمرا) و (فعض بإبهام اليمين) الخ تلك الأفعال التي تصور الحركة الأساسية للقصـة، وهي تصدر عن شخـوصها في نسق واطراد تتطلبـها طبيعـة السرد القصـصي، كمـا نرى في استـعماله حـرف العطف (الفاء) بـكثرة و (الواو) بقلة. ثم يقول وكانت عين الشاعر على هذه الأشخاص وتلك الأحداث أكثر مما كـانت على المناظر الطبيـعة التي حـرص آخرون على تصـويرها.. وفي النهاية لـم يكن في القصة حـديث عن عودته إلى ناقـته التي بدأ بهـا رحلته وشبهـهـا بذلك الحمار.. ونشم في صوره التشـبيهية الكثيرة رائـحة الصحراء والخيال البدوي الذي صور بيئته ماثلة للعيان.[٢]

ويشبه أوس أيضا ناقـته القوية الضخمة السريعة العـدو بعد أن أجهدها السير الطويل، يشبـهها بالثور الوحشي، ويمضي مع المشبه به فـيسرد حكايته مع الصيـاد وكلابه، فهـو ثور تم ذكاؤه، في جسـمه بقع تخـالف سائر لونه

---

(١) الأبيات في ص ١٩٥ و ١٩٦ من هذا الكتاب.

(٢) تطور الشعر القصصي ٣٥.

الأبيض (ملمع) من وحش (أنبط) المشهـور بكثرة وحشه، يشبـه ظهره خرز اللؤلؤ الأبيض الناصع، وقد اضطره المطر الغزير في الليل البـهيم إلى التجمع والتقبض في مكان يحميه كـظل شجرة أو نحوها، وظل كذلك إلى أن بصر به صيـاد ماهر يقظ يسـوق كلابه الضـارية ويدفعـها أمامـه وهي مجـتمـعه ومتـقاربة، فأخـذت تزاحم الثور وتدفع به إلى المرتفعـات وتضايقه والصـياد يحثها على ذلك، مما اضطر الثـور إلى مواجهتها ليصدها عن نفـسه وفتوجه بقرونه المحدده إلى السابقة منها وشرع يطعنها بكل قوته، فخافت الكلاب منه ونكصت عنه، ولكن خوفـها منه جعله ينقض عليـها انقضاض كبـار النجوم على الشياطين، حيث ترك وراءه من الغبار ما يشبه الفسطاط المضروب[1]

وفي قصيدة ثانية يقص علينا أوس بن حجر قصة الثور والصياد وكلابه من خلال تشبيه ناقته بالثور الوحشي فـي القوة والسرعة وتبدأ القصة بتصوير حالة الثـور عندما ترامى إلى سـمعه صـوت الصياد يزجـر كلابه من بعـيد، فانفـتل راجعا موليـا قصير الخطى بسـبب الخوف، ثم يصور الشاعـر كلاب الصيد المسترخية الأذان المقبلة على القفا القوية المستجمعة ذات الأسنان الحادة الشبيهة بالمناشير، وهي تسـير ببطء وتؤدة تخالس الفريسة، وعندما أتيح لهن الثور عن قرب اتجهـوا إليه بسرعة وأحاطوا به وأوسعوه نهشـا وعضا وكأنهم الزنابيـر الشديدة اللسع، فلم يهـرب منها رغم مـا أصابه من أوائلهـا بل كر عليها راجعـا وشرع يناوشها ويطعنها كلما توالت عليه حـتى تخضبت قرونه الحادة من دمـائها، فاندحرت مـولية مهزومـة، وأخذ يسابق ظله فرحـا كأنه الفارس الشجاع المقدم على القوم[2] يقول د أحمد النجار: إن قصة الثور في

(١) الأبيات في ص ١٩٧ من هذا الكتاب.

(٢) الأبيات في ص ١٩٨، ١٩٩ من هذا الكتاب.

قصيدة أوس موجزة لأنه كان مشغول الفكرة مهتاج القلب قاصدا أصلا إلى الهجاء والتهديد، فلم يكن بحال يتهيأ له مع ذلك الجو الشعري لابداع الصور والأوصاف ورسم المناظر داخل إطار هذه الحكاية القصيرة وإشباع رغبة شاعر عرف بأنه رسام وقصاص.(١)

وفي مجال حديث ثعلبة المازني عن قوة ناقته وسرعتها يشبهها بالنعامة والظليم بادئا قصته القصيرة عن الناقة وأشباهها بتصويرها وقد اتخذ من فوقها حقيبة من جلد فيها متاعة وتحت الحقيبة ذلك الغشاء، وقد ارتفعا على جنبيها وصارا كأنهما جناحا ظليم نافر، ومع النفور فزع وسرعة يجعلان جناحية كفصين مستقيمين، ثم مضى بعد هذا التشبيه إلى تحقيق الصفات التي أرادها لناقته مستطردا إلى حكاية خير هذا الظليم مع نعامته، وهما يتباريان عند الرواح في شد سريع يتساقط معه ريشها كما يتساقط ليف النخل عندما يلقحها الآبر، ثم إن النعامة تذكرت بيضها المصون المنضود عندما آذنت الشمس بالمغيب وستر الليل جانبا من ضوئها ملاحظا أن النعامة هي التي تذكرت لا الظليم، لأنها أم استشعرت الحنين إليه والاشفاق عليه، وقد أبعدت مراعيها عن بيضها وسمعت على البعد صوت رألها يغرد وكأنه يدعوها لتعُود، فعادا حينئذ في سرعة وعدو شديدين كأنهما المطر المتدفق في العشي، وما لبثت أن اندفعت بعاطفة الأمومة نحو بيضها تحتضنه أو(تبني عليه مع الظلام خباءها) وتغطيه بأجنحتها كاشفة عن وجهها ورأسها في مظهر المطمئن الآمن، وكأنها احدى النسوة الحمس حين تبدو حاسرة القناع حماسة لديها. يقول(٢)

(١) تطور الشعر القصصي ١٤٢.

(٢) المفضلية ٢٤.

وكأن عيبتها وفضل فتانها	فننان من كتفي ظليم نافر
يبرى لرائحة يساقط ريشها	مر النجاء سقاط ليف الآبر
فتذكرت ثقلا رثيدا معدما	ألقت ذكاء يمينها في كافر
طرقت مراودها وغرد سقبها	بالآء والحدج الرواء الحادر
فتروحا أصلا بشد مهذب	ثر كشؤبوب العشي الماطر
فبنت عليه مع الظلام خباءها	كالأحمسية في النصيف الحاسر

يقول د أحمد النجار وعلى الرغم من وجازه المقطع نراه قد بلغ ما أراد من تشبيه ناقته السريعة النافرة بالظليم والنعامة، وهما يتباريان على طريق العودة إلى بيضهما وابنهما، وجاء استطراده لحكاية خبرهما تحقيقا لصورة الجري الشديد، فهذه المباراة تعتبر عنصرا مثيرا لسرعتها الواجفة، كما أن الخوف على البيض وعلى الرأل سبب آخر لسرعة العودة وإمعان الجري قبل حلول الظلام الذي كان سببا ثالثا لاستعمال العودة بعد أن كانا قد أمعنا بعدا في الأرض[(١)]

ويقص علينا عدي بن وداع الأزدي رحلة صيد قام بها مع بعض رفاقه الفتيان، فيبدأ بتحديد بداية الرحلة وهو الغداة أي الصباح الباكر، حيث امتطى صهوة جواده الجامع بين القوة والسرعة، متجها إلى كلأ عازب، وقد مكنته سرعة حصانه من استباق أوائل الغادين، ثم يصف الكلأ بجمال خضرته وطول نباته، بفضل المطر الغزير الذي هطل عليه في موسمه، وما إن وصل إليه مع صحبه الكرام حتى تقدم واحد منهم إلى ربوة مستطلعا، فإذا به يرى قطيعا من بقر الوحش، فأرسل حصانه نحوها وهن مسرعات ولكنه كان أسرع منهن، فسبقهن حيث التقت أعناقهن بذنبه أو مؤخرته وكأنهم كانوا

---

(١) تطور الشعر القصصي ٢٣٦.

على ميعاد، وهنا صوب سهامه المصميات نحو أعجازهن، فصاد طريدتهن في وقت واحد، وهن يسرن في سهولة ويسر وقد مكنه الحصان منهما في أقصر وقت وعند منتصف النهار أو وقت القيلولة اجتمع الفتيان، وأخذوا يجنون ثمرة الجهد، حيث تم إعداد الشواء وأخذوا يأكلون حتى شبعوا من بعد طول عناء ومرض لحق ببعضهم، حتى شفاه الله بتعهدهم له بطيب الطعام والشراب. يقول(١)

وقد أغدو بمنشق نساه | جواد في المحشة والنزاق
لغيث يجنب الرواد عنه | يباري الريح بالعشب السماق
وبث به من الوسمي غيث | مراد العين منفرق البساق
تقدم رابيء فإذا شياه | يدسن حريق سلاف البراق
فأرسله وقد غربن شأوا | بهن تواشك الشد المزاق
كأن مجامع الهلبات منه | وهاديها لميعاد وفاق
فأرخيت القناه ويزءنيا | على الأكفال بالطعن المعاق
فعادى بينهن وهن رهو | يملن على مسمحة ذلاق
فأداها إليّ ولم يرثها | فواقا أو أقل من الفواق
وأدانا المقيل إلى شواء | يطأطيء أنفس القوم الدهاق
بقيان ذوي كرم أعاذوا | وقيذهم بشبع واعتناق

ولم يقتصر الحديث عن الحيوان على الوصف والهجاء بل تعداهما إلى الرثاء أيضا. ويسوق مرقش الأكبر بين يدي فكرة فناء المخلوقات من الأحياء قصة ذلك الوعل اللطيف الخلق المجتمع (المزلم) (الأعصم) أي الذي في يديه

---

(١) شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام ٦٤.

بياض، حيث كان يعيش في جبل شاهق حصين كجبل عماية أوخيم وهما جبلان عاليان لا تصل إليهما عتاق الطير ولا يعشش فيها الرخم الذي لا تبيض إلا في أبعد ما يقدر عليه من الأمكنة ، ففي هذا الجبل المنيع المشرف عاش الوعل ما شاء الله له أن يعيش، فإذا المنية بعد حين تخترق هذا الجبل العظيم وتحطم هذا الوعل فيخر صريعا. يقول[(١)]

لو كان حي ناجيا لنجا ... من يومه المزلم الأعصم
في باذخات من عماية أو ... يرفعه دون السماء خيم
من دونه بيض الأنوق وفو ... قه طويل المنكبين أشم
يرقاه حيث شاء منه وإ ... ما تنسه منية يهرم
فغاله ريب الحوادث حـ ... تي زل عن أرباده فحطم

وفيما قيل في اليأس من البقاء وحذر الموت وترقبه وقلة الحيل فيه يحكي لنا ربيعة بن توبه العبدي قصة ذلك الوعل القوي الجميل الذي كان يعيش في جبل عماية الضخم بعيدا عن الأخطار والوحوش الضارية، لا ينقصه شيء من أسباب الحياة من ماء وفير وشجر كثير في كل فصول السنة وظل آمنا في ظل ظليل في جوف الجبل الحصين، ومع ذلك فحين دنت منيته لم يسلم من صائد جائع له صبية صغار جياع، حيث تسلق إليه الجبل، وفي لحظة غفلة من الوعل وجه الصائد سهامه المحددة وأطلقها من قوسه القوية فأردته قتيلا يقول[(٢)]

---

(١) المفضلية ٥٤.

(٢) حماسة البحتري ٩٩.

لو كان شيء فـائت الموت أحرزت	عـمـايـة إذا راح الأغـر الموقف
يرود بأرض مـاؤها في قـلاتهـا	يصيف بـها بعد الربيـع ويخرف
إذا شاء مـطلع أو أراك وسخـبر	لديه وذو ظل من الغـار أجـرف
يكسـر أطراف البـشـا م بروقـه	ومن دونه هضب منـيف ونفنف
فمـا زال عنه الحين حتى سـماله	أبو صبـية طاو من الـزاد أعجف
يعـــاجـه عن نفـــسه وبكـفـه	مـــذربة زرق وفـــرع مـــعطف

وقد ترد الحكاية في موضـوع التحريض، كما نرى في قصـيدة المسيب ابن علس التي يحرض فيـها قومه على الرحـيل من دار الذل والهوان بعد أن نقض بنو ذهل بن شيبان حلفهم مع بني ضبيعة قوم الشاعر وخذلوهم وتعدوا عليهم، فساق المسيب قصة سـامه بن لؤي بن غالب القرشي إلى عمان، بعد أن تحزب قومه ضده ووقفوا إلى جانب أخيـه عامر، حين فقأ سامه عينه تحت تأثير الشراب، فضيقوا عليـه الخناق وهددوه بالعقاب، فقالت له إحدى نسائه لم لا ترحل إلى بلاد أكثر أمانا وسعادة، فأجابها إلى ذلك وجهز ناقته القوية الوثيقة الخلق، وانطلق من موضع قريب من مكة ومن عرفات، وسار مسرعا يتجنب الهـضاب والمرتفعات، كـما يتجنب الحمار خـوض الغدران، إلى أن وصل إلى بلاد وجد فيـها كل ما يسره، من مرتع معشب لـنعمه ومأوى آمن لأبنائه، وريف مخصب لإبله، ولما أقام زمنا في عمـان معززا مكرما منعما، تذكر قومه وخـواصه فرجع إليهم بعد طول بعاد على ناقـته الطويلة السريعة التي أنضاها السيـر فعاد بهم من حيث أتى، وصاروا بعد رحـيلهم إلى عمان يحملون اسم علاف، ولم يرده عن هذه الرحلة التشـاؤم بالنجوم التي يتشاءم بها العرب كنجـمي الخراتين أو برج العقرب، وكان يسيـر الليل والنهار حتى وصل إلى السمائم قرب صـحار في عمان، ووجد فيـها المأوى الحسن والمقام

الكريم، وصار كأنه واحد من أعز أهل البلاد الذين أنسوا به وصاهروه يقول[١]

وقد كان سامه في قومه ... له مأكل وله مشرب

فساموه خسفا فلم يرضه ... وفي الأرض عن خسفهم مذهب

فقال لسامة إحدى النسا ... ء مالك يا سام لا تركب

أكل البلاد بها حارس ... مطل وضرعامة أغلب

فقال بلى إنني راكب ... وإني لقومي مستعتب

فشد أمونا بأنساعها ... بنخلة إذ دونها كبكب

فجنبها الهضب تردي به ... كما شجر القارب الأحقب

فلما أتى بلدا سره ... به مرتع وبه معزب

وحصن حصين لأبنائهم ... وريف لإبلهم مخصب

تذكر لما ثوى قومه ... ومن دونهم بلد عزب

فكرت به حرج ضامر ... فآبت به صلبها أحدب

فقال ألا فابشروا واظعنوا ... فصارت علاف ولم يعقبوا

ولم يثن رحلته في السما ... ثم نحس الخراتين والعقرب

فبلغه دلج دائب ... وسير إذا صدح الجندب

فحين النهار يرى شمسه ... وحينا يلوح بها كوكب

وجاءت حكاياتهم الشعرية في مجال الفخر، ويحكي لنا عمرو بن

(١) ديوانه ٩٦.

قمئة قصته مع نديمه السمح الكريم حين زاره في وقت السحر، وهو وقت يختاره المتحشمون خشية العواذل والرقباء، ويضيف الشاعر إلى صفات نديمه السابقة صفة الحياء، فحين رغب في تقديم اللحم المشوي في مجلس الشراب طلب ذلك تلميحاً لا تصريحا، فلبى عمرو طلب نديمه في الحال، وأرسل غلامه إلى مربد الابل فأحضر ناقة فتية ذات سنام طويل، فنحرها لضيفه وقدم له أطيب ما فيها من أطايب اللحم، وما زال حفيا به حتى غادر المكان مودعا بمثل ما استقبل به من عناية وإكرام. يقول[(١)]

وندمان كريم الجد سمح	صبحت بسحرة كأسا سبيا
يحاذر أن تباكر عاذلات	فينبا أنه أضحى غويا
فقال لنا ألا هل من شواء	بتعريض ولم يكميه عيا
فأرسلت الغلام ولم ألبث	إلى خير البوائك توهريا
فناءت للقيام لغير سوق	وأتبعها جرازا مشرفيا
فظل بنعمة يسعى عليه	وراح بها كريما أجفليا

ويحدثنا عمرو بن الأهتم السعدي عن ضيفه الذي استضافه، ويبدأ حديثه بعادة العرب في الاستضافة، فقد كان الرجل منهم حين يضل الطريق ليلا ينبح لتجيبه الكلاب إذا كانت قريبة منه، فإذا أجابته تبع أصواتها فأتى الحي فاستضافهم، ويصور الشاعر الجو الصاخب الذي عاشه الضيف حتى بلوغه منزل المضيف، حيث كانت الرياح الباردة تعصف بشدة، وكانت الأمطار تنزل بغزارة يتخللها برق ساطع، فالفصل إذن فصل شتاء، حيث الجدب والفاقة والحاجة الماسة إلى الطعام، ويتحدث الشاعر عن قيامه

(١) ديوانه ٥٨.

بواجبات الضيافة كلها على أحسن وجه، فحين وصل الضيف إلى بيته رحب به أجمل ترحيب، ووسع له النزل وأعد له الطعام والشراب واللحاف وشراب الصبوح وهو شرب الغداة، وشراب الغبوق وهو شرب المساء، وغمره بدفء الصداقة والمودة، ثم يركز عمرو الحديث على المأدبة التي قدمها لضيفه، حيث قام إلى إبله واختار منها أكرمها وأعظمها وأغلاها فنحرها بنفسه، وأتم الجازران عملية الذبح، وكانت هذه الناقة التي تشبه الفحل في سمنها والقصر في ضخامتها كانت من العشار، حيث جر الجازر إلى القوم أحسن أجزائها عندهم من ضرع وسنام، وحوار صغير أبيض كريم، وظل الشواء السمين معدا ومقدما للضيف حتى منتصف الليل، وقدم له اللحاف الذي يحميه من البرد واللبن البارد الذي يروي ظمأه خلال الليل. يقول[١]

ومستنبح بعد الهدوء دعوته	وقد حان من نجم الشتاء خفوق
يعالج عريننا من الليل باردا	تلف رياح ثوبه وبروق
تألق في عين من المزن وادق	له هيدب داني السحاب دفوق
أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل	لأحرمه إن المكان مضيق
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا	فهذا صبوح راهن وصديق
وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت	مقاحيد كوم كالمجادل روق
بأدماء مرباع النتاج كأنها	إذا عرضت دون العشار فنيق
بضربة ساق أو بنجلاء ثرة	لها من أمام المنكبين فتيق
وقام إليها الجازران فأوفدا	يطيران عنها الجلد وهي تفوق
فجر إلينا ضرعها وسنامها	وأزهر يحبو للقيام عتيق

(١) المفضلية ٢٣.

بقيـر جلا بالسـيف عنه غـشاءه   أخ بإخــاء الصــالحين رفــيق
فـبات لنا منهـا وللضيف مـوهنا   شـواء سـمين زاهق وغــبـوق
وبات له دون الصبـا وهي قـرة   لحاف ومـصقـول الكساء رقـيق

وقد يرد الشكل القصـصي في مقام التسلي والعـزاء عن الفتوة الراحلة والشباب الذاهب، كما نرى في مقدمة ميمية عمرو بن قمئة التي يستعيد فيها ذكريات الماضي المفعم بالنشاط والحركة، عندما كان يقود أصحابه في رحلات طويلة يطوي بهم مجاهل البيد على الإبل البيض الـتي يخالط بياضها شقرة، ممتطيا ناقـته الشديدة الغليظة الـوجنات الضخمة الجـرم، فيسـير بهم من أول الليل حـتى مطلع الشمس، ليـصل بهم - رغم سوء الأحـوال الجوية - إلى موارد المياه، حيث القطا الكثيـر والحمام الجم، مما يدل على درايته بالمسالك، واهتدائه للطرق في أحلك الظروف. يقول (١)

إن أك قد أقـصرت عن طول رحلة   فـيا رب أصـحـاب بعثت كـرام
فقلت لهم سيروا فدى خالتي لكم   أمـا تجـدون الريح ذات سـهـام
فقاموا إلى عيس قد انضم لحمها   مـوقــفـه أرسـاغـهــا بخـدام
وقمت إلى وجناء كالـفحل جبلة   تجـاوب شـدي نسـعهـا ببـغـام
فأدلج حتى تطلع الشمس قاصدا   ولو خلطـت ظمـاؤهـا بقـتــام
فـأوردتهم مــاء على حين ورده   عليــه خليط من قطا وحــمـام

وربما اعـتـمد شـعـراء الخليج الجـاهليـون في غـزلهم على الأسلوب القصصي فـي سياق تشبيـهاتهم. ففي قصـيدة تتسم بالوحدة الموضـوعية أو العضوية يشبـه طرفه بن العبد حبه لسلمى بحب المـرقش لأسماء بنت عوف

(١) ديوانه ٣٥.

عمه، ثم يسـرد حكايته سردا لا ينقصه إلا بعض التـفصيلات الفرعيـة، فقد ذكـر طرفه أن عـوفا عم مـرقش الشاعـر زوج ابنته أسـماء برجل من مـراد اليمنية، نكاية بابن أخيه ورغبة أن يـصاب في مقتل، فلما علم مرقش بالأمر وبرحيل حـبيبـته برفقـة زوجها إلى اليـمن - بعد أن عـاد إلى العراق - لم يستطيع مقاومة حبها الذي كاد أن يودي به فرحل إليها في جبال السراة، رغم بعد المسـافة بين العراق واليـمن حيث استغـرق مسيـرة شهر كامل في سـير متواصل سريع، فتركه مرافقاه بالفردين في أرض نجران، دون أن يبلغ حاجته أو يصل إلى محبوبته. ثم يقارن طرفة بين حزنه على فراق سلمى الذي غزاه طيفها من مكانها البعيـد في تثليث أو نجران، وبين حزن مرقش على أسماء، ذلك الحزن الذي أهلكه، وأنه عانى من ذلك الحب أكثـر مما عانى عمه الذي استراح بالموت، وظل هو يشقى بهذا الحب. يقول في الملمح القصصي[(١)]

وقـد ذهبت سلمى بعـقلك كله	فهل غـير صيـد أحرزته حـبائله
كما أحرزت أسـماء قلب مرقش	بحب كلمح البرق لاحت مخايله
وأنكح أسـمـاء المرادي يبـتـغي	بذلك عـوف أن تصـاب مقـاتله
فلمـــا رأى ألا قـــرار يـقـــره	وأن هوى أســمـاء لابد قـاتله
ترحل من أرض العـراق مـرقش	على طرب تهوي سـراعا رواحله
إلى السرو أرض ساقـه نحوها الهوى	ولـم يدر أن الموت بالسـرو غائله
فـغـودر بالفــردين أرض نطيـة	مـسيـرة شـهـر دائب لا يواكله
فيالك من ذي حاجـة حيل دونها	وماكل مـا يهوى امـرؤ هو نائله
فوجدي بسلمى مثل وجد مرقش	بأسـماء إذ لا تسـتـفيق عـواذله

(١) ديوانه ٧٦.

قضى نحبه وجدا عليها مرقش وعلقت من سلمى خبالا أماطله

لعمري لموت لا عقوبة بعده لذي البث أشفى من هوى لا يزايله

ويفتتح المسيب بن علس مدحه له بالغزل فيشبه حبيبته (فتر) بالجمانة وهي الدرة البيضاء الكبيرة ويستطرد في الحديث عنها فيقص علينا قصة البحث عنها جاعلا نهايتها أو نتيجتها بداية لقصته، ثم يتحدث عن الغواص (البطل) ورفاقه، فهو قوي القلب صبور، معه أربعة من الرجال المختلفي الألوان والأنساب، وبعد جدال بينهم وأخذ ورد سلموه قيادتهم ورئاستهم، فقاد بهم السفينة الطويلة الظهر التي أخذت تمخر بهم عباب البحر، وتسير بهم من مكان إلى مكان وبعد مضي شهور أربعة أنتابهم اليأس من الحصول على الجوهرة، وكادوا بعودون إلى البر دون جدوى، ولكن رئيسهم كان أكثر صبرا وإصرارا، فألقى مراسي السفينة في مكان عميق من البحر، ورمى بنفسه في أعماقه، ويصفه الشاعر بأنه كان أسقف أي طويل منحن، وبأنه كان متلبد الشعر لطول مكثه في الماء، وبأنه كان منزوع السن التي بين الثنية والناب، وذلك في اعتقادهم يكسبه قوة وصبرا، وقد طال غوصه في الأعماق حتى أخذ يقذف بالزيت من فيه ليضيء له في لج البحر، وكاد يدركه الغرق من طول الغوص، ولكنه تذكر أباه الذي ذهب ضحية البحث عن مثل هذه الجمانة، فزاده ذلك إصرارا على المضي في الغوص والبقاء في البحر حتى ينال الغاية، وبعد أن مضى نصف النهار وهو يصول ويجول في الأعماق ظفر بالدرة، وكأنه امتلك ما لا يقدر بثمن، فقد عرض عليه التجار من الأثمان أغلاها، ولكنه كان يرفض ذلك رغم نصيحة رفيقه له بالبيع، فقد ضمها إلى صدره حبالها، وسجد البحارون لها إعجابا بها، فكانت حبيته الغالية شبيهة بهذه الجمانة النفيسة يقول(١)

(١) ديوانه ١٠٠.

كـجـمـانة الـبـحـري جـاء بهـا	غـواصــهـا من لجـة الـبــحـر
صلب الـفــؤاد رئيس أربـعـــة	مــتـخـــالفي الألوان والنجـــر
فـتنازعــوا حتى إذا اجـتـمعـوا	ألقـــوا إليـــه مـقـــالد الأمـــر
وغلت بهم ســجـحـاء جـارية	تهـــوي بهم في لجـــة الـبـحــر
حـــتى إذا مــــا ســاء ظنـهم	ومـضي بهم شـهـر إلى شـهـر
ألقـى مــــراســـيـــــه بمهلـكة	ثبـتت مـراسـيـها فـمـا تجـري
فــانصـب أسـقف رأسـه لـبـد	نزعت رباعـــيــتـاه لـلصـبــر
أشـــفى يمـج الزيت ملـتـــمس	ظمــآن ملتـــهب من الـفــقـــر
قـــتلت أباه فــــقـــــال أتبـــعـــه	أو أسـتـعـيـد رغـــيـبـة الدهر
نصف الـنهـــار الماء غـــــامــــره	ورفـيـــقـه بالغـــيب لا يدري
فـأصــاب منيــتـه فـجـاء بهـا	صـدفـيـة كـمضـيـئـة الجـمـر
يعطـي بهـــا ثمـنا ويمنعــــهـــا	ويقـول صـاحــبـه ألا تشـري
وترى الصـراري يسـجدون لهـا	ويضــمــهـــا بيـديـه للنحــر
فلتـلك شـــبــــه المالكـيـــة إذ	طلعت ببـهـجـتـهـا من الخـدر

واستعمل شعراء منطقة الخليج الجاهليون السرد القصصي في نقل وقائع معاركهم الفردية والجماعيـة، كما رأينا سابقا في حديث المفضل النكري عن حرب قـبيلته عـبد القيس مع بنـي لجيم البكريين[١] وكمـا رأينا في قصـيدة سلامـه بن جندل التي تحدث فيـها عن حرب قـبيلته تميم مع عـشائر بكر[٢]

(١) الأبيات في ص ٢١٨ من هذا الكتاب.

(٢) الأبيات في ص ٢٦٦ من هذا الكتاب.

وكما رأينا في حديث ثعلبة بن عـمرو عن الرجل الذي قتل أخاه، فثأر له[١] وسلكت قـصيدة النعـمان بن زرعـة التغلبي أسلوب القص حـين تحدث عن حربهم مع بني تميم[٢] وحين وقعت حرب بين بني حمـام المتمين إلى مالك ابن فهم، فتحمل الدماء الحارث بن كـعب الحمامي فأعانه في ذلك ربخة بن الحارث الذي سـجل هذا الموقف في المقطوعة[٣] وكمـا نرى في هذا الرجز الحماسي لسليمة بن مالك الأزدي الذي سجـل فيه قصة قتله لأبيه عن طريق الخطأ، ويذكر في مناسـبته أن سليـمة كان يحـرس الإبل فأراد مالك اختـبار يقظته، فلما قرب مالك ومن معه من سليمه بأصوات وقع أخفاف الإبل رمى سهما دون قصد فشك أباه وهو يظنه لصا يريد سرقة إبله يقول[٤]

أحسسـت ليلا وقع أخفاف الإبـل

وقـد تبـدت من عرانين سـبل

ما بين لهـاة الكثيـب والرمـل

بين شعـاب ذات سـدر ونقـل

فقمت أسـعى مقبلا غير نسكـل

وفي الشمـال سمحـة لم تبتـذل

حتـى إذا عارضتهـم دون القـلل

فوقت سـهمي فرميت في مهـل

رمي امريء لا طـائش ولا وجـل

ولا جبـان عند إطـراف الأسل

---

(١) ص ٣٥٧ من هذا الكتاب.

(٢) الأبيات في ص ٢٨١ من هذا الكتاب.

(٣) الأبيات في ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

(٤) شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام ص ٥٢.

فالأبيات كما رأينا حددت زمان الحدث ومكانه، حيث وقع في الليل البهيم الذي يجعل البطل فيه عرضة للأخطاء وأما المكان فكان بين كثبان الرمل ذات الحجارة الصغيرة وبين شجر السدر الباسق الكثيب، مما يجعل الرؤية فيه شبه متعذرة، ونظرا إلى أن أبا الشاعر أراد اختبار نباهته فقد كان متأهبا لرصد أقل حركة تتجه إليه، فما إن سمعها حتى انبرى إلى قوسه الجيدة وجهزها للرمي، وصوبها نحو الهدف بكل دقة وإحكام، فأصابت المقتل بفضل ثبات يده وشجاعة قلبه. وما حسب أن الضحية أبوه الذي رباه.

يقول د سيد نوفل عن شعراء بكر الخليجيين والحضارة هي التي رتبت أفكارهم، وأحكمت وحدة القصيدة عندهم، ووجهتهم نحو قراءة نفوسهم، والتسلل إلى نفس الحيوان وتمثيل ما يتصورون له من خواطر وهواجس وهي التي جعلتهم يتأنقون في الأسلوب مع سهولة ويعنون بالألوان، ويتتبعون الجزئيات على نحو قصصي متسلسل.(١)

٨- التأثر بالموروث

استعان شعراء الخليج الجاهليون بالموروث القديم في مقام التوضيح والإبانة، أو الانذار والتحذير، أو التحريض والحث، أو الإشادة والذم واللوم والسخرية، إلى غير ذلك من المرامي والأهداف.

وقد استمدوا هذه المؤثرات من عاداتهم ومعتقداتهم، ومن حكمهم وأمثالهم، ومن حروبهم وأيامهم، ومن الأعلام والمشاهير، وكان هولاء الشخوص محور اهتمامهم وقطب رحاهم.

---

(١) شعر الطبيعة ٨٦.

فهذا أوس بن حجر يشير إلى حذيم من تيم الرباب وكان في عصره طبيبا حاذقا.

فهل لكم فيها إلى فإنني طبيب بما أعيا النطاسي حذيما

وحول عدم الزيادة في البيع يشير أوس بن حجر إلى المنخل اليشكري نديم النعمان بن المنذر وشاعره الذي أتهم بامرأة النعمان المتجردة ولم يظهر له أثر يقول:

فجئت ببيعي موليا لا أزيده عليه بها حتى يؤوب المنخل

ويشير المتلمس الضبعي إلى عرقوب المشهور بخلف الوعد في مجال هجائه لعمرو بن هند، وعرقوب هذا من العماليق أتاه رجل يسأله فقال له عرقوب إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلما أطلعت قال له دعها حتى تصير بلحا، فلما أبلحت قال له دعها حتى تصير رطبا، فلما أرطبت قال له دعها حتى تصير تمرا، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها، ولم يعط أخاه شيئا، فصار مثلا في الخلف: يقول:

الغدر والآفات شيمته فافهم فعرقوب له مثل

وفي سياق التحريض يشير المتلمس إلى سامه بن لؤي بن غالب لما غاضب قومه، فخرج من مكة إلى عمان.

كانوا كسامه إذ شعف منازله ثم استمرت به البزل القناعيس

كما يشير المتلمس إلى قصة قصير بن سعد مع الزباء، وإلى قصة بيهس الفزاري حين طلب الثأر لإخوته، أما قصة قصير فقد قطع أنفه ليمهد للثأر لمولاه جذيمة بن الأبرش من قاتلته الزباء ملكه تدمر حين قتلته ثأرا لأبيها، وقد نجح قصير، ومكن عمر بن عدي ابن أخت جذيمة من إدراك الثأر في

خبر طويل يقول:

فمن طلب الأوتار ما حز أنفه   قصير وخاض الموت بالسيف بيهس

وأما بيهس فإنه لما قتل إخوته الستة ظل مكشوف الدبر حتى يدرك ثأره.

ويشير المسيب بن علس إلى حمار الأزدي الذي دعا قومه إلى الكفر، وإلى جندب الذي رهنه أبوه عند كسرى، فمات في حبسه يقول:

فلو صادموا الرأس الملفف حاجبا   للاقى كما لاقى الحمار وجندب

كما يشير إلى لقمان الحكيم المشهور بالبيان يقول:

ولأنت أبين حين تنطق من   لقمان لما عي بالأمر

وعندما ذبح علباء اليشكري كبش النعمان بن المنذر وقدمه لأصحابه، فخافوا أن يكون الشاعر شؤما عليهم، فذكر ذلك مشيرا إلى سالف بن قدار قاتل ناقة صالح وما جلبه لقومه ثمود من دمار. يقول[1]

وقال صحابي إنك اليوم كائن   علينا كما عفى قدار علي إرم

ويغوص ضوء الذهلي في آفاق الماضي السحيق فيستلهم من ذي القرنين الأصالة والقوة والقدم، دون أن يخوص في تفاصيل هذه الشخصية التي تضاربت الأقوال حولها، ومنها من ذهب إلى أنه الاسكندر المقدوني، يقول:

علي عهد ذي القرنين كانت سيوفنا   قواطع يقطعن الحديد المذكرا

ويستوحي محرز الضبي من قبيلتي عاد وإرم ايجاءه الدلالي في الجهد والعناء، وأن قوم أعدائه بذلوا ذلك هربا من مواجهتهم أكثر مما بذله أولئك

(١) الأصمعية ٥٥.

الأقوام. يقول:

حتى انتهوا لمياه الجوف ظاهرة ... ما لم تسر قبلهم عاد ولا إرم

وفي سياق رثاء أخت بشر المرادي ة لقومها تشير إلى مصيرهم الذي آل إلى الدمار كقوم عاد. تقول:

لقد لقيت مراد من عدي ... كما لقيت قبائل آل عاد

ويشير الكندي في مجال مديحه لثعلبة العدوي إلى الطسمي حين صبح جديس وقتلهم

صبحهم بالبيض والخطي ... على الكثيب صبحة الطسمي

وحول استحالة الخلود للانسان يتمثل طرفة بن العبد بلقمان بن عاد، وهو شخص أسطوري زعموا أنه عمر عمر سبعة أنسر آخرها لبد، ومع ذلك فقد أدركه الموت، ولبد هو النسر السابع ختم بمماته حياة لقمان بن عاد. يقول:

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت ... عليه النسور ثم غابت كواكبه

وقد أشار أوس بن حجر إلى لبد الذي عاش أكثر من إخوته الستة من النسور، ولكنه رغم طول عمره فارقهم. يقول:

خانتك منه ما علمت كما ... خان الأخاء خليله لبد

أما عن عادات أهل الجاهلية التي انعكست في شعرهم، فمنها أنهم كانوا يتشاءمون بالعطاس، قال المسيب بن علس:

أرحلت من سلمي بغير متاع ... قبل العطاس ورعتها بوداع

وكانوا يعتقدون تأثير الشمس في سن الإنسان يقول طرفه بن العبد:

بدلته الشمس من منبته　　　بردا أبيض مصقول الأشر

ومن تخيلات الجاهليين أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة لجسوه بتعليق الأقذار الخبيثة عليه كخرقة الحيض وعظام الموتى. قال المزق العبدي:

فلو كان عندي حازيان وراقيا　　　وعلق أنجاسا على المعلق

وقد اعتقدت العرب في قوة قرني الثور، وقالوا إن الشيطان يركب قرني الثور، وكانوا إذا عافت البقر الماء قدموا الثور وضربوه، ويفسر ذلك بأن الشيطان يركب قرني الثور، فلا يخشى الثور إذن من الجن فتخافه الجن، وتفسح المجال للبقر في ورود الماء. يقول نهشل بن حري(١)

أتترك عارض وبنو عدي　　　وتغرم دارم وهم براء

كدأب الثور يضرب بالهراوي　　　إذا ما عافت البقر الظماء

أما عن موروثهم من أيام العرب، ففي التحذير من مغبة الغدر يشير عبد الله بن عنمة الضبي إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان دون أن يخوض في تفاصيلها. فيقول:

ولا تكونن كمجرى داحس لكم　　　في غطفان غداة الشعب عرقوب

وفي موضع آخر يشير الشاعر إلى حقوق الرئيس في الجاهلية، فيقول في رثائه لبسطام الشيباني:

لك المرباع منها والصفايا　　　وحكمك والنشيطة والفضول

ومن أبرز القصائد الخليجية الجاهلية التي اشتملت على طائفة من

(١) الأسطورة عند العرب في الجاهلية ٦٨.

الأمثال والأعلام قصيدة الحارث بن وعله الشيباني، ومنها قوله[١].

وتركتنا لحما على وضم	لو كنت تستبقي من اللحم
وزعمت أنا لا حلوم لنا	إن العصا قرعت لذي الحلم
وحلبتُ هذا الدهر أشطره	وأتيت ما آتي على علم
لا تأمنن قوما ظلمتهم	وبدأتهم بالغشم والشتم
أن يأبروا نخلا لغيرهم	والأمر تحقره وقد ينمي
أو شد شدة بيهس فعسى	أن يتقوك بصفحة السلم

ففي البيت الأول استعمل الشاعر المثل (لحم على وضم) ولعل أصله من قول يزيد بن خذاق العبدي، المعاصر لعمرو بن هند وهو قوله:

أحسبتنا لحما على وضم	أم خلتنا في البأس لا نجدي

وقد ورد هذا المثل في مجمع الأمثال منسوبا إلى عمر بن الخطاب، ولعل الميداني لم يطلع على شعر يزيد العبدي، ولا على قول الحارث ابن وعله السابقين. وفي البيت الثاني أشار الحارث إلى المثل (إن العصا قرعت لذي الحلم) الوارد في مجمع الأمثال، وقد اختلف فيمن قرعت له العصا، فقيل إنه عمرو بن مالك الضبعي حيث قرع له العصا أخوه سعد بن مالك؛ ليعرف من خلالها كيف يجيب النعمان بن المنذر، وقيل إن العصا قرعت لعامر بن الضرب العدواني، وكان قد كبر فقال له الثاني من ولده إنك ربما أخطأت في الحكم فيحمل عنك، فقال اجعلوا لي إمارة أعرفها فإذا زغت فسمعتها رجعت إلى الحكم والصواب، فكان يجلس قدام بيته ويقعد ابنه في البيت ومعه العصا، فإذا زاغ أو هفا قرع له الجفنة، فرجع إلى الصواب، أما بيت الحارث الثالث فقد ضمنه المثل (حلب الدهر أشطره) يقول الميداني: هذا مستعار من حلب أشطر الناقة، وذلك إذا حلب خلفين من أخلافها، ثم

---

(١) كتاب الاختيارين ٣٨٦.

يحلب الثانية خلفين أيضاً، ونصب أشطره على البدل، فكأنه قال حلب أشطر الدهر، والمعنى أنه اختبر الدهر شطري خيره وشره[(١)].

وجمع الشاعر في البيت الخامس معنى مثلين، ففي الشطر الأول أراد بأتيير النخل للغير محالفة أعداء المخاطب للإستعانة بهم عليه، وفي الشطر الثاني حمل معنى قولهم: ومعظم النار من مستصغر الشرر، أما البيت الأخير فقد أشار الشاعر فيه إلى بيهس، وهو رجل يضرب به المثل في إدراك الثأر رغم حمقه.

٩- الابتكار والمحاكاة:

١- تأثير شعراء الخليج في بعضهم وتأثرهم بهم

من ذلك قول ثعلبة المازني

فقصرت يومهم برنة شارف وسماع مدجنة وجدوى جازر

حيث تأثر به طرفه بن العبد في قوله:

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف الممدد

كما تأثر طرفه بن العبد بقول ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم في عدوى البعير الأجرب للصحاح من الابل[(٢)] يقول ذؤيب

جانيك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب

ويقول طرفه

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

وعمرو بن قمئة البكري أول من طرق طيف الخيال يقول:

نأتك أمامه إلا سؤالا وإلا خيالا يوافي خيالا

يوافي مع الليل ميعادها ويأبى مع الصبح إلا زيالا

(١) مجمع الأمثال ١/ ٣٧ و ١٩٥.

(٢) الأوائل من الشعراء: ٢٤٦.

وقد حاكى طرفة بن العبد عمه عـمرو بن قمئه في طروق طيف الخيال للمحبوبة حين قال:

أرق العين خــيــال لم يـقــر طاف والركب بصــحــراء يســر
جــازت الـبــيــد إلى أرحـلنا آخـر الـليل بيــعـفــور خـدر

ويبدو التقليد الواضح من المتلمس للمرقش الأكـبر في وصفه للصحراء بالأبيات التي أولها:

كم دون أسماء من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

فقـد جمع طرفـا من مظاهر الصحـراء التي أوردها المرقش الأكـبر في اقتضـاب أشد، واشترك مـعه في القافيـة السينية، وفي بعض الجزئـيات مثل مظهر الأعلام كأنـها مغموسة في الماء ودق النواقيس بـعد الهدوء والسرى[1] ومما جاء في قصيدة المرقش قوله:

وتسـمع تزقاء مـن البوم حـولنا كما ضـربت بعد الهدوءالنواقس
وأعــرض أعــلام كأن رؤوســهـا رؤوس رجال في خليـج تغامس

وفي قصيدة المسيب بن علس

بكرت لتحزن عاشقا طفــل وتباعدت وتخرم الوصــل

تحدث عن رحيل الأحبـة حديثا يظهر فيه التـأسي بالمرقش الأكبر ومن سبقوه في الانتباه إلى الألوان والتأنق الفني في التصوير[2]

ومما يتصل بشعر الطبيعة عند المسـيب بن علس تمثيل حياة البحارين في القصيدة التي مطلعها

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ٧٨.
(٢) المصدر السابق ٧٩.

أصرمت حبل الوصل من فتر   وهجرتها ولججت في الهجر

فقد صور في ثلاثة عشر بيتا عمل صائدي الدر وكيف ينسابون في المحيط بحثا عنه وكيف يعثر الصائد على الجوهرة فيعتز بها اعتزازا يصل إلى حد العبادة.

وصنع الأعشى صنيع المسيب حين وصف الدرة وإخراج الغواص لها من البحر في معرض الحديث عن الغزل والتشبيه للحبيبة، لكنه امتاز بالاشارة إلى الخرافات الشائعة بين سكان الشواطيء عن الجن والمردة وأسرار الدر وبقدرته على الإثارة العاطفية(١)، ويظهر هذا في الأبيات التي أولها

كأنها درة زهراء أخرجها   غواص دارين يخشى دونها الغرقا

ويقول العبدي:

نطاعن قومنا بمثقفات   ترد القرن منجدلا نزيفا

ولم أر مثلنا يوم التقينا   تفل سيوفنا منا سيوفا

وهذان البيتان من أحسن ما قيل في هذا المعنى وصفا ولفظا. ولقد جود أبان العنبري أيضا في قوله وذكر هذا المعنى(٢)

نغادي آل مرة كل يوم   بأسياف وأرماح لدان

ونعلم مثل علمهم بأنا   نقطع بالبنان قوى البنان

وأخذ أوس بن حجر تشبيهه في قوله:

وقتلى كمثل جذوع النخيل   تغشاهم مسبل منهمر

أخذه من قول أخت طرفة بن العبد

وبعد بني ضبيعة حول بشر   كما مال الجذوع من الحريق

---

(١) نفسه ٨٠.

(٢) حماسة الخالديين ١/ ١٠٧.

ونظر بشامة النهشلي الدارمي في قوله

لو كان في الألف منا واحدا فدعوا   من فارس خالهم إياه يعنونا

إلى قوله طرفه

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني   عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

أما أقول وفاء المازني

سأرحض عني ما فعلت بضربة   عقيم البدي لا تكر ولا تثني

فالأصل في بيه قول طرفه بن العبد:

حسام إذا ما قمت منتصرا به   كفى البدء منه العود ليس بمعضد

ويتفق المرقش الأكبر مع مرة بن همام الشيباني في تشبيه الحصان في الضمور بجريدة النخل المجردة من الخوص. يقول مره بن همام:

لبعثت في عرض الصراخ مفاضة   وعلوت أجرد كالعسيب مشذبا

ويقول المرقش الأكبر:

غدونا بصاف كالعسيب محلل   طويناه حينا فهو شزب ملوح

وشبه المسيب بن علس ممدوحه بالخليج المفعم في قوله:

ولأنت أجود من خليج مفعم   متراكم الأذي ذي دفاع

فتأثر به أوس بن حجر في قوله:

وما خليج من المروت ذو حدب   يرمي الضرير بخشب الطلح والضال

يوما بأجود من حين تسأله   ولا مغب بترج بين أشبال

وسبق المرقش الأكبر إلى قوله:

يأبى الشباب الأقورين ولا ... تغبط أخاك أن يقال حكم

فأخذه عمرو بن قمئة فقال[(١)]

لا تغبط المرء أن يقال له ... أمسى فلان لعمره حكما

إن سره طول عيشه فلقد ... أضحى على الوجه طول ما سلما

ويقول المثقب العبدي[(٢)]

فلما أتاني والسماء تبله ... فلقيته أهلا وسهلا ومرحبا

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... بكوماء لم يذهب بها الني مذهبا

فيقلده عمرو بن الأهتم السعدي تقليدا حرفيا في قوله:

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... فهذا صبوح راهن وصديق

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... مقاحيد كوم كالمجادل روق

كما يقلده ضمرة النهشلي في قوله:

وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... وأكرمته حتى غدا وهو حامد

ويبدو التأثر واضحا بين كل من عمرو بن شراحيل وأوس بن حجر، يقول الأول

فإن تأتنا نقريك غير معرد ... سنانا كنبراس النهامي لهذما

---

(١) ديوانه ٣٨.

(٢) ديوانه ١١٩.

ويقول الثاني:

معي مارن لدن يخلي طريقه سنان كنبراس النهامي منبل[١]

وقال المرقش الأصغر [٢]

وما قهوة صهـباء كالمسك ريحها تعلى على الناجـود طورا وتقدح
ثوت في سباء الدن عشرين حجة يطان علـيـهـا قـرمـد وتروح
بأطيب من فيهـا إذا جئت طارقا من الليل بـل فـوها ألذ وأنصح

حيث شبه فم المحبوبة بعد النوم با لخمر الغالية المعتقة.

فحاكاه الأسود بن يعفر في ذلك فقال[٣]

كأن ريقتـها بعد الكرى اغـتبقت صرفـا تخيرها الحانون خـرطوما
سـلافة الدن مـرفـوعا نـصائبـه مـقلد الفغـو والريحـان ملثومـا
وقد ثوى نصف حول أشهرا جددا ببـاب أفأن يبتار السـلاليما

ثم جاء النابغـة الشيباني فقـلدهما في ذلك، إلا أن مذاق فم محـبوبته كان مشوبا برضاب المسك والكافور والراح يقول[٤]

كأن رضـاب المسك فوق لثـائها كـافـور داري وراح تصـفق
حـمتـه من الصـادي فليس تنيله وإن مات ما غنى الحـمام المطوق

(١) الشعر والشعراء: ١/ ٢٢٣.
(٢) المفضلية ٥٥.
(٣) المفضلية ١٢٥.
(٤) ديوانه ٢.

أما محاكاة الأعشى لروايته وخاله المسيب بن عبس فأفرد لها جامع ديوانه حديثا طويلا في المقدمة الدراسية للديوان يمتد من صفحة ٣٦ حتى ٥٩ ويورد المحقق من خلال ذلك نصوصا وآراء للنقاد العرب القدماء من أمثال الحاتمي وابن رشيق وابن الأثير والبغدادي تتهم الأعشى بالاهتدام والسرقة والتضمين لشعر المسيب بن علس والصياغة الجديدة لأفكاره ومعانيه، وتوظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي التي كان المسيب رائدا لها، ثم امتدت امتدادا طبيعيا في شعر روايته الأعشى الذي زادها غنى وتنوعا واتساعا. ويحاكي الأعشى خاله في بناء القصيدة الفني والموضوعي، فأكثر قصائد المسيب تبدأ بإعلان رحيل المحبوبة أو تباعدها لتورث حزنا محضا في قلب الشاعر، أو تبدأ القصيدة بإعلان رحيله عن المرأه دون إنذار، وهذه المطالع تتكررفي شعر الأعشى تكرارا ينبيء عن تأثره بشعر المسيب.

وكما تأثر الأعشى بخاله المسيب بن علس في تشبيه المحبوبه بدرة الغواص فقد تأثر به أيضا عدي بن وداع الأزدي في قوله[٢]

كدرة الغائص تهدي إلى	ذي نطف في غرفة المجدل
جاء بها آدم صلب أحص	الرأس فيه الشيب لم يشمل
لما انتضاها موقن أنه	إن يبلغ السوق بها يجذل
شيع في قرواء مدهونة	ذات قلاع صعدا تعتلي
تختصم اللجه شطرين في	العوطب ذي التيار والجلجل
بشر أصحابا له أنها	تجبر فقر البائس المرمل

(١) ديوانه ٢.

(٢) شعراء عمان ٧٢.

وكا تأثر به في الفكرة والتشبيه، فقد تأثر بالمسيب أيضا في بعض الألفاظ كلفظة (صلب)، لكنه اختلف معه في التفاصيل وعدد الأبيات.

ب- تأثير شعراء الخليج في غيرهم وتأثرهم بهم

أول من قال المثل الجاهلي المشهور (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) هو جندب العنبر بن عمرو بن تميم، وقد ورد في قوله يخاطب سعد بن زيد مناه[١]

يا أيها المرء الكريم المشكوم (انصر أخاك ظالما أو مظلوم)

وفي قصيدة عدي بن وداع الأزدي التي يقول فيها[٢]

يا ابنة كعب بن صليع ألا تستيقني إن كنت لم تذهلي
قالت ألا لا يشتري ذاكم إلا برغب الثمن الأجزل

يظهر تأثر الشاعر بالمثقب العبدي في داليته التي يقول فيها:

هل عند غان لفؤاد صد من نهلة في اليوم أو في غد
قالت ألا لا يشتري ذاكم إلا بما شئنا ولم يوجد

فقد أخذ الأزدي الشطر الأول بلفظه ومعناه من المثقب وتأثر به في طريقته، مع اختلاف بسيط وهو أن العبدي علق طلب محبوبته على ما يشبه المستحيل حين طالبته ببدرات الذهب الخالص أبد الدهر أما صاحبة الأزدي فقد طلبت منه سطر الحفافين وهو عقار عزيز لديه، وعرض عليها بدلا عن ذلك عبدا أو ناقة فتية أو خادمة. يقول:

---

(١) الشعراء الأوائل ١٩٩.

(٢) شعراء عمان ٦٦.

إن تعطنا سطر الحفافين مق   طوعا لنا بتلا إذن نفعل
إن الحفافين عقار امريء   يمنعه الضيم فلا تجهلي
مال امريء يخيط في الغمرة ال   قرن غداة البأس بالمنصل
إن كنت تستاسين لابد فال   معروف منا - أختنا - فاسألي.
العبد أو بكرتنا الحرة   الزهراء أو منصفة النزل
طبنا بهذا لك نفسا فإن   ترضي به عنا اذن فافعلي

وقال يربوع بن حنظلة بن مالك[١]

أخي ما أخي لا فاحش عتد بيته   ولا مرثعنّ ساقط في الدواجن

فأخذ محمد بن كعب الغنوي الشطر الأول فقال:

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته   ولا ورع عند اللقاء هيوب

ويقول ابن رشيق: إن امرء القيس أول من وصف النساء بالظباء والمها ولكن ثعلبة المازني كان أسبق منه إلى ذلك حيث يقول:

ولرب واضحة الجبين غريرة   مثل المهاه تروق عين الناظر

وتتبين محاكاة المرقش الأصغر لامريء القيس واضحة حين يصطنع طريقته في الغزل ويتحد معه في اسم الحبيبه فاطمة في القصيدة التي مطلعها.

(١) الشعراء الأوائل ٢١٧.

لابنة عجلان بالجـــو رســـوم   لم يتعفين والعهـــد قديـــم

وروح امريء القيس تحس في قوله

وإني وإن حنت قلوصي لراجم   بها وبنفسي يا فطيم المراجما

كما تحس حين يذكر الظعن فيقول:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   خرجن ســراعا واقتعدن المفـائما

تحـملن من جو الوريعـة بعدمـا   تعالى النهار واجـتزعن الصرائما

تحلين ياقـوتا وشـذرا وصـيـغـة   وجـزعـا ظفـاريا ودار توائمـا

لكن هذا الاحسـاس ليس شيئـا بالقيـاس إلى وضوح المميـزات الفنية لمدرسة المرقش وبخـاصة في البيت الثالـث التي اشتدت ألوانه بروزا بتقـابلها وتجاورها، وقـد اشتـد تأثر زهير به وإن لم يكن من جـماعتـه في كثـير من الصور والألفاظ والمعاني.[١]

وأخذ أبوذؤيب الهذلي قول يزيد العبدي

لن تجمعـوا ودي ومعتبتـــي   أو يجمــــع السيفـــان في غمـــد

فقال:

تريدين كيما تجمعيني وخالدا   وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

أما وداك المازني القائل

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ٧٧.

مقاديم وصالون في الروع خطوهم　　بكل رقيق الشفرتين يمان

فالأصل فيه قول قيس بن الخطيم[(١)]

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها　　خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وأخذ القطامي قول مقاس العائذي

إذا وضع الهزاهز آل قوم　　فزاد الله حيكم ارتفاعا

فقال[(٢)]

إذا ما الله أوضع آل حي　　فزاد الله حيكم ارتفاعا

أما قوله ربيعة بن مقروم الضبي

ودار هوان أنفت المقام　　بها فحللت محلا كريما

فالأصل لامرىء القيس حيث يقول[(٣)]

وإذا أذيت ببلدة ودعتها　　إذ لا أقيم بغير دار مقام

ولأوس بن حجر في صفة الرمح

أصم ردينيا كأن كعوبه　　نوى القسب عراصا مزجا منصلا

فقد جمع هذا البيت أكثر الأوصاف التي توصف بها الرماح، وقد أخذت الشعراء من أوس معنى بيته هذا فقال بعضهم[(٤)]

---

(١) حماسة الخالديين ١/ ١٢٠.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٣٧.

(٣) نفسه ١/ ١٩٣.

(٤) نفسه ٢/ ٤٨.

ومطرد لدن الكعوب تخاله　　نوى القسب قد أربى ذراعا على العشر

ولأوس بن بن حجر أيضا:

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها　　إذا انبضوا عنها نئيما وأزملا

وهو الأصل في المعنى، وعليه عول من أخذه، وأول من أخذه الشماخ بقوله[1]

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت　　ترنم ثكلى أوجفتها الجنائز

وطرفة بن العبد أول من ذكر الأدره في شعره فقال

فما ذنبنا في أن أداءت خصاكم　　وأن كنتم في قومكم معشر أدرا

وذكرها النابغة الجعدي فقال:

كذي داء بإحدى خصيتيه　　وأخرى لم توجع من سقام

وطرفه أول من طرد طيف الخيال فقال

فقل لخيال الحنظلية ينقلب　　إليها فإني واصل حبل من وصل

وقال جرير

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة فارجعي بسلام

وقال الأصمعي قال أوس بن حجر[2]

لعمرك إنا والأحاليف هؤلاء　　لفي حقبة أظفارها لم تقلم

---

(١) السابق ٢/ ٥٠.

(٢) الشعر والشعراء: ١/ ٢٠٥.

فأخذ المعنى زهير والنابغة، قال زهير

لدى أسد شاكي السلاح مقذف ليه لبد أظفاره لم تقلم

وقال النابغة:

وبنو قعين لا محالة أنهم آتوك غير مقلمي الأظفار

وقال الأصمعي أيضا[١]: أوس بن حجر أشعر من زهير، ولكن النابغة طأطأ منه، قال أوس:

ترى الأرض منا بالفضاء مريضة معضلة منا بجمع عرمرم

وقال النابغة

جيش يظل به الفضاء معضلا يدع الأكام كأنهن صحاري

فجاء بمعناه وزاد

ومما سبق إليه المرقش الأصفر قوله[٢]

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

أخذه القطامي فقال

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطيء الهبل

وسبق المسيب بن علس إلى قوله يذكر ثغر المرأة

وكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

شرقا بماء الذوب أسلمه للمبتغيه معاقل الدبر

(١) السابق ١/٢٠٦.

(٢) نفسه ١/٢١٥.

وقال الجعدي[٣]

وكأن فاها بات مغتبقا   بعد الكرى من طيب الخمر
شرقا بماء الذوب أسلمه   للمبتغية معاقل الدبر

وقال المسيب في النحل

سود الرؤوس لصوتها زجل   محفوفة بمسارب خضر

وقال الجعدي[١]

قرع الرؤوس لصوتها زجل   في النبع والكحلاء والسدر
بكرت تبغي الخير في سبل   مخروفة ومسارب خضر

وقال المسيب يذكر النحل

بكرت تعرض في مراتعها   فوق الهضاب بمعقل الوبر
وغدت لمسرحها وخالفها   متربل أدما على الصدر
فأصاب ما حذرت ولو علمت   حدبت عليه بضيق وعر
حتى تحدر من عوازبه   أصلا بسبع ضوائن وفر

وقال الجعدي[٢]

حتى إذا عقلت وخالفها   متسربل أدما على الصدر
صدع أسيد من شنؤه   مشاء قتلن أباه في الدهر

---

(١) نفسه ١/ ١٧٥ .
(٢) السابق ١/ ١٧٥ .
(٣) نفسه ١/ ١٧٦ .

يمشي بمحـــجنة ولـــو شـــعـــرت حـــدبت عليـــه بضـيق وعـــر
حـــتى تحـــدر مـــن منازلهـــا أصـــلا بســـبع ضـــوائن وفـــر

ومما سبق إليه المسيب فأخذ منه قوله في الناقة

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفي ما قط في قاع

أخذه الشماخ فقال [١]

كـــأن أوب يداها حين عـــاودها أوب المراح وقـــد همـــوا بترحـــال
مقط الكرين علـــى مكنوسه زلف في ظهـــر حنانه النيـــرين معـــوال

وقال المسيب

وفي الناس من يصل الأبعدين ويشـــقي به الأقرب الأقرب

أخذه الحارث بن كلده فقال[٢]

من الناس من يغشي الأباعد نفعه ويشـــقى به حتى الممات أقاربه

وقال المسيب:

فسـاموه خسفـــا فلم يرضـــه وفي الأرض عن خسفهم مذهب

أخذه الشنفري الأزدي فقال[٣]

وفي الأرض مناي للكريم عن الأذي وفيها لمن خاف القلى متعـــزل

---

(١) السابق ١/ ١٧٧ .
(٢) كتاب الصناعيين ١٢٣ .
(٣) الشنفري الأزدي لابية العرب ٢٨ .

وقال المسيب:

ولأنت أحيا من مخبأة عذراء تقطع جانب الكسر

أخذته الخنساء فقالت(١)

وأحيا من مخبأة حياء وأجرأ من أبي شبل هزبر

وقال المسيب

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

أخذه زهير بتمامه

وقال المسيب:

كأن على الظهر ديباجة وسود القوائم يحسبن قارا

قال الحاتمي أخذه الأخطل فقال(٢)

أما السراة فمن ديباجة لهق وبالقوائم مثل الوشم بالقار

وفي فائية أوس بن حجر يصف الناقة وصفا يذكر بأوصاف امريء القيس لفرسه من ناحية التتبع للأجزاء، وإن لم يخل من طرافه في النظم، ويشبهها بحمر الوحش واصفا لها فيقول(٣)

كأني كسوت الرحل جأبا مكدما له بجنوب الشيطين مساوف

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

(١) شعر الخنساء ١٨٤.

(٢) رسالة الحاتمي ١٤٧.

(٣) شعر الطبيعة ٨٨.

وبعد هذا يذكر إيراد الأتن الماء ، وتعرض الصائد لها بالرمي والأخفاق في ذلك، وفي هذه القصيدة يبدو التقليد لامريء القيس واضحا، فقد اتبع طريقته في الوقوف بالأطلال.. ثم ذكر الناقة مشبها لها بحمار الوحش، ومتحدثا عن معركة الصياد مثله، وليس التقليد في الطريقة فقط، وإنما يتناول الجزئيات كذلك كقيادة الحمار للأتن وآثار الجروح والعض في الجنوب ومحافظته عليها، والتكسب بالصيد وقبح الصائد وقسوته، ومهارته وتسديد الرماية وقت ورود الماء.

وقديما قال طرفه بن العبد يصف السفينة

يشق جباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

فاهتدمه لبيد فقصر عنه وقال

تشق خمائل الدهنا يداه كما لعب المقامر بالفيال

ومما سيق إليه المسيب بن علس فأخذ منه قوله

تامت فؤادك إذله عرضت حسن برأي العين ما تمق

فقال عمر بن أبي ربيعة[1]

فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود

ولقد يكون الاتفاق في بعض التعابير دالا على المحاكاة في مثل قول النابغة

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الاله صرورة متعبد

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشدا وإن لم يرشد

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٧٦.

ويقول ربيعة بن مقروم[١]

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... في رأس مشرفة الذري يتبتل

لصبا لبهجتها وحسن حديثها ... ولهم من ناموسه يتنزل

فالشطر الأول من البيت الأول واحد في قول النابغة وقول ربيعة، وفي البيت الثالث اتفاق في (حسن حديثها) وتشابه بين (لرؤيتها) و (لصبا لبهجتها) والفكرة واحدة في القولين، وهذا يرجح أو يؤكد أن ربيعة جرى على إثر النابغة وحاكاه.

ويقول المثقب العبدي:

فأجابت بصواب قولها ... من يجد يحمد ومن يبخل يذم

وهذا المعنى يشبهه قول زهير بن أبي سلمى

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

وساق الأنباري شارح المفضليات بيت ثعلبة المازني

فتذكرت ثقلا رثيدا بعدما ... ألقت ذكاء يمينها في كافر

وشرحه ثم قال بعد فراغه من الشرح: فسرق هذا المعنى لبيد من ثعلبه ابن صعير.[٢]

ويصطنع الحطيئة الأساليب القديمة ويجمد عليها جمودا شديدا في قصيدته[٣]

(١) الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي ٣٦٨.

(٢) الأوائل ٢٦٦.

(٣) شعر الطبيعة ١١٩.

نأتك أمـــامه إلا ســــؤالا وأبصرت منها بطيف خيـــالا

فـيـبـالغ في وصف الرحلة على طـريقـة أوس بن حـجـر التي تعني بالصيـاغة اللفظيـة. ولعل الشطر الأول مأخوذ من قـصيدة عـمرو بن قمـئه البكري التي مطلعها

نأتك أمـــامك إلا ســـؤالا وإلا خيـــالا يوافي خيـــالا

د- تأثير شعراء الخليج في بعضهم وفي غيرهم وتأثرهم بهم

المثقب العبدي، مما سبق إليه فأخذ منه قوله في تشبيه آثار القطا

كأن مواقع الثفنـــات منهـــا معـــرس باكرات الورد جـــون

فقد وقع على هذا المعنى كل من عمـرو بن أبي ربيعة، وابن مقبل وذو الرمه، والطرماح، وغيرهم.

ولعل قطن بن نهشل الدارمي أول من استعمل هذه الصيغة الدعائية في الرثاء، حيث يقول:

فلا يعدنك الله خير أخي امريء إذا جعلـــت نجوى المئين تصدع

وقد درج جل الشعراء القدامى على استعمال هذه الصيغة في مراثيهم.

كذلك تتـبين المحاكاة في الانتـقال من الغزل إلى غـيره، فمثـلا تغزل المسيب بن علس ثم انتقل إلى وصف ناقته بقوله[(١)]

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت بخميصـــة سرح اليدين وسـاع

وأخذ يفتن في وصف الناقـة، وصنع سحيـم مثل ذلك، لكن الأصل

(١) الغزل في العصر الجاهلي ٢٦٩.

يرجع على الأرجح إلى ثعلبة المازني في قوله[١]

وأرى الغواني لا يدوم وصالها أبدا على عسر ولا لمياسر

وإذا خليلك لم يدم لك وصله فاقطع لبانته بحرف ضامر

وفي قصيدة المسيب بن علس التي مطلعها

أرحلت من سلمى بغير متاع بعد العطاس ورعتها بوداع

وصف الناقة في ثمانية أبيات منها بعد حديث الغزل وفي هذا الوصف تهب رياح مختلفة من ميادين شعرية متنوعة، ترى ريح امرىء القيس حين يستفتح ويستعرضها ويستدبرها وتتعاور أخفافها الحصا، وترى ريح طرفه في قنطرة الرومي وفي وصف الغارب، كما نرى رياحا أخرى لكن الشاعر استطاع أن يعرض صورة الناقة سريعة متجانسة، واصطنع التشبيهات اصطناعا يفوق سابقيه من جماعة بكر أو المرقش، وإن اتحد معهم في سهولة الأداء ومقومات الفن، وعني بالنواحي البارزة في الناقة، ولم يعن بالأجزاء الدقاق كما صنع طرفه[٢]

ومع أن المرقش وامرء القيس سبقا طرفه في تشبيه الرحيل بسير السفن إلا أنه أول من أطنب في وصف السفن وهذه المقومات ماثلة في قصيدته[٣]

أشجاك الربع أم قدمه أم رماد دارس حممه

ويظهر أثر البيئة الحضرية البدوية حيث يصطنع صورة المرقش، ويتحدث عن صحيفة الجلد، ويشبه حال النعام بإماء يحملن الحطب، وتأثره بامريء القيس واضح في جملة أوصافه الطبيعية، يصور الفرس تصويره ويقتضب صورة

(١) المفضلية ٢٤.

(٢) شعر الطبيعة ٧٩.

(٣) نفسه ١٠٤.

له في وصف الناقة، ويمثل في اقتضاب الرياح تستدر المطر، والسيل يحمل الضباب مع الغثاء وقد يتصرف في معانيه وألفاظه، كأن يقول امريء القيس:

كأن ثبيرا في عرانين وبله　　　كبير أناس في بجاد مزمل

فيقول طرفه في وصف العقاب

وعجزاء دفت بالجناح كأنها　　　مع الصبح شيخ في بجاد مصنع

ويشبه فنه فن امريء القيس من ناحية التصوير الحسي ودقة التمثيل والعناية بالتشبيهات، وهذه العناية تظهر واضحة في بعض قصائده.(١)

ولعل عمرو بن مالك الضبعي، وهو جاهلي قديم أول من تطرق إلى معنى السعي في طلب الغنى. يقول:

ومن يفتقر في قومه يحمد الغنى　　　وإن كان فيهم ماجد العم مخولا

ويزري بعقل المرء قلة ماله　　　وإن كان أقوى من رجال وأحيلا

ويقول عروة بن الورد

ذريني للغنى أسعى فإني　　　رأيت الناس شرهم الفقير

وسبق طرفه إلى قوله(٢)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا　　　ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فأخذ شطره الأول سعد بن مالك القريعي في قوله

فلاقى امرءا لاتهزم الخيل نفره　　　وتبدلك الأيام ما كنت تجهل

(١) السابق ١٠٤.

(٢) الشعر والشعراء ١/١٩٢ والمؤتلف والمختلف ١٩٩.



الفصل الثاني
التصوير الفـــني

١) بيئات التشبيه وروافده

أ- تشبيهات البيئة البرية.

ب- تشبيهات البيئة البحرية.

جـ- تشبيهات البيئة الريفية.

د- تشبيهات البيئة المدنية.

هـ- تشبيهات البيئة الإنسانية.

و- تشبيهات البيئة النوئية.

٢) الصـــورة الشـــعرية

١- بيئات التشبيه وروافده

لما كان التشبيه يشكل المادة الأساسية لأصباغ الألوان البيانية لشعراء الخليج في الجاهلية، صار من اللازم التحدث عن منابع تشبيهاتهم، فقد استمدوها من كل ما وقع تحت أسماعهم وأبصارهم وباقي حواسهم، فتعددت أمامهم المصادر والروافد، واتسعت آفاقها ومجالاتها حتى شملت كل ما رأوه في أرضهم من براري وبحار وجبال وهضاب ووديان وسهول، وحيوان وطير وإنسان، وما أظل أرضهم من سماء وشمس وقمر ودراري ونجوم، وسحاب ورعد ومطر وبرق، وغير ذلك من الظواهر الكونية كالرياح والعواصف، كما امتدت تشبيهاتهم إلى بيئتهم الريفية وما اشتملت عليه من نخيل وزرع ونبات وأمور تتصل بها وأخذت تشبيهاتهم من البيئة الاجتماعية بما انطوت عليه من عادات وتقاليد وثقافة ودين وحضارة ومدنية وعلاقات إنسانية ومعتقدات شعبية وتأثيرات أجنبية وغيرها، ويمكن الاستئناس بذلك من خلال العناوين التالية:

أ- تشبيهات البيئية البرية:

وهي تشبيهات انتزعها شعراء الخليج الجاهليون من بيئتهم الطبيعية الحية والساكنة، من حيوان ووحش وطير وجماد، فقد شبهوا بحمار الوحش وبالأفعى وبثور الوحش وبالحصان وبالقرد وبالأسد والبقرة وبالغزال والمهاه وبالرأل وبالفحل أو الجمل والناقة وبالهر والنعام وبالكلب وبالفأر واليربوع وبالضباب والأرانب وبالثعالب وبالقطا والعقاب.

فها هو عمرو بن قمئة يشبه جملة الفتي في سرعته بفحل الخيل.

كأني حين أزجره بصوتي زجرت به مدلا أخدريا

ويصور أوس بن حجر الجزء الأبيض من السحاب عند البرق بالحصان الأدهم ذي الكشح الأبيض عندما يرمح فيبدو بياضه.

كأن ريقه لما علا شطبا   أقراب أبلق ينفي الخيل رماح

ويصور المسيب بن علس ممدوحه كأنه حصان ذو غره بيضاء تعلو جبهته قد دخل حلبة السباق مع الخيل فسبقها

وأغر تقصر دون غايته   غر السوابق حين تستبق

وناقة المرقش الأكبر ضخمة كأنها فحل

عرفاء كالفحل جمالية   ذات هباب لا تشكي السأم

ويشبه المرقش الأكبر ناقته في سرعتها حين تحرك بالسوط بالثور الوحشي الذي أفرد خشية القناص فهو لا يألو عدوا، وهو في اجتماع خلقه يشبه قدح الميسر (الزلم) يقول

تعدو إذا حرك مجدافها   عدو رباع مفرد كالزلم

ويشبه المسيب بن علس إبل الظاعنات في ضمورها ببقر الوحش

كدم الرعاف على مآزرها   وكأنهن ضوامر إجل

ويكرر هذا التشبيه في قوله:

والضامرات كأنها بقر   تقرو دكادك بينها الرمل

وتبدو حبيبة أوس بن حجر في صورة ظبي خالص البياض يقول:

وقد لهوت بمثل الرئم آنسة   تصبي الحليم عروب غير مكلاح

وتبدو اليرابيع في الصحراء التي قطعها المسيب بن علس كأنها في

الضخامة أولاد النعام.

فقد أقطع الخرق بعد الخروق   تخـال اليرابيع فيـه رآلا

ويجمع العوام الشيباني بين تشبيهين في بيت واحد فيشبه النفر الذين تخلوا عن بسطام الشيباني بعد أن شجعوه على الحرب، يشبههم بالأسود في الأمان والنعام في الفزع، وهي المعروفة بالسرعة في الهرب

كنتم أسودا في الرخاء فوجدتم   يوم الأفاقة في الهـروب نعاما

ويصور طرفه بن العبد ناقته القوية الضخمة في سرعتها كأنها نعامة تعرض لظليم قليل الشعر رمادي اللون

جمالية وجناء تردي كأنهـا   سفنجـة تردي لأزعـر أربد

ولطرفة بن العبد أيضا يشبه نظرة الحبيبة بنظرة الظبية البيضاء التي افتقدت غزالها وأخذت ترسل النظرات تلو الأخرى ساكنة خالسة

وإذ هي مثل الرئم صيد غزالها   لهـا نظر ساج إليك تواغلـه

ويشبه طرفه - أيضا- أصحابه الذين تخلوا عنه وهو في المحنة بالثعالب في الخداع والمكر والروغان

كلهـم أروغ من ثعلـب   ما أشـبه الليلـة بالبارحـة

ويصور لقيط بن زرارة بني مالك بن حنظلة في صورة الكلاب، لقبولهم إحراق عمرو بن هند لهم حين استسلموا لبغيه ولم يقاوموه، كما يشبههم بالخراف التي يختار ذابحوها أحسن أجزائها للأكل ويلقون بالرديء منها للذئاب

يهين سـراتكم عـامـدا   ويقتـلكم مثل قتل الكلاب

ولـكنكم غنم تصطفي   ويتـرك سـائرها للذئاب

وفي سياق تحريض المسيب بن علس لقومه على الرحيل من دار الهوان، حتى لا يكونوا غرضا للمنون، يشبههم في حالة إقامتهم بالأرنب التي تحذف بالعصا فتكسر رجلها

فلا تجلسوا غرضا للمنو ن حذفا كما تحذف الأرنب

وحين أراد حاطب النهشلي أن يعبر عن حالة الهرم والشيخوخة التي يعاني منها تمثل صورة القرد المسن الذي يشمئز الناس من رؤيته

وللموت خير لا مرىء من حياته يدب دبيبا في المحلة كالقرد

وشبهوا بالهر في سياق وصفهم لسرعة الناقة فتخيلوه ينوش في خاصرتها، مما يدفع بها إلى مضاعفة سرعتها.

بصادقة الوجيف كأن هرا يباريها ويأخذ بالوضين

ويغدر زوج أسماء بنت مسعود بجاره فتصورالفضيحة التي لا يمكن إخفاؤها في صورة ناقة ذبح حوارها وحشي جلده تبنا لتدر عليه. فهي في رغاء لا ينقطع حزنا عليه، فكما أن هذا الصوت المدوي يسمعه الجميع. فكذلك صوت الفضيحة.

فإنكم وما تخفون منها كذات البوليس له خوار

ويصور طرفة بن العبد نفسه في صورة رجل نحيف خفيف اللحم. سريع الدخول في الأمور، ويصور رأسه كرأس الحية المتوقد ذكاء وحده.

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

كما يشبه المتلمس الحلة المطرزة التي أهداها اليه عمرو بن هند بثوب الأفعى الزاهي الألوان.

إني كساني أبوقابوس مرفلـة　　　كأنها سلخ أبكار المخاريط

وشبهوا بالطيور الجارحة وغيـرها، كالعقاب والقطا والحمام والحشرات كالجـراد. فهـا هو المثقب العـبدي يصور طلائع الجـيش في سرعـة تقدمـها بأجنحـة العقـبان المبـسوطة، وقـد انطلقت بسـرعة خـاطفة بعـد أن طردت وروعت.

لها فرط يحمي النهاب كأنه　　　لوامع عقبان مروع طريدها

ويشبه المثقب أيضا ناقته في شدة سيرها واجتهادها فيه بالقطاحين يشتد عطشها فهي لا تألو طيرانا يقول

تهالك منـه في النجاء تهالكا تقـاذف احدى الجـون حاف ورودها وفي موضع آخـر يشبه المثـقب ما مس الأرض من ناقـته بتعـريس من قطا فحص الأرض، ومعرس القطا أخـفى، فأراد أن ناقته تخـوي فلا يمس الأرض منها شيء إلا رؤوس عظامها

كأن مواقع الثفنـــات منهـــا　　　معرس باكرات الورد جون

ويشـبه المثـقب أيضـا صوت الذباب في الرياض بـتغـريد الحمـام في أعشاشها.

وتسمع للذبـــاب إذا تغنـــى　　　كتغريد الحمام على الوكون

ويشبه طرفه بن العبد قومه في سرعة تجمعهم عند الفزع والنجدة بالطير التي تمر بسرعة في شكل أسراب وجماعات.

ذلق الفـــارة في افزاعهـــم　　　كرعـــال الطـــير أسرابا تمر

ويصور المفـضل النكري جيش عبـد القيس وبكر في تقـاذفهم بالنبل،

وكأن الذي يتساقط بين صفوفهم من كثرته جراد تقلبه ريح شآمية عاتية

كأن النبل بينهم جراد   تكفيه شآمية خريق

كما شبهوا بالجماد كدعص النقا وهو القطعة المستديرة من الرمل، والكثيب وهو الرمل الطويل المحدودب، والحجر الصلد، وغير ذلك من الجمادات وأشباهها.

فعمرو بن قمئة راي عجز فتاته في كبره واستدارته مثل دعص النقا.

إلى كفل مثل دعص النقا   وكف تقلب بيضا طفالا

وإذا قامت حبيبة طرفه بن العبد أو حاولت القيام أو النهوض فإنها لبدانتها وبضاضة لحمها وعبل أردافها ودقة خصرها تكاد تتقصف، وكأنها الكثيب من كثبان الرمل، فهي لدنه الجسم ناعمة بضة رجراجة الأعضاء.

وإذا قامت تداعي قاصف   مال من أعلى كثيب منقعر

ويرى المثقب العبدي ناقته حين ترفع عنقها إلى مقدم سنامها وهي تجد في السير كأن عنقها في هذه الحالة ركن الحجر الأعلى

تنمي بنهاض إلى حارك   ثم كركن الحجر الأصلد

ويصور عامر الأزدي الارتباط الذي يرفضه ببلده قملي بارتباط المسافر بالغمر وهو أصغر الأقداح يقتسم القورم به الماء بينهم إذا قل في السفر، بأن يلقوا فيه حصاه ويعطي كل منهم من الماء قدر ما يغمر هذه الحصاه.

ولا أقيم بقملي لا أفارقها   كما يناط بجنب الراكب الغمر

وربما شبهوا بآلات الحرب كالقسي والسيوف، ويشبه المفضل العبدي

سقوط الحارث بعد أن تناوشته الرماح بسقوط السيف من غمده

أصـــابته رمـــاح بني هنـي   فخـــر كأنه سيـــف صقيل

ب- تشبيهات البيئة البحرية

بالنظر إلى أن شعراء الخليج عاشوا في منطقة تطل على البحر فقد مكنهم ذلك من الالمام بعالمه وركوبه والاستفادة من ثرواته، وحيث أنهم جمعوا في معيشتهم بين البيئتين البرية والبحرية فقد زاوجوا في تشبيهاتهم بين الحياتين واقتبسوا من البحر كثيرا من التشبيهات وصوروا بها العديد من المعاني، وقد دلت هذه الصور الشعرية الدقيقة والتشبيهات المستمدة من عالم البحر على معرفة العرب القدماء الواقعية بالبحر والظواهر البحرية كمعرفتهم للرياح الموسمية وصناعتهم للسفن بربط الحبال وبدون استخدام مسامير واختراعهم للشراع المثلث الذي مكن السفن من الاقلاع في مواجهة الرياح، كما مكنتهم البيئة البحرية من معرفة فن الغوص واستخراج اللؤلؤ الذي أكثروا من التشبية به، مثلما أكثروا من تشبيه الظعائن بالسفن، كما كرر شعراء المديح منهم تشبيه ممدوحيهم بالبحر في جودهم. ولنبدأ بالحديث عن بعض لوحات طرفة بن العبد البحرية الذي يصفه أحمد عطية بأنه شاعر البحر، فمن صوره البحرية قوله:

كـأن حـــدوج المالكيـــة غـدوة   خـلايا سـفين بالنواصف من دد

عـدولية أو من سـفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدي

فالشاعر هنا صور مراكب الحبيبة وصواحبها وهن سائرات في رحاب وادي (دد) بصورة السفن الكبيرة العظم و الضخامة، وهذه السفن العدولية أو اليامنية الهجرية كان الملاح يجريها مرة على استواء واهتداء، وتارة يعدل بها فيميلها عن السفن، وكذلك الحداة كانوا يسوقون هذه الابل على سمت

الطريق تارة، وتارة يميلونها عنه ليختصروا المسافة.

ويشبه طرفه عنق الناقة (أتلع) الصاعد، سريع الحركة (النهاض) بدفه (السكان) السفينة (بوصي) وهي ترتفع وتنخفض في جريها بالماء. ويقول النحاس: إن السكان في هذا البيت يعني النوتي أو الملاح، وإن دجلة هنا لا يقصد بها نهر دجلة بل يقصد (معرفة) وإن الملاح مصعد لأنه يعالج الموج. يقول طرفه

وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصي بدجلة مصعد

يقول أحمد عطية: في هذا البيت يزداد الشاعر الجاهلي اقترابا من التصوير الداخلي للسفينة والملاحة البحرية ورجال البحر بعد أن صورها في انطلاقها البعيد تتجه إلى مرساها في الأبيات السابقة. ولعل هذا يؤكد خبرة طرفه بعالم البحر وأنه يعد بحق أديب البحر في الشعر الجاهلي..[١] ويقترب المرقش الأكبر من تصوير طرفه بن العبد لرحيل الظعن أو الهوادج النسائية المحمولة على الابل وتشبيهها بالسفن العظيمة الطافيه وبأشجار الدوم فيقول في مطلع قصيده:

لمن الظعن بالضحى طافيات شبهها الدوم أو خلايا سفين

ويستعمل المرقش الأكبر مصطلحا ملاحيا يغلب استعماله في السفن هو (المجداف) وهو خشبة في رأسها لوح عريض تدفع به السفينة، يستعمله بدلا من السوط لحث ناقته على السير، ويشبهها في سرعتها بالثور الوحشي[٢]

تعدو إذا حرك مجدافها عدو رباع مفرد كالزلم

(١) أدب البحر ٣٧ - دار المعارف.

(٢) السابق ٤١.

ويشبه عمرو بن قمئه ظعائن محبوبته وهي تجتاز الصحراء بسفن عدولي المشهورة العائدة من أوال البحرينية

هل ترى عيرها تجيز سراعا　　كالعــــدو لي رائحا من أوال

ويشبه المتــقب العبدي ناقته وقــد اعتلاها رحلها بالســفينة (القرواء) أي الطويلة الظهــر، وهي تشق الماء (بجؤجــؤها) أي صدرها، ويعلو مــع ارتفاع أمواج البحر المرتفــعة على المدى البعيد، وتنطوي الصورة علــى ما كان يفعله العرب من دهن سفنهم بزيت السمك حيث يقول:

كــأن الكور والانســاع منهــا　　علــى قـــرواء مـــاهــرة دهين
يشق المــاء جــؤجــؤها ويــعلو　　غــوارب كل ذي حـــدب بطين

ويشبه المسيب بن علس عنق ناقته الممدود بشراع السفينة:

وكأن غاربهـــا رباوة مخرم　　وتمـــد ثني جديلها بشراع

ومن ناحية أخرى يمــدح المسيب القعقاع بن زراره فيصــفه بأنه أكرم من خليج ممتليء تتتــابع فيه الأمواج وتتــدافع، مشبها أمــواج الخليج بخيل بلق، لأن الموجه إذا ارتفعت كان ظهرها أبيض، فإذا انقلبت أسود بطنها.

ولأنت أجــود من خليج مــفــعم　　مــــتـــراكم الأذى ذي دفـــاع
وكــأن بلق الخيــل في حــافــاته　　يــرمــي بــهـــن دوالــي الــزراع

أي يرمي الخليج بالموج دوالي الزراع (السوافي) يقول أحمد عطية: هذه صور بحرية يقدمها الشاعر سريعة متــدفقه كما يفعل الخليج بأمواجه الفياضة المتدفقه وحركتها السريعــة حتى لتغمر الشواطيء والسواقي في هذين البيتين. ويمضي أوس بن حجر على نسق المسيب بن علس فــيصف ممدوحه بأنه أكرم

من الخليج في حال تدفقه وفيضانه وقذفه بالخشب على الجانبين، إلى جانب شجاعته التي تفوق شجاعة الأسد

وما خليج من المروت ذو حدب　　يرمي الضرير بخشب الطلح والضال
يوما بأجود منه حين تسأله　　ولا مغب بترج بين أشبال

ويرى المفضل النكري دمعه لؤلؤا فيقول

فدمعي لؤلؤ سلس عراه　　تخر على المهاوي ما يليق

ويفصل المخبل السعدي في هذا التصوير فيشبه دموعه في تتابع سقوطها بعقد اللؤلؤ الذي انقطع فأخذت لآلئه تتساقط بسرعة وتتابع

كاللؤلؤ المسجور أغفل في　　سلك النظام فخانه النظم

ويزيد المثقب العبدي هذا التصوير تفصيلا فيشبه دموعه في كثرتها وسرعة تساقطها ولونها المضمخ بالدم. بسمط اللؤلؤ الذي انفرط من خيطه الأحمر فسقطت اللآليء بتتابع على خديه مصبوغة بحمرة الدم.

مربعلات كسمطي لؤلؤ　　خذلت أخراته فيه مغر

جـ- تشبيهات البيئة الريفية

تكاد تشبيهات البيئة الريفية تدور كلها حول النخلة وما يتعلق بها من حرث وزرع وتأبير، وما تشمل عليه من عسيب وجذع وعذق وليف وثمار وصرام.

فهذا عوف بن عطية التيمي يشبه ما تحدثه سنابك خيل طلائع جيشهم في الأرض الصلبة من أثر كبير بعملية حراثة الأرض التي يقوم بها فلاحو هجر في ريفهم.

تشق الحـــزابي ســـلافنا   كما شقق الهاجري الدبـــارا

وهذا ثعلبة بن صعير المازني يشبه الريش الذي يتساقط من النعامة جراء سرعتها، وهي تسابق الظليم بالليف الذي يتناثر من النخلة أثناء تأبيرها

يبري لرائحة يساقط ريشهـــا   مر النجاء سقاط ليف الآبـــر

وهذا المسيب بـن علس يشبه أنواع الجـياد التي يهـبها ممدوحـه بالنخل (العيدان) أي الطويل (والجعل) القصير و(الإنشاء) الصغير

والدهم كالعيـــدان آزرهـــا   وســـط الأشـــاء مكمم جعل

ويقول مكررا تشبيه هبات الممـدوح من النياق بأحمالها بالنخل الطويل المثقل بالتمر

قـــد نالـني منه عـلى عـــوز   مـثل النخـيل صغـارها السـحق

غلب العـــذوق على كـــوافـره   مـــــتلـفع بـالـليف مـتـطق

وقد كرر بعض شعراء الخليج في الجاهلية تشبيه الظعائن بالنخل المثمر. يقول المسيب بن علس

ولقد أرى ظعنـــا أخيلهـــا   تخـــدي كأن زهاءها نخـــل

ويقول أوس بن حجـر

وكأن ظعـــن الحـــي مدبـــرة   نخل بزاره حملـــه السعـــد

كما كـرر هؤلاء الشعراء تشبـيه الحصان بالعسـيب وهي جريدة النخل المستقيمـة يكشط خوصها فها هو المرقش الأصغر يشبـه فرس الصيد في شدة ضموه وجدله بطرف السعفة.

غدونا بصاف كالعسيب مجلل   طويناه حينا فهو شزب ملـــوح

ويشبه المسيب بن علس الجياد الموهوبة له في ضمورها بالعسب الجرد. يقول:

يهب الجياد كأنها عسب جرد أطار نسيلها البقل

وكذلك تكرر عندهم تشبيه الخيل بجذع النخلة المشذب في اندماج الخلقة واستواء الظهر يقول عروة العبدي:

أما إذا ما أقبلت فمطارة كالجذع شذبه نقي المنجل

ويقول أنيف الضبي مشبها حصانه في الطول والاستقامة

ألوى إذا استعرضته فكأنه في العين جذع من أوال مشذب

وربما جاء الجذع مشبها به لصرعى المعارك

يقول أوس بن حجر:

وقتلى كمثل جذوع النخيل تغشاهم مسبل منهمر

وتقول الخرنق

وبعد بني ضبيعة حول بشر كما مال الجذوع من الحريق

وربما شبهوا طول عنق الفرس بجذع النخل السائقة يقول المفضل النكري:

تشق الأرض شائلة الذنابي وهاديها كأن جذع سحوق

وشبهوا بعذق النخلة أو قنوها وشماريخها. يقول المفضل النكري- أيضا - مشبها لمة أحد فرسان بكر المقتولين بقنو النخلة:

قتلنا الحارث الوهاب منهم كأن سواد لمته العذوق

ويستعمل المسيب بن علس عرجون النخلة الكثيرة الثمر مشبها به ما فوق فخذي الجمل من لحمتين عظيمتين يمر بينهما عرق النسا

كأن على أنسائه غدق خصبة   تدلي من الكافور غير مكمم

ويشبه ربيعة بن مقروم الحمار الغليظ المتين بالكر وهو حبل متين من ليف يصعد به على النخل

فآض محملجا كالكر لمت   تفاوته شآمية صناع

وقد يأتي التشبيه بالنخلة في مجال الهجاء. فهذا طرفه بن العبد يجعل أعداء قومه بني تغلب كشجر النخل جامدين ينتظرون من يجز ثمره، وهي صورة مزرية بهم، إذ وقفوا ينتظرون منيتهم، وقد أينعت منهم الرؤوس وحان قطافها:

أنتم نخل نطيف به   فإذا ما جز نصطرمه

أما إبل أبي دؤاد الأيادي فإن من يراها فجأة وهي عند بطن غيب يحسبها نخلا صرم ثمرها

وإذا ما فجأتها بطن غيب   قلت نخل قد حان منها صرام

وتنعكس البيئة الريفية في هذا المثل الذي يستخدمه طرفه بن العبد حين يفخر بأصله، فيتكيء على مصطلح زراعي هو (التأبير) فقومه هم أهل الصلاح والاصلاح، فمن يطلب منهم ذلك يجده خير معين ومصلح، تماما كما يقوم آبر النخل بتلقيحه وإعداده للانتاج والاثمار.

ولي الأل الذي في مثله   يصلح الآبر زرع المؤبتر

ويستعمل سبيع بن الخطيم القصب المجوف مشبها به حنين الابل، حين

يقوم الزمار بالنفخ فيها لتخرج صوتا حزينا كصوت الابل

إما ترى إبلي كأن صدورها   قصب بأيدي الزامرين مجوف

ويشبه المثقب العبدي وقوع السلاح بعضه على بعض، وتطاير ما تقشر منه عند المقارعة بما يتطاير من القوع؛ وهو مسطح التمر والبر من النخالة

وطار قشاري الحديد كـأنه   نخالة أقواع يطير حصيدهـا

ومصطلح القوع من المصطلحات الخاصة بأهل الخليج، وهو من مفردات اللغة البحرانية.

ويستعمل بشر بن أبي خازم نهر محلم بالبحرين مشبها به ظعائن الأحبة، وقد سارت في طريقها تنحني بانحنائه وتستوي إذا استوت

كأن حمولهم لما استقلـوا   نخيل محلم فيهـا انحنـاء

د- تشبيهات البيئة المدنية

التشبيه المستمد من هذه البيئة منه ما يدور حول مختلف الحرف الشائعة في الجاهلية، كالحدادة والنجارة، والندافة والزجاجة والجزارة والعطارة والحياكة والعمارة والتجارة والكتابة والرسم والنحت بالإضافة إلى الكهانة والسدانة. ومنه ما يدور حول العنصر الأجنبي الذي تسرب إلى البيئة المدنية بحكم احتكاك عرب المنطقة بالجاليات الأجنبية المستوطنة والوافدة.

ويشبه المرقش الأكبر ناقته بالأرجوحه (الدواره) في النحافة والسرعة.

فتصبح كالدواده ناط زمامها   إلى شعب فيها الجواري العوانس

كما يشبه صوت البوم في آخر الليل بالناقوس وهو مضراب النصارى الذي يضربونه إيذانا بحلول وقت الصلاة

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس

ويشبه الحارث بن عباد الحرائر البيض بالتمثال في الجمال

وسعت كل حرة الوجه تدعو يالبكـــر غـــراء كالتمثـــال

أما المرقش الأصغر فخذ حبيبته يشبه المرآة في استوائه ونعومته.

أرتك بذات الضال منها معاصما وخدا أسيـــلا كالوذيلة ناعمـــا

وقد شبه طـرفه بن العبد عيني ناقتـه في صفائهما بصفـاء المرآة وصفاء الماء.

وعينان كالماويتين استكنتـــا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

وشبه المثقب العبدي ناقته في صلابتها وقوتها بمطرقة الحدادين

فسل الهم عنك بذات لـوث غذا فـــرة كمطـــرقة القيـــون

وهذا السليك بن السلكة يشبه منخري حصانـه في اتساعهما وما يخرج منهما من هواء قوي بمنفاخ الحدادين

كـــأن مناخر النحـــام لما دنا الاصبـــاح كير مســـتعار

ويشبه أوس بن حجر سنان رمحه في توقده بمصباح الملك، حيث يكون أقوى ضوءا وبخاصة في يوم الفصح، وهو من أهم أعياد النصاري.

عليه كمصباح العزيز يشـــبه لفصـــح ويحثوه الذبـــال المفتلا

ويشكو أوس بن حجـر من سهر الليل وضوء البـرق مشبهـا إياه بضوء مصباح اليهودي

قد نمت عني وبات البرق يسهرني كما استضاء يهودي بمصبـــاح

وناقة أوس بن حجر إذا همت لتقوم كسا رأسها زبد لغامها، وكأنه محلوج القطن الذي تبعثره النوادف.

علا رأسها بعد الهباب وسامحت   كمحلوج قطن ترتميه النوادف

ويهجو أوس بن حجر بني سليم فيشكك في نسبهم ويحار إلى من ينسبهم، ويشبههم في ذلك بعظم الريم الذي يبقى بعدما يقسم لحم الجزور، فهو بمنزلة الجازر الذي يحار في أي موضع يجعل الريم لاعتدال السهام

وكنتم كعظم الريم لم يدر جازر   على أي بداي مقسم اللحم يوضع

ويشبه الممزق العبدي ما يتركه البول من أثر على ما يقع عليه ذنب الناقة من الفخذين بالملاب وهو العطر المائع أو بلدغ الذباب الأزرق

كأن نضيح البول من قبل حاذها   ملاب عروس أو ملادغ أزرق

ويستخدم سلامه بن جندل هذا التشبيه، فيشبه صدر حصانه في ملاسته وصلابته بمداك الطيب، وهو النوع الصلب منه

تم الدسيع إلى هادله بتع   في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب

ويصور المسيب بن علس مجالس ممدوحيه في طهارتها وطيبها بالمسك، وهو ضرب من الطيب يتخذ من الغزلان

وكالمسك ترب مقاماتهم   وريا قبورهم أطيب

ولعل طرفه كان الأسبق إلى ذلك، فأسنان حبيبته كأنه في طيبه فتات المسك المزوج بالماء البارد

وإذا تضحك تبدي حببا   كرضاب المسك بالماء الخصر

وفيما يتصل بالثياب يشبه المرقش الأكبر الثور الوحشي في بياضه

بالثوب الناصح الذي حاكه خياط يماني ماهر

كـأنه نصـــــع يمــــان وبالا   أكرع تخنيف كلون الحمـــم

ويشبه المثقب العبدي الطريق الواضح في استوائه وصلابته بكساء غليظ من صوف

في لاحـــب تعـــزف جنانه   منفـــهق القفرة كالبرجـــــد

ويشبه سلامة بن جندل ما بقي من آثار ديار المحبوبة التي مر عليها عام بالثوب اليماني البالي

وماذا تبكي من رسوم محيلة   خلاء كسحق اليمنة المتمــزق

أما سبيع بن الخطيم فيشبه ألوان الزهر المختلف الألوان الناتج عن المطر الغزير برحال ملوك حمير ذات الألوان الزاهية.

تنفي الحصى حجراته وكـــأنه   برحال حمير بالضحى محفوف

ويشبه المسيب بن علس ظهر ناقتـه في ملاسته واستوائه بالديباج، وهو ضرب من الثياب سداه ولحمته الحرير

كأن على الظهـــر ديباجـــــة   وســـود القوائم يحســـبن قارا

وفيما يرتبط بالعمارة يصور المثقب العبدي نفسه وهو يعتلي رحل ناقته الضخمة بالقصر المشيد

ينبي تجاليـــــدي وأقتادهـــا   نـــاو كــرأس الفـــدن المؤبد

ويبالغ ثعلبة المازني فيشبه ناقـته في حالة الاجهاد، وحين تصبح النياق دقيقة ضعيفة، كأنها قصر ابن حية المشيد بالآجر والمشهور بالضخامة.

تضحي إذا دق المطي كأنها　　　فدن ابن حية شادة بالأجر

ويغلو أبودؤاد الأيادي في مبالغته فيصور ناقتــه في ضخامتها وارتفاعها بقصور سماهيج الشامخة، المشيد فوقها الحصون المبنية بالحجارة

وإذا أعرضت تقول قصـــور　　　من سمـــاهيج فوقها أطـــام

ويشـــبه المسيب بن علس سنام ناقته في ضخامته وارتفاعه بجسر منحن

وكأن قنطرة بموضع كورهـــا　　　ملســـاء بين غوامض الأنساع

ويشبـــه أوس بن حجر الـغبار الذي تثـيره الخيل بالســرادق ترفع الريح أطرافه في يوم عاصف

فما فتئت حتى كأن غبارهـــا　　　سرادق يوم ذي ريـــاح ترفع

أما طرفة بن العبد فيقدم لنا - من خــلال وصفه لناقته عدة صور مدنية معمارية، فهو يشبه ناقته في كمـــال خلقها واكتناز لحمها بمصراعي باب قصر عال مملس

لها فخذان أكمل النحض فيهما　　　كـــأنهما بابا منيف ممـــــرد

ويشبـــه الناقة بالقنطرة أي الجســر لانتفاخ جــوفها وشدة خلقــها، وهي قنطرة محكمة البناء شيدت بأقوى المواد وأصلبها لحرص صاحبها الرومي على اتقان بنائها

كقنطرة الرومي أقسم ربهـــا　　　لتكتنفن حتـــى تشاد بقرمد

وشبه خد الناقة بالصحيفة في البياض والنعومة وشبه مشافرها في اللين والاستقامه بالنعل المصنوع من الجلد اليماني

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر　　　كسبت اليماني قده لم يجرد

أما فيما يدور حول الكتابة فقد كرر شعراء الخليج تشبيه الاطلال بها بألفاظ وصيغ مختلفة.

فعمرو بن قمئة تساءل عن منازل الحبيبة التي درست وعفى عليها الزمن، وشبهها بالكتاب الباهت

هل عرفت الديار عن أحقاب   دارسا أيها كخط الكتاب

وثعلبة العبدي سار على نهج ابن قمئة في التساؤل عن آثار ديار الأحباب القفار مشبها إياها بالصحف الباهتة

لمن طلل كأنهن صحائف   قفار خلا منها الكثيب فواحف

وكذلك صنع الحارث بن حلزة في التساؤل عن الديار التي عفت آثارها حتى صارت كصحف الفرس في البياض

لمن الديار عفون بالحبس   آياتها كمهارق الفرس

والمرقش الأكبر قبل ذلك قرر قفر الدار وشبه رسومها بما يدبجه القلم من جميل الكتابة، وطرفه بن العبد شبه رسوم الدار المحموة بسطور في الرق

كسطور الرق رقشه   بالضحى مرقش يسمه

ويشبه ثعلبة العبدي الرياض التي أنتجها تعاقب الأمطار في أطلال المحبوبة برسام ماهر أجاد رسم لوحاته وأحسن زخرفتها

فما أحدثت فيها العهود كأنما   تلعب بالسمان فيها الزخارف

هـ- التشبيهات الانسانية

يشبه المثقب العبدي نفسه وقد ركبته الهموم وجلس ساهرا طوال الليل وقد ضم ركبتيه إلى بطنه، يشبه نفسه في هذه الحالة براقي اللديغ الذي بات

ساهرا يعالجه بالتعويذه ليشفى من داء السم

فبت أضم الركبتين إلى الحشا كأني راقي حية أو سليمها

كما يشبه الممزق العبدي نفسه وقد انتابته الهموم ولازمته، يشبهها بمن أصابته أفعى بسمها فبات ساهرا يتقلب على جمر الألام

تبيت الهموم الطارقات بعدني كما عادت الأهوال رأس المطلق

ويشبه أوس بن حجر الحمار الوحشي عندما تواجهه الشمس فيصد عنها بالرجل المحلف حين يصد عن نار المهول؛ وكان أهل الجاهلية يحلفون بالنار، وكانت لهم نار يقال إنها كانت بأشراف اليمن لها سدنه فإذا تفاقم الأمر بين القوم وحُلف عليها انقطع بينهم الشر، يقول أوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

ويصور سلامه بن جندل حصانه في يقظته وسرعته في صورة راعي غنم يقظ نشط أخذته سنة من النوم، فعندما نبه باقتراب الذئب من غنمه هب من نومه مذعورا وأسرع إلى غنمه ليحفظها

كأنه يرفيء نام عن غنم مستنفر في سواد ا لليل مذعور

ويشبه المسيب بن علس سرعة يدي الناقة بسرعة امرأة بادرت تنسج ما بقي قبل المساء فهي لا تفتر عن ضرب المنسج لتفرغ منه

فعل السريعة السريعة بادرت جدادها قبل المساء تهم بالاسراع

ويشبه أوس بن حجر الثور الوحشي وقد نجا من الصياد ودحر كلابه، يشبهه بالمرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك

ثم استمر يباري ظله جذلا كأنه مرزبان فاز محبور

ويشبه المرقش الأكبر بقر الوحش بالفرس إذا تبخترت في قلانسها

إلا من العين تمشـــي بهـــا كالفارسين مشوا في الكمم

ويشبه سلامه بن جندل بقر الوحش، وهي تذهب وتجيء في الأطلال بنصارى الحيرة وهم يمشون في الأمواق وهي الأخفاف الغليظـــة

فترى النعاج بها تمشي خلفه مشي العبادين فــي الأمواق

ويشبه أوس بن حجـر النعام الضارب إلى السواد وهي ترتع في أطلال المحبوبة بإماء لبسن جببا سود، والجبة ثوب سابغ واسع الكمين مشقوق المقدم يلبس فوق الثياب . يقول:

تمشي بها ربد النعـام كمـــا تمشـــي إماء سربلت جببا

ويهـجو قـيس بن عاصم السـعدي بنـي كليب بن يربوع عندما أغـار الحارث بن شريك البكري على بني ربيع ابن الحارث السـعديين فلم يجيبوهم وهم من قبيلة واحـدة (تميم) ويشبههم في موقـفهم هذا بالموؤوده التي وئدت ولـم يبق منها إلاالنفس الأخير، حيث حولتهم الخيانة إلى ما يشبه الموتى.

فأصبحتم والله يعفل ذلكم كموؤوده لم يبق الا زفيرها

ويتحدث أوس بن حـجر عن موقف قبيلته من بني عـامر وقدرتهم على الفـتك بهم على مـا بينهم من قـرابه، ويقـول: إن لنا صرخـة أي اهتياجـه يتبعهـا سكون، ويشبههم في ذلك بالنفـساء إذا طرقت بولدها، والطرق أن يعسـر خروج الولد فتـصرخ لذلك، ثم تسكن حـركة المولود فتـسكن هي أيضا، وخص تطريق البكر لأن ولادة الـبكر أشد من ولادة

(١) المعروف عن قيس بن عـاصم نه كان من الذين يئدون بناتهم في الجاهلية خـوفا من عار السبي، وقد سبيت بعض نسائه، ولم يرغبن في العودة إليه، بعد أن خيرن في ذلك.

الثيب . يقول:

لنا صرخـــة ثم إسكـــاته كما طرقت بنفـــاس بكـــر

ويتحـدث أوس بن حجـر - أيضا - عن حـمار الوحش بعـد مطاردة الصياد له ، فـيذكر أنه عندما وصل إلى الـستار بالخليج كان خائـفا يترقب، ويشبهه في هذه الحالة بربيئة الجـيش الذي يقوم بمهمة الاستطلاع للتحذير من قدوم العدو

فأضحى بقارات الستار كأنه ربيئة جيش فهو ظمآن خائف

كما شبهه وهو واقف على مـرتفع من الأرض يرصد تحركات العدو برجل وقف على نشز من الأرض في حفلة تأبين يؤبن شخصا عزيزا عليه يقول:

يقول له الراءون هذآك راكب يؤبن شخصا فوق علياء واقف

ويشكو المثقب العبدي من كثرة الأسفـار، وما تجلبه من متاعب فيسقط شكواه على ناقتـه التي ترافقه في تلك الأسفـار، ويؤنسنها فيجعـلها تشاطره الاحساس بالألم، ويشبهها بإنسان حزين يحس ويتألم يقول:

إذا ما قمت أرحلهـا بليـــل تأوه آهـــة الرجل الحـــزين

و- تشبيهات الأنواء

وتشـمل مـا أظل الأرض من سمـاء ودراري ونجـوم وشـمس وقمـر وسحاب ومطر ورعد وبرق فـهذا ربيعه بن مقروم يشبه الغـدران المفعمة بالماء من ناحيـة اللون فيراها خضـراء مثل لون السماء، وواضح أن الشـاعر يعني بالخضـرة الزرقة، ليس عن عمى ألوان يـعاني منه الشاعـر؛ وإنما لأن العرب يطلقون أحـيانا على الأزرق أخضر، ومن المعـروف أن اللون الأزرق هو آخر الألوان التي عرفها الانسان. ويشير الشاعر في الشطر الثاني من قوله:

طوامي خضر كلون السمـاء　　يزين الدراري فيها النجوما

إلى ما يزين السماء من عظام النجوم

ويشبه المرقش الأكبر جيش بني الوخم البكريين في كثرة العدد والعدة بضوء نجوم السحر، وإنما خص نجوم السحر لأن النجوم التي تطلع في آخر الليل كبار النجوم ودراريها، والوقت الذي يخرج فيه الجيوش للغارات تكون عادة في مثل هذا الوقت يقول:

بأن بني الوخم ساروا معـا　　بجيش كضوء نجوم السحـر

وتصور أم بسطام الشيباني ابنها بين قومه في صورة الهلال وسط النجوم، فكما أن المشبه به يزين السماء وينشر الضياء فيها فكذلك المشبه يزين الأرض ويضيء مسالكها يقول:

إذا ما غدا فيهم غدوا وكأنهم　　نجوم سماء بينهن هلالهـا

ويشبه عمرو بن قمئة حياة الانسان القصيرة الفانية بشعلة النار التي تظل ساطعة بفعل الريح، ثم لا تلبث أن تخبو فتصير هباء منثورا. يقول:

وما عيش الفتى في الناس إلا　　كما أشعلت في ريح شهابا

ويشبه المسيب بن علس ممدوحه الملك الذي نشأ في قبيلة حاشد اليمنية بالهلال، ومن المعلوم أن عرب الجنوب في الجاهلية كانوا يعبدون القمر، كما كانوا يعبدون الثور ذا القرنين اللذين على شكل هلال، ويربطون بينهما وبين المطر. يقول:

إلى خير مستمطر كفه　　وخير المقاول عما وخالا

تخلق في البيت من حاشد　　تراه البرية فيها هلالا

ويفخر لقيط بن زراره بقومه الدراميين فيشبههم بنجوم السماء في علو القدر وهداية الآخرين، وفي تجدد السيادة فيهم على الدوام. يقول:

نجوم سماء كلما غاب كوكب		بدا كوكبا تأوي اليه كواكبه

ويكرر شعراء الخليج التشبيه بنجوم السماء، فيشبه أوس بن حجر قومه بني أسيد بن عمرو بالنجوم الدائمة التتابع والتوالد بين قبيلتهم تميم يقول:

أسيد أبناء له قد تتابعوا		نجوم سماء من تميم بمعلم

ويصور عمرو بن قمئة جيشه من ناحية كثرة الفرسان والسيوف في صورة الليل والمصباح، آخذا من الأول سواده الدال على الكثرة في العدد، ومن الثاني ضياءه الدال على كثرة العدة. يقول:

وذي لجب يبرق الناظر		يسن كالليل ألبس منه ظلالا

كأن سنا البيض فوق الكلماة		فيه المصابيح تخبي الذبالا

ويضفي المثقب العبدي على ممدوحه صفة التفضيل في صلاح الأصل ويمن المنبت، فيشبه آباءه في تفوقهم على سواهم بتفوق سعد النجوم على غيرها. يقول:

وجدت زناد الصالحين نمينه		قديما كما بذ النجوم سعودها

ويشبه الأغر اليشكري غرة حصانه في البياض والاشراق واللمعان بالشعري، ذلك النجم الثاقب الضوء الذي يرى بوضوح حتى في الصباح. يقول:

صلت الجبين كأن غرته الشعري		إذا لاحت مع الفجر

ويشبه طرفه بن العبد حبه لسلمى بحب المرقش لأسماء ذلك الحب

الذي يشبه لمعان البرق.

كما أحرزت أسماء قلب مرقش بحب كلمع البرق لاحت مخايله

ويقول الهاشمي معلقاً: إنها صورة رائعة لانقداح شرارة الحب في القلب شبهه طرفه بلمع البرق الصادق يعقبه المزن الهتون[1]. كما يشبه طرفة - أيضا- النسوة بالسحائب في سكون مشيهن وبياضهن، وخص بنات المخر لأنها أشد بياضا.

كبنات المخر يمادْن كما أنبت الصيف عساليج الخضر

ويشبه أوس بن حجر حد السيف في بياضه ولمعانه بالبرق الشديد الاضاءة حين يكون في السحاب المرتفع الذي صار بعضه فوق بعض.

وأبيض هنديا كأن غراره تلألأ برق في حبي تكللا

ويشبه الحارث بن حلزه وقع ضربات السيوف في الأعداء وتتابعها بوقع المطر وتتابعه على خيمة الجلد المخيطة. يقول:

وحسبت وقع سيوفنا برؤوسهم وقع السحابة بالطراف المشرج

والملاحظ غلبة الصور الحسية البصرية على سائر الحواس

٢- الصورة الشعرية:

لا ريب أن للصورة الشعرية مكانة مهمةَ في عالم الشعر، ولا يخلو أي عمل فني منها، ويتضح ذلك جليا عند استعراضنا لتاريخ أي من الفنون الانسانية، والشعراء أكثر من غيرهم تتجسد حاجاتهم إلى التصوير، لأنهم لا يعبرون في حين ينظمون عن فكر مجرد من الاحساس، أو عن علم ثبتت

---

(١) طرفه بن العبد, ١٩٨

نظرياته واستقرت حقائقه وأصبحت له قواعد ثابتة عند أصحابه[١] ويبدو أن الميل إلى التصوير فطري في الإنسان فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل إلى غيره ما عساه يكون قد سبق إليه من مشاهد أو تعرض له من تجارب وقد وجدت هذه النزعة متنفسا عند الأمم القارئة والكاتبة، فظهر التصوير ممتزجا بالكتابة عند أول الأمر ثم استقل بعد ذلك، وفي كلا الحالين استغلت تلك الأمم أيديها لتصوير تجاربها ومشاهداتها، ولكن الشعب العربي لم يكن يكتب ولا يرسم، وهو مع ذلك محتاج - كغيره من الشعوب إلى نقل تجاربه، بل هو أشد حاجة إلى ذلك لقوة المشاركة الوجدانية عنده، ولم يجد وسيلة إلى ذلك سوى بضاعته الأولى وهي الشعر، يرسم فيه صورا دقيقة لكل ما يقع عنده وتحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب. وتستعمل كلمة الصورة عادة للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات، وتعد الصورة وسيلة الشاعر في نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه وسامعيه[٢] وقد ذهب د إحسان عباس [٣] إلى أن دراسة الصورة مجتمعة قد تعين على كشف معاني أعمق من المعنى الظاهري للقصيدة، ذلك لأن الصورة وهي جميع الأشكال المجازية إنما تكون من عمل القوة الخالقة، فالاتجاه إلى دراستها يعني الاتجاه إلى روح الشعر. والصورة الشعرية ليست اختراعا جديدا فقد عرفها الشعر العربي القديم، وكانت العلاقات بين عناصر الصورة القديمة على قدر من الوضوح وقرب التناول، ولعل علاقة المشابهة كانت أكثر العلاقات بين عناصر الصورة شيوعا في القصيدة الموروثة، ومن ثم فإن معظم جهود النقاد والبلاغيين العرب في

---

(١) د. أحمد الجاسم: شعر بني أسد ص ٣٧٢.

(٢) د. عبد الرحمن الوصيفي: شعر بني عامر ٢٧١.

(٣) فن الشعر ٢٣٨.

دراسة الصورة الشعرية دارت حول تلك الصورة التي تقوم على أساس المشابهة، إذ ركزوا جهودهم على دراسة التشبية والاستعارة. التي هي من وجهة نظر البلاغة العربية والنقد العربي القديم تشبيه حذف أحد طرفيه. إن الصورة الشعرية لدى الشاعر الجاهلي إنما هي رؤية خاصة للواقع الذي يعيشه الشاعر، وكما هو معروف فإن لكل شاعر طريقته الخاصة في التعبير قد تتحكم فيها الحالة النفسية والموقف الذي يعانيه ومدى قدرة الشاعر على الخلق، ومن هنا جاء التمايز بين الشعراء في صورهم الشعرية، فربما كانت الصورة في جزئياتها وعناصرها واحدة، ومع هذه فإننا نشعر باختلاف بين شاعر وآخر في طريقة التعبير عن هذه الصورة. يقول محمد زكي العشماوي: إن الصورة في الشعر ليست إلا تعبيرا عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة، إن أي صورة داخل العمل الفني إنما تحمل من الاحساس وتؤدي من الوظيفة، ما تحمله الصورة الجزئية الأخرى المجاورة لها، وإن من مجموع هذه الصور الجزئية تتألف الصورة الكلية التي تنتهي إليها القصيدة[١]. وقد شاع التصوير في شعر (البحرين) الخليج وهو تصوير لم يخرج فيه الشاعر إلى أبعد من حدود بيئته، ولم يتخيل إلا ما كان يراه حوله وماثلا أمامه، فلم يستطع أن يتخيل صورة معقدة مركبة من عدة صور، بل لكانت صوره وأخيلته حية واضحة لا غموض فيها أو أشواك ذهنية يضل في متاهاتها الفكرية، ولا نجد تفسيرا لذلك إلا طبيعة الحياة القلقة التي كان يحياها والتي كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بعالم الحس والمادة، وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم، بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة، فما يقوله طرفه في الناقة

(١) قضايا النقد الأدبي ١٠٨، ط٣.

يقوله فيها غيره، وقل مثل ذلك في غزلهم ومديحهم، فالشعراء يتناولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيله واحدة، ومن ثم تبدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنى عليهم ذلك ضيقا في معانيهم، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أثم كشف وجلاء[١] ففي الغزل مثلا نجد شعراء الخليج يشتركون في تشبيه المرأة بالغزال أو المهاه، ولكنهم قد يختلفون اختلافا يسيرا في ذلك، فعمرو بن قمئة يشبه محبوبته الراحلة العاطلة من الحلي بالظبية وهي تنظر إلى صفيرها الشادن وقد اعتزلت عن القطيع[٢]

تامت فؤادك يوم بينهم عند التفرق ظبية عطل
شنفت إلى رشأ تربيه ولها بذات الحاذ معتزل

وفي موضع آخر يشبه المرأة في حور عينيها بالغزالة المادة عنقها لتناول شجر الأرطي.

لها عين حوراء في روضة وتقرو مع البنت أرطى طوالا

ولما كانت صورة الغزالة المنفردة أكثر إبانه لمحاسنها من وجودها وسط القطيع، فقد كرر شعراء الخليج الجاهليون هذه الصورة، فهذا المسيب بن علس يشبه عيني محبوبته بعين الظبية، وقد انفردت تحت شجرة السدر

نظرت اليك بعين جازئة في ظل باردة من السدر

وفي موضع آخر يشبه عيني المحبوبة وجيدها بالغزالة في ذلك وقد انفردت بملاعبة ولدها الرشأ

---

(١) د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي ٢٢١.

(٢) ديوانه ٤٩.

لها العين والجيد من مغــزل   تلاعب في القفــرات الغزالا

وكما رأينا فـقد كانوا يجمعـون بين الغزلان أو المها وبين الشجـر غالبا يقول سلامه بن جندل السـعدي مشبها محبـوباته بالمها وهي بقر الوحش وقد استطلت بأغصان الأشجار

يشبهها الرائي مها بصريـــة   عليهن فينان الغصون ظليـــل

ويقول المثـقب العبـدي مشـبها حـبيـباته بغـزلان تخلفت عن القطيع مستظلات تحت الشجر، وقد أخذت تتناول الدانيات من أغصانها

كغزلان خذلن بذات ضـــال   تنوس الدانيات من الغصـــون

وقد يشبهون بالمها أو الظباء دون ذكر للأشجار يقول سلامه ابن حندل

وعندنا قينة بيضــاء ناعمــة   مثل المهاه من الحور الخراعيب

ويقول ربيعة بن مقروم مشبها حبيبته بالظبية الصغيرة المخصوصة

كأنها ظبية بكر أطــاع لهـــا   من حومل تلعات الجـو أو أودا

ويشبه تعلبة المازني حبيبته الغر المشرفة بالمهاه الجميلــة الفارهـة

ولرب واضحة الجبين غريــرة   مثل المهاه تروق عين الناظـــر

يقول اسماعـيل العالم: وإذا كان النقاد اعتبروا مـثل هذا الخيال المحدود عيـبا فإنه كان خـيرا على شاعـر البحرين(الخليج) فـهذه المعاني الضيـقة وهذا الخيال المحدودة حـملا شاعر البحرين على التـفن في عرض الصورة الواحدة، وأتاحا له التوفيق فيـها ومحاولة كشفها وجلائها تم صبـغها بأكثر من لون من

ألوان الطبيعة التي تحيط به والحرص على أن يضفي عليها شيئا من شخصيته[١]

وإذا اتخذنا الناقة مثلا آخر نجد أن كل شاعر من شعراء الخليج شبه سرعتها بشيء يختلف فيه عن غيره من شعراء المنطقة غالبا. فالمرقش الأكبر يشبه سرعة ناقته بهباب الريح كيف لا؟ وهي قوية كالفحل ضخمة كالجمل.

عرفاء كالفحل جمالية ذات هباب لا تشكي السأم

كما يشبهها في السرعة بثور الوحش المندمج الخلقة

تعدو إذ حرك مجدافها عدو رباع مفرد كالزلم

وعمرو بن قمئة يشبه سرعة ناقته بحجر القذاف

بويزل عامه مردى قذاف على التأويب لا يشكو الونيا

وناقة طرفه بن العبد في عدوها كأنها نعامة تعرض لظليم قليل الشعر رمادي اللون

جمالية وجناء تردي كأنها سفنجة تبري لأزعر أربد

وثعلبة المازني شبه ناقته وما اكتنف جانبها من العيبه والفنان بالظليم النافر يسرع فيحرك جناحيه

وكأن عيبتها وفضل فتانها فننان من كنفي ظليم نافر

ويشبه المتلمس سرعة ناقته بسرعة الأتان الوحشية الحائل

تعدو إذا وقع الممر بدفها عدو النحوص تخاف ضيق المرصد

والمسيب بن علس شبه سرعة ناقته بسرعة الكرة في أرض منخفضة.

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٤٧.

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفي لاعب في صاع

ويشبه أوس بن حجر سرعة ناقته بالدر الذي خانها النظام فانفرطت مسرعة

كأن وني خانت به من نظامها معاقد فارفضت بهن الطوائف

وشبه المخبل السعدي ناقته في سرعتها بسرعة البكرة عند الاستسقاء

قلقت إذا انحدر الطريق لها قلق المحالة ضمها الدعم

أما المثقب العبدي فيشبه ناقته في جريها بجري الفرس عندما يحث بالمرود

تعطيك مشيا حسنا مرة حثك بالمردود والمحصد

وربما تعاور اكثر من شاعر على صورة بعينها، فهذا الممزق العبدي يرى صورة ناقته وهي مسرعة كأن هرا علق عند معقد حزامها ونشب أظفارها فيها فدفعها إلى النفور والسرعة

ترى أو تراءى عند معقد غرزها تهاويل من أجلاد هر معلق

ويصف المثقب العبدي سرعة ناقته كأن هرا ينهبها عند موضع الركاب فهي لا تستقر ولا تهدأ

كأن جنيبا عند معقد غرزها تراوده عن نفسه ويريدها

وربما تكررت الصورة عند الشاعر ذاته. يقول المثقب العبدي واصفا ناقته بكثرة التلفت من النشاط، وأن السير لم يكسرها فكأن ذلك من عض الهر ومن تطفيره

بصادقه الوجيف كأن هرا يباريها ويأخذ بالوضين

ويضيف أوس بن حجر إلى عض الهر في الجنب اصطكاك الديك والخنزير في الرجلين

كأن هرا جنيبا تحت غرضتها   واصطك ديك برجليها وخنزير

ومن ذلك نرى أن كل واحد من شعراء الخليج أضاف شيئا من عنده إلى الصورة، أو ركز على جزء منها إدراكا منه أن هذا الجزء أكثر تأثيرا في النفوس من سواه. يقول العالم ونستطيع أن نطمئن إلى هذا اذا تتبعنا صورة أخرى أو أكثر من الصور التي عرض لها شعراء البحرين (الخليج) فنلاحظ قدرا مشتركا وهو المعنى المشترك، ثم نرى كل شاعر يهتم بجزئية من الصورة ويضفي عليها شيئا من شخصيته.[١]

ويرى قدامه بن جعفر أن التشبيه من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه الطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان أسبق كان بالحذق اليق[٢]

وقد عد القدماء من العلماء التشبيه المصيب من أركان الشعر، والتشبيه المصيب هو الذي يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا.

ويرى د شوقي ضيف أن التشبيه لا يحتاج بعدا في الخيال ولا عمقا في التصوير، وهو لون مفرد من ألوان التصوير[٣] لكن ذلك لا يعني أن صور التشبيهات متساوية، فهي متباينة فيها البسيط والعميق والمفرد والمركب، وربما جاء بعضها في بيت واحد وربما جاء في بيتين أو عدة أبيات، من خلال الصورة الممتدة أو الكلية. وقد ضم شعر الخليج الجاهلي مختلف هذه

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٤٩.

(٢) نقد الشعر ٥٨١.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ١٤٥ - ١٥٢.

الصور. أما الصور المفردة ذات البيت الواحد ففي الأمثلة السابقة ما يغني عن ذكر المزيد، وأما الصور الممتدة فمنها ما جاء في بيتين نرى فيهما المعنى الواحد في صورة واحدة، كقول المسيب بن علس يشبه موضع الطعنة الذي وقعت فيه بالموضع الذي انكشف عنه جيب الحمقا.

وقد اختلس الطعنة لا يدمي لها نصلي
كجيب الدفنس الورها ر ريعت وهي تستفلي

فالحمقاء إذا انشق جيبها تغافلت عن خياطته، واذا فرغت غفلت عن ضمه إلى صدرها، فيبدو من صدرها قطعة كبيرة.

ويشبه طرفة بن العبد خوله بولد الظبية في حوة شفتيها ولما هما وفي الجيد والعينين، وقد انفردت عن صواحباتها واشرأبت بنظرها إليهن لئلا تبعد عنهن، وأقامت على أولادها مادة عنقها فبانت محاسنها

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعي ربربا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي

ومن صور التشبيه ما ورد في بيتين يشتمل المعنى الواحد فيهما على صورتين، كقول المسيب بن علس

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفي لاعب في صاع
فعل السريعة بادرت جدادها قبل المساء تهم بالاسراع

فهو في البيت الأول يشبه يدي الناقة في رفعهما وخفضهما، بيدي لاعب الكرة، ويشبهما في البيت الثاني بامرأة تنسج ثوبا، فهي تسرع في عملها لاتمام العمل قبل حلول الظلام، والمعنى في البيتين واحد، وهو وصف سرعة الناقة.

ويستعمل المتلمس الضبعي في تصوير علاقته المتوتره بأخواله صورة الحبل الملتوي الذي يربط الجملين ببعضهما البعض، وأن التواءه المستمر يعرضه للتحلل والبتر مهما كان قويا، ثم يستخدم صورة أخرى هي صورة الجلد الذي فراه التقاوم فما عادت محاولات خرزه ذات جدوى يقول:

اذا لم يزل حبل القرينين يلتوي   فلابد يوما من قوى أن تجذما
اذا ما أديم القوم أنهجه البلى   تفري وإن كتبته وتخرما

ويقدم المسيب بن علس في بيتين صورتين تجسدان كرم ممدوحه أولاهما صورة البحر المتلاطم الأمواج، والثانية صورة الفرس ذو الغرة البيضاء السابق على أقرانه في حلبة السباق.

بحر من المداد ذو حدب   سهل الخليقة ما به غلق
وأغر تقصر دون غايته   غر السوابق حين تستبق

وفي بيتين يقدم المثقب العبدي صورتين لمعنى واحد وهو سرعة ناقته، إحداهما صورة الهر اللازق بجنب الناقة ينتهبها فهي لا تستقر أو تهدأ، والأخرى صورة القطاحين ورودها الماء وذلك حين يشتد عطشها فهي لا تألو طيرانا

كأن جنيبا عند مقعد غرزها   تراوده عن نفسه ويريدها
تهالك منه في النجاء تهالكا   تقاذف إحدى الجون حان ورودها

ومن الصور الممتدة ذات البيتين قول الحارث بن حلزه

فكأنهن لآليء وكأنه   صقر يلوذ حمامه بالعوسج
صقر يصيد بظفره وجناحه   فإذا أصاب حمامة لم تدرج

فالحارث في الأول شبه الظباء في تتابعهن لما ذعرن باللآليء المنظومة، وفي البيت الثاني يشبه الفرس في طموحه واستشرافه بصقر يلوذ الحمام منه بشجر العوسج الشائك الأغصان ولكنه لم يسلم من افتراسه، حينما انقض عليه بأظافره وجناحيه فقضى عليه.

وقد تأتي الصورة الممتدة في ثلاثة أبيات. ويصور المرقش الأكبر الظعائن؛ وهي النساء فوق الابل داخل هوادجهن، فيراها وهي تسير في الصحراء شبيهه بالسفن الضخمة التي تشق حباب البحر، وقد أفزعه ما على الهوادج من ألوان الزينة المبهرة للعين، وقد ركبن إما جمالا قوية ذليلة أو نياقا صلبة صلابة سنداد الحداد، ولكنها ضامرة ضمور بقر الوحش، وقد خص الشاعر البازل أي البالغ التاسعة لأنه السن الذي تكتمل فيه القوة، وخص الذكر لأن ذكور الإبل أذل من إناثها وألين في السير، وحين ذكر الناقة وصفها بأنها مدربة على المشي طبقة بعد طبقة ليكون ذلك أوطأ للظاعنات يقول(١)

لمن الظعن بالضحى طافيات ... شبهها الدوم أو خلايا سفين

رافعات رقما تهال له العي ... ن على كل بازل مستكين

أو علاة قد دربت درج المش ... ية حرف مثل المهاة ذقون

ومن الصور ذات الثلاثة الأبيات هذه الصورة التي يرسمها عمرو بن قمئة لجيشه، وقد بدا فيها كثير العدد والعدة حتى لكأنه لبس من الليل قطعة من سواده، كما بدت السيوف وهي تلمع كالمصابيح المضيئة، فنحن أمام سواد يتخلله ضوء، وفي آخر الصورة نرى الجيش يخرج في الصباح الباكر

(١) المفضلية ٤٨.

على عادة العرب في غاراتهم، وهي غارة كانت حصيلتها نفع الأصدقاء وضر الأعداء، فقد أصلحت حال أناس على حساب أناس آخرين[(١)]

وذي لجب يبرق الناظر يسن كالليل ألبس منه ظلالا

كأن سنا البيض فوق الكماة فيه المصابيح تنجي الذبالا

صبحت العدو على نأيه تريش نبالا وتبري رجالا

وهذه أبيات ثلاثة لعمرو بن قمئة صور فيها ظبية اعتزلت القطيع واتخذت من أعلى ذات الحاذ المظلل بالشجر منزلا لها ولوليدها الذي شغلت بالعناية به والحدب عليه. يقول:

تامت فؤادك يوم بينهم عند التفرق ظبية عطل

شنفت إلى رشأ ترببه ولها بذات الحاذ معتزل

ظل إذا ضحيت ومرتقب كيلا يكون لليلها دغل

ويرسم لقيط بن زرارة في ثلاثة أبيات صورة لسادة قومه وتجدد السيادة فيهم على الدوام، فيشبههم في ذلك بنجوم السماء التي كلما خبأ أحدها بزغ آخر محله، فوجوه قومه وجلائل أعمالهم باقية تضيء لهم كل مكان إضاءة الكواكب للخافقين، وهي إضاءة قوية تمكن ناظم العقد من رؤية الثقوب الضيقة وشكها في العقد يقول[(٢)]

وإني من القوم الذين عرفتم إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكبا تأوي اليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوهم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبة

---

(١) الطبيعة والخيال ١٧٥.

(٢)

وأحيانا ترد الصورة الممتدة في أربعة أبيات. ويعطينا أوس بن حجر صورة كلية مركزها جبن طفيل بن مالك العامري وهروبه من المعركة، ففي البيت الأول صور المهجو وهو يفر من اخوانه بأقصى سرعته على فرسه قرزل وكأنه مريخ الوليد، وهو قضيب يجعل للصبي في أعلاه تمرة وطينة تثقله ثم يرمي به بغير ريش، وفي البيت الثاني أشار الشاعر إلى خوف المهجو من القتل الذي كان سيدركه لو أدركته خيل الأعداء، كما قتل ابن أصمع يوم الخال وفي البيت الثالث كرر أوس فرار المهجو على سبيل التأكيد والسخرية تاركا ابن عمه وسط المعركة يناوش الأعداء بمفرده برمحه المهتز، وفي البيت الأخير أكد الشاعر علم زوجتيه بجنبه وأنه سيفر إليهما سالما كعادته ليخبرهما عن مصير الجيش. فهي صورة متنامية جسدت جبن المهجو من خلال تفننه في الهرب وبراعته في الفرار، وأن الآخرين على يقين من جبنه، بما فيهم أقرب الناس إليه. يقول(١)

وودع اخوان الصقاء بقرزل	يمر كمريخ الوليد المفزع
ولو أدركته الخيل شال برجله	كما شال يوم الخال كعب بن أصمع
فرارا وأسلمت ابن عمك عامرا	يلاعب أطراف الوشيج المزعزع
وقد علمت عرساك أنك آيب	تخبرهم عن جيشهم كل مربع

وهذه صورة حية تجمع بين الماء والخضرة يرسمها سبيع التيمي لغدير أتى عليه المطر ليلا من سحابة تمثلت في صورة امرأة حبلى حلت نطاقها واستدرتها ريح الجنوب هدوءا بعد نوم الناس ففاض الغدير من نواحيه جارفا

(١) ديوانه ٦١.

معه الحصى وقد أنتج المطر وأثمر الوانا من النبات الشبيه برحال ملوك حمير ذات الأشكال الجميلة الزاهية. يقول[(١)]

ومسيب خصر ثوى بمضلة ... وإذا تحركه الرياح يزيف

حلت به بعد الهدوء نطاقها ... مسع مسهلة النتاج زحوف

تزع الصبا ريعانه ودنت له ... دلح ينؤن عظامهن ضعيف

تنفي الحصى حجراته وكأنه ... برحال حمير بالضحى محفوف

ويقدم المتلمس صورة كلية لحالته النفسية التي كانت تتنازعها قوتان، هما قوة الرغبة في التشفي والانتقام، وقوة القرابة التي تحول دون ذلك، فحال الشاعر مع خاله الذي شكك في نسبه وأحدث جرحا عميقا في نفسه يصعب علاجه كحال من أراد أن يقطع يده بيده الأخرى، فإن قطعها صار أجذما وفقد جزءا من أعضائه، فهو في أشد ما يكون حيرة، ومثله في ذلك كمثل الأفعى الذي يحوي السم بداخله، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص منه بإفراغه في أخيه خوفا من فقده. يقول:

وما كنت إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أجذما

فلما استقاد الكف بالكف لم يجد ... له دركا في أن تبينا فأحجما

يداه أصابت هذه حتف هذه ... فلم تجد الأخرى عليها مقدما

فأطرق إطراق الشجاع ولو راي ... مساغا لنابيه الشجاع لصمما

ويرسم المسيب بن علس صورة لظعائن أحبته تجعل من اللون مرتكزا لها، ففي البيت الأول تخيل الظعن وهي تسير بسرعة نخلا زاهيا باللونين

(١) الطيف والخيال ١٥٢.

الأصفر والأحمر، وفي البيت الثاني شبه الطريق الذي تمشي فيه الظعائن بالثوب الأبيض، وفي البيت الثالث اتسعت عدسة التلوين عند الشاعر لتشمل كافة الألوان، وكأنها قوس قزح الجامع بين ألوان الطيف، فمراكب النساء قد اكتست بضروب من البرود أو الخز والثياب الموشاه والوشي المخطط، فكأننا أمام مهرجان من الألوان حافل بضروبه، وفي البيت الأخير أبرز الشاعر اللون الأحمر القاني لمآزر الظاعنات وضمور الظعن أو الابل الذي حولهن إلى ما يشبه بقر الوحش، وهكذا نرى فكرة الصورة واحدة، وقد تآزرت الأبيات الأربعة في رسمها لكل الألوان الزاهية، مبرزة اللون الأحمر الذي هو أول ما عرفه الانسان من الألوان، حتى أن بعض الباحثين ذهب بسبب هذا اللون إلى أن الظعائن تمثل الشمس في شروقها وميلادها، وما يصاحب هذا الميلاد من دماء هي دليل على الحياة والخصوبة يقول[1]

ولقد أرى ظعنا أخيلها ... تخدي كأن زهاءها نخل
في الآل يرفعها ويخفضها ... ريع كأن متونه سحل
عقما ورقما ثم أردفه ... كلل على أطرافها الخمل
كدم الرعاف على مآزها ... وكأنهن ضوامرا إجل

وهذه صورة كلية في أبيات أربعة يصور فيها المرقش الأكبر صورة معركة، ففي البيت الأول سجل الشاعر اقباله على جيش الأعداء وإدباره عنهم، فهي جولة عامة قام بها لرصد الحالة في صفوف الأعداء، وفي الأبيات التالية استعرض نتائج الحرب، فهناك العديد من الأشلاء المتناثرة في ساحة القتال ومنهم من تراه رافعا رجله منتفخ الجسد يشبه قشر شجر القتاد

(١) ديوانه ١٢٢ واللون في الشعر العربي ٨٩.

الذي بلله المطر فغدا كثير الانتفاخ، ومنهم من قتل غيله في الموقع، ومنهم من تعفر وجهه في التراب، وتبرز الصورة مظاهر الانتصار الساحق الذي حققه الشاعر وجنده بفضل شجاعة رجاله ومؤازرتهم. يقول[(١)]

فأقبلتهم ثم أدبرتهم ... فأصدرتهم قبل حين الصدر

فيا رب شلو تخطر فنه ... كريم لدي مزحف أو مكر

وآخر شاص ترى جلده ... كقشر القتادة غب المطر

وكائن بجمران من مزعف ... ومن رجل وجهه قد عفر

وربما جاءت الصورة الممتدة في خمسة أبيات، ويرسم سلامه ابن جندل صورة لحصان الصيد، يجعل مركزها سرعة فرسه، حيث يبديء ويعيد في تكرير هذه الصفة، فكأن في كل قائمة من قوائمه حين تندفع دلوا مملوءة أفرغت في حوض واندفعت فيه، وذلك لتفننها في الجري وهذا الفرس شبيه لحدة بصره بالراعي الجافي الذي نام عن غنمه حتى إذا داهمتها الذئاب ونفرت هب من نومه مذعورا وجرى لطرد هذه الذئاب، وليس غريبا أن يكون هذا الحصان على درجة عالية من السرعة لأنه فرس تام الخلقة طويل العنق صلب ضيق الصدر مضرج بدماء الوحش التي صيدت عليه، وقد تجمع الشحم فوق بعضه مما أعطاه قوة وضروبا لا تضاهي في الجري، فهو يسبق الحمر الوحشية حين تأكل الرطب، وفي وقت تكون فيه أسمن وأقوى وأشد، ولو سابق الألف من الخيل لسبقها دون إجهاد فهذه الصورة متكاملة وإن تألفت من عدة عناصر إلا أنها تتآزر في تشكيل الصورة الكلية. يقول[(٢)]

في كل قائمة منه إذا اندفعت ... منه أساو كفرغ الدلو أثقوب

---

(١) المفضلية ٥٢.

(٢) ديوانه ١٠٢.

كـــأنه يـرفـــئي نام عن غـنم مستنفـر في سواد الليل مذؤوب
تم الدســـــيع إلــى هاد له بـتع في جؤجؤ كمـداك الطيب مخضوب
تظاهر النى فـيـه فهـو مـحتـفل يعطي أساهي من جـري وتقريب
يحاضر الجون مخـضرا جحافلها ويسبق الألف عفوا غير مضروب

ومن الصور الكلية ذات الأبيات الخمسة هذه الصورة التي يقدمها أوس ابن حجر لناقته، حيث تدور فكرتها الأساسية حول سير الناقة وتبدأ بالحديث عن قوة قوائمـها وصلابة أخفافهـا واعوجاجها التي تساعـدها على السرعة، ومقـاذفها التي تشـبه في حركتـها مقـاذف السفينة، وتأخـذ الفكرة في النمو فيشير إلى حالة الناقة أثناء القيام وأنهـا إذا همت لتقوم كسا رأسها زبد لغامها وكأنه محلوج القطن الذي تبعثره النوادف، ويمضي الشاعر في تطوير فكرته فيبين أنها تـعتمد في سيرها على أيسـرها كما يعتمد ماتح البئر من الحوض الناشف، ثم يذكر طريقة مـشيها التي تجمع بين اللين والسيـر بخرق، وينتهي بتصـوير سرعـتهـا وأنها في ذلك تشـبه الدرر التي خـانها النظام فـانفرطت مسرعة. فـالصورة كما نرى كلية تكونت من جزئيات يرتبط بعـضها ببعض، وهي صورة نامية ومتحركة يقول[(١)]

يشـيعـهـا في كل هضب ورملة قوائم عـوج مجـمرات مـقاذف
علا رأسها بعد الهباب وسامحت كـمـحلوح قطن ترتميـه النوادف
وأنحت كـما أنحى المحـالة ماتح على البئر أضحى حوضه وهو ناشف
يخـالط منهـا لينها عـجـر فيـة إذا لم يكن في المقرفات عجارف
كأن ونى خـانت به من نظامـها معـاقد فارفـضت بهن الطوائف

---

(١) ديوانه ٦٦.

ويرسم المرقش الأكبر صورة كلية لناقته مركزها القوة، فهي ذات عرف مشرف عظيمة الخلقة ضخمة كالجمل كالريح المرسلة في السرعة والنشاط، وهي نجيبة معدة للرحلات فحسب لم تعرض للحمل قط وليس لها لبن فأصرها، ولم تحمل الصغير من ولد الغنم كتلك التي كان العرب يستعملونها في أجناس الأعمال المبتذلة، فمكانها بعيد مع الأبل العازبة التي لا ألبان لها، وقد سمنت حتى صار سنامها كالجبل، وهي في عدوها تشبه الثور القوي المجتمع الخلق كأنه قداح الميسر

عرفاء كالفحل جمالية ذات هباب لا تشتكي السأم
لم تقرأ القيظ جنينا ولا أصرها تحمل بهم الغنم
بل عزبت في الشول حتى نوت وسوغت ذا حبك كالارم
تعدو إذا حرك مجدافها عدو رباع مفرد كالزلم
كأنه نصع يمان وبال أكرع تخنيف كلون الحمم

وربما وصلت صورهم القائمة على التشبيه إلى ستة أبيات وللمسيب بن علس صورة يرسمها لممدوحه مالك ذو الرقيبة، وتدور ملامحها حول كرم الممدوح، وهي تبدأ بتعميم وتنتهي بمثله، فهو متفوق على أهل الجود، لأن جوده بحر واسع غزير المياه عالي الأمواج، وبين التعميمين يخص الشاعر بالذكر بعض عطايا، الممدوح كالجياد المختلفة الألوان والأحجام الممتلئة والضامرة الطويلة والقصيرة الكبيرة والصغيرة، كما يهب الابل التي تشبه في ضمورها بقر الوحش، وقد اغترف الشاعر من منهل جوده فأصابه دلو عظيمة تفيض بالعطاء يقول[١]

---

(١) ديوانه ١٢٣ .

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... ولذي الرقيبة مالك فضل
يهب الجياد كأنها عسب ... جرد أطار نسيلها البقل
والضامرات كأنها بسقر ... تقرو دكادك بينها الرمل
والدهم كالعيدان آزرها ... وسط الأشاء مكمم جعل
ولقد تناولني بنائله ... فأصابني من ماله سجل
متبعج التيار ذو حدب ... مغروب تياره يعلو

وللمسيب بن علس صورة لممدوحه الملك لعلها في أصولها ترجع إلى ما كان يعتقده عرب الجنوب الجاهليون من تأليه القمر بوصفه المتحكم في إنزال المطر، فالشاعر يعطي لممدوحه القدرة على الاستمطار، ويجعله من وجهة نظر البشر هلالا وهو ملك ذو قوة وسطوة، قد بلغ من ذلك مبلغا عظيما حتى أن الدهر صار له لباسا تقلب الممدوح في أعطافه وذاق حلاوته ومرارته فصار سيد الحكمة والرشاد ويمضي الشاعر في رسم صورة ممدوحه الأسطورية فيعطي ممدوحه من السعة والامتداد ما يتجاوز حدود نهر الفرات في حالة مده وهيجانه وارتفاع أمواجه حين يقلب السفن ويحط الصخور ويفرق الجبال والوهاد. فالصورة كما نرى مركبة ذات وحده متكاملة أنتهت فكرتها من حيث ابتدأت يقول[1]

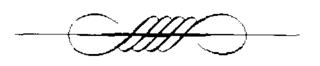
إلى خير مستمطر كفه ... وخير المقاول عما خالا
تخلق في البيت من حاشد ... تراه البرية فيها هلالا
يسوم البرية سود العزيز ... وقد لبس الدهر حالا مخالا

(١) ديوانه ١٢٧.

ومـا مـزبد من خـليج الفـرات	يحط الصـخـور ويعلو الجبـالا
يكـب السـفن لأذقـانهـا	ويصـرع بـالعـبـر أثـلا وضـالا
بأجـود منه إذا جـئـتـه	على حـادث الدهـر يومـا نوالا

وهذه صورة مركـبة للمرقش الأكبر مـركزها الصحراء، وجزئيـاتها ما يحـيط بها من مناظر الطبـيعـة، ففي البـداية أشار إلى قـدم هذه الصـحراء وتراميـها وما يعانيـه من يرودها من نصب وكلال، وفي البـيت الثاني تناول الزمان والمكان اللذين ضماه وناقته وموقد النار الذي لم يصل إليه أحد سواه، وأشار في البيت الثـالث إلى صوت البوم الذي يمزق الصمت الرهيب مشـبها اياه بضرب النواقـيس، وفي البيت الرابع نرى فيـه معرس الناقـة الذي عفت عليه الرياح، وقد غـدت الناقة من شدة الضنى كالأرجوحة التي تلـعب فيها الفتـيات، كمـا أن الشاعر بسـبب ما غشـيه من التعب والسـراب صار يرى رؤوس الجبال كأنهم رجال يسبحون في الخليج. يقول[١]

ودوية غـبـراء قد طال عـهـدها	تهالـك فيهـا الورد والمرء ناعس
تركت بهـا ليـلا طويلا ومنزلا	ومـوقـد نار لم ترمـه القـوابس
ونسـمع تزقاء مـن البوم حـولنا	كما ضربت بعد الهدوء النواقس
فيصبح ملقى رحلها حيث عرست	من الأرض قد دبت عليه الروامس
فـتصـبح كالدوداه ناط زمـامهـا	إلى شعب فيها الجواري العوانس
وأعـرض أعـلام كأن رؤوسـهـا	رؤوس رجال في خليـج تغامس



(١) المفضلية ٤٧.

الفصل الثالث

الموســــيقى

١) الموسيقى الخارجية

٢) الموسيقى الداخلية

أ- التصريع.

ب- القافية الداخلية.

جـ- الترصيع.

د- المصراع المغاير للروي.

هـ- التشطير.

١- الموسيقى الخارجية:

الوزن والقافية

يرتبط الشعر بالموسيقى ارتباطا لا ينفصم فهما وليدا العاطفة الانسانية، ولعل الباعث عليهما واحد فموسيقى الألفاظ تقابلها موسيقى النغم في الألحان. وهذا ليس معناه وجود نظرية بهذا الشأن تقوم على الإيقاع الموزون كما زعم بعض الباحثين من العرب[(١)] ، وكل ما في الأمر أن هؤلاء كان عندهم ضرب من الحداء يغنون به وهم على ظهور إبلهم ولكن لا ندري على وجه الدقة هل تطور هذا الحداء إلى هذه الدرجة أم لا؟[(٢)] يقول د محمد مصطفى هداره: لقد عرف الإنسان العربي القديم الشعر الغنائي الذي يتحدث فيه عن ذاته ويصور مشاعره، واهتدى بفطرته إلى وحدة النغم في كلماته التي ينبعث منها جمال الموسيقى واستطاع برهافة حسه أن يحدث نغمات موسيقية مختلفة عرفت فيما بعد باسم البحور، وكل بحر يتألف من مجموعة وحدات ايقاعية نطلق عليها اسم التفعيلات، يتكون منها الوزن الذي يتم بناء القصيدة عليه، والمتتبع لأوزان الشعر العربي يجد أنها تسير وفق الأصول الموسقية المعروفة وتتماثل مع نغماتها فالنغمات في الموسيقى تتغير بحسب اختلاف حركاتها وسكناتها وكذلك التزم الشاعر العربي القديم قافية واحدة يبني عليها أبياته، وهي الكلمة الأخيرة في البيت وقد ساعدت القافية على استكمال البناء الموسيقي للبيت وأسهمت في سهولة حفظه وروايته[(٣)] ولقد لاحظ الشعراء الجاهليون وحدة الوزن وهي ما سمي فيما بعد بالتفعيلة فالتزموها في أبيات القصيدة كلها، ومنهم من زاد على ذلك فالتزم في القافية أكثر من حرف. وقد ساعد الشعراء على تنوع البحور لديهم بيئتهم المتغيرة

---

(١) د. ناصر الدين الأسد: القيان والغناء في العصر الجاهلي ١٢٨.

(٢) د. أحمد الجاسم: شعر بني أسد في الجاهلية ٣٦٥.

(٣) الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول ٨-١٠.

وحياتهم المتجددة إلى جانب ما تميزوا به من آذان موسيقية مرهفة تدرك الفروق الدقيقة بين النغمات.

وقد نظم شعراء الخليج الجاهليون شعرهم في شتى البحور المعروفة إلا أن أكثرها تداولا بينهم كان بحر الطويل ثم الكامل ثم الوافر فالمتقارب فالبسيط فالسريع فالرمل.

وفي دراسة عبد الحميد المعيني التي بعنوان شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي) وعند تناوله للموسيقى في شعرهم. وهم جميعا من البحرين - ذكر أن العبديين استخدموا من البحور الشعرية التي شاعت في العصر الجاهلي: الطويل والوافر والكامل والبسيط والرمل والسريع والمتقارب والمنسرح، وكانت البحور الخمسة الأولى أشهر بحور الشعر عندهم استخداما. ويذكر الباحث أنه عندما أجرى إحصاء للشعر العبدي وجد أن الطويل ينفرد من بينها بمكانة عالية. وهذا ما رآه وقرره د ابراهيم أنيس الذي ذكر أن البحر الطويل قد نظم عليه ما يقرب من ثلث الشعر العربي وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره ويتخذونه ميزانا لأشعارهم ولا سيما في الأغراض الجدية الشأن، حيث كانوا يميلون إلى الأوزان الكثيرة المقاطع ويؤثرونها على المجزوءات، ثم إن مجال المفاخرة والمناظرة يتطلب طول النفس في الانشاد[١] ويقول المعيني عن الطويل إنه استخدم في سائر الأغراض والموضوعات التي تناولها العبديون من حرب وسلم ونظرات في الحياة والموت وغيرهما، وكان نصيبه من القصائد ما يزيد على أربعين قصيدة وفي المادة الشعرية خمسيها[٢]

وفي دراسة اسماعيل العالم لشعراء البحرين الجاهليين يذكر أن نصيب

(١) موسيقى الشعر ١٩١.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٢٤٣.

الطويل من شعرهم حوالي ثلث القصائد وأنهم استعملوه في موضوعات الفخر والمدح والهجاء والاستعطاف والرثاء، وحديث المعارك وإنذار القوم وتحذيره، والتهديد والوعيد والتحريض، ولكن الفخر يستأثر بنصيب وافر من هذا الوزن[١] ويتلو البحر الطويل عند المعيني الوافر فهو أيضا استعمل في سائر الأغراض التي ذكرها العبديون وكان نصيبه من القصائد احدى عشرة قصيدة وفي المادة الشعرية ما يتجاوز خمسها[٢] وعند اسماعيل العالم أن الوافر نظم فيه حوالي خمس شعر البحرين، وكانت الأغراض التي نظمت من هذا الوزن مرتبة حسب أكثريتها هي: الفخر والحماسة والوصف والهجاء والرثاء والتهديد والوعيد واللوم[٣] ويرى المعيني أن البحرالكامل جاء منه في شعر العبديين ثمان قصائد مادتها الشعرية قليلة لكنها استوفت موضوعا واحدا هو شعر الحرب. أما الكامل لدى العالم فيحتل المرتبة الثانية في شعر البحرين ووجد أن الأغراض التي نظمت منه في شعرهم الفخر والحماسة والرثاء والتهديد والوعيد والمدح والتحريض والهجاء[٤]. وعند المعيني جاءت سبع قصائد من البحر البسيط ومادتها الشعرية قليلة واستغرقت موضوعين هما الحرب والرثاء[٥]. أما العالم فعنده أن البسيط احتل المرتبة الخامسة في شعر البحرين وكان نصيبه عشر المجموعة[٦] وفي شعر عبد القيس الجاهلي يري المعيني أن نصيب الرمل خمس قصائد مادتها الشعرية تناولت موضوعين

---

(١) شعراء البحرين في العصر الجاهلي ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي ٢٤٤.

(٣) شعراء البحرين ٢٦٨.

(٤) شعراء البحرين ٢٦٧.

(٥) شعراء عبد القيس ٢٤٤.

(٦) شعراء البحرين ٢٦٨.

هما المدح والحكم[١] أما في شعر البحرين فيرى العالم أن الرمل احتل المرتبة الثالثة في مجموعة شعرهم. وكـان نصيبه خمس المجموعة، وقد نظمت من هذا البحر الفخر والحماسة والوصف والمدح والهجاء[٢]

أما شعر الخليج الجاهلي بصفة عامة. فقد سبقت الاشارة إلى أن بحري المتقـارب والبسيط يسبـقان من حيث الكم بحـر الرمل بعد إحصـاء ما أمكن جمـعه من أشعـارهم وقد تناولوا في المتـقارب الفخـر والحمـاسة والوصف والتحريض والمديح والغزل والشكوى.

وإذا كان هناك من سـبب يعلل استخـدام هؤلاء الشعراء لهـذه الأبحر والأكثار منها دون سواها فهـو.. شيوع تلك الأوزان وانتشارها بين الجاهليين بعامة ومعرفة الشعراء لها قـبل غيرها ولعل كثرة وتنوع هذه البحور قد أعطى الشاعر مجالا أوسع للتعبير عن عواطفه وأحاسيسه مما جعله يميل نحوها[٣]

واستعمل شعراء الخليج الجاهليون مجزوءات البحور، فخزز السدوسي الذهلي استعـمل مجزوء الوافر والمسيـب بن علس استعمل مجـزوء الخفيف وثعلبة الأزدي اسـتعمل مجزوء الرمـل، وأشمط العبدي ودختنـوس الدارمية استخداما مجزوء الكامل واستخدمت أخت سعد العبدية مجزوء الرجز.

وباستـعراضنا لـدواوين شعراء الخلـيج الجاهليين وأصـحاب القـصائد المتعـددة أو الطويلة نجد حروف القـافية عندهم هي الميم فـاللام فالراء والدال والباء ثم القاف فـالنون فالعين فالسين ثم الهمزة فالحـاء ثم الفاء، ومن حيث المادة الشـعرية وعدد الأبيـات نجد أن حـروف اللام والراء والميم تحتل المـرتبة

---

(١) شعراء عبد القيس ٢٤٤.

(٢) شعراء البحرين ٢٦٨.

(٣) شعر بني أسد في الجاهلية ٢٦٧.

الأولى على حين نرى الدال والباء والقاف والنون والسين تأتي في المرتبة الثانية أما الحاء والعين فيجيئان في المرتبة الثالثة. وفي المرتبة الرابعة هناك الفاء والضاد والجيم . أما الصاد والهاء والألف والهمزة فلم ترد إلا مرة أو مرتين، ومن ناحية عدد القصائد والمقطوعات فإن الراء والميم جاءا على رأس القائمة تليهما الباء واللام ثم الدال، أما العين والقاف والسين ثم النون والفاء فتأتي بعد ذلك.

أما حروف القوافي التي دارت على ألسنة أصحاب الدواوين كل على حدة فقد كانت كالتالي.

١- عمرو بن قمئة: أول حروف القافية عنده اللام وقد انتظمت خمس قصائد اثنتان منهما مفتوحة اللام واثنتان مكسوره وواحدة مضمومة، ومجموع أبياتها مائة وبيتان، ومن حرف اللام جاءت قصيدة مكسورة ذات خمسة عشر بيتا ومقطوعة مفتوحة من خمسة أبيات ومقطوعة مضمومة من أربعة. ووردت قصيدتان مفتوحتان إحداهما بلغت اثنين وثلاثين بيتا والثانية ثمانية وعشرين. كما جاء بحرف الدال قصيدة مفتوحة من أحد عشر بيتا. وبحرف الباء جاءت مقطوعة مكسورة من أربعة أبيات.

٢- طرفة بن العبد: كانت أول حروف القوافي عنده الدال وقد بنى عليها معلقته المكسورة التي زادت عن مائة بيت، فالإضافة إلى مقطوعة مقيدة من تسعة أبيات. تلتها الراء وقد أتت رويا لست من القصائد والمقطوعات أطوالها قصيدة مقيدة تصل أبياتها إلى أربعة وسبعين بيتا وأقصرها مقطوعة ذات أبيات ثلاثة ومجموعها مائة وأحد عشر بيتا. وجاءت الميم رويا لست قصائد ومقطوعات أيضا أطولها مقيدة ذات اثنين وعشرين بيتا وأقصرها بيتان ومجموعها سبعة وثمانون بيتا. وكانت اللام رويا لقصائد ثلاث مجموع أبياتها واحد وخمسون بيتا، واحدة مقيدة ساكنة واثنتان مطلقة مضمومة أما

الباء فقد وقعت رويا في مقطوعتين مضمومتين إحداهما من تسعة أبيات والأخرى من خمسة. وكذلك الحاء جاءت في مقطوعتين إحداهما ساكنة من ثلاثة أبيات والثانية مفتوحة من ثلاثة أيضا. أما الباء والصاد والضاد والكاف فلم ترد في ديوان طرفه إلا مرة واحدة مكسورة.

٣- المتلمس الضبعي: وأكثر حروف القوافي استعمالا عنده السين وهو حرف تردد في خمس قصائد ومقطوعة كلها مضمومه، ومجموع أبياتها اثنان وستون. ويلي ذلك حرف الدال وقد قفى قصيدة مكسورة ومقطوعتين إحداهما مكسورة الروي والثانية مضمومة، ومجموع أبياتها أربعة وثلاثون بيتا. ثم يأتي حرف الراء الذي قفي به الشاعر قصيدة من اثني عشر بيتا ومقطوعة مكسورة من أربعة أبيات. أما حرف القاف والعين والباء فقد بنى المتلمس عليها قصيدتين ومقطوعة، فكانت ذات روي القاف ساكنة من خمسة عشر بيتا وذات روي العين مكسورة من عشرة أبيات، وذات روي الباء مقطوعة من ثلاثة أبيات.

٤- الحارث بن حلزه: وقد بني معلقته البالغة ستة وثمانين بيتا على الهمزة المضمومة وجاءت قصيدتان على الهاء إحداهما مضمومة من اثني عشر بيتا، والأخرى مكسورة من عشرة أبيات. كما وردت له قصيدة سينية مكسورة من أربعة عشر بيتا. وقصيدة دالية مفتوحة من أحد عشر بيتا وأتت له مقطوعتان ميميتان مكسورتان مقطوعة بائية مضمومة من سبعة أبيات ومقطوعة عينية مكسورة من أربعة أبيات.

٥- المسيب بن علس: له قصيدتان لاميتان احداهما مفتوحة من واحد وعشرين بيتا، والثانية مضمومة من ثمانية عشر بيتا. وله لاميتان إحداهما قصيدة مكسورة من واحد وأربعين بيتا، والأخرى مقطوعة مفتوحة من ثمانية أبيات. وفي ثمانية وثلاثين بيتا تأتي بائيته المضمومة الروي، كما تأتي عينيته

المكسورة الروي في ستة وعشرين بيتا وله قافية مضمومة من ثلاثة وعشرين بيتا، كما أن له مقطوعتين ميميتين أولاهما مضمومة من ستة أبيات والثانية مكسورة من خمسة.

٦- أوس بن حجر: وأكثر حروف الروي دورانا في شعره حرف اللام، فله في ديوانه ثلاث قصائد وثلاث مقطوعات أطولها مفتوحة في اثنين وخمسين بيتا، تلتها مضمومة في تسعة وعشرين بيتا، ثالثتها مكسورة في ستة وعشرين بيتا. أما المقطوعات فأطولها مكسورة في تسعة أبيات وبعدها مضمومة في سبعة أبيات ثم مضمومة في أبيات ستة. أما حرف الراء فقد وقع رويا في قصيدتين وخمس مقطوعات، فكان مضموما في قصيدة من واحد وأربعين بيتا، ومكسورا في قصيدة من ثلاثة عشر بيتا. أما المقطوعات فكانت ذات السبعة الأبيات مكسورة وذات الستة مضمومة وجاءت اثنتان من ذات الأربعة أبيات مفتوحة واثنتان مضمومة الروي. يلي ذلك حرف الميم الذي ورد رويا مكسورا في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتا، ومفتوحا في مقطوعتين أولاهما من ثمانية أبيات وثانيتهما من ستة، ومضموما في مقطوعة من ستة أبيات. وجاءت الباء رويا في ثلاث قصائد أولاها مفتوح الروي في أربعة وعشرين بيتا وثانيتها مضموم في سبعة عشر بيتا وثالثتها مكسور في أربعة عشر بيتا، وأتى حرف العين رويا في قصيدتين ومقطوعة القصيدة الأولى مضمومة في سبعة عشر بيتا، والثانية مفتوحة في ثلاثة عشر بيتا، أما المقطوعة فجاءت مكسورة في ستة أبيات. وأتت الفاء رويا مضموما في ستين بيتا ومقطوعة مضمومة في ستة أبيات. وكانت الدال رويا في ثلاث مقطوعات مكسورة في تسعة وخمسة ومضمومة في ثمانية أبيات. وورد سبعة وعشرون بيتا على الحاء المكسورة وجاء حرف القاف رويا مضموما في عشرة أبيات، كما جاء حرف السين رويا مكسورا في ثمانية أبيات، أما

الكاف فجاءت مضمومة في خمسة أبيات.

٧- سلامه بن جندل السعدي: وأكثر الحروف التي استخدمها رويا هو حرف الباء، فقد أتى رويا في ثلاث قصائد ومقطوعة: الأولى قصيدة مكسورة في واحد وثلاثين بيتا، والثانية أيضا مكسورة في ثمانية عشر بيتا، والثالثة مضمومة في أربعة عشر بيتا أما المقطوعة فكانت خمسة أبيات مكسورة الروي. واستعمل القاف رويا في قصيدتين مكسورتين إحداهما من أربعين بيتا والثانية من خمسة وثلاثين بيتا. وكذلك النون جاءت رويا مضموما في أربعة عشر بيتا. أما الحاء والعين فجاءتا رويا في مقطوعة مضمومة من خمسة أبيات ومقطوعة مفتوحة من أربعة.

٨- المثقب العبدي: وأول حروف الروي استعمالا عنده هو حرف الدال، فقد جعله رويا لقصيدتين ومقطوعة، وإحدى القصيدتين مكسورة الروي بلغت خمسة وثلاثين بيتا، والثانية مضمومة وعددها ثمانية وعشرون بيتا، أما المقطوعة فمن ثلاثة أبيات ذات روي مكسور. أما حرف الميم فقد جعله المثقب رويا لقصيدتين إحداهما ساكنة مقيدة تبلغ أربعة وعشرين بيتا، والأخرى مضمومة من تسعة عشر بيتا، واستعمل النون رويا في قصيدة مكسورة أبياتها سبعة وأربعون، والراء الساكنة جاءت رويا في قصيدة من ستة عشر بيتا. أما الباب والسين، فقد جاءتا رويا في بائية مفتوحة من تسعة أبيات وسينية مكسورة من ثلاثة أبيات وهذه الحروف التي ذكرناها تعتبر عند الدارسين لموسيقى الشعر حروفا من الدرجة الأولى ومن حروف القوافي الذلولة، وقد اتسعت الحروف الثلاثة: الدال والراء والقاف لكل قوافي الشعر العبدي، مما يشير إلى أهمية هذه الحروف عندهم ويدل على أنهم استخدموا أشهر الحروف في موسيقى القافية زمن الجاهليين.

وقد أشار بعض النقاد إلى استكراه بعض الحروف في الروي مثل الفاء والخاء، والصاد والطاء والظاء. وقد نظم بعض شعراء الخليج الجاهليين شيئا من شعرهم على بعض هذه الحروف كالصاد إلا أن ذلك جاء نادرا. وربما كان مصدر استثقال النقاد للحروف المذكورة ندرة استخدام الشعراء لهذه القوافي.

وللقافية عدة عيوب لعل من أبرزها في شعر الخليج الجاهلي (السناد) وهو اختلاف الحروف في قوافي القصيدة وأمثلة هذا العيب كثيرة في شعر الخليج منها ما نراه عند سلامة بن جندل حين يقول

أودي الشباب حميدا ذو التعاجيب   أودي وذلك وذلك شأو غير مطلوب
ولي جثيثا وهذا الشيب يطلبه   لو كان يدركه ركض اليعاقيب

فاختلف الحرف الذي قبل الروي، فهو في البيت الأول واو وفي الثاني ياء

ويقول عمرو بن قمئة

كبرت وفارقني الأقربون   وأيقنت النفس ألا خلودا
وبان الأحبة حتى فنوا   ولم يترك الدهر منهم عميدا

فجاء الحرف الذي قبل الروي في البيت الأول واوا وفي البيت الثاني ياء.

ويقول المنقب العبدي يخاطب عمرو بن هند

فأنعم - أبيت اللعن - إنك أصبحت   لديك لكيز كهلها ووليدها
وأطلقهم تمشي النساء خلالهم   مفككة وسط الرجال قيودها

حيث وقع الحرف الذين قبل الروي ياء في البيت الأول وواوا في البيت الأخير.

ويقول المتلمس الضبعي

كم دون أسماء من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

ومن ذرى علم ناء مسافته كأنه في حباب الماء مغموس

فعاقب الشاعر بين الباء والواو في الحرف السابق للروي، وهذا العيب من العيوب اليسيرة. وقد أجاز الخليل بن أحمد اختلاف الردف بين الواو والياء.

أما سناد الإشباع وهو اختلاف حركة الدخيل في القافية المطلقة، أي اختلاف حركة الحرف الذي يسبق الروي مباشرة فقد جاء في شعر الخليج الجاهلي، ولعل أوضح مثال له ما نجده في قافية المسيب بن علس التي استهلها بقوله:

بان الخليط ورفع الخرق ففؤاده في الحي معتلق

منعوا طلاقهم ونائلهم يوم الفراق ورهنهم غلق

قطعوا المزاهر واستتب بهم يوم الرحيل للعلع طرق

قال المسيب في البيت الأول (معتلق) بكر اللام ثم قال (غلَق) بفتحها ثم قال (طُرق) بضم الراء، وهو عيب من عيوب القوافي[١]

ومن عيوب القافية «الإيطاء» وهو إعادة القافية (كلمة الروي) بلفظها ومعناها من غير فاصل بسبعة أبيات أو نحو ذلك، وكلما قل الفاصل زاد

---

(١) ديوانه ١١٧ والهامش.

الإيطاء قبحـا .

فمن تكرار القافـية بفاصل بيت واحد قول المثقب العـبدي يتحدث عن ناقته .

بصادقة الوجيف كأن هـــرا يباريها ويأخـذ بالوضـــين

ثم يقول بعد بيت واحد فقط

إذا قلقت أشد لها ســنافا أمام الزور من قلق الوضــين

ومن تكرارها بعد بيتين قول يزيد بن الحذاق العبدي

إن تغــز بالخــرقــاء أســرتنا تلـق الكـتـــائـب دوننـا تردي

وهززت ســيـفك كي تحــاربنا فـانظـر بسـيـفـك من به تردي

ومن الإيطاء قول المتلمس يصف أثر سير الناقة على جسدها

وجناء قد طبخ الهواجر لحمها وكأن نقيتهــا أديــم أملــس

ثم كرر لفظة أملس بعد أربعة أبيات فقال :

وتركت حي بني ضبيعة خشية أن يوتروا بدمي وجلدي أملس

وربما وقع الإيطاء بعد خمسة أبيات يقول المرقش الأكبر

سفها تذكــره خويلة بعدمــا حالت قرى نجران دون لقائهــا

ثم كرر الشاعر القافية بعد أبيات خمسة فقال :

كسبية السيراء ذات عــلالة تهدي الجياد غداة غب لقائها

ومن تكرار الإبطاء غير المستقبح عند بعض الأدباء قول المرقش الأصغر

ولكنه زور ييقـــظ نائمــــا ويحـــدث أشجانا بقلبك تجرح

ثم كرر اللفظة بعد تسعة أبيات فقال :

ويسبق مطرودا ويلحق طاردا ويخرج من غم المضيق ويجرح

ويقول طرفة بن العبد:

وعلـــى المتنين منهـــا وارد حســـن النبت أثيبت مســـبطر

ثم كرر اللفظ ذاته بعد أحد عشر بيتا فقال

صادفته حرجـــف في تلعـــة فســـجا وسط بلاط مســـبطر

ومن عيوب القـافية (الاقواء) وهو اختلاف حـركة حرف الروي، وهو قليل في شعر الخليج الجاهلي، وللمثقب العبدي دالية مكسورة جاء فيها.

من مال من يجبي ويجبي له سبعون قنطـــارا من العســـجد

وكل القصيدة على هذا الروي المكسور إلا قوله:

أو مائة تجعـــــــل أولادهـــا لغوا وعـــرض المائة الجلمـــدُ

حيث يأتي حرف الروي مضموما

ووقع بشر بن عـمرو بن مـرثد في الأقواء في قافـيتـه المكسورة الروي ومنها

بل هل تري ظعنا تحدى مقفية لها توال وحـــاد غير مســـبوقِ

وبعد هذا البيت يأتي الشاعر بروي مضموم يقول:

يأخذن من معظم فجاء بمسهلة لزهوه من أعالي البسر زحلوقُ

وجاء في شعر قراد الدارمي إقواء بين روي مضموم ومكسور قال

طلق حـــاجب في غـيـــر شيء حليـلتـــه لـيـــخلقــــه قـــرادُ
فـأصـبح زوجـها منهـا بعـيـدا مكان السـيف من طرف الغمـادِ

ومن العـيوب العروضـية التي سـقط فيـها شـعراء الخليج الجاهـليون (الاقعاد) إلا أنه جاء قليلا في شعرهم. والأقعاد اختلاف أعاريض القصيدة، وأكثر ما يقع في البحر الكامل، من ذلك مـا وقع في قصيدة المخبل السعدي التي أولها(١)

ذكر الرباب وذكرها سقم وصبا وليس لمن صبا حلم

فعروضها كما ترى حذاء فعلن ولكنه قال في البيت الثامن عشر

ويضمها دون الجنـاح بدفه وتحفهـــــن قـــوادم قتـــم

فجاء بعروض سالمة (متفاعلن) مخـالفا بها أعاريض القصيدة ومثله في قصيدة يزيد بن الخذاق الشني التي مطلعها(٢)

أعددت سبحة بعدما قرحت ولبســـت شكة حازم جلد

ثم يقول في البيت الأخير

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت سبل المسالك والهدى يعدي

فأقعد فيه إذ خالفت عروضه السالمة سائر الأعاريض الحذاء

وفي مثل ذلك وقع المسيب بن علس في قصيدته التي أولها(٣)

(١) عبد الحميد الراضي: شرح تحفة الخليل ٣٩٥.
(٢) نفسه ٣٩٦.
(٣) نفسه ٣٩٧.

بكرت لتحزن عاشقا طفل وتباعدت وتخرم الوصل

وكل هذه القصائد حذاء العروض، وقد اشتمل كل منها على بيت أو أكثر بعروض سالمة مخالفة سائر أعاريضها.

وللمرقش الأكبر قصيدة من البحر السريع يقول في أولها

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان رسم ناطقا كلم
الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

فيها واحد وعشرون بيتا بضرب أصلم من مجموع أبياتها الخمسة والثلاثين ويلاحظ أن الجمع بين هذين الضربين ترتب عليه الجمع بين نوعين من القافية لا يجوز الجمع بينهما، فالقافية في مثل (كلم) من المتواتر حيث يفصل بين ساكنها متحرك، وفي مثل الأديم قلم) من المتراكب حيث يفصل بين ساكنها ثلاث متحركات. وقد أشار المعري إلى أبيات المرقش فقال: إن مرقشا خلط في كلمته فقال[(١)]

ماذا علينا إن غزا ملك من آل جفنة ظالم مرغم

وهذا خروج عما ذهب إليه الخليل.

وفي البحر المتقارب قال السكاكي: وقد أجاز الخليل في عروض البيت السالم الضرب الحذف والقصر وأبت ذلك جماعة[(٢)] ويلاحظ أن جواز الحذف في عروض المتقارب ظاهرة شائعة سواء كان الضرب سالما كما اشترط الخليل أو كان محذوفا أو مقصورا أو أبترا.

---

(١) السابق ٢٢٧.

(٢) السابق ٢٨٧.

بل إن من القصائد ما جاءت جميع أعاريضها محذوفة وضربها مع ذلك غير سالم مقصور أو محذوف ففي المفضليات قصيدة لثعلبة بن عمرو وعدتها أربعة عشر بيتا أعاريض أبياتها جميعا محذوفة وهي مقصورة الضرب وهذا أولها[١]

أأسماء لم تسألي عن أبيك ... ك والقوم قد كان فيهم خطوب

وأخرى للمرقش الأكبر وعدتها ثمانية أبيات كلها بعروض محذوفة وضرب على غير سلامة محذوف أيضا[٢] وأولها

أتتني لسان بني عامر ... فجلت أحاديثها عن بصر

بأن بني الوخم ساروا معا ... بجيش كضوء نجوم السحر

ولا تكاد قصيدة من وافي المتقارب لم يدخل كثيرا من أعاريضها دون مراعاة لسلامة الضرب كما قال الخليل. ووقع بعضهم في (الخبل) وهو تحول مستفعلن إلى فعلتن، كما نرى في قول عوف بن محلم الشيباني وهو من البحر السريع.

إن الثمانين - وبلغتها- ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وأبدلتني بالشطاط الحنا ... وكنت كالصعدة تحت السنان

وقاربت مني خطا لم تكن ... مقربات وثنت من عنان

وجعلت بيني وبين الورى ... عنانة من غير نسح العنان؟

---

(١) نفسه ٢٨٨.

(٢) نفسه ٢٨٩.

فالوزن فيها منساب متسق على كثرة ما دخله من الخبن والطي الجائزين، ولكنك حين تصل البيت الأخير تشعر بشيء من الاضطراب والانحراف، ذلك أن الخبل قد دخل جزأه الأول «جعلت» فحوله من مستفعلن إلى فعلتن[1]

٢- الموسيقى الداخلية:

وكما تمثلت الموسيقى الخارجية في الوزن والقافية وهما القالب الموسيقي الخارجي للقصيدة الجاهلية فإن الموسيقى الداخلية تمثلت في التصريع والترصيع والمصراع المغاير للروي والقافية الداخلية والتشطير.

أ- التصريع

من نعوت القوافي عند قدامه بن جعفر قال: وهو أن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها فإن الفحول المجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه وربما صرعوا أبياتا آخر من القصيدة بعد البيت الأول، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره.

ومن الشعراء من ربما أغفل التصريع في البيت الأول فأتى به في بعض الأبيات من القصيدة فيما بعد وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك لأن بنية الشعر إنما هي التسجيع والتقفية فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كان أدخل في باب الشعر وأخرج له عن مذهب النثر.[1]

وعرفه ابن رشيق فقال: فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه

---

(١) نفسه ٢٣١.

تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته قال: واشتقاق التصريع من مصراعي الباب، ولذلك قيل لنصف البيت مصراع كأنه باب القصيدة ومدخلها، وقيل هو من الصرعين وهما طرفا النهار. ثم أشار ابن رشيق إلى سبب التصريع فقال: وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور، ولذلك وقع في أول الشعر وربما صرع الشاعر في غير الإبتداء وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة أو من وصف شيء إلى وصف شي آخر، فيأتي حينئذ بالتصريع إخبارا بذلك وتنبيها عليه. وقد كثر استعمالهم هذا حتى صرعوا في غير موضع التصريع، وهو دليل على قوة الطبع وكثرة المادة، إلا أنه إذا كثر في القصيدة دل على التكلف.[٢] وإذا لم يصرع الشاعر قصيدته كان كالمتسور الداخل من غير باب. ويرى ابن سنان الخفاجي أن التصريع إنما يحسن في أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره، ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة وقافيتها. كما يرى أن تكراره في القصيدة غير مرضي[٣]

وفي التصريع إذن ينهي الشاعر الشطر الأول من البيت بحرف الروي الذي تبني عليه القصيدة كلها مما يجعل البيت ذا قيمة صوتية وإيقاعية مزدوجة ، إذ يتناغم الحرف الأخير من الشطر الأول مع حرف الروي تناغما عذبا ونحصل على إيقاعين متساويين مقدارا ونغمة أحدهما ثابت الروي، والآخر متحرك الحرف الأخير في الشطر الأول، يأتي على فترات غير منتظمة في القصيدة، ولذا يكون التردد الموسيقي للأبيات واضحا جليا، وبهذا عد

---

(١) د. بدوي ؛بانه يعجم البلاغة العربية ١/ ٤١٥.

(٢) العمدة ١/ ١٧٣، ١٧٤.

(٣) معجم البلاغة العربية ١/ ٤١٧.

التصريع من أعلى المراتب الموسيقية في الشعر لأن النغمة الناشئة عن الروي هي الأساس، لأنها تتردد بانتظام بعد مقاطع صوتية وفواصل زمنية متواصلة، إضافة إلى أن الروي يعد صلب القافية، وركيزتها إلى الحد الذي أطلق عليه في بعض التصورات القافية، والروي هو الحرف الذي يتكرر في آخر كل بيت من أبيات القصيدة في عرف دارس الأدب العربي، وهذا الروي هو الذي ولد القيمة الإيقاعية للقافية حتى غدت تاج الإيقاع الشعري وهي لا تقف من هذا الايقاع موقف الحلية بل هي جزء لا ينفصم منه، إذ تمثل قضاياها جزءا من بنية الوزن الكامل تفسر من خلاله وتفسره فهما وجهان لعملة واحدة[١] وإذا كانت القافية وجئنا بحرف مشابه لحرف متكرر فيها في نهاية الشطر الأول منح القصيدة ثراء جماليا موسيقى وإيحاء ودلالة.[٢]

ولعل أكثر حروف الروي المصرعة في شعر الخليج الجاهلي الميم فاللام فالقاف فالياء، والدال والراء.

فمن أمثله الميم التي تكررت سبع مرات أو أكثر قول المخبل السعدي

ذكر الرباب وذكرها سقم　　　فصبا وليس لمن صبا حلم

ومن أمثلة اللام التي وردت خمس مرات أو أكثر قول عمرو بن قمئة

هل لا يهيج شوقك الطلل　　　أم لا يفرط شيخك الغزل

وقد وردت القاف مصرعة أربع مرات، من ذلك قول سلامة بن جندل.

هاج المنازل رحلة المشتاق　　　دمن وآيات لبثن بواقي

---

(١) أحمد كشك: القافيه تاج الإيقاع الشعري ٧، ٤٦.

(٢) الوصيفي: شعر بني عامر ٢٩٦.

ووردت الباء مصرعة ثلاث مرات أو أكثر . كقول أوس ابن حجر .

حلت تماضر بعـــد ربيــا فالغمـــر فالمرين فالســـقبا

ومن أمثلة الدال وقد جاءت مصرعــة ثلاث مرات أو أكثر قول الأسود ابن يعفر

نام الخلي وما أحـــس رقادي والهم محتضر لدي وسادي

واستعمل شعراء الخليج الجاهليــون الراء مصرعة ثلاث مرات وربما أكثر كقول المسيب بن علس

أصرمت حبل الوصل من فتر وهجرتها ولججت في الهجر

فمــا كدنا ننتهي من الإيقــاع الموسيقى للراء المشـبعة بالكسـر في نهاية الشطر الأول في كلمة (فتر) حتى أتت إلينا الراء المشبعة بالكسر كروي للبيت في كلمة (هجر)

وأكثر تصــريعهم وقع مفردا في مطالع قصــائدهم ومطولاتهم كما رأينا وأقله ورد مكررا في القصيدة الواحدة من ذلك قول المثقب العبدي

ألا إن هندا أمس رث جـــديدها وضننت ومــا كان المـتاع يئـودها

ولكــنهـــا مما تميـط بســـودها بشــاشــة أدنى خلة تســتفـيـدها

كــأن جنيبــا عند معــقد غــرزها تراوده عن نـفــســـه ويــريدها

تنبــع من أعطافـــهــا وجــلودها حميم وآضنت كالحـماليج قودها

ولعلنا نلحظ التناغم الإيقاعي للهاء المشـبعة بالمد في نهاية الشطر الأول من الأبيات مع حــرفي القافيــة، الوصل والخروج، في نهــاية البيت. ويزداد الإيقاع جمالا وتناغما إذا تكرر التناغم المســتمر لحرفي القافية الروي والردف

قبل الوصل والخروج، فالايقاع إذن ثلاثي النغمة الموسيقية، مصراع مشابه للوصل والخروج ثم روي وردف بإيقاع ثابت ثم وصل وخروج مشابهان للمصراع، ومن جملة هذا التناغم الموسيقي نحظى بهذا الجمال الإيقاعي المتدفق.

ومثل ذلك قول المثقب أيضا

ألا حيبا الدار المحيل رسومها تهيج علينا ما يهيج قديمها

سقى تلك من دار ومن حل ربعها ذهاب الغوادي وبلها ومديمها

ظللت أرد العين عن عبراتها إذا نزفت كانت سراعا جمومها

فقد استعمل الشاعر الأدوات الموسيقية السابقة ذاتها عدا البيت الثالث الذي خلا من الردف.

ولعل أكثر شعراء الخليج الجاهليين استخداما للتصريع أوس بن حجر الذي اشتمل ديوانه على ثلاث عشرة قصيدة كلها مصرعة. أما الحروف التي جاءت على هذا المنوال فهي الباء والحاء والدال والراء والعين والفاء واللام والميم والنون.

وأقل هؤلاء الشعراء استعمالاً للتصريع بنو عبد القيس يقول د عبد الحميد المعيني: وأما التصريع في الشعر العبدي فقد جاء نادرا.. وعندما أجرينا احصاء للمطالع المصرعة وجدنا أن جميع شعر العبديين باستثناء شعر المثقب ومفضلية الممزق ومرثية يزيد بن الخذاق وفائية ثعلبة بن عمرو ودالية جذل بن أشمط ورائيه مسعود بن سلامه جاء بدون تصريع. ويعلل المعيني ذلك فيقول: ولا نستغرب مثل هذه النتيجة التي نشير إلى أن أكثر من ستين قصيدة شعرية غير مصرعة. والسبب أيضا في ندرة هذه المطالع المصرعة يعود

إلى وفرة المقطوعات، كما أن المقطوعة لا تتسع للمقدمة كذلك لا يشترط في المقطوعة أن تكون مصرعة أما القصائد الطويلة التي جاءت بالتصريع مثل منصفة المفضل وأصمعية الممزق فالأمر فيهما أن تكون قد تشبهت بالمقطوعات فلم تصرع أو أن المفضل والممزق لم يصرعا في هاتين القصيدتين عزوفا عن التقليد الذي جرى عليه غيرهم من الشعراء.(١)

ب- القافية الداخلية أوالمزدوجة

هي المشاكلة بين الكلمتين الأخيرتين في البيت، بحيث يصبح وكأن له قافتين قافية داخلية وقافية خارجية ولذا يكون لدينا إيقاع منظم متتال يثري الدلالة الموسيقية والصوتية للبيت.(٢)

وكلما تكرر هذا اللون من الموسيقى الداخلية في بيتين أو ثلاثة أو أكثر من القصيدة زاد ذلك في قوتها الموسيقية.

فمن أمثلة القافية الداخلية المكررة في بيتين من القصيدة قول المفضل النكري.

فودعها وإن كانت أناة ... مبتلة لها خلق أنيق

فأشبعنا السباع وأشبعوها ... فراحت كلها تثق يفوق

ففي نهاية البيت الأول نجد قافتين هما « خلق وأنيق» وفي نهاية البيت الثاني كذلك (تنق ويفوق)

والشاعر هنا أحدث في نفس السامع جرسين موسيقين متتابعين ولم

(١) شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي.

(٢) شعر بني عامر ٣٠٢.

يدفعه إلى ذلـك إلا أنه يريد أن يرتفع بالصوت في منطقتين متـقاربين، وهو لذلك يخرجه هذا الاخراج المنظم المقطع تقطيعا صوتيا. ومثل هذا ما نراه في قول أوس بن حجر(١)

وبالأنيــعم يومــا قــد تحل به لدى خــزاز ومنهـا مـنظر كـيـر
مخلـفون ويقضي النـاس أمرهم غس الأمـانة صنبـور فـصنبـور

فالتشاكل بين الكلمتين «منظـر وكير» في البيت الأول وبين الكلمتين « صنبور فصنبور» في البيت الثاني ظاهر للعيان.

وربما تكرر هذا التشاكل في أربعة أبيات من القصيدة كما نرى في قول المثقب العبدي.

وآمت صودايح النهـار وأعرضت لوامع يـطوي ريطهــا وبرودها
قطعت بفـتــلاء اليـدين ذريعـة يغـول البـلاد سوقـهـا وبريدها
وأيقـنت إن شـــاء الاله بـأنه سـيـبلغني أجـلاها وقصـيـدها
فأنعم أبيت اللعن إنك أصـبحت لديك لكيـز كـهـلها ووليـدها

ونرى مثل هذا في الأصمعية ٨٥ من قصيدة عبد الله بن غنمة الضبي

وقد تكرر القافية الداخلية في خمسة أبيات أو أكثر من القصيدة كما في قول الحارث بن عباد.

قل لأم الأغــر تبكي بـجـيــرا حــيل بين الرجـال والأمـوال
أصـبـحت وائـل تعج من الحـر ب عـجـيج الجـمـال بالأثقـال

---

(١) ديوانه ٣٩.

قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني   لقــحت حرب وائـل عن حيـال

قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني   طال ليلى علـى الليـالي الطوال

قـــربا مـــربط النعـــامـــة مني   ليس قلـبي عن القـتـال بسـال

أما مجيء الـقافية الداخلية فـي بيت واحد فهو الأكثـر والأغلب فمن ذلك قول راشد اليشكري.

بنيت بثاج مجدلا من حجارة   لأجعله عزا على رغم من رغم

وقول سلامة بن جندل

فبت كأن الكأس طال اعتيادها   عليّ بصاف من رحيق مـــروق

وقول قيس بن عاصم

عصمنا تميما في الحروب فأصبحت   يلوذ بنا ذو ووفرها وفقيرهـا

إلا أن اقتصار التشاكل على بيت واحد جعله قليل الايحاء ضعيف الصدى.

جـ- الترصيع

له عدة تعريفات تتقارب في المعنى العام فمنهم من عرفه بقوله: هو أن يتوخى فيـه تصير مقـاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شـبيه به، أو من جنس واحد في التصريف وقيل أن يقسم الكاتب أو الشاعر عباراته إلى أقسام منفصلة ثم يجـعل كل لفظ منها في مقـابل لفظ الآخر يتفق مـعه في الوزن وحرف الروى. وقيل: هو توازن الألفاظ مع توافق الأعـجاز أو تقاربها(١).

---

(١) معجم البلاغة العربية ١/ ٢١٧.

وقيل هو ما يكون في حشو البيت من سجع[١] وربما أضفنا إلى هذه التعريفات تكرار الحروف والكلمات.

فمن ذلك قول المثقب العبدي[٢]

طرقت طلحة رحلي بعدما ... نام أصحابي وليلى لم أنم

طرقتنا ثم قلنا إذ أتت ... مرحبا بالزور لما أن ألم

فأجابت بصواب قولها ... من يجد يحمد ومن يبخل يذم

باكر الجفنة ربعي الندى ... حسن مجلسه غير لطم

ففي البيت الأول نلحظ انتهاء الكلمات (رحلي - أصحابي - ليلى) بياء المتكلم المكسورة، إلى جانب تكرار حرف الطاء في الشطر الأول وكلمة النوم في الشطر الثاني مما أكسب البيت الأول إيقاعا موسيقيا متجانسا.

وفي البيت الثاني اعتمد الشاعر على حركة الفتحة في الكلمتين المسجوعتين (طرقتنا - قلنا) وكلمتي (مرحبا ولما) التي جاءت القافية متجانسة مع الثانية فيهما، وأعطى تكرار أسلوب الشرط في الشطر الأخير من البيت الثالث جرسا موسيقيا ظاهرا للبيت.

واتكأ الشاعر في بيته الرابع على حركة الضمة في جمله الأربع المبنية على التقطيع الصوتي.

ويقول المثقب أيضا[١]

---

(١) المؤتلف والمختلف ٢٦.

(٢) ديوانه ٢٢٠.

(٣) السابق ٢١١.

فـــإمـــا أن تكون أخي بــحق فـأعرف منك غـثي من سمـيني
وإلا فـــاطرحنـي واتخـــذني عــدوا أتقـــيك وتتـــقـــيني

ففي الـبيت الأول أعطى تكرار ياء المتكلم في (أخــي وغثي وسمــيني) وتكرارها في البيت الثاني في (اطرحني - اتخذني - تتقيني) جرسا موسيقيا ظاهرا إلى جانب التجانس الصوتي والصرفي (اتقيك وتتقيني)

ويقول المتلمس الضبعي(١)

أغنيت شأني فأغنوا اليوم شأنكم واستحمقوا في مراس الحرب أو كيسوا
لن تسلكي سـبل البوباه منجـدة ما عاش عمرو وما عمرت قابوس
لم تدر بصري بما آلـيت من قسم ولا دمـشق إذا ديـس الكداديس
كم دون أسماء من مسـتعمل قذف ومن فـلاة بهـا تستـودع العـيس

فقد تركزت الموسيقى الداخلية لهذه الأبيات على تكرار الحرف والكلمة فـقد تكرر حـرف السين المفـعم بالموسـيـقى في هذه الأبيـات سبع مـرات، بالإضافة إلى تكرار بعض الكلمـات المتجانسة صرفيا وصوتيـا كما في البيت الأول.

ويقول المتلمس أيضا(٢)

جماد لها جمـــاد ولا تقـــولي لهـــا أبدا إذا ذكرت حمـــاد

فقد اسـتعمل صيغـة فعال ثلاث مرات انتـهت بحرف واحد هو الدال الواقع رويا مما منح البيت جرسا موسيقيا زاد من قوته تكرار (لها) مرتين.

---

(١) ديوانه ٧٦/ ٩٣.
(٢) ١٦٧.

وفي أبيات أخرى كرر المتلمس حرف السين ومثله حرف الراء سبع مرات في كل منهما. يقول[١]

لسن بقول الصيف حتى كأنما ... بألسنها من لسن حلبها الصقر

ومأطورة شد العسيفان أطرها ... إسارا وأطرا فاستوى الأطر والأسر

مما أضفى على هذين البيتين موسيقى داخلية واضحة.

واستعمل المسيب بن علس الترصيع عن طريق الحرف والكلمة المكررين فمن تكرار الحرف قوله:

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت ... بخميصة سرح اليدين وساع

صكا ذعلبة إذا استدبرها ... حرج إذا استقبلتها هلواع

فقد تكرر حرف التاء سبع مرات وحرف السين خمس مرات وحرف الراء أربع مرات وقد أعطت هذه الحروف المكرره البيتين زخما موسيقيا ظاهرا، كما أضاف الطباق في البيت الثاني بين استدبرتها واستقبلتها فاصلة موسيقية لافتة.

ومن تكرار الحرف أيضا قول المسيب[٢]

بكرت لتحزن عاشقا طفل ... وتباعدت وتخرم الوصل

كفاه مخلفة ومتلفة ... وعطاؤه متخرق جزل

متبعج التيار ذو حدب ... مغرورب تياره يعلو

---

(١) نفسه ٢٥٨/٢٦١.

(٢) ديوانه ١٢٢.

حيث تكرر حرف التاء تسع مرات، شكل في بعضها الفاظا مسجوعة كما في (بكرت - تباعدت) في البيت الأول، و (مخلفة - متلفة) في البيت الثاني، أما البيت الثالث فقد اشتمل على تكرار الكلمة كما في التيار وتياره.

ومن تكرار الكلمة القائم على الجناس الناقص الاشتقاقي قول المسيب[١]

أصرمت حبل الوصل من فتر   وهجرتها ولججت في الهجر

وسمعت حلفتها التي حلفت   إن كان سمعك غير ذي وقر

وجرت بهم سجحا جارية   تهوي بهم في لجة البحر

فقد تكررت كلمة الهجر والحلف والحرب تكرارا جناسيا كما تكرر حرف التاء احد عشر مرة، شكل في بعض الكلمات سجعا كما في (صرمت ولججت)

ومن تكرار الحرف والكلمة عند المسيب بن علس قوله[٢]

كلفت بليلى خدين الشباب   وعالجت منها زمانا خبالا

فإما ترين على آلة   رفضت الصبا ولبست السمالا

يسوم البرية سوم العزيز   وقد لبس الدهر حالا فحالا

فقد كرر الشاعر الألف وهي من حروف اللين - أربع عشرة مرة. وكرر اللام وهي حرف الروي ثلاث عشرة مرة، وكرر الباء وهي من حروف الشفه - ثماني مرات، وكرر الميم وهي من حروف الشفة أيضا - سبع

(١) ١٠٠.

(٢) ديوانه ١٢٦.

مرات، وكذلك النون مع التنوين والباء اللتين تكررتا سبع مرات، وكرر الياء - وهي من حروف اللين - ست مرات كما كرر الشاعر بعض الكلمات المشتركة في التصريف والمتماثلة كما في كلمتي (يسوم - وحال) وبذلك وفر المسيب لأبياته الثلاثة ألوانا من الات التنغيم .

ويجمع عبد القيس البرجمي في ترصيعه بين تكرار الحرف والكلمة فيقول(١)

صحوت وزايلني باطلي ... لعمر أبيك زيالا طويلا

وأصبحت لانزقا باللحا ... ولا للحوم صديقي أكولا

فأصبحت أعددت للنائبات ... عرضا بريئا وعضبا صقيلا

ولا سابقي كاشح نازح ... بذحل إذا ما طلبت الذحولا

فقد كرر الف المد واللين ست عشرة مره، وكرر الياء عشر مرات، والنون مع التنوين سبع مرات وكرر الحاء ست مرات، كما كرر التاء والصاد والواو خمس مرات، وقد كونت بعض هذه الحروف سجعا في الكلمات التي تألفت منها كأصبحت وأعددت وزايلني وباطلي وكاشح ونازح. أما الكلمات التي تكررت مؤلفة جناسا ناقصا فهي زايلني زيالا وذحل ودخول . وبذا يكون الشاعر قد وفر لأبياته الألات الموسيقية المؤلفة من الحروف والكلمات ويقول أوس الهجيمي(٢)

وإنك من هجاء بني تميم ... كمزدان الغرام إلى الغرام

هم منوا عليك فلم تثبهم ... فتيلا غير شتم أو خصام

فمن عليك أن الجلد واري ... غشيشها واحرام الطعام

(١) المفضلية ١١٧ .

(٢) المفضلية ١١٨ .

ويشكل أوس الهجيمي موسيقاه الترصيعية من بعض الحروف والكلمات، كحرف الميم الذي تكرر ثلاث عشرة مرة، وألف المد التي تكررت تسع مرات والنون الأصلية الزائدة التي تكررت اثنتي عشرة مرة، وحرف اللام الذي تكرر ست مرات، وحرفي التاء والياء اللذين، تكررا خمس مرات وقد كونت بعض هذه الحروف سجعا، ففي البيت الأول نرى (في - بني) وفي البيت الثاني (فلم - تشبهم)، و(شتم أو خصام) إلى جانب الموسيقى الناشئة عن القافية الداخلية كما في (الغرام إلى الغرام) في البيت الأول، و (احرام الطعام) في البيت الثالث.

ويشكل الأضبط بن قريع السعدي ترصيعه من الكلمات المكررة والمتجانسة والمتطابقة والمتقابلة فيقول[1]

لكل هم من الهموم سعه	والمسي والصبح لا فلاح معه
قد يجمع المال غير آكله	ويأكل المال غير من جمعه
فصل حبال البعيد إن وصل الحبل	وأقص القريب إن قطعه

فالبيت الأول جمع بين الجناس والطباق ، الجناس الناقص في الهم والهموم، والمطابقة بين المسى والصبح، والبيت الثاني اشتمل على العكس أما الثالث فقد بني على المقابلة حيث قابل الشاعر بين وصل البعيد الواصل وقطع القريب القاطع.

ويبني سلامه بن جندل السعدي ترصيعه على تكرير الكلمة والحرف فيقول:

---

(١) الأوائل ٢٥٨.

لو كنت أبكي للحمول لشاقني ... لليلى بأعلى الوادين حمول

أغر من الفتيان يهز للندى ... كما أهتز عضب باليمين صقيل

كأن المذاكي حين جد جميعنا ... رعيل وعول خلفهن وعول

فيبدأ هذه الأبيات باللام ويختمها بها، ويكرر استعمالها أربع عشرة مرة، بانيا عليها قافيته، كما يكرر حرف النون - وهو من حروف الغنة - أربع عشرة مرة أيضا، أما الياء وهي من حروف اللين - فقد كررها ثلاث عشرة مرة وكرر الألف الينة والمقصورة ثماني مرات، كما كرر الواو وهي من حروف اللين ست مرات. أما العين والكاف فقد كررهما الشاعر مرات خمس، وأما الكلمات التي تكررت فهي (حمول ووعول) - ومن المكرر جناسا (يهتز واهتز) ومن الكلمات المسجوعة (أبكي وشاقني - ليلى - وأعلى)

وفي أبيات ثلاثة أخرى لسلامه بن جندل يستعمل تكرار الكلمات والحروف يرصع بهما أسلوبه الموسيقي، ففي الأول كرر الأيام مرتين، وفي الثاني كرر لفظه أفلت وفي الثالث كرر كلمة لاقى. أما الحروف المكررة فقد كرر اللام اثنتي عشرة مرة والألف أحدى عشرة مرة والياء تسع مرات والتاء والميم ثماني مرات والقاف خمس مرات والعين والفاء أربع مرات والجيم ثلاث مرات. يقول:

ومن كان لا تعتد أيامه له ... فأيامنا عنا تجلي وتعرب

وأفلت منا الحوافزان كأنه ... برهوة قرن أفلت الخيل أعضب

لقوا مثلما لاقى اللجيمي قبله ... قتادة لما جاءنا وهو يطلب

ولعوف التيمي أبيات ثلاثة تموج بالموسيقى يقول:

همـا إبلان فيـهـما مـا علمـتم ... فـأدوهما إن شـئـتمـا أن نسـالما
فـإن شـئتم الـقتـحم ونتـجـتم ... وإن شئـتم عينا بـعين كما هـما
بودهـم لاقـــــرب اللـه ودهم ... ولا زال معطيهم من الخير حارما

ففي البـيت الأول أعطى تكرار ضميـر الغائب المثنى جرسـا موسيقـيا ظاهرا، وضاعف مـن ذلك تكرار الميم في علمتم وشـئتم كمـا أعطى تكرار الميم في البيت الثاني نغما موسيقيا قويا زاد في قوته تكرار الفعل شئتم، وفي البيت الثالث مـنح تكرار ودهم مرتين والطباق في معطي وحـارم للبيت قوة موسـيقيـة عذبة. وقـد أثر في ذلك تكرار أسلوب الشرط والدعـاء. ولعبت بعض الحـروف دورا يارزا في البناء الموسيـقي للأبيات. وأهمـها الميم والـتاء حيث تكررت ست عـشرة مرة في هذه الأبيات من القـصيدة الميمـية والألف التي تكررت عشـر مرات وتاء الخطاب التي تكررت ست مـرات والعين التي تكررت مرات أربع كما نراها في لفظي (عينا بعين) اللتين لا يخطيء الأذن ما أحدثه فيهما من أثر موسيقي

ويجعل مـحرز الضـبي من الهمزة حـجر الزاوية في بنائه الـفني لهذه الأبيات التي يقول فيها

أخبـر من لاقيت أن قد وفيـتهم ... ولو شـئت قـال المنبـئون أسـاؤا
لهم ريثـه تعـلو صـريمة أمـرهم ... وللأمـر يومـا راحـة فـقـضـاء
فهلا سـعيتم سعي عصـبة مازن ... وهل كـفلائي فـي الوفاء سـواء

فالهمزة هي محور القصيدة وقد تكررت أحد عشر مرة كما تكرر حرف اللام أحـد عشـرة مرة، كـما كـان لحرف التـاء دور في هذه الأبيات حـيث تكررت تسع مرات، وتشكل منها جـمل موسيقية مسجـوعة مثل (لاقيت -

شئت) في البيت الأول، وتكرر حرف الميم ثماني مرات، وحرف الراء تكرر ست مرات، أما حرف السين فقد تكرر أربع مرات. ومن هذه الحروف جاء بعض الكلمات مكررة ومتجانسة كالأمر في البيت الثاني وسعي في البيت الثالث، وجاء الروي مردوفا بالألف، فضاعف في موسيقى الأبيات.

ويوفر عبد الله النكري موسيقى مزدوجة في بيتين من شعره مثلت فيهما الكلمات والحروف نغما قويا ظاهرا، حيث كرر الشاعر الحماية بصيغة الفعل المضارع في الشطر الأول من البيت الأول وبصيغة المصدر في الشطر الثاني منه، كما كرر الفعل المضارع (يطلبوا) في الشطرين من البيت الثاني. أما عن الحروف فقد اتكأ الشاعر في البيت الأول على حرف الحاء، وفي البيت الثاني على حرف الباء يقول:

أحمي أناسي أن يباح حريمهم   وهم كذاك إذا عنيت حماتي
إن يطلبوا بجريرة يأتونها   أو يطلبوا لا يدركوا بترات

ومثل ذلك ما نراه في قول المثقب العبدي

كأني أقاسي من سوابق عبرة   ومن ليلة قد ضاف صدري همومها
كأني وأقتادي على حمشة الشوى   يجور صراري بها ويقيمها

حيث أعطى تكرار ياء المتكلم في كأني وأقاسي وصدري جرسا صوتيا ظاهرا بتتابع حرف الياء وحركة الكسر، كما منح التنوين في عبرة وليلة من البيت الأول جرسا إضافيا، وفي البيت الثاني نجد في تكرار ياء المتكلم في كأني وأقتادي نفس الجرس الموسيقي السابق، إضافة إلى الطباق الناشيء من يجور ويقيم.

ويقول حجية بن المضرب، حليف بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان

فإن تقعدني فأنت بعض عيالنا وإن أنت لم ترضي بذلك فاذهبي

حيث أدى توافق الكلمات في تقعدي وترضي واذهبي في حرف الياء ياء المخاطبة إلى تنغيم البيت، وضاعف من ذلك النغم توافق أكثر كلمات البيت في حركة الكسر ويقول بشامه النهشلي

إنا محيوك يا سلمى فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا نأسوا بأموالنا آثار أيدينا

فقد رصع بيتيه بتكرير كلمتي الحياة والسقيا، وضاعف من قوة الموسيقى كون البيتين جاءا مصرعين حيث اتفق الحرف الأخير من الشطر الأول مع الحرف الأخير من الشطر الثاني في النون المطلقة، وبالتقطيع الصوتي للجمل في البيت الثاني الذي انتهت جملة الأربع بضمير المتكلمين.

ويقول عدي بن يزيد السكوني[١]

إني حمدت بني شيبان إذ خمدت نيران قومي وفيهم شبت النار

ومن تكرمهم في المحل أنهم لا يشعر الجار فيهم أنه الجار

حيث تتمثل نقاط القوة الموسيقية في اتفاق كلمتي (إني - بني) في النون والياء الساكنة، وفي (شيبان - نيران) في النون، كما اتفقت كلمتا (خمدت - شبت) في التاء الساكنة وفي البيت الثاني تمثلت القوة الموسيقية في تكرير الجار.

وقد يأتي الترصيع مقطعي أي في نهاية جملتين متتاليتين من ذلك قول أوس بن حجر

(١) المؤتلف والمختلف ٩٢.

فمن بنجوته كمن بمحفله والمستكن كمن يمشي بقرواح
هدلا مشافرها بحا حناجرها تزجي مرابعها في صحصح ضاحي

فقد قام الترصيع المقطعي في هذا المثال على تكرار الحروف والأسماء والضمائر والحركات حيث تكرر اسم الموصول (من) ثلاث مرات، وتكررت كاف التشبيه مرتان، وتكرر ضمير الغائب مرتان والغائبة، ثلاث مرات. وفي البيت الأول سيطرت حركة الكسر على الاسم والفعل، فنحن نرى التوافق الصوتي بين جملتي الشطرين الأولين من البيتين حيث توافقت جملتا الشطر الأول من البيت الأول في ضمير الغائب المذكر، وزاد من قوة إيقاعه توافق حركتهما مع حركة حرف الروي وهي الكسرة، كما انتهت جملتا الشطر الأول من البيت الثاني بضمير الغائبة ، وزاد من إيقاعهما توافقهما مع الجملة الأولى من الشطر الثاني.

ومثل ذلك قول أوس بن حجر - أيضا - الذي جاء ترصيعه مقطعيا حيث توافقت جمل الشطرين الأولين في التاء المربوطة، كما توافقت في الحركات وهي الضمة، مما كثف من صداها الموسيقي، ولا يخفى ما أحدثه تكرار حرف الراء الذي تكرر سبع مرات حيث كان مركز الموسيقى الخارجية بوصفه حرف الروي كما كان لحرف السين الذي تردد في كلمتي (اسكاته ونفاس) موسيقى واضحة.(١)

ومن ذلك قول طرفه بن العبد

بطيء عن الجلي سريع إلى الخنى ذلول بإجماع الرجال ملهد

حيث اشتركت الكلمتان (الجلي والخنى) في ألف التأنيث المقصورة مما أعطى نغما موسيقيا واضحا، وقد زاد من نبرة الموسيقى وجود الطباق في (بطيءٌ وسريعٌ) واتفاقهما في حركة التنوين المضمومة، وكذلك تكرار حرف

(١) المثال في صفحه ٢٧٧ من هذا الكتاب.

الجر (إلى)

ومن الترصيع المقطعي قول عمرو بن الأسود[١]

فـإذا أمـرتك بعـدهـا فـتـبـيني	أو أقـدمي يوم الكريهـة مقـدمي
وجعلت نحـري تحت بلدة نحره	ولبان مهـري إذ أقول له اقدمي
ومـحلمـا يمشـون تحت لوائهم	والموت تحـت لواء ال مـحـلم

حيث تتفق نهاية الجملتين (تبيني وأقدمي) في حرف الياء وحركتي الكسرة والسكون في البيت الأول كما اتفقت نهاية جملتي (نحري ومهري) في حرف الراء وحركة السكون في البيت الثاني، وكذلك نهاية جملتي (لوائهم ومحلم) في البيت الثالث حيث تتفق الكلمتان في الميم المكسورة كما أكسب التكرار لمقدم ونحر ومحلم ولواء مزيدا من القوة الموسيقية.

د- المصراع المغاير للروي

ويقصد به الأبيات الشعرية المتتالية التي تتحد في المصراع، ويكون حرف الروي مختلفا عن المصراع[٢] كقول المثقب العبدي

ألخـيـر الذي أنا ابتـغـيـه	أم الشـر الـذي هو يبـتـغـيني
دعي مـاذا علمت سـأتقيـه	ولكـن بالمغـيب نبـئـيني

فاتحاد آخري المصراعين الأولين في البيت الأول (ابتغيه) وفي الثاني (سأتقيه) أعطي نغما موسيقيا بالاضافة إلى النغم الناشيء عن تكرار حرف الروي وهو النون المشبعة بالياء.

---

(١) الأصمعية ٢١.

(٢) شعر بني عامر ٢٩٨.

وهذا اللون لا يقل أهمية من حيث التناغم الموسيقي عن التصرمع، فاختلاف المصراع عن الروي يجعل التناغم أشمل وأوثق بين الأبيات التي تتحد في المصراع فيتولد التردد الموسيقي[١]

وقد دار هذا اللون الموسيقي من المصراع المغاير للروي أكثر ما دار على ضمير الغيبة بشقيه المذكر والمؤنث.

ولعل أكثر شعراء الخليج الجاهليين استعمالا لهذا الضمير هو أوس بن حجر، إلا أن ضمير الغائب المؤنث غلب على المذكر في شعره. ففي دالية له مدح بها حليمة بنت فضالة بن كلدة. يحلي ثلاثة منها بالمصراع المغاير للروي حيث يختم صدور هذه الأبيات بضمير الغائب المؤنث ليشكل من ذلك جوقه موسيقية عذبة إلى جانب الموسيقى الخارجية الناشئة عن تكرار حرف الروي (الدال) المكسورة يقول[٢]

وقد غبرت شهري ربيع كليهما بحمل البلايا والحباء الممدد

ولم تلههـا تلك التكاليف إنها كما شئت من أكرومة وتخرد

هي ابنة أعراق كرام نمينها إلى خلق عف برازته قد

فالعروض في البيت الأول (كليهما) وفي البيت الثاني (إنها) وفي البيت الثالث (نمينها) والضرب في الأبيات كلها ينتهي بالدال المشبعة بالكسر وهي حرف الروي، وعندما نفرغ من قراءة البيت الأول بعروضه وضربه ونبدأ في قراءة البيت الثاني نستشعر جمالا موسيقيا ظاهرا عند تكرار الهاء ، ويزداد الايقاع الموسيقى جمالا عندما نصل إلى الروي في نهاية البيت الثاني، لأن إيقاعه ما زال في آذاننا من البيت الأول.

---

(١) نفسه.

(٢) ديوانه ٢٦.

وفي قصيدة أوس التي بدأها بالنسيب والحكمة ووصف فيها أدوات الحرب والسلا ح استعمل المصراع المغاير للروي في اثني عشر بيتا من مجموع أبيات القصيدة التي بلغت اثنين وخمسين بيتا. وقد جمع فيها بين ضمير الغائب المذكر والمؤنث، أما المذكر فقد جاء في أربعة أبيات كل اثنين على حده، وأما المؤنث فقد جاء في ثمانية أبيات اثنين منها على حدة وستة على حده وتمثل لكل من اللونين بيتين. يقول أوس[١]

أصم ردينيا كأن كعوبه نوى القسب عراصا مز جا منصلا

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

فقد استعمل ضمير الغائب المذكر في الكلمتين الأخيرتين من صدري البيتين (كعوبه) و (يشبه) فألف بذلك نغما موسيقيا إلى جانب النغم الناشيء عن تكرار حرف الروي وهو اللام المشبعة بالألف. ويقول أيضا

كأن قرون الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طلقا من النجم أعزلا

تردد فيه ضوؤها وشعاعها فأحسن وأزين لامريء أن تسربلا

حيث استخدم ضمير الغائب المؤنث في اللفظتين الأخيرتين من الشطرين الأولين، وهما (ارتفاعها) و (شعاعها) فجمع بذلك بين نغمتين داخلية وخارجية.

وكذلك جمع أوس من خلال المصراع المغاير للروي في قصيدته التي بلغت واحد وأربعين بيتا بين ضمير الغائب المذكر والمؤنث، وذلك عند حديثه عن الناقة والثور وكلاب الصيد، حيث كرر الشاعر ضمير الغيبة المؤنث في قوله[٢]

---

(١) ديوانه ٨٣.

(٢) السابق ٤١.

وفارقت وهي لم تجرب وباع لها   من الفصافص بالنمي سفسير
أبقي التهجر منها بعد كدنتها   من المحالة ما يشغى به الكور

وقوله:

حتى إذا قلت نالته أوائلها   ولو يشاء لنجته المثابير
كر عليها ولم يفشل يهارشها   كأنه بتواليهن مسرور

فقد ورد في الأبيات الأربعة السابقة ضمير الغائب المؤنثة (الهاء) مما وفر نغما موسيقيا ظاهرا، إلى جانب تكرار حرف الروي (الراء) المضمومة وما صحبه من نغم خارجي.

كما ردد أوس ضمير الغائب المذكر في قوله

نكبتها ماءهم لما رأيتهم   صهب السبال بأيديهم بيازير
مخلفون ويقضي الناس أمرهم   غس الأمانة صنبور فصنبور
لولا الهمام لقد خفت نعامتهم   وقال راكبهم في عصبة سيروا

حيث توج أواخر الأشطر الأولى بالضمير (هم) مما أضفى على الأبيات موسيقى داخلية جميلة تظافر على قوتها حرف الروي الموحد للقصيدة وهو الراء المضمومة وفي بائية أوس التي بلغت أربعة وعشرين بيتا استخدم المصراع المغاير للروي في أبيات ستة منها، وصف فيها الآل وسرعة الناقة والثور الوحشي وكلاب الصيد، فقد ختم المصاريع الأولى لهذه الأبيات بضمير الغائب المؤنث في قوله[١]

---

(١) السابق ٢.

وكست لوامعه جوانبها ... قصصا وكان لإكمها سببا
خلطت إذا ما السير جدبها ... مع لينها بمراحها غضبا
وكأن أقتادي رميت بها ... بعد الكلال ملمعا شببا

وقوله

حتى إذا الكلاب قال لها ... كاليوم مطلوبا ولا طلبا
ذكر القتال لها فراجعها ... عن نفسه ونفوسها ندبا
فنجا بشرته لسابقها ... حتى إذا ما روقه اختضبا

فاتحدت هذه المصاريع في حرف الهاء، مما منحها جرسا موسيقيا ظاهرا يضاف إلى روي القصيدة الباء المشبعة بالألف.

وربما جمع أوس بن حجر بين أكثر من حرف وأكثر من ضمير في فائيته الهجائية حيث بني الشاعر مصراعه المغاير للروي على تاء التأنيث وضمير الغائب المؤنث والمذكر، ففي الحرف الأول يقول(١)

وحلأها حتى إذا هي أحنقت ... وأشرف فوق الحالبين الشراسف
وخب سفا قربانه وتوقدت ... عليه من الصمانتين الأصالف

فقد كرر الشاعر حرف التاء في نهاية المصراعين الأولين مما منح البيتين هذه الموسيقى الداخلية، إلى حانب حرف الروي المكرر وهو الفاء الذي بنيت عليه القصيدة.

وفي الحرف الثاني يقول:

---

(١) السابق ٦٦.

تزل قتود الرحل عن دأياتها كما زل عن رأس الشجيج المحارف

إذا ما ركاب القوم زبل بينها سرى الليل منها مستكين وصارف

حيث ختم أوس بضمير الغائب المؤنث مصراعي البيتين الأولين مما أضفى على البيتن موسيقى مزدوجة .

وحول ضمير الغائب المذكر يقول أوس:

صد غائر العينين شقق لحمه سمائم قيظ فهو أسود ساشف

أزب ظهور الساعدين عظامه على قدر شثن البنان جنادف

أخو قترات قد تيقن أنسه إذا لم يصب لحما من الوحش خاسف

معاود قتل الهاديات شواؤه من اللحم قصري بادن وطفا طف

فالشاعر كما رأينا جعل خواتيم المصاريع الأولى لهذه الأبيات ضمير الغائب المذكر (الهاء)، وكأنه بذلك يريد أن يوفر لأبياته موسيقى مزدوجة داخلية وخارجية.

ولم ينفرد أوس بن حجر من شعراء الخليج الجاهليين باستخدام المصرع المغاير للروي بل سبقه إلى ذلك شعراء آخرون، منهم المثقب العبدي والمتلمس الضبعي والحارث بن حلزه وعمرو بن قمئة وعمرو بن مالك الضبعي والمرقش الأكبر. وقد بنوا مصراعهم المغاير للروي على حروف أهمها الهاء والكاف والتاء، إلا أن أكثر هذه الحروف استعمالا هو ضمير الغائب المذكر الذي كرر استعماله على وجه الخصوص المثقب العبدي من ذلك قوله[1]

---

(١) ديوانه ٥٢.

بالمربأ المرهوب أعلامه ... بالمفرع الكائبة الأكبد
لما رأى فاليه ما عنده ... أعجب ذا الروحة والمغتدي

فتكرار الهاء في نهاية الشطرين الأولين كون هذه الموسيقى الداخلية التي يطلق عليها المصراع المغاير للروي، والروي الذي هو حرف الدال في هذه القصيدة يمثل الموسيقى الخارجية.

ومن ذلك أيضا قوله(١)

وأيقنت إن شاء الإله بأنه ... سيبلغني أجلادها وقصيدها
فإن أبا قابوس عندي بلاؤه ... جزاء بنعمي لا يحل كنسودها

فالهاء المكررة في (أنه) و (بلاؤه) أضاف موسيقى ظاهرة إلى موسيقى حرف الروي المتكرر (الدال) كما استعمل المثقب العبدي ضمير الغائب المؤنث في قوله(٢)

ألا حييا الدار المحيل رسومها ... تهيج علينا ما يهيج قديمها
سقى تلك من دار ومن حل ربعها ... ذهاب الغوادي وبلها ومديمها

وقد جمع المثقب في هذا المثال بين التصريع والمصراع المغاير للروي مما كثف الموسيقى.

واستخدم المثقب العبدي تاء التأنيث المربوطة في المصراع المغاير للروي، إلا أن اختلاف الحركة بين التاء الأولى المكسورة والتاء الثانية المضمومة أضعف من موسيقى المصراع مما جعله كالإقواء الذين يقع في الروي عند اختلاف حركته . يقول(٣):

---

(١) نفسه ١٠١.

(٢) نفسه ٢٣٤.

(٣) ديوانه ١٠٦.

وأي أناس لا يبيح بقتلة ... يؤازي كبيدات السماء عمودها
وجأوا فيها كوكب الموت فخمة ... تقمص بالأرض الفضاء وئيدها

أما المتلمس الضبعي فقد استعمل من الحروف في المصراع المغاير للروي كاف الخطاب وهاء الغائبة وتاء التأنيث المربوطة يقول في الأول[(١)]

يا آل بكر ألا لله أمكم ... طال الثواء وثوب العجز ملبوس
أغنيت شأني فأغنوا اليوم شأنكم ... واستحمقوا في مراس الحرب أوكيسوا
عيرتموني بلا ذنب جواركم ... هذا نصيب من الجيران محسوس
فإن تبدلت من قومي عديكم ... إني إذاً لضعيف الرأي مألوس

فنجد كاف الخطاب وميم الجمع في نهاية المصاريع الأولى من هذه الأبيات، مما أكسبها موسيقى ظاهرة إلى جانب حرف الروي المتكرر في جميع قوافي الأبيات وهو حرف السين. كما أن تكرار بعض الكلمات في هذه الأبيات زاد من جمال موسيقيتها. واستعمل المتلمس كاف الخطاب وميم الجمع في أبيات أخرى يقول فيها[(٢)]

ابني قلابة لم تكن عاداتكم ... أخذ الدنية قبل خطة معضد
لن يرحض السؤات عن أحسابكم ... نعم الحواثر إذ تساق لمعبد
فالعبد عبدكم اقتلوا بأخيكم ... كالعير أعرض جنبه للمطرد

فتكرار الكاف وميم الجمع في خواتيم الأشطر الأولى منح أبياتها موسيقى واضحة، بالاضافة إلى تكرار حرف الدال في قوافي القصيدة وهو

---

(١) ديوانه ٧٦.
(٢) ديوانه ١٤٩.

حرف الروي.

واستخدم المتلمس تاء التأنيث المربوطة فيما يسمى باتحاد المصراع أو المصراع المغاير للروي. يقول [١]

أعاذل إن المرء رهن مصيبة ... صريع لعافي الطير أو سوف يرمس

فلا تقبلن ضيما مخافة ميتة ... وموتن بها حرا وجلدك أملس

ففي (مصيبة وميتة) نغم موسيقي عذب بتكرار تاء التأنيث المربوطة فيهما.

كما استعمل المتلمس ضمير المؤنث الغائب في قوله [٢]

وجناء قد طبخ الهواجر لحمها ... وكأن نقيتها أديم أملس

وتكاد من جزع يطير فؤادها ... إن صاح مكاء الضحى متنكس

فهذه الهاء التي تكررت في نهاية هذين الشطرين كونت هذه الموسيقى الجميلة وأضافت إلى حرف الروي السين موسيقى ظاهرة.

واستخدم المرقش الأكبر ضمير الغائب المذكر في قوله:

فيارب شلو تخطر فته ... كريم لدى مزحف أو مكر

وآخر شاص ترى جلده ... كقشر القتادة غب المطر

فتكرار الهاء في الكلمتين الأخيرتين من هذين البيتين منحهما موسيقى ظاهرة إلى جانب الموسيقى الناشئة عن تكرار حرف الروي وهوالسين

---

(١) نفسه ١١٠.

(٢) ديوانه ١٨٣.

كما استعمل المرقش الأكبر الهاء وميم الجمع في قوله

لسنا كأقوام طعامهم ... كسب الخنا ونهكة المحرم

إن يخصبوا يعيوا بخصبهم ... أو يجدبوا فهم به الأم

فوفر في هذين البيتين موسيقى مزدوجة من اجتماع المصراع المغاير للروي، مع حرف الروي المتكرر في جميع أبيات القصيدة وهو حرف الميم.

واستعمل عمرو بن مالك بن ضبيعة حرف الهاء كمصراع مغاير للروي في قوله.

ويزري بعقل المرء قلة ماله ... وإن كان أقوى من رجال وأحيلا

فإن الفتى ذا الحزم رام بنفسه ... جواشن هذا الليل كي يتمولا

فتكرار الهاء في (ماله ونفسه) أعطى البيتين موسيقى واضحة مضافة إلى حرف الروي وهو اللام.

وربما استعمل بعض شعراء الخليج الجاهليين المصراع المغاير للروي المزدوج، كقول أوس بن حجر .

يخالط منها لينها عجر فيه ... إذا لم يكن في المقرفات عجارف

كأن ونى خانت به من نظامها ... معاقد فارفضت بهن الطوائف

كأن كحيلا معقدا أو عنية ... على رجع ذفراها من الليت واكف

ينقر طير الماء منها صريفها ... صريف محال أقلقته الخطاطف

فاتحاد المصراع في البيتين الأول والثالث (عجر فيه - عنية) وكذلك في البيتين (الثاني والرابع (نظامها و صريفها) أشعرنا بنوع من التبادل الموسيقي الناشيء عن التردد المتغير المنتظم للمصراع، فتبادل الايقاع ما بين (صريفها وعنية) وما بين الروي للأبيات منحها نغما موسيقيا لافتا.

هـ- التشطير:

له أكثر من تعريف فمنهم من قال: هو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ولكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفا فيه الآخر. وعند أبي هلال العسكري: هو أن يتوازى المصراعان والجزءان وتتعادل أقسامهما مع قيام كل منهما بنفسه واستغنائه عن صاحبه.(١)

ولعل المأثور من هذا اللون الموسيقي في شعر الخليج الجاهلي هو ما ينسحب عليه تعريف العسكري. وهو تقابل مصراعي البيت والتوازن الموسيقي الناشيء عن تلك المقابلة.

فمن أمثلته قول عمرو بن قمئة البكري

تحن حنينا إلى مالك　　　فحني حنينك إني معالي
إلى دار قوم حسان الوجوه　　　عظام القباب طوال العوالي

فقد استطاع الشاعر أن يعادل بين أجزاء البيتين ويوازن بين شطريهما، وأن يجعل كل شطر منهما مستغن بمعناه عن الآخر. وزاد من ثراء الموسيقى في هذين البيتين اتحاد حركة المصراعين مع حرف الروي وهي حركة الكسر، وتكرار الحنين أربع مرات. ويقول المرقش الأصغر(٢)

غدونا بصاف كالعسيب مجلل　　　طويناه حينا فهو شزب ملوح
أسيل نبيل ليس فيه معابة　　　كميت كلون الصرف أرجل أقرح
ويسبق مطرودا ويلحق طاردا　　　ويخرج من غم المضيق ويجرح

---

(١) معجم البلاغة العربية ١/ ٢٨٢.

(٢) المفضلية ٥٥.

فقد قسم الشاعر أبياته الثلاثة تقسيما عادلا بين أشطره جاعلا كل شطر منهما مستقلا عن الآخر بمعناه، ومن هذا التقسيم المتوازن بين الأشطر نشأت موسيقى التشطير، وقد رفع من نبرتها الترصيع في أول البيت الثاني (أسيل نبيل) وتكرير الكلمة في الشطر الأول من البيت الثالث (مطرودا وطاردا) ويقول [١]

متى ما يشأذو الود يصرم خليله	ويغضب عليه لا محالة ظالما
فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره	ومن يغو لا يعدم على الغي لائما
أمن حلم أصبحت تسكت واجما	وقد تعتري الأحلام من كان نائما

فقد استغنى كل شطر من هذه الأشطر الثلاثة بمعناه عن الآخر، وتوازنت مصاريعه توازنا قام أوسطها على التقابل، فكانت موسيقى التشطير قوية ظاهرة.

ويقول طرفة بن العبد[٢]

يكشفون الضر عن ذي ضرهم	ويبرون على الآلي المبر
فضل أحلامهم عن جارهم	رحب الأذرع بالخير آمر
لا يلحون على غارمهم	وعلي الأيسار تيسير العسر

فقد استطاع الشاعر أن يبني موسيقى هذه الأبيات على التشطير فصارت الأشطار الأولى لكل منها مستقلة بمعانيها عن الأشطار الأخرى، وأصبحت متعادلة الأجزاء ومما قوي من النبر الصوتي فيها اشتراك العروض والضرب فيهما في السكون، إلى جانب اشتمال البيت الأول على التكرار الصوتي

(١) شعراء النصرانية ٣٢٩.

(٢) ديوانه ٥٦.

(الضر والبر) وهو حرف الراء ومثل ذلك قوله أيضا (١)

يزعـون الجـهل في مـجلسـهم وهم أنصـار ذي الحلم الصـمـد
سـمـحاء الفـقـر أجـواد الغنى سـادة الشـيب مـخـازيق المرد

فنرى الأشطار متوازنة الأقسام متعادلة الأجزاء، وكل منها ينتهي بالسكون، بالإضافة إلى التقطيع الصوتي والموضعي في البيت الثاني

ويقول المثقب العبدي (٢)

واضح الوجـه كـريم نجـره ملك السيف إلى بطن العشـر
باحـري الـدم مـر طعـمـه يبـريء الكلب إذا عـض وهر
فـجزاه الله مـن ذي نعـمـة وجـزاه الله إن عـبـد كـفـر

فنراه يستعمل موسيقى التشطير في هـذه الأبيات معادلا بين أجـزائها وجاعـلا معنى كل شطر مستقلا عن الآخـر، وقد ساعـد تكرار الجملة في البيت الأخير على تكثيف الايقاع ويقول سلامة بن جندل السعدي

أودى الشباب حميـدا ذو التعاجيب أودى وذلك شـأو غيـر مطلوب
ولي حثـيثـا وهذا الشيب يطـلبه لو كان يدركـه ركض اليعـاقيب
أودى الشباب الذي مجـد عواقبه فـيـه تلـذ ولا لذات للشـيب

والتشـطير واضح في هذه الأبيـات، حيث اعـتدلت أقسـا م الأشطر، واستغنى كل واحـد فيها بمعناه عن الآخر، وقد أثرت الموسيقى الداخلية في الأبيات التكرير الصوتي لبعض الـكلمات مثل أودى في البيت الأول، واللذه في البيت الثالث.

---

(١) ديوانه ٥٣.
(٢) ديوانه ٧٨.

ويقول سلامه أيضا[١]

ألا هل أتت أنباؤنا أهل مأرب　　كما قد أتت أهل الدنا والخورنق

بأنا منعنا بالفروق نساءنا　　ونحن قتلنا من أتانا بملزق

وعلى الرغم من وجود ارتباط بين البيت الأول والثاني إلا أن كل شطر منهما قد استقل بمعناه فحدث التوازن الموسيقي بينها على إثر ذلك إلى جانب تكرار الفعل الماضي (أتى) في البيت الأول.

ويقول سبيع بن الخطيم التيمي:

بانت صدوف فقلبه مخطوف　　ونأت بجانبها عليك صدوف

واستبدلت غيري وفارق أهلها　　إن الغني على الفقير عنيف

فاستعجمت وتتابعت عبراتها　　إن الكريم لما ألم عروف[٢]

فيشطر أبياته إلى أجزاء موسيقية متوازنة كل جزء منها استغنى بمعناه عن الجزء الآخر، وقد رفع الترصيع في الشطر الأول من البيت الأول من النبر الموسيقي، كما جاء الشطران الآخران في البيت الثاني والثالث فيما يشبه الحكمة، واتسمت الأبيات الثلاثة بالتذييل وهو لون من ألوان الأطناب.

ويقول عبد القيس بن خفاف البرجمي[٣]

وصل المواصل ما صفالك وده　　واحذر حبال الخائن المتبدل

واترك محل السوء لا تحلل به　　وإذا نبابك منزل فتحول

وإذا هممت بأمر شر فاتئد　　وإذا هممت بأمر خير فافعل

---

(١) ديوانه ١٥٨.　　(٢) المفضلية ١١٢.

(٣) نفسه ١١٦.

فهذه الأبيات الثلاثة وردت في سياق الوصية أو النصيحة، وهي فرع من الحكمة، وقد بنيت على التشطير الذي جعل كل شطر قائما بمعناه ومستقلا بلون من النصح، فمنح الشاعر الفرصة في تعدد الوان النصيحة، كما بنى الشاعر أبياته على التكرار الصوتي في كل شطر منها، مما جعل الأبيات تموج بالتدفق الموسيقي.



الخاتمة

في نهاية صفحات هذا الكتاب أشير إلى النقاط الرئيسية وخلاصة النتائج، فقد بدأ الفصل الأول بأسماء الخليج وكان الاسم الذي ترجح عند جل الباحثين المنصفين هو (الخليج العربى) ثم تناول الكتاب حدود الخليج وأقسامه الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية، وأن العرب القدماء كانوا يعدون الخليج منطقة مستقلة من مناطق الجزيرة العربية لها طبيعتها الخاصة وخصائصها الجغرافية[1] ثم تضمنت الدراسة معنى الجاهلية الدائر حول الناحية النفسية والخلقية غالبا كالطيش والسفه والنزق والتهور والاسراف.

أما الفصل الثاني فقد تحدث عن القبائل العربية التي استوطنت الخليج، ومنها قضاعة والأزد وإياد ثم تميم وبكر وتغلب ثم عبد القيس، ومن غير العرب جاليات أهمها الفرس، ثم تحدث الكتاب عن القوانين الجاهلية للمجتمع الخليجي، وكان أساسها العصبية القبلية، وقانون الثأر وقانون الجوار.

وفي الفصل الثالث تحدث الكتاب عن الممالك و القبائل في الخليج وعلاقتها ببعض كمملكة فارس ولخم وكنده، وعن رؤساء القبائل الخليجيين في الجاهلية، وعن العلاقات بين القبائل التي كان مدارها على الأيام والحروب في أكثر الأحوال ثم الأحلاف وأيامها.

وفي الفصل الرابع تحدث الكتاب عن الصناعة والزراعة والتجارة و

---

(١) قدري قلعجي: الخليج العربي ١٠ - دار الكتاب العربي.

الأسواق وعن الغزو بوصفه وسيلة من وسائل العيش في الجاهلية، وتحدث الكتاب في الفصل الخامس عن الأديان في الخليج الجاهلي فكان أكثرها الوثنية ثم النصرانية وأقلها اليهودية و الحنيفية تلك كانت عناوين الباب الأول من هذا الكتاب .

أما الباب الثاني فقد تناول الفصل الأول منه موضوع الطبيعة والنسيب، ودار الأول حول وصف الطبيعة الحية وأهمها الناقة والفرس، والطبيعة الساكنة وأهمها الأطلال، أما النسيب فقد تناول محاسن المرأ ه والظعن والشوق والغزل القصصي ، وفي الفصل الثاني تناول الكتاب الفخر والحماسة الذي دار حول الفخر الشخصي والملون والقبلي وهو الغالب، وكان معظم فخرهم يدور حول الشجاعة والكرم، وتناول الفصل الثالث العتاب والهجاء حيث عاتب الشعراء قبائلهم و هجوا القبائل الأخرى، كما هجوا الملوك الذين عادوهم أو اعتدوا على قبائلهم، وتناول الفصل الرابع التحريض والتهديد، حيث حرض الشعراء الملوك على الانتقام من أعداء قبائلهم، كما حرضوا قبائلهم وعشائرهم على الثأر لذويهم، كما هددوا أعداءهم وأعداء قبائلهم، وافتخروا من خلال ذلك بقوتهم وعزتهم،وربما جاء تهديدهم من خلال الرثاء. وفي الفصل الخامس تناولت الدراسة موضوع المديح الذي شمل مديح الاعجاب ومديح الشكر ومديح الاستعطاف للملوك و الرؤساء والأقرباء، ومديح التكسب .

أما الفصل السادس فقد تناول الشكوى والرثاء الشكوى الشخصية والقبلية ورثاء الأقارب والأصدقاء والنفس والرثاء التأملي، وأخيرا تناول الفصل السابع الحكمة والتأملات في المجال الديني والتأملي أو الأخلاقي والاجتماعي أوالاقتصادي والمعيشي. وفي الباب الثالث والأخير شمل الفصل الأول اللغة من حيث السهولة والوعوره والأجنبي، وصيغ التبليغ والواقعية،

والاستفهام والالتفات والتكرار والسرد القصصي والتأثر بالموروث والابتكار والمحاكاه. وتحدث الفصل الثاني عن التصوير الفني في شقيه بيئات التشبيه وروافده التي عكست تشبيهات البيئة البرية والبحرية والريفية والمدنية والإنسانية والنوئية. والشق الثاني الصورة الشعرية. أما الفصل الثالث والأخير فقد تناول الموسيقى الخارجية المتمثلة في الأوزان والقوافي، والموسيقى الداخلية المتجلية في التصريع والقافية الداخلية والترصيع والمصراع المغاير للروي والتشطير.

أما النتائج التي توصل إليها البحث، فمنها :

١- أظهر البحث أن ترتيب قبائل منطقة الخليج حسب أكثرية الشعراء الجاهليين فيها بكر وتميم، ثم عبد القيس ثم ضبه ثم الأزد. وعلى الرغم من تماثل القبليتين الأوليين من حيث العدد، حيث يزيد مجموع كل منهما عن ستين شاعرا، فإن بكر تترجح على تميم من ناحية شهرة الشعراء وغزارة إنتاجهم. ففيها شاعران من شعراء المعلقات هما طرفة بن العبد والحارث بن حلزه ولكل منهما ديوان مطبوع، إلى جانب آخرين منهم لهم دواوين مطبوعة. كعمرو بن قمئة والمتلمس والمسيب بن علس الضبعيان والمرقشان الأكبر والأصغر والخرنق بنت هفان. وهناك آخرون لهم عدة قصائد. كالحارث بن عباد وسعد بن مالك الذي يقول عنه الآمدي وله أشعار جياد في كتاب بني قيس ابن ثعلبة[1] ومقاس العائذي وعبد الله بن عنمه وهما مجاوران. وراشد اليشكري وعبد المسيح بن عسله.

أما تميم فأصحاب الدواوين الشعرية الخليجيين فيها سلامه بن جندل وأوس بن حجر والسليك بن السلكه[2]. وبعضهم لهم أكثر من قصيدة

(١) المؤتلف والمختلف ١٩٩.

(٢) ديوانه صغير جداً. لا يكاد يحسب في عداد الدواوين.

ومقطوعة منهم قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم والمخبل السعدي والأسود بن يعفر ودختنوس الدارمية، ويسلك الأصمعي ذؤيب بن كعب في عداد أوائل الشعراء الذين رويت لهم كلمة تبلغ ثلاثين بيتا(١) وأما عبد القيس فليس من أصحاب الدواوين فيها سوى المثقب العبدي إلا أن لبعضهم أكثر من قصيدة وأكثر من مقطوعة كالممزق العبدي ويزيد الشيء وجندل بن أشمط.

وأما ضبة فلعل أكثر المكثرين منهم ربيعة بن مقروم وأما الأزد، فمن مكثريهم مالك بن فهم وهناءه بن مالك وعدي بن وداع.

٢- يرجح الباحث أن الأحساء كانت معروفة بهذا الاسم منذ الجاهلية وليس كما زعم بعض الباحثين من أن القرامطة هم الذين أنشأوها(٢)، وآية ذلك تكرار اسمها (الحساء) على ألسنة الشعراء الجاهليين يقول عمرو بن قمئة(٣)

نزلوا من سويقة الماء ظهرا ... ثم راحوا للنعف نعف مطال

ثم كان الحساء منهم مصيفا ... ضاربات الخدور تحت الهوال

ويقول الحارث بن حلزه

إذ رفعنا الجمال من سعف البحر ... ين سيرا حتى نهاها الحساء

ويقول بشر بن أبي حازم

كأن حمولهم لما استقلوا ... نخيل محلم فيها انحناء

عفا منهن جزع عرينيات ... فصارة فالفوارع فالحساء

---

(١) الأوائل ٤٦٧.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ١١٢.

(٣) ديوانه ٤٢ -.

كما أن هناك ما يعرف باللغة الإحسائية التي كان يتكلم بها الجر هانيون على رأي بعض الدارسين[١] ويقول حمد بن صراي في موضع آخر من كتابه: كان سكان عمان على الأغلب من العرب الذين كانوا يستخدمون حروف المسند (اللغة الاحسائية) في نقوشهم[٢]. وهذا الباحث يتحدث عن منطقة الخليج العربي من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرنين الأول والثاني الميلادين وينقل في كتابه هذا تحت عنوان شمال شرق الجزيرة العربية (المنطقة الشرقية من السعودية) قول العلماء رينتز ومووليجان وجروهمان: كانت هذه المنطقة تعرف تقليديا باسم البحرين وعرفت أيضا بهجر والحساء (الاحساء)[٣].

٣- ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن بعض قبائل الخليج الجاهلية التي وصفها بعض الباحثين المعاصرين بالتوغل في البداوة وبخاصة قبيلة تميم الخليجية لم تكن كذلك بدليل وجود العديد من الحكام والحكماء فيها، لعل أولهم عمرو بن تميم وآخرهم في العصر الجاهلي الأقرع بن حابس.

٤- كان سكان منطقة الخليج في الجاهلية عندهم شيء من الاعتقاد فيما بعد الموت، كما يدل على ذلك بعض الآثار التي عثر عليها في قبورهم.

٥- أن نصارى الخليج كانوا على المذهب النسطوري الذي يرى أن مريم لم تلد إلاها، وإنما ولدت انسانا هو عبد صالح مخلوق خلقه الله تعالى،

---

(١) منطقة الخليج العربي ٦٤.

(٢) نفسه ٢٧٩.

(٣) نفسه ٣٩١.

وسماه ابنا على التبني لا على الولادة .

٦- أن من مظاهر تدين أهل الخليج الجاهليين تردد الحلف عندهم والتزامهم بما يحلفون عليه، وإن كان جائرا.

٧- ازدانت منطقة الخليج بعدد من الحنفاء منهم قس بن ساعده الأيادي، ووكيع بن سلمه، ورئاب الشني وغيرهم.

٨- تجاوز مجموع شعراء الخليج الجاهليين ثمانين ومائة شاعر، أكثرهم من بكر وتميم، وأقلهم من الأزد وضبة، فقد زاد شعراء بكر، عن الستين وكان لتميم مثل هذا العدد، وقارب شعراء عبد القيس أربعين شاعرا، وأربى شعراء ضبة على خمسة عشر شاعرا، كما زاد شعراء الأزد عن عشرة.

٩- أما من حيث الأغراض الشعرية فيأتي الوصف والفخر والحماسة على رأس القائمة، يليها العتاب والهجاء، فالشكوى والرثاء، ثم الحكمة والمديح، وأخيرا التحريض والتهديد، والنسيب .

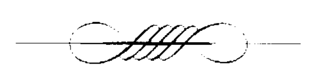
١٠- أن كثيراً من شعراء بني شن بن أفصى وبني عامر بن الحارث من عبد القيس، وبني شيبان وعجل من بكر، وبني عمرو بن تميم ومازن من تميم، عاشوا في الكويت وقطر، وأن كثيرا من شعراء محارب ابن عمرو وبني عامر بن الحارث من عبد القيس، وبني قيس بن ثعلبة وبني يشكر من بكر، وبني سعد ابن زيد مناه وبني دارم بن مالك من تميم، عاشوا في هجر وما حولها من قرى وبوادي، كما عاشوا في جزيرة أوال ومليحة. وأن كثيرا من شعراء نكرة بن لكيز وجذيمة بن عوف من عبد القيس، وبعض عشائر بكر وتغلب وتميم والأزد، عاشوا في القطيف وضواحيها وأن أكثر شعراء الأزد الخليجيين عاشوا في عمان.

١١- أن لغة شعرهم كانت في عمومها سهلة واضحة وجزلة قوية، لكنها لم تخل من الصعوبة والغرابة، فيما يتصل بوصف الأوابد والسلاح، كما شابتها ألفاظ أجنبية ودخيلة بحكم احتكاك شعراء المنطقة بألسن أعجمية ولا سيما اللسان الفارسي.

١٢- أن هؤلاء الشعراء قد أحسنوا استعمال الأدوات الفنية المؤثرة في شعرهم كالتشبيه الذي كان عمدة الصور الفنية في شعر الخليج الجاهلي، والذي تنوع فقصر وطال حتى جاء منه اللون القصصي الطويل، وكالتكرار الذي استعان به الشاعر الخليجي الجاهلي في الابانة والإفصاح وفي الترنيم والموسيقى، كما أجاد استعمال هذه الموسيقى في جانبيها الخارجي والداخلي.

١٣- أن تصويرهم الفني وصورهم الشعرية قد عبرا عن نفسياتهم ومشاعرهم الراضية والغاضبة كما صور شعرهم حياتهم الواقعية بكل أمانة وصدق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





أهم المصادر والمراجع

(أ)

- إبراهيم علي: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام.
جروس برس- لبنان ط١ ٢٠٠١م.
- أحمد الحوفي:
» » : تيارات ثقافية بين الفرس والعرب. دار نهضة مصر ط٣.
» » : الحياة العربية من الشعر الجاهلي .
نهضة مصر ط٥
- أحمد النجار: تطور الشعر القصصي في وصف الأوابد - دار النهضة العرب ية.
» » : شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام . دار النهضة العربية ١٩٧٩م
- أحمد عبد ربه: العقد الفريد - لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٣ ١٩٩٣م
- أحمد عطية: أدب البحر - دار المعارف بمصر.
- أحمد عبيد: شعراء عمان في الجاهلية وصدر الإسلام - المجتمع الثقافي - أبوظبي.
- أحمد القلشندي: صبح الأعشى - المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٣٣٧هـ.
» » : نهاية الارب في معرفة أنساب العرب - دار الكتب العلمية بيروت.
- أحمد الجاسم: شعر بني أسد في الجاهلية - دار الكنوز الأدبية.
أحمد العمري: الشعراء الحنفاء - دار المعارف ط ١ - ١٩٨١م.

أحمد النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية.
- أوس بن حجر ديوانه - دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٦
- أمين مدني: التاريخ العربي وجغرافيته - مطبعة المدني بالقاهرة.
- اسماعيل العالم: شعراء البحرين في العصر الجاهلي - رسالة ماجستير - جامعة القاهرة - ١٩٧٤م.
- إحسان النص: العصبية القبلية، وأثرها في الشعر الأموي - دار الفكر ط٢ ١٧٩٣م
- أحمد جابر (البلاذري) فتوح البلدان - مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة - ١٩٥٦م.

(ب و جـ)

- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام - د الهلال
- جرجس داوود: أديان العرب قبل الإسلام - ط٣ ١٤٢٥هـ

(ح - خ)

- الحارث بن حلزه: ديوانه - دار الكتاب العربي بيروت و دار القلم بيروت.
- حسين عطوان: بيئات الشعر الجاهلي - دار الجيل - بيروت - ط١ ١٤١٣هـ
- حمد صراي: منطقة الخليج العربي - المجمع الثقافي - أبوظبي.
- حبيب الطائي، أبو تمام: ديوان الحماسة - مكتبة محمد الكتبي بالأزهر ط٢
- حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبحرين قديما - منشورات دار اليمامة بالرياض ط١ ١٣٩٩
- الحسن الآمدي: المؤتلف والمختلف - مكتبة القدسي ط٢ ١٤٠٢هـ وطبعه

عيسى البابي الحلبي بالقاهرة - ١٣٨١هـ

(د ذ - ر ز)

- رضا الهاشمي: آثار الخليج والجزيرة العربية - جامعة بغداد ١٩٨٤
- ديزيره سقال: العرب في العصر الجاهلي - دار الصداقة العربية بيروت ط١ / ١٩٩٥
- سعيد الأفغاني: أسواق الغرب - دار الفكر -دمشق ط٢ ١٣٧٩هـ.
- سلامة بن جندل: ديوانه - دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ١٤٠٧هـ
- سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي - دار المعارف بمصر ط٢
- سليمان العسكر: التجارة والملاحة في الخليج العربي مطبعة المدني بالقاهرة.
- شوقي ضيف: العصر الجاهلي - دار المعارف بمصر ط٤.
- صادق مكي: ملامح ا لفكر الديني في الشعر الجاهلي - دار الفكر اللبناني - بيروت ط١ ١٩٩١م.

(ط ظ - ع - غ)

- طرفة بن العبد: ديوانه تحقيق على الجندي ، مكتبة الانجلو المصرية، وطبعه المكتبة الثقافية بيروت.
- عمرو بن قمئة: ديوانه، طبعة مهد المخطوطات بالجامعة العربية ١٣٨٥هـ وطبعة عالم الكتب بيروت ١٤١٧هـ.
- عادل الفريحات: الشعراء الجاهليون الأوائل دار المشرق ط١ ١٣٩٤.
- عبد الرحمن الوصيفي: شعر بني عامر حتى آخر العصر الأموي - نادي المدينة المنورة الأدبي.
- عبد الملك قريب: الأصمعيات - دار المعارف بمصر ط٣.

- عبد الحميد الراضي: شرح تحفة الخليل في العروض والقافية - مؤسسة الرسالة.
- علاء الدين شاهين: تاريخ الخليج والجزيرة العربية . دار السلاسل الكويتية ط١ ١٤١٨هـ.
- عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة - مكتبة الانجلو المصرية.
-عمرو بن مكثوم: ديوانه - تحقيق أيمن ميدان - نادي جدة الأدبي.
- عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - دار الكتاب اللبناني ١٩٦٦م.
- علي بن وشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده. دار الجيل بيروت.
- علي بن حزم: جمهرة أنساب العرب - دار المعارف بمصر .
- عبد الله البكري: معجم ما استعجم: عالم الكتب - بيروت.
- على الشمشاطي: الأنوار ومحاسن الأشعار - تحقيق صالح الغزاوي - منثورات وزارة الاعلام العراقية .
- عبد الحميد المعيني: شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي - رسالة ماجستير - جامعة القاهرة / ١٩٧٦م
- عبد الخالق الجنبي: هجر وقصباتها الثلاث - دار المحجة البيضاء - بيروت ط١ ١٤٢٥هـ

(ف - ق - ك - ل - م)

- قدري قلعجي: الخليج العربي- دار الكتاب العربي ١٣٨٥
- لويس شيخو: شعراء النصرانية - دار المشرق - بيروت ط٤
- محمد العقيلي: الخليج في العصور الإسلامية - دار الفكر اللبناني ط٢ ١٤٠٨هـ..

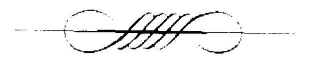
- محمد مهران: تاريخ العرب القديم - دار المعرفة الجامعية بمصر.
- محمد الملحم: تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري - نادي الشرقية الأدبي ١٤١٨ هـ
- محمد الهاشمي: طرفة بن العبد - عالم الكتب بيروت ١٩٥٧ .
- محمد حبيب: المحبر - المكتب التجاري - بيروت.
- محمد المرزباني: معجم الشعراء - دار الكتب العلمية بيروت - ١٤٠٣هـ
" " : أشعار النساء - عالم الكتب بيروت ط ١ ٤١٥هـ.
- محمد دريد: الاشتقاق: مكتبة الخانجي بمصر ١٣٧٨هـ.
- مجمود الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب - دار الكتب العلمية بيروت.
- المثقب العبدي: ديوانه - معهد المخطوطات العربية جامعة الدول العربية ١٣٩١.
- المسيب بن علس: ديوانه - تحقيق أنور أبو سويلم - جامعة مؤته ١٤١٥.
- المتلمس الضبعي: ديوانه - معهد المخطوطات بالجامعة العربية ١٣٩.
- مصطفى الشوري: الشعر الجاهلي، تفسير أسطوري - الشركة المصرية العالمية للنشر ط١ / ١٩٩٦م
- موهوب الجواليقي: المعرب - دار الكتب المصرية .
- المفضل الضبي: المفضليات - دار المعارف بمصر .
- مشترك: دائرة المعارف الاسلامية - دار الشعب بالقاهرة.
" : أيام العرب في الجاهلية - عيسى البابي الحلبي بمصر .
" : الأشباه والنظائر - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥م.

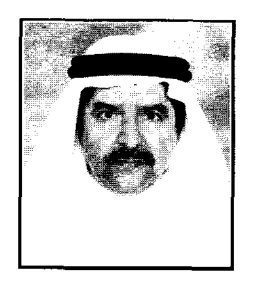
(ن هـ و ي)

- نصرت عبد الرحمن: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي - مكتبة الأقصى

عمان ١٩٧٦ .

- وهب روميه: الرحلة في القصيدة الجاهلية - مؤسسة الرسالة ط٣ ١٤٠٢ .
- الوليد البحتري: الحماسة- دار الكتاب العربي .
- ياقوت الحموي: معجم البلدان - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- يحيى الجبوري: الجاهلية - مطبعة المعارف - بغداد ١٣٨٨هـ.
- « « : الشعر الجاهلي - دار الغرب الإسلامي - بيروت .
- يحيى شامي: طرفة بن العبد ، حياته وشعره - دار الفكر العربي - بيروت .
- « « : النجوم في الشعر العربي القديم - دار الأفاق الجديدة - بيروت .





كتب أخرى للمؤلف

المؤلف حاصل على الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى، وحائز على وسام الملك عبد العزيز من الدرجة الأولى وله إلى جانب العديد من المقالات والأبحاث المنشورة الكتب التالية:

١- الحكمة في شعر بني عبد القيس.

٢- الاخوانيات في الشعر العباسي.

٣- الثقافة والخيال في شعر حافظ إبراهيم.

٤- شاعرات الخليج في العصرين الجاهلي والأموي.

٥- الشعر الإخواني في ضوء العلاقات الاجتماعية حتى نهاية العصر الأموي.

٦- عروة بن الورد، حياته وشعره.

٧- القيم الإنسانية في الشعر العربي.

٨- شعراء عبد القيس في الجاهلية والإسلام.

هذا الكتاب

إذا كانت منطقة الخليج العربي قد حظي أدبها بالعديد من الدراسات في العصر الحديث، فإنها لم تنل إلا النزر اليسير من ذلك في العصور القديمة. وهذا الكتاب يعني بالدراسة الموضوعية والفنية لشعر الخليج الجاهلي دراسة شاملة ومفصلة، وقد اعتمد مؤلفه لمعرفة شعراء الخليج الجاهليين على الحقيقة التاريخية والجغرافية واستنطاق الشعر، وصحح نسبة عدد كبير من الشعراء الجاهليين كانوا قد نسبوا إلى مناطق أخرى على غير أساس صحيح، منهم على سبيل المثال لا الحصر الحارث بن حلزة اليشكري وسلامه بن جندل السعدي وعمرو بن قمته البكري، وغيرهم كثير.

كما يثبت الكتاب العديد من النتائج التي المحت إليها خاتمته. والمعروف عن الشعر الجاهلي أنه يمثل الطور الأول والأساس للشعر العربي، بوصفه في الجاهلية أهم الفنون العربية وأكثرها رقيا ونضجا.

آمل أن يجد القاريء الكريم فيه ما يعكسه العنوان بصدق وجلاء.

والله الموفق،،،